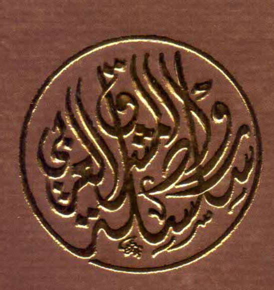


إسپانيا العربيّة (الأندلس)

إضاءات على تاريخها وفنونها

تأليف: برنهارد وإلن ويشو

ترجمة وبحث: صفاء كنج

مراجعة وتحرير: د. أحمد إيبش


منتدى إقرأ الثقافي
للكتب (كوردي - عربي - فارسي)
www.iqra.ahlamontada.com

روّاد المشرق العربي

إسپانيا العربيّة (الأندلُس)

إضاءات على تاريخها وفنونها

بِرنهارد وإلن ويشو

ترجمة وبحث

صفاء كنج

مراجعة وتحرير

د. أحمد إيبش

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.
DP102 .W12 2014

Whishaw, Bernhard, 1857-1914
إسبانيا العربية (الأندلس): إضاءات على تاريخها وفنونها / برنهارد وإلن ويشو؛ ترجمة وبحث: صفاء كنج؛ مراجعة وتحرير: أحمد إيبش.- ط. 1 .- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2014.
ص. ؛ سم.-(سلسلة رواد المشرق العربي)
تدمك: 4-174-17-9948-978
ترجمة كتاب: Arabic spain :sidelights on her history and art
1 . المسلمون في إسبانيا - تاريخ. 2. الفن الإسلامي - إسبانيا، 1516-711 . 3. إسبانيا - تاريخ، 1516-711 4. إشبيلية (إسبانيا) - تاريخ، 1516-711 أ. Whishaw Ellen M
ب. كنج، صفاء. ج. إيبش، أحمد. د. العنوان هـ. السلسلة.





دار الكتب الوطنية

الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

إسپانيـا العربيّـة
(الأندلُس)

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السّلسلة الثّقافيّة التّراثيّة تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشّرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثّقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشّريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نؤكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرّومان (كرحلة إيليوس غالوس، وتطواف البحر الإريثري). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطّمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشّام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثّقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثّمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطّباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة

هذا الكتاب

مـن دواعـي سـرورنا أن نقدّم للقـرّاء الكرام اليوم كتابـاً ثميناً هو الثّالـث في جعبتنا عن الأندلس، فردوس المسلمين المفقود، بعدما نشرنا كتاب آلبرت كالڤرت «غرناطة وقصـر الحمراء»، وخاتمة كتاب خوسيه أنطونيـو كوندِه «تاريخ حكم المسـلمين في إسپانيا». ومزيّة كتاب الزّوجين ويشو اليوم هي في تصدّيهما لتفاصيل جزئيّة فريدة في تاريخ الأندلس وعمارتها العربيّة وفنونها، ممّا لا نجد له مثيلاً لدى بقيّة الباحثين. وعلى الرّغـم من كون كتابهما غير جامع لتاريخ الأندلس بالإجمال ويقتصر على «إضاءات» فهو يبقى مصدراً قيّماً ذا شأن، لم يسبق لقرّاء العربيّة أن استمتعوا بمطالعته من قبل.

ولـد الكاتـب البريطانـي برنهـارد ويشـو Bernhard Whishaw عـام 1857، وفي السّـنة ذاتها ولدت في ديڤون إلِن ماري آبدي وليامـز Ellen Mary Abdy Williams وعملـت في صباها كاتبـة وصحفيّة. وفي عام 1885 تزوّجا واسـتمرّت إلِن في عملها بالصّحافة وتأليف الرّوايات، بينما تابع برنهارد عمله ككاتب ومصلح تربوي. ثم انتقل الزّوجان حوالي عام 1900 إلى إشبيلية في الأندلس، حيث كرّسـا نفسـيهما لدراسـة ثقافـة الأندلس وعمارتها، فأمضيا في ذلك ثماني سـنوات. وكانت حصيلة دراسـتهما بضعة دراسات، من بينها هذا الكتاب الذي نشر للمرّة الأولى عام 1912.

ومنها أيضاً كتاب عن مقتنيات الفخّار والدَّنتيل في متحف إشبيلية:

Illustrated descriptive account of the Museum of Andalucian pottery and lace at Seville, antique and modern, together with notes on pre –

Roman Seville and the lost city of Tharsis, London 1913.

كما كان برنهارد أصدر كتباً أخرى، أشهرها:

A Guide Book to Books, 1891 (with Edmund Beale).

توفي برنهارد سنة 1914 عن 57 عاماً، فانتقلت إلن للعيش بشكل نهائي في الأندلس حيث أسهمت في إنشاء متحف للثّقافة الأندلسيّة، وألّفت عنها عدّة كتب، مثل:

My Spanish Year (1914).

Atlantis in Andalucia: A Study of Folk Memory (1929).

كما نشرت بالإضافة إلى ذلك عدّة روايات، وتوفيت في إسپانيا سنة 1937 عن عمر يناهز 80 عاماً.

* * *

بُعيد وصولهما إلى إسپانيا، لاحظ المؤلفان أنّ بواكير الفنّ الإسلامي في إشبيلية كانت مختلفة بشكل غريب عن الفنّ في قرطبة. فسحرهما هذا الأمر، واستغرقا ثماني سنوات من الدّراسة المستفيضة في إشبيلية، مستفيدين من المصادر المتاحة في مكتبات المدينة، ليقدّما لقرّائهما هذا المؤلَّف عن تاريخ المسلمين في إسپانيا، الذي نُشر عام 1912.

وبالتّركيز على إشبيلية، قدّما سرداً زمنياً حول إسپانيا من الفتح الإسلامي عام 711 م وحتى حرب الاسترداد Reconquista في القرن الخامس عشر. ويبدأ الكتاب بتقييم الأوضاع إبّان حكم القوط، ويلي ذلك بحث للتّأثيرات المتعدّدة على ثقافة الأندلس وحضارتها، وكيف تمّ إثراء الفن والعمارة الرّومانيّة والقوطيّة على أيدي العرب اليمانيين والأقباط المصريين. ويختتم الكتاب بدراسة الأحداث التي أعقبت انحسار موجة الإسلام في إسپانيا، والتأثير المرئي العربي المستديم على وجه التاريخ الإسپاني.

وعلى الرّغم من أنّ أياً من المؤلّفين لم يكن بالأصل باحثاً في مضمار الدّراسات

الإسـلاميّة، فقد دفعهما اهتمامهما وعشقهما للتّاريخ والفنّ إلى تقديم ما يعدّانه «كثيراً مـن الإضـاءات لخصوصيّات مهمّة لم تجرِ دراسـتها بعد في سـياق تاريخ الأندلس». وكان لديهما وطيد الأمل بأنّ دراسـاتهما «سـتكون بمثابة منطلق لدرب شـائق وممتع للدّارسـين المهتمّيـن بالتّاريخ الإسـلامي الباكر، وفنون إسـپانيا المبكـرة في العصور الوسيطة».

❊ ❊ ❊

قامت بترجمة هذا الكتاب السّـيدة صفاء كنج، والواقع أنها أجادت في التّرجمة وضبط أغلـب أسـماء الأعلام والأماكـن والمسـمّيات الاعتباريّة الأخرى، وبذلت جهـداً طيباً في مراجعة النّصوص والاقتباسـات على مظانّها في المصادر العربيّة حسب الإمكان. وتابعت أنـا بـدوري تدقيق النّص والأسـماء، وضبطت مـا وقع من خلـل أثناء التّرجمـة وحتى من المؤلفين نفسهما. وقمت بضبط التّسميات الإسپانيّة بصورة أصحّ، على اعتبار أنّ منطوقها اللّفظي يختلف كثيراً عن الفرنسيّة والإنكليزيّة، وهذا ما سأبيّنه أدناه.

وفي الإجمال، هذا الكتاب إضافة قيّمة وممتعة لسلسلتنا الحاضرة، وكذلك لمكتبة الدّراسـات الأندلسـيّة التي ما برحت تتوسّـع يوماً بعـد يوم، ولا ريـب أنّ مهمّة لازمة وضروريـة مـا برحت تفرض علينا نفسـها الآن وعلـى الدّوام، ألا وهـي متابعة ترجمة كتاب كوندِه الأشهر: «تاريخ حكم العرب في الأندلس»

Historia de la Dominación de los Árabes en España

فعسى أن يقيّض لنا الله تعالى هذا الأمر في وقت غير بعيد.

❊ ❊ ❊

حول قواعد اللفظ الإسپانيّة

لا بـدّ لنا من الإشـارة إلـى أنّ ثمّة خصوصيـات تنفرد بها هذه اللغة عن سـواها، لا يسـتقيم لفظ أسـماء الأعـلام والأماكن إلّا بهـا. كحرف V الـذي يلفظ باءً بالقشـتاليّة

كقولهـم: «پور فابـور» por favor أو «برابو» bravo، ومـع ذلك فقد فضّلتُ في بعض الأحيـان الإبقـاء على حرف ڤ بدلاً من (ب) لأنّ الأخير يبقى لفظاً عامياً كما يطالعك في مدريد مثلاً اسم: غران بيا Gran Via (أحد أشهر شوارع العاصمة). ولذلك أكتب: دي لا پولڤورا بدلاً من پولبورا، وأونتيڤيروس بدلاً من أونتيبيروس. والمسألة على أيّ حال تبقى سـجالاً ما بين لهجات الكاسـتيّانو والآراغونيس والقَطلانو، والخوض فيها هنا أمرٌ لا طائل منه.

أمّـا حـرف H فهو في الإسـپانية يُكتـب ولا يُلفظ إطلاقـاً، مثل: آسـتا مانيانا hasta mañana. ولذلـك أكتب: لـوس إيدالغـوس Los Hidalgos، أوميناخِه Homenaje، لاس إرمانـاس Las Hermanas. ومن الخطأ أن نكتب بالعربيّة: هرناندز، هندوراس، هاڤانا (صوابها آبانا Havana).

وأمّا حرف S فهو يلفظ في الإسـپانية سـيناً بالمُطلق، وحتى قد يأتي مشـوباً بشـين كقولك: پاشكوال Pascual أو: ريوش كاتوليكوش. ولا يُلفظ زاياً أبداً مهما أتى بعده من حروف علّة فهو لا يأبه لها شروى نقير، كقولهم في اسم البرازيل: «براسيل»، وفي اسـم ملكة قشـتالة إيزابيل: «إيسـابيل». لكنني اضطررت لكتابة اسـمها كما هو شـائع بالعربيّة.

وغنـيّ عـن التّعريـف أنّ حـرف Z يلفـظ ثـاءً، كقولهـم: إيبيثـا Ibiza أو إرنانـدِث Hernández أو مِندوثـا Mendoza. ومثلـه حرف C إن أتى متبوعاً بحرفي العلّة e أو i كقولهم: ثِنترو centro، ثيوداد ciudad. وسـماعيّاً، قد يلفظ الحرف D مشوباً بذال في آخـر الكلمة، كقولهم: مَدريذ Madrid، غرانـاذا Granada، كورذوبا Cordoba. وقد تُلفظ الجيم اللّهويّة G غيناً، كقولهم: آراغون Aragón، پريغونتا pregunta.

وأمّـا حـرف X فهو من الأحرف غير النّظاميّة في اللغة الإسـپانيّة، ويمثّل دليلاً على أنّ المعايير اللّفظيّة فيها لا تنتظمها قواعد ثابتة. فكثيراً ما يلفظ هذا الحرف كالإنكليزية فـي وسـط الكلمـة، وخاصّـة إن تلاه حـرف سـاكن غيـر معتـلّ، مثـل: expedición إكسـپيديثيون. ولكن إن جاء في أول الكلمة (وهذا نادر وغير إسـپاني) فهو يلفظ سيناً،

مثل: xenofobia سينوفوبيا. ولكنه في اللهجة القطلانيّة ولهجة الباسك يلفظ شيناً، مثل: Xavi شافي. وهذا ما نراه في بعض لهجات أميركا اللاتينيّة وأميركا الوسطى، ولو أنّ لهجة المكسيك ترمي بهذه القاعدة عرض الحائط، فتلفظ اسمها Mexico «ميخيكو» كلفظ حرف J في الإسپانية. وكذلك في الأندلسيّة: خيريث Xerez، كيخوته Quixote.

وكذلك في الإسپانيّة إن جاء حرف X بين معتلّين فهو يُلفظ كالإنكليزيّة لكن بشكل مخفّف، كقولهم: exactamente.

ومن خصائص الإسپانية حرف ñ الذي يُلفظ (ني) كقولهم: España، واللام المثنّاة ll التي تلفظ ياءً مشدّدة مثل: lluvia يوبيا، doncella دونثيّا، وثنائية ch التي تلفظ (چ - تش)، مثل: chorizo چوريثو، Echeverria إچيبيريا.

أخيراً، فلفظ الحرفين G و J ما بين الجيم اللّهويّة والخاء أو الشّين، أمرٌ متشعّب ويتعذّر تفصيله هنا، ويمثّل إحدى أعسر المهارات اللفظيّة التي تواجه الطّلاب الأجانب عندما يشرعون بدراسة الإسپانيّة. هذا طبعاً ما عدا اختلاف اللفظ ما بين إسپانيا وأميركا اللاتينيّة. فالإسپان يسمّون لغتهم: كاستيّانو Castellano بينما يسمّيها أهل الأرجنتين: كاستيجانو. ويقول الإسپاني: يو سوي إسپانيول، بينما يقول الأرجنتيني: جو سوي آرختنتينو. وكثيراً ما يلفظ لديهم حرف C (المتبوع بحرفي العلّة i, e) سيناً بدل الثّاء، كالپرتغاليّة.

ومن شاء الاستزادة في أصول ضبط اللفظ الإسپاني بمنطوقه القشتالي، فخير مرجع هو:

Mariano Velázquez de la Cadena, Edward Gray, Juan L. Iribas: *A New Pronouncing Dictionary of the Spanish and English Languages*, D. Appleton, London, New York, 1900 – 1902.



أخيراً، من الممتع لنا الآن الانتقال من العمل على النّصوص الإسپانيّة إلى مضمار غيـر بعيد عنها، هو نشـر أعمال بعض الرّحّاليـن والملّاحين البرتغالييـن الذي ارتادوا منطقة الخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي في القرن السّـادس عشـر، ولعلّ نقطة البداية تكون بكتاب الملّاح دوارتِه باربوزا، فإلى لقاء قريب بإذن الله.

والحمد لله على ما وفّق وأعان.

جبيل، *15* ديسمبر *2013*

د. أحمد إيبش

* * *

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبيّة، يواجه القارئ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكّن مجامعنا اللغويّة من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1 - بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتّبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التّركيّة العثمانيّة القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسيّة، أمّا في الاسماء الإيطاليّة والإسپانيّة فأتركه: دي.

2 - الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سَلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويماثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسپانيّة كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يماثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويماثله في التّركيّة حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء: چِستر، فرانچيسكو، چيكو، بحرف (چ) فثمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّچ، شلونچ، پاچِة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في التّركيّة العثمانيّة والفارسيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويماثلها في الفرنسيّة والپرتغاليّة j والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والپولونيّة ż والچيكيّة ž.

3 – أمّا عقدة التّرجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعوديّة: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: ڨوڨل، وفي فلسطين: چوچل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعاد، چدعون، چَدُول، رامات چان (علماً أن גן هي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟ وكم أشعر بالغرابة عندما أقرأ: لقزس، قوديز، كِلوقز، قَلف. ومن مظاهر التّشويش الذي يفرضه الأمر أن بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بجيم شجريّة: جَلَنط Galant، كتالوج Catalogue جَندول Gondol.

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (في الوقت الحاضر) اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عرّبوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نَسِمَه بثلاث نقاط: (ڠ) تمييزاً له عن الغين العربيّة المُشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسومة برمز مميّز: وليكن بقلم المُسنَد الحِميَري اليماني، أو جيماً كنعانيّة، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأُردو. لكن متى ترانا نفعل؟! ولماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأن «اللّسانيّات التّيمانيّة» تحتمل الإقلاب بين الجيم المشبعة وهذه الجيم اللّهويّة، التي حافظت عليها القبطيّة بمصر كاليونانيّة γ المفتقرة إلى جيم مشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن أصل العربيّة الجنوبيّة القديمة، وما زالت في العبريّة والسّريانيّة كالجيم المصريّة.

الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما

في اسم: Guillaume (غيّوم). وكذلك حلّ الطّليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلّة e أو i، أما عندما يتبعه حرفٌ ساكن أو حرفا العلّة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطاليّة فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كييڤو).

وأمّا الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشّجريّة كالعربيّة ج، وأمّا اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گـ. وفي التّركيّة الحديثة بالأبجديّة اللاتينيّة جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصّصوا حرف g للجيم اللهويّة، كقولهم: gerçek (غِرچك)، وحرف c للجيم الشّجريّة، كقولهم: geceler (غِجلار)، Avcı (آوجى)، Cem (جم).

أمّا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجريّة أصلاً بل لهويّة فحسب، كما في: Gewehr (غِڤير)، وإن أرادوا رسم الاسماء العربيّة لقوا التّباريح، كقولهم في «جبل»: Dschebel، حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسپان، فحرف G له أحكام يطول شرحها، فالأصل في القشتاليّة أن يُلفظ جيماً لهويّة (غ)، وإن تلاه e أو i يلفظ خاءً، ولذا يضيفون u عند اللزوم كما في: Miguel ميغيل. ومن الناحية الصّوتيّة اللفظيّة ثمّة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسمعتُ بأذني في غرناطة مَن يلفظ اسم Aragón: «آراغون»، وليس آراغون. هذا عدا عن أنّ حرف G يلتبس لفظياً مع J الذي يُلفظ أيضاً خاءً مع كل حرف صوتي، كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكنّ التّعبير في العربيّة عن حرف الجيم اللهوي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) يمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكِموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقلة. ثم إنّ الجيم لا تصلح للتّعبير عن جميع الكلمات الأجنبيّة، وحتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، بُرتُجال،

بلجاريا، مجنطيس، إجريق، شيكاجو.. أم هل نسمّى البُرغُل مثلاً: بُرجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التّركيّة bulgur).

4 – ثمّة أسماء في اللغة الفرنسيّة تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أوGervais، ونظراً لانعدام وجود الكسرة المُمالة في العربيّة (كما هي في السّريانيّة والعبريّة مثلاً) فإنّ التباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربيّة. وفي المغرب العربي تشيع طريقة غير صحيحة البتّة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويز كولي (وهي أديبة ورحّالة فرنسيّة)، رغم أنّ اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدّي المنطوق الصّحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربيّة في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كتّاب العربيّة في العصر العبّاسي، نجد أنّ هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجميّة قد حلّوها على نحو أدقّ باستعمال ياء وهاء، كقولهم: سيبويه، خسرويه، خُمارويه، خالويه، نفطويه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللّغات الكنعانيّة باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: أرييه، موشيه. وهو قطعاً الحلّ الأمثل للمعضلة، وسنتّبعه فنكتب الأسماء الفرنسيّة: كوليه، رُنيه، غارنييه، جِرڤيه. والأسماء الإسپانيّة: خوسيه، پيكيه.

أمّا في الأسماء الإنكليزيّة، فرغم تشابه حرف a أو ثنائيّة ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مَدّتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غراي، Mabel: مايبل.

أمّا في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربيّة كسرة وهاء، كما في الاسم الإسپاني Condé كوندِه، أو Enrique إنريكِه، والألماني Porsche پورشِه، أو Pritzke پريتسكِه، والهولندي Goeje خوْيِّه، والپولوني Tyskie تيسكِه، والإيطالي Simone سيمونِه، أو Michele ميكيلِه.

5 – نصرّ في هذه السّلسلة على كتابة الأسماء الأجنبيّة كما ترد في لغاتها، لا كما تمّت قولبتها بالإنكليزيّة والفرنسيّة. فالأصح بالألمانيّة: مدينة لايپتسيك وليس

لايبزغ، زولنغِن وليس سولنجن، كولن وليس كولونيا، ڤِلهلم وليس وليَم، ريخارد وليس ريتشارد. ثم نكتب أميركا وليس أمْريكا، ڤارشاڤا وليس وارسو، پراغا (پراها) وليس براغ، بيجينغ وليس پكين. وفي الپرتغاليّة الأصح لفظ: كريشتيانو، كوشتا، جوزيه، جُواو. ولكنّ ثمّة أسماءً رسخت بشكل مغلوط في الأذن العربيّة مثل: برشلونة (وصوابها بالقطلانيّة: بارثيلونا)، دون كيشوت (وصوابه بالقشتاليّة: دون كيخوتِه)، باريز أو باريس (وصوابها بالفرنسيّة: پاري)، لويس (لوي)، ملك القدس جاي أوف لوزجنان (غي دى لوزينيان)، وليَم الصُّوري (غِيّوم)، برج إيفِل (وصوابه: آيفِل).

لكن أعجب ما أسمعه هنا في لبنان، أنّ أحفاد كنعان العاشقين للفرنسيّة يصرّون على لفظ الكنى الأرمنيّة المنتهية جميعها بلاحقة: ian بلفظ فرنسي فيه غُنّة، كما لو كانوا يلفظون اسم Evian أو Christian، حتى لم يسلم من ذلك الاسم التّركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسي ابن فرنسيّ، علماً أنّ ثمّة شيئاً في التّركيّة يسمّى: Yumuşak Ge أي الجيم الطريّة، تلفظ كمَدّة مكبوتة لا كغين، كقولك: Doğan دوآن، أو: Ağaç آآچ.

6 – حرف H يُكتب ولا يُنطق بجميع اللغات اللاتينيّة: الإيطاليّة والإسپانيّة والپرتغاليّة والفرنسيّة والرّومانش والرّومانيّة، ما خلا حالة في الپرتغاليّة بآخر الكلمة مع الألف والواو فيُلفظ ياءً، مثل: Covilhã كوڤيليا، filha فيليا، ilha إيليا، Mourinho مورينيو. وعلى ذلك، فمن الخطأ لفظ الاسم الفرنسي Henri هنري بل أُنري، وهو بالإيطاليّة إنريكو، والإسپانيّة إنريكِه. وأيضاً ڤيكتور أوغو Victor Hugo وليس هيجو أو هيغو.

7 – وأغرب الأمثلة هي الأسماء العربيّة التي ترد على ألسنة المسلمين من غير العرب، فنستوردها بصيغ لفظيّة مختلفة دون انتباه لأصولها العربيّة، كالاسم التُّركي ميرڤَت Mervet الذي ترنّمت به الأسماع دون إدراك أنّ أصله: مَروَة. أو اسم فتاة الشّاشة التّركيّة Tuba الذي يُكتب لدينا بالعربيّة «توبا» على أنّه اسم تركي فريد، وما هو إلا اسم من القرآن الكريم: طوبَى.

وثمّـة كنية عريقة في لبنـان: جانْبَيْه، يطيب للنّاس أن يلفظوها بلكنة فرنسـيّة: Jean – Béy بينمـا الاسـم تركي قديـم يعود إلى عصـر المماليك، ولفظـه بالتّركيّة: – Can Bey (جان بيه)، ومعناه: رُوح أو نَّفْس. وكذلك اسم قَبَلان، وصوابه: Kaplan ومعناه بالتّركيّة: نمر.

والأعجـب من هذا وذاك اسـم سـوريا، الذي هو صيغـة هيلّينيّـة (إغريقيّة) Συρία (سُوريّا) مقولبة لاسم «آشور» الدّولة العظيمة في بلاد الرّافدين، سُمّيت بها بلاد الشّام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أنّ المضحك أنّ حرف الشّين لا يوجد في الألفباء اليونانيّة، فأُقلب سيناً ومـا زلنا إلـى اليوم نلفظه مغلوطـاً بعد 27 قرناً مـن الزّمان. وكذلـك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأن الهاء بآخر الكلمة ترد بالتّسميات العربيّة والكنعانيّة، لا اليونانيّة.

وللبحث صلة..

د. أحمد إيبش



ARABIC SPAIN:

SIDELIGHTS ON HER HISTORY AND ART

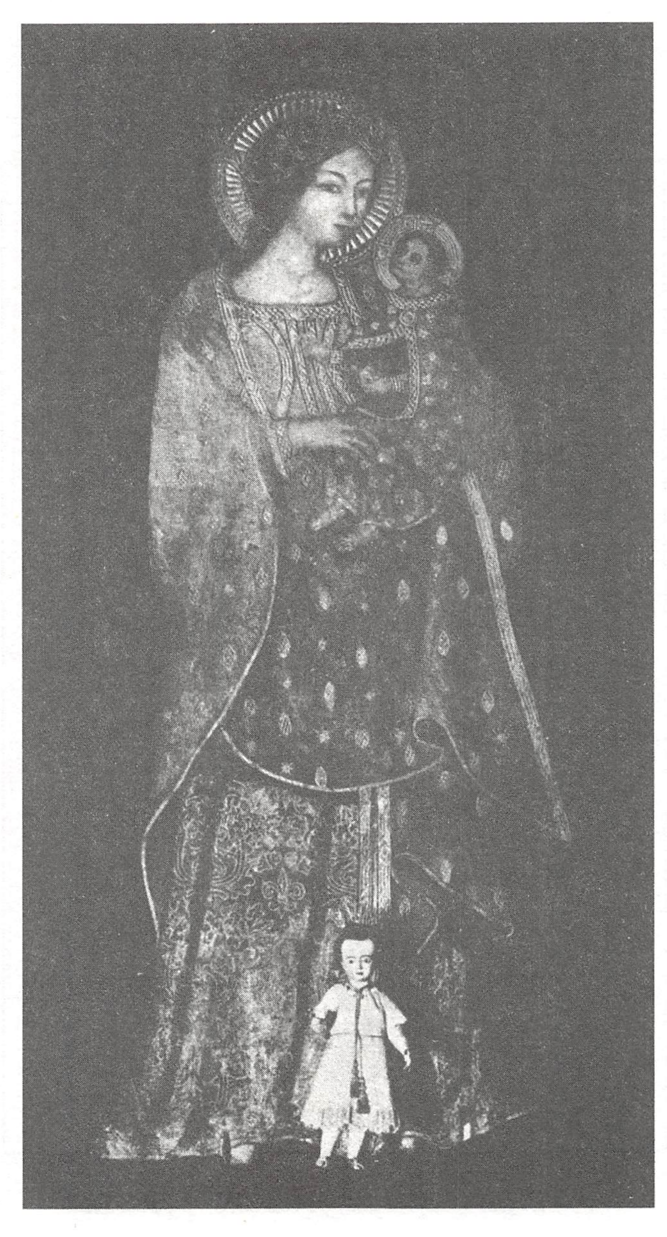
BY

BERNHARD AND ELLEN M. WHISHAW

WITH ILLUSTRATIONS

LONDON
SMITH, ELDER & CO., 15, WATERLOO PLACE
1912

الطّبعة الأولى للكتاب، دار سميث إلدر، لندن 1912



عذراء روكامادور، كنيسة سان لورنثو، إشبيلية. رسم جداري بارتفاع ثمانية أقدام، مُستعربي أُعيد ترميمه مع إضافات في حوالي القرن الخامس عشر مع الحفاظ على الخطوط الأساسية.

مقدّمة المؤلّفين

تاريخ الأندلس، أو إسپانيا تحت الحكم الإسلامي، هو تاريخٌ لم يُكتب بعد. فالمواد المتوفرة بكميات كبيرة، لا يزال معظمها في مخطوطات، وبالمقارنة، لم يُترجم سوى عدد قليل فحسب من النّصوص العربيـة القليلة التي تم تحويلها إلى نصوص مطبوعة إلـى أيّ مـن اللغات الأوروپية. وإلـى أن يتم إخراج كل هـذه الوثائق القيّمـة المتعلّقة بإسـپانيا والمخبّـأة حاليـاً ليس في مكتبـة الإسـكوريال Escorial فحسـب، وإنما في مكتبـات أوروپية أخـرى وكذلك في مصر والمغـرب، إلى أن يتم إخراجهـا إلى النّور ونشـرها، لا بـدّ أن يتم التّعامل مع كل ما يقال عن تلـك الفترة الأكثر أهمية من التّاريخ بوصفه مؤقتاً وقائماً إلى حدّ كبير على التّخمين والحَدس.

عندما أتينا للعيش في إسـپانيا قبل سـنوات، حاولنا، مثل أي شـخص آخر مهتم بالبلاد، أن نحصل على كتب قد تتضمّن معلومات حول نهضة الفن الإسلامي في إشبيلية وتطوّره. لكننـا سـرعان ما تكوّنت لدينا قناعة ببطلان الشّـهادات التي غالباً مـا يدلي بها علماء الآثار المحلّيـون، بـأنّ كل أثـر للفن العربـي الذي يعود إلى الفترة التي سـبقت حكـم الموحّدين Almohades اختفى تماماً من المدينة، في حين أن التّناقضات الصّارخة فيما تسمّيه جماعة الكتّاب ذاتها الفن «المدجّن» mudéjar سرعان ما تظهر بادية للعيان حتى لطلبة علم الآثار والهندسة المعمارية الإسلاميّة ذوي الذّهنية التّحليلية البسيطة[1].

(1) وردت في النّص الأصلي كلمة mudéjar المشتقة من الكلمة العربية «المدجّن». ويلاحظ المؤلفان أنها بحسب القاموس الأكاديمي تستخدم لوصف المسلمين الذين بقوا على دينهم

لقد نجح «المدجّنون» – إن صحّ أن نستخدم هذه الكلمة لوصفهم – وللأسف في ثني الطّلبة الجادّين عن القيام بأبحاث في هذا الجزء من الأندلس. فلن يهتم أي عالم آثار بإضاعة الوقت على سبيل المثال، لدراسة قصر إشبيلية Alcazar of Seville عندما يعلن المدجّنون أنه قصر يعود الى القرن الرّابع عشر بناه بِدرو ملك قشتالة مستعيناً بـ «معماريين مسلمين أفارقة من طُليطلة»[1]، في حين أنّ قدم المسلمين الأفارقة لم تطأها أصلاً. كما لم يفكر أيّ من الأكاديميين العرب بأنه يجدر أن يصرف بعض الوقت لدراسة النّقوش والزّخارف الكوفية والقرمطية والأفريقية التي تغطي كامل المبنى، منذ أن نشر أمادور دي لوس ريوس[2] دراسته عن القصر في عام 1874. فأيّة أهمية يمكن أن يوليها المستشرقون لكتابات قيل إنّ «معماريين مسلمين» قاموا بنقشها من أجل تشريف ملك نصراني، بعد قرنٍ من طرد المسلمين من المدينة التي عُثر فيها على هذه النّقوش؟ كان من الطّبيعي أن يغضّ الكتّاب المهتمّون بالفنّ الإسلامي النّظر عن إشبيلية خلال السّنوات الثّماني والثّلاثين التي أعقبت نزول لعنة إطلاق تسمية

بعد استسلام المنطقة التي يعيشون فيها كتابعين للملوك النّصارى. لكن القاموس لا يعطي لها شرحاً بوصفها كلمة ذات دلالة فنية.

(1) Moors، Moorish، وبالإسبانية Moros: وهي تسمية ذات أصل يوناني ومعناها أسود، أطلقها الرّومان على سكان غرب أفريقيا. وفي القرون الوسطى أطلقت على الشّعوب «السّمراء» في غرب وشمال أفريقيا سواء من البربر أو غيرهم الذين شاركوا مع العرب المسلمين القادمين من الشّرق في فتح جنوب إسبانيا واستيطانها، وأشهرهم القائد البربري طارق بن زياد. تم لاحقا تعميم استخدامها وأطلقت على كل مسلم في إسبانيا حتى لو كان إسباني الأصل وتحوّل عن المسيحية إلى الإسلام، ثم استخدمت وخصوصاً من الإسبان للدّلالة على كل مسلم. ولاحظ الباحثون في بداية القرن العشرين أن هذه التّسمية ليست لها قيمة إثنية، أي لا تدلّ على قوم أو شعب محدّد. وفي التّرجمة ستستخدم الكلمة بمعنى «المور» أو المسلمين الأفارقة أو المغاربة او بصورة أقل العرب، تبعاً للسّياق الذي ترد فيه. وينبغي عدم الخلط بين هذه الكلمة وكلمة موريسكي Morisco التي أطلقت على الإسبان الكاثوليك من أصل مسلم، وتحوّلت في وقت لاحق لتصبح ذات دلالة سلبيّة لتُطلق على من يدّعون اعتناق المسيحية في حين يمارسون الشّعائر الإسلاميّة في السّرّ. (م)

(2) خوسيه أمادور دي لوس ريوس José Amador de los Rios، (1818 – 1878)، كان مؤرخاً وعالم آثار إسبانياً متخصّصاً في الفن والأدب. (م)

«المدجّن» على إحدى أقدم وأكثر المباني الإسلاميّة أهمّية في إسپانيا.

وتستند النّظرية برمّتها إلى بعض النّقوش التي نسبت بناء القصر إلى پدرو الطّاغية[1]. وبعض هذه النّقوش هي على أي حال مضافة، ومن بينها واحد تتضح طبيعته تلك بحيث يصعب تصوّر كيف يمكن إغفال تلك الحقيقة من مجرد نظرة سريعة إليه. ويكفي أن نلاحظ أنه لا يصعب إدخال نقوش على حائط خارجي أو في زخرفة الجصّ ضمن غيرها باستخدام المواد ذاتها. في المقابل، لا توجد على الإطلاق أيّة سجلات، سواء في محفوظات القصر أو أيّة سجلات معاصرة أو شبه معاصرة أو أيّة وثائق أخرى، عن هذه القطعة من العمل المعماري العظيم وباهظ التّكاليف الذي يفترض أنه قام بتنفيذه حاكم كان يعاني على الدّوام من صعوبات مالية. علاوة على ذلك، هناك أدلّة موثّقة بأن ألفونسو الحادي عشر، والد پدرو، أقام لفترات طويلة في القصر؛ حيث أنّ سجلّاته تذكر في الحقيقة وجود سلّم ملتفٍّ في ذاك القصر، وقد تم بالتّحديد اكتشاف هذا السّلم ليس قبل فترة طويلة خلال القيام ببعض التّعديلات.

يبدو غريباً أن تكون لا تزال هناك ظلال من الشّك بشأن حجم مساهمة پدرو ملك قشتالة في بناء قصر إشبيلية. إن مقارنة الجناح المعروف حالياً باسم «قاعات كارلوس كينتو» Salones de Carlos Quinto بمحاريب بعض الكنائس الإشبيلية القديمة، والتي أضافها ذاك الملك، طبقاً للمعلومات المستقاة من الحوليّات، كتكفير عن خطاياه، تظهر أن قاعات القصر تلك، مثل محاريب الكنائس، تنتمي إلى فترة حكم پدرو نفسه، وربما قام مهندسه المعماري الخاص نفسه بتصميمها كلّها، نظراً للشّبه الكبير في الفكرة والطّراز. ولكن بما أننا سنناقش هذه النّقطة باستفاضة في مكان آخر، فإننا بالكاد نمرّ على ذكر هذه الوقائع هنا.

الحقيقة أنّ مسلمي إسپانيا لم تكن لديهم عمارةٌ أو فنّ خاصان بهم. فكل الفنون والحِرَف والعمارة التي يطلق عليها خطأ عمارة وفناً وحرفاً «أفريقيا مسلمة» هي عربية

---

(1) اسمه بالإسپانية: Pedro el Cruel.
تقدّمه المراجع العربية باسم بطرس الطّاغية (م)

فـي الأصل، نظـراً إلى أنّ عـرب إسـپانيا (وليس المسـلمون الأفارقة) اسـتمدّوها من اليونـان والرّومان والأقباط والفرس، ويمكن تتبّـع ازدهارها وأفولها خطوة خطوة في إسـپانيا، كما يمكن تتبّع تطورها في الشّـام ومصر اللتين كانت بالتّأكيد بعيدتين عن أيّ تاثير للأفارقة.

يصعـب فـي الحقيقـة أن نقـول إن كانت تسـمية «مسـلم أفريقـي» أو «مدجّن» هي أكثـر التّسـميات المغلوطة عبثيةً للفنون البيزنطية والقبطيـة التي تطورت خلال الحكم الإسـلامي لهذه البلاد. ولا يتم تناول الفن البيزنطي العربي الذي يشـكل مسجد قُرطُبة التّجسـيد الرّئيسـي له في إسپانيا، سـوى باقتضاب في هذا الكتاب، حيث تمّت مناقشة تاريخه وتطوره من قبل الكثير من الكتاب الأكفاء. لكننا نأمل أن يقتنع كل مهتم بتاريخ وفـن الأندلس، ممن يتحلّـى بما يكفي من الصّبر لقراءة وتقييـم الحقائق التي نعرضها هنا، بأن الفن «المدجّن» الذي يفترض أنّ الحرفيين «المسلمين الأفارقة» هم من قاموا بتنفيذه نزولاً عند أوامر أسـيادهم المسـيحيين هو، مع بعض الاسـتثناءات التي يسـهل التّعـرف عليها، من عمـل فنانين وحرفيين أقباط، أو تلامذتهم العرب أو المسـيحيين، وقد تم تنفيذه خلال الفترة الطّويلة المديدة عندما كان المسـيحيون القوط الجنوبيون، أو المولّـدون[1]، أو المتحـدّرون مـن أصـول مختلطة قوطيـة ويمنية عربية، ومسـلمو القبائل اليمنية، يعيشـون جنباً إلى جنب بسلام وودّ، في ظل حكم المولّدين أو الأمراء اليمانيين الذين سـكنوا في قصر إشـبيلية - المدينة الشّرقية التي يجد من يعبر شوارعها الضّيقة عند كل مفرق بقايا الزّخارف النّباتية التي كان يعشقها المسلمون الذين حكموا تلك البلاد في النّصف الأخير من القرن الثّاني عشر، وتفوّق فنهم على الفن المسيحي المصري الخالص والسّابق عليه، وازدهر هنا في ظلّ حكم العرب اليمانيين.

لـم يمضِ وقت طويـل على وصولنا إلى إسـپانيا حتى لاحظنا أنّ (ما يسـمّى) الفنّ الإسـلامي العائد إلى الفترات الأولى في إشـبيلية، كان مختلفاً بصورة لافت عن الفن

(1) Muwallads، المولّدون، هم المسلمون أبناء سكان إسپانيا والپرتغال إبّان العصور الوسطى الذين اعتنقوا الاسلام بعد الفتح الإسلامي وعاشوا في الأندلس.

الإسـلامي الأول فـي قُرطُبـة. لم نجد أحداً قادراً على أن يشـرح لنا سـبب ذلك، ولقد تطلب الأمر ثماني سـنوات من الدّراسـة لنتوصّل إلى الاستنتاجات المطروحة في هذا الكتاب. ورغم الإعاقة التي واجهناها بسبب جهلنا باللغة العربية، فقد تمكنا مع ذلك، كما نعتقد، من تسـليط الضّوء على فترة غير مكتشـفة من تاريخ إسـپانيا، ونأمل أن يتم قبول دراسـاتنا بوصفها علامات تشـير إلى طريق مليء بالمحطـات المبهرة للمهتمّين بدراسة الفترة الأولى من التّاريخ الإسلامي والفترة الأولى من فن القرون الوسطى في إسپانيا.

ومـن بين الصّعوبات الكثيرة التي واجهناها كانت تهجئة الأسـماء العربية، لأن كل مترجـم كان يعتمد نهجاً خاصـاً به في هذا المجال. وبعد الكثير مـن التّمعّن، قرّرنا أنه مـن الأفضل أن نعتمد التّهجئة الأكثر تداولاً للأسـماء والشّـائعة في القصص الشّـعبية التي تروى عن مسلمي إسپانيا، طالما أنّ كتابنا موجّه في الأساس الى القارىء العادي وليـس إلـى الأكاديميين، رغم أنه بالنّسـبة لأولئك الذيـن يتقنون بعض مبـادىء اللغة العربية، تبقى التّهجئة خاطئة. لقد اضطررنا للإشارة بصورة متكرّرة إلى الأسماء القبلية والعائلية خلال مناقشـاتنا، والأسـماء العربية هي في أحسـن الأحوال غريبة ولا يسهل التّعرف عليها بالنّسـبة للقارىء العادي، لذلك شـعرنا أنّ تبسيط التّسميات كلما أمكن أهم من اعتماد ما يمكن ان يكون في أحسـن الأحوال تهجئة صحيحة نسـبياً فحسـب. وللسّبب عينه، ومع أننا بالطّبع مدركون أنّ الإسلام كان منقسماً إلى عدّة مذاهب، فقد حاولنـا تجنّـب الإرباك من خلال تجنـب التّطرّق إلى المذاهـب الصّغيرة، ومن خلال تجميع مسلمي إسـپانيا بصورة عامة ضمن المذهبين الرّئيسيين: الشّيعة والسُّنّة. فنحن نعتقـد، مـع عدد قليـل من الاسـتثناءات أو حتى دون اسـتثناء، أنّ كل العـرب اليمنيين فـي إسـپانيا كانـوا من الشّـيعة[1]، في حيـن أن كل العـرب المُضَريّين كانوا من السُّـنّة. قـد يكـون من الخطأ تقسـيم العرب إلى قسـمين بهـذه الطّريقة، ولكن مـن الضّروري بالنّسـبة لدراستنا أن نحدّد الطّرفين الرّئيسيين اللذين كانت عداوتهما المستمرّة مفتاحاً

(1) تعميم غير صحيح على الإطلاق، ينمّ عن ضعف في معرفة تاريخ الأندلس. (أحمد)

لفهم تاريخ الأندلس[1]. وهكذا صنّفنا ضمن الشّيعة كل من أعلنوا ولاءهم للخلفاء العبّاسيين[2] والفاطميين الحاكمين في الشّرق، وضمن السُّنّة كل أولئك الذين - من غير البربر والأفارقة - ناصبوا الشّيعة العداء في أيّة فترة من الفترات التي نتولّى دراستها. لم يكن هدفنا إعطاء تفاصيل بشأن الخلافات الدّينية التي قسمت المسلمين، بقدر ما كان الهدف أن نظهر أنّ مسلمي الأندلس كانوا ينقسمون إلى فرقتين كبيرتين، بينهما عداء على أساس الانتماء القبلي والدّين، والأثر الذي تركته هذه العداوة على التّاريخ والفنّ في الدّويلات التي كانت موطناً للعرب الشّيعة من أصول يمانيّة.

لم ينقل وجهة النّظر هذه أي من المترجمين من العربية في أوائل القرن التّاسع عشر. ولكن عندما نفكر في العمل الذي قام به هؤلاء الرّجال، وخوضهم الجريء في حقبة من التّاريخ الأوروبي لم يتطرّق لها أحد من قبل، فإن ما يثير إعجابنا، ليس ما تم أغفاله أو الأخطاء التي وقع فيها هؤلاء المترجمون، وإنما ما أنجزوه. لقد كتب زيبولد[3] على سبيل المثال مع توفر المصادر العربية لديه، بصورة تثير الشّفقة عن «الأوقات العصيبة لغزيري[4]، وكونده[5]، وغايانغوس[6]». ولكن من بين كل الأعمال

---

(1) يستخدم المؤلفان عبارة إسبانيا المسلمة Moslem Spain تكراراً للدّلالة على الأندلس. (م)

(2) يظنّ المؤلفان كمّا صرّحا في كتابهما أنّ الخلافة العبّاسيّة كانت على مذهب الإماميّة، وهذا بالطبع خطأ، فقد كانت خلافة سُنّيّة المذهب بلا مراء. ويبدو أنّ اتّخاذها شعار السّواد منذ تأسيسها على يديّ أبي جعفر المنصور، وطلبها لثأر الحُسين من بني أميّة قد جعلهما يظنّان ذلك. (أحمد)

(3) المستشرق الألماني Christian Friedrich Seybold، كريستيان فريدريش زيبولد، 1859 - 1921. (م)

(4) Miguel Casiri ميخائيل الغَزيري (1710 - 1791) ورد أنه راهب ماروني من حلب، وأنه ولد في طرابلس في شمال لبنان. درس في روما وسافر إلى إسبانيا في منتصف القرن الثّامن عشر وعمل مترجماً في المكتبة الملكية في مدريد ثم أصبح أمين مكتبة قصر الإسكوريال. (م)

(5) المستشرق José Antonio Conde y García خوسيه انطونيو كوندِه (1766 - 1820). من أوائل المستشرقين الإسبان. (م)

(6) الباحث والمستشرق الإسباني Pascual de Gayangos y Arce، باسكوال دي غايانغوس (1809 - 1897)، من مواليد إشبيلية. (م)

الوارد ذكرها في مقاله عن الأندلس في «الموسوعة الإسلاميّة» *The Encyclopedia of Islam*، نرى أن أياً من المستشرقين ما عدا كوندِه ودوزي[1] وغايانغوس، لم يسعَ حتى إلى تقديم عرض متصل لتاريخ المسلمين الإسپان من أجل فائدة القارىء غير القادر على دراسة ذاك التّاريخ في المصادر العربية الأصلية. هناك، وهذا صحيح، دراسات مجزأة للسّلالات والحقب التّاريخية والأحداث، ولكن حتى هذه الدّراسات نفسها ليست كثيرة. لكن الطّالب المهتم بالتّاريخ الإسپاني العربي منذ الغزوة الأولى في عام 711 وحتى سقوط إشبيلية في عام 1248، ليس لديه من مرجع سوى كتّاب تلك «الأوقات العصيبة» الذين تفرغوا للعمل الضّخم القائم على جمع وترجمة الكتابات العربية المبعثرة عن تلك الحقبة.

نحن، اللذان أمضينا ساعات طوال محاولين العثور على كتابات تنسجم وقائعها في سرد بعض هذه الأحداث وتكوين فكرة عن الأسباب الكامنة وراءها، لدينا أسباب تجعلنا ننظر باحترام إلى العمل الذي قام به هؤلاء المؤرّخون الأوائل: وعلى الرّغم من أنه لم يكن لدينا من مفرّ سوى أن نستنتج أنهم جميعهم ارتكبوا العديد من الأخطاء ولم يراعوا الدّقة، فإنّ مثل هذه الهفوات قلّما تؤثر على قيمة عملهم بالنّسبة للقارىء الذي يجهل العربية. وربما من الممكن أنه في حالتنا الخاصة، مكّنتنا نواقصنا، على الرّغم من العديد من الأخطاء التّفصيلية، من عرض جانب من تاريخ الأندلس غفل عنه الباحثون الذين كرسوا أنفسهم لشرح النّصوص العربية التي كانوا لقربهم الشّديد منها غير قادرين على رؤيها من منظور موضوعي.

يبدو أنّ مؤرّخي القرن التّاسع عشر لم يعطوا أيّة أهمية للانحياز الحتمي للكتّاب العرب، رغم أن ذلك يكتسي أهمية قصوى للكشف عن الوقائع؛ كيف، على سبيل المثال، كان يمكن لابن حيّان[2]، المُضَري السُّنّي، أن يكتب بطريقة موضوعية عن

---

(1) المستشرق الهولندي من أصل فرنسي Reinhart Pieter Anne Dozy، راينهارت پيتر آن دوزي (1820 – 1883). (م)

(2) ابن حيّان القرطبي (أبو مروان)، Abu Marwán Hayyán Ibn Jalaf Ibn Hayyan al – Qur-tubi، (987 – 1075) كان مؤرخاً أندلسياً. ولد في قرطبة. (م)

الـدّور التّاريخـي الذي لعبه أعداؤه الدّينيـون والقبليون، العرب الشّـيعة المنتمون إلى قبائـل يمانية؟ لقد كتب تاريخ إسـپانيا كمـا رآه في قُرطُبة المكان الأكثر أهمية بالنّسبة للرّجـال الذين يشـبهونه في انتمائهم الدّينـي والقبلي. لقد كانت الحـرب الأهلية التي استـمرّت لسـنوات طويلـة خـلال القرن التّاسـع بالنّسـبة له، على سـبيل المثـال، فتنة قادها «مسـلمون فاسـقون» و«متمرّدون» و«قطّاع طرق». وكان طبيعياً أن يسـير أحمد المقّري[1]، المُضَري والسُّنّي مثل ابن حيّان، على خطاه وخطى غيره من الكتاب الذين ينتمون إلى الفكر نفسه، وبالطبع كانت وجهات نظرهـم تختلف تماماً عن وجهات نظر اليمانيين، هؤلاء «المسـلمون الفاسـقون» و«المتمرّدون»، الذيـن كانوا يكنّون لهـم كل الكره.

كما أنّ روايات المقّري تناقض نفسـها بشـكل ظاهر. فقد كان نهجه يقوم على نقل روايات عن الأحداث نفسها كما يجدها لدى كتّاب مختلفين، دون أيّة محاولة للتّوفيق بينها عندما تكون متناقضة، مكتفياً بإضافة: «كذا ذكر بعضهـم وهكذا كان. والله وحده العليم الخبير الذي أحاط بكل شيء علماً».

اعتمـد كوندِه، الذي نشـر كتابه «تاريخ حكم العرب في إسـپانيا»[2] في عام 1820، النّهـج نفسـه الذي اتبعه المقّـري، وإن كان قد جـاء بعده بقرنين مـن الزّمن. لقد جمع كل المـواد التي عثر عليها معاً دون أن يبذل أيّ جهد للتّوفيق بين الرّوايات المتضاربة، ولكـن المؤسـف بما يخـصّ مكانته العلميّة، أنه نادراً ما أشـار إلـى مراجعه، وبخلاف المقّـري لـم يحرص علـى إخلاء مسـؤوليته عما ينقله. توفـي كوندِه قبل أن تنشـر كل أعماله، وهكذا خلت من الملاحظات والتّصحيحات التي كان سـيضيفها بلا شـك لو أنه عاش. ولـم يلحظ غايانغوس على ما يبدو سبب الإرباك الكبير في سرد كوندِه، ودان

---

(1) أبو العبّاس أحمد بن محمّد المقّري التّلمساني المالكي الأشعري، Ahmad el – Makkari، (1591 – 1631). ولد في تلمسان. (م)

(2) كتاب بالغ الأهميّة في ثلاثة أجزاء نقوم بترجمته لهذه التّسلسلة، وعنوانه بالإسپانيّة:
Historia de la dominación de los Árabes en España.
وقد أصدرنا منه حتى الآن الجزء الثالث، وهو الأهم. (أحمد)

ما عدّه «جهلاً» و«إيماناً ضعيفاً» لدى مواطنه واعتبره لدى المقّري نزاهة في الغرض.

ولسوء الحظ، فإن عمل غايانغوس، المجتهد والدّؤوب ولكن الذي يخلو من أيّة لمحة من التّبصّر التّاريخي، لقي على الفور قبولاً في إنكلترا وإسپانيا بوصفه عملاً موثوقاً، وتبنّى مختلف الكتاب الذين اتبعوه موقفه النّقدي من المترجم السّابق، وظلوا يردّدونه بطريقة تدعو إلى الزّهَق، حتى جاء من وصف انتاج كوندِه بانه «كتاب ذو قيمة سردية كبيرة وإنما قيمته التّاريخية ضئيلة، ومصدر معظم الأخطاء الواردة في الأعمال اللاحقة». إن كان هناك ما ينقص أعمال كوندِه أكثر من أي شيء آخر، فهو القيمة السّردية. فاللغة الإسپانية غالباً ما تصبح ركيكة من خلال جهد المترجم للحفاظ على أساليب السّرد العربية. لكن كوندِه، على الأقل، لم يخطىء أبداً ويخلط ما بين العرب والأفارقة، كما فعل الكاتب الذي وصف عمله باستخدام الكلمات الواردة أعلاه[1].

وتكمن قيمة عمل كوندِه، كما علّمتنا التّجربة، في أنه اعتمد في كثير من الحالات على سرده للوقائع نقلاً عن مصادر يمانية، أو بعبارة أخرى عن مصادر شيعية، وعليه نحصل على نسخة مختلفة تماماً عن تلك التي كتبها خصومهم القبليون والدّينيون والسّياسيون، من المؤرّخين المُضَريين السُّنّة الذين لم يفعلوا غير أن ينقلوا وجهة نظر قُرطُبة. علاوة على ذلك، راجع كوندِه أعمال مؤرّخين لم يكن غايانغوس على اطّلاع عليهم لأنه لم يكن مسموحاً له العمل في مكتبة الإسكوريال. كانت في حوزة كوندِه مخطوطة واحدة على الأقل لم تكن لدى المقّري ولا لدى غايانغوس، والتي يؤكّد القائمون على المتحف البريطاني أنه لا توجد منها نسخة كاملة معروفة. المخطوطة وضعها المؤرّخ اليمني ابن أبي الفيّاض، والتي كان جزء منها ملحقاً بنسخة كوندِه

(1) لقد ميّز فرناندو الثّالث، ملك قشتالة، (1199 – 1252 م) بوضوح بين العرب والمور – القادمين من المغرب – وكذلك ابنه ألفونسو العاشر. لقد حارب الملكان المسيحيان طوال خمسين عاماً إلى جانب الأمراء اليمانيين ضد الموحّدين، أعداؤهم المشتركين. ولكن بعد القضاء على آخر الموحّدين (المور الحقيقيين) خلال النّصف الثّاني من القرن الثّالث عشر، بات الكتاب المسيحيون يطلقون على كل المسلمين الباقين في البلاد اسم الموروس *Moros*. وهذا ما أثار الكثير من الإرباك.

من «الأبّار»[1] Al Abbar. يشير كوندِه في متن عمله إلى تاريخ كتبه ابن أبي الفيّاض «تُرجم إلى العبريّة». ويستشهد سنيور پونس[2] في حديثه عن ابن أبي الفيّاض بقول دوزي[3] أنه تم اقتباس هذا الكاتب في كتاب القرطاس[4]. وهكذا فإن كتاب كوندِه الذي اعتبره غايانغوس «نسخة غير أمينة ومحوّرة عن القرطاس» قد يتضمّن مقاطع أخذها الكاتب الذي جاء قبله مباشرة عن المؤلف الأصلي.

لقد وجدنا مراراً وتكراراً، من خلال مقارنة الأسماء والتّواريخ وقبل كل شيء الصّلات القبلية، كما نقلها كوندِه، مع روايات عن الأحداث نفسها لمؤلفين آخرين، حيث لم ترد الأسماء القبلية، أنّ ذكر العلاقة القبلية يلقي الكثير من الضّوء على ما ظلّ غير مفهوم إلى أن أدركنا أنّ مُضَرياً كان يصف يمنياً، أو العكس.

لقد أغفل السُّنّي ابن حيّان ومؤرّخو قُرطُبة بشكل عام وقدر الإمكان، أي اعتراف بقوة وأهمية العناصر المعادية لفريقهم. الحقيقة أنه حتى القرن العاشر كانت قُرطُبة موحّدة، وهذا لا يعني دائماً بأي حال أنها كانت الأقوى بين الدّويلات الخمس التي كانت تنقسم إليها الأندلس. كانت الدّويلات الأربع الأخرى هي الأراضي التي أعيدت إلى أبناء غيطشة (ڤيتيتسا)[5] وثبتت ملكيتهم لها بأمر من الخليفة الوليد، و«بلاد ثيودومير» التي عرفت فيما بعد باسم مُرسية. في الوقت الذي كانت هذه الإمارات تعترف بشكل أو بآخر بالسّلطة الاسمية لقُرطُبة، فقد كانت تحيط بها من كل صوب وتشكل باستمرار

---

(1) المقصود المؤرّخ الأندلسي الشّهير ابن الأبّار القُضاعي صاحب كتاب: «الحُلّة السِّيَراء». (أحمد)

(2) F. Pons Boigues

(3) Cf. Pons., p. 138.

(4) القرطاس (The Kartas, Ibn Abi Zar') لابن أبي زرع الفاسي (المتوفي في حدود سنة 726) الشّيخ أبو الحسن علي بن محمّد بن أحمد بن عُمَر بن أبي زرع الفاسي، وعنوانه: «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» ويعرف بكتاب القرطاس. (م)

(5) Witiza (ڤيتيتسا)، ورد اسمه في كتاب ابن القُوطيّة القرطبي: غيطشة، وكان آخر ملوك القوط الغربيين، حكم اعتباراً من عام 694 م.

خطراً عليها. ولم تكن الحرب الأهلية التي انتهى معها القرن التّاسع، كما جاء في عرض ابن حيّان، اضطرابات سببها قادة ثائرون مشتتون يحارب كل منهم على حسابه الخاص، وإنما جهداً مجتمعاً بذلته الدّويلات الأندلسية للتّخلص من تلك السّيطرة. كانت طُليطلة في الشّمال ذات أغلبية مسيحية حتى سيطر عليها ألفونسو السّادس في القرن الحادي عشر، وشكلت باستمرار مصدراً للقلاقل بالنّسبة للأمويين حتى قبل اندلاع الحرب الأهلية في عام 886. وشكلت قشتيلة Cazlona (كاثلونا) وجيان مركزاً للصّراع الطّويل الذي خاضه عُمَر بن حفصون (وهو نصراني) من 886 وحتى تولّي عبد الرّحمن الثّالث الحكم في قُرطُبة. وتُركت مُرسية منذ بداية الحكم الإسلامي تحت حكم المسيحيين القوط، في حين كانت إشبيلية - حيث، وباعتراف ابن حيّان نفسه، حكم بنو حجّاج أبناء الأميرة سارة حفيدة غيطشة كالملوك - أكثر قوة وثراء من أيّ من الدّويلات الأخرى، بفضل التّعايش السّلمي بين القوط والعرب والذي كرّسه زواج الأميرة سارة تباعاً من اثنين من أشراف اليمن.

لا يزال سكان الأندلس - أي العامّة كما يسميهم كوندِه في تراجمه من العربية - وإلى حدّ كبير على ما كانوا عليه قبل ألف سنة. لقد جلب العرب اليمنيون كل تقاليدهم القبلية وأساليب عيشهم معهم عبر مصر إلى إسپانيا، مع الحرفيين والفنانين الأقباط الذين ارتبطوا بهم على ضفاف النّيل. ومن بين ما جلبوه التّقاليد وأساليب العيش المرتبطة بذكرى الازدهار المادي والحضارة التي عرفها اليمن عندما كان مركزاً عالمياً لتبادل الذّرة والنّبيذ والزّيت والكتّان الممتاز، وغيرها من المصنوعات، من سبائك الفضة والبرونز والحديد، التي كان يبادلها الفينيقيون مقابل الأحجار الكريمة والعاج وخشب الصّندل والبهارات والفلفل والقرفة والقطن التي كان يستوردها اليمنيون من الهند، إلى جانب البخور والمرّ واللّاذن أو صبغة الخشخاش وصبر الألوة والمرمر والعقيق اليماني ولآلىء مضيق هرمز، من جزيرة العرب نفسها.

نسمع القليل عن التّقدّم الذي حقّقته قُرطُبة قبل عهد عبد الرّحمن الثّالث. فقد بدأ عهدها المتألق مع القرن العاشر، عندما استعان حكّامها ولأول مرّة برجال دولة

يمنيين في مجالسهم. شهدت الأندلس في تلك الفترة ازدهاراً لم يعرفه أيّ مكان في أوروبا في العلوم والفنون والآداب؛ فشُيِّدت مبانٍ رائعة، وعرف النّاس رخاءً وفخامة في حياتهم بصورة لم يحلم بها سكان الشّمال. وتبوأت النّساء مكانة في المجتمع لم يصلنها في أيّ من البلدان المسيحية في ذاك الوقت، أو لقرون تلت. ازدهرت الزّراعة بصورة لم تشهدها إسپانيا في ظل الحكم المسيحي من قبل بفضل اعتماد وتطبيق نظام الرّيّ المصري. وازدهرت صناعة الخزف المطلي بالذّهب والزّجاج الجميل في إشبيلية ومُرسية، وحازت شهرة وبات عليها طلب في الخارج. زرعت مختلف أنواع الفاكهة وحُفظت من أجل الشّتاء. واستخدمت المواقد الموصولة بالأنابيب لتدفئة المنازل، وبات الصّابون يعتبر أحد أهم احتياجات الحياة. لقد عرفت إشبيلية معظم هذه المنتجات والتّجهيزات ووسائل الرّاحة الحضارية قبل أن يعرفها أهل قُرطُبة، وتفيد الدّلائل أنها استُقدمت من مصر عن طريق عرب اليمن، وتم تطويرها في ظل ما يمكن أن نسميه السّباق على التّحضر بين المسلمين الشّيعة والنّبلاء القوط الذين ارتبطوا بالمصاهرة، وزاد في اتحادهم عداؤهم المشترك للمُضَريين الذين سعوا بلا جدوى للسّيطرة على كل البلاد انطلاقاً من مركز الحكم في قُرطُبة.

اشتهرت مدينة قُرطُبة بقصورها ومسجدها وجسرها وخصوصاً بعلمائها وأدبائها وبفخامة بلاطها بصورة عامة في عهد عبد الرّحمن الثّالث وخلفائه، ولكن لم يُذكر شيء عن مراكز صناعية أو مشاغل حرفية فيها.

في المقابل، اشتهرت المدن والنّواحي التي عاش فيها العرب اليمنيون والأقباط والمولّدون والمسيحيون القوط بصناعاتها وزراعتها وهناك العديد من الكتب المخصّصة للزّراعة التي انتشرت في الفترات المزدهرة للخلافة[1].

يمكننا أن نضرب مثالاً على ذلك المَريّة التي تقول الحوليّات إنها تجاوزت كل

(1) نأمل أن نقدّم في كتاب لاحق في المستقبل معلومات وافية عن تلك الأماكن مع أسماء القبائل اليمانية التي استقرّت فيها، والمنتجات التي اشتهروا ولا يزالون في بعض الحالات يُشتهرون بها. (المؤلفان)

مـدن العالـم في فتـرة ما في صناعـة المنتجات الحريريـة من مختلف الأنـواع بما فيها الطّـرز[1] والدّيباج المطرز بالحرير أو المقصّب، والبروكار الدّمشـقي (الدَّمَقس)، إلى جانب كل أنواع الأواني الحديدية والنّحاسية والزّجاجية. اشتهرت جيان بدورها بتربية دود الحرير، وبيّاسـة بالزّعفران، ومُرسـية بالحرير والسّـجاد، وبلنسية ببساتين الفاكهة والحدائـق والأزهـار التي كانت تملأ كل أرجائها بحيث أطلق عليها المسـلمون اسـم «مطيب الأندلس»، وشـاطبة التي عرفت صناعة الورق قبـل أي مكان آخر في أوروبا. أمـا إشـبيلية، فـكان نبيذها وزيت زيتونهـا مصدراً رئيسـياً للثّراء في عهـد اليمنيين كما كانـا فـي عهد الرّومان وكما هما عليه اليوم، ولكن فـي حين كانت هذه المنتجات أهم صادراتهـا على مرّ العصـور، فقد امتلأت بكل فكاهة الأرض في سـهل الوادي الكبير الـذي يجـري فيه النّهر الكبير Guadalquivir، إلى درجة أنه سـار عليـه المثل بوصفه المكان الذي يمكن العثور فيه على «حليب العصافير» في حال طلبه أحدهم. وفي كل هذه المناطق، كان اليمنيون العرب والمسيحيون القوط يشكّلون الغالبية.

مـن المعـروف أنّ خلافـة قُرطُبـة انقسـمت فـي القرن الحادي عشـر إلـى عدد من الدّويـلات المسـتقلّة، كل منها يحكمهـا ملك صغير[2]، في حين سـعى أتباع الأمويين سُـدى لإعـادة الحكم إلى عرش قُرطُبـة. هذه هي الرّواية السُّـنّية للأحداث التي بدأت مع خلع هشام الثّاني، حفيد عبد الرّحمن الثّالث، عن العرش. أما المؤرّخون اليمنيون فيقدّمون رواية أخرى للأحداث. لقد واجهنا صعوبة في أن نحصل على رواية منسجمة من الاقتباسـات المجزّأة من الكتّاب الذين استند إليهم المؤرّخون لدى الفريق الآخر، والذيـن كانوا في الغالـب يغفلون ذكر اسـم قبيلتهم، لكننـا نجحنا، كما نأمل، في جمع مـا يكفـي من الأدلة لكـي نبيّن أن الكلمة الأخيـرة عن تلك الحقبة لـم تُقل بعد. حيث أنّ الرّوايـة اليمنيـة للأحداث – كما هي متوفرة اليوم فـي التّرجمات – تبيّن أن الرّجال

---

(1) ملابس مشغولة غنية بالزّخارف والكتابات المطرّزة على أطرافها، كانت مخصّصة في الفترات الأولى لأفراد العائلة الحاكمة.

(2) تُعرف هذه الفترة باسم «عهد ملوك الطّوائف». (م)

الذيـن كان ابن حيّان وتلامذته يصفونهم بأنهم ملوك صغار[1] أو «ملوك الطّوائف»، أو أشـخاص غير ذي قيمة، هم في الحقيقة حكّام وأمراء حكموا من خلال «الحجابة»[2] واتخذوا لقب «الحاجب» الذي يحكم باسـم هشـام الثّاني الذي اعترفوا به إماماً وولياً عليهـم حتـى سـنة 1057 – 1058. لم يكن هذا بأيّ شـكل من صنع خيـال المؤرّخين اليمنييـن، لأن لدينا أدلّة من النّقود التي سـكّها حجّاب مختلف الدّويلات اليمنية حتى وفاة الخليفة المعزول في قصر إشـبيلية كما يقال. انهارت الخلافة بسـبب المبالغة في العداء القبلي. لقد خلع العرب السّنة والبربر حفيد عبد الرّحمن الثّالث لأنه اعتمد على وزراء ومستشـارين يمنيين، وتنادى اليمنيـون لحماية الرّجل الذي قبلوا به أميراً عليهم لأن جدّه ولد من امرأة تنتسب إليهم من سكان البلاد من المولّدين.

ولا يمكـن أن نـرى تحامل ابن حيّان علـى الفريق اليمني أكثر ممّـا نجده في روايته لأحداث الحرب الأهلية الثّانية، حيث يصرّ مراراً وتكراراً على الدّوافع الدّنيئة لأولئك الذين اعترفوا «بصانع حصر من قلعة رباح» بوصفه الخليفة المخلوع والهارب (هشام المؤيّد بالله). حتى يبدو أنه كانت لديه شكوك بشـأن «النّصّاب المخادع» وفيما إذا لم يكن في نهاية الأمر الشّـخص الذي كان الأمراء والولاة في الدّويلات اليمنية يزعمون أنه هو. ولكن الاعتراف بذلك، كان يعني الاعتراف بأنه كان الخليفة الحقيقي للأندلس وإعادة هشـام خليفة على عرش قُرطُبة سيعني إعادة سلطة اليمنيين الذين انقذوا حياته وواظبوا على ولائهم له. وهكذا رفض السُّنّة في قُرطُبة الاعتراف بأنّ خليفتهم الشّرعي نجـا مـن محاولتي اغتيال، رغـم أن كل طامح للحكم جعلوه يعتلـي العرش كان يثبت أنـه أقـلّ كفاءة وأقلّ شـعبية ممن سـبقه، حتى في نهايـة المطاف اختار النّاس أنفسُـهم

---

(1) وردت العبارة في الإسپانية بمعنى ملوك الطّوائف *reyes de taifa*، وتمت ترجمتها إلى الإنكليزية بمعنى الملوك الصّغار، أو أشباه الملوك.
أما بالنّسبة للتّرجمة، فسيتم اعتماد «ملوك الطّوائف» لاحقاً. (م)

(2) الحجابة هي رتبة الوزارة، وكان الحاجب في الأندلس هو أرفع الوزراء شأناً عند الأمير. وتطوّرت سلطات الحاجب حتى بات يشرف على كل الأمور المدنية والعسكرية كما سيرد ذلك في عهد الحاجب المنصور. (م)

حاكماً أكّد ولاية الرّجل المسن فاقد الحيل المحتجز بأمان خلف جدران قصر إشبيلية حيث لا يستطيع أيٌّ من أعدائه الوصول إليه وإيذاءه، وهكذا عرفت قُرطُبة مجدّداً بضع سنوات من الازدهار النّسبي.

بعد وفاة هشام وحاميه، المعتضد بن عَبّاد، شكّل الأمراء اليمنيون تحالفاً برئاسة المُعتمِد بن عَبّاد أمير إشبيلية. ولم يكن دافع بن عَبّاد في حضّ رجال القبائل المؤيدين له على الانضمام إلى الحلف تعظيم شأنه، كما يؤكد المؤرّخون السُّنّة، حيث لا يوجد ما يشير إلى أنه اطلق في أي وقت على نفسه لقب ملك على الأمراء الذين تحالفوا معه. كان الهدف الرّئيسي للمُعتمِد بن عَبّاد خلال اثنين وعشرين عاماً من الحكم هو إقناع الدّويلات المسلمة بتوحيد جهود المقاومة في مواجهة تعديات المسيحيين على ثغورهم الشّمالية. لقد وافق على هذه السّياسة الأمراء الذين أعلنوا ولاءهم لهشام، ورفضها أولئك الذين تمرّدوا عليه. ولم يكن سقوط المُعتمِد، كما هو مسلّم به عموماً، بسبب تحالفه مع السّطان المرابط يوسف بن تاشفين، وإنما بسبب المكائد التي حاكها مُضَري عربي وبربري انضويا تحت راية الحلف اليمني تحت ستار الصّداقة، ولم يكفّا أبداً عن حبك الدّسائس حتى تحقّق هدفهما في إشعال الحرب بين الحكّام الشّيعة الأفارقة والأندلس.

لو أنّ المقّري ذكر أسماء قبائل الفاعلين الذين اضطلعوا بدور في الأحداث المأسوية التي شهدتها الأندلس بين 1086 و1091، لكانت أسباب الأحداث وتتابعها أكثر وضوحاً بكثير. ولكن على العكس من ذلك، يبدو أنه كان يواجه صعوبة في إخفاء العلاقة بين بني جُذام في سَرَقُسطة وبطليوس، وبني أبي عامر في بلنسية، وبني طاهر في مُرسية، وبني العامري في دانية، وبني أبي بكر في ولبة ولبلة، وغيرهم من الحكّام اليمنيين، مع المُعتمِد بن عَبّاد اللّخمي الذي ينتمي إلى قبيلة لَخْم مثل زوج الأميرة سارة، والذي تزوج امرأة من عائلة بني حجّاج الذين حكموا إشبيلية لأكثر من قرن نظراً لكونهم أحفاد الملوك القوط.

يبدو ذلك مختلفاً بصورة كبيرة عن الصّورة التي نقلها كتّاب القرن التّاسع عشر

بشأن «المدجّنين» وواقع العلاقات القبلية بين الدّويلات المسلمة في القرن الحادي عشر. ولكن المعالم الفنية التي ينسبها المدجّنون إلى پِدرو عديم الرّحمة، ملك إشبيلية، تشكّل صلة الوصل. ففي جميع المحافظات التي كانت مسكونة بأكثرية من العرب اليمنيين عندما كان المُعتمِد ملكاً على إشبيلية، يمكن بوضوح تمييز ما يسميه هؤلاء الكتّاب فناً مدجّناً وما نسميه نحن فناً يمنياً أو عربياً - قبطياً. وبما أنه لا يكفي التّأكيد بصورة جازمة بأنّ مدرسة الفن هذه تعود في الأندلس، ليس إلى القرن الرّابع عشر، وإنما إلى القرن الثّامن، فإن البديل الوحيد هو في وضع الأساس التّاريخي لاستنتاجاتنا قبل أن نخوض في مناقشة بقاء واستمرارية الفن الإسلامي في إشبيلية.

إن التّفصيل المحدّد الذي كان السّبب الرّئيسي في تضليل المدجّنين هو ما نسمية القوس أو العقد القبطي - العربي. فحدوة الفرس هي في رأيهم علامة على فن العمارة «الأفريقي المسلم»، أما القوس المدبّب أو المستدقّ فينتمي الى العمارة القُوطيّة. وهكذا يمكن تلخيص حجتهم بصورة مقتضبة؛ لم يكن هناك فن مسيحي في أراضي إشبيلية قبل عام 1248، لأنه لم يكن فيها مسيحيون بعد القرن الثّامن، وعليه فإنّ أي عقد مستدقّ يعثر عليه هنا لا بدّ أن يكون بني بعد حرب الاسترداد الإسپانية (لا ريكونكيستا) La Reconquista. إنّ أول ملك مسيحي ورد ذكره بوصفه قام ببناء كنيسة في إشبيلية (باستثناء ألفونسو العاشر، الذي وردت كنيسة سانتا آنا التي بناها في سجلاته) هو پِدرو الطّاغية، الذي أمره الأسقف على ما يبدو بأن يكفّر عن بعض خطاياه من خلال ترميم بعض المباني المقدّسة. والكنائس التي ذكرت باعتبارها ذات صلة به تحتوي على أقواس مستدقة. وعليه، فإن كلّ كنيسة فيها أقواس مستدقة شبيهة بالأقواس المبنية في تلك الكنائس، لا بدّ أن يكون بناها پِدرو ملك قشتالة[1].

يخفي منتقدو هذه المدرسة واقع أنّ بعض العقود المستدقّة في الكنائس التي أوردت

(1) پِدرو ملك قشتالة، ويسمى أحياناً «بطرس الطّاغية» Pedro el Cruel، كان ملك قشتالة من 1350 وحتى 1369. بعد مماته تم الاعتراف بمزاياه ويحث المؤرخون عن لقب جديد له فبات يسمّى «پِدرو القانوني». (م)

الحوليّـات أنها كانت مسـاجد في عام 1248 – والتي يقـال إنّ پدرو أعاد بناء بعضها – ليسـت شـبيهة بالأقواس القُوطيّة العائدة إلى القرن الرّابع عشـر فـي أي مكان آخر من العالم. وبما أنه لم يخطر في بال هؤلاء أنه قد تكون هناك علاقة ما بين الفن الإسلامي في إشـبيلية والفن الإسـلامي في مصر، فإنهم لم يلاحظوا أن الأقواس المسـتدقّة التي ينسبونها إلى پدرو هي في أغلب الأحيان متطابقة مع تلك التي بناها المهندسون القوط الذيـن عملـوا ابتداءً من القرن الثّامـن وما بعده في مصر لدى مسـلمين، مثل عمرو بن العاص وابن طولون والخلفاء الفاطميين. هنا أيضاً، علينا ان نغوص في تاريخ اليمانيين في إسـپانيا لنعرف لماذا اسـتخدموا مهندسين اقباطاً ليبنوا لهم في إشبيلية، في حين أنّ المُضَريين في قُرطُبة اتّبعوا الطّراز البيزنطي الدّمشقي.

وهكذا، قادنا بحثنا عن أصول الفنّ المسـمّى خطأ بالفن المدجّن إلى مصر. ولكن الحقيقة أنه لا تفصل سـوى خطوة واحدة بين الأندلس ومصر، لأنه، وكما يقول مسـيو فرانتـس Franz في مقال قرأه أمام المعهد المصـري: «خلال تلك الرّحلة (في جنوب إسـپانيا) لاحظنا الكثير من الأشياء التي تذكّرنا بمصر»، والمقال كله مليء بالمقارنات التي صعقته لشدّة تشابهها[1].

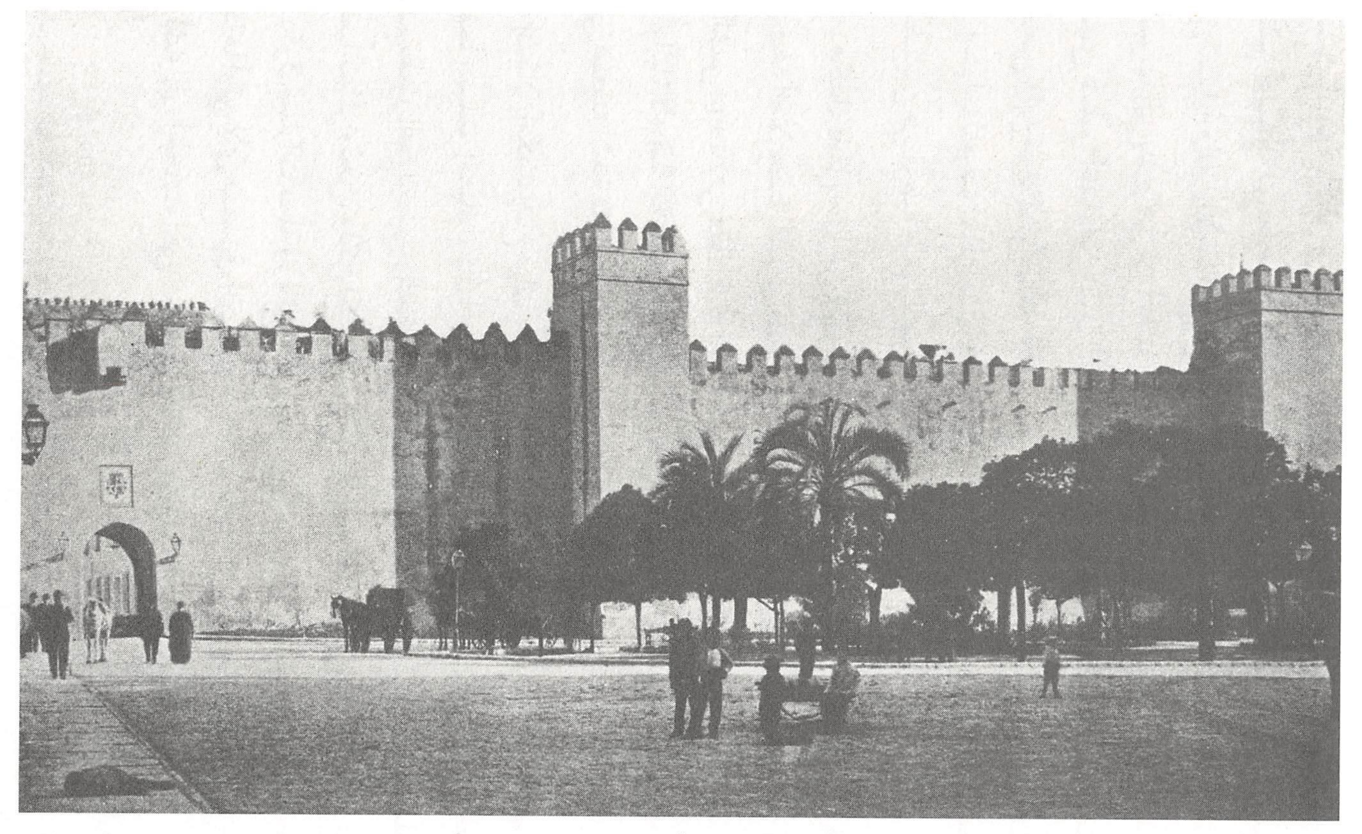
إن كان بإمكاننا إقناع قرّائنا بأنه، من بين الفريقين الكبيرين المتعاديين اللذين كان ينقسم إليهما مسـلمو إسـپانيا، كان أحدهما يتطلّع دائماً إلى مصر بحثاً عن الإلهام الفني، سـيبدو لهـم تطـوّر الفن اليمنـي والحضارة الظّاهـرة فيما كان يعرف قديماً باسـم مملكة إشـبيلية، حتمياً كما نراه نحن. ولكن لكي نضمن تكوين هذه القناعة، لا بدّ أن نقودهم عبر ما نخشى أن يكون مسارات مملّة ووقائع جافة، ومن بينها مراجع لا بدّ من ذكرها كما حصلنا عليها. وإذا ما أوتي لأيّ مستشرق أن يقرأ هذه «الإضاءات» التي وضعناها، فنقدّم له جزيل شكرنا إن أشار إلى أخطائنا، لكي نصحّحها إن تم إصدار الكتاب في طبعة ثانية.

برنهارد وإيلين ويشو

---

(1) *L'Andalousie et ses monuments arabes*, Cairo, 1801.

الأندلس وآثارها العربية، القاهرة، 1801.



أسوار القصر الملكي في إشبيلية؛ الكابيتول الرّوماني؛ قصر الأمراء القوط الغربيين: أعيد ترميمها وتجديد واجهتها خلال الحكم الإسلامي. بات القصر منذ استرداده عام 1248 وحتى يومنا الحاضر مكان الإقامة المفضل لملوك وملكات إسبانيا.

إسپانيا العربية

إضاءات على تاريخها وفنّها

الفصل الأول

المسيحية في ظل الإسلام

لـو اعتبرنا مـا كتبه بعض كاتبـي الحوليّات الكنسـية ومن اتّبعوهـم صحيحاً فذلك يعنـي أن الكنيسـة المسـيحية عانت مـع أتباعها في ظل الاحتلال الإسـلامي لإسـپانيا لفترة طويلة من القمع والعذاب المرير. ولكن الحقيقة، أنه حتى غزو الموحّدين، حين قـد تكون البلاد شـهدت قـدراً من الاضطهاد، تمتّع المسـيحيون بصـورة عامة باقصى قدر من التّسـامـح، مقابـل شـرط وحيد هو أن يدفعوا الجزية ويمتنعوا عن ازدراء ديانة الفاتحين.

تكفي نظرة سـريعة إلى مجلدات «إسـپانيا المقدّسة» *España Sagrada* ليتبيّن بما لا يدع مجالا للشّـك أن الهيكلية التّنظيمية لرجال الدّين المسـيحيين، وشـعائر العبادة المسـيحية، وحركات الرّهبنة المسيحية، اسـتمرّت عملياً دون أي تدخّل لما يربو على مئتي عام بعد الفتح الإسلامي. بعد ذلك كانت الحوليّات ضئيلة بالمقارنة، ولكن حتى في السّـنوات اللاحقة، كانت الأحداث المعزولة تشـير إلى اسـتمرار تمتّع المسيحيين بالحرّية. وعليه، وفي إشـارة إلى بعض الأمثلة ليس إلا، فقد وردت أسـماء ستة أساقفة مـن قُرطُبـة تولوا مهامّهـم بيـن 850 و988 م.، كما يذكـر المؤرّخ الإسـپاني مورغادو Alonso de Morgado قائمة بأسـماء 13 من أسـاقفة إشـبيلية، تعاقبوا على مناصبهم

حتى منتصف القرن الثّاني عشر[1]. ويذكر في الحوليّات أن مالقة كان لديها أسقف في عـام 865، وآخر في نهاية القرن الحادي عشـر. وورد ذكر أسـقف فـي ماردة في القرن التّاسع، وسبعة أساقفة في قلمرية، وتسعة في ڤيزو Viseu. ويشير نقش إلى وفاة أسقف في إستجة Écija في عام 931، ووردت أسـماء 11 أسـقفاً في طُليطلة تولوا الأسـقفية بين 713 و1077. وقد ذكر رودريك ملك طُليطلة أنّ أسـاقفة مدينة صيدونيا (شـذونة) ولبلـة Niebla ومارتشـينا، لجأوا إلى طُليطلة في عـام 1146 مع دخول الموحّدين إلى إسپانيا[2].

تفيد سـجلّات قُرطُبـة بأنّ سـت كنائـس كانت موجـودة داخـل المدينة وسـت أخرى خارجها، في منتصف القرن التّاسـع. وفي لشـبونة، تم تخصيص «أكثر من كنيسـة» للعبادة المسيحية[3]. لقد ذكر مورغادو نقشـاً يسـجل اكتمال بناء كنيسـة سـان لوكار لا مايور بين إشبيلية ولبلة في سنة 1214[4]، وهذا هو الأكثر أهمّية لأن الكتابة تثبت أن هذه الكنيسة، التي لا تزال كنيسة البلدة الصّغيرة، بُنيت خلال احتلال الموحّدين، في الوقت الذي يفترض فيه أن البلاد شـهدت قدراً من عدم التّسـامح. وهناك إشـارة مهمّة تتحدّث عن كنيسة في كتاب الإدريسي، عالـم الجغرافيا العربي، الذي وضع كتابه في القرن الثّاني عشر. وبما أن المقطع يتضمّن بعض التّفاصيل الملفتة التي لم نرها مقتبسة في أي مكان آخر، سنوردها كاملة[5].

تسـمّى الكنيسـة كنيسـة «الغراب» وهي تبعد سـبعة أميال عن «طـرف الغرب وهو طـرف خارج في البحـر الأعظم»[6] (المقصود هنا رأس سـان ڤينثنتِـه). يصف الكاتب الكنيسة على النّحو التّالي:

---

(1) *Prelados Sevillanos*, pp. 217 ff.

(2) *España Sagrada*, v. 336 – 84, 376 – 7, x. 112 – 4, 217, 272 – 87, 308, xi. 63 – 4, xiv. 76 – 90, 187, 317 – 21.

(3) *España Sagrada*, v. 327, x. 249 – 60, xiv. 187; cf. *Crónica general*, vii. 260 – 1.

(4) *Prelados Sevillanos*, p. 168.

(5) Idrisi, p. 17.

(6) البحر الأعظم هو المحيط الأطلسي. (م)

«هذه الكنيسة من عهد الرّوم إلى اليوم لم تتغيّر عن حالها، ولها أموال يُتصدّق بها عليها وكرامات يحملها الرّوم الواردون عليها، وهي في قرطيل خارج في البحر. وعلى رأس الكنيسة عشرة أغربة لا يعرف أحد فقدها ولا عهد زوالها، وقسّيسو الكنيسة يخبرون عن تلك الأغربة بغرائب يتهم المخبر بها ولا سبيل لأحد من المجتازين بها أن يخرج منها حتى يأكل من ضيافة الكنيسة ضريبة لازمة وسيرة دائمة لا ينتقلون عنها ولا يتحوّلون منها، ورثها الخلف عن السّلف وهو متعارف دائم والكنيسة في ذاتها كنيسة عامرة بالقسيسين والرّهبان وبها أموال مدّخرة وأحوال واسعة وأكثر هذه الأموال محبّسة عليها في أقطار الغرب وبلاده وينفق منها على الكنيسة وخدّامها وجمع من يلوذ بها مع ما يكرم به الأضياف الواردون على الكنيسة المذكورة قلّوا أم كثروا»[1].

بنيت هذه الكنيسة في حوالي منتصف القرن الثّامن، لكي تضم رُفات القديس ڤيثِنتِه بعد نقلها من بلنسية[2]. إن بقاء الكنيسة واستمرارها مع كل المباني والأراضي الشّاسعة التّابعة لها وأموال الوقف الطّائلة المخصّصة لها، هو بحد ذاته دليل قوي على التّسامح الذي تعامل به المسلمون مع مواطنيهم المسيحيين.

إن الشّعائر الدّينية القُوطيّة القديمة، التي كانت تمارَس عموماً في إسپانيا حتى العام[3] 1088، لا تزال إلى اليوم تعرف باسم الشّعائر المستعربة *Oficio mozarabe*. وتعني كلمة *mozarabe* «مسيحي كان يعيش سابقاً بين مسلمي *moros* إسپانيا، وكان يختلط بهم»[4][5]. وعليه، فإنّ اسم هذه الشّعائر بحد ذاته دليل على استمرار ممارستها عبر العصور الإسلاميّة. ولا تزال هذه الشّعائر تمارس في واحدة من كنائس كاتدرائيتي

---

(1) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الإدريسي، ص 250. (م)

(2) *España Sagrada*, viii, 187 – 9

(3) Mariana, Book IX., chapter xviii.

(4) *Dict. Acad.*, s. v.

(5) Mozarabs هم المتعرّبون أو المستعربون المسيحيون الذين عايشوا المسلمين في الأندلس، وتبنوا بعضا من تقاليد العرب ولغتهم. (م)

طُليطلة وشلمنقة، وكذلك كما نستنتج، في كنيسة لا باتريارا La Patriarca في بلنسية، التي لا يسمح للنّساء بدخولها دون تغطية رؤوسهن.

لقد ذكر أيالا[1]، أنه تم الإبقاء في طُليطلة على ست كنائس لممارسة الشّعائر المسيحية في فترة الفتح الإسلامي، واستمرّت الشّعائر المستعربة تمارس فيها حتى 1351. لقد سبق وذكرنا عدداً من الأساقفة الذين يتولّى كل واحد منهم إدارة أبرشية وعدد من الكنائس التّابعة له. ينقل فلوريث Florez عن سانت أولوخيو St. Eulogius, St. Eulogio قوله إن المسيحيين كانوا في عهده (القرن التّاسع) قادرين على بناء كنائس جديدة، وإن «كانت بسيطة الطّراز». ربما لم يكن في وسعهم بناء ما هو أفضل، أو أنهم لم يرغبوا في استعراض ثروتهم خوفاً من الضّرائب. يقول الكاتب نفسه إنّ مسيحيي قُرطُبة كانت لهم الحرية التّامة في ممارسة شعائرهم الدّينية وإنه كانت للمسيحيين كنائسهم ذات الأبراج والأجراس، وإن الكنيسة كانت تمارس مختلف شعائرها، وإنه «حتى في الفترات المضطربة»، استمرّ تنظيم الجنائز عبر الطّرقات[2].

لم يواصل القساوسة ممارسة مهامهم والكنائس إحياء شعائرها فحسب، بل ازدهر العديد من الأديرة كذلك. وذكرت الحوليّات ثمانية أديرة على مشارف قُرطُبة في القرن التّاسع وأسماء العديد من رؤساء الأديرة في ذلك الوقت ومن بينهم سامسون Sampson الذي أهدى في عام 875 جرساً لا يزال موجوداً في قُرطُبة، إلى كنيسة سان سياستيان. عاشت القديسة أوريا St. Aurea ثلاثين عاماً في دير قبل أن يتم إعدامها بقطع رأسها في إشبيلية في عام 856، والقديس تيودومير St. Theodomir شهيد آخر من شهداء إشبيلية كان عضوا في دير في قرمونة. وأمضى عبد الرّحمن، الملقب شنجول، ابن الحاجب المنصور بن أبي عامر، ليلة في دير يدعى دير شوس، قبيل اغتياله[3].

---

(1) *Cronica del Rey Don Pedro*, p. 63.

(2) Inter ipsos sine molestia fidei degimus,

(3) Mariana; Book VII. Chapter xvi. *España Sagrada*, ix. 294, x. 255 – 60; An – Nuwairi in Makkari, ii. 490.

إن الهستيريا الدّينية التي تفشّت في قُرطُبة في منتصف القرن التّاسع هي بلا شك السّبب الذي أتاح لنا الحصول على قدر أكبر من المعلومات حول وضع الكنيسة في تلك الفترة أكثر من أي وقت آخر في ظل الحكم الإسلامي. لقد نهل محرّر «إسپانيا المقدّسة» من الكتابات المسهبة التي تركها ألڤارو وأولوخيو وعمل بكد على استخراج كافة الوقائع وأضاف إليها وقائع من «حالات الاستشهاد» المختلفة ومن كتابات معاصرة أخرى، وألقى الكثير من الضّوء على ظروف الكنيسة ومكانة المسيحيين في تلك الفترة.

يتحدّث كتاب «إسپانيا المقدّسة»، (*España Sagrada, x. 265 – 6*) باستفاضة عن قانون صادر في عام 734 لتنظيم حكم المسيحيين في قلمرية. هناك شكوك في صحّة الوثيقة التي اقتُبس عنها هذا النّص، ولكن المحرّر أضاف واستشهد بمعطيات من مصادر أخرى ستظهر أن القوانين التي تم الاستشهاد بها كانت في الأساس شبيهة بتلك المطبقة في مناطق أخرى. بموجب قانون قلمرية هذا كان على المسيحيين أن يدفعوا جزية تفوق بمرتين الخراج الذي كان يؤخذ من المسلمين. كانت الكنائس تدفع خمسة وعشرين پيسوس pesos من الفضة، والأديرة خمسين، والأبرشيات مئة پيسوس. وكان على المسيحيين أن يقوموا «بإحصاء» مواطنيهم الذين يتعيّن عليهم أن يحترموا القوانين[1] بما يتماشى مع العادات المسيحية. كان يُمنع عليهم دخول المساجد أو ذمّ الرّسول تحت طائلة اعتناق الإسلام أو القتل. يقول فلوريث إنّ الإساءة إلى الرّسول «كانت أفظع جريمة يرتكبها شهداء تلك الفترة، وعليه وعلى الرّغم من أنهم كانوا يمجّدون دينهم لم يكن لذلك تأثير على القضاة إلى أن تصدر عنهم كلمات تسيء إلى ذكر محمّد أو ذرّيته». ورد في كتاب «التّاريخ العام»[2] *Crónica general* أنّ اثنين من «شهداء» تلك الفترة، روخيليو وسرڤيوديو، دخلا إلى مسجد قُرطُبة ولم يكتفيا «بالتّبشير بالعقيدة» وإنما راحا يناديان بذمّ «النّبي وما يقود أتباعَه إليه». وليس مفاجئاً أن نعلم أن مثل هذه التّصرّفات كلّفتهما حياتهما.

---

(1) “Que los mantega en Buena ley”. ومعناها: الحرص على تطبيق القانون.

(2) Vii. 322

وسيجد المهتمّون بتفشّي ظاهرة الاستشهاد هذه القصة كاملة مروية بالتّفصيل في كتاب دوزي «تاريخ المُور» Geschichte der Mauren[1]. لقد بذل الحكّام المسلمون والأكثر تعقلاً من المسيحيين قصارى جهدهم للحيلولة دون قيام هؤلاء المتعصبين بإلقاء أنفسهم إلى التّهلكة من خلال تعمُّد إهانة ديانة الفاتحين. وكان ريكافريد Recafred أسقف إشبيلية في حوالي الفترة بين 851 – 862، متميّزاً بحكمته في معالجة هذه القضايا. فقد منع المسيحيين من طلب الشّهادة عندما لم يسعَ حكّامهم إلى دفعهم إلى التّخلّي عن عقيدتهم، حتى أنه سجن «عدداً من الكهنة» الذين عصوا أوامره. لقد عيّنه عبد الرّحمن الثّاني «رئيس أساقفة الأندلس وهذا يجعله قادراً على أن يفعل الشّيء نفسه في قُرطُبة» حيث قام هناك بسجن عدد من المسيحيين وبينهم القديس أولوخيو وأسقف قُرطُبة، وذلك دون شك لكي يمنعهم من أن يأتوا بأفعال تؤذيهم[2].

وإذا صحّ ما ذكره مورغادو، فقد كان حكّام قُرطُبة المسلمون يعيّنون الأساقفة المسيحيين. يؤكد ذلك مقطع في كتاب «إسپانيا المقدّسة» (xi. 311) إلى حدّ أنه عندما قام ڤالنتيوس، أسقف قُرطُبة، بتعيين كاهن في تلك المدينة رغم مرور فترة قصيرة فقط على صدور قرار عن «مجلس الأساقفة» بحرمانه كنسياً، حصل الكونت (القومس) سرڤاندوس، سيد المسيحيين[3]، من «ملك المور» على مرسوم بتنحية ڤالنتيوس وتعيين أسقف آخر مكانه.

يبدو أن قومس المسيحيين كان شخصاً ذا نفوذ ويتمتّع بسلطات واسعة، وإن كنا لم نوفّق في العثور على مراجع تتحدّث عن وظائفه وصلاحياته المحدّدة. هناك رسالة من ألڤارو موجّهة إلى «اللّورد رومانو المعظّم، الأسمى بين عموم الكاثوليك»[4]. كان

---

(1) *Geschichte der Mauren*, Vol. I. Pp. 310 ff.

(2) Morgado, *op. Cit.* 221 – 2.

(3) The Count of Christians

(4) "Serenissimo omnium Catholicorum summo Domino meo Romano," *España Sagrada*, xi. 151.

رومانـو هذا، سـلف سـرڤاندوس Servandus في منصـب قومس المسـيحيين، طبيباً وصديقـاً لألڤارو. وتدلّ عبـارات التّبجيل والألقاب المبالغ بها التي يخاطبه بها ألڤارو على الرّغم من صداقتهما ومن أنه لم يعد يشـغل منصباً رسـمياً، على الأهمية القصوى لذلك المنصب. في هذه الرّسـالة، يطلب ألڤارو من رومانو التّدخّل في دعوى قضائية رفعهـا ضده بعض المسـيحيين، قائلاً إنّ رومانو قادر، لـو أراد، أن يدحض ما صبّه ابن القاضـي غراسيوسـو فـي أذني الحاكـم. كان فيليكس ابـن القاضي أحـد المدّعين في تلـك الدّعـوى التي لم يحكـم فيها بالطّبع والـده، وإلا لما اسـتدعى الأمر أن يخاطب القومـس سـرڤاندوس. ربما كانـت تحال قضايا بسـيطة أمام القاضي، أمـا تلك الأكثر أهميـة، فكانت تعـرض على القومس. وسـيبقى في ذاكرتنا أن المنصب نفسـه مذكور في تشـريعات قلمرية. ومـن بين أولئك القوامس ذكر الكتّاب الإسـپان أسـماء أربعة: رومانو، سـرڤاندوس، أدولفوس الذي أهدى كنيسـة سـان أسيسـلو فـي قُرطُبة مكتبة، وغيفريدوس وزوجته غيسيندِه Guisinde، الذي حكم بعد سرڤاندوس[1]. يقول أيالا، المؤرّخ المعاصر لپدرو ملك قشتالة، إن مسيحيي طُليطلة كان لديهم قاضٍ خاص بهم وتشريعاتهم الخاصة في ظل الحكم الإسلامي[2].

ولقـد وجدنا لدى الكتّاب العرب أمثلة عديدة على اسـتخدام لقب القومس. وأول من منحه الحاكم المسلم المنصب هو أرطباس ابن غيطشة[3] (انظر الصّفحة 57 طبعة الأصل). ويقول السّـنيور كوديرا نقلاً عن ابن حيّان إن أرطباس كان كبير المسـيحيين وجابي الجزية التي يدفعونها. وهذا بلا شـك يشـمل المسيحيين الذين يعيشون ضمن الأراضي التّابعة لأرطباس.

كان القومـس أبـو سـعيد ينتمـي إلـى عائلـة أرطبـاس. والقومـس الحجّـاج وابنـه سـرڤاندوس الذي فرّ في عام 889 من قُرطُبة وانضـم إلى عُمَر بن حفصون، هو، بالنّظر

---

(1) *España Sagrada*, x. 364.

(2) *Cronica del Rey Don Pedro*, p. 64.

(3) ورد اسمه كذلك أرطباش لدى المقّري. (م)

إلى اسم أبيه، من ذرّيّة الأميرة سارة، حفيدة غيطشة (انظر شجرة العائلة). كما يأتي المؤرّخ دوزي على ذكر ألفونسو، سلف ابن حفصون، الذي كان ابن خلدون يلقبه القومس.

وكلمة القومس العربية تأتي بلا شك من اللاتينية «*Comes*». الدّلائل التي تمكنا من جمعها ضئيلة، لكنها توحي بأن الحكّام العرب كانوا يمنحونه إلى كبار وجهاء العائلات المتحدرين من آخر ملك قوطي شرعي[1].

ورد ذكر قاضي المسيحيين في رسالة ألفارو المذكورة آنفاً، كما أورد المقّري اسماً آخر هو وليد بن خيران، بوصفه كان حاضراً في حفل استقبال رسمي أقامه الخليفة الحكم في عام 962 على شرف أوردونيو ملك ليون[2]. وفي النّص نفسه، ورد أن عبيد الله بن قاسم، أسقف قُرطُبة، تولّى هذا المنصب. ويلاحظ غايانغوس إنه لمن المثير للفضول أن يحمل أسقف، سواء كان عبيد الله أو قاسم، هذا الاسم العربي الأصيل، رغم أن ذلك، كما يقول، ليس المثال الوحيد من نوعه في تاريخ إسپانيا إبان الحكم الإسلامي[3].

كان هناك كذلك شخص يدعى «إكسيپتور» *Exceptor* يتولّى منصباً رسمياً. وقد أشار أولوخيو إلى أحد هؤلاء الـ *Exceptores* بوصفه رجلاً ثرياً، اختار كيلا يخسر لقبه وحقّه في الدّخول إلى البلاط، أن يتنكّر لنصرانيته[4]. وكان يشار إليه بعبارة "*publicae rei exceptor*"، التي يعتقد فلوريث أنها تعني «أمين أو مدير الضّرائب». هناك كاتب آخر معاصر وصف الرّجل الذي تحدث عنه أولوخيو بوصفه

(1) Al Kuttiyyah (ابن القُوطيّة) in *Journal Asiatique*, 433, 460 – 70، Codera, *Estudios criticos*, 35 – 6.
Makkari, ii, 415, 451 – 2، Dozy, *G. Der M.*, i. 366 note.

(2) لا تعترف السّجلات الإسپانية بأوردونيو هذا باعتباره واحدا من ملوك ليون.
.Makkari, ii. 162, 465

(3) المصدر السّابق نفسه. الصّفحة، 471.

(4) *España Sagrada*, x. 265.

«متعاقداً» أو «جابي ضرائب» (المصدر السّابق نفسه). ويقول دوكانج Ducange إنّ كلمة "*Exceptor*" تعني كاتب العدل. وربما يكون هذا الموظّف الرّسمي جمع بين منصبه ككاتب عدل وجاب للضّرائب. أمّا دوزي[1] فيسمّيه الكاتب، أو السّكرتير، ويستقي اسمه من مصادر عربية.

كانت الضّرائب تُجمع شهرياً من المسيحيين، وكان بإمكانهم على ما يبدو التّهرّب من دفع الضّريبة من خلال البقاء في منازلهم. يقول فلوريث إن إولئك الذين كان الفقر أوالمرض يمنعهم من الخروج، فيبقون في منازلهم، كانوا «مُعفين من أيّ ابتزاز»[2].

مع أفول القرن التّاسع، لم يُكتب في الحوليّات سوى القليل عن الكنيسة في إسپانيا المسلمة، ويزعم كاتب «الحوليّات العامة»[3] *Crónica general*، أنّ الاضطهاد كان سبب انحلالها. لكن ذلك يدعو الى الشّك، أولاً، فيما إذا كانت الكنيسة المسيحية انهارت فعلاً، وثانياً، ما إذا كان هناك أي شكل فعلي من الاضطهاد في الأساس. يقول دوزي إنه في إشبيلية، ومنذ عهد عبد الرّحمن الثّاني (822 – 852)، كان الإقبال كبيراً على اعتناق الإسلام بحيث استدعى الأمر بناء مسجد جديد كبير، وإنّ الأمر نفسه حصل في إلبيرة في الفترة نفسها تقريباً[4]. لكن الحقيقة أنه لم تكن هناك حاجة إلى بناء مساجد جديدة في أيّ من المدينتين إلى ما بعد أكثر من مئة عام من الغزو، ممّا يفترض أن حالات اعتناق الإسلام كانت بالأحرى معدودة.

إنّ ما شهد انحلالاً على وجه التّأكيد بعد القرن التّاسع هو استخدام اللغة اللاتينية بين

---

(1) *G. der M.*, i. 331.

(2) Ut qui ex nobis ad remanentes Doctores imbecillitate corporis praepediente dirigere gressus nequiverit, aut quem inquisitio, vel census, vel vectigalis quod omni lunari mense pro Christi nomine solvere cogimur, retinuerit: saltim nocturno tempore qui necessarium duxerit, legat. Presbiter Leovogild in *España Sagrada*, x. 268 – 9.

(3) viii. 375.

(4) *G. der M.*, i. 379, 393.

المسيحيين الذين كانوا يعيشون على وفاق تام مع جيرانهم المسلمين، فيأخذون عنهم عاداتهم وأسماءهم ومصطلحاتهم، وفوق كل شيء، لغتهم، المحكية والمكتوبة على حدّ سواء. ويشكو ألفارو من إدمان معاصريه وإقبالهم على الدّراسات الإسلاميّة في منتصف القرن التّاسع. ويقول «إخواني في الدّين يسعدون بقراءة تاريخ وأدب العرب، إنهم يدرسون كتابات علماء الفقه والفلاسفة المسلمين، ليس لدحضها وبرهان عدم صحتها، وإنما ليتعلّموا الكتابة العربية الصّحيحة بخط أنيق. أنّى لنا أن نجد اليوم رجلاً من العامة لا يزال يقرأ التّفسيرات اللاتينية للكتابات المقدّسة؟ ومَن من بينهم هناك يدرس عن الإنجيل والرّسل والتّلاميذ؟.. لقد نسي المسيحيون لغتهم نفسها، ومن بين ألف منهم، لا يمكن للمرء أن يجد فرداً واحداً قادراً على كتابة رسالةٍ صحيحة باللاتينية لصديق». ويقول غيبون إنه في عام 1039، «كان من الضّروري إعداد نسخة عربية من القوانين الكنسية الصّادرة عن المجامع الكنسية الإسپانية لتكون في متناول الأساقفة ورجال الدّين في الممالك المسلمة»[1].

والجدير بالملاحظة أنّ ألفارو لا يشكو من أن مواطنيه تنكّروا لعقيدتهم وإنما يشير إلى لغتهم فقط. لا بدّ أن الأبرشيات الأندلسية كانت تشهد فترة ازدهار حتى يكون بوسع ألفارو أن يتحدّث عن «آلاف» من أخوانه في الدّين، حتى وإن أفسحنا في المجال للمبالغة. ولم يكن مسيحيو الأندلس يتلقّون في ذلك الوقت أيّة إمدادات من الشّمال على وجه التّأكيد. وكما سنرى لاحقاً، ففي نهاية القرن الحادي عشر، أشار الكتّاب العرب في كتاباتهم إلى «آلاف المسيحيين» في غرناطة.

لم تتوفر معلومات دقيقة عن الأعداد الكبيرة المفترضة لمن يتحوّلون عن المسيحية إلى الإسلام لا من مصادر مسيحية ولا مسلمة – أو أنها لو وُجدت، فإننا لم نتمكّن من العثور عليها. ولكن المعلومات المتوفّرة أصلاً بشأن وجود الأساقفة والكنائس حتى فترة

---

(1) Dozy, *G. der M.*, i. 311; *Decline and Fall*, Chapter li.

تعود النّسخة المطروحة إلى 1049، وقد كتب عليها «من أجل استخدام أنبل الأساقفة، جون دانيال». (غزيري، Casiri, i. 541).

متأخرة في القرن الثّاني عشر، تبرهن على أن المسيحيين الذين ظلّوا مخلصين لعقيدتهم، نعموا بالتّسامح الدّيني على مر العصور. ويؤكد ذلك ما يروى عن التّكريم الذي حظي به الموفدون المسيحيون القادمون من شمال إسپانيا عندما جاؤوا، كما فعلوا في أكثر من مناسبة، في طلب نقل رُفات القديسين والشّهداء المدفونين في الأراضي المسلمة.

وهكذا نقرأ في «الحوليّات العامة»[1] *Crónica general* أنّ سانچو السّمين أُرسل إلى قُرطُبة ليطلب من عبد الرّحمن الثّالث نقل عظام القديس سان پيلايو؛ ونظراً لثقته التّامة في حصوله عليها بدأ مسبقاً ببناء دير في ليون لاستقبال الرُّفات. وبالمثل، في عام 1063، أرسل ملك قشتالة فرناندو الأول، أسقفين إلى المُعتمِد بن عَبّاد ملك إشبيلية في طلب رُفات القديس سان خوستو، أحد القدّيسين شفيعي تلك المدينة الذي استشهد في القرن الثّالث لأنه أهان صورة ديانا، كما جاء في الحوليّات[2]. فأبلغ المُعتمِد الأسقفين بأنه لا يعرف للأسف أين يمكن العثور على رُفات القديس ولكن بإمكانهما نقل الرُّفات إن عثروا عليها. وفي حين كان الإسقفان يفكّران بما يجدر بهما أن يفعلا، ظهر لهما القديس سان إيسيدورو، شفيع إشبيلية، وأبلغهما من يكون ومكان دفنه، واقترح عليهما أن يأخذا رُفاته بدلاً من رُفات سان خوستو. فقاما بنبش رُفاته حيث أشار لهما، وعندما وُضعت في وعاء الذّخائر المقدّسة، غطّاه المُعتمِد بغطاء رائع من الحرير المطرّز والمشغول، وألقى فيه خطبة وداع[3]. لم نتمكن من العثور على أيّة سجلات تتعلق بنقل رُفات سان پيلايو أو سان إيسيدورو لدى أيّ من الكتّاب العرب الذين تمكّنا من الاطلاع على كتاباتهم، كما أنّ دوزي، الذي أورد قصة سان إيسيدورو كاملة، اعتمد في نقلها على المراجع الإسپانية فقط. وعلى الأرجح لم يُعر العرب أهمية كبيرة للحدثين[4].

---

(1) viii. 257.

(2) كان خوستو في الثّالثة عشرة من عمره عندما جُلد وقطع رأسه في ساحة مدينة الكالا (القلعة) في فترة الإضطهاد الرّوماني للمسيحيين، لأنه استخفّ بإلهة الصّيد الرّومانية ديانا Diana. (م)

(3) *España Sagrada*, ix. 206 – 10.

(4) جاء في القصص الدّينية القديمة أنّ دير سان إيسيدورو دل كامبو في سانتيپونثِه Santiponce،

يتحدّث الفصل العاشر باستفاضة عن تعاملات الوزير الأكبر أو الحاجب المنصور مع المسيحيين من أهل بيته، ومدى احترامه لأماكن العبادة المسيحية وما قدّمه لها من عطايا. ويتحدّث الفصلان الحادي عشر والخامس عشر عن زواجه من أميرة مسيحية وزواج ألفونسو السّادس ملك قشتالة من ابنة المُعتمِد بن عَبّاد ملك إشبيلية. ويتم التّطرق إلى الأسلاف المسيحيين لعبد الرّحمن الثّالث في الصّفحة 79 (طبعة الأصل).

يقودنا هذا إلى نهاية القرن الحادي عشر دون أن نعثر على أيّة أدلة على وجود أي نوع من الاضطهاد الشّديد أو الدّائم.

وتشير بعض المقاطع لدى المقّري والتي تتحدث عن العام 1122 إلى استمرار وجود طائفة مسيحية قوية في قلب البلاد المسلمة.

كان ألفونسو الأول ملك آراغون قد بدأ حملة مظفرة عبر الأراضي الخاضعة للحكم الإسلامي، وقام بأعمال تخريب ومناوشة ومضايقات من محافظة إلى أخرى على مدى ستة أشهر متواصلة، دون أن ينتهك منعة أيّ من المدن الرّئيسية على ما يبدو. ويواصل المقّري سرده لهذه الغزوة بقوله[1]: «لقد قيل فيما سبق إنّ الموحّدين أو النّصارى الذين يعيشون في نواحي غرناطة كانوا السّبب الرّئيسي في غزوة الأذفونش لأنهم لم يكتفوا بحضّه على التّوغل عميقاً في أراضي المسلمين ويعدوه بتقديم كل عون ومساعدة في مقدورهم، وأنما قدّموا لجيشه كل ما يلزمه، وأرشدوه، وأنضوى عدد منهم تحت رايته. ولكن الخونة لم يفلتوا من العقاب الذي يستحقون. وبطلب

بين إشبيلية ومدينة إيتاليكا الرّومانية المطمورة، مبني فوق النّقطة التي عُثر فيها على رُفات القديس. لقد جعل غوزمان إل بوينو الدّير في عام 1298 وقفاً للكنيسة. وإل بوينو هو مؤسّس دوقية شذونة (مدينة صيدونيا) ووهب الوقف إلى كنيسة قائمة في الأصل ومكرّسة للقدّيس إيسيدورو. وبما أنه لا يوجد ما يشير إلى أن هذه الكنيسة بنيت بعد استعادة الإسبان للأندلس في عام 1248، كما لا توجد إي إشارة الى أنها كانت مسجداً تم تحويله إلى مكان للعبادة المسيحية، فإنّ ما يمكن استنتاجه أنّ هناك أساساً واقعياً للرّواية التّقليدية القائلة بأنّ الكنيسة بنيت في عهد المُعتمد عندما تمّ العثور على رُفات القديس. وتشبه الكنيسة والدّير في تصميمهما تصميم القلاع أكثر ممّا يشبهان مكاناً للعبادة.

(1) المقطع هنا مترجم وليس بحرفيّة نص المقّري. (أحمد)

من عدد من أشراف قُرطُبة وإشبيلية وغيرهما، عبر القاضي الجليل أبو الوليد ابن رشد (واسـمه اللاتيني Averroes) إلى أفريقيا واجتمع بالسّـلطان علي[1] شارحاً له خطورة أحوال مسـلمي الأندلـس الذين كان عليهـم أن يقاتلوا الأعداء في الخـارج ويواجهوا الجواسـيس في الدّاخل. وناشـده أن يعالج هذا الشّـر بأن يأمر بنقل المسـيحيين الذين يقطنـون في نواحي غرناطة والمناطق التي سـيطر عليها ألفونسـو لاحقـاً؛ ونزولا عند طلبه أصدر أمير المسلمين الأمر اللازم وتم ترحيل الآلاف من أهل الغدر ونقلهم إلى مكناس وسلا وغيرهما من مدن غرب أفريقيا»[2].

تقـول الحوليّـات اللاتينيـة للملـك ألفونسـو السّـابع التـي ينسـبها محرّر «إسـپانيا المقدّسـة» إلـى كاتـب معاصر، إنـه في عـام 1138 عبر السّـلطان المرابط تاشـفين بن علي بن يوسـف، من إسـپانيا إلى المغرب، آخذاً معه عدداً كبيرا من المسـيحيين الذين «كانوا قد عاشـوا ردحاً من الدّهر في إسـپانيا»، وفي عام 1124 ذكر أن أعداداً كبيرة من مستعربي مالقة رحلوا إلى المغرب[3].

فـي حوالـي العـام 1150، عـاد الكثيـر من مسـيحيي المغرب إلـى إسـپانيا. وتقول الحوليّات نفسـها إن «آلاف الجنود المسـيحيين، مع أسقفهم والعديد من رجال الدّين التّابعيـن لهـم، ممّن كانـوا من أهل بيت السّـلطان علي وابنه تاشـفين، اجتـازوا البحر وقدمـوا إلـى طُليطلـة». ويقول السّـنيور كوديـرا الذي اقتبـس هذا المقطـع أنهم كانوا مدفوعيـن للرّحيل بسـبب اضطهـاد الموحّدين لهم. وأيّاً كانت عليه الحال، يشـير هذا الامر إلى أن وجود طائفة من المسحيين مع أسقفهم والعديد من رجال الدّين في القرن الثّاني عشر في المغرب، تحت حكم المرابطين، لهو دليل آخر على التّسامح الذي كان يعامل به المسلمون وخصوصاً أتباع المذهب الشّيعي، أصحابَ تلك العقيدة[4].

---

(1) علي بن يوسف 1107 – 1143 من ملوك دولة المرابطين.

(2) ii. 306, 307.

(3) *España Sagrada*, xxiii. 387.

(4) Chron. Adefonsi Imp. In *España Sagrada*, xxi. C. 64. Codera, *Almoravides*, p. 119.

ومجدّداً، انتفض مسيحيّو غرناطة في عام 1162 في وجه الموحّدين بالتّنسيق مع الملك اليماني ابن مَردنيش[1]، الذي كان والياً حينها على قسم كبير من شرق الأندلس. أرسل ابن مَردنيش ألفين من الخيالة المسيحيين من مُرسية – التي كانت تضم دولة ثيودومير أو تُدمير، التي يحكمها المسيحيون القوط بموجب معاهدة وقّعوها مع عبد العزيز بن موسى في عام 714 – لمساعدة المنتفضين وتمكنوا من ابقاء غرناطة تحت سيطرتهم لبضعة أشهر. وعليه، ورغم الأعداد التي تم ترحيلها في عامي 1122 و1138، فمن الواضح أن أعداداً كثيرة كانت لا تزال تعيش هناك[2]. ونجد أن الآلاف من المسيحيين كانوا يعيشون داخل حدود مناطق الحكم الإسلامي بعد أربعة قرون من الغزو الإسلامي، وبما أنهم لم يكونوا بالطّبع من ذرّية أولئك القوط الذين كانوا في حرب مستمرّة مع المسلمين تحت حكم پيلايو وخلفائه، فلا بدّ أن يكونوا أبناء وأحفاد القوط الذين بقوا في الأندلس في عام 711، بموجب المعاهدة الموقعة مع الخليفة الوليد[3] في دمشق والتي كان عليهم بموجبها أن يدفعوا الجزية للخليفة على أن يولّى عليهم أمراء من سلالتهم ومن أبناء دينهم.

في القرون الأولى من الحكم الإسلامي، لم يكن هؤلاء القوط على اتصال مع أتباع رودريغو (رودريك)[4] المهزومين، ويمكننا أن نفهم حالة انعدام الثّقة التي كانت

---

(1) ابن مَردنيش (1124 – 1171 م)، هو محمّد بن سعد بن محمّد بن أحمد بن مَردنيش الجذامي، أبو عبد الله، أمير شرق الاندلس. (م)

(2) Makkari, ii. 316; Codera, *Almoravides*, 138 – 40, 214; cf. Dozy, *G. der M.*, ii. 388 – 9.

استنتج أنه بعد موجة التّرحيل الثّانية، لم يبق سوى عدد قليل منهم في الأندلس.

(3) الخليفة الأموي الوليد الأول بن عبد الملك، (705 – 715 م). جعل معاوية بن أبي سفيان (662 – 680 م)، مؤسّس الخلافة الأموية من دمشق عاصمة للخلافة الإسلاميّة. (م)

(4) Roderick، رودريك أو رودريغو بالإسپانية والپرتغالية. ورد اسمه في الكتابات العربية لُذريق Ludhriq. قتل أثناء الفتح الأموي للأندلس في عام 711 أو 712، يشتهر بأنه «اخر ملوك القوط». كان قبيل الفتح الإسلامي ملك هسپانيا (شبه الجزيرة الإيبيرية) لفترة وجيزة بين 710 و712. (م) قلت: وسبب تسمية العرب له لُذريق أنّ حرف D في القشتاليّة مراراً ما يُلفظ ذالاً، كقولهم: غراناذا، مَدريذ. أمّا اللام فهي إقلاب شفوي لفظي مع الرّاء. (أحمد)

يمكـن أن تنشـأ بين الفريقين. كان جيـش رودريغو تحت قيادة رجال الدّين الفاسـدين الذيـن تنسـب إليهم المكائـد لاغتصاب عرش غيطشـة وسـلالة الملك الشّـرعية. امّا القـوط الذيـن تحالفوا مع موسـى بـن نُصَيْر ووقعـوا معاهدة مع الخليفـة الأموي فهم الذيـن بقـوا مخلصين لعائلة الملك غيطشـة بعد وفاتـه. لم يكن الفريـق الأول يحظى بتأييـد قوي في صفوف الجيـش أو بين النّاس، ولهذا السّـبب، بالإضافة إلى التّحالف بين موسـى والأمـراء الثّلاثة الورثة الشّـرعيين للملـك، رضخ جنوب وغرب إسـپانيا بكاملـه بسـرعة كبيرة للغـزاة الفاتحين، أو عقد حلفاً سـلمياً معهم. لقـد كان حتمياً أن يتوارث أبناء الفريقين المتعارضين تماماً في البداية العداء بينهما وأن يطغى انعدام الثّقة والرّيبة على علاقاتهما لبضعة أجيال.

ولكـن مـع بدايـة القـرن الثّانـي عشـر، كان الوقت كفيـلاً بـأن يجعل هـذه العداوة تضمحلّ. فباستثناء اختلافهم في الدّين، وفي بعض الأحيان اختلاف أسماء عائلاتهم، كان قـوط الجنـوب والغـرب بحلـول ذلـك الوقـت قـد اندمجوا تمامـاً مـع جيرانهم وأصدقائهم اليمانيين، عبر أربعة قرون من المصاهرة والتّحالفات الهجومية والدّفاعية ضـد أعدائهم المشـتركين. ولذلك نجد أنّ هذه الدّويلات والمـدن القُوطيّة – اليمانية كانت أول من تعامل أو رضخ للغزاة المسيحيين القادمين من الشّمال والشّرق، عندما اجتـاح الموحّدون أو المغاربـة، الذين يختلفون في انتمائهم الدّينـي وأصولهم القبليّة عن القوط والعرب اليمانيّين على حدّ سواء، البلاد وسعوا إلى فرض عقيدتهم المتزمّتة على مسلمي الأندلس.

في هذا الإطار، ورغم أن الأمر يشـكّل استطراداً وخروجاً عن الموضوع على نحو مـا، سيكون مفيـداً أن نسـتعرض مصير المسـيحيين الإسـپان الذين تـم ترحيلهم إلى المغرب في عام 1122.

يورد المؤرّخ ثونيغا[1] Zúñiga معلومات مهمّة عنهم. لقد أرسـل سان فرانثيس في عـام 1219 خمسـة من رهبانه إلى إشـبيلية التي كانت حينها عاصمـة حكم الموحّدين

(1) هكذا لفظ اسمه بالإسپانيّة برغم وجود الحرف ñ وليس: ثونييغا. (أحمد)

في إسپانيا. بشّـر الرّهبان بالدّين المسيحي فسُـجنوا في البرج الذّهبي (تورِّه دل أورو) ثم أرسـلوا إلى المغرب حيث استشـهدوا في السّـنة التي تلتها. وفي سـنة 1237، قرّر غريغوريوس التّاسع[1]، «وقد أدرك حالة الفقر والفاقة التي يعانيها أولئك الكاثوليك»، أن يرسـل إليهم أسقفاً. وكان خليفة هذا الأسـقف موجوداً في إشبيلية بعد وقت قصير من الاستيلاء عليها، وعاد إلى أبرشيّته حاملاً رسائل توصية من البابا إينوسنت الرّابع[2] إلى سلطان المغرب[3].

وفـي عـام 1386، أوفد المسـيحيون المقيمون فـي المغرب بعثة إلـى خوان الأول ملك قشـتالة[4] يطلبون منه القيام بمسـاع حميدة لدى سـلطان المغرب لكي يأذن لهم بالمجيء للعيش في إشبيلية. وقد سرد ثونيغا ما حدث كما يلي:

«كان بين المسيحيين المقيمين في مملكة المغرب، والذين تحدّثتُ عنهم في مكان آخـر، بعض العائـلات المعروفة التي تحمل لقب آل فارفانِـس، والذين كانوا يفخرون بانتمائهم إلى سلالة القوط. كانوا يرغبون في المجيء إلى إسپانيا، ويرجون الملك أن يقبل بهم وأن يطلب من ملك المغرب [أن يسمح لهم بالذّهاب] وأن تستقبلهم إشبيلية كمواطنين: وهذه السّـنة أرسـلوا فرداً منهم يدعى سـانچو رودريغِث الذي حمل لدى عودته رداً إيجابياً من المدينة. الرّسالة موجودة في نص مطبوع، وتقول إحدى فقراتها:

«نرغب أن نراكم في هذه المدينة فيما يرضي الله وسيدنا الملك، نريدكم أن تعرفوا أنّ قريبكـم سـانچو رودريغِث زارنـا وتحدّث إلينا فـي بعض الأمور، وقـد فهمنا منها رغبتـه ورغبتكـم، ولقد اسـتقبلناه أفضل اسـتقبال، ولذلـك فلتطمئنّوا وتعلمـوا أنه إن

(1) البابا غريغوريوس التّاسع (1227 – 1241).

(2) البابا إينوسنت الرّابع (1243 – 1254)

(3) Zúñiga, i. 83.

زار ابن الخطيب مدينة سلا في عام 1360 ووجد أن مدينة الرّباط مأهولة كلها تقريباً بأبناء العائلات التي تم ترحيلها في سنة 1122.

Gayangos in Makkari, ii. 515.

(4) خوان الأول ملك قشتالة (1358 – 1390).

كانت مشيئة الله أن تأتوا إلى هذه المدينة، فستلقون منا أحسن ترحيب، وسنفعل من أجلكم ما يرضي الله وسيدنا الملك، وليحفظكم الله في تمام الصّحة».

تحمل هذه الرّسالة تاريخ الثّامن من أكتوبر (عام 1386) وتوقيع سلطات البلدية، وخمسة من أفراد طبقة النّبلاء وكبار الموظفين التي كانت تسمّى «مجموعة الأربعة والعشرين» *Veintiquatros*.

توجّه خوان الأول بطلب الإذن الضّروري من سلطان المغرب أبي الحسن، وحصل عليه، كما جاء في رسالة نقلها ثونيغا وتضمّنت «مقدّمة طويلة، كما جرت عليه العادة لدى المغاربة»:

«ها أنا ذا أرسل لكم أولئك الذين أرسلتم في طلبهم، من ينتسبون إليكم برباط النّسب العظيم، والذين كانوا منكم: هؤلاء هم المسيحيون الخمسون من آل فارفانِس من سلالة القوط العريقة في مملكتكم، ليحفظهم الله، على حسن صنيعهم وبسالتهم وعملهم الدّؤوب وذكائهم وهنائهم وولائهم، فإن رغبتم أن يكونوا عوناً لكم لجنيتم من ذلك خيراً، وها هم أولاء يمضون وهم ينشدون رحمتكم إلى الممالك التي ملكها أجدادهم القوط الصّالحون، رحمة الله عليهم، وها أنا ذا أرسلهم إليكم نزولاً عند مشيئتكم، والله هو المعين».

ويضيف ثونيغا: «هذا ما جاء في التّرجمة التي نقلت في حينه عن الرّسالة المكتوبة في الأصل بالعربية». «كانوا في الإجمال خمسين عائلة استقرّت في إشبيلية، واحتفظ كبار أعيانهم بهذه الرّسالة وبامتيازاتهم، والتي توجد نسخ أصلية منها تم تدقيقها للتّحقّق من أصولهم النّبيلة. ذهب بعضهم لاحقاً ينشد لقاء الملك الذي كان قدومهم عليه مأسوياً.

«... كان في الكالا دي هيناريس (قلعة النّهر)، إلى حيث جاء هؤلاء الفرسان ينشدون تقبيل يده، وعندما سمع عن مِراسهم وخبرتهم الواسعة في مجال الفروسية، خرج على ظهر الحصان إلى الرّيف لكي يتفرّج عليهم وهم يتمرّنون، وبعد وقت قصير، ورغبة منه في أن يعرض عليهم مهارته جرى بفرسه في حقل محروث فتعثرت

الفـرس، وكان سـقوطه عنها من القوة بحيث مات الملـك. كان موته مفاجئاً بحيث أن أحـداً لم يسـمع صرخته الأخيـرة. وحصل ذلك الحادث المأسـاوي والمؤسـف يوم الأحد، الموافق التّاسع من أكتوبر [1390]».

في عام 1394، منح إنريكه الثّالث، ملك قشتالة، آل فارفانِس الامتياز الذي وعدهم بـه والـده قبل موتـه المفاجىء، فأعـاد إليهم ألقابهـم النّبيلة، وتم تثبيـت ذلك في عهد الملـوك الذين تتابعوا على الحكـم حتى الملكة خوانا، والـدة كارلوس الخامس. لقد وصفتهـم الوثائق المذكورة بأنهم «فرسـان فرفانِس القـوط» *Caballeros Farfanes de los Godos*. اسـتقروا فـي إشـبيلية حيـث أصبحوا من أصحاب الأملاك وأسّسـوا كنائـس وأماكـن للعبـادة. وعندما كتب ثونيغا فـي عام 1680، كان أحـد محاريبهم في كنيسـة أبرشية سـان مارتين وقد نقشـت شـعاراتهم على أفريز بوابتها الحديدية وثلاثة ضفـادع خضـراء في إطار مذهب. كان لديهم مندوب هو بمثابة متحدّث باسـم العائلة كلهـا ومكلـف بصيانة امتيازاتهم. ولـم ينجز بناء كنيسـة «سـلالة فارفانِس» حتى مطلع القرن التّاسع عشر، حين تم إنشاء ممرّ عبرها إلى المَوهِف (خزنة المقدّسات)[1].

وعليه، يبدو أن الكنيسـة المسـيحية كانت حاضرة بقوة وبصورة مسـتمرّة بناء على المعلومات التي تمّ جمعها، ليس فقط في ظلّ الحكم الإسلامي لإسپانيا، وإنما كذلك في المغرب لحوالي مئة وخمسـين سـنة بعد زوال الحكم الإسـلامي في كل إسپانيا ما عدا في مملكة غرناطة. هذه الحقيقة وحدها تبرهن أنه لم يكن هناك وجود للإضطهاد أو أنه كان ضئيلاً إن وُجد، فحتى العقيدة الأكثر رسـوخاً كانت بالكاد سـتبقى وتسـتمرّ على مدى خمسمئة أو ستمئة عام لو أنها واجهت محاولات مستمرّة للقضاء عليها.

لقـد ورد ذكر أسـقفية المغرب بصـورة متكرّرة فـي الحوليّات الكنسـية حتى العام 1560. ويبدو أن آخر من حمل لقب الأسقف كان دون سانچو دي تروخيو (ترجالة)،

(1) Zúñiga, ii. 224, 232, 245. Gonzales de Leon, *Noticia artistic de Sevilla* (1844), I. 106.

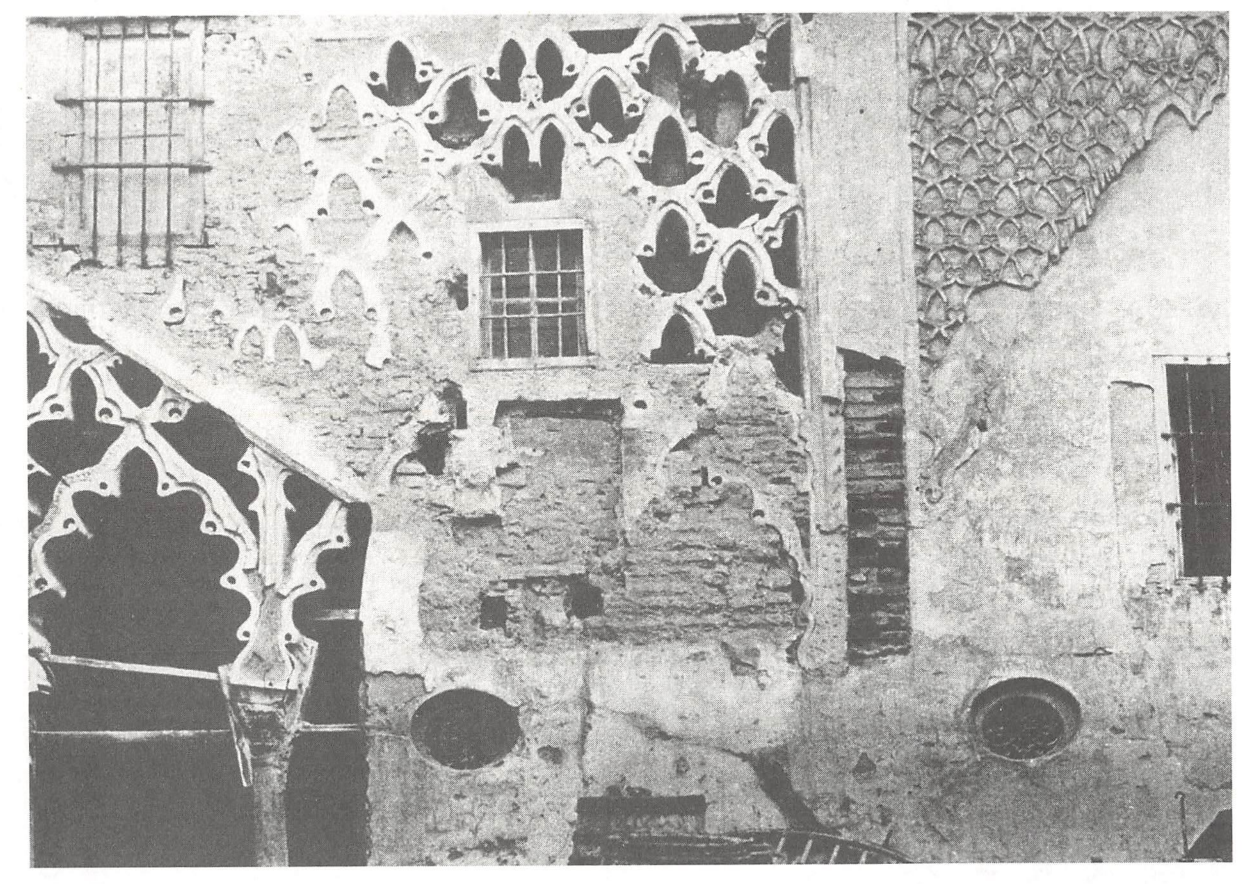
كاهـن كاتدرائيـة إشـبيلية، والعضو في ديـوان «العمل المقدّس»[1]. وكانت الأسـقفية اعتبـاراً مـن 1248 علـى صلة وثيقـة بإشـبيلية، حيث كانـت الرّواتب تدفع مـن أموال الوقف التّابعة لهذه الأبرشية. لقد ورد ذكر دون سانچو دي تروخيو بوصفه يملك عقود صكـوك ملكية أبرشـية سـان تلمو San Telmo (التـي أصبحت فيما بعـد كلّيّة بحرية) وأراضـي تورّه بلانكا (البرج الأبيض) في إقليم الشّـرف. من غيـر الواضح في أيّة فترة منع سـلطان المغرب حملة لقب الأسـقف في تلك البلاد من ممارسـة شعائرهم فيها، ولكن الأدلّة المتوفرة تشـير إلى أنهم كانوا يمارسـون ذلك حتـى عام 1412[2]. ويعود تاريخ النّيابة الأسقفية القائمة حالياً في المغرب إلى فترة بناء المستعمرات الإسپانية في شمال أفريقيا في القرنين السّادس عشر والسّابع عشر.



(1) The Holy Office (El Santo Oficio): The Congregation for the Doctrine of the Faith (CDF)

مجمع عقيدة الإيمان هي التّسمية الحديثة لما كان يعرف قديما باسم: ديوان العمل المقدّس لمحاكم التّفتيش Holy Office of the Inquisition). (م)

(2) Zúñiga, iv. 16 – 7.



جزء من الزّخرفة في قصر إشبيلية. كان إلى حين اكتشافه قبل بضع سنوات مغطّى بطبقة من الجصّ والطّلاء الجيري ويجري ترميمه اليوم. وهو جزء ممّا تبقى من قصر المعتضد بن عَبّاد (1042 - 1069).

الفصل الثّاني

أبناء غيطشة (ڤيتيتسا)

يبدو أنّ المؤرّخين، الإسپان منهم والأجانب، لم يتتبعوا تاريخ أبناء الملك القوطي غيطشـة الذي حكم قبل رودريغو مباشـرة، ومات بعد فترة قصيرة من الغزو الإسلامي في عام 711[1]. ومع ذلك فإنّ المغامرات أو الأحداث الخطيرة التي تعرّض لها هؤلاء الأمـراء وذرّيتهـم ومـا آل إليه مصيرهم لا تشـكّل فحسـب فصلاً رومنسـياً فـي تاريخ

(1) يقول رودريغو الطّليطلي، الذي تعود كتاباته إلى النّصف الأول من القرن الثّالث عشر، وقد كان سابقاً للمؤرّخ ماريانا، إن رودريغو القوطي خلع غيطشة عن العرش. ولكن كافة المراجع الموثوقة السّابقة التي تمكنا من مراجعتها تتفق على ما يبدو على أنه مات قبل أن يستولي رودريغو على السّلطة. ويفترض الكاتب غير المعروف الذي يعرف باسم إيسيدورو پاثنسيس والذي تعود كتاباته لحوالي سنة 754، وكان على ذلك معاصراً تقريباً للأحداث التي وثقها، أن غيطشة مات قبل أن يظهر رودريغو على السّاحة، لكنه ليس جازما في ذلك. ويخبرنا كاتب «السجل السّيباستياني» *Chronicon Sebastiani* الذي كُتب في حوالي العام 883، أن رودريغو انتخب ملكاً عندما مات غيطشة، في حين يقول المقّري، استناداً إلى مصادر عربية، وبوضوح إن خلافات داخلية ظهرت لدى موت غيطشة عندما «قرّر القوط أن يولّوا على العرش قائداً يدعى رودريغو». ويبدو على الأرجح عموماً أن رودريغو لم يخلع غيطشة، كما يقول رودريغو الطّليطلي، وإنما استولى على العرش عند مماته. ويرى غايانغوس أن رودريغو خلع غيطشة على أساس الاختلاف بشأن مدّة الولاية الممنوحة له بين إيسيدورو وسيباستيان تباعاً، لكن ليس لهذا التّحليل وزن يذكر في ضوء البيانات التي تدحض ذلك والتي دوّنها موثقون عرب وإسپان، والأفكار المتساهلة حول الحاجة إلى سجلات دقيقة والتي سادت في ذلك الوقت.
(Makkari, i. 254, and Gayangos not, p. 512 – 3; Isidorus Pacensis in *España Sagrada*, viii. 261 ff*; Chronicon Sebastiani* in id. xiii. 478; Rodericus Toletanus in Schott, *Hispania illustrata*, ii. 62 – 3.)

إسبانيا، وإنما كان لها أثر كبير على الأحداث التي شهدتها القرون الثّلاثة الأولى للحكم الإسلامي في شبه الجزيرة الإسبانية.

لقد ظل غيطشة، آخر الملوك القوط الشّرعيين، ولاثني عشر قرنا يحمل لقب «الخبيث». يمكننا أن نأخذ وجهة نظر تمثّل نموذجاً لوجهات نظر المؤرّخين الكنسيين عن هذا الملك، وذلك في الوصف الذي قدّمه عنه الأب اليسوعي ماريانا الذي توفي في سنّ متقدّمة في العام 1623. فيقول هذا الكاتب إنّ غيطشة بدأ حكمه بأسلوب حميد، فأعاد إلى كل من نفاهم أبوه ألقابهم وأراضيهم، وأحرق كل الأوراق والسّجلات الحافلة بمعصياتهم حتى لا يبقى أي أثر لها. ولكن، يضيف ماريانا: «من الصّعب كبح جموح الشّباب والسّلطة بالمنطق والفضيلة والاعتدال». ويخبرنا الكاتب أن غيطشة كان مولعاً بالنّساء، وكان يعامل خليلاته وكأنّهن زوجات شرعيات له. و«لكي يجمّل حالة الفوضى هذه ويبرّرها، ارتكب جريمة أشنع بأن أصدر قانوناً أباح به للجميع أن يفعلوا الشّيء نفسه، وأصدر تصريحاً خاصّاً لرجال الكنيسة المكرّسين لخدمة الله، لكي يتزوّجوا، قانون بغيض مقيت، لكنه أشاع البهجة لدى الأكثرية.. كما أصدر قانوناً يرفض الانصياع للأب المقدّس، كان من شأنه أن يزيل أيّة موانع أو أقنعة ويفتح الطّريق على مصراعيه أمام دمار المملكة التي كانت حتى ذلك الوقت تنعم بالازدهار بفضل طاعتها لروما». وعلاوة على ذلك فإنه و«خلافاً لأحكام القوانين المعمول بها منذ القدم»، سمح لليهود بالعودة إلى إسبانيا[1].

---

(1) Mariana, Book VI. Chapter xix.

يسير ماريانا في هذه المقاطع على خطى رودريغو الطّليطلي وربما لوكاس، أسقف توي Tuy في جليقية (غاليثيا)، الذي توفي في عام 1288. يستعرض الكاتبان كلاهما حكم غيطشة بالتّفصيل لكن أياً منهما لا يستشهد بمراجع سابقة موثوقة. ومن بين الكتاب المسيحيين لم يكن سوى اثنين معاصرين لغيطشة: إيسيدوروس پاثنسيس Isidorus Pacensis، المذكور آنفا، والكاتب الذي واصل كتابة «سجلات بيكلارنس» *Chronicon Biclarense*. ولكن على أيّ حال، يقال اليوم إنّ كتاباتهما كانت نسختين مختلفتين للسّجل نفسه. ولكننا نعرف من خلالهما أن [أباه] إخيكا Egica عيّنه ولي عهده وشريكه في العرش، وأنه حكم تقريباً لخمس عشرة سنة، وأعاد الاعتبار لأولئك الذين نفاهم والده، وأحرق سجلات سوابقهم. ويبدو في الحقيقة

يوحي هذا التّشريع، إن صحّ، أن غيطشة هو واضعه، أنه وبعيداً عن أن يكون في صورة الفاسق الماجن التي اشتهر بها، فقد كان غيطشة حاكماً متسامحاً ومتنوّراً حاول أن يختبر ما يشاع عن انعدام أخلاق رجال الدّين من خلال إلزامهم بأن يتزوجوا[1]، كما أكّد استقلالية الكنيسة الإسپانية، في حين أن إعادة اليهود ربما كانت على الأرجح من أجل المصلحة التّجارية للبلاد. نحن للأسف نعتمد فيما نعرفه عن تشريع غيطشة على التّلميحات الضّمنية التي تركها كتّاب عاشوا بعد القرن الثّامن بكثير بسبب ضياع قرارات سينودوس أو مجلس طُليطلة الثّامن عشر، التي صدرت خلالها تشريعاته[2].

وكأن غيطشة، البعيد كل البعد عن صورة الماجن غير الورع كما صوره الكتّاب اللاحقون، أظهر حماسة مفرطة تقريباً لاحترام المقدّسات، حيث أنه حضّ سندريد، أسقف طُليطلة على اتخاذ تدابير إصلاحية اعتبرها المؤرخ لفترة حكمه متطرّفة.

"Per idem tempus divæ memoriæ Sinderedus urbis regiæ Metropolitanus Episcopus sanctimoniæ studio claret: atque longævos et merito honorabiles viros, quos in suprafata sibi commissa ecclesia reperit, non secundum scientiam zelo sanctitatis stimulat, atque instinctu jam dicti Witizæ Principis eos sub ejus tempore convexare non cessat." (Isodorus Pacensis in *España Sagrada*, viii. 290)

ولم يذكر هؤلاء المؤرخون الأوائل شيئاً عن سلوك غيطشة الفاسق على الصّعيد الشّخصي، أو عن سماحه بزواج رجال الدّين، وخلافه مع روما. ومن المستحيل أن نعرف إن كان لدى رودريغو الطّليطلي أي إثبات على روايته، أو إن كان، مثله مثل كثيرين من الكتاب الكنسيين، اعتمد على خياله لسرد وقائعه عندما لم يحصل على شيء من مصادر أخرى.

وجدنا أقدم الكتابات التي تتحدّث عن توصية غيطشة لرجال الدّين بأن يتزوجوا في «السجل السّيباستياني» الذي كتب بعد العام 866. ولا يذكر هذا الكاتب الخلاف مع روما، ولا عودة اليهود. (*España Sagrada*, xiii. 477 – 8.)

(1) أو على الأرجح في عدم السّعي إلى تطبيق التّحريم الذي فرضه الملك القوطي ريكاريد (586 – 601 م). كان رجال الدّين القوط، مثل الجميع غيرهم في ذاك التّاريخ ولقرون بعدها، يتزوجون بحرية وفي العلن.

Cf. Lea, *History of Sacerdotal Celibacy*, i. 135, and *passim*.

(2) ربما كان لمعاملة الحكّام القوط ورجال الكنيسة لليهود أثر كبير في تسهيل نجاح المسلمين. فقد خضعوا على مدىٍ نحو مئة عام قبل الفتح الإسلامي لاضطهاد وحشي. وفي كل مرة كان يعقد فيها مجلس طُليطلة أو سينودوس لكبار المسؤولين الكنسيين والأساقفة ابتداء من السّينودوس الرّابع (633 م) كان يتم إصدار تشريعات ضدّهم، حتى قرّر السّينودوس السّابع

إن كان هناك أيّ أساس تاريخي لما يرويه ماريانا عن طريقة تعامل غيطشة مع الكهنة ومع روما، فقد كانت هذه وحدها كافية لكي يتآمر رجال الدّين ويغيّروا تعاقب الخلافة ويعطوا العرش لرجل يخدم مصالحهم بصورة أفضل. وتشير جملة أوردها إيسيدورو باثنسيس إلى أنّ هذا هو ما حصل، إلى حدّ أن رودريغو اجتاح المملكة بإيعاز من المجلس[1]. ولكن من غير الواضح ما الذي يعنيه بالمجلس Senate، ولكن أذا تذكرنا سلطة الكنيسة الهائلة على الدّولة في المملكة القُوطيّة، فلن نكون بعيدين عن المنطق إذا افترضنا أنّ ما يعنيه إيسيدورو بالمجلس هو مجلس الأساقفة[2]. علينا كذلك أن

عشر (694) أنه ينبغي استرقاقهم جميعهم ومصادرة ممتلكاتهم. الكتاب الثّاني عشر (Book XII. Tit. Ii.) من «الهيئة التّشريعية» Fuero Juzgo مليء بتشريعات مضطهدة. كان يمنع على اليهود الاحتفال بعيد الفصح أو بأعيادهم التّقليدية وإجازات يوم السّبت، وأن يعقدوا قرانهم طبقاً للطّقوس اليهودية، وأن يأكلوا الطّعام الذي يعدّونه وفقا لأحكام شريعتهم، أو يمارسوا الختان، وسواء تم تعميدهم أم لا، لم تكن شهادتهم مقبولة ضد مسيحيين. وكانت النّتيجة أنّ اليهود رحّبوا بالغزاة لدى وصولهم، هذا إن لم يحضّوهم على المجيء، كما اتُّهموا بأنهم فعلوا في عهد إخيكا.
يقول المقّري إنّ الفاتحين العرب أولوا شؤون قرطبة وغرناطة وإقليم رية الذي يضم مقاطعة مالقة، لليهود بعد فتحها، وأصبحت هذه الممارسة شائعة تقريباً في السّنوات اللاحقة، ففي كل مرّة كان المسلمون يسيطرون على مدينة، كانوا يتركونها في وصاية اليهود، مع عدد قليل من المسلمين، حيث كان باقي الجيش يواصل طريقه لتحقيق فتوحات جديدة. ويقول غايانغوس، استناداً إلى ابن خلدون، إن معظم القبائل البربرية التي تقطن السّواحل الشّمالية لأفريقيا، كانت تعتنق اليهودية، وإنه، رغم أن الاثني عشر ألف رجل الذين كان يقودهم طارق بن زياد [وهو من البربر (م)] كانوا قد اعتنقوا الإسلام، فإنّ هذا التّحوّل إلى الإسلام لم يكن على الأرجح صادقاً تماماً بحيث يؤثر على الفور على تعاطفهم مع بني دينهم (Makkari, i. 280, 530.)
ويقول لوكاس ابن توي إنّ اليهود فتحوا بوابات طُليطلة أمام المسلمين في حين كان المسيحيون يقيمون القدّاس بمناسبة أحد الشّعانين في كنيسة سانتا ليوكاديا خارج المدينة (in *extra urbem* .(Schott, iv. 70

(1) Rudericus tumultuose regnum hortante Senatu invasit.

(2) لا يفيدنا دوكانج كثيراً هنا حيث أن الإشارة الوحيدة التي يعطيها للمجلس Senatus عدا عن مكتب السّناتور الرّوماني، تتعلق بميثاق فرنسي يعود إلى القرن الثّالث عشر. لكن عبارة سناتورِس Senatores وفق المصدر نفسه كانت مستخدمة تكرارا للإشارة إلى النّبلاء nobles

نتذكّـر أنّ المـدوّن رودريغـو، بوصفه كبير أسـاقفة طُليطلـة، كان قـادراً على الوصول إلـى محفوظـات الكاتدرائيـة التي كان يمكن فـي ذلك الوقت أن تحتـوي، إن لم تكن تحتـوي علـى ذلك في أيامنا هذه، علـى بعض الوثائق الخاصّة بقانون غيطشـة، وعليه فإنّه قد يكون هناك أسـاس واقعي للمعلومات التي أوردها وإن كان من غير الضّروري الموافقة على تفسيره لها.

وصـف الكتّـاب المسـيحيون الـدّور الـذي اضطلع بـه أبناء غيطشـة خـلال الغزو الإسلامي بأنه خيانة، ولكن المؤرّخين العرب رسموا صورة مختلفة له، ونقلوا روايات عن أحداث عدّة مرتبطة بهذه الشّخصيات الملكية.

يقول ابن القُوطيّة[1] «إن آخر ملوك القوط بالاندلس غيطشة، توفي عن ثلاثة أولاد، أكبرهـم ألمُنـد، ثم رُمُلـة، ثم أرطبـاش (أرطباس)[2]، وكانـوا صغاراً عند وفـاة أبيهم، فضبطـت عليهم أمهـم مُلكَ أبيهم بطُليطلـة، وانحرف لُذريق (رودريغـو)، وكان قائداً لملك أبيهم، بمن يطيف به من رجال الحرب، فاحتل قُرطُبة»[3].

ينقل المقّري وقائع الأحداث عن عدّة كتّاب رووها مباشـرة قبل الفتح الإسـلامي، ولكـن ذلك النّصّ الذي كتبه ابـن القُوطيّة وترجمه غايانغوس في ملاحظته، (Vol. I., p. 513) فـي كتابـه عـن المقّري، هو الأكثر وضوحـاً. وبما أنّ ابن القُوطيّة كان سـليلاً مباشـراً لغيطشة كونه من سـلالة أبناء حفيدته الأميرة سارة أميرة إشـبيلية، فإنّ ما يكتبه

سواء أكانوا أبناء أعضاء مجلس الشّيوخ أو الأعيان في المناطق أو الذين مارسوا مهامهم بصفتهم أعضاء في المجلس أو قضاة في مدنهم نفسها. ويمكن للمختصين باللغة اللاتينية المستخدمة في العصور الوسطى أن يحكموا أفضل منا إن كان إيسيدورو يقصد النّبلاء nobles من خلال إشارته إلى المجلس Senate.

(1) الكتاب المذكور هو «تاريخ افتتاح الاندلس» لمؤلفه القرطبي أبي بكر محمّد بن عُمَر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسي بن مزاحم ابن القُوطيّة. (م)

(2) Almand, Romulo, and Artebas.

(3) Al – Kuttiyyah in J.A., p. 430.

النصّ العربي منقول مع تصحيحات المحقّق من: ابن القُوطيّة، «تاريخ افتتاح الأندلس»، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، 1989، ص 29. (م)

يكتسب للوهلة الأولى مصداقية أكبر من أي كاتب آخر، بشأن الدّور الذي اضطلع به الأمراء القوط إبّان الفتح الإسلامي، وإن كان ينبغي لنا أن نتذكّر أنّ كتابه يعود إلى قرنين بعد الأحداث وأنّه لا بدّ اعتمد بشكل ما على كتّاب سابقين، حتى فيما يتعلّق بأحداث مرتبطة بأجداده أنفسهم.

بعد سرد ومناقشة نظريات وروايات مختلفة تتعلّق بالأسباب المباشرة التي دفعت المسلمين إلى غزو إسبانيا، يقول المقّري إنه في الوقت الذي كان رودريغو يقيم به في قُرطُبة، دعا أبناء غيطشة للانضمام إليه في محاربة العدو المشترك، وأنهم عسكروا بقواتهم «على ضفّة نهرها قبالة القصر، ولم يطمئنوا إلى الدّخول على لُذريق أخذاً بالحزم، إلى أن استتبّ جهاز لُذريق وخرج، فانضمّوا إليه ومضوا معه وهم مرصدون لمكروهه». لكن المقّري يضيف نقلاً عن كتّاب آخرين، أن أولاد غيطشة لم يستجيبوا لنداء رودريغو الذي اغتصب إرثهم، وأنهم على العكس من ذلك انضمّوا إلى طارق بن زياد بكل قوّاتهم. ولا يجزم المقّري بصحّة أي من هذه الرّوايات، «والله أعلم» كما يقول. إذ أن الكثير من الغموض، كما يقول المقّري، يكتنف كتابات المؤرّخين الذين سجّلوا أحداث الأيام الأولى للفتح الإسلامي[1].

يبدو أنّ الحوليّات المسيحية أغفلت تماماً مصير أبناء غيطشة. ولولا التّفاصيل التي أوردها الكتّاب العرب عن حياتهم، لكان من الصّعب علينا أن نعرف أنّ الملك القوطي خلف وراءه أولاداً. ولحسن الحظ، على أيّ حال، بات من الممكن تتبّع سيرتهم لبضعة أجيال بأسمائهم العربية، ونقترح أن نستعرض كيف حكموا عل مدى قرنين كاملين كملوك على أراضيهم وممتلكاتهم، بفضل الثّروة التي ورثوها واكتسبوها، وإخلاص قسم كبير من أبناء البلاد لهم، والتّقدير الذي حمله لهم أصدقاؤهم المسلمون ومعارفهم.

---

(1) Makkari, i. 269.

الفقرات الواردة نصاً من: المقّري، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، 1988. ج 1، ص257. (م)

يبدو من المؤكّد أنّ أبناء غيطشــة، أو رســلهم وموفديهم، طلبوا مساعدة المسلمين لاستعادة أملاكهم. يؤكد «الذهبي وأفضل الكتّاب العرب» ذلك[1]، وهو أمر لم يؤكده رودريغو الطّليطلي ولوكاس ابن توي فحســب، لمــا لأعمالهما من وزن، وإنما كذلك مؤلف «الســجل السّيباســتياني» الذي يقول إنّ أبناء غيطشة أرسلوا في طلب المساعدة من المســلمين Saracens[2] وأحضروهم إلى إسـپانيا في ســفن، وهو ما يؤكّده كذلك سجل *Chronicon Albedense*[3].

فــي روايتــه للأحداث التي ســبقت الواقعة مباشــرة يقــول المقّري: «قالوا وعســكر لُذريــق فــي نحو مئة ألف ذوي عدد وعدّة (...) وأقبل نحوهم لُذريق في جموع العجم

(1) Gayangos in Makkari, i. 528.

(2) تعني كلمة Saracens تاريخياً المسلمين الذين حاربوا الصّليبيين، كما كانت تطلق على أفراد القبائل السّورية والعربية في عهد الأمبراطورية الرّومانية. وتستخدم عموماً بمعنى العرب. (م)

(3) Witiza's sons, "callide cogitantes, missos ad Africam mittunt, Sarracenos in auxilium petunt, eosque navibus advectos Hispaniam intromittunt." *Chron. Sebast*. In *España Sagrada*, xiii. 478.

لكنّ دوزي بعد دراسة هذا الإعلان يدحضه (*Recherches*, i. 74 ff.) وحجّته أن الهدف من حملة طارق بن زياد لم يكن سوى كسب الغنائم.

يورد رودريغو إنهما كانا يسمّيان سيسيبرت Sisibert وإيڤا Eva، ويقول إنهما قصدا ريسيلا كونت تينخيتانيا Tingitania. يقول لوكاس إنهما كانا يدعيان فارماريوس وإكسپوليو وإنهما قصدا تينخيتانيا لدى الكونت خوليان. يقول ابن القُوطيّة، كما ورد آنفاً، إنّ أبناء غيطشة كانوا ألمُند ورملة وأرطباس، وهي الأسماء التي نقترح أن نعتمدها في هذا الكتاب؛ في حين أنّ مؤلفاً مغفل الاسم وضع كتاباً عن فتح إسپانيا يقول إنّ أحدهم كان يدعى شيتيبرت Shithibert.

في سجل *Chronicon Albedense*، الذي كتب في حوالي سنة 883، نصّ باللاتينية يقول:

"per filios Vitizani Regis oritur Gothis rixarum discessio: ita ut una pars eorum Regnum dirutum videre desideraren: quorum etiam favore atque farmalio Sarraceni Spaniam sunt ingressi."

يقول محرّر «إسپانيا المقدّسة» إن كلمة "farmalium" اللاتينية تعني حلفاً أو عهداً؛ ولكن الكلمة لم ترد لدى دوكانج Ducange.

España sagrada, xiii. 478, 459. Schott, ii. 63, iv. 70.

Gayangos in Makkari, i. 512 – 3, 523.

وملوكهـا وفرسـانها، فتلاقوا فيمـا بينهم وقال بعضهـم لبعض: إن هذا ابـن الخبيثة قد غلب على سـلطاننا وليس من أهله وإنما كان من أتباعنا، فلسـنا نعدم من سـيرته خبالاً فـي أمرنـا، وهؤلاء القـوم الطّارقون لا حاجة لهم في اسـتيطان بلدنـا وإنّما مرادهم أن يمـلأوا ايديهـم من الغنائم، ثـم يخرجوا عنّا، فهلـمّ فلننهزم بابن الخبيثـة إذا نحن لقينا القوم لعلهم يكفوننا إياه، فإذا انصرفوا عنا أقعدنا في مُلكنا من يستحقه، فأجمعوا على ذلك، والقضاء يبرم ما ارتأوه.

«وكان لُذريـق ولّـى ميمنتـه أحد أبناء غطيشـة، وميسـرته الآخر فكانا رأسـي الذين أداروا عليه الهزيمة، وأدّاهما إلى ذلك طمع رجوع مُلكِ والدهما إليهما.

«وقيل: لما تقابل الجيشـان أجمع أولاد غطيشـة على الغدر بلُذريق، وأرسـلوا إلى طـارق يعلمونـه أنّ لُذريـق كان تابعـاً وخادماً لأبيهـم فغلبهم على سـلطانه بعد مهلكه وأنهـم غيـر تاركي حقهم لديه، ويسـألونه الأمان علـى أن يميلوا إليه عنـد اللقاء فيمن يتبعهم، وأن يسلّم إليهم ضياع والدهم بالأندلس كلها، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة، وهي التي سمّيت بعد ذلك صفايا الملوك، فأجابهم إلى ذلك وعاقدهم عليه، فالتقـى الفريقـان من الغد، فانحاز الأولاد إلى طارق، فكان ذلك أقوى أسـباب الفتح، وكان الالتقـاء علـى وادي لكّة من كورة شـذونة، فهـزم الله الطّاغيـة لُذريق وجموعه، ونصر المسلمين نصراً لاكفاء له، ورمى لُذريق نفسه في وادي لكّة وقد أثقلته الجراح، فلم يُعلم له خبر ولم يوجد»[1].

من غير المعقول أن يكون رودريغو، الذي قام على وجه التّأكيد بإزاحة أبناء غيطشة عـن عرش أبيهم وانتـزع منهم ميراثهم، قد وثق بهم لكي يتولّـوا مراكز قيادية مهمّة في جيشـه في تلـك المعركة الحاسـمة. بالإضافـة إلى ذلك، فإنّ المسـاحة الشّاسـعة من الأراضي التي اسـتعادوها، والمسـجّلة بكامل تفاصيلها، من الصّعب أن تكون مُنحت لهـم مقابل خدمات قدّموهـا في معركة واحدة خاضها ثلاثة شـبّان بالكاد بلغوا الحُلم

(1) i. 270 – 1

المقّري، ص 257، 258.

وباتـوا قادرين على ركوب خيلهم[1]. ولكـن إن كان الغزو بأكمله نتيجة معاهدة وقعّها الأمـراء ومؤيّدوهـم مع طارق بن زياد أو موسـى بن نُصير، على أسـاس أن تُعاد إليهم أملاكـم، اعتبـاراً لما لهم من نفـوذ على أتباعهم، تصبح المسـألة واضحـة. وما يدعم وجهة نظرنا هذه، وكما سـنرى، أن كلّ جنوب غـرب الأندلس عملياً حذا حذوهم في الخضـوع أو التّحالف مع الغزاة في الأيـام الأولى من الغزو. يبدو في الواقع وكأن كل سـكان ذلك الجزء من إسـپانيا كان مخلصاً لسلالة غيطشة ومسـتعدّاً للقبول بالظّروف الجديدة فيما آلت إليه الأمور، حيث لم تصدر المعارضة سوى عن فرقة صغيرة مؤيدة لرودريغو.

غالباً ما تُعزى المقاومة الضّعيفة التي أبدتها مناطق جنوب غرب إسـپانيا أمام الفتح الإسـلامي إلى رخـاء العيش والمناخ المعتـدل للأندلس التي اسـتنزفت طاقة القوط. ولكن تلك الفرضية تتهاوى أمام ما نعرفه عن المقاومة العنيدة التي أبدتها بعض المدن المعزولة - مثل ماردة - حيث كان فريق رودريغو هو المسيطر، والنّضال الطّويل الذي استمرّ والذي سنتطرّق إليه لاحقا على أرض إشبيلية *la tierra de Sevilla*، كما كانت وظلّت تسـمى إشـبيلية والأقاليم المحيطة بها لقرون لاحقة. في حين أنه في حال كان اسـتنتاجنا بقيام تحالف مع طارق بن زياد وموسـى بن نُصير صحيحاً، يصبح استسلام المـدن ذوات الأسـوار المحصنة مثل إشـبيلية وقرمونة مع قليل مـن المقاومة أو دون مقاومة على الاطلاق، مفهوماً.

إنّ مجمـل التّعامل مع عائلة غيطشـة، ليس من جانب الغزاة فحسـب، وإنما كذلك الخليفة الأموي في دمشق، يظهر الأهمية التي أُوليت للنّوايا الحسنة التي أبداها هؤلاء الأمـراء. ففي فترة الفتح الإسـلامي وفيما بعد، عندما زار أحفاد غيطشـة قصر الخليفة الأمـوي الوليـد بـن عبد الملـك في دمشـق، أعيد الاعتـراف بمكانـة العائلـة الرّفيعة، واستقبِل أبناؤها كضيوف مكرّمين وليس كأعداء مهزومين.

يخبرنا رودريغو الطّليطلي ولوكاس ابن توي أنّ قيام غيطشة بهدم أسوار أكثر المدن

(1) Alkuttiyyah in *J.A.*, p. 430.

تحصيناً أسهم في تسهيل مهمّة الفاتحين المسلمين. ولكن الكتّاب المسلمين لم يشيروا بتاتاً إلى تخريب تلك الحصون، وإن صدقت سجلات القرن الثّالث عشر فقد كان ينبغي أن تكون الأسوار المهدّمة ظاهرةً للعيان في جميع الاتجاهات إبّان الغزو الذي حصل بعد خمس سنوات تقريباً من تنفيذ أمر الهدم وفق الحوليّات. على العكس من ذلك، لقد أشار الكتّاب العرب باستمرار إلى المدن المسوّرة التي استسلمت بعد توقيع معاهدات معها أمام التّقدّم الكبير للفاتحين، وأعربوا عن الإعجاب الذي أثارته في اذهانهم عظمة ومنعة تلك المباني المهيبة والطّرق والجسور التي تركها الرّومان، والتي أمر القادة المسلمون على الفور بإصلاح ما خرب منها.

وبعد هزيمتهم في المعركة التي دارت عند بحيرة لاغونا دي لا خاندا[1]، انسحبت فلول جيش رودريغو[2] إلى مدينة أسيدو التي تعرف حالياً باسم مدينة صيدونيا[3]، في محافظة قادس والتي تشرف على السّهول الواقعة تحتها من ارتفاع شاهق يجعل أيّة محاولة لمهاجمتها صعبة جداً[4]. وكتب المقّري عما حدث حينها على الشّكل التّالي:

(1) تعرف باسم معركة وادي لكّه، او موقعة البحيرة. (م)

(2) يسمّيه العرب لُذريق أو رُذريق، كما ورد في المقّري. (م)

(3) سمّاها العرب شذونة. (م)

(4) يتبنّى دوزي (Recherches, i. 313) وجهة نظر فلوريس (*España sagrada*, x. 20 ff.) بأن خيريث (شريش)، وليس مدينة صيدونيا، هي أسيدو الرّومانية. في الفترة التي كتب فيها فلوريس، كان المقبول عموماً أنّ رودريغو هُزم على ضفاف نهر وادي لكّة (غواداليتِه Guada-lete)، في مكان قريب من بويرتو دي سانتا ماريّا. لكن تم التّوصّل الآن إلى أن المعركة حصلت على ضفاف بحيرة لا خاندا، بالقرب من نهر برباط الصّغير الذي يصبّ في البحر إلى الشّرق من رأس طرف الغار Cape Trafalgar، وبالقرب من الطّريق الرّوماني من الجزيرة إلى قادس. من غير المعقول أن نتصوّر أنّ فلول جيش رودريغو المهزوم، الباحثة عن ملاذ، عبرت مدينة شذونة ذات التّلال الوعرة، على بعد اثني عشر أو خمسة عشر ميلاً من ميدان المعركة، للاحتماء بمدينة سهلية، تبعد عنها ضعفي المسافة. نعتقد أنه من الصّحيح القول إنّ دوزي لم يزر جنوب إسپانيا، وبذلك فهو غير مطّلع على الطّبيعة الجغرافية للمنطقة. هناك خمسة طرق رومانية تقود من مدينة صيدونيا في اتجاهات مختلفة، واحدة منها تتجه إلى مدينة بيخير دي لا فرونتيرا Bejer de la Frontera على نهر برباط، من حيث كان يتم اصطياد السّمك وجلبه كل مساء إلى أسياد المدينة الرّومانية، وهي عادة لا تزال تمارس إلى اليوم.

«وتسامع النّاس من أهل برّ العدوة بالفتح على طارق بالاندلس وسعة الغنائم فيها، فأقبلوا نحوه من كل وجه، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر، فلحقوا بطارق، وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع، وتهاربوا من السّهل ولحقوا بالجبال، ثم أقبل طارق حتى نزل بأهل مدينة شذونة، فامتنعوا عليه، فشدّ الحُصر عليهم حتى نهكهم وأضرّهم، فتهيأ له فتحُها عنوة، فحاز منها غنائم، ثم مضى منها إلى موروز [وربما مورون]، ثم عطف إلى قرمونة فمرّ بعينه المنسوبة إليه، ثم مال على إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية، ثم نازل أهل إستجة وهم في قوة ومعهم فل عسكر لُذريق. فقاتلوا قتالاً شديداً حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين، ثم إنّ الله تعالى أظهر المسلمين عليهم فانكسروا، ولم يلقَ المسلمون فيما بعد ذلك حرباً مثلها»[1].

يكتسب ذكر جيش رودريغو هنا أهمية كما هي الحال بالنّسبة للجملة التّالية (p. 276):

«وقذف الله الرّعب في قلوب الكفرة لما رأوا طارقاً يوغل في البلاد، وكانوا يحسبونه راغباً في المغنم عاملاً على القفول، فسُقط في أيديهم، وتطايروا عن السّهول إلى المعاقل، وصعد ذوو القوة منهم إلى دار مملكتهم طُليطلة»[2] بهدف الصّمود والمقاومة داخل أسوارها.

أما مدينة صيدونيا، أو شذونة، فمعلقة على نتوء جبلي في سلسلة جبلية تشكل جزءاً من جبال سيرّانيا دي روندا وقد يكون المسيحيون الذين هربوا إليها لجأوا فعلياً إلى الجبال للاحتماء فيها. ولكن لا توجد جبال على مسافة عشرة أميال أو أكثر من شريش.

يبيّن غايانغوس من خلال سلسلة من التّحريفات وذلك بسب الحروف التي يستخدمها عرب الأندلس وأفريقيا كيف أن وادي برباط الذي كانوا يسمّونه كذلك وادي بكة، قد يكون تغيّر ليصبح اسمه وادي لكة. (Makkari, i. 526 – 7.)

(1) Makkari, i. 275.

المقاطع العربية مأخوذة بنصّها من المقّري، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، 1988. ج1، ص 259 – 260.

(2) المقّري، ج1، ص 260.

يتعيّن علينا الآن أن نعود إلى الأمراء القوط.

بعـد معركة بحيرة لا خاندا مباشـرة، طلبوا من طارق أن يسـلّمهم رسـالة إلى قائده موسـى بن نُصير في شـمال أفريقيا يشـرح فيهـا الاتفاق الذي عاهدهـم عليه؛ فأجابهم طـارق بمـا طلبـوا لكن موسـى بـن نُصير لـم يشـأ أن يتحمّل مسـؤولية اتخـاذ القرار، فأرسـلهم إلى الخليفة أمير المؤمنين في الشّـام، «فلمّا وصلوا إلى الوليد أكرمهم وانفذ لهم عهد طارق في ضِياع والدهم وعقد لكل واحد منهم سـجلاً»[1]. يبدو من ذلك أنّ الخليفة عامل أولاد غيطشـة بسـخاء[2]، وكان يمكن أن يوصف تعامله معهم بأنه مبالغ بـه لو أنهم جاؤوا ضارعين متوسّـلين عطف فاتح بلادهم. كمـا أنّ عدم اكتراث الوليد لهم كان سـيثير الشّـكوك. فقد كان الأمراء القوط في موقع يجعلهم قادرين على إثارة البلبلة إن لم يعلنوا ولاءهم لقادة الأندلس الجدد، ولا شك أنّ الخليفة كان مدركاً لهذا الواقع. لقد كان مسـيحيّو إشـبيلية قد ثاروا على الحامية الصّغيرة التي تركها موسى بن نُصيـر هناك، وقتلوا ثلاثين من رجالها، وأرغمـوا الباقين على الالتحاق بالجيش الذي كان يحاصر مارِدة[3].

لـم يكن قـد وصل البلاد عددٌ كبير من المسـلمين وكانوا موزّعين فـي مناطق عدّة، وعليـه فلو أن الشّـكوك انتابت القوط الرّاغبين في السّـلم في جنوب غـرب البلاد بأنّ الأمراء السّـاعين لاستعادة أملاكهم إنما عوملوا كالسّـاعين إلى الحصول على عطايا، لكان الوضع أكثر خطورة ممّا نقله الكتاب العرب.

وأيّاً كانت حقيقة الأمر، فما من شك بأنّ الخليفة الوليد فعل قُصارى جهده لإرضاء الأمراء. فهو لم يصدّق فقط على الاتفاق الذي عقدوه مع طارق بن زياد، بل أعطى كلاً

---

(1) Makkari, i. 275.

النص المنقول عن المقّري، ج1، ص 266.

(2) Ii. 14.

(3) Conde, i. 45 – 6.

يقول المقّري إنّ المسيحيين قتلوا ثمانين من المسلمين، وإنّ إشبليلية استسلمت بعد معركة قصيرة، لكنّ موسى بن نُصير واجه مقاومة في ماردة. (Makkari, i. 285).

منهـم وثيقة إضافية تضمن لهم ولذريتهم من بعدهم ملكية كل الأراضي المذكورة في المعاهدة وتحميهم من تعرضهم للسّلب من جانب العرب الوافدين للإقامة فيها.

وعـن ذلـك كتـب المقّـري: «فقدّمـوا الأندلـس، وحـازوا ضِيـاع والدهـم أجمع، واقتسـموها علـى موافقة منهـم، فصار لكبيرهـم ألمُند ألف ضيعة فـي غرب الأندلس فسكن من أجلها إشبيلية مقترباً منها، وصار لأرطباش [أرطباس] ألف ضيعة، وهو تِلوه في السّـن، وضياعه في موسـطة الأندلس، فسكن من أجلها قُرطُبة، وصار لثالثهم وقلة [رُمُلة] ألف ضيعة في شـرقي الأندلس وجهة الثّغر، فسـكن مـن إجلها مدينة طُليطلة، فكانـوا على هذه الحال صدر الدّولة العربيـة، إلى أن هلك ألمُند كبيرهم، وخلّف ابنته سارة المعروفة بالقُوطيّة وابنين صغيرين»[1].

---

(1) Makkari, ii. 14.

ورد في كتاب المقّري أنه بعد وفاة ألمند والد سارة، «فبسط أرطباش يده على ضياعهم وضمّها إلى ضياعه، وذلك في خلافة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، فأنشأت سارة بنت ألمند مركباً بإشبيلية حصيناً كامل العدة، وركبت فيه مع أخويها الصّغيرين تريد الشّام حتى نزلت بعسقلان من ساحلها ثم قصدت باب الخليفة هشام بداره بدمشق، فأنهت خبرها، وشكت ظلامتها من عمّها واستعدت عليه، واحتجّت بالعهد المنعقد لأبيها وأخويه على الخليفة الوليد بن عبد الملك، فأوصلها هشام إلى نفسه، وأعجبته صورتها وحزمها، وكتب إلى حنظلة بن صفوان عامله بإفريقية بانصافها من عمّها أرطباش وامضائها وإخويها على سُنّة الميراث فيما كان في يد والدها مما قاسم فيه أخويه، فأنفذ لها الكتاب بذلك إلى عامله بالأندلس أبي الخطار ابن عمّه، فتم لها ذلك». (المقّري، ج 1، ص 266 – 267)

يضيف شِربونّو Cherbonneau في ترجمته لابن القُوطيّة بعض التّفاصيل، وفيها أنّ الصّكوك التي أعطاها الخليفة الوليد للأمراء نصّت على أن يحافظوا على الحياد. لقد تمّت ترجمة «ضياع» villages كما وردت في نص المقّري إلى «مزارع» farms. كان اسم ابني ألمند ماتروبال وأوباس، ويقال إنّ الأخير مات في جليقية (غاليثيا). ويقول غايانغوس (Makkari, ii. 415) إنه كان الأسقف أوباس الذي قتل في كوڤادونغا Covadonga (صخرة بلاي) لكن هذا خطأ واضح، فألمند لم يكن سوى طفل في عام 711، ومعركة كوڤادونغا جرت في عام 718.

في كتاب «أخبار مجموعة في فتح الأندلس» *Akhbar Majmua* وهو عمل مجهول المؤلف يعود إلى القرن الحادي عشر، ورد أن الخليفة الوليد استقبلِ الأمراء بحفاوة وأنفذ لهم ما عاهدهم عليه طارق بن زياد في استعادة ملك أبيهم، وأعطى كلاً منهم صكّاً (هل هي نسخة من

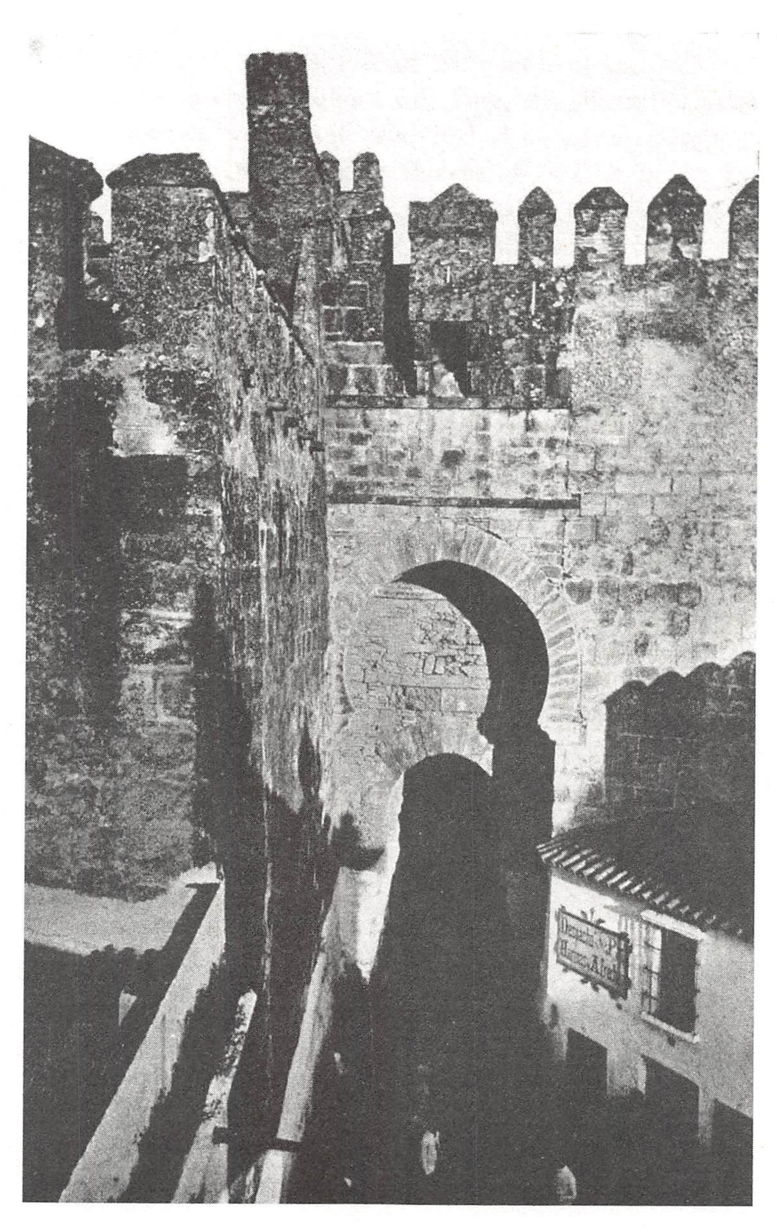
ولـم تنتـهِ معاملة المسـلمين لأبناء غيطشـة عنـد هذا الأمـر، ففور الاسـتيلاء على طُليطلة، تم تعيين الأسقف أوباس، أخي غيطشة، حاكماً على المدينة[1]، في حين عاد موسـى بن نُصير إلى دمشـق بأمر من الخليفة، وواصل طارق بن زياد حملته في شمال إسـبانيا. ونحـن نقرّ بأن كل هـذا يظهر بأنّ طارق بن زياد وموسـى بن نُصيـر قاما بغزو إسـبانيا كحليفين لأبناء الملك الشّـرعي، الذين حُملوا على الاعتقاد بأنّ الهدف الأول مـن الغزو كان إعـادة ملكهم إليهم بوصفهم الوارثين الشّـرعيين لغيطشـة. لقد جاءت المقاومـة الرّئيسـية مـن أنصار رودريغـو (لُذريق) مغتصـب العرش. لكـن المؤرّخين العرب، سـواء فعلوا ذلك عمداً أم بغير قصد، أخفوا الوقائع وموّهوا السّـبب الحقيقي للغزو لكي ينسـبوا المجد كله لأبناء أمّتهم. وهي رؤية لدور المؤرّخ لا تنسـجم سـوى مع الأفكار السّائدة في ذلك الوقت[2].



المعاهدة؟) وأعطاهم امتياز ألا يقفوا للدّاخلين إلى الغرفة التي يتواجدون فيها [«وجعلٍ لهم ألا يقوموا لداخل عليهم»، المقّري، ج 1، ص 266]. تختلف هذه الرّواية عمّا نقله ابن القُوطيّة والعائد كذلك إلى القرن الحادي عشر. حيث ورد في «اخبار مجموعة في فتح الأندلس» إنه عندما عاد الأمراء إلى إسپانيا «أسياداً على أملاك والدهم»، فإنهم «اقتسموها على موافقة فيما بينهم». في حين يقول ابن القُوطيّة إن القسمة تمت بموجب المعاهدة. (*Akhbar Majmua*, 184 – 5)

(1) Dozy, *G. der M.*, i. 269.

(2) هناك أمر ثانوي تجدر الإشارة أليه وهو أن قصر عمرة Kusair Amra وهو من المباني الأموية الشّهيرة، في الجانب الشّرقي من نهر الأردن على خط مستقيم من ضفة البحر الميت الشّمالية، توجد على جدرانه صور لشخصيات تاريخية، منها صورة لرودريغو (لُذريق) بوصفه واحداً من أعداء الإسلام [الذي قضى عليه القائد طارق بن زياد في معركة وادي بكة]. وهناك أيضا نقش للقيصر البيزنطي وللنّجاشي ملك الحبشة وآخر لكسرى ملك الفرس. (*Encycl. Islam*, s. /v. 'Amra.)



بوابة إشبيلية في قرمونة: أعمال رومانية مع إضافات إسلاميّة.

الفصل الثّالث

السلالة المولّدين الملكيّة

تتعـدّد العائـلات المتحدّرة من آخر ملوك القوط الشّـرعيين والتي ورد ذكرها كثيراً فـي تاريـخ الأندلس في القرن التّاسـع، بحيث أننا عملنا على رسـم شـجرة عائلة لكل منها انطلاقاً من الجدّ الأول في الجداول الملحقة بهذا الكتاب. وأوردنا المراجع التي استندنا إليها في رسم تسلسل كل شخص، وأضفنا استفساراً بالقرب من أسماء أولئك الذين افترضنا أنهم من أبناء تلك الذّرّية في غياب سجلات ومراجع تدعم ذلك، أو أننا لم نتمكن من العثور عليها. نأمل أن يجد القارىء بمسـاعدة هذه الجداول صعوبة أقلّ في تتبع العلاقات المعقّدة للمولّدين (ذوي الأصل أو النّسـب المختلط) مع الإسـپان من جهة، ومع العرب من جهة ثانية، خلال فترة متشابكة ومعقّدة من الحرب الأهلية.

يقـول المقّري (مراجعة الفصل السّـابق) إنّ رُمُلة حصل علـى ألف مزرعة (ضيعة) في الثّغر، واختار العيش في طُليطلة للاعتناء بها ومتابعتها.

خـلال فترة حكـم الأمويين لقُرطُبـة، عُرفت الأراضـي التّابعة لطُليطلة باسـم الثّغر الأدنـى، في حين أنّ تلك التّابعة لآراغون سـميت الثّغر الأعلـى[1]. وبين أراضي رُمُلة فـي منطقة طُليطلة وتلـك التي كان يملكها أخوه أرطباس، في «وسـط الأندلس» يمتد جبل الشّارات (سييرّا مورينا) ويمرّ عبره الطّريق الرّئيسي إن لم يكن الوحيد المستخدم حالياً للسّكك الحديديّة كما يعبره الطّريق السّريع من الجنوب باتجاه طُليطلة ومدريد. يعـرف هـذا الممـر أو الـوادي باسـم ديسـپينياپيرّوس *Despeñaperros pass* ويقـع

(1) Makkari, i. 47.

بالقرب من بقايا كاستولو الرّومانية والتي كتب عنها سترابو Strabo بوصفها واحدة من مدن أورتانيا الرّاقية، بالقرب من الحدود الشّرقية لباطقة Baetica[1]. لقد أصبح اسم كاستولو في العربية كشطالى Kashtalah[2] وفي الإسپانية كاثلونا Cazlona. ولم يبق من مدينة كاثلونا اليوم سوى مزرعة تعرف بذاك الإسم. وتوجد في داخل المزرعة بقايا آثار رومانية بينها حمّامات ومدرّج روماني، ويقطع النّهر جسر حجري نُقشت أسفله كتابات رومانية يمكن قراءتها من على مركب فوق النّهر. وعلى تلة مرتفعة قليلا، على بعد أقل من مئة متر[3] خارج الأسوار الرّومانية، توجد بقايا القلعة الإسلاميّة المنيعة التي ذكرها دوزي وغيره من الكتّاب[4].

ولو أنّ الغزو تم، كما نعتقد، في الظّاهر أو في الحقيقة بهدف رئيسي هو إعادة ملك غيطشة إلى أبنائه، يمكننا أن نفهم خشية موسى بن نُصير من القلاقل التي كان يمكن أن تنشأ عن اندفاع طارق بن زياد في طُليطلة، التي كان أهلها يتردّدون بين ولائهم لرودريغو وأبناء الملك غيطشة، حيث كان من شأن التّعامل بحكمة ودبلوماسية أن يحقّق مزيداً من الانتصارات دون سفك للدّماء. يبدو هذا الأمر أكثر ترجيحاً من القول بأنّ موسى بن نُصير حاول وقف تقدّم طارق بن زياد السّريع لأنه كان يغار من نجاحه، لأنّ موسى بن نُصير كان قائداً عسكرياً ورجل دولة ذا مكانة عالية لكي يخشى من أن يحلّ القائد البربري مكانه. لكن وإثر وفاة الخليفة الوليد المبكرة قام خليفته وأخوه سليمان[5] بعزل موسى بن نُصير، فلم تعد حنكته السّياسية تجديه نفعاً.

---

(1) Strabo, i. 228, 250.

(2) أورد الإدريسي مكانين شبيهين في اللفظ هما حصن قسطيلة في الشّمال (ص 335) ورابطة كشطالي (بالياء وليس بالألف المقصورة) المنيعة في الغرب (ص 247، 256). (م)

(3) ورد في الكتاب على بعد نحو مئة ياردة والياردة تساوي 91,44 سنتمتراً. (م)

(4) *G. der. M.*, i. 453.

ندين في وصف كاثلونا هذا للسّيد جورج بونسور George Bonsor، عالم الآثار المتميّز الذي ألقت مؤلفاته عن الأندلس على مدى ثلاثين عاماً الضّوء على نواحٍ مظلمة في التّاريخ الرّوماني - الإيبيري.

(5) الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك. (م)

حكم ألمُند المناطق التي مُنحت له في إقليم إشبيلية، واستقرّ أرطباس في كاثلونا أو جيان، ورُمُلة مع عمه المطران أوباس في طُليطلة. لقد كانوا جميعهم رجالاً عظاماً وهم لا شك كان يمكن أن يشكّلوا خصوماً مرهوبي الجانب للحكم الإسلامي لو قرّروا الاتحاد في مواجهته. ولكن الخليفة الوليد، أو وزيره موسى بن نُصير، أدركا بلا شك ما سيصيب حكمهم ونفوذهم من الوهن بعد قسمة مناطق نفوذ القوط إلى ثلاثة أقسام وترتيب الأمور بحيث أن الأخوة الثّلاثة، وفي حين تم الاعتراف بهم كأمراء، كانوا مرغمين على التّخلّي عن المطالبة بالعرش. كانت غاية الخليفة الذي ضمن لهم استعادة أملاكهم أن يتقاسموها جميعهم وبالتّساوي. وجاء في وثيقة العهد أنّ كلاً من الامراء حصل على «ألف ضيعة» لا أكثر ولا أقل. وهذه القسمة المتساوية ذاتها تجعل من الصّعب على أيّ من الثّلاثة أن يطالب بالسّيادة على أخويه، وهو ما كان يمكن أن يحدث لو أنّ أكبرهم حصل على حصة الأسد من الأملاك.

لم يكن أمر قسمة الأملاك على الأخوة الثّلاثة محكوماً بالصّدفة. ولو أنه أتيح لموسى بن نُصير أن يكمل سياسة المصالحة التي اعتمدها، لكان جيلان من المصاهرة كفيلين بجعل الدّويلات القُوطيّة متراساً حصيناً للمسلمين في وجه تقدّم مسيحيي الشّمال الذين، تبعاً للمعلومات المتوفرة، كان يقودهم في الفترات الأولى هاربون من فلول جيش رودريغو المعادون للمسلمين ولأبناء غيطشة على حدّ سواء. ولكن خطط موسى بن نُصير والخليفة الوليد الحكيمة لم يكتب لها الاستمرار، ونجد اليوم أن المولّدين، وهم مختلطو النّسب، وكثيرون منهم من أحفاد الأمراء الثّلاثة، يقودون حرباً أهلية في الأندلس. لقد كانت حرباً ضروساً امتدّت لفترات طويلة بحيث هدّدت مراراً بإطاحة الخلافة الأموية.

تولّى الأمير ألمُند، كما ذكر سابقاً، على ألف مزرعة في الجنوب الغربي، في قلب الأراضي المسلمة، وتمتّع بسيادته على أملاكه حتى مماته قبل سنة 745، استناداً إلى الاستنتاج المنطقي للأدلة المتوفرة.

بعد وفاة ألمُند، استولى أخوه أرطباس على أملاكه وليس المسلمون كما يمكن

للبعض أن يتوقّعوا. هذا ما يقوله على الأقل المؤلفون العرب، ومن بينهم ابن القُوطيّة، وإن كان هذا السّلوك يشذّ عن طباع أرطباس كما وصفه ابن القُوطيّة نفسه. يورد پونس[1] هذه المعلومات نقلاً عن ترجمة غير منشورة لتاريخ ابن القُوطيّة أعدها خوليان ريبيرا، وتستحق أن تترجم إلى الإنكليزية نظراً لقلة المعلومات المتوفّرة عن الأمراء القوط وأسلوب عيشهم.

ونقل پونس عن ترجمة ابن القُوطيّة مقطعاً ورد فيه أنّ عبد الرّحمن بن معاوية[2] أمر بمصادرة المدن الواقعة تحت سلطة أرطباس وذلك لأن قلبه امتلأ بالحسد عندما رأى، خلال خروجه في رحلة معه، بالقرب من مقر إقامته «عدداً غير قليل من الهدايا» التي اعتاد النّاس أن يقدّموها له في كل محطّة من محطاته خلال زيارته للقرى التّابعة له. لقد صودرت أرضه واعطيت إلى أبناء أخي عبد الرّحمن، وبات أرطباس معدماً. فذهب إلى قُرطُبة وطلب من الحاجب ابن بُخت أن يستأذن له الأمير ليراه[3].

قصد أرطباس «قُرطُبة، وأتى إلى الحاجب ابن بُخت، فقال له:

«استأذن لي على الأمير، أبقاه الله، وإني أتيته لأتودّع منه، فدخل الحاجب واستأذن له، فأدخله عبد الرّحمن بن معاوية إلى نفسه، فنظر إليه في هيئة رثّة، فقال له: يا أرطباش، ما بلغ بك هاهنا؟ فقال له: أنت بلّغتني هاهنا. حُلتَ بيني وبين ضياعي، وخالفت عهود أجدادك فيّ بلا ذنب يوجب ذلك عليّ، فقال له: وما هذا التّوديع الذي تريد أن تتودّع مني؟ أظنك تريد التّوجه إلى رومة؟[4] قال: لا ولكنه بلغني أنك تريد التّوجه إلى

---

(1) Pons, pp. 86 – 7.

(2) الأمير عبد الرّحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، الملقب بعبد الرّحمن الدّاخل او صقر قريش، توفي عام 788. (م)

(3) يتابع المؤلفان نقل أحداث تلك الواقعة عن پونس وهي مطابقة لما ورد في كتاب ابن القُوطيّة الوارد في النّص العربي. (م)

(4) "Rum." ? Constantinople.

ورد اسم المدينة في النّص العربي «رومة» وفي الإنكليزية "Rum"، ويتساءل مؤلفا الكتاب إن لم يكن المقصود: القسطنطينية.

الشّام، قال له: ومن يتركني أرجع إليها وبالسّيف أُخرجت عنها؟ قال له أرطباش: فهذا الموضع الذي أنت فيه تُريد أن توطّد لولدك بعدك أم تأخذ منه ما أعطيتُك بنفسي؟[1] قال له: لا والله، ما أريد إلا أن أوطّده لنفسي ولولدي».

وهنا قال أرطباس، دون مداورة أو استطراد، كل ما كان النّاس يأخذونه على عبد الرّحمن، فسرّ عبد الرّحمن من كلامه وأبدى له امتنانه، وأمر بإعادة عشرين ضيعة من ضياعه إليه، وكساه بأجمل الثّياب، وحمّله بالهدايا، وولّاه القُماسة، فكان أول من يتولّى منصب القومس في إسپانيا[2] [3].

ويتابع يونس أنّ ابن القُوطيّة نقل عن استاذه الشّيخ الموقر محمّد بن عُمَر ابن لُبابة، قوله إنّ «الله حفظ ارطباش في فقره، لأنّه كان رجلاً من خيرة الرّجال»، وسرد قصة طويلة رواها عنه ابن لُبابة الذي سمعها من أقرانه حول تعامل أرطباس مع عشرة من الأشراف الشّاميين، ومن بينهم «ميمون العابد، جدّ بني حَزم البوّابين»[4].

كتب ابن القُوطيّة: «وحكى الشّيخ [محمّد بن عُمَر] بن لُبابة، رحمه الله، عمّن أدركه من الشّيوخ: أنّ أرطباش كان من عقلاء الرّجال في أمر دنياه، وأنه دخل عليه عشرةٌ من الشّاميين، فيهم: أبو عثمان، وعبد الله بن خالد، وأبو عبدة ويوسف بن بُخت، والصّميل بن حاتم، فسلموا وجلسوا على الكراسي المحيطة بكرسيه، فلما أخذوا مقاعدهم، وحيّا بعضهم بعضاً، دخل ميمون العابد، جدّ بني حَزم البوّابين،

(1) ورد في النّص العربي: «أم تأخذ منه ما اتُّخِذ لك؟».

(2) ورد في النّص العربي: «وقال أرطباش فعين هذا العمل أعمل فيه، ثم عرّفه بأشياء كان النّاس يُنكرونها عليه وبيّنها له، فسُرّ بذلك عبد الرّحمن بن معاوية، وشكره عليه، وأمر له بعشرين ضيعة من ضياعه صُرفت إليه، وكساه ووصله، وولّاه القُماسة، فكان أول قومس بالأندلس».

(3) معظم المقاطع الواردة مأخوذة بنصّها عن ابن القُوطيّة، ص 58. مع تعديل في الجمل التي اختلفت فيها التّرجمة عن العربية، وقد تم التّنويه إلى ذلك في مواضعه. (م)

(4) يصف غايانغوس (Makkari, ii. 416) في ملاحظته بشأن هذه الواقعة نقلاً عن المقري أنّ ميمون كان زاهداً متعبّداً (fakir). (كتب المقّري: إنّ ميمون «كان في عداد الشّاميين، إلا أنه كان شديد الانقباض عنهم لزهده وورعه، فلما بصر به أرطباش قام إليه دونهم إعظاماً». المقّري، ج 1، ص 267. (م)

وهو أحد الموالي الشّاميين، فلما رآه أرطباش داخلاً قام إليه والتزمه وجعل يقوده إلى كرسيّه الذي قام منه، وكان مصمّداً بالذّهب والفضة، فأبى الرّجل الصّالح الجلوس عليه، وقال له: لا يحلّ لي هذا، وجلس في الأرض فجلس معه ثم قال له: ما جاء بمثلك إلى مثلي؟ فقال له ميمون: قدمنا إلى هذا البلد وظننا أنّ ثواءنا لا يطول فيه، ولم نستعد للمُقام، فحدث من الاضطراب على موالينا بالمشرق ما نتوهّم أنا لا نعود إلى موضعنا منه، وقد وسّع الله عليك، فأريد أن تعطيني ضيعة من ضياعك أعتمرها بيدي، وأؤدّي لك الحق منها، وآخذ الحق، فقال له أرطباش: لا والله، ما أرضى أن أعطيك ضيعةً مناصفةً، ودعا بوكيل له، فقال له: ادفع إليه المجشّر (المرعى) الذي على وادي شَوش، وما فيه من البقر والغنم والعبيد، وادفع اليه القلعة بجيان، وهي المعروفة بقلعة حَزم ملكه»[1].

وبعد مغادرة ميمون، لام الأشراف الشّاميّون أرطباس على تصرفه السّخي مع «شخص معدم فقير» مقابل إهماله لهم. وكان رد أرطباس عليهم ملفتا لأنه يظهر أنّ المسيحيين ما كانوا يخشون في ذلك الوقت إظهار تمسّكهم بعقيدتهم. فبعد أن يقول للصّميل إنّ «أهل ديانتك يخبروننا أنّ أدبهم لم يأخذْكَ ولو أخذك لم تنكرْ عليّ برَّ من بررتُ»، ثم يضيف «وقد رَوينا عن المسيح، صلّى الله عليه وسلم، أنه قال: مَن أكرم الله من عباده وجبت كرامتُه على جميع خلقه»[2].

ورغم أن ترجمة شربونو لابن القُوطيّة تسرد الأحداث نفسها التي أوردها پونس، فإنها تختلف عنها في بعض التّفاصيل. فهو يقول إنّ «الهدايا العديدة» التي ملأت صدر عبد الرّحمن بن معاوية حسداً، كانت مُهداة من أتباع أرطباس، وإنّ مصادرة أملاك أرطباس أرغمته على اللجوء إلى أبناء أخويه. وهذا أكثر ترجيحاً مما ذُكر بشأن أبناء أخوة عبد الرّحمن فيما أورده پونس. فعبد الرّحمن كان الأخير في سلالته، ما عدا

(1) النّص العربي منقول نصاً من كتاب: «تاريخ افتتاح الأندلس»، ابن القُوطيّة، تحقيق إبراهيم الإبياري، ص 57 – 60. (م)

(2) ابن القُوطيّة، ص60.

بعض أبناء عمومته، إذ قتل العبّاسيون كل أفراد عائلته قبل فترة قصيرة[1].

ويقول شربونو إنّ عبد الرّحمن أعاد إلى أرطباس عشرين «إقطاعية» بدلاً من عشرين «قرية» كما يورد پونس. والإقطاعية يمكن أن تضمّ عدة قرى، وهذا يشرح استعادة الأمير سريعاً لثروته ونفوذه.

ونجد في ترجمة وقائع زيارة الأشراف الشّاميين بعض المقاطع الموحية التي اغفلها پونس وغايانغوس ووردت في رواية المقّري الذي نقل كيف أن الصّميل بن حاتم لام أرطباس واعتبره غير جدير بعرش أبيه لأنه يفعل الخير في غير أهله[2].

وفي روايته لتلك الواقعة، يقول ابن القُوطيّة في كتاب «افتتاح الأندلس»: «فشكر (ميمون) وقام، وعاد أرطباش إلى مقعده [أو عرشه كما يبدو من الأصحّ أن نسمي كرسياً ملبّساً بالذّهب والفضة]، فقال له الصّميل: يا أرطباش، ما يعجزك من سلطان أبيك إلا نفاد الطّيبة، أدخل عليك وأنا سيد العرب بالأندلس، ويدخل أصحابي هؤلاء معي وهم سادات الموالي بالأندلس، فلا تُزِدنا من الكرامة على القعود على العيدان، ويدخل هذا السّوّال فتصير من إكرامه إلى حيث صرت، فقال له أرطباش: يا أبا جوشن، أهل ديانتك يخبروننا أنّ أدبهم لم يأخذْك، ولو أخذك لم تنكر عليّ بِرّ من بررت، وكان الصّميل أمّياً لا يقرأ ولا يكتب[3] - إنكم أكرمكم الله إنما تكرمون لدنياكم وسلطانكم، وهذا الذي أكرمته إنما أكرمته لله عزّ وجل، وقد رَوينا عن المسيح، صلّى الله عليه وسلم، أنه قال: من أكرم الله من عباده وجبت كرامتُه على جميع خلقه».

ينبغي هنا الإشارة إلى أن الصّميل كان جاهلاً لا يعرف القراءة ولا الكتابة. ويضيف

---

(1) ورد في النّص الذي رواه ابن القُوطيّة، ص 57 - 58: «ومن أخبار أرطباش: أنّ عبد الرّحمن بن معاوية أمر بقبض ضياعه التي كانت بيده، وأوجب ذلك أنه نظر إلى قبّته يوماً في بعض غزواته معه، وحولها من الهدايا غير قليل، إذا كانت الهدايا تتلقاه في كل محطّة من ضياعه فنفس ذلك عليه، فقُبضت منه وصار عند بني أخيه حتى ساءت حاله، فقصد قرطبة، وأتى إلى الحاجب ابن بُخت، فقال له (...)».

(2) Makkari, ii. 52 - 3.

(3) إن كون شريف عربي أمّياً في القرن الثّامن أمر نادر حتى أشار إليه ابن القُوطيّة.

ابن القُوطيّة أنّ وَقع ما قاله أرطباس على الصّميل كان شـديداً، فصمت، «فكأنّما ألقمَهُ حجراً».

وهنـا تدخـل من جاؤوا مع الصّميل «فقال له القـوم: دع هذا، وانظر فيما قصدنا له، حاجتنا وحاجة الرّجل الذي قصدك وأكرمته واحدة. فقال: أنتم ملوك، وليس يرضيكم إلا الكثير، ووهبهم مئة ضيعة، صار منها لكل واحد منهم عشر ضياع منها: طُرش لأبي عثمان، والقُنتين لعبد الله بن خالد، وعُقبة الزّيتون بالمدوّر للصّميل بن حاتم»[1] [2].

تشـير هذه القصة إلى مدى اتسـاع أمـلاك أرطباس، فرغم عـدم قدرتنا على تحديد مكان القُنتين El – Fennetin وعُقبة الزّيتون Okbet az – Zitun، فإنّ نظرة سريعة إلى الخارطة تظهر المسافة الشّاسعة بين طُرش والمدوّر وجيان ونهر وادي شوش.

وتجدر الإشارة إلى نقطتين أو ثلاث في رواية هذه الأحداث.

يتحـدّث أرطباس خـلال مقابلته مع عبد الرّحمـن بن معاوية عن «العهـود» التي أبرمها أجداد عبد الرّحمن معه. إنّ اسـتخدام الكتّاب المسـلمين لكلمة «العهود» بالطّريقة نفسـها للإشـارة إلى إعادة أملاك غيطشـة إلى أبنائه، يدعم حجتنا بشأن السّبب الرّئيسي وراء الغزو وموقف الأمراء في ذلك الوقت. ويؤكد ذلك أيضاً قول أرطباس لعبد الرّحمن «أم تأخذ منه ما أعطيتُك بنفسـي؟». ورغم فقره، لا بدّ أن أرطباس كان يشـغل مكانة عليا بين بني قومه. فهو كما يقول پونس، «قال دون مداورة أو اسـتطراد، كل ما كان النّاس يأخذونه» على عبد الرّحمن. لقد فعل كما يفعل شخص لديه الحق في أن يتحدّث عن الأمر.

وأخيراً، فقد ولّاه عبد الرّحمن مرتبة القماسة، ليكون أول من يشغل منصب قومس Count فـي إسـپانيا. وبالإضافة إلى ذلك يذكر ابن حيّان أن أرطباس، «قُمس إسـپانيا، وسـيّد النّصـارى، وجامـع الجزية» هـو الذي اقتـرح أن تقيم القـوات العربيـة التي تم استقدامها في حوالي العام 740 للمساعدة في إخماد ثورة البربر، على اراضي الدّولة.

---

(1) ابن القُوطيّة، ص 59 – 60. وردت الفنتين في كتاب ابن القُوطيّة «القتنين» وعقبة الزّيتون «عقدة الزّيتون» ربما يكون ناجماً عن خطأ مطبعي. (م)

(2) Al – Kuttiyyah in *J.A.*, pp. 468 – 72.

وهـذا دليـل آخر، ليس على أهميته في البلاد، وإنما على العلاقات الودية بينه وبين من يفترض أنهم غزوا بلاده[1].

ليس من السّهل تصديق الرّواية التي تقول إنّ بطل هذه الأحداث قام بسلب ممتلكات أبناء أخيه اليتامى، ولكن إن كان ذلك ما حصل، فما من شكّ أن سارة وأخويها حرموا ظلماً من ميراثهم بعد وفاة أبيهم ألمُند. لقد عملت على اسـتعادة تلك الأملاك من أبي الخطار، حاكم الأندلس، ولكن دون جدوى، وعندها قامت بإعداد سـفينة في إشـبيلية وركبتها مع أخويها وأبحرت إلى الشّـام قاصدة باب الخليفة نفسـه لتطلب منه إنصافها وأخويها. يعتقد أن هذه الزّيارة حصلت في حوالي العام 745، لأن أبا الخطار لم يحكم بالأندلـس سـوى في عامـي 745 و746، وعليه فمـن الواضح أن الأمـراء القوط تولّوا بأنفسهم إدارة أملاكهم لثلاثين عاماً على الأقل بعد الفتح الإسلامي[2].

وصلت سارة وأخواها إلى دمشق بسلام، وأحسن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك اسـتقبالهم. فأخبرته عـن مصابها، وطلبت منه أن ينصفها لما حصـل لها مع عمّها، ويصدرَ أوامره إلى حاكم الأندلس لكي يعيد إليها وإلى أخويها كل الأراضي التي ورثوها عن أبيهم، «كما ورد في عهد التّنازل الذي عقده طارق بن زياد مع أبيها، وأكّده سلفه، الخليفة الوليد».

«سُرَّ الخليفة بمقابلة سارة، وأعجبته جرأتها كثيرا، فأحسن معاملتها، واستقبلها في مجلسـه، وعندما أبدت رغبتهـا في الرّحيل، أعطاها كتاباً إلى والي شـرق أفريقيا [كان يمانيـاً] وأمره بإصلاح ما أصابها من ضـرر على أيدي عمّها أرطباس». وكانت النّتيجة

---

(1) Dozy, *Recherches*, i. 86.

(2) «فبسط أرطباش يده على ضياعهم وضمها إلى ضياعه، وذلك في خلافة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، فأنشأت سارة بن ألمند مركبا بإشبيلية حصيناً كامل العدة، وركبت فيه مع أخويها الصّغيرين تريد الشّام حتى نزلت بعسقلان من ساحلها ثم قصدت باب الخليفة هشام بداره بدمشق، فأنهت خبرها، وشكت ظلامتها من عمّها واستعدت عليه، واحتجت بالعهد المنعقد لأبيها وأخويه على الخليفة الوليد بن عبد الملك، فأوصلها هشام إلى نفسه، وأعجبته صورتها وحزمها، وكتب إلى حنظلة بن صفوان عامله بإفريقية بانصافها من عمها أرطباش وامضائها وإخويها على سُنّة الميراث فيما كان في يد والده مما قاسم فيه أخويه، فأنفذ لها الكتاب بذلك إلى عامله بالأندلس أبي الخطار ابن عمّه، فتم لها ذلك». المقّري، «نفح الطّيب»، ج 1، ص 266.

أن استعادت سارة وأخواها كامل أملاكهم وحقوقهم.

وعندما كانت سـارة في مجلس الخليفة هشـام، «رأت عنده حفيده عبد الرّحمن بن معاويـة الدّاخل بعدُ إلى الأندلس». وقبل مغادرتها الشّـام، زوّجها الخليفة من عيسـى بـن مزاحم، الذي جاء معها إلى الأندلس حيث وقف إلى جانبها لكي تسـتعيد أملاكها من عمها أرطباس. وأنجبت سـارة منه ولدين، هما إبراهيم وإسـحق، «فأدركا الشّرف المؤثل والرّياسـة في إشـبيلية» موطنهما، واشـتهرا ونالا التّقدير والاحترام لانتسابهما إلى أمّهما سارة القُوطيّة ابنة آخر ملوك القوط في الأندلس[1].

تُوفيَ زوج سـارة الأول عيسـى «في السّـنة التـي مُلِّك فيها عبـد الرّحمن الأندلس» (756 م)، فتزوجـت بعد فترة وجيزة من عُمير بن سـعيد اللَّخمـي[2]. يقول المقّري إن سارة لطالما لقيت التّكريم والحفاوة في بلاط عبد الرّحمن الأول في الاندلس. ويعزو المقّري ذلك إلى أنها التقته في بلاط الخليفة هشـام عندما كان أصغر أحفاده، دون أن يتنبـأ لـه أحد بأنه سـيولى المُلك. لكن الأرجح على ما يبدو أن إكـرام عبد الرّحمن لها

(1) Makkari, ii. 51.

(2) *Ibid.*, ii. 52, 415; and Al – Kuttiyyah in *J.A.* p. 434.

تجدر الإشارة إلى أن النّسخة العربية التي بين يديكم تعتمد اسم زوج سارة الثّاني كما أورده ابن القُوطيّة والمقّري وهو عُمير بن سعيد اللّخمي وليس عبد الرّحمن بن عُمَر بن سعيد اللّخمي كما ورد في النّسخة الانكليزية. (م) وقد ورد الاسم لدى المؤلفين على النّحو التّالي:

«وأنكحها الخليفة هشام من عيسى بن مُزاحم فقدم معها الأندلس وقبض ضياعها وهو جدُّ ابن القُوطيّة، وولد له منها ولدان: إبراهيم وإسحاق، ثم توفي عنها في العام الذي دخل فيه عبد الرّحمن بن معاوية الأندلس فتنافسها حيوة بن ملامس الملحجي وعُمير بن سعيد اللّخمي، فعنى ثعلبةُ بن عبيد الجُذامي بعُمير عند عبر الرّحمن ابن معاوية فانكحه إيّاها وولدت له: حبيب بن عُمير جدّ بني سيّد وبني حجّاج وبني مسلمة وبني حجز الجر، وهؤلاء أشراف ولد عُمير بإشبيلية، إذ كان له أولاد من غيرها ولم يشرفوا شرف هؤلاء». (ابن القُوطيّة، ص 32).

«وكانت أيام وفادتها على الخليفة هشام رأت عنده حفيده عبد الرّحمن بن معاوية الدّاخل بعد إلى الأندلس، وعرفها، فتوسّلت بذلك إليه لمّا ملك الأندلس ووفدت إليه، فاعترف بذمامها وأكرمها، وأذن لها في الدّخول إلى قصره متى جاءت إلى قرطبة فيجدّد تكرمتها ولا يحجب عياله منها، وتوفّي زوجها عيسى في السّنة التي ملك فيها عبد الرّحمن الأندلس، فزوّجها عبد الرّحمن من عُمير بن سعيد». المقّري، ج1، ص 267)

كان لأسـباب سياسية. لقد كان عرشه قوي البنيان، ولا بدّ أنه كان يرى أن من مصلحته أن يضمـن ولاء سـارة وأبنائها وأتباعها لما لهم من نفـوذ قوي، ولكونهم يجمعون بين عنصرين من عناصر الخصومة بالنّسـبة له - القوط والعرب اليمانيون. لقد كان العرب اليمانيـون هم الذين يشـكّلون خطورة عليه بشـكل خـاص، لأنّ العبّاسـيين كانوا على اتصـال بأبـي الصّبّـاح اليَحصُبي، شـيخ اليمانية في غـرب الأندلس الـذي أعلن ولاءه لخلافتهم فأرسلوا له راية سوداء (لواء آل البيت) على رأس قناة رمح[1].

يقـول المقّري نقلاً عن أحد المراجع أنه «لما مَلَك [عبد الرّحمن بن معاوية] الأندلس» [والحقيقـة أنـه لا هـو ولا إي ممـن خلفـوه فعلوا ذلـك حتى تولى عبـد الرّحمـن الثّالث] «وفدت إليه سـارة فاعترف بذمامها وأكرمها، وأذن لها بالدّخول إلى قصره متى جاءت إلى قُرطُبـة فيجـدد تكرمتها ولا يحجـب عياله منها»[2]. ويقول المقّري إن سـارة كانت تفد إلى عبـد الرّحمن بوصفها مسـيحية تعيش في نطـاق الأراضي الخاضعة لسـيادته[3]. لكن هذه الرّواية تتناقض على نحو ما مع ما أورده ابن القُوطيّة بشأن التّفاوض من أجل زواجها الثّاني الذي استخدم عبد الرّحمن نفوذه لاتمامه. فقد تنافس للزّواج من سارة خصمان هما «حيوة بن ملامس الملحجي [الحضرمي] وعُمير بن سعيد اللّخمي، فعُنى ثعلبة بن عبيد الجذامي [يماني] بعُمَير بن سـعيد عند عبد الرّحمن بن معاوية فأنكحه إياها»[4]. فلو أن مكانة سـارة غيـر ذات أهمية كبيرة بحيث تضع نفسـها في حمى عبد الرّحمـن فقط لكونها نصرانية، لما احتـاج الرّاغـب بالزّواج منها أن يسـعى لدى الجذامـي حاكم الأندلس السّـابق وأحد كبار الأشراف لكي يتدخل لدى الأمير لكي يزوّجه منها.

وفي الحقيقة، تشـير المراجع إلى أن عبد الرّحمن كان يعامل سارة طوال الوقت معاملة الصّديـق والنّد. فقد منحها امتيازاً لا يحظى به سـوى كبار القـوم في الدّخول إلى قصره في أي وقـت تشـاء. ويقول المقـري إن عبد الرّحمن كان يكرّم سـارة ويسـتضيفها في كل مرة

---

(1) Akhbar Majmua, 95

(2) المقّري، ج 1، ص 267.

(3) Makkari, ii, 51.

(4) ابن القُوطيّة، ص 32.

تجيء فيها إلى قُرطُبة وإنه كان يأذن لها بزيارة حريمه ورؤية زوجاته وبناته غير محجبات. وتنم هذه المعاملة التي خص بها عبد الرّحمن سارة عن ثقة عظيمة، فحتى يومنا هذا، لا تزال تحكم بيوت كبار العائلات السّنية آداب سلوكية صارمة حيث يتطلب الأمر إرسال وصيف قبل ساعات لإعلان زيارة امرأة لأخرى، حتى وإن كانت تربطهما صلة قربى[1].

ما كان عبد الرّحمن سيخص امرأة مسيحية بهذا التّكريم لمجرد أنه تعرّف عليها في صغره. ولكن من السّهل أن نرى أن الأمير الملسم الذي كانت المخاطر تحيق بولايته، أدرك الأهمية الكبيرة التي سيؤمنها له قربه من أميرة تعامل كملكة تحديداً في ذلك الجزء من المجتمع المختلط المسيحي المسلم الذي يمتلك القدرة، في حال امتُهن، على قلب الحكم الذي كان يسعى إلى تثبيت نفسه عليه.

عندما سمع يوسف الفهري، والي الأندلس[2]، بقدوم الأمير الأموي إلى إسبانيا، وكان قرب طُليطلة، « فاصبح وليس في عسكره سوى غلمانه وخاصته وقوم الصّميل قيس وأتباعه، فأقبل إلى طُليطلة وقال للصّميل: ما الرّأي؟ فقال بادرْهُ السّاعة قبل أن يغلظ أمره، فإني لست آمن عليك هؤلاء اليمانية [أن يذهبوا إليه] لحنقهم علينا [نحن بني مُضَر]، فقال له يوسف: أتقول ذلك، ومع مَن نسير إليه وأنت ترى النّاس قد ذهبوا عنا وقد انفضنا من المال، وأنضينا الظّهر، ونهكتنا المجاعة في سفرتنا هذه، ولكن نسير إلى قُرطُبة فنستأنف الاستعداد له، بعد أن ننظر في أمره ويتبين لنا خبره، فلعله دون ما كُتِبَ إلينا. فقال الصّميل: الرّأي ما أشرتُ به عليك، وليس غيره، وسوف تتبين غلطك فيما تنكبه، ومضوا إلى قُرطُبة»[3] [4].

وهذا ما حدث، وسرعان ما ظهر أنه ليس بوسعهم الاعتماد على ذلك القدز البسيط

---

(1) Cf. *Le Jardin Fermé* by Marc Helys, p. 140

(2) كان يوسف الفهري مثل عبد الرّحمن، من قبيلة قريش.

(3) الصّميل هو أحد الأشراف الشّاميين الذين منحهم أرطباس قسما من أراضيه.
الكلمات الواردة داخل مزدوجين [ ] مُضافة ليتطابق النّص مع النّسخة الإنكليزية والمصدر هو المقّري ج 3، ص 32 – 33. (م)

(4) Makkari, ii. 67.

من التّأييد نظراً للعداوة القبلية والدّينية بين الجانبين.

وبدلاً من أن يأخذ يوسف الفهري بنصيحة الصّميل، انتظر لمقاتلة عبد الرّحمن بالقرب من قُرطُبة حيث حقّق الأمير الأموي نصراً كبيراً[1].

وحارب العرب اليمانية إلى جانب عبد الرّحمن، ولكن يبدو أن ولاءهم لم يكن خالصاً له، فبعد هزيمة يوسف، اقترح عليهم رئيسهم أبو الصّباح يحيى اليَحصُبي حاكم إشبيلية الانقلاب على عبد الرّحمن، قائلا «يا معشر يمن، هل لكم إلى فتحين في يوم؟ قد فرغنا من يوسف والصّميل، فلنقتل هذا الفتى المقدامة ابن معاوية فيصير الأمر لنا، ونقدِّم علينا رجلاً منا، ونحل عنه هذه المُضَرية [بني مُضَر]، فلم يجبه أحد لذلك، وبلغ الخبر عبد الرّحمن فأسرَّها في نفسه إلى أن اغتاله بعد عام، فقتله»[2].

وأياً كانت الرّواية الحقيقية لطريقة استحواذ عبد الرّحمن الدّاخل على السّلطة في قُرطُبة، فما من شك أن العداوة كانت على أشدها حينها، كما كانت عليه قبل هجرة الرّسول، بين العرب اليمانية ومختلف القبائل المُضَرية، ويبدو مع ذلك أن أشراف إشبيلية اليمانيين خضعوا لتأثير قوي لكي ينحازوا في أرض المعركة إلى عدوهم القبلي ابن قريش. الطّرف الوحيد الذي كان في موقع التّأثير على اليمانيين هي الأميرة القُوطيّة التي يعود الفضل في كل ما تملكه إلى جد عبد الرّحمن، الخليفة هشام بن عبد الملك. ويمكن بسهولة تفسير العلاقات المتينة التي كانت تربطها بعبد الرّحمن بعد توليه الحكم واستقراره في قُرطُبة، لو أن عبد الرّحمن كان مديناً لها وللرجل الذي خطب يدها لما قدّموه له من دعم في الأيام الأولى لوصوله إلى الأندلس. ولا شك أن

(1) وفي ذلك كتب المقّري أنه لما أقبل عبد الرّحمن «إلى قرطبة خرج له يوسف (..) ثم انهزم أهل قرطبة وظفر عبد الرّحمن الدّاخل ونُصر نصراً لا كفاء له، وانهزم الصّميل، وفر إلى شودر من كورة جيان، وفر يوسف إلى جهة ماردة». كان يعرف بعبد الرّحمن الدّاخل، لانه أول داخل من ملوك بني مروان إلى الأندلس، وكان أبو جعفر المنصور يسميه «صقر قريش». المقّري، ج 1، ص 329. (م)

(2) Makkari, ii. 72

المقّري، ج. 3، ص 34.

تقاليد الضّيافة العربية كا لها أثر عليها، فقد كانت ضيفة كريمة على عائلته، وأكلت من خبزهم وملحهم، مع زوجها الأول في الشّام.

لقد أتينا على ذكر ابن ملامس الحضرمي بوصفه أحد الذين خطبوا يد سارة بعد أن ترملت في عام 756. ويبدو أن عبد الرّحمن كان راغباً في الا يفسد تدخله لصالح خصم الحضرمـي الود بينهمـا، ففي حوالي العام 760، زار الأمير منـزل أحد أفراد العائلة في إشبيلية والذي «قدّمه هدية للأمير بكل ما فيه، وقبل الأمير عبد الرّحمن عرضه السّخي مخافـة أن يهينه». ويضيف كوندِه أن ابن ملامس هذا توفي بعد ذلك بفترة قصيرة، وأن عبد الرّحمن رثاه بأبيات شعرية رائعة أثنى فيها على ضيافته وشهامته وكرمه[1].

لا يوجد أي شك في أنّ مضيف عبد الرّحمن بن معاوية في إشبيلية كان ابن ملامس الذي ذكر المقّري أنه جاء مع موسـى بن نُصير إلى الأندلس في سـنة 712، في حين أن طالب يد الأميرة سارة كان أخاه الأصغر أو أحد أبناء عائلته المقربين. فبعد وفاة الأب، ثار حيوة بن ملامس الحضرمي (يقول المقّري سـنة 772 م) في [أراضي] إشـبيلية مع سوريين من حمص Emesa[2] ممن استقروا فيها حديثاً، بدعم من عبد الغفار بن حميد اليَحصُبي رئيس لبلة، الذي نعتقد أنه ابن أبي الصّبّاح الذي قتله الأمير عبد الرّحمن.

ومن بين الذين خرجوا مع عبد الرّحمن لقتالهم ثلاثة من يمانيي إشـبيلية هم ملهب الكلبـي، وابن الحجّاج وابنـه[3]. ولا بدّ أن بني حجّاج كانوا علـى صلة قرابة بعُمير بن سـعيد اللّخمي، الزّوج الثّاني لسـارة، حيث أن فرعاً من أبنائها يحملون ذلك الاسـم، وسيرد اسمهم كثيراً فيما بعد.

يورد المقّري بين عامي 758 و779، ثماني ثورات مختلفة ضد عبد الرّحمن، شارك فـي معظمها يوسـف الفهري أو أصحابـه ومؤيدوه، وفي بعضها بشـكل أو بآخر عرب يمانيـة. وبمـا أن الفهريين واليمانيين ينتمون إلى قبائـل مختلفة ومتعادية، يبدو من غير

(1) Conde, i. 178 – 9.

(2) ذُكر أن عددهم كان قليلا. (*Akhbar Majmua, 92.*)

(3) *Akhbar Majmua*, 100.

المقنع التّفسير الذي يقترحه غايانغوس بأن معظم هذه الثّورات كانت نتيجة العداوات المتأصلة بين القبائل المُضَرية واليمانية[1]. فألامويون والفهريون كانوا من قبائل مُضَر، وانضمام بعض اليمانيين إلى الفهريين ضد الأمير الأموي، يثبت أن تلك الثّورات التي امتدت لسنوات طويلة كانت لأسباب سياسية وليس قبلية.

ونحن نرى أن أشراف إشبيلية الذين رحبوا بالأمير الأموي كانوا المسيحيين وكذلك اليمانيين الذين تأثروا بموقف سارة من خلال زوجيها العربيين. لم نجد أي معلومات عن القبيلة التي كان ينتمي إليها عيسى بن مزاحم الذي زوّجها به الخليفة هشام في دمشق. ويبدو من الصّعب أن يكون شامياً حيث كان أبناؤه مندمجين تماماً باليمانيين من أهل إشبيلية على مدى أجيال متعاقبة، وهم إمّا اعتنقوا المذهب الشّيعي أو بقوا على الدّيانة المسيحية لأجدادهم الملوك، كما فعل كثيرون منهم. ولكن ما من شك بالنّسبة لعُمير بن سعيد اللّخمي الذي كان ينتمي إلى خصوم عبد الرّحمن القبليين والدّينيين، أنّه كان يفترض في الأحوال الطّبيعية أن يقاتل إلى جانب بني عشيرته.

ولكن، وكما رأينا في المقاطع التي أوردناها سابقا، فقد انضمّ أفراد من عائلته إلى الأمير الأموي عندما خرج لإخماد ثورة قادها يمانيون. قد يقال إنّ الدّافع وراء ولاء اللّخميين أسياد إشبيلية هذا عائد إلى امتنانهم لما أبداه عبد الرّحمن من كرم إزاء الأميرة القُوطيّة. وما من شك في أنّ العلاقات الشّخصية لعبت دوراً في تصرّف ذاك الجيل. وكان ينبغي أن يمرّ 130 عاماً حتى نجد بعضاً من أحفاد سارة مشاركين في الفتن والثّورات التي قامت ضد الحكم في قُرطُبة. فمنذ وصول عبد الرّحمن الأول إلى الأندلس في عام 756 وحتى تولّي الأمير عبد الله الحكم في عام 888، لم يرد بتاتاً ذكر هذه العائلات في الرّوايات المتعلّقة بالإضطرابات المتفرّقة – التي كانت سرعان ما يتمّ إخمادها – في إشبيلية بإيعاز من أشخاص يعبّرون عن استيائهم على درجات متفاوتة في الأهمية.

وإن كانت الأميرة سارة وزوجها وقعا، كما نعتقد، عهداً على الحياد مع عبد الرّحمن

(1) Makkari, ii. 421.

الأول، في الوقت نفسه ووفق الشّروط نفسها التي حصل عليها مسيحيو كشطالى (راجعة صفحة 67 طبعة الأصل)، فهي سياسة تُحسب لهم. وأياً كانت حقيقة الأمور، فإنّ النّتيجة كانت مفيدة بشكل خاص لضمان ازدهار وتقدّم الأراضي التي حكمها القوط - اليمانيون الذين قويت عزيمتهم بعد مئة عام من ذلك التّاريخ.

كان عبد الرّحمن يتبع سياسة التّسامح مع من يعبّرون عن استيائهم منه، فما إن يظهروا رغبة للتّوبة يقوم بتعيينهم في مناصب عليا في الدّولة. وصحيح أنه ليس من السّهل على الدّوام تتبع الخدمات والامتيازات التي أغدقها على اليمانيين، حيث أنّ ابن حيّان والمقّري الذي خلفه في القرن السّابع عشر وهما من السُّنّة، كانا يتجنّبان الإشارة إلى أسماء القبائل التي ينتمي إليها الفاعلون الذين ترد أسماؤهم، إلا عندما يضطرّون لذلك، عندما يتعلّق الأمر بالامتيازات والألقاب التي أعطيت للشّيعة. ولكن يمكننا العثور ضمن المراجع على إشارات إلى حقيقة ما حدث - على سبيل المثال، في سرد المقّري للاضطرابات التي قام بها ابن ملامس وأصحابه. فرغم أنه يورد أنّهم هُزموا شرّ هزيمة وتعرّضوا للذّبح وتُركت جثثهم في ميدان المعركة، فإنه يضيف، أنّ «عدداً ليس قليلاً من المؤرّخين قالوا إنهم نجوا من القتل وأن عبد الرّحمن عاد وعفا عنهم بعد مدّة». ويروي المقّري نقلا عن «ابن حيّان أنّ عبد الرّحمن لما أذعن له يوسف صاحب الأندلس واستقرّ ملكه استحضر الوفود الى قُرطُبة، فانثالوا عليه، ووالى القعود لهم في قصره عدة أيام في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم بكلام سرَّهم وطيّب نفوسهم. مع أنه كساهم وأطعمهم ووصلهم، فانصرفوا عنه محبورين مغتبطين، يتدارسون كلامه ويتهافتون بشكره ويتهانَون بنعمة الله تعالى عليهم فيه»[1].

كم كنا نتمنّى لو أن ابن حيّان أورد ولو بعض أسماء «الولاة والرّؤساء» الذين، وقد جاؤوا يعلنون ولاءهم، يفترض أنهم من الفريق الآخر، كما كان سيفعل لو أنهم كانوا من فريقه هو. لكن مؤرّخ بلاط الأمويين لم يفكّر في أهمية تسجيل أسماء أعداء أميره، حتى عندما كان يشملهم بعفوه.

---

(1) Makkari, ii. 84 – 5, 88.

المقاطع العربية مأخوذة نصاً عن: المقّري، ج 3، ص 39.

وهنـاك واقعـة تمّ سـردها عن الأميـر عبد الرّحمن تشـير إلـى مبلغ عدلـه وإنصافه وتصميمه على معاقبة أولئك الذين سـلكوا سـلوكاً مشـوباً، حتـى وإن كانوا من أقرب المقربين له.

يبـدو أنّـه عندما ثار أبو الصّباح، شـيخ العـرب اليمانية على عبـد الرّحمن، كان بين الأسـباب التـي تعلّل بهـا أن الأمير لم يفِ بعهدٍ ضمنه له الوزير عبـد الله بن خالد نيابة عـن عبـد الرّحمن قبل وصوله إلى إسـپانيا (وربما لـم يكن عبد الرّحمـن عارفاً بذلك الأمـر). وبعد مقتل أبي الصّبّـاح، عزل بعد الرّحمن صهره عبـد الله بن خالد «صاحبه الثّانـي فـي المؤازرة والقيام بالدّولـة»، عن منصبه، والذي لم يعد يـرد ذكره في البلاط «وأقسم لا يشتغل بشغل سلطان حياته، فمات منفرداً عن السّلطان»[1].

ويـورد المقّري هـذه الواقعة ضمن وقائـع أخرى دلالة على قلّة وفـاء عبد الرّحمن لأولئك الذين ساعدوه في تولّي حكم الأندلس وبناء الدّولة. ولكن هذه الوقائع يمكن أن يُنظر إليها بوصفها دليلاً على تصميمه على معاقبة كل من يأتي عملاً شائناً.

ويسـرد المقّري عن ابن حيّان قوله نقلاً عن مؤرّخ من الغرب لم يذكر اسـمه أنّ عبد الرّحمـن كان «راجح الحلم، فاسـح العلم، ثاقب الفهم، كثيـر الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سـريع النّهضة، متصل الحركة لا يخلد إلى راحة، ولا يسـكن إلى دعة، ولا يَكِل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شـجاعاً مقداماً، بعيد الغور شـديد الحدّة قليل الطّمأنينة بليغاً مفوّهاً شاعراً محسناً سمحاً سخياً طلق اللسان، وكان يلبس البياض ويعتمُّ به ويؤثره[2]، وكان قد أعطي هيبة من وليّه وعدوه، وكان يحضر الجنائز ويصلّـي عليها ويصلّي بالنّاس إذا كان حاضـراً الجمع والأعياد، ويخطب على المنبر،

---

(1) Makkari, ii. 90 – 1.

المقطع العربي عن: المقّري ج 3، ص 44.

(2) كان السُّنّة يرتدون البياض، والشّيعة السّواد، دلالة على حدادهم المستمرّ على مقتل عليّ بن أبي طالب.

قلت: وهذا خطأ من المؤلفين، فهم يلبسون الثّواب حداداً على مقتل الإمام الحُسين، رضي الله عنه.

ويعود المرضى، ويكثر مباشرة النّاس والمشي بينهم» وكان يخطب بعسكره ويرفع اللواء بساعده. ويضيف ابن حيّان أنّ الأمير عبد الرّحمن أمر بأن يسمح بالدّخول إليه لكل من لديه شكوى، فيقول عنه «كان الدّاخل يقعد للعامّة ويسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم، ويتوصّل إليه من أراده من النّاس، فيصل الضّعيف منهم إلى رفع ظلامته إليه دون مشقة، وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقت طعامه، ومن وافق ذلك من طلّاب الحوائج أكل معه»[1].

جُلّ ما يأخذه المقّري على عبد الرّحمن هو ما ذكرناه آنفاً من عدم وفائه لأولئك الذين ساعدوه في وصوله إلى العرش وبناء دولته. ولكنه يسرد في هذا الإطار واقعتين بالإضافة إلى ما حدث مع صهره عبد الله بن خالد، في حين أن هناك العديد من القصص التي تروى عن طيبة قلبه واستعداده للعفو والصّفح. والحقيقة أنّ استقباله لمن حملوا السّلاح في وجهه، سواء من اليمانيين أو المُضَريين، عندما راسلوه في طلب الصّلح، يظهر مدى قدرته على كبت مشاعره الشّخصية حتى لا تقف عثرة في وجه سياسة متسامحة ومنفتحة تجاه أعدائه وهو النّهج الذي سار عليه طوال حياته.

وأيّاً كانت ميوله الشّخصية، فمن الواضح أنّ عبد الرّحمن الأول ظلّ طوال حياته وفياً للعهد الذي قطعه الخليفة الوليد فيما يخصّ الأميرة سارة. أمّا بشأن أرطباس، فتبدو الرّواية التي وردت عن مصادرة أملاكه منه غير مقنعة ومناقضة لكل ما نعرفه عن شخصية عبد الرّحمن بحيث أننا نميل إلى التّعامل معها بوصفها مُختلقة، وإن كانت رواية الوقائع المتعلقة بإعادة بعض أملاكه إليه تبدو حقيقية. وما كان يمكن أن يعمد كاتب مسلم إلى اختلاق مثل هذه الرّواية، أو لابن حيّان على الأرجح أن يشير إلى العهد الذي قطعه طارق بن زياد لأبناء غيطشة، نظرا لعلاقة سارة مع اليمانيين، لو أنّ الأمر لم يفتضح بحيث ما كان يمكن إغفاله. وربما كان الأمر برمّته مكيدة حاكها بعض أعداء القوط، وما قام به عبد الرّحمن لدى اكتشافه أنه تعرّض للتّضليل كان

(1) Makkari, ii. 88 – 9, 93.

المقّري، ج 1، ص 332.

نتيجة الدّوافع نفسها التي جعلته يعزل صهره الوزير ابن خالد.

يورد كوندِه فقرة توضيحية تتعلّق بموضوع العهود التي ابرمت في عهد عبد الرّحمن الأول، فيقول:

«اغتبط الأمير عبد الرّحمن كثيراً لأنباء انتصاره [على يوسف الفهري] آملاً في أن تضع وفاة هذا القائد نهاية لمحاولات فريقه الخائبة. وفي الوقت نفسه، اتفق الأمير عبد الرّحمن مع مسيحيي قشتالة[1] Castilla على الخراج أو الجزية التي سيؤدّونها له، ونصّت رسالة الأمان والحماية التي منحها لهم على ما يلي:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم،

كتاب أمان ورحمة عقده الأمير الأكرم الملك المعظم عبد الرّحمن للبطارقة والرّهبان ومن تبعهم من سائر أهل قشتالة (Castela, sic) وأعمالها ما داموا على الطّاعة في أداء ما تحمّلوه فأشهد على نفسه أنّ عهده لا يُنسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذّهب وعشرة آلاف رطل من الفضّة وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل ومثلها من البغال مع ذلك ألف درع وألف سيف ومن الرّماح مثلها في كل عام على خمس سنين. حُرّر في مدينة قُرطُبة في اليوم الثّالث من صفر من سنة 142هـ» (يونيو، 758)[2].

---

(1) ورد في النّص الانكليزي اسم المدينة Castilla [وهي التّهجئة الإسپانية لمدينة قشتالة Castile]؛ ويقول المؤلفان في ملاحظتهما على ما اعتبراه تهجئة خاطئة للاسم: لكن كوندِه ترك ملاحظة تقول إن هناك خطأ لأن المنطقة الواقعة على الضّفّة الأخرى من نهر وادي الرّملة Guadarama لم يكن اسمها قشتالة وإنما جليقية. من الواضح أن كشطالى Castela هي المقصودة. لقد تحدث غيبون عن هذه المعاهدة التي قرأ ترجمتها لدى ميخائيل غزيري، ولاحظ الاستخدام التّاريخي الخاطيء لاسم قشتالة. (Chapterli, *ad fin*)

(2) Conde, i. 173 – 4.

«كتاب أمان ورحمة وحقن دماء وعصمة عقده الأمير الأكرم الملك المعظم عبد الرّحمن بن معاوية ذو الشّرف الصّميم والخير العميم للبطارقة والرّهبان ومن تبعهم من سائر البلدان أهل قشتالة وأعمالها ما داموا على الطّاعة في أداء ما تحمّلوه. فأشهد على نفسه أن عهده لا يُنسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذّهب وعشرة آلاف رطل من الفضّة وعشرة آلاف رأس من خيار

وتجدر الإشـارة إلى أن كونده، ورغم أنه كان مدركاً تماماً، كما تشـير ملاحظته، للخلط الحاصـل بيـن Castilla و Castela و Castulo، مـن جانـب الكاتـب الذي ترجـم له، فقد قـام بنقـل المعاهدة كما هي. ونحن ممتنّـون للنّقل الأمين الذي قام به هـذا الكاتب الدّقيق لوثيقة مهمّة تشـكل دليلاً على ثراء وقوة المسـيحيين الذين حكمهم أبناء غيطشة في القرن الثّامن. من الواضح أنّ الوثيقة لا تعني مسـيحيي جيليقية إذ لا توجد سـجلات تشير إلى أن فرويلـة بن أذفونش ملك الجلالقـة (بن الفونس) أدى الجزية لعبـد الرّحمن. على العكس مـن ذلـك، فإنّ المـرّة الوحيدة التي أتـى فيها المقّري علـى ذكر فرويلة أكّد علـى انتصاراته على المسـلمين واشـتداد عزيمته واسـتفحال سـلطانه[1]. وبالمثل لا توجد أيّة إشـارة إلى دفـع الجزية فـي «الحوليّات العامـة» *Crónica general*. لكننا نعتقد مع ذلـك أنّ كوندِه، أو الكاتـب الـذي كان يترجم له، أخطـآ عندما أرّخ تلك المعاهدة في السّـنة التـي قُتِل فيها الفهري. فلم نعثر على أي سجلات تقول بأنّ مسيحيي كاثلونا (كشطالى) قدّموا له الدّعم، ويبدو الأكثر ترجيحاً أنّ المعاهدة وُقّعت مباشرة بعد سيطرة الأمويين على عرش قُرطُبة.

قـدّم الغزيـري (ii, 104) المعاهـدة فـي ترجمتهـا اللاتينيـة حيـث يسـتخدم اسـم "Castella" للدّلالة على مدينة كشـطالى. وربما أخذ كوندِه نسـخته من المجموعة العربية الإسبانية *Bibliotheca Arabico – Hispana* التي أعدّها هذا الكاتب.



الخيل ومثلها من البغال، مع ذلك ألف درع وألف بيضة من الرّماح الدّردار مثلها في كل عام. ومتى ثبت عليهم النّكث بأسير يأسرونه أو مسلم يغدرونه أنتكث ما عوهدوا عليه. وكتب لهم هذا الأمان بأيديهم إلى خمس سنين أولها صفر عام اثنين وأربعين ومئة». الحافظ شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان الذّهبي، «سير اعلام النّبلاء»، الجزء الثّامن، ترجمة عبد الرّحمن الدّاخل.

(1) Conde ii. 85.

كتب المقّري: «عندما شُغل المسلمون بعبد الرّحمن وتمهيد أمره، قوي أمر الجلالقة واستفحل سلطانهم، وعمد فرويلة بن أذفونش ملكهم الى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها وملكها من أيديهم، فملك مدينة لُكّ وبرتقال وسمورة وشلمنقة وقشتالة وشقوبية، وصارت للجلالقة حتى افتتحها المنصور بن أبي عامر آخر الدّولة ثم استعادوها بعده فيما استعادوه من بلاد الاندلس». المقّري، ج1، ص 330.

الفصل الرّابع

الأندلس في القرن التّاسع

واصل الخلفاء المباشرون لعبد الرّحمن الأول على عرش قُرطُبة نهجه في توطيد علاقاتهم مع المسيحيين والعرب اليمانية على المستوى الشّخصي. وتمتلىء كتابات المؤرّخين بما يشير إلى تعيينهم في مناصب عليا، حتى أنّ عبد الرّحمن الثّاني عيّن أحد أبناء اللّخميين في منصب قاضي قُرطُبة، وكان أخصّ المقرّبين منه النّصراني عُبيد الله بن قرلمان ابن بدر الدّاخل. وكان على علاقة جيدة بأهل إشبيلية التي هبّ لنجدتها وأمدّها بالعون عندما هاجمها أهل الشّمال، وقام بإصلاح الأسوار والمسجد من الأضرار التي لحقت بها[1].

كانت سياسة المصالحة ناجحة بحيث بقيت إشبيلية حتى سنة 888 موالية لحكّام قُرطُبة. ولكن مع وفاة الأمير المنذر[2] في ذلك العام، حصل تغيّر جذري في العلاقات بين الجانبين، على الرّغم من أنه لا يوجد ما يشير إلى السّبب الرّئيسي وراء هذا التّحوّل، عدا عن قيام خليفته الأمير عبد الله بعزل قاضي قُرطُبة اللّخمي ما إن تولّى الحكم[3].

---

(1) Conde, i. 268; Makkari, ii. 116.

جمع دوزي في كتابه *Recherches* كل الأدلّة المتوفرة عن الغزوات المختلفة التي قام بها مسيحيو الشّمال على شبه الجزيرة الإسپانية. وكانت الغزوة الوحيدة من بينها التي نجحوا خلالها في الوصول إلى إشبيلية في سنة 844 – 845، عندما قاموا بتدمير الأسوار وحاولوا إحراق المسجد لكنهم لم ينجحوا، وذلك وفق ما نقله ابن القُوطيّة الذي جاء قبله. ونجح عبد الرّحمن في دحر المهاجمين وردّهم على أعقابهم، ثم بنى مسجد إشبيلية الكبير.

(2) المنذر بن محمّد سادس الحكّام الأمويين منذ عبد الرّحمن الدّاخل. (م)

(3) Makkari, ii. 459.

أورد ابن حيّان الواقعة دونما تعليق. وورد بعدها أن «اضطربت عليه نواحي الأندلس بالثّوار والمتغلبين»، وبدا أنّ البلاد دخلت في حرب أهلية بشكل مفاجىء، ومنذ ذلك العام وحتى وفاته في عام 912، ظل في حالة خلاف مستمرّة مع العائلات اليمانية من المولّدين الذين ينتسبون بأصلهم إلى الأميرة سارة وزوجيها المسلمين.

وكان كبير اليمانيين حينها عبد الله بن حجّاج اللّخمي، حاكم إشبيلية وقرمونة، الذي كان يحكم مثل ملك على إشبيلية[1]. ويروي ابن حيّان أنه في العام 888 كان ابن حجّاج قد ضبط إشبيلية ومنّعها وجعلها أشبه بإمارة، رغم أنه كان يعترف من النّاحية الشّكلية بولاية الأمير عبد الله بن محمّد عليه. ويضيف ابن حيّان أنه كان لدى بن حجّاج جيش من الحرس يضمّ خمسمئة من الخيالة كانوا يرتدون أثواباً فاخرة موشّاة تعرف بالطّرز، وقد طُرّزت أسماؤه وألقابه على حوافها، وهو امتياز كان مقتصراً على الملوك وذرّيتهم، وعيّن القضاة والموظفين العموميين في أنحاء البلاد التّابعة له، وكان محبّاً للعلوم وبلاطه مفتوحاً أمام الشّعراء الزّائرين[2].

ويتوسّع دوزي في سرد ما أوجزه ابن حيّان، اعتماداً على ما يبدو على ما كتبه ابن القُوطيّة الذين تربطه بابن حجّاج علاقة قربى.

ويقول إنه منذ عهد القوط الغربيين، كانت إشبيلية مركز العلم والحضارة الرّومانية، ولم يحدث دخول العرب أيّ تغيير يذكر على الوضع الاجتماعي للمدينة التي كانت موطناً لنبلاء القوط وكبرى عائلاتهم الثّرية[3]. اتخذت الأميرة سارة من إشبيلية مقرّاً لها منذ عودتها من دمشق مع زوجها الأول عيسى بن مزاحم، وورث أولادها منه ومن زوجها الثّاني عُمير بن سعيد اللّخمي أملاكها وألقابها، كما حازوا على احترام وتقدير أهل إشبيلية. وكان بنو حجّاج في ذلك الوقت على رأس تلك العائلات المتحدة.

والقاضي هو أبو معاوية بن زياد اللّخمي. (م)

(1) لقد دعاه ابن حيّان إبراهيم بن حجّاج، لكن الأدلة المنطقية تشير إلى أنه أطلق عليه خطأ اسم أخيه الأصغر.

(2) Makkari, ii. 439.

(3) *G. der M.* i. 392.

كان عبـد الله بن حجّاج وأخوه إبراهيم من الجيل الثّالث أو الرّابع من أحفاد سـارة من زوجها الثّاني، في حين أنّ كاتب تاريخهم ابن القُوطيّة كان ينتمي إلى جيل بعدهما من أحفادها من زوجها الأول. وسيكون من المنصف الافتراض بأن التّطوّر والحضارة التـي عرفتها إشـبيلية في نهاية القرن التّاسـع نجما عـن التّزاوج والمصاهـرة بين نبلاء القـوط والعـرب اليمانية الذين عرفـوا بدورهم قروناً مـن الازدهار والرّقـي في اليمن السّـعيد[1] قبـل أن يحتـلّ الفرس بلادهـم ويرغموهم على الهجرة مـن يمنهم الحبيب إلى «قفار» مصر كما كانوا يسمّونها[2]. وفي الواقع، وإلى أن تولّى عبد الرّحمن الثّالث الحكم، الذي كان يسيل في عروقه دم يماني مسـيحي، وبمعنى آخر من المولّدين من ناحية الأم، كانت إشـبيلية بلا شـك متفوّقة على قُرطُبة في بعض المناحي ولا سيما في عهد بني حجّاج والأمير عبد الله الذي عاصروه.

ويختلـف ابن حيّان وابن القُوطيّة، كما نقـل عنهما دوزي، في تحديد تواريخ حكم عبـد الله بـن حجّاج وأخيه إبراهيـم اللذين حكما إشـبيلية بين تولّي عبـد الله الأموي الحكـم في قُرطُبة فـي عام 888 وتولّي حفيده عبد الرّحمـن الثّالث[3] وخلافته له على العـرش فـي عام 912. يمكننا أن نفتـرض على أيّ حال أنّ عبد اللـه بن حجّاج كان قد توفـي في العام 895، حيث يشـير العديد من المراجع إلى تولّـي أخيه الأصغر إبراهيم كأميـر أو ملـك على إشـبيلية في تلك السّـنة، والتي تـم بعدها توقيع هدنـة في الحرب الأهليـة الضّاريـة بين الشّـوام والبربر من جهـة، واليمانيين والمولّدين مـن جهة ثانية. وعليـه سـنعتمد على وصـف دوزي لبلاط إبراهيـم في تلك الفترة والـذي ينطبق على ولاية أخيه المتوفى حديثاً.

شـهدت قرمونـة حرباً شرسـة (سـترد تفاصيلها لاحقا)، وقـع خلالها عبـد الله بن حجّـاج كمـا روى مؤرّخو بلاط قُرطُبة، في الأسـر وقـام المُطرّف ابن الأميـر عبد الله

(1) Arabia Felix

(2) Lenormant, Book VII. ; cf. Butler, *Arab Conquest*, pp. 147 – 8.

(3) عبد الرّحمن النّاصر بن محمّد بن عبد الله.

بخنقه بعد أن هزمه وأباد جيشه. ولكن ذلك لم يضعف مكانة خليفته الذي تولّى في السّنة ذاتها الحكم كأمير مستقلّ يدفع الخراج إلى سلطان قُرطُبة، ويمارس سلطات مطلقة داخل حدوده. كان لإبراهيم جيش ينفق عليه كما ينفق السّلطان على جيشه، ويقوم بتعيين كل موظفي إمارته من القضاة والولاة وحتى أصغر العاملين لديه (كما روى ابن حيّان عمّا كان يفعله أخوه في سنة 891).

كان حكم إبراهيم بن حجّاج يحمل كل مزايا النّظام الملكي المتوارث، بدءاً من الحرس الأميري الذي يعدّ خمسمئة خيال، إلى الأثواب الملكية الموشّاة والمطرزة على حوافها أسماء الأمير وألقابه بخيوط ذهبية. لقد كان أميراً وتاجراً، واسع العلم محبّاً للعلوم وراعياً لها. وغالباً ما كانت تصله على متن السّفينة الواحدة هدايا من حكّام بلاد المشرق وأقمشة من مشاغل النّسيج في مصر وعلماء من الجزيرة العربية وقيان بارعات في الغناء من بغداد. وقد اشتُهرت من بينهن جارية تدعى قمر[1] وصلت أخبار جمالها الرّائع وفصاحتها وبراعتها في تأليف الألحان إلى إبراهيم فدفع فيها مبلغاً طائلاً، وأحضرها إلى قصره. كما استقدم ابن حجّاج أبا محمّد العُذري البدوي أحد علماء اللغة بالحجاز. فكانا مفخرة ببلاط إشبيلية في ذلك الزّمان. واشتهر عن العُذري أنه كان يوبخ كلّ من يسمعه ينطق بجملة غير صحيحة أو كلمة في غير محلها، فيصرخ بهم قائلاً:

ماذا فعلتم باللغة يا أهل الحضر؟

كان أبو محمّد العُذري ضليعاً بكل ما يتعلّق بفصاحة اللغة وجمال التّعبير.

أمّا قمر، فقد جمعت إلى جانب موهبتها بصوغ الألحان وفصاحتها في اللغة والتّعبير والبيان، الأدب والظّرف وعزّة النّفس. وقد قالت في أحد أشعارها المرتجلة

---

(1) «من بينهن «ومن النّساء الدّاخلات إلى الاندلس من المشرق قمر جارية إبراهيم بن حجّاج اللّخمي صاحب إشبيلية، وكانت من اهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الالحان وجُلبت اليه من بغداد وجمعت أدباً وظرفاً ورواية وحفظاً مع فهم بارع وجمال رائع، وكانت تقول الشّعر بفضل أدبها». المقّري، ج 3، ص 140 – 141.

إنها تفضل أن تكون امرأة عالمة حتى لو كان مصيرها النّار، على أن تكون امرأة جاهلة نصيبها الجنّة[1]. لقد ذاع في القرن العاشـر صيت العشرات من الشّاعرات والملحّنات والعالمـات في قُرطُبة، لكـن المؤرّخين لم يذكروهن قبل حكم عبـد الرّحمن الثّالث. ويمكن عليه أن نسـتنتج أنّ عادة توظيف نسـاء متعلّمات في البـلاط ظهرت في قُرطُبة بتأثير من أو اقتداءً بحكّام إشبيلية اليمانيين[2].

ويروى أنّ شـاعراً ساخراً يدعى القلفاط[3] كان عاجزاً عن الحصول على أجر كافٍ في قُرطُبة لأنّ عبد الله بن محمّد لم يكن يغدق على مثله من الشّـعراء، فقصد إشـبيلية وتلا على مسامع إبراهيم بن حجّاج أبياتاً تسخر من وزراء وموظفي البلاط في قُرطُبة. تركه ابن حجّاج يكمل قصيدته ثم قال له:

أوتظن أن رجلاً مثلي يمكن أن يغتبط لسماع مثل هذا الكلام المُبتذل؟

فعاد القلفاط خالي اليدين إلى قُرطُبة.

من السّـهل أن نـدرك أنّ رجلاً مثل إبراهيم من حجّاج، كما يرد وصفه هنا، مسـتعدّ لأن يكافح حتى لا تسـقط بلاده تحت حكم سـيء الإدارة متعطّش لسـفك الدّماء مثل حكم عبد الله بن أُميّة أو حتى ابنه المُطرّف الذي كان قائد جيش قُرطُبة، والوجه الآخر الشّرير لعبد الله، أو الشّيطان النّابغة، طوال فترة حكمه.

كانـت المعتقـدات الدّينية لأهل إشـبيلية – من اليمانيين أو المولّدين – تنبذ سـفك

(1) Dozy, *G. der M.* i. 444 – 5.

(2) يذكر كوندِه (i. 455, 482) العديد من هؤلاء النّساء في بلاط عبد الرّحمن الثّالث والحكم المستنصر، كما أشار يونس إلى أسماء أخرى (p. 513) وكذلك المقّري (Makkari, i. 161, 162). وتظهر أسماء الكثير ممن ورد ذكرهم أنهم من اليمانيين، أما الباقون فكانوا بالضّرورة من المستعربين. وحول مكانة المرأة في اليمن، يمكن مراجعة:

Cf. Lenormant, Bk. VI. 347,

(3) هذه رواية دوزي للواقعة، لكن كوندِه (i. 337) يسرد بعض الأعمال التي قام بها القلفاط [محمّد بن يحيى، أبو عبد الله] تجاه إبراهيم توحي بأنه ذهب إلى إشبيلية بوصفه جاسوساً يعمل لصالح السّلطان.

الدّماء بلا تمييز، وبشكل خاص، تكبيد غير المقاتلين ويلات الحروب. كان العرب اليمانية، مع بعض الاستثناءات، من أتباع عليّ، ابن عم الرّسول وزوج ابنته فاطمة، الذي أدّى قتله على يد السّفيانيين[1] (الذين خرجت منهم سلالة الخلفاء الأمويين) في النّهاية إلى انقسام الإسلام إلى مذهبين متعاديين: السُّنّة المؤيّدين لمقتل علي والذين واظبوا على مدى أربعين سنة بعد مقتله على لعن اسمه في صلواتهم علناً، والشّيعة الذين اعتبروه شهيداً واتّشحوا في مناطق عدّة بالسّواد ورفعوا راية سوداء رمزاً على حدادهم المتواصل عليه، وواظبوا على إحياء ذكراه في كل مكان بوصفه إمامهم ووليّهم.

ومن هنا يمكن فهم العداوة المتأصّلة بين العائلات اليمانية التي أقامت في إشبيلية، والشّاميين والبربر الذين دانوا بالولاء للأمويين في قُرطُبة. وكانت الخلافات بينهما كبيرة إلى درجة يصعب التّوفيق بينها سواء في أسلوب عيشهم وتفكيرهم وفوق كل شيء، مبادئهم ومفاهيمهم المتعلقة بالحرب والقتال. كان الشّيعة يتبعون في هذا المضمار «وصايا» أبي بكر[2]، التي تبنّاها واقتدى بها عليّ بن أبي طالب الذي خلفه بعد ذلك في الخلافة قبل ان يتم اغتياله. من الطّبيعي ألا يذكر ابن حيّان وأقرانه من المؤرّخين السُّنّة أيّ شيء أو ربما القليل في رواياتهم عمّا كان يسمّى «نهج علي بن أبي طالب»، ولكن كوندِه، الذي كتب هنا - ربما دون أن يدري - من وجهة نظر اليمانيين، يشير إلى ذلك النّهج مراراً بكلمات بسيطة. كما نجد صدى «لنهج علي» في مقاطع من ابن سعيد وابن غالب وغيرهما من الشّيعة، ليس فقط في كتاب كوندِه وإنما في روايات

---

(1) ترد العبارة بالأصل: المروانيين، وهذا خطأ فمؤسّس الخلافة الأمويّة كان معاوية بن أبي سُفيان (السّلالة الأمويّة السُّفيانيّة)، ثم انتزعها منهم مروان بن الحكم وتلاه بنوه (السّلالة الأمويّة المروانيّة). وأمّا مقتل سيّدنا عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه فلم يكن على أيدي بني أميّة بل اغتاله الخارجي ابن مُلجم، والمؤلفان يخلطان بين حادثة مقتل سيّدنا عليّ ومقتل سيّدنا الحُسين. وبعد فمن الافتئات التّعميم بأنّ أهل السُّنّة كانوا مؤيّدين لمقتل عليّ أو الحُسين، والصّواب أن يُطلق ذلك على بعض السّفيانيين تحديداً. (أحمد)

(2) العبارة من المؤلفين تبدو هكذا غريبة للغاية لاتستقيم. (أحمد)

نقلها كتّاب أخرون، في حين بات واضحاً فيما بعد أن حكّام آخر سـلالة يمانية عريقة، سلالة بني نصر الذين حكموا غرناطة، بنوا مملكتهم على أساس تبنّي ذاك النّهج.

يورد كونده نسخة كاملة من «الوصايا» في القسم الأول من سرده التّاريخي[1]. ومن هنـا يمكننـا أن نطّلع على أجزاء مدهشـة من وصايا أبي بكر إلى قادته وعسـكره عندما أرسلهم لمقاتلة الرّوم في الشّام:

قال أبو بكر لقادته:

«إيّاكم واتّباع الهوى (..) واسـتعملوا العقل وباعدوا عنكـم الظّلم والجور واعدلوا مع الجميع، فإنه لا أفلح قوم ظلموا ولا نُصروا على عدوهـم (..)»[2].

وأوصى عسكره بقوله:

«ولا تخالفـوا أمراءكـم (..) وأذا لقيتم القوم فلا تولّوهـم الأدبـار ومن يولّهم يومئذ دبـره الا متحرفاً لقتـال او متحيّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من اللـه [ومأواه جهنّم وبئس المصيـر]، ولا تخافوا الذّهاب للمعركة، ولا تدعوا كثرة أعداد أعدائكم تخيفكم. وإذا نَصركـم اللـه على عدوكـم فلا تعملوا سـيوفكم في من خضعوا لكـم ولا تمثّلوا فيهم، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً أو شيخاً كبيراً ولا امرأة. واذا ما سرتـم في أراضي أعدائكم، فلا تعقـروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شـجرة مثمرة، ولا تفسـدوا أو تحرقوا حقولهم أو مساكنهم، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة. ولا تهدموا شيئاً بلا طائل، واسـكنوا المدن والقلاع، ولا تهدموا منها سـوى ما يمكن أن يتّخذه أعداؤكم حصوناً لهـم. وارحمـوا المغلوبيـن والمقهورين، يرحمكم الله. ولا تتسـاهلوا مـع كل فخور متجبّـر، ومن لا يُذعن لشـروطكم. ولتكـن عهودكم بيّنة وتجنّبـوا الزّيف والخداع في

---

(1) i. 8 – 10.

(2) «واحذروا، والحذر ينفع (..) وايّاكم واتّباع الهوى، فقد أفلح من حفظ من الهوى والطّمع والغضب، وإيّاكم والفخر، وما فخر من خلق من تراب، ثم الى التّراب يعود (..) واستعملوا العقل وباعدوا عنكم الظّلم والجور واعدلوا مع الجميع، فإنه لا أفلح قوم ظلموا ولا نُصروا على عدوهم (..)». فتوح الشّام للواقدي، طبعة بيروت 1997، ج 1، ص 8. (م)

معاملة أعدائكم، ولا تخونوا ولا تغدرو إذا عاهدتم، ولا تنقضوا إذا صالحتم. وسوف تمرّون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصّوامع رهباناً فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له، ولا تهدموا صوامعهم. ولكن اقتلوا من أعدائكم من يشهرون السّلاح في وجهكم غير مذعنين لشروطكم»[1].

ومن ضمن الصّيغ العديدة الأخرى لوصايا أبي بكر لقادته وجنده هناك فقرة أخرى بعد تلك التي تتحدّث عن الرّهبان، وهي تتحدث عن رتبة أخرى من رجال الدّين يمكن التّعرّف عليهم لأنهم «قد حلقوا أوساط رؤوسهم». هؤلاء يوصي أبو بكر بقتلهم دون أن يعرض عليهم الاستسلام. ويبدو أن هذه الفقرة تشير إلى رجال الدّين العلمانيين، لكننا نشك فيما إذا كان أبو بكر نفسه أصدر مثل هذا الأمر الذي يبدو وكأنه إضافة ذات طابع طائفي تمّت في زمن لاحق، كما أنه لا ينسجم مع مبادىء الرّأفة والرّحمة التي تقوم عليها «الوصايا» التي تدعو عموماً إلى التّسامح والإنصاف.

يتّضح الموقف الذي كان يتّخذه السّنة من النّهج الذي اتّبعه الشّيعة والتزموا به من خلال توجيه المُطرِّف لابن أخيه عبد الرّحمن الثّالث، خلال خروجه لقتال ابن حفصون في عام 917، بأن يستأصل شأفة الثّائرين دون أن تأخذه بهم «رأفة أو شفقة» لأنّ المسامحة واللّين في رأيه مبادىء يساء فهمها[2]، مشيراً كما يقول كونده في ملاحظته، إلى أقوال علي بن أبي طالب ووصاياه التي حرّمت «قتل الهاربين خارج ميدان القتال كما حرّمت محاصرة المدن حصاراً شديداً لأكثر من بضعة أيام»، وهو ما يوحي بأن عبد الرّحمن كان قد أمر بالتزام هذه المبادىء.

هذه الواقعة وحدها كافية لكي تبيّن لنا شدة الاختلاف بين أتباع المذهبين في المبادىء الأساسية التي يتّبعونها، ويساعد في فهم النّزاع المستديم بين حاكم كانت

---

(1) تبدأ هذه الخطبة بقول أبي بكر «فتجهّزوا عباد الله إلى غزو الرّوم بالشّام، فإني مؤمِّر عليكم أمراء، وعاقد لهم عليكم، فأطيعوا ربكم..»، وقد ألقاها في جيش المسلمين بقيادة أسامة بن زيد قبل انطلاقه على رأس جيش المسلمين لغزو بلاد الشّام. انظر تاريخ الطّبري وتاريخ اليعقوبي. (م)

(2) Conde, i. 367.

سياسته تقوم على «عدم إيلاء أيّ اعتبار لمبادىء الرّأفة والشّفقة التي يساء فهمها» وأولئك الذين كان مذهبهم يدعوهم إلى الالتزام الصّارم بتلك الوصايا.

ويمكننا أن نلاحظ بصورة عرضيّة أنّ الخلاف المبدئي البارز بين المذهبين في طريقة خوضهما للقتال، يوضح بشكل كبير ما كان غير مفهوم في تاريخ الإسلام في إسپانيا، ويفسّر الكثير من الرّوايات المتضاربة عن أعمال قتل وحشية وسفك دماء جنباً إلى جنب مع قصص تعبّر عن سمات الشّهامة والمروءة والسّخاء جديرة بأرقى الحضارات.

لقد ورد الكثير من الرّوايات عن الصّفح على المغلوبين والرّأفة في معاملة غير المقاتلين وأهل الذّمة من غير المسلمين، وعن مراعاة مصالح الزّارعين والفلاحين في عهد عبد الرّحمن الثّالث وابنه الحَكَم المستنصر وحفيده هشام الثّاني ابن الحَكَم (أو بالأحرى حاجبه الشّهير المنصور بن أبي عامر وهو من اليمانيين) والمُعتمِد بن عَبّاد ملك إشبيلية، والذين كانت تسيل في عروقهم جميعم دماء يمانية. ولا شكّ أنّ آخر ثلاثة خلفاء على عرش قُرطُبة عملوا بتلك المبادىء تيمّناً بأجدادهم حكّام إشبيلية، حيث لم يُظهر أيّ من الحكّام الأمويين من قبل مشاعر التّعاطف هذه وهذه السّمات. وشكّلت هذه المبادىء أساساً لأكثر أساليب الحكم نجاحاً في إسپانيا المسلمة والتي تجلّت فترات اعتمادها في تألّق الحكم، حيث لم تكن الأندلس في أيّ وقت من الأوقات في مثل تلك القوة والثّراء والرّخاء والرّضا كما كانت في عهد هؤلاء الحكّام الذين ساروا جميعهم بصورة أو بأخرى على نهج عليّ واهتدوا به.

بعد فترة قصيرة من تولّي عبد الله بن محمّد عرش قُرطُبة في عام 888، كان ابنه محمّد والياً على إشبيلية، رغم أنه من غير الواضح إن كان والده هو الذي عيّنه في هذا المنصب أم عمّه المنذر قبل وفاته. ولا يوجد أيّ تفسير لما يعنيه هذا المنصب على مدينة كان بني حجّاج يحكمون فيها كالملوك كما يقول ابن حيّان[1]. ولكن قد يشير ذلك إلى أن الأمراء الذين غالباً ما كان يذكر أنهم عيّنوا حكّاماً على هذه المدينة أو

(1) Dozy, *G. Der M.*, i. 398, Conde, i. 327; Gayangos in Makkari, ii. 460 – 1.

تلك والتي نعرف أنه يسكنها ويحكمها أشراف ينتمون إلى الفريق الآخر في الدّولة، كانوا في الحقيقة موظفين لا يفعلون سوى تمثيل أمير قُرطُبة فيما يتعلّق بجمع الجباية من الأمراء المولّدين. وكما شرحنا من قبل، فقد كانت معظم مناطق جنوب غرب الأندلس يحكمها أمراء ينتسبون إلى الملك غيطشة، بصورة أو بأخرى، والذين كانت تربطهم علاقات مودّة وصداقة بالعائلات الشّيعية إن لم تكن علاقات مصاهرة. ومع ذلك، يسرد المؤرّخون الكثير من الرّوايات التي تتحدّث عن الخلافات بين «النّاس» والحكّام الذين عيّنهم الأمير عبد الله، مع التّمييز عموماً، وإن لم يكن على الدّوام، بين كبار القوم، أو الأشراف والنّبلاء، الذين كانوا يؤيدون أولئك الحكّام، والسّكان الذين يعيشون في تلك المناطق. وبذلك نعني أنه وعلى الرّغم من أن الحاكم وحاشيته كان يمكن أن يكونوا موالين للأمويين، فإنّ عامة النّاس كانوا بصورة عامة لا يحبّونهم وغالبا ما يعصونهم.

تبدو الرّوايات التي أوردها مختلف الكتّاب عن الدّور الذي اضطلع به الأمير محمّد في الأحداث التي أعقبت تولي والده للعرش، وخصوصاً أعماله في إشبيلية، متناقضة إلى درجة كبيرة بحيث لا يمكن تكوين صورة منسجمة من أيّ من الكتّاب، وعلى الأخص من ابن حيّان أو غايانغوس. ولكن من خلال تجميع الإشارات المتفرّقة إلى الأسماء والأماكن والتّواريخ في فقرات أُخذت من كتّاب مختلفين، تمكّنا من استخلاص شرح مقنع للأسباب والنّتائج التي أدّت إلى النّهاية المأساوية للأمير الشّاب الذي يبدو أن ابن حيّان وغيره من المؤرّخين السُّنّة تعمدّوا عدم تسليط ضوء كافٍ عليه، بغضّ النّظر عن الدّور الكبير الذي اضطلع به ابنه في تسطير تاريخ أمّتهم.

وعلى الرّغم من أنّ محمّداً عُرف بسعة علمه وحلمه وشجاعته، فقد كانت علاقته متوتّرة بأبيه وبأفراد عائلته الباقين، وذلك على ما يبدو بسبب حبّه لفتاة نصرانية تدعى ماريّا تزوّجها في الفترة ما بين 888 و890[1].

---

(1) Conde, i. 327, 358; Casiri, ii. 35.

يبدو أن محمّداً نفسه كان من المولّدين، حيث يورد مؤلف «السجلات العامة» *Crónica gene-*

من السّـهل أن نفهم أنه إن كان الأمير محمّد ابن امرأة مسـيحيّة وأحب وتزوج امرأة مسيحيّة، فإنّ الأمر كان سيولّد حساسية ويخلق توتراً مع أفراد عائلته السُّنّة المتشدّدين. وما من شـك في أنّ ماريّا زوجة محمّد كانت تنتمي إلى عائلة الأميرة سـارة، لأنه وبعد نحـو خمسـين سـنة من ذلـك الوقـت، عثرنا علـى رواية تتحـدّث عن تعامـل ابنه عبد الرّحمـن الثّالـث مع «ابن خالـه أحمد ابن إسـحق» المتحدّر من عائلة مسـيحية وأحد أحفاد الأميرة سـارة من زوجها الأول. ونحن نميل إلـى التّفكير بأن ماريّا كانت ابنة أو ابنـة أخي «الملـك» عبد الله بن حجّاج نفسـه، نظراً لحرص المقّري على حذف اسـم أبيها، والإشارة إليها باسم مُزنة فقط[1].

عندما بلغ الأمير محمّد إشبيلية، كانت المدينة في حال اضطراب نتيجة خلاف بين المولّديـن وأتبـاع عبد اللـه، لن نذكر تفاصيلـه. وكان الطّرفـان المتخاصمان قد وجّها خطابات تشـرح موقفيهما من القضية إلى سلطان قُرطُبة الذي كلّف محمّداً بتهدئتهما. وبعـد ان اسـتمع إلـى الطّرفيـن، أرسـل يطلب مـن السّـلطان تأجيل اتخاذ قـرار حول

ral أنه وجد في «كتاب قديم جداً» في مكتبة سان إيسيدورو في ليون، وثيقة توجد نسخة منها في قصر الإسكوريال، لشجرة عائلة عبد الرّحمن الثّالث الذي ينتسب من ناحية أمه إلى ملك نافارو (أو الدّوق) إينيغو أريستا Arista. كان للدّوق إينيغو ابن يدعى غارثي إينيغِث Garci Iñiguez وكانت له ابنة تدعى إنيغا Iñiga تزوجت الأمير عبد الله الذي كان زوجها الثّاني، وأنجبت منه الأمير محمّد. ويقول المقّري (Makkari, ii. 127) إنه في العام 861، غزا الأمير محمّد (والد عبد الله) أراضي پامپلونا وجلب معه فورتونيو، أحد أبناء غارثي إينيغيس ملك نافارو الذي بقي اسيراً لديه طوال عشرين عاماً في قرطبة. وحصل مؤلف «السّجلات العامة» على تأكيد لمعلوماته من مصدر مستقل هو كتاب رودريغو الطّليطلي «تاريخ العرب» *History of Arabs* وفي وثائق قديمة وهو يفترض بناء عليها أنه عندما اختطف فورتونيو، ذهبت أخته إينيغا معه. ويضيف أنه عندما قتل غارثي إينيغِث في سنة 885، بقي عرش مملكة نافارو خالياً إلى أن أفرج الأمير عبد الله عن نسيبه فورتونيو، بعد وفاة محمّد والمنذر. (*Crónica general*, viii. 102 – 4).

(1) Makkari, ii. 145.

قد يكون الباحثون العرب قادرين على معرفة أن كان اسم «مريم» يمكن أن يصبح «مُزنة» من خلال ارتكاب خطأ في نسخ الأسماء. ويبدو أن الأمر اقتصر على هذا التّغيير.

Cf. Pons, *Escrituras Mozarabes*, p. 67 note.

القضيـة، وبأنها سـتتضح له مع وصول الرّسـل الذيـن خرجوا إليه، نظـراً لكونها قضيّة معقدة وتتطلّب النّظر فيها بتمعُّن. لكن عبد الله، وتحت تأثير المُطرِّف، الذي كان دائماً يتبنّـى موقفاً معادياً لأخيه، تجاهل آراء ابنه الأكبر لا بل تعامل معها بوصفها دليلاً على عدم إخلاصه، وقد قدّم له محمّد سـبباً لذلك عندما سـمح لابن غالب، أحد الأطراف المعنيين، بالعودة مؤقتاً إلى قلعته التي كان الأمويون يسعون الى انتزاعها منه.

اغتبـط المولّـدون أمام سـماحة الأميـر الشّـاب ومعاملتـه الطّيبة لصديقهـم والتي اعتبروها دليلاً على تعاطفه معهم. لكن عبد الله استشاط غيظاً وأمر باعتقال ابن غالب وقتلـه، كما أرسـل فـرداً آخر من العائلـة المالكة، يدعـى أُميّة، ليحلّ محـل محمّد في منصـب حاكم إشـبيلية. عندئذٍ قرّر الأمير محمّد ترك كل شـيء والعيش بين المولّدين واليمانيين الذين بقي معهم حتى مماته[1].

عندما سمع الأمير عبد الله أنّ أخويه القاسم والأصبغ، وكذلك ابنه محمّد، انضمّوا إلى قادة التّمرّد في أليسـانة وأسـتبة والبيرة ورية، ومرتفعات سيرّانيا دي لا روندا، وأنّ عدداً من وزرائه وأفراد شـعبه الذين كانـوا يظهرون ولاءهم له رفضوا الاذعان لأوامره فـي شـنّ الحرب علـى أهل جيان Jaen، اشـتدّ بـه القلق مـن أن يرفع ابنـه محمّد لواء التّمـرّد في إقليم شـريش (خيريـث) Jerez ومدينة صيدونيا (شـذونة) أيضـاً. فمحمّد كان دائمـاً المفضّـل لدى أعمامه القاسـم والأصبغ حاكمي هاتيـن المدينتين. ولذلك أرسل المُطرِّف إلى إشبيلية أملا في أن يستمع أخوه محمّد إلى نصيحته فيطيّب خاطره ويسـترضي كبرياءه، في حين توجّه هو لمحاصرة طُليطلـة معقل النّصارى الذين كانوا لسنوات يرفضون الانصياع للحكم الإسلامي.

ولكـن محمّـداً، الـذي كان صاحب مظلمـة لا تتيح له الاسـتجابة لرغبـة والده في

(1) ربما خاف محمّد على حياته إن هو عاد ووقع في يد أبيه. ويبدو أنه كان قد تزوّج حينها، وكان تركه لإشبيلية يعني افتراقه عن زوجته. لم يترك المؤرخون السُّنّة الذين كتبوا تاريخ السّلالة الأموية معلومات من أي نوع (استناداً إلى التّراجم التي تمكّنا من الحصول عليها لأعمالهم) عن إجراءات ولاية العهد بعد أن عزل الأمير محمّد كحاكم على إشبيلية. ويقول غايانغوس إنه لم يعثر على تفاصيل إضافية غير ما ذكرناه هنا.

استرضائه، رفض عقد صلح مع المُطرِّف أو حتى التّفاوض معه. فكتب المُطرِّف إلى عبد الله يقول له إنه لم يسمح له بدخول إشبيلية وإن محمّداً رفض الإجابة على خطاباته. وربما كانت تجربة محمّد كافية لتجعله يعرف أنه لا يمكنه الاعتماد على أخيه كوسيط.

وانضمّ الكثير من الثّوار إليه وراحوا يحضّونه على مهاجمة قُرطُبة، وكان حلفاؤه قد ثاروا في كامل أقليم جيان، حيث أراضي أحفاد أرطباس. وفي الحقيقة، بدا الوضع خطيراً للمُطرِّف الذي كان على ما يبدو جندياً كفوءاً فأشار على الأمير عبد الله أن يدع ضباطه يشرفون على حصار طُليطلة ويعود فوراً إلى قُرطُبة.

أسرع عبد الله في العودة وأعدّ خطة لشنّ حملة مع المُطرِّف تتضمّن شنّ الحرب على محمّد لإخراجه من إشبيلية وأسره، والعمل في هذه الحين على تهدئة الثّورات في البلاد من خلال معاقبة الثّوار. ولم يكن عبد الله أو المُطرِّف يتخيّلان أنّ الأمر سيستغرق أكثر من ربع قرن ليتحقّق لهما ما أراداه[1].

كان محمّد خلال السّنوات الخمس التّالية أحد قادة المولّدين، إن لم يكن كبير قادتهم. وفي حين خاض ابن حفصون حرباً مستمرّة في المناطق المحيطة بقلعته بشتر، خاض محمّد وأمير إشبيلية عبد الله بن حجّاج، حربهما على قُرطُبة دون صعوبات في مناطق إشبيلية ولبلة وقرمونة. خاض المُطرِّف معارك كثيرة ضد أخيه في شذونة وشريش وأستبة وقرمونة في حين كان ابن حجّاج يدافع عن إشبيلية مع خيالته الخمسمئة.

يمكن من خلال إلقاء نظرة سريعة على الخارطة أن نرى أنّ الحرب الأهلية الطّويلة امتدّت، وكانت مقتصرة بصورة خاصّة على الأراضي التي ملكها الأمراء القوط في القرن الثّامن، وحلفاؤهم اليمانيون، وهي حقيقة تدلّ، مهما رغب ابن حيّان أن يسمّيها، على جهد مديد وتصميم على عزل سلالة قُرطُبة لصالح حاكم من ذرّيّة غيطشة.

---

(1) Conde, I. Chapters Ix. – Ixii. ; Gayangos in Makkari, ii. 460 – 1; Dozy, *G. der M.*, i. 398 ff.

ومن المستحيل معرفة إن كان المولّدون حينها يرغبون في تولية محمّد نفسه على العرش، نظراً لحقّ زوجته فيه، فمثل هذه الخطة، إن وُجدت، وُئِدت في المهد بسبب الوفاة المبكرة للأمير الشّاب، بعد أن قاتل طوال خمس سنوات جنباً إلى جنب مع أصدقائه من أهل إشبيلية. وخلال هذه السّنوات الخمس ولد ابنه الوحيد (يقول دوزي إنّ ذلك حصل في العام 891)، وهو الذي أصبح فيما بعد الخليفة عظيم الشّأن عبد الرّحمن الثّالث[1]. كان عبد الرّحمن في الحادية والعشرين عندما تولى العرش في عام 912 بعد وفاة جدّه. أمّا أبوه فعاش في إشبيلية من 888 أو 889 وحتى [2]895.

في عام 895، عندما عاد الأمير عبد الله إلى قُرطُبة من طُليطلة، أرسل خيّالته لتعزيز الجيش الذي قاده المُطرِّف لمطاردة المتمرّدين. ويقول كوندِه إن المُطرِّف تمكن من السّيطرة على إشبيلية وقرمونة، لكن رواية ابن حيّان لا تتفق معه. يقول ابن حيّان إنّ المُطرِّف توقف في موقع يدعى طلبيرة، على ضفاف نهر وادي الرّحى Guadaira[3]، على بعد نحو ثلاثة كيلومترات من إشبيلية، ومن هناك اتجه إلى قرمونة حيث، وإن كان لم يذكر ابن حيّان ذلك، حصلت معركة أصيب خلالها محمّد وعمّه القاسم ووقعا في الأسر[4].

---

(1) هو عبد الرّحمن النّاصر بن محمّد بن عبد الله، الذي اشتهر باسم عبد الرّحمن الثّالث. (م)

(2) *G. der M.*, i. 449 note.

(3) Guadaira معناها بالإسبانية وادي الرّحى، وفق قواميس اللغة والجغرافيا. واكتسبها النّهر لانتشار الطّواحين وكانت تسمى الرّحى عند الأندلسيين على ضفافه. ولم يرد الاسم لدى الإدريسي ولا المقّري. ولكن القلعة القائمة على هذا النّهر تسمى قلعة جابر Alcala de Guadaira وورد في بعض المراجع قلعة الغديرة. (م)

(4) Conde, i. 338 – 9; Makkari, ii 454.

المنطقة التي أشار إليها ابن حيّان باسم طربيل لا بدّ أن تكون تبلدة Tablada الواقعة على بعد كيلومترين من إشبيلية في السّهل الواسع الذي يحيط بتلك المدينة، وفي زاوية يشكّلها التقاء نهر وادي الرّحى بالوادي الكبير. باتت المنطقة اليوم منطقة للنّزهة حيث يتم تنظيم سباقات للخيل ولصيد الحمام، والپولو، والطّيران، وغيرها من الرّياضات. وصل أعداء إشبيلية على مدى التّاريخ مرّات عدة حتى تبلدة التي كانت دائماً منطقة مفتوحة للهجمات لكنهم قلما تمكنوا من الاقتراب أكثر. وصل مسيحيو الشّمال إلى تبلدة لكن من المشكوك فيه إن كانوا تمكنوا من

مُنيت قوات المولّدين خلال هذه المعركة بهزيمة ساحقة بعد معارك ضارية. وخاض الأمير محمّد الحرب ببسالة كما فعل خيّالته وجنده، ولكن حصانه قتل تحته، أما هو فحُمل وقد «اثخنته الجراح حتى شلّته عن الحركة» ألى حيث أخيه المُطرِّف. كما اقتيد عمّه القاسم، وهو في حالة شبيهة بحالته، إلى المُطرِّف الذي أمر بحراسة الأميرين الجريحين ومداواة جراحهما. تعافى القاسم وسُمعت أخباره مجدّداً في إشبيلية بعد بضع سنوات. أمّا محمّد فتوفي في السّجن عن ثمانية وعشرين عاماً. ويقول البعض إنّه مات مسموماً بأمر من أخيه، ويقول آخرون بأمر من أبيه، ويقال أيضاً إنه مات متأثراً بجراحه ولشدّة يأسه. والرّأي السّائد أنه قتل، والاسم الذي أعطي لابنه يشير إلى ذلك. كان يطلق على ابنه عبد الرّحمن ابن الرّابعة حينها في البلاط «ابن محمّد المقتول»[1].

* * *

الدّخول إلى المدينة، كما أنّ فرناندو الثّالث عسكر في تلك المنطقة مدّة ثمانية عشر شهراً في عامي 1247 - 1248، قبل أن يتمكّن من دخول إشبيلية، رغم أنه كانت معه كل قوات مسيحيي إسپانيا. ومن الممكن أنّ الكثير من الأحداث التي استخدم الكتّاب في وصفها عبارة «الاستيلاء على إشبيلية» نظراً لعدم معرفتهم بتضاريس المنطقة، إنما المقصود منها احتلال تلبدة. هذه الفرضية توضح الكثير من التّناقضات في رواية الأحداث التّاريخية.

(1) Conde, *loc. Cit.*; cf. Gayangos in Makkari, ii. 460 - 1, and Dozy, *G. der M.*, i. 449, quoting Ibn Adhari.

ورد في كتاب ابن القُوطيّة مقطعان عن الامير محمّد جاء أحدهما على الشّكل التّالي: «وتولى ابن امية حرب ابن حفصون، فقام وقعد إلى أن قتله مُطرِّف وابنه بإشبيلية، وصارت القيادة إلى احمد بن محمّد بن أبي عبدة، وكان يومئذ وزيراً وصاحب المدينة. وكان سبب قتل مُطرِّف له أنه كان قبيح النّية في أبيه عبد الله، وكان ينوي خلعه وكان يقول إنه لا يمكنه ذلك مع ابن أمية من عبد الله، وقد كان عبد الله يَحذر ذلك عليه، وقد كان قال لمُطرِّف: قد سوّغتك قتل أخيك محمّد إذ عاند وخالف، وبالله لئن أحدثت في ابن أمية حدثاً، لأقتلنك به. (ابن القُوطيّة، ص 116). (م)

الفصل الخامس

الأندلس في القرن التّاسع (تتمّة)

وقعت هذه الأحداث في العام 895. ويخبرنا ابن حيّان أن المُطرِّف عاد إلى إشبيلية بعد الحملة التي دار خلالها معركة قرمونة، و«أمر بإحضار القادة الأسرى، خلدون بن حجّاج وخالد بن عثمان بن خلدون وعبد الملك أمير شذونة وأتباعهم إليه. وبعد ذلك بثلاثة أيام أمر بخنقهم جميعاً». غير أن كوندِه يعيد تاريخ إعدام إبراهيم بن حجّاج إلى سنة 910 – 911[1]، بعد مناوشات لم يحدّد موقعها. ولو افترضنا أنّ ابن حيّان (أو ناسخه) زلّ قلمه وكتب إبراهيم عوضاً عن عبد الله، ستكون الأحداث اللاحقة أكثر اتفاقاً مع المنطق.

لم يذكر ابن حيّان شيئاً عن مصير الأمير عبد الرّحمن بعد موت أبيه محمّد. ونعتقد أنّه عاش على الأرجح في إشبيلية في حماية أقرباء والدته لعدة سنوات، وأنّ اسم «ابن المقتول» كان يُطلق عليه في بلاط إبراهيم بن حجّاج الذي خلف أخاه عبد الله في عام 895، بناء على فرضيتنا. ما كان ليجرؤ أحد أن يطلق على الطّفل مثل هذا اللقب على أسماع السّلطان عبد الله أو ابنه المُطرِّف الذي قتل محمّد على يديه، في حين أنه كان سيعتبر لقباً مشرفاً في إشبيلية بما أنّ أباه كان يعتبر هناك شهيداً لدعوة المولّدين واليمانيين الذين كان ابن حجّاج «ملكهم». وبالطبع ما كان سيسجّل تلك القصة غير مؤرّخ ينتمي إلى ذاك الفريق.

---

(1) Conde , i. 350;

ولكن للاطلاع على التّاريخ، انظر الملاحظة ص 88.

Ibn Hayyan in Makkari, ii. 454.

إن افترضنا أنّ كونـدِه محـقّ في تحديـد تاريخ مقتـل إبراهيم بن حجّـاج في وقت متأخـر، بعد عدّة سـنوات مـن التّاريخ الذي حدّده ابـن حيّان، وكذلـك أنّ ابن حجّاج الـذي قتله المُطرِّف لـم يكن إبراهيم وإنما عبد الله، تصبح روايته للأحداث أقرب إلى الفهم، حيث لـم يعطِ ابن حيّان أو أيّ كاتب آخر سوى القليل من المعلومات التي تشير إلى نجاح فريق قُرطُبة في السّيطرة على إشبيلية فعلاً أو قمع الثّورة فيها، في حين توجد أدلّة قوية على أنّ بني حجّاج استمرّوا يحكمونها.

يقـول كونـدِه إنّـه في العـام 902، وبـدلاً مـن أن يعمل السّـلطان عبد الله بمشـورة «المتشـدّدين» الذيـن حضّـوه علـى الانتهـاء مـن ابن حفصـون وإعلان الحـرب على النّصـارى، قام بإرسـال قائـده عبيد الله ابن الجمـري للتّفاوض مع ألفونسـو الثّالث[1] ملـك جليقيـة وليـون، وإنّ ابن الجمـري نجح في عقد صلـح معه والموافقـة على أن يشـنّ «حربـاً لا هوادة فيها» على الثّائرين الذين يقتربون مـن حدود مملكته[2]. يبدو أنّ البديـل للاتفـاق مع ألفونسـو كان عقد صلح مع ابـن حفصون. ويقول كوندِه اسـتناداً إلـى المراجـع التي نقل عنها المعلومـات الواردة في فصله هـذا إن مفاوضات الصّلح هذه أغضبت «الزّاهدين الورعين من مسـلمي الأندلس» إلى حدّ أنهم في بعض المدن باتـوا يغفلون ذكر اسـم الأمير عبد الله في خطبة الجمعـة أو في صلواتهم اليومية، لأنه لم يعد في نظرهم مؤتمناً على حقوق المسلمين. لكن الايحاء الوارد آنفاً بأن الخلاف كان دينياً وليس سياسـياً يتناقض مع الجملة التّاليـة. فاليمانيون لم يكونوا في أيّ وقت مـن الأوقات من «الزّاهديـن الورعين أو الملتزمين بفروض الدّين» في نظر السُّـنّة، أو كمـا كان عليـه رجال الدّين الذين أغفلوا ذكر اسـم عبد الله فـي الصّلاة. على العكس مـن ذلك، فغالبـاً ما وصفهم الكتاب الشّـوام بأنهم لا يتقيّدون أو يهملـون اتّباع تعاليم الإسلام المتشدّدة بحذافيرها. وهكذا عندما نعلم أن هذه «الجرأة التي ما بعدها جرأة» فـي إهانـة حاكم قُرطُبـة علناً حدثت في إشـبيلية، عاصمـة اليمانييـن والمولّدين، وأنّ

---

(1) يسمى في الكتب العربية القديمة الأذفونش. (م)

(2) Conde, i. 344 – 5.

القاسم وهو أخو عبد الله شجع على التّعبير عن هذه «الآراء الصّفيقة»، لأدركنا أنّ أسباب الاضطرابات سياسية وليست دينية.

ورد في فصل سابق أنّ عبد الله كان يرغب في إصلاح ذات البين مع القاسم وكسب ولائه من خلال تعيينه حاكماً على إشبيلية بعد معركة قرمونة التي هُزم فيها مع ابن أخيه محمّد، ولكن المُطرِّف عارض رغبة أبيه، وهكذا «طوى النّسيان القاسم كما لو أنه كان في السّجن». يظهر أنّ القاسم نجح في الهرب أو أنّ عبد الله تحدّى ربما لمرة واحدة المُطرِّف وتصرّف خلافاً لمشورته، لأنّه اعتباراً من العام 902 استعاد القاسم نفوذه بين أهل إشبيلية.

عندما تناهت أخبار إشبيلية إلى أسماع عبد الله أرسل أحد وزرائه، متنكّراً على ما يبدو، لاستطلاع الأمور. وعاد الوزير، الذي كان شجاعاً حادّ الذّكاء، ليؤكّد للملك صحّة ما نقل إليه، ويقول له إنه بدلاً من ذكر اسمه في الصّلوات، كانوا يذكرون اسم «خليفة الشّرق»[1] في حين أنّ القاسم كان يقول في العلن إنه لا ينبغي تأدية الزّكاة *azaque* إلى عبد الله، لأنه لم يكن مسلماً تقياً ولا مؤمناً، وإنه كان يستخدم الخَراج في غير صالح المسلمين[2]. وهكذا أمر عبد الله بسجنه ودَسِّ السّم له في السّجن[3].

الأرجح أن المعاهدة التي وقعها عبد الله مع ألفونسو الثّالث ضد ابن حفصون

---

(1) كان الخليفة العبّاسي، الذي يعتنق المذهب الشّيعي ويرجع بأصله إلى أبي العبّاس السّفاح الذي قضى على الأمويين، عدواً لأمير قرطبة، مختلفاً معه في الدّين والانتماء القبلي.
قلت: هذه أيضاً من أخطاء المؤلفين، فصحيح أنّ بني العبّاس اتّخذوا منذ مبدأ قيام دولتهم على يد أبي العبّاس السّفّاح السّواد شعاراً، ونادوا بثارات آل البيت من بني أميّة، ولكنّ الخلفاء العبّاسيين كانوا من أهل السُّنّة، لا مراء في ذلك ولا مُشاحّة. (أحمد)

(2) *El Azaque* – الزّكاة.
استخدم المؤلفان كلمة tithe للدّلالة على الخراج وهي تعني العُشر وكان المسيحيون يدفعونها طواعية أو كضريبة للكنيسة. (م)

(3) Conde, i. 344 – 6.
من غير الواضح كيف أمكن للملك عبد الله اعتقال القاسم لا سيما وأنه كان حرّاً في إشبيلية. والأرجح أن وزير عبد الله دبّر مؤامرة للقبض عليه.

كانت السّبب الحقيقي الذي أغضب أهل إشبيلية اليمانيين والمولّدين ودفعهم إلى إهانة حاكم قُرطُبة. لقد كان حليفهم ابن حفصون (مراجعة الفصل التّالي) ورغم كونه مسيحياً على علاقة وطيدة مع الكثير من العائلات ذات الأصل اليماني.

ولكن بعد هذه الأزمة، دخلت العلاقات بين بني حجّاج وعبد الله وبصورة مفاجئة مرحلة جديدة. يقول دوزي إن عبد الله أصبح صديقاً لابن حجّاج، وبما أن إشبيلية كانت موئل التّمرّد، ما إن أزاح العداوة التي كان يكنها له زعيم الثّائرين عليه، سرعان ما انصاعت لبلة وكل بؤر العصيان حتى الجزيرة لحاكم قُرطُبة. ويقدّم دوزي شرحاً مستفيضاً لهذا التّغيّر، لكننا سنكتفي اختصاراً بالقول إن عبد الله احتجز ابن بن حجّاج أسيراً لديه، ودفع الأب إلى الإذعان من خلال إعادته إليه[1].

يخبرنا كوندِه أنه في العام 910 - 911، باغت المُطرِّف جيش المولّدين الذين وافقوا حقناً لدمائهم على تسليمه قائدهم إبراهيم بن حجّاج الذي قام المُطرِّف بقطع رأسه[2].

في هذه السّنة ذاتها، كما يقول كوندِه، يكتشف قائد الجيش عُبيد الله بن جمري الذي حقّق العديد من الانتصارات على الثّوار، أن المُطرِّف يعمل على إقناع أبيه بتنحيته من منصبه كقائد للجيش ووالي مقاطعة ماردة متعلّلاً بتقدّمه في السّن ممّا يستدعي أن يرتاح بعد أن أنهكته الحرب الأخيرة التي خاضها. يرفض الأمير عبد الله الأخذ بطلب المُطرِّف الذي يصرّ على ذلك والسّبب أنه كان يريد أن يحصل على منصب ابن جمري لنفسه. عندما علم ابن جمري بذلك فضّل أن يحفظ كرامته ويستقيل من منصبه لصالح المُطرِّف بحجة أنه يرغب في أن يستأذن لفترة طويلة لأداء فريضة الحجّ في مكّة. ولكن

---

(1) *G. der M.*, i. 441 - 7.

(2) Conde, i. 350.

من الواضح أن التّاريخ الذي يورده كوندِه هنا (298 هـ، و910 - 911 م) خاطىء، لأننا قرأنا في مراجع أخرى أنه خلال السّنوات التّسع الأخيرة من حكم عبد الله كان في حالة سلام مع بني حجّاج. ولكن إن غيّرنا التّاريخ إلى 289 هـ (902 م) بدلاً من 298 هـ. نحصل على ما يشبه التّسلسل الزّمني للأحداث التي سجلها مختلف الكتّاب، ولتحقيق ذلك نقوم بتعديل التّاريخ الذي سجّله كوندِه.

يبـدو أن ابـن جمري تخلّى عن فكـرة الحج، لأنه عندمـا عاد إلى قُرطُبـة عيّنه عبد الله رئيسـاً لحراسـه الصّقالبة وهم من «الأجانب الشّـرقيين الذين كانـوا يلقون كل احترام لكياسـتهم وبسالتهم وإخلاصهم اللامتناهي. كانوا يتولّون حراسة القصر من الدّاخل، ويحملون سيفاً يستخدم باليدين وترساً ودبّوساً».

فـي غياب المُطرِّف وانشـغاله بقمـع الثّائرين على الحكـم، وكان يقطع رؤوس كل من تقع يده عليهم أو يطعنهم برمحه، فيرهبه أصدقاؤه قبل أعدائه بسـبب قسوته وشدّة انضباطه العسكري، اغتنم ابن جمري الفرصة للانتقام من هذا الأمير وقدّم إلى الملك عبد الله حفيده الذي يفترض أن يصبح بصورة طبيعية ولياً للعهد لو نال عطف عبد الله وحبّه. أعلن ابن جمري نفسه حامياً لعبد الرّحمن الصّغير ابن محمّد المقتول، وبذل ما في وسعه ليكسب قلب الملك وتعاطف الشّيوخ والولاة والوزراء وغيرهم من الأعيان والأشـراف النّافذين لمصلحة الصّبي الصّغير. حرص عبد الله على كبت كل ما يمكن أن يدلّ على حبّه للصّغير خشـية إغضاب ابنه المُطرِّف، ولكنه كان يسـتمع في مجلسه الخـاص وبكثيـر من الرّضا لكلمات الثّنـاء على حفيده الذي جعلت منـه رقته ودماثته وطباعه المحبّبة مصدراً للفرح والبهجة في بلاط قُرطُبة[1].

يوضح المقطع التّالي (المأخوذ عن كاتب شيعي بالطّبع) كم كان عبد الله يهاب ابنه الـذي كان يعتقـد كثيرون أنـه كان مصمّماً على تولّي الحكم مـن بعده، كما يفترض أن تسـير عليه طبيعة الأمور لو أن محمّداً وابنه توفّيا. كما يشـير إلى أنّ غيرة المُطرِّف هي التي فرضت حتى ذلك الحين إبقاء عبد الرّحمن الصّغير بعيداً عن الأنظار.

لنعُد الآن إلى قصة دوزي عن «ابن» بن حجّاج في ضوء حرص عبد الله على إخفاء حبّه لحفيده المولّد «حتى لا يسبّب إي إزعاج» للمُطرِّف. يسرد دوزي باستفاضة وقائع اخماد الاضطرابات في إشبيلية، وهو ما يمكن اختصاره فيما يلي:

فـي العـام 899، اطّلع إبراهيم بن حجّاج على خطاب كتبـه خالد بن خلدون للأمير

(1) Conde, i. 351 – 2.

عبـد اللـه، وفهم من خلالـه أن ابن خلـدون يتآمر عليـه. لام خالداً وأخـاه كُرَيْب على خيانتهما له. هاجمه خالد وجرحه لكنه نجح في طلب المسـاعدة وقتلهما. اعتباراً من ذيّاك الحين، أصبح إبراهيم بن حجّاج وحده أميراً على أراضي إشـبيلية، ولكن بما أنه شـعر أنّ عليه أن يبرّر فعلته للأمير الذي كان لا يزال يحتجز ابنه[1]، كتب إليه ليشـرح له أنه ما كان بوسـعه أن يفعل غير ذلك وأنّ الأخوين كانا يحضّانه باسـتمرار على التّمرّد، وأنـه لـم يكن في طويتـه مؤيداً في يوم من الأيـام لآرائهما وأنه في حال عيّنه السّـلطان والياً على إشـبيلية فسـيتحمّل كامل مصاريف الخدمات العمومية وسـيؤدّي له إضافة إلى ذلك سـبعة آلاف دوقية كل سـنة. وافق السّلطان على عرضه وأرسل «رجلاً يدعى قاسـم» إلى إشبيلية ليقوم مقام مساعد له، لكن إبراهيم سرعان ما جعل قاسماً يفهم أنه في غِنى عن خدماته.

يبـدو بالطّبـع غريبـاً أنّ ابـن حجّاج، الذي أذل نفسـه كما هـو وارد لكـي يُنعم عليه عبـد الله بعطاياه، لم يأتِ أبداً على ذكر اسـتعادة ابنـه من بينها، في الوقت الذي عرض شروطاً متهاونة من أجل تعيينه حاكماً على مقاطعة كان في الأصل يحكمها وحده كما رأينا سابقاً.

بعـد ضمـان تعيينه حاكماً لإشـبيلية وتخلّصه من ذاك الرّجل الذي يدعى «قاسـم»، يخبرنـا دوزي أنّ ابن حجّاج طلب اسـتعادة ابنه، لقـد طلب ذلك عدة مرّات، لكن عبد اللـه أصرّ على رفض إعادته، رغم أنّ إبراهيم غامر للحصول على مراده بالتّهديد بعدم دفع الخراج له، وبالتّحالف مع عُمَر بن حفصون.

وجـاء تهديـد إبراهيم بنتيجـة غريبة هي التّوقيـع على عهد صلح بيـن ابن حفصون والأمير عبد الله، وليس بين إبراهيم والأمير، أو إبراهيم وابن حفصون، كما كان يمكن لنا أن نتوقع.

لكن الهدنة لم تسـتمرّ طويلا، إذ عقدت في عام 901 ونُقضت في عام 902، عندما

---

(1) يبدو أنها المرة الأولى التي يذكر فيها ابن إبراهيم بن حجّاج الذي عرفنا أنه كان يدعى عبد الرّحمن.

هاجم ابن حفصون جند قُرطُبة تحت قيادة ابن جمري وهزمهم. وما إن بلغت مسامع عبد الله أنباء هذه الانتكاسة، حتى أمر بقتل ثلاثة من رهائن ابن حفصون المحتجزين لديه، أما الرّابع فأعفي عنه بعد أن أقسم الولاء للسّلطان.

«ثم جاء دور عبد الرّحمن ابن إبراهيم بن حجّاج»، الأمر الذي يفترض أنّ ابن حجّاج كان مؤيّداً لابن حفصون في ذلك الحين، إلا إذا افترضنا أنّ تحالف ابن حجّاج مع ابن حفصون - الذي عقده تحدياً للسّلطان - جعله جزءاً من الصّلح الذي عقد قبل سنة من ذلك بين عبد الله وابن حفصون. سنرى فيما بعد أنه يصعب أحياناً التّوفيق بين روايات دوزي نفسها.

كان عبد الله قد أمر بإخراج عبد الرّحمن وقتله عندما تدخّل وصيفه بدر الذي كان على علاقة وديّة مع ابن حجّاج، وقال للملك الغاضب كلاماً منطقياً هدّأ من ثورته.

ذكّر بدر الملك بأنّ ابن حجّاج تعهّد بالإذعان له ما إن يعود إليه ابنه. فإن قُتل الصّبي، سيتعيّن عليه ليس فقط مواجهة ابن حفصون الذي لن يغفر أبداً، لكونه إسپانياً، قتل رهائنه، وإنما عداوة حاكم إشبيلية إلى الأبد. لقد كان عربياً ولم تكن قد ضاعت تماماً فرصة استمالته إلى جانب الأمير إن بقي الوضع على ما هو عليه الآن، أما في حال قُتل الفتى عبد الرّحمن، فسيُعقد بين ابن حفصون وابن حجّاج حلف دائم على العداء المديد للسّلطان.

تردّد عبد الله عندما عرض عليه وصيفه المسألة من هذا الجانب. فتابع بدر مؤكداً له أنه قادر على ضمان طاعة أشراف إشبيلية ما إن يطلق سراح ابن إبراهيم بن حجّاج، وهكذا أعيد عبد الرّحمن إلى والده بعد أن أمضى ست سنوات بعيداً عن إشبيلية[1].

لو أنّ هذه الأحداث وقعت فعلاً، كما يقول دوزي، في سنة 902، فهذا يعني أنّ الفتى وقع في يد عبد الله في حوالي سنة 895، وهي السّنة التي هُزم فيها ابنه الأمير محمّد وتوفي.

---

(1) Dozy, *G. der. M.*, i. 438 – 44.

بعدها، يقول دوزي، إنه وخلال السّنوات التّسع الأخيرة من حكم عبد الله، هدأت أحوال إشبيلية وواظب ابن حجّاج على توريد الجباية بانتظام دونما حاجة إلى إرسال الجند في طلبها. ولأنّ اصطلاح الحال بين إشبيلية وقُرطُبة كان نتيجة لحسن نصيحة بدر الصّقلبي، رقّاه عبد الله إلى مرتبة الوزارة والشّورى ووضع ثقته فيه حتى أصبح رئيساً للوزراء بالفعل، وإن لم يحمل ذلك اللقب[1].

لم يأتِ ذكر عبد الرّحمن هذا بعدها حتى عام 913. وكان إبراهيم قد توفّي خلال تلك الفترة، وخلفه كما يقول دوزي، ابنه عبد الرّحمن على ما هو عملياً عرش إشبيلية. وفي السّنة التي تولّى فيها عبد الرّحمن الثّالث حكم قُرطُبة خلفاً لجدّه عبد الله، أو حواليها، توفّي عبد الرّحمن الآخر (ابن حجّاج) وتولّى مكانه أخوه محمّد الذي اعلن الولاء للسّلطان الجديد[2].

وبدلاً من التّوفيق بين مختلف الصّيغ التي قدّمها دوزي لتلك الأحداث، سنقوم بسرد تلك التي استنتجناها من كتابات دوزي عن الرّهينة عبد الرّحمن، ومن رواية كوندِه عن فترة شباب عبد الرّحمن الثّالث، على أساس أننا نفترض أنّ عبد الرّحمن بن حجّاج وعبد الرّحمن الثّالث، هما الشّخص نفسه - وتحديداً ابن الأمير محمّد وزوجته ماريّا، وأن الخلط الشّديد التّعقيد بين مختلف الرّوايات المتعلقة بالرّهائن وبالاعدامات التي ذهب ضحيتها عدد من أفراد بني حجّاج ناجم عن تكتّم المؤرّخين السُّنّة عن الحقيقة، وهم الذين كانوا يعتبرون أنّ من واجبهم السّياسي إن لم يكن الدّيني، التّعتيم على تلك الفترة الطّويلة بما شهدته من الهزائم والخزي والعار. نحن لا ندّعي بأن قصتنا هي الحقيقية، لكننا نعتقد أنّ بإمكاننا القول إنها أكثر قابلية للتّصديق من أيّة رواية أخرى للأحداث نفسها.

عندما توفي الامير محمّد في عام 895، كان طفله مع أمّه في إشبيلية. كان السّلطان عبد الله، الذي أحبّ ابنه البكر حبّاً جمّاً، على الرّغم من كل ما جرى بينهما، راغباً في

(1) *Ibid.*, i. 447.
(2) *Ibid.*, i. 456.

أن يحتضـن حفيده الصّغير اليتيم تحت جناحه، لكن المُطرِّف الذي لم يكن يرغب في رؤية الوريث الطّبيعي للعرش يربّى في رعاية جدّه، ردعه عن ذلك. لقد كان بنو حجّاج في ذلك الوقت مفجوعين لا بموت قائدهم الشّاب فحسب، وإنما كذلك بمقتل أميرهم عبـد اللـه بن حجّاج الذي أُسـر مع الأميـر محمّد فـي قرمونة، وكذلك الأمير القاسـم وخالـد ابـن خلدون وغيرهما من قـادة اليمانية والمولّديـن. كان المُطرِّف يحتجز عبد الله بن حجّاج رهينة لكنه سرعان ما قتله خنقاً، لأسباب لم يذكرها ابن حيّان الذي نقل الواقعة.

ولـم يمـضِ وقت طويل قبل أن يتعافى أهل إشـبيلية من هزيمتهم، ففي العام نفسـه عقد إبراهيم بن حجّاج، أخو عبد الله ووريثه، صلحاً مع السّلطان عبد الله مقابل ولايته وحده على أراضيه وممتلكاته؛ والوسـيلة التي استخدمها للضّغط على الأمير عبد الله لتعيينـه واليـاً على إشـبيلية[1]، هي وصايته علـى طفل الأمير محمّد. أمّا الشّـروط التي وضعهـا الملـك عبد الله للاسـتجابة لطلبات إبراهيـم والتي فرضت في السّـر لتجنّب اعتـراض المُطـرِّف، وبالتّالي، لم يطّلـع عليها الكتاب السُّـنّة الذين اعتمـد عليهم ابن حيّان، وإن كانت معروفة في تلك الفترة بالنّسبة لأشراف إشبيلية ومؤرّخيهم، فنوردها في الفقرة التّالية.

لقد اشـترط عبد الله إيلاء عناية فائقة لتنشـئة الأمير الصّغير منذ فطامه، وذلك تقريباً في الفترة التي توفي فيها والده. طلب إحضار أشهر المدرسين لتدريسه ما يتناسب مع سـنّه ومكانته، وأن يُقرأ له القرآن وأن يحفظ تعاليمه عن ظهر قلب. وما إن بلغ الثّامنة، طلب أن يُدرّس السُّنّة والحديث، والنّحو والشّعر والأمثال العربية وسير الأمراء وعلوم إدارة الحكـم، وكل مـا هو متصل بالحكمة البشـرية. كما طلب تعليمه الفروسـية على يـد أمهر الفرسـان لتدريبه على التّحكّم بفرسـه في أصعب المواقف، وعلى اسـتخدام القـوس والسّـهام والرّمح وجعله خبيراً بكل أنواع الأسـلحة واسـتراتيجيات الحرب.

---

(1) يحدّد ابن حيّان تاريخ ذلك في سنة 889 (Makkari, ii. 451) في حين يقول دوزي إنه حصل في سنة 899 (*G. der. M.*, i. 438 – 9).

كان ينبغي باختصار تعليمه وتدريبه وإعداده ليصبح ملكاً[1].

وافـق إبراهيـم على تعليـم الطّفل عبـد الرّحمن وإعـداده بمثل ما أراده جـدّه فعقد الصّلح بينه وبين السّـلطان، وبات ابن حجّاج مستقلاً في مقاطعته يحكمها وكأنه ملك عليها، كما كان أخوه من قبله. وقد جاء التّاريخ بعدها ليثبت أنّ بني حجّاج نفّذوا تلك الشّـروط بجدارة نظراً للنّجـاح منقطع النّظير الذي حقّقـه تلميذهم عندما أصبح رجل دولة، تأسيساً على ما تعلّمه من علوم وفنون على أيدي أساتذته في إشبيلية.

استتبّت الأمـور بيـن إشبيلية وقُرطُبـة حتـى 901 أو 902، عندمـا عُقـد حلف بين السّـلطان وألفونسـو الثّالـث ملـك ليـون فـي مواجهـة ابـن حفصون صديـق عائلات المولّدين وكبيرهم إبراهيم بن حجّاج. أثار هذا الحلف شـعوراً بالاسـتياء لدى حلفاء ابـن حفصون إلى حدّ أن اسـم عبد اللـه لم يعد يُذكر في الخطـب والصّلوات، كما هو العـرف لكونه إمامهـم ووليهم. وأثناء المعركة التي تلت ذلـك بين ابن حفصون وأهل إشـبيلية مـن جهـة في مواجهة جنـد عبد الله، فاجـأت فرقة من طليعة جيـش المُطرِّف مجموعة من المولّدين من أمراء بلاط إشبيلية، وعندما هدّدهم بقتلهم، قاموا بتسليمه، ليـس إبراهيـم، وإنما الطّفل عبد الرّحمن الذي كان فـي الثّامنة من عمره، ليكون رهينة لديه فداء لهم[2].

في تلك السّـنة نفسـها، عزل المُطرِّف ابن جمري بصورة تعسّفيّة عن منصبه كحاكم لمدينـة مـاردة وقائداً للجيش فـي تلك المقاطعة، رغـم أنه كان مخلصـاً له حتى ذلك الحين وإن كان لا يوافقه في أساليبه الدّامية في قمع التّمرّد. ولكن المُطرِّف كان مستاءً منه على الارجح بسبب تعاطفه مع ابن أخيه المتوفى محمّد. عاد ابن جمري عندئذٍ إلى قُرطُبة حيث عيّنه عبد الله، الذي لم يكن متفقاً بالطّبع مع ابنه بهذا الشّأن، رئيساً لحرسه الخاص وكان نطاق صلاحيته داخل القصر الملكي.

---

(1) Conde, i. 355 – 6.

(2) Condem i. 350.

كما سيرد لاحقاً، نقوم بسرد الرّوايات عن مختلف الكتاب بتصرّف لتقديم قصة متماسكة.

عندها قدّم ابن جمري نفسه بوصفه حامياً للأمير الصّغير عبد الرّحمن، واستفاد من مكانته في القصر لكي يكسب ثقة السّلطان فيستمع إليه. لقد استفاد من الظّروف المحيطة به ونجح في أن يكسب تعاطف لا الملك عبد الله فحسب، وإنّما الوزراء وكل أشراف البلاط مع الأمير الذي في حمايته. وسرعان ما أصبحت دماثة عبد الرّحمن وخصاله وطباعه الودودة مصدر فرح وبهجة في بلاط قُرطُبة. لكن عبد الله لم يكن يظهر حبّه في العلن مخافة إثارة استياء المُطرِّف وإن كان في مجلسه الخاص يُطربُ لسماع كلمات الثّناء على حفيده(1).

ولكنّ إبراهيم بن حجّاج الذي أسعده بلا شك الرّضا الذي حاز عليه الأمير الشّاب لدى جدّه الذي كان من الطّبيعي أن يكون وريثه إن سارت الأمور على ما يرام، لم يكن يثق بنوايا المُطرِّف ووعوده، فهو لطالما أبدى عدم اكتراثه بحقوق السّكان من غير المقاتلين والرّهائن. لذلك بذل جهوداً كثيرة لاستعادة عبد الرّحمن الذي يبدو أنّه كان يعرّف عنه بوصفه ابنه خشية أن يذهب ضحية لغيرة المُطرِّف في حال الكشف عن هويّته الحقيقية. لكن عبد الله كان يرفض التّجاوب مع طلب ابن حجّاج. ويوضح ما يسرده كوندِه عن زيادة تعلّقه بالفتى سبب عدم تخلّيه عنه.

عندما اقترب موعد عودة المُطرِّف من حملته على ماردة، انتقل إبراهيم من الطّلب والالتماس إلى التّهديد، نظراً لتزايد قلقه على مصير الفتى. فهدّد بالتّحالف مع ابن حفصون ضد جيش قُرطُبة، وبالتّوقف عن دفع الخراج وقيمته سبعة آلاف دوقية سنوياً والتي كانت ثمناً للحفاظ على حياة نسيبه الصّغير عندما ارتهن، إن لم يعد عبد الرّحمن سليماً معافى إلى إشبيلية.

في هذا الوقت الحرج، عاد المُطرِّف إلى قُرطُبة ليطّلع على الفور ليس فقط على المفاوضات الجارية مع إشبيلية، وإنما كذلك على هويّة الفتى الذي كان ابن جمري حريصاً على حمايته ورعاية مصالحه.

يمكننا أن نكمل القصة من هنا كما كتبها دوزي، لأننا عندما نقرأ «الأمير عبد

---

(1) Conde, i. 352.

الرّحمن» بدلاً من «عبد الرّحمن بن حجّاج»، و«المُطرِّف» بدلا من «عبد الله»، تنجلي أمامنا الدّوافع الكثيرة وراء محاولة قتل الفتى.

يبدو أنّ ابن حفصون انتهك عقد الصّلح، ولو أنّ الأمور سارت على هذا النّحو، فربما كان قتل رهائنه مبرّراً. ولكن أُخذ رهينة ابن حجّاج بجريرة المجموعة، في حين أنه لم يفعل سوى التّهديد بالتّمرّد إن لم يُعَد الفتى إليه، يفترض أنّ المرتهن شخص يرغب في قتله من أصدر الأمر بقتل الرّهائن. فالأمر صدر بأن يُقتل عبد الرّحمن على الفور، رغم أنّ ابن حجّاج عرض الإذعان لحاكم قُرطُبة ما إن يعود الفتى إلى وصايته.

عندما بدا أن الأمر قد قُضيَ وكان عبد الرّحمن على وشك أن يُقتل، تدخل الوصيف الصّقلبي بدر وطلب مقابلة الملك عبد الله، وتوسّل إليه لكي يأمر بمنع قتله، وحجّته أنه لو قتل عبد الرّحمن فإنّ العداوة مع أهل إشبيلية ستمتدّ إلى ما لا نهاية، في حين أنهم مستعدّون لإعلان الطّاعة إن عاد الفتى إليهم.

لقد كان عبد الله على الأرجح غير مطّلع على نوايا المُطرِّف - فما من شك أنه كان في ذلك الحين على علم بأصل الفتى - وعليه، لم يكتف بأن يأخذ بمشورة بدر، وإنما كافأه وقدّمه فأصبح وزيراً، ثم تعزّزت ثقته به حتى بات في مرتبة الحاجب أو رئيس الوزراء وإن لم يسبغ عليه ذاك اللقب.

أعلن بنو حجّاج على الإثر الطّاعة للسّلطان وعقدوا معه الصّلح حتى مماته، لا شك في ذلك لأن الفتى عبد الرّحمن عاش في بلاط قُرطُبة حيث شكل صلة الوصل بين أقربائه من الجانبين، الذين برغم خلافاتهم السّياسية، قد اتفقوا على حبّهم له.

من الواضح أنّ عبد الله واتته الجرأة ليعلن حبّه لحفيده بعد أن كاد يفرّقه عنه الموت، حيث يسرد المؤرّخون أنّه عندما كان عبد الرّحمن في الحادية عشرة من عمره كان يلعب بحرّية في حدائق القصر مع باقي الأولاد في مثل عمره، في حين كان جدّه يراقبه منتشياً من الغبطة. وفي إحدى هذه المرّات هبط الليل دون أن يلحظ عبد الله ذلك، وعندما نبّهه وزيره ابن جمري إلى تأخّر الوقت، ارتجل أبياتاً يشرح فيها انشغاله بعبد الرّحمن الذي أسره بسحره واستحوذ على حواسه.

فـي العام 911، توفيت والـدة الامير عبد الله التي أحبّها وأجلّها طوال حياته، فاغتمّ وأعلـن الحـداد على وفاتها. ثم أصابته حالة اكتئاب وبـات على قناعة بدنوّ أجله، فأمر بتشييد ضريح ثانٍ له بالقرب من الضّريح الجميل الذي بناه لها داخل القصر في حديقة تسمّى الرُّصافة.

وفي مطلع العام 913، ومع شعوره باقتراب أجله، استدعى عبد الله وزراءه والولاة ليعلـن أمامهـم تعييـن حفيده عبـد الرّحمن خليفة له علـى العرش، وأوصـى المُطرِّف برعايته وحمايته كما لو كان من صُلبه.

كان إبراهيـم بـن حجّاج قد توفّي خلال سـنوات الهدنة التّسـع وخَلَفَـه ابنه محمّد. وكان محمّد هذا، حاكم إشـبيلية، من بين أول الزّعماء والأشراف اليمانيين والمولّدين الذيـن أعلنـوا الطّاعة لحاكم قُرطُبة المولّد، بعد أن تمرّدوا في السّـابق على حكم جدّه عبد الله. توفي محمّد حاكم إشـبيلية في عام 915 ولم يعد بنو حجّاج يضطلعون بدور قيـاديّ فـي تاريـخ الأندلس[1] رغـم أننا نجـد أنّ واحدة مـن بنات تلك العائلة (سـواء بالولادة أو التّبني) تقاسم عرش إشبيلية، بعد مئة وخمسين سنة من هذا التّاريخ.

هـا نحن قـد عرضنا هذه الرّواية عن تاريـخ هؤلاء الأمراء والمبنيّـة على الحدس بغضّ النّظـر عـن قيمتها، ونترك للقراء أن يسـتخلصوا اسـتنتاجاتهم. أمّا بشـأن نظريتنا التي تقول بأنّ المعارك المسـتمرّة التي ألقت ظلالاً كثيفة على فترة اسـتمرّت اثنتين وعشرين عاماً من حكم عبد الله كانت نتيجة لسياسـة المُطرِّف وليـس الأمير عبد الله، فقد وجدنا من يؤيدها وهو كاتب غير معروف الاسم نقل عنه كوندِه. فقد كتب هذا المؤلف في وصف عبد الله:

«كان ملـكاً صالحاً، احتفظ برباطة جأشـه رغم الاضطرابـات والقلاقل التي عمّت كل ناحيـة من نواحي إسـپانيا، وقائـداً مقداماً على رأس جنوده في المعارك، وسياسـياً موثوقـاً في صيانته لعهوده، ولهذه عاداه الشّـيوخ السّـلفيون باعتباره مسـلماً غير ورع، لأنه لم يواصل الحرب على النّصارى»[2].

---

(1) Dozy, *G. der. M.*, i. 456, 460.

(2) Conde, i. 358.

إنّ النّصارى المشار إليهم هنا لا بدّ أن يكونوا المولّدين، لأنّ حروب عبد الله مع مسيحيي الشّمال كانت قليلة. ويبدو أنّ المقصود هو الإشارة الى الصّلح المعقود مع بني حجّاج خلال العقد الأخير من حكمه، وأنّ ابنه المُطرِّف كان على الأرجح بين «السّلفيين» المتزمّتين الذين وجّهوا إليه اللوم، لا سيما وأنّ المُطرِّف كان يسعى إلى إبادة أولئك الذين حموا عبد الرّحمن الصّغير، المقدّر له أن يخلف عبد الله على العرش، على الرّغم من كل جهود عمّه للتّخلص منه.

نجد في كتاب «أخبار مجموعة» بعض الملاحظات التي لم يُشر إليها في مواضع أخرى تتعلّق بحكم عبد الله المضطرب. فعندما تولّى العرش، انتفض العساكر الذين كانوا تحت إمرة أخيه المنذر في بُبشتر وتفرّقوا، وذهبت كل فرقة إلى المنطقة أو القبيلة التي تنتمي إليها متجاهلة أوامر الأمير بالبقاء في مرابضهم، فاضطرّ إلى الفرار خشية أن يهاجمه عدوّه عُمَر بن حفصون. وانقسمت صفوف الضّبّاط في قُرطُبة، ونفد المال بعد أن قلّ الخراج والجبايات مع اشتداد الثّورات في كل نواحي الأندلس. عمل عبد الله على الاقتصاد وتوفير المال في كل المجالات، وحتى في مرتّبات جنوده، وخدمه. والتزم التّقوى وإظهار التّنسّك. ليس مفاجئاً والحالة هذه أن تعمّ الاضطرابات البلاد[1].



قلت: ولقد رأينا في الجزء الثالث الذي نشرناه من تاريخ كوندِه الشّامل عن الأندلس بعنوان:
J. A. Conde: *Historia de la dominación de los Árabes en España*.
كيف أنّه قد نقل الكثير من مؤلفات لمؤرّخين أندلسيين ضاعت آثارهم، وكان ما نقله محفوظاً في خزانة دير الإسكوريال، ثم فُقد. والأنكى من ذلك أنّ كوندِه نفسه لم يكن يكترث بالإشارة إلى عمّن كان ينقل في كلّ مرّة. إلا أنّ كتابه يبقى برغم ذلك على جانب عظيم من الأهميّة، وفيما يخصّ سقوط غرناطة مثلاً، يظلّ بمثابة المصدر الأول دون منازع. (أحمد)

(1) *Akhbar Majmua*, 131.
جاء في كتاب «أخبار مجموعة في فتح الأندلس»: «ثم إن الأمور تفاقمت في ولايته وتفاوتت بعد قرب تداركها فتفرّقت أجناده وعجز عن نصره قواده، والتزم التّقوى وإظهار النّسك وتوفير ما في يده من أموال المسلمين، حياطة عليها ونظراً لهم فيها، وهُلك الجبايات، باشتداد شوكة الثّوار عليه بكل ناحية، فوفّر أعطيات الأجناد وضيّق على من بقي معه منهم واستولى الفساد في كل وجه». أخبار مجموعة، تحقيق إبراهيم الإبياري، ص 133.

الفصل السّادس
عُمَر ملك طُليطلة

عدا عن الأخبار الواردة عمّا كان بين أرطباس وعبد الرّحمن الأول، وهو ما أوردناه سابقاً، لا نجد أيّ ذكر مباشر لأيّ من فروع سلالة ملوك القوط، باستثناء سلالة الأميرة سارة، حتى تولّي المنذر الحكم (886 – 888). ولكن على الرّغم من عدم العثور على أيّ ذكـر لهـم في الحوليّـات الباقية من تلـك الحقبة، يبدو أنهم تكاثـروا بمرور الوقت وازدادوا عـدداً وثراءً، لأننا عندما نلتقي بهم مجدّداً سـنجد كبيرهم وقد قويت شـوكته ووقـف فـي وجه أمير قُرطُبة بكل قوته، في حين كان يحكم مثل ملك على شـعبه، كما كانت الحال مع قريبه البعيد إبراهيم بن حجّاج في إشبيلية في الوقت نفسه.

هذا الرّجل القوي لـم يكن سـوى عُمَر بن حفصون الشّـهير الذي وضع نصب عينيه وكاد ينجـح فـي تحقيـق ذلك، اسـتعادة مجـد القوط وإعلاء شـأنهم وضمـان غلبتهم فـي الاندلس، فـي حين كان الملوك النّصـارى في جليقية وناڤـارو يكافحون من أجل التّخلّص من نير المسلمين في شمال شبه الجزيرة.

شـكّل عُمَر بن حفصون وسـلالته مادّة للنّقاش والبحث، ولم يكن مفاجئاً أن يعمد ابن حيّان وغيره ممّن ينتمون إلى المدرسـة نفسها إلى تدوين كل الأفعال والسّلوكيات التي من شـأنها الاسـتخفاف والانتقاص من كرامة الرّجل الذي كاد أن يقوّض الحكم الإسـلامي في إسـپانيا. لقد ذهب أحد الكتاب بالفعل إلى حدّ القول إنه كان من برابرة المغرب.

لكـن ابن خلدون وابن عِذاري وابن الخطيب، يعيدون كلّهم أصله إلى رجل يدعى

ألفونس الذي يطلق عليه ابن حيّان لقب «الكونت» أو «النّبيل»، في حين يقول ابن القُوطيّة إنه كان من ذرّية رُمُلة Romulus: «وصار لوقلة ألف ضيعة بشرق الأندلس وكان آثر سكنى طُليطلة ومن نسله: حفص بن ألبر، قاضي العجم»[1].

يسرد دوزي تفاصيل مختلفة عن أسلاف عُمَر المباشرين. ويتّضح من ذلك أنّ أسماء ابن وحفيد وابن حفيد ألفونس كانت قوطية أو لاتينية رغم أن النّاسخين شوّهوها إلى حدّ كبير. كان اسم والد عُمَر حفص (وهو ابن ألبر القاضي كما ورد لدى ابن القُوطيّة)، لكنه كان «محبوباً جداً ويحظى بتقدير كبير لدى جيرانه بحيث أنهم بدلاً من أن يدعوه حفص، كانوا يسمّونه حفصون، وهي إضافة توازي لقب النّبالة». ويقول كونده[2] إنّ سم جدّه كان جعفر Giafar واسم جدّ أبيه أريوس Arius. ويحدّد دوزي موقع ممتلكات العائلة «التي كانت بحوزتهم منذ مئة سنة»، بجوار مالقة، ولكنّ هناك أسباباً تدفعنا إلى التّشكيك في مدى دقة روايته حول ذياع صيت عُمَر وشهرته.

لا يذكر ابن حيّان سوى القليل عن نسب عُمَر لكنه لا يذكر في أيّ موضع أنه لم يكن مسيحياً، ويقول إنه في عام 893، حاول «الكلب الكافر» منع المُطرَّف من هدم كنيسة بناها أبوه بالقرب من قلعته بشتر[3]. ويمكننا الافتراض بأنّ الكنيسة كانت مبنية فوق أراضي العائلة وأنّ الحادثة وحدها تكفي للدّلالة على أنهم كانوا قوماً يتمتعون

---

(1) Dozy, *G. der M.*, i. 366 note; Al – Kuttiyyah in *J.A.*, 432 – 3.
النص العربي منقول عن ابن القُوطيّة، ص 31. وابن القُوطيّة أورد الاسم وقلة بدلا من رُمُلة Romulo, Romulus وكذلك فعل المقّري (ج1، ص 266) أورده وَقِلَة باعتباره تعريب أكيلا Aquila. (م)
يشرح غايانغوس معنى «العجمي» بأنه «نصراني غير خاضع» لحكم المسلمين. ويبدو لنا أنه من المناسب الافتراض أن «حفص ابن البر» Hafs Ibn Al – Borkadi كما ورد اسمه عند ابن القُوطيّة، هو والد عُمَر. وإلا لن نتمكن من فهم لماذا اختار ابن القُوطيّة أن يخصّه بالذّكر. يطلق دوزي على عُمَر صفة «المرتدّ» ويقول إنّ كلمة «المرتدّ» والمولد كانتا تستخدمان للدّلالة على المعنى نفسه (*Ib.* i. 278.).

(2) Dozy, *G. der M.*, i. 295.

(3) Makkari, ii. 453.

بمكانة عالية وسمعة عريقة، لكن ذلك يتناقض مع كل ما قيل من أنّ عُمَر لم يكن يقدّر أباه أو الأعمال التي جعلت والده يكسب احترام جيرانه.

يسرد دوزي باختصار وقائع السّنوات الأولى لعُمَر فيقول إنه كان فتى مشاكساً. فقد قتل أحد جيرانه خلال عراك معه، ولكي ينجيَه من حبل المشنقة، هرب به والده من أراضي العائلة إلى مرتفعات سيرّانيا دي لا روندا (رُندة). هناك تحوّل الشّاب عُمَر إلى قاطع طريق، حتى أحيل إلى القضاء وكان جزاؤه الجلد بالسّوط، وطرد والده له من المنزل. ترك عُمَر إسپانيا وتوجّه إلى تهرت (تيارت)، في شمال أفريقيا، لكنه عاد بعض بضعة أسابيع بعد ان تعرّف عليه شيخ لم يسبق أن التقى به وتنبّأ له بأنه سيملك «ملكاً عظيما»[1]. استقرّ عُمَر في بشتر أو بُبَشتر التي يقول دوزي إنها قريبة من أنتقيرة (انظر ص 106 طبعة الأصل)، وتمكّن من جمع شباب في مثل عمره وانبرى إلى السّرقة وقطع الطّرق في حوالي العام 880 أو 881. كانت عملياته ناجحة جداً حتى أنه تمكن خلال فترة قصيرة جداً من إزاحة حاكم المنطقة الذي كان قد هاجمه. لكنه اضطرّ بعدها بوقت قصير إلى الإذعان والتّوجّه مع كامل عصابته إلى قُرطُبة، حيث ألحقه السّلطان بالحشم في خدمته، «بعد أن اعترف به كقائد متميّز، وبرجاله كجنود أكفياء».

بعدها بقليل، في سنة 883، خرج عُمَر مع جيش السّلطان في حملة على ليون، ولكن لدى عودته تشاجر مع والي قُرطُبة وعاد مع رجاله إلى بُبَشتر «ليعود إلى حياة المغامرة والحرّية في الأحراج». هاجم قلعة ببشتر التي عُزّزت تحصيناتها وكان يحرسها جنود الأمير عبد الله وأرغم الحامية على الهرب بسرعة كبيرة حتى أنهم تركوا وراءهم خليلة قائدهم التي تزوّج بها عُمَر (884).

يقول دوزي إنه «منذ تلك اللحظة، لم يعد زعيم عصابة من اللصوص، وإنما زعيم كل الإسپان في الجنوب»، والذين جمعهم من حوله بعد أن وعدهم بتحريرهم من

(1) «وأحدّ الشّيخ النّظر إليه، وكان ابن حفصون أقضم الثّنيّة، فقال له: يا منحوس، تُحارب الفقر بالإبرة، ارجع إلى بلدك فأنت صاحبُ بني أمية، وسيلقون منك غِيّاً وستملكُ مُلكاً عظيماً». ابن القُوطيّة، ص 103.

نيـر المسـلمين. خلال سـنتين، لم يتخـذ محمّد، سـلطان قُرطُبة، أيّ خطـوة جدية في مواجهتـه، ولكنه مُنيَ في العـام 886 بهزيمة نكراء وأصيب خـلال حملة قادها المنذر ولي عهد قُرطُبة. ولكن في ساعة النّصر اضطرّ المنذر للعودة إلى قُرطُبة إثر وفاة أخيه. دعـا عُمَـر قادة العديد من القـلاع للانضمام إليه و«منذ ذلك الحيـن، أصبح فعلياً مَلك الجنوب».

يعتمـد دوزي فـي روايتـه للوقائع على مـا رواه المؤرّخ المغربي ابـن عِذاري الذي كتب في القرن التّاسع. تبدو الرّواية في الظّاهر غير قابلة للتّصديق. فهي لا تقدّم شرحاً مقبولاً حول كيفية نجاح شاب خارج على القانون مع مجموعة صغيرة من اللصوص، خلال أربع سنوات في أن يصبح سيّد الإسپان في الجنوب، وبعدها بسنتين ملكاً عليهم عمليـاً. لا يشـير دوزي إلى انتسـاب عُمَر إلـى رُمُلة الذي كان سـيكون كافياً لكي يقبل إسـپانيو الجنـوب به قائداً عليهم، ولا يتوقع أن يكون لـدى ابن عِذاري الذي كتب عن الوقائع بعد أربعمئة سنة من حدوثها، معلومات كافية عن مدى القرابة التي تجمع عُمَر بأهل تلك النّواحي.

تختلف رواية كوندِه لأحداث الفترة الاولى فهو يقول إنّ استيلاء «اللصّ» على قلعة بُبَشتر أو بشتر، «هي واحدة من الرّوايات التي راجت في إسپانيا حول بداية تمرّده». ثم يكمل بقوله إنه عندما اضطرّ للفرار من الأندلس «مع أفراد عصابته» إلى حدود أفرنكة (فرنسـا)، نـزل في قلعة روضة اليهـود (التي باتت تعرف اليوم باسـم الرّوضة، بالقرب من سَرَقُسطة)، حيث انضمّ إليه حاكم لارِدة ومسيحيو جبال أفرنكة. بعد معركة ظافرة، سـيطر محمّد على الرّوضة وأخرجـه منها فلجأ إلى «جبال أربـه» the mountains of Arbe (سلسـلة جبال سـييرّا دي سوبرارِبه Sobrarbe، شـمالي وشقة Huesca). وفي العام 876 – 877، بعد أن كان ابن حفصون قد احتمى لدى مسـيحيي أفرنكة (يبدو أنه لم يُسمع شيء من أخباره بين 864 وهذا التّاريخ) «عرض عليهم الولاء ودفع الجباية، ثـم قادهـم إلى القـلاع الحدودية واحتلّ بمسـاعدتهم القلاع المنتشـرة على نهر شـقر Segre (أحـد روافـد نهر إبره) وأعلنوه ملكاً عليهم، ودفع لهم الخراج وباع المدن إلى

أعداء الإسلام». ولكن المنذر[1] هزمه في عام 882. وفي عام 883 نزل من جبال جاقة (بالقرب من لارِدة وإفراغة (Idrisi, p. 11)[2]) وغزا ناحية بُرجة القريبة من لارِدة، «فسمّوه ملكاً على تلك النّواحي» وهزم قوة أرسلها المنذر لإخضاعه[3].

مع موت محمّد في عام 886، خرج ابن حفصون «مجدّداً من معاقله الجبلية» وسيطر على سَرَقُسطة ووشقة وتقدّم باتجاه طُليطلة وقام بتحصين القلاع على نهر تاجة، بالإضافة إلى أقليش ووبذة والأركن وقوينكة[4] وتمكن بفضل خطة حربيّة محكمة من دخول طُليطلة[5].

لا يقدّم المقّري ما يساعد على فهم الوقائع. فهو يشير إلى المعركة التي قادها المنذر وهُزم فيها ابن حفصون في عام 881. ويقول غايانغوس إنّ الهدف من هذه الحملة كان في الأساس السّير إلى سَرَقُسطة. وعاث جنود المنذر خراباً في نواحي تلك المدينة واجتاحوا حصن الرّوضة. ومن هناك اتجه الجيش إلى برجة ومن ثم إلى لاردة وفي النّهاية وصلوا إلى منطقة تدعى برطانية (في محافظة وشقة حالياً، والتي كانت بربشتر أقوى قلاعها: Makkari, ii. 25) ومنها اقتحموا قشتالة وألبة[6].

---

(1) يقول كونده إنه مات متأثرا بجروحه وإن ابنه واصل الحرب بعده، ولكنه خطأ واضح.

(2) يقابله في النّص العربي للإدريسي، ص 339.

(3) يقول السّنيور كوديرا عن رواية كونده عن غزوات ابن حفصون في الشّمال إنها «لا تستحق مجرّد الذّكر». لكنه يقول إنّ الكتّاب العرب يذكرون، مع الكثير من التّفاصيل الغامضة، حملة المنذر في عام 882، مع الإشارة إلى العديد من أماكن المواقع التي أشار إليها كونده. (*Eslu-dios*, 231 – 2).

(4) تقع كل هذه البلدات إلى الشّرق من طُليطلة فيما يشكل اليوم محافظة قونكة.

(5) Conde, i. 295 – 321.

(6) Makkari, ii. 436, quoting An – Nuwairi.

يذكر المقّري وغايانغوس أنّ اجتياح الرّوضة تم في عام 881، في حين يقول كونده إن ذلك تم في عام 870، لكن تواريخه خاطئة في الإجمال. والكلمة التي ترجمها غايانغوس بوصفها Cas-tile أي قشتالة، يرجح أن تكون the Castles أي القلاع. (اقتحموا ألبة والقلاع). هناك شكوك حول إذا كانت قشتالة الحالية معروفة حينها بذاك الاسم لدى الكتاب العرب حتى فترة لاحقة. وقد ذكر المقّري «القلاع» مرتين بعد ذكر ألبة عندما ذكر حملات الأمير محمّد (ii. 127).

عظم شأن عُمَر بن حفصون في عام 886 مع تولّي المنذر الحكم في قُرطُبة. ولم تدم ولاية المنذر طويلاً، وقد قضى معظمها في الحرب مع ابن حفصون، وهو «من أصل نصراني، ثار في حياة محمّد أبي المنذر، وعُرف عنه مكره وغدره كما بيّنت وقائع ذاك الزّمان... خاض المنذر عدة معارك ضارية مع هذا الرّجل، وبعد أن هزمه في عدة معارك جانبية، ذهب المنذر ضحيّة استبساله وشجاعته، وقُتل في مناوشة بالقرب من يبشتر في عام 888، بعد أن حكم بالكاد سنتين»[1].

علينا قبل أن نكملَ أن نتحدّث قليلاً عن الوضع في بشتر أو ببشتر، حيث كانت تلك القلعة الحصينة دائماً تقريباً مركزاً لعمليات ابن حفصون.

[«وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروباً، ثم كانت الدّائرة له. وقصد إلى بلاد الحرب غازياً، وقصد ألبة والقلاع، فلقي العدو وظفر بهم، وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين. وبعث العساكر إلى جليقية مع يوسف بن بُخت فلقي ملكها برمند، وهزمه وأثخن في العدو. وفي سنة ست وسبعين بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدو، فبلغ ألبة والقلاع، فأثخن في نواحيها، ...». (المقّري، ج 1، ص 337) (م)]

هاجم السّنيور كوديرا في كتابه «اضمحلال دولة المرابطين» *Decadencia de los Almoravides* كوندِه بقسوة شديدة بسبب روايته لمغامرات ابن حفصون في الشّمال. ويقول كوديرا إنّ كوندِه خلط ما بين بُبشتر أو بشتر Bobaster or Bishter، معقل عمليات ابن حفصون، مع بربشتر Barbastro في آراغون، وهكذا نقل كل الاحداث إلى بربشتر، وقام بتغيير أسماء الأماكن المحيطة بها لتتلاءم معها. ويقر السّنيور كوديرا بأنّ هذا يشكّل اتهاماً متعمّداً بالتّزوير، ولكنه يصرّ عليه، رغم إقراره باحتمال اعتماد كوندِه على مخطوطات عربية تروي تلك الحروب كما نقلها. ولو أن السّنيور كوديرا قرأ كوندِه قبل أن يسوق اتهاماته هذه، لأدرك أن المرة الوحيدة التي ذكرت فيها يبشتر Yabaster، كما أورد كوندِه تهجئة معقل ابن حفصون، ذكر كذلك بوضوح أنها في الاندلس. «لقد تحصّن هو وأتباعه في أطريرة Adherwera في القلعة التي تعرف هنا باسم قلعة يبشتر.. وفي سنة 250، وبعد ارغامه على مغادرة الأندلس، توجّه مع لصوصه إلى حدود افرنكة»، (i. 295 – 6). المرة الوحيدة التي ورد فيها ذكر بربشتر في آراغون لدى كوندِه هي في الصّفحة 297، خلال سرده لأعمال ابن حفصون في هذه النّواحي، حيث يقول إن ابن حفصون عرض على الأمير محمّد أن يشهر سلاحه في وجه أهل أفرنكة، وطلب منه تعيينه حاكماً على وشقة أو بربتشر. ولا يوجد تفسير للهجوم القاسي والظّالم على كوندِه الذي شنّه عليه مواطناه السّنيور كوديرا وغايانغوس.

(1) Makkari, ii. 130 – 1.

يذكر الحميدي قلعة في إقليم رية اسـمها يُبشتر Yobashter، وحصناً منيعاً بالقرب من ملقـة باسـم بُبشـتر Bobashter، هما على الارجح القلعة نفسـها[1]. ويذكـر كل من كوندِه وابن حيّان موقعا بالاسـم نفسـه في إقليم رِية، لكن كوندِه يذكر كذلك موقعا باسـم يَبَسـتر Yebaster تابـع لبنـي إدريس أصحـاب مالقة، يبدو أنه المكان الـوارد ذكره في المقتطفات المأخوذة من الحميدي والتي نقلها عنه المقّري. وغايانغوس على قناعة بأنّ هذه القلعة في إقليـم رية وعاصمته مالقة، هي قلعة بشـتر التي تحصن فيها ابـن حفصون. ولكن لا يمكننا اليوم العثور على بشـتر ولا يُبشـتر على الخارطة؛ غير أنّ غايانغوس يذكر اسـم قرية تدعى «أبشتر» Abistar، في الشّرقية التّابعة لمالقة، يعتقد أنها بشتر التي ذكرها العرب[2].

لقد بحث كوندِه هذ المسـألة باسـتفاضة في كتابه *Recherches*[3]، وخلص إلى أنّ بشـتر كانت في موقع قلعة رومانية، على بعد ميل غرب أنتقيرة اسـمها Municipium Singiliense Barbastrense. ويذكـر الإدريسـي (p. 10) مدينـة باسـم بُبشـتر (فـي التّرجمة الإسپانية Bobastero) في إقليم رية، وهي منطقة يُعتقد أنها تضمّ الموقع الذي حدّده دوزي. ويتطابق هذا الموقع بشـكل أو بآخر مع سرد ابن حيّان المقتضب لبعض الغزوات التي استهدفت ابن حفصون. وعليه، في سنة 891، حارب الأمير عبد الله ابن حفصون في حصن بلاي بالقرب من قبرة، وهزمه وطارده حتى أرشذونة وبشتر[4].

ولكن يقول كوندِه في ملاحظاته على كتاب الجغرافيا للإدريسـي، إنّ بشـتر هي ما يعرف اليوم ببلدة بيلتشِس Vilches، بين غوادالين Guadalen وغواريثاث Guarizaz رافدي نهر الوادي الأحمر في شمال مقاطعة جيان. لكن غايانغوس يقول إنّ هذا خطأ لأنّ إقليـم ريـة لم يكن في أي وقت يمتدّ إلى أبعد مما يشـكل اليـوم محافظة مالقة[5]. لكـن الموقع ينطبق على ما نقل مـن وقائع عن معركة أخرى، يجعلها موقع أنتقيرة غير

(1) تتشابه كتابة بِشتر، ويُبشتر ويُبشتر بالعربية.

(2) Conde, i. 295, ii. 16; makkari, ii. 456, 438, App. B., p. xviii.

(3) i. 323 – 7.

(4) Makkari, ii. 451 – 2.

(5) Makkari, ii. 438, حيث نُقل عن كوندِه

مفهومة. يقول ابن حيّان إنه في عام 897، خرج الجيش من قُرطُبة لاخضاع «الثّائر» على الحكم. وبعد تحديد الطّريق الخارجي الذي سلكه الجند مروراً عبر طريفة والجزيرة، بالإضافة إلى أماكن عدّة لا يمكننا تتبّع أثرها، يتابع ابن حيّان بقوله: «عندئذٍ عاد الجيش إلى قصر بنيرة Pineira وقادتهم المسيرة التّالية إلى وادي بني عبد الرّحمن.. قبالة بشتر. بعد محاصرة الثّائر في حصنه، وإلحاق الإذى وتخريب النّواحي التي أذعنت له، عاد الجيش عبر البشرات Alpujarras وجيان إلى قُرطُبة[1].

يتطلّب الأمر للذّهاب من أنتقيرة أو نواحيها إلى قُرطُبة عبر جيان القيام بدورة كبيرة، وهو ليس ضرورياً عندما يكون الجيش عائداً إلى قواعده بعد أن أنجز مهماته. أما جيان فبالكاد تبعد عن الطّريق المباشر المؤدي من بيلتشِس إلى قُرطُبة، وربما كان من الضّروري أن يمرّ الجيش بتلك المدينة لغرض عسكري، كالتّموّن.

أما البشرات التي يتكرّر ذكرها خلال هذه الحروب، فيفترض أنها سلسلة الجبال التي تحمل ذاك الاسم على الخط السّاحلي بين مالقة والمَريّة، ولكن الإدريسي يحدّد بوضوح أن البشرات إقليم وعاصمته جيان. غير أنه لا يحدّد كما هي القاعدة موقعه الدّقيق على الخارطة واتجاهه، مكتفياً بالقول إن إقليم فرميرة الذي توجد فيه بيّاسة، محاذٍ للبشرات الكثير الحصون.

وتقع بيلتشِس بالقرب من بقايا كاثلونا Cazlona الأثرية التي كانت في أيام عُمَر بن حفصون قلعة منيعة يملكها ابن الشّعلية، نسيب ابن حفصون بالمصاهرة. وعليه كان الممرّ عبر جبال سييرّا مورينا إلى طُليطلة تحت السّيطرة التّامة لزعيم النّصارى أهل الذّمة والمولّدين خلال الاضطرابات، طالما كان هو وصحبه يسيطرون على القلعتين.

ولا تزال بالقرب من بيلتشِس بلدة صغيرة تسمى وادي الرّمّان قد يكون اسمها في الواقع مأخوذ من وادي بني عبد الرّحمن الذي ذكره ابن حيّان، إن وافقنا على ما يقوله كوندِه بأنّ بيلتشِس هي بشتر التي كانت يتحصّن فيها ابن حفصون[2].

---

(1) Makkari, ii. 455.

(2) يقول دوزي إن هذا النّهر هو نفسه نهر وادي المقص (وادي الخورس) دونما سبب ظاهر، عدا

فـي حياة أرختنيا Argentia، ابنة ابن حفصون (انظـر فيما بعد)، تقول الأخبار التي في حوزتنا إنها وُلدت داخل «مدينة» بشـتر. لكن مـن الصّعب إطلاق صفة مدينة على القلعـة المعلّقة على رأس أكثـر الصّخور التي يصعب تسـلقها لوعورتها - كما يصف دوزي بشـتر. صحيح أنّ الإدريسـي يتحدّث عن بلدة ببشـتر في محافظة رية، ولكن لم يبـق من هذه البلدة أيّ أثر، إلا إذا كانت «أبشـتر في الشّـرقية التّابعـة لمالقة» كما يقول غايانغوس، والتي لا يتّفق وصف موقعها مع قول دوزي إنّ بشـتر هي سنجل الرّومانية Roman Singilis. والبديل هو ما اقترحه كوندِه بأنها بيلتشِس Vilches.

مـن غيـر الممكن التّوفيق بين كل ما ورد عن بشـتر في أيّ مـن المواقع التي حدّدها دوزي وغايانغـوس أو كونـدِه، والحلّ الوحيد المُرضي في هـذه الحال هو أن نفترض وجـود مكانين يحملان الاسـم نفسـه أو اسـمين متشـابهن، واحد في الموقـع الحالي لبيلتشِس والثّاني، كما يقول دوزي، بالقرب من انتقيرة. في هذه الحال يمكننا الافتراض أنّ بيلتشِس بشتر كانت «المدينة» التي ولدت فيها أرختنيا والتي كان أبوها «ملكاً» عليها وأنتقيرة بشـتر هي القلعة الصّخرية التي كان يلجأ إليها ويحتمي فيها عندما تشـتدّ عليه الصّعاب. عدا عن أن هذا الافتراض يجعلنا غير قادرين على حلّ مشكلة تحديد مكان بشتر نفسها.

وبشـأن حيـاة أرختنيـا ابنة ابن حفصون، تقـول الرّوايات إنها ولـدت من أصل نبيل في مدينة ببشـتر. فقد كان أبوها صموئيل ملكاً وكانت أمّها تدعى كولومبا Colomba. اختارت أرختنيا أن تصبح راهبة وطلبت من أبيها أن يحول القلعة إلى دير لها[1]. يقول

عن أنه يوجد نهر بهذا الاسم بالقرب من الموقع الذي يقول إن بشتر قائمة فيه. (*Recherches*, *loc. cit.*)

وفيما يتعلق بتسمية Guarraman الواردة في هذا المقطع؛ لم يرد اسم نهر أو مكان باسم «وادي بني عبد الرّحمن» لا عند الإدريسي ولا المقّري ولكن الإدريسي أورد وادي الرّمان بعد حصن المدور على الطّريق إلى قرطبة (ص 266). (م)

(1) Vita b. Virginis Argenteae in *España sagrada*, x. 564 ff.

كاتب هذا الجزء عن حياة أرختنيا غير معروف لكن المحرّر يقول إن مختلف الأدلة تشير إلى أن النّصوص كتبت في قرطبة في منتصف أو أواخر القرن العاشر.

دوزي وهو يسرد القصّة إن ابن حفصون عُمِّد بعد تقدّمه في السّن باسم صموئيل وإن بشتر باتت مركزاً للتزمّت المتشدّد كالذي استحوذ على رهبان قُرطُبة قبل ذلك بستين عاماً[1]. وتجدر الإشارة إلى أنه في فترة متأخرة مثل منتصف القرن العاشر كان المؤرّخون المسيحيون وكذلك الكتّاب المسلمون يستخدمون صفة الملك عندما يكتبون عن حاكم بشتر. ولكن كل الأخبار المنقولة عن ابن حفصون تؤكد أنه لم يكن مسلماً في أيّ وقت من الأوقات، سواء من خلال الاهتمام الذي أولاه للكنيسة التي بناها أبوه أو تقديمه لدى وفاته كزعيم للنّصارى في الأندلس، في حين كانت قلعته ملجأ للمسيحيين طوال فترة الحرب الأهلية. ويمكننا أن نسوق مثالاً على ذلك القومس سرڤاندوس أو شربيل ابن القومس حجّاج، الذي ورد ذكره (في ص 24 من طبة الأصل). خشية على حياته في قُرطُبة، هرب سرڤاندوس في عام 889 والتجأ إلى عُمَر الذي عيّنه قائداً على فرقة من جنده. ويورد دوزي مقاطع طويلة عن سرڤاندوس هذا استقاها بصورة أساسية من كتابات الأب الإسپاني سامسون رئيس الرّهبان، الذي لم يدخر أياً من المفردات التي يمكن أن تصف ألوان العذاب وسوء المعاملة التي عاناها مسيحيو قُرطُبة على أيدي سرڤاندوس في فترة تفشّي الإقدام على الشّهادة بين النّصارى نُصرة للدّين، والتي كان خلالها يتبوّأ منصباً رسمياً عالياً بوصفه قومس المسيحيين. ولكن قد يكون من المشكوك فيه أن يكون سرڤاندوس قومس المسيحيين، كما يقول لنا دوزي، الرّجل الذي سيهرب بعد قرابة أربعين عاماً من ذلك التّاريخ من قُرطُبة ليحتمي بابن حفصون. فلو كان هو عينه، لا بدّ أنّه كان شيخاً مسنّاً، وأن أباه، القومس حجّاج الذي قيل إنّ الأمير عبد الله أعدمه معه، كان قد تجاوز مئة عام. وأياً كانت حقيقة الأمر، يبدو واضحاً أنّ هناك رجلاً مسيحياً يدعى سرڤاندوس أو شربيل التجأ إلى ابن حفصون عندما هدّده مسلمو قُرطُبة بالقتل. وفي مقطع آخر، يقول ابن حيّان إن الدّخيل كان ابن القومس سرڤاندوس، وهو أمر يبدو أكثر ترجيحاً[2].

تلقي كتابات دوزي عن تلك الفترة ضوءاً جانبياً مهمّاً نقلاً عن ابن حيّان بشأن ما

---

(1) *G. der M.*, i. 452 – 3.

(2) Dozy, *G. der M.*, i. 414 – 6. Makkari, ii, 451 – 2.

كان عليه الوضع في الأندلس عندما انضمّ سرڤاندوس إلى عُمَر بن حفصون. فهو يذكر بصورة عرضية أنّ السّلطان لم يكن يتمتّع بأيّة سلطة خارج قُرطُبة وأنّ ابن حفصون كان قد سيطر على كل القلاع المنيعة الواقعة إلى الجنوب من نهر الوادي الكبير[1]، وأنّ عبد الله لم يعد يعرض على أحد منصب حاكم إلبيرة أو جيان الخاليين من أيّة قيمة، وأنّ كل الأندلس كان تخضع عملياً لنفوذ عُمَر بن حفصون.

لم تهدأ الاضطرابات طوال السّنوات الأربع والعشرين لحكم عبد الله، ولطالما وصف الكتّاب الأندلس بأنّها كانت حينها ممزّقة تتنازعها مختلف الأطراف المتحاربة، بين عرب إسپانيا والشّوام، واليمانيين والمُضَريين، والبربر والإسپان، وكل يقاتل لحسابه. ولكن على الرّغم من أنه ما من شك في أنّ أحد الزّعماء الأقل أهمية قتل بأيدي أولئك الذين كانوا، أو كان يفترض أن يكونوا أصدقاءه، فذلك يثبت عموماً – عندما يكون ممكنا التّوصّل إلى نتيجة واضحة حول سبب القتل من خلال مقارنة الاسماء والتّواريخ – أنّ الدّافع كان الغدر أو وجود شكوك بتدبير مكيدة مع العدو المشترك، وليس شجاراً سببه طموح شخصي أو تهجّم شخصي. وفي الواقع فإنّ مسار الأحداث يثبت أن المسيحيين والمولّدين واليمانيين أدركوا أنّ أبرز نقاط القوة تكمن في توحيد صفوفهم. حيث كان من الصّعب أن يصمد عدد من الأشراف النّبلاء الصّغار الذين يحارب كل منهم لحسابه في وجه حاكم قُرطُبة القوي كل هذه السّنوات.

ويلخص ڠايانغوس في ترجمته لتاريخ ابن حيّان حول الحرب الأهلية، التّصنيفات المختلفة للشّخصيات التي ذكرها ذلك المؤرّخ والذين كانوا ينضوون تحت راية المولّدين.

هناك في البدء «أهل الذّمّة»، ممّن يدفعون الجزية، وهناك «العجم»، وهم «المسيحيون الذين لم يعلنوا الطّاعة بتاتاً» للولاة المسلمين. لم يتم تسجيل أيّة حركة

---

(1) تؤكد هذه الرّواية فرضيتنا القائلة بأنّ ابن حفصون كان يسيطر على وسط الأندلس. فمحافظة رية يصعب وصفها باعتبارها تقع «إلى الجنوب من الوادي الكبير». ويذكر النّويري «جبل ابن حفصون» في نواحي قرطبة، في إقليم غني بالماء والبساتين (Makkari, ii. 494).

تدفّق للمسيحيين من الشّمال إلى الأندلس بين عامي 711 و888، عندما تولّى عبد الله الحكـم. وعليه فإنّ هؤلاء هم أحفاد المسـيحيين القوط الذين بقوا على ديانتهم لقرابة مئتي عام فيما تعوّدنا على اعتباره قلب البلاد المسلمة.

ثم هناك «المرتدّون»، وهم المسلمون الذين ارتدّوا عن دينهم، وهم فئة يثير وجودها الاستغراب، باعتبار أن الإسلام كان دين الفاتحين. وهناك أخيراً «المسالِمة» وهم المسيحيون الذين اعتنقوا الإسلام والذين، إن صدق ڠايانغوس، ربما كان إخلاصهم لبني جلدتهم أقوى من تمسّكهم بديانتهم[1]. «كانت كل هذه الفرق المختلفة ترفع راية المولّدين»، بالرّغم من أنّ المولّدين، طبقا لدوزي وڠايانغوس، كانوا مرذولين ومحتقرين ويعاملون بوصفهم منبوذين من العرب المعتزّين بأصلهم، لاختلاط نسبهم.

يبدو الوضع غير قابل للتّصور كما يصفه ابن حيّان وڠايانغوس. لا يحدّد الكاتبان عدد أو حجم مختلف المجموعات التي جاء ذكرها، ولكن يمكن أن نفترض بثقة أن المرتدّين عن الإسلام ما كان يمكن في أي وقت أن يكونوا كثيري العدد، إلا إذا كان المولّدون يتمتعون بقوة كبيرة بحيث يدفعون النّاس العاديين إلى الانضواء في حماهم من خلال اعتناق المسيحية. أمّا المُسالِمة، وإن كانوا بالفعل من المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام، فيبدو من المستحيل علينا أن نفهم لماذا التحقوا بفريق حيث ينظر قادتهم إليهم بعين الشّك بسبب تغيير ديانتهم في حين أنهم كانوا سيلقون كل ترحيب لدى قوات قُرطُبة المترنّحة.

الأرجح أنّ القسم الأكبر من القوات المنضوية تحت راية المولّدين (وعلينا ألا ننسى أن عبد الرّحمن الثّالث نفسه، وأباه محمّد في الظّاهر كذلك، كانا من ضمن هذه الفئة) كان ينتمي إلى فئتي أهل الذّمّة والعجم. وأهل الذّمّة هم المسيحيون الذين كانوا يدفعون الجزية منذ 711 بهدف الاحتفاظ بحقوقهم وامتيازاتهم، وبدينهم وأملاكهم، وفقاً للعهد الذي عقدوه مع الخليفة الوليد؛ والعجم هم «المسيحيون غير المذعنين»[2]. كما لا يتوقّع

---

(1) Makkari, ii. 458.

(2) يجب أن نتذكر لاحقاً أن أبا عُمَر ابن حفصون كان من العجم، كما ورد في كتاب ابن القُوطيّة (p. 101).

أن يكون عدد المرتدّين والمسالِمة ذا أهمية، بما أنهم كانوا منبوذين، كل من أبناء دينه.

أمّا «المارقون» من المسلمين والذين ذكرهم مختلف الكتّاب السُّنّة، ولم يتم تصنيفهم ضمن أيّ من الفئات السّابق ذكرها، فهم على الأرجح الشّيعة أو اليمانيون المرتبطون عن طريق المصاهرة بالمولّدين، إنما المخلصون لدينهم، والذين قاتل عدد كبير منهم تحت راية ابن حفصون وكذلك مع الامير محمّد. وكما سنرى هنا، فإن هؤلاء «العرب الأشراف» كما يسمّيهم الكتّاب غير السُّنّة، كانوا يتميّزون بتسامحهم وسعة أفقهم في تعاملهم مع المسيحيين. لقد عامل الأمويون مسيحيي قُرطُبة معاملة حسنة، مع بعض الاستثناءات، حتى أنهم كانوا يبادرون إلى الدّفاع عنهم في وجه المتزمّتين من بينهم كما حصل في فترة تفشّي حركة طالبي الشّهادة كما أوردنا سالفاً. ولكن في حالة الأمويين، يبدو من المرجّح أن الظّروف غالباً، والضّرورة أحياناً، كانت تفرض عليهم معاملة المسيحيين معاملة كريمة، في حين أنّ اليمانيين ملوك إشبيلية في القرن الحادي عشر كانوا أسياداً على مقاطعاتهم الواسعة وما كانوا بحاجة إلى مثل ذلك الدّافع لإرغامهم على التّعامل بكياسة ولطف مع المسيحيين في بلاطهم. وكما سنرى، فإنّ سلوك المُعتمِد، ملك إشبيلية اليماني في القرن الحادي عشر، والعلاقات بين فرناندو الثّالث فاتح إشبيلية والملوك اليمانيين في غرناطة ولبلة وبيّاسة في القرن الثّالث عشر، تظهر أنّ اليمانيين كفئة كانوا رجالاً سَمَت مقاصدهم ووسعت بصيرتهم فيما تعلّق بمسؤولياتهم وواجباتهم إزاء رعاياهم ورعايا حلفائهم.

يبدو لنا أنه يستحيل بأيّ حال أن تكون صفة «المولّدين» أطلقت في القرن التّاسع على أحفاد الأميرة سارة وحدهم، والذين كانوا قد توالدوا وكثر عددهم في ذلك الوقت. ولم تتم الإشارة ولا لمرة على سبيل المثال إلى عُمَر بن حفصون بوصفه من المولّدين، تبعاً للوثائق التي عثرنا عليها، في حين كان يُطلق على مسيحيي طُليطلة صفة «المستعربين»، وهي صفة يبدو أنها لم تستخدم بتاتاً للدّلالة على سكان أراضي إشبيلية، سواء من القوط أو ممّن اختلط نسبهم. لقد وجدنا أنّ صفة «المولّدين» استخدمت عدّة مرات للدّلالة على أفراد عائلات تفرّعت من زواج سارة من عُمير بن

سـعيد، ليس فقط داخل وحول إشبيلية ولكن أيضاً في لبلة والغرب، والأسماء المشار إليهـا كان أصحابهـا دائمـاً من قـادة الفريق المعـارض لقُرطُبة، ومن أصحـاب القلاع والحصون. فإن كانت هذه هي الحال، تكون الأميرة القُوطيّة سـارة مؤسّسـة لطبقة من الحكّام، في حين أنّ أبناء النّسـاء المسـيحيات الأخريات اللواتي تزوّجن من مسـلمين سـرعان مـا يتم اسـتيعابهم ضمن فريـق أبيهم. يبدو لنا أنّ هذه المسـألة تسـتحق عناية الباحثين العرب.

لا نعـرف مـن كانت والدة عُمَر بن حفصون. ولكن يبدو مرجّحاً أن آل حفص كانوا مرتبطين عن طريق المصاهرة ببعض العائلات اليمانية، وإلا كان سـيكون من الصّعب أن يبقى هؤلاء على ولائهم لعُمَر بن حفصون بعد وفاة الأمير محمّد.

بين عام 886، عندما توفي السّـلطان محمّـد و912 عندما تولّى عبد الرّحمن الثّالث الحكم، كان ابن حفصون في قتال مسـتمرّ مع قُرطُبة، نتيجة لظروف وأسـباب عديدة، مع انحيازه في الإجمال، طبقاً لما وصل من أخباره، إلى جانب المسـيحيين. يقول ابن حيّان إنه في سنة 901، وُضعت أوزار الحرب لفترة قصيرة، عندما عرض ابن حفصون الصّلح وأرسـل رهائن إلى قُرطُبة. ويقول ابن حيّان إنه في السّـنة التي تلتها، نقض ابن حفصون الهدنة، وكانت النّتيجة قتل ثلاثة من مرتهنيه[1]. وفي سـنة 905، سُـجن شاعر يدعى سـليمان لأنه كتب أبياتاً سـاخرة من الأمير عبد الله. فلمّا عفا عنه السّلطان وأمر بالإفـراج عنه ارتمى على الأرض وأخبره ووجهه علـى قدمه أنّ ابن حفصون مختبىء في قُرطُبة. أُعيد الشّاعر من فوره إلى السّجن حتى لا يخبر أصحاب عُمَر أنه أفشى سرّ وجوده، ولكن هؤلاء الذين خَبِروا الشّـاعر ومكائده، أخطروا عُمَر ونصحوه بالاختفاء عن الأنظار. عاجل الوزراء بتوقيف العديد من المشكوك بإخلاصهم، وتعرّض بعضهم للتّعذيـب. ولكـن كل ما أمكن معرفته أن عُمَر كان في قُرطُبة على وجه التّأكيد، وأنه فرّ منها متنكراً في ثياب شحّاذ، يتسوّل الصّدقة من منزل لمنزل[2].

---

(1) Makkari, ii. 456. See p. 91.

(2) Conde, i. 347.

لقد قويت شوكة ابن حفصون وامتدّ نفوذه لفترة طويلة حتى أنه تمكن من السّيطرة على حصن بلاي (قلعة أغيلار Aguilar، جبل پولي Poley) رغم أنه على مسافة يوم واحد من قُرطُبة. كان خيّالته منتشرين حول العاصمة وفي كل يوم، في الصّباح والمساء، كانوا يتقدّمون حتى بقايا شقندة[1] وفجّ أو ممرّ المائدة، دون أن يلقوا أيّة مقاومة. واستفحلت الأمور إلى درجة أن أحد خيالة ابن حفصون تقدّم حتى الفجّ المطل على قُرطُبة، وعبر الجسر «ودفع رمحه فأصاب الصّورة [التّمثال] التي على باب القنطرة ثم كرّ راجعاً إلى أصحابه»[2]. كان ينبغي الانتظار خمساً وعشرين سنة، وفق المصدر نفسه، لكي يتمكن قائد جيش قُرطُبة أبي عبدة (ابن جمري)[3] من إخراج عُمَر بن حفصون من حصن بلاي. وابن جمري هو الذي نصّب نفسه حامياً للأمير عبد الرّحمن قبل أن تُعرف هويته في بلاط قُرطُبة[4].

ويروي دوزي نهاية الفتن والثّورات ونهاية ابن حفصون على الشّكل التّالي:

عقد عبد الرّحمن الثّالث فور تولّيه العرش العزم على مهاجمة الخارجين عليه في معاقلهم، في سيرّانيا دي ريخيو أو رية، حيث حيث لم يعد للإسلام تقريباً وجود. وكان يتوقّع أن يبدي كثير من النّصارى ما يكفي من الثّقة في عدالة حكمه فيختارون بمحض إرادتهم الدّخول في طاعته[5]. ولم تخب توقعاته، فقد تقدّم العديد من أمراء

(1) هي مدينة رومانية على ضفاف الوادي الكبير قبالة قرطبة كانت قد تحوّلت إلى قرية صغيرة إبّان الفتح الإسلامي. يقال إن الأمراء القوط عسكروا في الموقع عندما استدعاهم رودريغو (لُذريق) للانضمام إلى قواته ومحاربة طارق بن زياد، نظراً لأنهم ما كانوا يثقون به لكي يدخلوا إلى قرطبة. وفي عهد عبد الرّحمن الثّالث، استعادت أهميتها كإحدى ضواحي المدينة.

(2) أخبار مجموعة، ص 133. ذكر مؤلف أخبار مجموعة أن ابن حفصون كان يسيطر على حصن بلاي «وهو على مرحلة من قرطبة». (م)

(3) أبو العبّاس بن أحمد بن محمّد بن أبي عبدة (ابن جمري). (م)

(4) Akhbar Majmua, 131 – 2.

وهناك سلسلة تلال تدعى سيرو دي أغيلار بالقرب من قرطبة.

(5) ينقل دوزي هذه القصة عن الخوشاني، وهو كاتب توفي في عام 971 في قرطبة، والتي تشكّل مثالاً على معاملة عبد الرّحمن المنصفة مع أحد المسيحيين، وهي جديرة بأن تروى، وإن لم تكن

القلاع في سيرّانيا بطلب العفو وحصلوا عليه، ما عدا من بينهم أمير طُلُش Tolox وكان في حماية ابن حفصون[1].

بعـد ثلاثة أعوام من ذلك، في عام 917، توفي ابن حفصون دون أن يتمكّن أحد من اقتحـام حصنـه، وخلّف وراءه أربعة أبناء هم جعفر وسـليمان وعبد الرّحمن وحفص. ويبدو أنّ أحداً منهم لم يرث حنكة أبيهم أو شـجاعته. دخل سـليمان في طاعة الخليفة فـي السّـنة التي أعقبت وفاة والـده، ولكن يبدو أنـه ثار بعدها ببضع سـنوات وقتل في عـام 927. أمّـا عبد الرّحمن الذي كان مولعاً بالأدب أكثر من ميله للحرب، فذهب إلى قُرطُبـة ليعيـش حياة طلبة العلم. ويقول دوزي إنّ جعفر قُتـل بأيدي جنده بعد أن أعلن رغبتـه في اعتناق الإسـلام. وحوصر حفص في بُبشـتر التي سـقطت فـي عام 928، ثم دخل في خدمة عبد الرّحمن.

وسـرعان ما خمدت الثّورات في البلاد. واستسـلمت بعض المـدن والقلاع الثّائرة علـى الفـور، وغيرها بعد حصار قصير، ثم جعل سـقوط طُليطلة فـي عام 932 من عبد

لها أيّة علاقة بابن حفصون. يبدو أن شريفاً نصرانياً دخل في طاعة عبد الرّحمن في السّنة السّابقة، كان يعيش مع خليلته المسلمة في قرطبة. اشتكت المرأة إلى القاضي لكي يحرّرها من هذا الوضع لكونها حرّة النّسب، وعلى اعتبار أنه من المخالف للشّريعة أن تقيم مسلمة تلك العلاقة مع نصراني. عندما علم الحاجب بدر بتلك الشّكوى، أرسل إلى القاضي يذكّره بأنّ المسيحي تنازل باستسلامه وأن كل حجّة تساق ضدّه ينبغي أن تدرس بتمعن، وعليه فليس عليه أن يطلق المرأة حرّة. ويتضح من خطاب القاضي أنه كان يعتزم أن يستجيب لطلب المرأة، فأجابه بدر بأنه لا يرغب في التّدخّل في عمل القضاء ولكن كل ما يطلبه أن تؤخذ في الاعتبار حقوق النّصراني التي كفلها له العهد المعقود له وأن يُحفظ حقه، لأنه، كما قال «أنت تعرف أنه لزام علينا أن نعامل النّصارى بالإنصاف وبكثير من المراعاة». يضيف دوزي أنه في إحدى المرّات رغب عبد الرّحمن في تعيين «مرتد» من أب وأم مسيحيين، في أعلى منصب قضائي، وهو منصب قاضي قرطبة، ولم يعدل عن ذلك إلا بصعوبة بعد تدخل الفقهاء. (*G. der M.*, i. 458)

(1) يقتبس دوزي هنا عن عريب Arib (عريب بن سعيد القُرطبي)، قوله إنّ عبد الرّحمن استولى في تلك الفترة على عدّة سفن لابن حفصون كانت محمّلة بالمؤن من أفريقيا. وهذا يدعو للتّساؤل أين كان ابن حفصون حتى يتمكن من بلوغ السّفن، إلا إذا كان اسم طُلُش "Tolox" تهجئة خاطئة لمدينة طُرُش "Torrox" السّاحلية إلى الشّرق قليلا من مالقة. (Ib. P. 459.)

الرّحمن حاكماً بلا منازع على عموم الأندلس[1].

يضيف كوندِه كعادته بعض التّفاصيل. فلدى تولّيه العرش قرّر عبد الرّحمن الخروج بجنده إلى طُليطلة. وخشية مواجهة الجيش الكثير العدد، انسحب ابن حفصون إلى شرق إسپانيا بغية جلب تعزيزات، تاركاً ابنه جعفر للدّفاع عن طُليطلة. لم يبق المُطرِّف، الذي كان يقود الجيش، ليحاصر طُليطلة وإنما سار للقاء ابن حفصون فهزم قواته في سهل واسع ليس بعيداً على ما يبدو من طُليطلة. انسحب ابن حفصون إلى حصن قونكة (هل هي قونكة معقل اليمانيين؟)[2] وحصون أخرى في المنطقة. صُدم عبد الرّحمن لمرأى ميدان المعركة، «فلما رأى حجم دماء المسلمين التي أريقت، وكأنه لم يعد للإسلام أعداء في إسپانيا، وكأنه لم يعد على الحدود دماء تستدعي الثّأر، أمر بإيلاء الجرحى من الجيشين العناية نفسها».

في العام 917، فتحت سَرَقُسطة، حيث كان لابن حفصون جمع من المؤيّدين، أبوابها أمام عبد الرّحمن، وأثناء وجوده فيها، خاطبه ابن حفصون طلباً للصّلح. فأجابه الخليفة أنه لن يتعامل مع من يخرج عن طاعته، ومنح ابن حفصون مهلة شهر للخضوع بلا شروط، مضيفاً أنه لم يصلب الرّسل على الأعواد لأنهم رسل. وتبدو هذه الإجابة متناقضة إلى درجة كبيرة مع موقف عبد الرّحمن المعهود من أعدائه التّائبين، حتى أننا لا نتردّد إطلاقاً في أن ننسبها إلى عمّه المُطرِّف الذي رافقه في حملته وبقي في سَرَقُسطة ليواصل الحرب على الحدود.

في عام 918، استسلمت جيان وغيرها من المدن المنيعة في البشرات، ومات ابن حفصون، كما يقول كوندِه، في وشقة[3].

---

(1) Dozy, *G. der M.*, i. 456, 460 – 3, 467, 469.

(2) ورد اسم الموقع في الإنكليزية "Hisn Conca" ويتساءل مؤلفا الكتاب إن كان المقصود مدينة قونكة "Cuenca" اليمنية. وهي مدينة قال الإدريسي إنها «مدينة صغيرة أزلية ولها سور» ص 258. (م)

(3) يقول دوزي نقلاً عن عريب، إن ابن حفصون توفي في عام 917، ولكنه لا يذكر مكان حدوث ذلك.

في عام 925 أو 926، صدر الأمر لبدء الهجوم على طُليطلة، حيث كان جعفر بن عُمَر بن حفصون متحصّناً، وبعد ذلك بثلاث سنوات بدأ الحصار فعلياً. نصح جعفر الذي أدرك عقم المقاومة السّكان بالاستسلام، وتقرّر أن يحاول ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف من المدافعين عن المدينة كسر الحصار والخروج من المدينة، ثم تفتح الأبواب. تم ذلك، وهرب جعفر مع جنده، في حين استسلمت المدينة وعامل عبد الرّحمن أهلها بالحسنى (927)[1].

استنجد جعفر بمسيحيي جليقية وامتدت رقعة المعارك حتى دار بعضها في جنوب طلبيرة، حيث انتصرت جيوش عبد الرّحمن في النّهاية. لم يرد بعد ذلك ذكر لجعفر وعائلة بني حفصون[2].

يجدر هنا أن نضيف تفصيلاً آخر حول حملة إخماد الثّورات في الأندلس. فعلى إثر تولي عبد الرّحمن الملك، أعلن عبيد الله بن الشّعلية الذي زوّج ابنته من جعفر بن حفصون وكان ملكاً على كاتلونا، الطّاعة وعيّن والياً على جيان[3].

كل ما نجده لدى المقّري أنه في وقتٍ ما بين سنة 924 و933، وفي مواجهة عبد الرّحمن النّاصر لبعض الثّوار «استمدّ بالنّصارى»[4]. ويقول غايانغوس إنّ في ذلك على الأرجح إشارة إلى جعفر ابن حفصون الذي كان في تلك الفترة تقريباً متحصّناً في طُليطلة[5]. ولكن المقّري لا يذكر سوى القليل عموماً عن المقاومة العنيدة التي أبداها ابن حفصون والمولّدون في مواجهة حكم قُرطُبة.

مع سقوط طُليطلة وإخماد الثّورات في عموم البلاد، نفقد كل أثر لأبناء ابن حفصون، البطل الإسباني الذي هزّ عرش قُرطُبة وكان قاب قوسين من أن يزيح

---

(1) يحدّد دوزي سقوط طُليطلة بعد ذلك التّاريخ بخمس سنوات.

(2) Conde, i. 364 – 82.

(3) Conde, i. 364; cf. Ibn Hayyan in Makkari, ii. 439.

(4) المقّري، ج 1، ص 363.

(5) Makkari, ii. 135m 462.

الفاتحين ويعيد حكم السّلالة القُوطيّة إلى إسـپانيا. لقد أعطى بنو سـعيد وبنو مسـلمة وبنـو حجّاج المتفرّعون من المصاهرة ما بين القـوط واليمانيين، للعالم رجالاً محبّين لـلآداب، كا أعطـوا رجالاً أشـداء في الحـرب. اعتمد بنـو حفصون فـي تفوّقهم على كفاءتهم العسكرية وحدها، وعندما لم يعودوا قادرين على شنّ الحروب اختفى أثرهم من صفحات التّاريخ. ولكن سـيرتهم تُظهر بوضوح، كما تظهر سـيرة أحفاد سـارة، أنّ استسـلام إسـپانيا في عام 711 كان نتيجة أسـباب أخرى غير اضمحلال الرّوح القتالية القديمة لدى القوط، فقد تبيّن لاحقاً أنّ أحفاد الرّجال الذين استسلموا في بداية القرن الثّامـن دون مقاومة أمـام الفاتحين، كانوا قادرين، رغم مئتي عـام أخرى من التّأثيرات المفترضـة لأجـواء الأندلس والتـي تضعف الـرّوح القتاليـة، أن يبـدوا مقاومة طويلة وعنيدة وكانوا على قاب قوسين من النّصر في مواجهة حاكميهم.



الفصل السّابع

تأثير الأقباط في إسپانيا

سبق أن ذكرنـا أنّ الاندماج بيـن التّقاليد الثّقافيـة والحضارية الرّومانيـة - القُوطيّة واليمانية أسهمت في جعل إشبيلية في مكانة متقدّمة على قُرطُبة قبل تولّي عبد الرّحمن الثّالـث الحكـم. غيـر أنّ مصدراً ثالثاً لعـب دوراً مؤثـراً هنا، ولكن أغفلـه حتى الطّلبة المدركـون تمامـاً لأهمية هـذه الفئة في بلـد آخر تحت الحكم الإسـلامي. إنـه التّأثير المصـري، وبمعنـى آخر التّأثير القبطي، الذي سـيتبيّن أنّ انعكاسـه على العلاقات بين الإسلام ومصر كان حتمياً في الأندلس في المناطق الخاضعة لحكم العرب اليمانية.

يقـول غيبون[1] إنـه عندما فتح عمرو بن العاص، قائد الجيوش الإسـلاميّة في عهد الخليفة عُمَر بن الخطاب مصر، اسـتقبل الأقباطُ المسلمين كمخلّصين وليس كأعداء. لكـن الدّكتـور (ألفرد) بتلـر يقدّم في «الفتـح العربي لمصر» فكـرة مخالفة حيث يظهر أن زعيـم الأقبـاط المفترض، البطـرك المقوقس كيرس، الحاكـم البيزنطي لمصر إبّان الفتح الإسلامي، خان الأقباط المسيحيين لمصلحة الفاتحين. ولكن بتلر، مثل غيبون، يوضح أنه بعد استسلامهم لعمرو بن العاص، سُمح للأقباط بممارسة شعائرهم الدّينية بحرّيـة وفق شـروط حدّدها الفاتحون، ثم يقـول لنا إنه «في ظلّ الأجـواء الجديدة من الحرّية الدّينية، انتعشـت الكنيسـة القبطية وسـرعان ما تمكّنت من إثبات ادعائها بأنها كنيسة الأمة»[2]. وتصف الكتابات القبطية «زمناً من الأمان والطّمأنينة بعد الاضطهادات

(1) المؤرخ الإنكليزي إدوارد غيبون في كتاب تاريخ سقوط وأفول الدّولة الرّومانية. (م)
(2) *Arab Conquest of Egypt*, 439 - 40.

والمظالم التي قام بتمثيلها المارقون (اليونان)»، ويقولون إنّ النّاس «كانوا فرحين مثل عجـول حديثة الولادة حُلّ وثاقها وأصبحت حرّة لرضاعة حليب أمها»[1]. وفي خطبته بمناسبة عيد الفصح في سنة 644 للميلاد، في المسجد الذي سيحمل اسمه، يقول عمرو بن العاص: «حدثني عُمَر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول: «إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً فإنّ لكم منهم صهراً وذِمّة ورحماً، فكفوا أيديكم وعفّوا فروجكم وغضّوا أبصاركم»...»[2].

وفي حديث آخر، أن الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) أوصى المسلمين عند وفاته بقوله ثلاث مرات: «انكم ستقدمون على قوم جُعدٌ رؤوسُهم فاستوصوا بهم خيراً، فإنهم قوة لكم وإبلاغ الى عدوّكم، بإذن الله»، وشرح الرّسول كلامه قائلاً: «الله الله، في قبط مصر إنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدّة، وأعواناً في سبيل الله (...) لانهم في رباط الى يوم القيامة»[3] [4].

لقد كان لدى الرّسول نفسه جارية مصرية اشتهرت باسم مارية القبطية، تلقّاها هدية من مصر مع أختها قبل الفتح[5]. ومعهما تم إرسال خادمتين وخصيّ وإناء من الألباستر وسبيكة من الذّهب الخالص، وزيت وعسل، وقماش من الكتّان المصري الأبيض النّاعم، بالإضافة إلى فرس وبغلة وحمار، وكلّها من أجود الأصناف والأنواع.

ويعلّق غيبون بلهجة تنمّ عن التباس حول العلاقة بين الرّسول ومارية القبطية التي كانت وراء نزول الملاك جبرائيل بالآية التي تحلّل دخوله بها[6]. وفي الرّواية ملمس

---

(1) *Arab Conquest of Egypt*, 445.

(2) أخرجه ابن عساكر. (أحمد)

(3) *Ib*. 435 – 6 and note 2.

(4) تتمّة حديث رسول الله: « «إذا فتح الله عليكم مصر، فاتخذوا منها جنداً كثيفاً، فذاك الجند خير أجناد أهل الارض»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «ولِمَ يا رسول الله ؟» قال: «لأنهم في رباط الى يوم القيامة» ». (م)

(5) أرسلهما المقوقس إلى الرّسول، وكانت مارية مع أختها سيرين. (م)

(6) «يا أيها النّبيُّ لِمَ تحرّم ما أحلّ الله لك تبتغي مرضاة أزواجك» (الآية 1، سورة التّحريم). انظر تفسير الواحدي وابن كثير والطّبري والقرطبي وتفسير الجلالين. (م)

إنسـاني فقد باتت مارية محبّبة لدى الرّسـول لإنجابها ولداً ذكراً سـمّاه إبراهيم والذي تركت وفاته مع إتمامه شهره الخامس عشر، الرّسول دون وريث ذكر[1].

ما من شـك في أنّ المسلمين عندما استقرّوا في مصر، سرعان ما اتّبعوا خطى النّبي فتزوّجوا أو اتّخذوا نسـاء قبطيات خليلات لهم. لقـد فعل قادتهم ذلك بالتّأكيد، حيث يذكـر المقريـزي أن أخا الخليفة هارون الرّشـيد عندما كان والياً علـى مصر في أواخر القـرن الثّامن، أعاد إلى الأقباط الامتيازات التـي ضمنها لهـم عمرو بن العاص، بفضل ما كان لخليلته القبطية من تأثير على ذاك الأمير[2].

أمّا فيما يتعلق بإراحتهم من مشـاغل هذه الدّنيا، وهو ما وعد به محمّد أتباعه إن هم أحسـنوا معاملة الأقباط، فيتضح معنى ذلك عندما نرى الدّور الذي لعبه مسيحيو مصر في الاقتصاد الدّاخلي بالنّسـبة للدّولة المسـلمة ما إن استقرت الأمور بين الفريقين بعد الفتح. وتؤكد المعلومات المتعلقة بالنّشاطات الصّناعية والفنية التي ازدهرت في مصر في القرن السّابع مدى أهمّية المصريين للمقاتلين المسلمين، والذين - باستثناء العرب اليمانية - لم تكن لديهم خبرة بالفخامة والرّاحة المنزلية. لقد كشفت الأبحاث وأعمال التّنقيب التي قام بها عالم الآثار الفرنسي ألبير غاييه A. Gayet وآخرون عن أدلّة مادية تثبت أن المؤرّخين لم يبالغوا في وصفهم لروعة حياكة الأقمشة والمشغولات اليدوية التـي عُثـر عليها في أضرحـة الأقباط والمسـلمين، والتـي كانت جميعهـا تحمل ختم صانعيها المصريين رغم أنّ تصميمها قد يكون متأثراً بتصاميم فارس وبيزنطة.

ازدهرت صناعة النّسـيج على نطاق واسـع مع تشكيلات واسعة من الأقمشة. صنع المصريـون كتّانـاً أرقّ ربما من أيّ قماش حاكته أنوال مصر القديمة، وشـاع اسـتخدام الحرير، وغالباً ما زُيّنت الملابس الكتّانية والحريرية بتطاريز جميلة. عثر ألبير غاييه في قبور العرب والمصريين، وفي دمياط في قبور للصّليبيين تعود إلى القرن الثّالث عشر، على مشغولات الدّنتيلا والتّطريز بطريقة النّسل والتّشبيك والتّخريم، وأغطية مخدّات

(1) *Decline and Fall*, chapter i.

(2) *L'Art Arabe*, p. 47.

مـن الدّنتيـلا، وجوارب محاكـة، وملابس صوفية ناعمـة. لقد استرشـد مصمّمو تلك الملابس بالأسـاليب الحرفية المميّزة للفنون القبطيـة بكل مؤثراتها. ويلاحظ الدّكتور بتلـر أنّ تطوّر صناعة الأقشـمة المصرية ابتـداءً من أواخر القـرن الخامس وحتى بداية القرن العاشـر، إنما «تعكس مثل مرآة التّغيرات السّياسـية التي شـهدتها البلاد». ويقيم ألبير غاييه في كتابه «الملابس في مصر من القرن الثّالث إلى الثّالث عشـر» *Costume en Égypte du 3me au 13me siècle* المقارنـة نفسـها امتـداداً حتـى فترة الحروب الصّليبيـة. كانت منتجات الشّـاش والنّسـيج المقصب، والحريـر المخطّط والمخمل والدّمقـس أو القمـاش الصّقيـل الدّمشـقي المطـرز، والملابـس المذهّبـة والقمـاش الموشّـى بخيوط الفضّة، والبسـط الجدارية المطرّزة[1]، والجلد المشـغول والسّـجاد والبسـط والسّـتائر كلها تحمل أسـماء المناطق التي تصنع فيها في مصر، وإن لم تكن صناعـة الأقمشـة هـي فقط ما تميّـز به هـذا البلد خلال القـرون الوسـطى. ففي مجال صياغـة المجوهرات، وطلاء المينا، والخزف المطلـي والمصقول، وصناعة الزّجاج، والمعادن، والحفر في الخشـب والعاج، والتّطعيم بالخشب والعاج والصّدف أو عرق اللؤلؤ والمعادن الثّمينة، وفي النّحت والرّسـم والعمارة - باختصار «في كل مجال من مجـالات التّصميـم والبناء، كان الأقباط هم الذين حافظوا علـى التّقاليد الفنية حيّة في البلاد»[2].

كان العرب اليمانية معتادين على معظم، إن لم يكن جميع، مظاهر الرّاحة والفخامة هـذه التي تشـكّل جزءاً من تقاليدهم إن لم يكن مـن حياتهم؛ فلم يعرف اليمن في عهد مصر القديمة حضارة راقية فحسب، وإنما خلال الاحتلال الفارسي جلب ملوك كسرى

(1) كان أهل الأندلس يسمّون البسط الجدارية بالحُصر وعنها يقول المقّري في حديثه عمّا اشتهرت به مُرسية من صناعات: «وهي للمَريّة ومالقة في صنعة الوشي ثالثة، وقد اختصّت بالبسط التّنتلية التي تسفر لبلاد المشرق، وبالحُصر التي تغلّف بها الحيطان المبهجة للبصر، إلى غير ذلك مما يطول ذكره»، (ج 3، ص 221). (م)

(2) Butler, *Arab Conquest*, chapter viii, passim; Gayet, *L'Art Arabe*, *L'Art Copte*, *and Costume en Égypte*, *passim*.

معهم أجود المنتجات الرّاقية والفاخرة وخصوصاً إلى العاصمة صنعاء، بحيث بلغت مستوى من الرّقيّ لم يصله أي مكان آخر في العالم في ذلك الوقت. كان اليمنيون الذين اعتنق عدد كبير منهم المسيحية قبل ظهور الإسلام، يؤمنون جميعهم تقريباً بالطّبيعة الواحدة للمسيح (المونوفيزية) مثل الأقباط، ويوحي وصف الكاتدرائية التي بنيت من أجل إقامة الشّعائر المسيحية في صنعاء بأنّ الكثير من معالمها توجد اليوم في الكنائس القبطية في مصر. بنيت الكنيسة في القرن السّادس، ولكن مثل الكنائس المصرية اليوم، كان المذبح مفصولاً عن صحن الكنيسة بساتر خشبي، في حين ثبّتت فوق الأبواب ألواح وصفائح من المعدن. كان السّاتر واللوحات والصّفائح في صنعاء من الأبنوس المطعّم بالعاج والذّهب والفضة والأحجار الكريمة، في حين حرم الفقر الكنائس القبطيّة من مثل هذا التّرف. ولكن الخشب المطعّم بالعاج، كما في كنيسة القديس سرجيوس وفي الكنيسة المعلّقة[1]، يظهر ما كان الحرفيون المصريون قادرين على فعله باستخدام مهاراتهم اليدوية فحسب، عندما كانوا عاجزين عن الحصول على الذّهب أو الجواهر لتزيين أماكن عبادتهم.

في صنعاء، تم تثبيت صلبان بارزة من الذّهب مزيّنة في الوسط بالياقوت الأحمر على ألواح الأبواب، وفي الكنيسة المعلّقة تم ثبيت صلبان غائرة في الأعمدة التي حُفرت عليها صور بارزة للرُّسل. وحلّ محل طبقات المينا الملونة في صنعاء، العاج المطعّم داخل طبقات أخرى من العاج والملوّن بالأحمر أو الأسود لتشكيل رسوم رائعة متداخلة. وكانت كاتدرائية صنعاء بازيليكية الطّراز، حيث تفصل أعمدة سامقة، صحن الكنيسة عن الأروقة. وبنيت الكنائس القبطية كذلك على الطّراز البازيليكي، حيث تفصل أعمدة طويلة ليس من الرّخام وإنما من مواد البناء، صحن الكنيسة عن الجناحين الجانبيين. وفي الحقيقة فإن الارتفاع الكبير هو أول ما يلاحظه المرء في الكنائس القبطية. كانت جدران كاتدرائية صنعاء مزينة بالرّسوم ولوحات الفسيفساء الملونة بالذّهب وألوان أخرى، وفي بعض الكنائس القبطية التي قام السّيد غاييه بنبشها

(1) *L'Art Copte*, Plates I., III and IV.

فـي مصر، وجدت بقايا رسـوم وغيرها من الزّخارف التـي تغطّي الجدران من الأرض إلـى السّـقف. باختصار، فإنّ كل مـا يمكن أن نعرفه عن الكاتدرائية المسـيحية للعرب اليمانية يبدو أنه وجد بشكل أو بآخر بدرجة أكثر تواضعاً نسبياً في الكنائس القبطية في مصـر ابتـداءً من القرن الرّابع إلى القرن الحادي عشـر، في حين يمكن مشـاهدة بعض التّشابه حتى في الكنائس القائمة اليوم.

بالإضافة إلى ذلك، حافظت المجتمعات العربية المسيحية على تماسكها بعد الفتح الإسلامي لفلسطين، وكان هناك مطران للعرب المسيحيين حتى القرن الثّامن[1].

لقـد كان الرّسـول يفكّر على الأرجح في هذه الرّوابط الدّينيـة عندما تحدّث عن الأقباط بوصفهـم «إخوة» للملسـمين. ومن غير المرجّح أن يكون العـرب اليمانية الذين كانوا حتى وقت قريب مسـيحيين يؤمنون بالطّبيعة الواحدة للمسـيح مثل أقباط مصر، قد نسوا كل ما له علاقـة بالأواصـر الدّينية خلال السّـنوات القليلة التي تبعت اعتناقهم للإسـلام. وعليه، كان مـن الطّبيعـي جداً أن تتصادق هذه الفئة من الفاتحين المسـلمين مع أمّة كان يربطهم بها مثل هذا التّعاطف القوي، وليس مفاجئاً أن نجد أن الأقباط سرعان ما شغلوا عدداً من المناصب الرّسـمية، وأنهم ظلّوا ولفترة طويلة يديرون كافة شـؤون الدّولة عملياً. لقد أخذ الرّسول بلا شـك كافة الظّروف في الحسبان، وكان يرغب في استرضاء اليمانيين – الذين اعتنقوا الدّين الجديد حديثاً وربما لم تكن قناعتهم راسخة بعد – عندما أوصى بمعاملة الأقباط بالحسنى، والذين كانت تربطهم بتلك القبائل العربية أواصر وثيقة من خلال التّقاليد الدّينية المشتركة.

---

(1) Butler, *Arab Conquest*, 147 – 8, 151, n. 3; Gayet, *L'Art Arabe*, *L'Art Copte*, *passim*.

لم تتلاش أمجاد صنعاء أبداً من تقاليد العرب اليمانية وكان شعراؤهم في الأندلس، كما في إشبيلية، يتحدّثون عن عاصمتهم السّابقة بوصفها تجسيداً للجمال والبهجة. ومن خلال لفته الانتباه إلى هذه الخاصية في كتابات ابن حمديس الصّقلي على سبيل المثال، يتعامل شاك Shack مع الحكايات التي تتحدّث عن بذخ صنعاء بوصفها مبالغاً بها، لكن الدّكتور بتلر وغيره كانوا واضحين في تأكيدهم أن هذه التّقاليد كانت تستند إلى أساس واقعي متين. لقد تبع ابن حمديس الصّقلّي المعتمد بن عبّاد إلى منفاه في أغمات بعد أن نعم مثل ابن اللّبّانة بضيافته في إشبيلية.

لقد أعملنا التّفكير قليلاً في العلاقات بين الأقباط والعرب اليمانية في مصر قبل الفتح الإسلامي لإسپانيا، لأننا نرى ضرورياً أن نشرح لماذا كان التّأثير القبطي قوياً لهذه الدّرجة في جنوب غرب الأندلس وغيرها من المناطق التي استقرّ فيها اليمانيون، منذ بداية القرن الثّامن وامتداداً إلى نهاية القرن الحادي عشر، عندما خُلع آخر أمراء اليمانية في إشبيلية وتوفي في السّجن في أفريقيا.

كان موسى بن نُصير، الذي تتضارب روايات الكتّاب المُضَريين بشأن أصله، من قبيلة يمانية. حتى أعداؤه يعترفون بذلك وإن كانوا يعرّفون عنه باعتباره كان عبداً أو رقيقاً كفله زعيم يماني. كان موسى بن نُصير إبّان الفتح الإسلامي لإسپانيا والياً على أفريقيا. وقد عيّنه في ذاك المنصب والي مصر عبد العزيز بن مروان، أخو الخليفة عبد الملك بن مروان. وكان موسى بن نُصير قد لجأ إلى عبد العزيز بن مروان عندما نشأ خلاف بينه وبين الخليفة. كانت مهمّة موسى بن نُصير الأولى تتمثّل في استكمال الحملة التي بدأها سلفه حسّان (بن النّعمان) لإخضاع أفريقيا. ويبدو أنّ القوات التي سارت إلى أفريقيا كانت تضمّ عدداً كبيراً من الجند المصريين. في سنة 702، عندما تم تكليف موسى بن نُصير بهمة إخضاع البربر، رافقه ابنه في «مقدّمة الجيش المصري»، ورغم أنه لا حاجة بنا لأن نفترض أنّ الجيش المصري كان كله أو بمعظمه من الأقباط الذين لم يكونوا شعباً محارباً، فمن المؤكد عملياً أن يصطحب الجيش من مصر معه عدداً من الأقباط كخدم وأتباع للعسكر، وما إلى ذلك. هناك قصّة عن موسى في مخطوطة لم يُعرف كاتبها يعيدها غايانغوس إلى العقد الأول من القرن التّاسع، ومترجمة في كتابه عن المقّري. تقول القصّة إنه في سنة 703 أو حواليها، أبحرت «السّفن المصرية» إلى سردينيا خلافاً لأوامر موسى، وفي حوالي سنة 708 وصل عبد الله بن مرّة Abdullah Ibn Marrah «مع مجموعة من الرّجال من مصر» وعيّنه موسى بن نُصير «قائداً للبحرية»[1].

لم تكن للمسلمين الأوئل خبرة بالبحر. وفي الحقيقة يقول ابن خلدون إن الخليفة

---

(1) Makkari, i. App. E. Ixvi. – Ixviii.

عُمَر منعهم من الخوض في البحر لأنه لم تكن لديهم خبرة به ولأنهم كانوا غير مؤهّلين للابحار، وإن هذا المنع استمرّ إلى أن تولّـى معاوية الخلافة (661 - 679) عندها بدأ المسـلمون في استقطاب بحّـارة وقباطنـة أجانب حتى امتلكـوا ما يكفي مـن الخبرة والمعرفـة لبناء السّـفن والإبحـار بها من تلقاء أنفسـهم. بعد هذا حقّقوا تقدّماً سـريعاً، وخـلال القرن الأول للهجرة لم يكونوا قد امتلكوا فحسـب عدداً كبيراً من السّـفن في مرافىء الشّام والإسكندرية، وإنما في تونس على السّاحل الأفريقي الذي فتحوه للتّوّ، وحيث قام موسى بإنشاء حوض للسّفن وبنى أسطولاً كبيراً[1].

تبيّن الإشـارات المتعدّدة إلى الأسـطول المصـري والبحّارة المصريين أنّ موسـى بـن نُصيـر اعتمـد على مصر في تشـكيل قوته البحريـة. وبما أنّ عمرو بـن العاص كان قـد أباد فلول اليونان والرّومان أو أرغمهـم على الفرار، وبات الأقباط بأغلبيّتهم تحت حماية المسـلمين، لا يسعنا سـوى أن نستنتج أنّ الأقباط شـكّلوا بحّارة هذا الأسطول المصـري مـع تنامي عـدد العـرب المؤهّلين لقيـادة سـفنهم. عندما يتحـدّث الكتاب العرب عن المصريين، لا بدّ أنهم كانوا يشيرون إلى الأقباط الذين لم يكن يوجد حينها مصريـون غيرهم: وعليه فإنّ تكرار ذكرهم مع ذكر موسـى بن نُصير يثبت على ما يبدو أن تلك الحملة ضمّت عدداً كبيراً من أبناء تلك الملّة، كان مفيداً، إن لم يكن ضرورياً، للمسلمين في شمال أفريقيا في ذلك الوقت، كما يمكن في الحقيقة أن نتوقع من خلال أعمال أسلاف موسى بن نُصير.

يقـول كونـدِه إنّ الحامية التي وضعها موسـى في طنجة تحت إمـرة ابنه مروان بعد فتحه لتلك المدينة في عام 705، كانت تضـمّ عشـرة آلاف رجل، «جميعهم من العرب والمصريـين»[2]. يتهم غايانغوس كونـدِه بأنه كان يخلط ما بيـن «قبائل مصر» و«قبائل مُضَر»[3]، ولكن النّص التّالي المأخوذ من كتاب «أخبار مجموعة»، يشـير بوضوح إلى

(1) Ibn Khaldun in Makkari, i. App. Xxxiv. Ff. And anon. In id. Ixvi.

(2) Conde, i. 23.

(3) Makkari, ii. 402.

مصـر، رغم أن المحرّر الإسـباني كتب فـي ملاحظته أنه يمكن قـراءة الكلمة على أنها مُضَر.

مـن غيـر المرجّح وفـق النّص الوارد أدنـاه أن يكـون المُضَريّون هـم المقصودين؛ وعلـى الرّغـم من أنّ الفهريـين قاتلوا عبد الرّحمن الدّاخل بشراسـة حتـى النّهاية، فقد أعلنـت القبائـل المُضَريـة عمومـاً الدّخول فـي طاعتـه[1]. وعندما وصـل لإقامة ملكه فـي إسـبانيا، كان هناك، طبقـاً لمؤلف «أخبار مجموعـة»[2] «جُند» مـن المصريين في باجـة، ثاروا تحت قيادة أميـر يماني معارض لحكم الأمويين[3]. ولـدى توزيع القبائل والأفواج والفرق في البلاد بعد اضطرابات 742، اسـتقرّ الجند المصريون في أكشونبة Ocsonoba وباجة وفي أراضي تُدمير[4].

لقد وجدنا تأثير المصريين في تصاميم النّسيج وطريقة نسجه أقوى في الغرب وفي جـوار باجـة (حالياً في البرتغـال) مقارنة مع معظـم نواحي الأندلس الأخـرى، ما عدا في إشـبيلية. والتّأثير كبير بالفعل إلى درجة أننا عرفنا مسـافرين قادمين لتوّهم من مصر قادرين على تمييز قطعة من الدّنتيلا القديمة من أكشونبة بوصفها ذات تصميم «مصري خالص». كانت تُدمير جزءاً مما أصبحت اليوم محافظة مُرسـية، وقد اشـتهرت في ظلّ الحكم الإسـلامي بصناعة الحرير الذي ذاع صيته في كل إسپانيا، وكانت المشغولات الحريرية من الجودة بحيث كانت تصدّر بكميات كبيرة إلى مصر وبلاد الشّرق.

وعليـه نعتقد أنه ما من شـك فـي أنّ الكتّاب العرب الذين تحدّثـوا عن أبناء «مصر» و«جُند مصر» كانوا يعنون بذلك الأقباط الذين جاؤوا تحت راية موسى بن نُصير وغيره

---

(1) كان الأمويون مُضَريين من قبيلة قريش، الفهريون مُضَريون ولكنهم حاربوا عبد الرّحمن الدّاخل لأنه أزاح حاكم الأندلس يوسف الفهري.

(2) *Akhbar Majmua*, p 95.

(3) «فلمّا حال الحال ثار عليه العلاء بن مُغيث اليَحصُبي، ويقال: حضرمي، بباجة، وسوّد ودعا إلى طاعة [الخليفة العبّاسي] أبي جعفر، وكان قد بعث إليه بلواء أسود في سن قناة قد أدخله إهليلجة وطبع عليه، فأخرجه العلاء فجعله في رمح، وقام به في جند مصر» (أخبار مجموعة، ص 93).

(4) Dozy, *G. der M.*, i. 169; Conde, i. 112.

مـن القادة. ويتحـدّث كوندِه في مقاطـع أخرى عن الخلافات بيـن القبائل والأحلاف مـن «اليمانيـة وأهل مصر والشّـوام وبني العبـدري»[1]، ونتيجة لذلك اختار «أشـراف العـرب القحطانيون وبعض المصريين» حاكماً بالاتفاق فيما بينهم. ويقول غايانغوس إنّ أشـياخ العبدري[2]، كانـوا قبيلة مُضَرية، وهكذا يكون لدينا فـي هذه الفقرة يمانيون ومُضَريون وشـوام إلى جانب المصريين[3]، ولا يوجد بديل غير القبول بأنّ المصريين كانوا جماعة مختلفة عن الثّلاث الباقية.

بعـد مئتي عام من الفتح الإسـلامي، يذكر عبد الرّحمن الثّالث الأقباط بالاسـم في خطـاب كتبه لأحد أنسـبائه في إشـبيلية (انظـر ص 148 طبعة الأصـل). ولا يتضح من خـلال التّرجمـة أنّ الخليفة أراد التّلميح إلى أن عائلة قريبـه تنتمي إلى الفئة المحتَقَرة، رغم أن ملاحظته بشأن والدة أحمد بن إسحاق توحي بذلك. لكن الأبيات التي اقتبسها ما كان سيكون لها أي معنى لو لم يكن هناك أقباط يعيشون في البلاد في ذلك الوقت، فـي حيـن أنّ نعت والدة أحمد بـ«حمدونة السّـاحرة»[4] ذو دلالة، نظراً لقوى السّـحر التي زعم المصريون امتلاكها على مر التّاريخ.

في رواية المقّري لغزوة شـانت ياقُب[5] (سـانتياغو، Santiago) في سـنة 997، في عهـد المنصـور، يقول نقـلاً عن أبي حيّـان، إن كنيسـتها كانت لدى النّصـارى «بمنزلة الكعبة عندنا، وللكعبة المثل الأعلى، فيها يحلفون وإليها يحجّون من أقصى بلاد رومة وما وراءها»، وفيها ضريح القديس يعقوب الذي «يقصد نسّاكهم له من أقاصي بلادهم

(1) i. 109, 121.

(2) In Makkari, ii. 402.

(3) الشّوام هنا هم الجند الشّوام الذين قدموا مع بلج بن بشر، وتفرّقوا في البلاد بعد ذلك بهدف إحلال السّلام، حيث تم توزيع المجموعات المختلفة بحيث تفصل بينها مسافات واسعة نزولاً عند رأي أرطباس.

(4) انظر حول ذلك ما يلي أدناه في الفصل الثّامن. ولتوضيح ما جاء في رسالة عبد الرّحمن الثّالث إلى أحمد بن إسحاق، انظر «أخبار مجموعة»، ص 138 – 139. (أحمد)

(5) وردت لدى المقّري باسم شنت ياقُب ولدى الإدريسي باسم كنيسة شنت ياقوب، ص 246. (م)

ومـن بلاد القبـط والنّوبة وغيرهما»[1]. سـنتذكر لاحقاً أنّ المسـيحيين ألاقباط سُـمّوا باليعاقبة نسـبة إلى يعقوب البرادعي، الذي قام بإنعاش أو إحياء الكنيسـة بعد أن كادت تتلاشـى بسـبب الاضطهاد. ويقول غيبون إنّ سـيرة هذا الرّجل غامضة، وإنّ «اليعاقبة أنفسهم اشتقّوا بالأحرى اسمهم وأصلهم من القديس يعقوب الرّسول»[2]. وهكذا فإنّ الكنيسة المكرّسة للقديس يعقوب الرّسول لا بدّ أن تحلّ بمكانة مقدّسة لدى الأقباط.

يبـدو من الصّعب أن يحجّ أهل النّوبة وأقباط مصر من بلادهم إلى شـمال إسـپانيا، ولكـن ليس مسـتحيلاً أن يُسـمح للأقباط المسـيحيين المقيمين فـي الأندلس والعبيد المسيحيين أو المقاتلين الذين تم إحضارهم إلى إسپانيا من النّوبة، بالحج إليها، حيث كان أبنـاء دينهـم يحظـون في ذلـك الوقت بتقديرٍ عـالٍ، وخصوصاً مـن قبل الحاجب المنصور، فاتح شنت ياقُب (راجع ص 174 طبعة الأصل)[3].

---

(1) Makkari, ii. 195.

المقّري، ج 1، ص 413، 415.

(2) Chapter xlvii.

(3) قلّما يذكر أهل النّوبة في إشبيلية بعد هذه الإشارة غير المباشرة إلى وجودهم في الأندلس حتى القرنين الرّابع عشر والخامس عشر، عندما يقال إنهم كانوا كثيري العدد. في عام 1475، كان لدى الملكين الكاثوليكيين حاجب زنجي اسمه خوان دي ڤالادوليد، تم تعيينه عمدة Mayo-ral إشبيلية مع لقب الكونت الزّنجي. ولا يزال يحمل شارع في المدينة اسم «إل كوندِه نِغْرو» El Conde Negro تخليداً له. ومن بين المؤسّسات المختلفة التي دعمها الزّنوج أخويّة دينية تأسّست في عام 1400 وكانت لا تزال موجودة سنة 1852، ولديها كنيستها الصّغيرة داخل كنيسة الأبرشية في سان روك [قرطاجنة الجزيرة]. وفوق أحد مذابح الكنيسة كانت هناك لوحتان قديمتان، واحدة تمثل سان إلسبان San Elesban ملك الحبشة، والثّانية القديسة إيفيغينيا Efi-genia. وتقول الأسطورة إن هذه القديسة تعمّدت على يد القديس متّى عندما كان يبشّر في الحبشة، وعندما أضرم هيتاكو النّار في الدّير الذي التجأت إليه مع متّي بتول، ظهر القديس متى وأطفأ النّيران. كانت لوحة القديسة إيفيغينيا تمثل هذا الحادث (*Glorias religiosas de Sevilla*, 381 – 99). ويوحي اختيار الشّخوص في الصّورة وبقوّة بأنّ زنوج إشبيلية يعتبرون أنفسهم من أبناء النّوبة، وإلا لكان من الصّعب أن يختاروا رسم ملك من الحبشة وقدّيسة شرقية تدعى إيفيغينيا. وهكذا فهم بذلك يشكّلون صلة الوصل مع أهل النّوبة الذين كانوا يتعبّدون في كنيسة سانتياغو في القرن العاشر. لا تزال هناك جالية من الزّنوج في لبلة في محافظة ولبة،

خلال عهد عبد الرّحمن الثّالث، أثّرت الفتن في الشّرق على التّجارة في إسپانيا. وفي سنة 955 أو حواليها، أمر الخليفة ببناء سفينة كبيرة في إشبيلية لغرض التّجارة مع مصر وصقلية. ولكن السّفينة اشتبكت في أول رحلة لها مع سفينة أفريقية تنقل رسائل من معزّ الدّولة والي بغداد إلى والي صقلية، بالقرب من الجزيرة. وخرج الأندلسيون منتصرين من المواجهة فاستولوا على سفينة معزّ الدّولة بكل حمولتها، وواصلوا رحلتهم إلى الإسكندرية حيث باعوا بضائعهم، وحمّلوا سفينتهم بمنتجات مصرية، ثم استعدّوا للابحار عائدين إلى إسپانيا. ولكن عندما بلغ معز الدّولة ما حدث، أرسل سفناً حربية من مينائي مصر وصقلية استولت على سفينة إشبيلية في ميناء المَريّة وعلى حمولتها، وقامت بحرق بعض المراكب الصّغيرة في الميناء، ثم فرّت راضية بانتقامها وغنائمها. عرض الحاجب أحمد بن سعيد (ليس هناك ذكر لنسبه، لكن اسمه يوحي بأنه قوطي يماني، راجع شجرة العائلة) على عبد الرّحمن الانتقام وبدأ بشنّ حملة على التّجّار الذين يتاجرون في المغرب تحت حماية معز الدّولة، فكانت النّتيجة جمع ما يكفي من الغنائم لإرضاء الخليفة والجيش[1].

كان أحمد معز الدّولة حديث نعمة استولى على حكم بغداد عن طريق المكائد، إن لم يكن بالقوة، وفرض نفسه والياً على العبّاسيين الذين وهنت خلافتهم وكانوا يحكمون العراق بالاسم ليس إلا، وحوّل سلطة أمير المؤمنين إلى مجرّد طيف. حاول استبدال اسم الخليفة العبّاسي في خطبة الصّلاة ليُذكر بدلاً منه أبو تميم الفاطمي، ولم يمنعه سوى اعتراض أبناء فريقه أنفسهم. عيّن رجاله في مناصب الحكم في العراق،

يتميّزون بشعرهم الجعد الأسود وعيونهم الواسعة الصّافية والبراقة، وازرقاق الجلد تحت أظافرهم والذي نربطه بالعرق الزّنجي، ولكن شفاههم ليست غليظة كشفاه الأفارقة السّود. وليس لون جلد هؤلاء الزّنوج داكناً أكثر من لون المصريين في المنطقة، لكنهم مميّزون تماماً. يطلق عليهم جيرانهم اسم نغريتوس Negritos، وهو تصغير لكلمة «نغرو» التي تعني زنجي. خلال وجودنا في المدينة لبضع ساعات رأينا على الأقل عشرة من الأطفال النّغريتو.

(1) Conde, i. 444 ff.

بحيث جعل الخلافة في الواقع، إن لم يكن بالاسم، مجرّدة من كل نقاط قوتها[1].

تكمن أهمّية الحادث بالنّسبة لنا في أنه يكشف لنا أنّ عبد الرّحمن كان يتاجر قبلها مع مصر بسلام، بما أنّ سفينته تعرّضت لهجوم مباغت من قبل السّفينة المرسلة من معز الدّولة، والتي كانت تحمل رسائل إلى حكومة صقلية يعلن فيها تولّيه الحكم.

هناك في الإجمال كمّ كاف من الأدلّة المباشرة وغير المباشرة بأنّ الأقباط أتوا إلى الأندلس بأعداد كافية لكي يضطلعوا وإلى حدّ كبير بالدّور نفسه في الاقتصاد المحلّي للدّولة المسلمة كما فعلوا في مصر، في حين عُثر على أدلّة لا تُدحض حول تأثير الأقباط في الفن والعمارة الأندلسية، حيثما ساد العرب اليمانية.

وتظهر أكثر الأدلة الملحوظة على هذا التّأثير في الكنائس التي يقول كتّاب القرنين السّادس عشر والسّابع عشر إنها كانت «في السّابق مساجد». هناك عدد كبير من هذه الكنائس داخل إشبيلية وفي نواحيها، وفي محافظتي قادس وولبة وبعضها في مُرسية وغيرها، والتي لم يُعد بناؤها بشكل كامل منذ تأسيسها في الظّاهر. وليس هناك ما يفسّر كيف كانت هذه الكنائس مساجد في السّابق، وهي بالطّبع لم تُبنَ في الاصل من أجل تلك الغاية، حيث أنّ العديد منها يعود إلى ما قبل القرن الثّامن. وفي هذه الكنائس – ومن بينها واحدة مكرّسة لقدّيس قديم العهد لم يعد مدرجاً على التّقويم الإسباني – يظهر أثر الفن والتّقليد المصري جليّاً أكثر من أيّ مكان آخر. فجميع هذه الكنائس بُنيت على الطّراز البازيليكي، وبعضها ذات طراز قديم جداً، ولكن وبالطريقة نفسها، تمّ إعلاء السّقف في جميع تلك الكنائس تقريباً، وأحياناً إلى درجة كبيرة، من خلال إضافة عقود مدبّبة إلى الأعمدة التي تفصل صحن الكنيسة عن الأجنحة. ويبدو حبّ الأقباط للمباني العالية جلياً في رسوم السّيد غاييه في قسم «العمارة» في كتابه «الفن القبطي». وتُظهر الكنائس البازيكلية في إشبيلية أن من قاموا بإعادة بناء الكنائس القديمة اشتركوا في إيثارهم لهذا النّمط المعماري. ويظهر تأثير العمارة العربيّة من جهة ثانية في الأسقف. فهي دائما مغطّاة بالبلاط القيشاني، على الطّراز المستخدم

(1) Makrizi, *Hist. Egypt*, 80 – 1.

فـي هـذا الجزء من إسـپانيا منذ العصر الرّومانـي إن لـم يكن منذ ما قبـل التّاريـخ. وهي ليسـت مسـقوفة أو مقبّبة فـي الدّاخل، وإنمـا تُترك العوارض الخشـبية ظاهـرة. وهذه العوارض مزيّنة بزخارف وتشـكيلات هندسـية يتميّز بها فن تبطين السّـقوف الخشـبية العربـي (أرتيسـونادو) artesonado الذي يقوم على تقطيع الخشـب وخرطه أو حفره وثقبه وتعشـيقه وتطعيمه، فيعطي أشـكالاً هندسية رائعة. ويمكن مشـاهدة أمثلة رائعة على هذا الفن في بعض أقدم الكنائس في المناطق الرّيفية القريبة من إشبيلية.

وإلى النّمط البازيليكي الأساسـي، المتميّز بالعقود أو الأقواس المسـتدقة الرّؤوس التي تعلو الأعمدة القديمة المصنوعة من مواد البناء، والزّخارف الخشبية العربية تحت الأسقف المغطاة بالبلاط القيشاني، تمّت إضافة عنصر آخر في معظم الحالات. ويتمثل هذا العنصر بثلاثة أبواب في اتجاه الغرب والشّمال والجنوب، مزخرفة بطريقة جميلة فيمـا يمكن أن يسـمّى في أماكن أخـرى بالنّحت اللّومباردي، وبعقود مسـتدقّة. بعض هذه الأقواس (على سبيل المثال في كلية سان ميغيل، التي تعتبر رمزاً أثرياً للكاتدرائية القُوطيّة في مراحلها الأولى) وإن كانت مسـتدقّة تقريباً مثل الأقواس القُوطيّة، ينقصها التّباعـد المميّـز للفن القوطـي، حيث أنّ الفتحة مقطوعة على شـكل مربع في الجدار. وهناك أقواس أخرى متباعدة فوق أعمدة صغيرة يختلف عددها من واحد إلى سـبعة، ولكنهـا تبـدو بارزة من الجدار، وليسـت مبنيّة داخلـه كما في الفن القوطي الشّـمالي. ولوصل هذا البروز مع الجدار في الأعلى، يتم تركيب إفريز عميق، تدعمه كقاعدة، في حالة إشـبيلية، رؤوس أسـود، وفي الكنائس الرّيفية مجرد طنوف ناتئة، كلها مستوحاة من العمارة الشّرقية بشكل أو بآخر[1].

إن لم يكن واضحاً من النّظرة الأولى أن هذه الأروقة أضيفت في وقت متأخر للبناء الرّئيسـي، فيمكـن إثبات ذلك مـن خلال المقارنة مـع بوابات قرمونة ورُندة وشـذونة الضّخمـة حيث بنيـت أقواس نضوية مـع أفاريز وطنوف فـوق البوابـات الرّومانية في أسـوار المدينة. ويختلف تاريخ بناء الأروقة المقوسـنة، وليس مـن الصّعب في بعض

(1) الأسد والنّسر كانا من الأصنام الوثنية في اليمن.

الحالات تخمين الوقت الممتدّ بين بناء أحدها والآخر. ولكن الإضافة الواضحة للبناء الأساسي هي نفسها في كل مكان، وهي ليست بصورة أساسية تلك العائدة إلى القرن الثّالث عشر القوطي والتي نراها على سبيل المثال في كنيسة القديس جيل والقديسة آنا في إشبيلية، والتي نعرف أنها جرت في عهد ألفونسو العاشر، في عام 1261 و1282. فالتّقدّم في الأسلوب والتّصميم واضح تماماً بحيث يشكّل بحد ذاته إثباتاً على أنّ العمل الذي قام به ألفونسو تم في وقت متأخّر جداً، رغم أنّ الظّروف التي سادت لسنوات عدّة بعد حرب الاسترداد تجعل من المؤكد عملياً أنّ الحرفيين كانوا مسلمين أو مستعربين من أبناء المنطقة.

نجد في الطّرف الغربي من هذه الكنائس البازيليكية نوافذ حجرية محفورة على الطّراز العربي الأكثر بدائية في بعض الأحيان. وتشبه المحاريب أو أماكن الصّلاة الجانبية أضرحة أو مزارات الرّجال العظام الملحقة بالمساجد التي بنيت في صدر الإسلام في مصر. وبمحض الصّدفة، كشف حريق عرضي عن زخارف عربية لا تزال في حالة ممتازة تحت سقف مصنوع من الجصّ ومغطّى بماء الكلس في كنيسة سانتا مارينا في إشبيلة. ويمكن تمييز المحاريب هذه من خلال القباب ذات السّتة عشر عقداً والمرتكزة على شكل ثُماني الأضلاع يرتكز بدوره على مضلع رباعي الزّوايا، وفي أعلى القبة منور يفيض بالضّوء. هذه الخاصّية المميّزة لا يمكن أن يكون منشؤها في مكان آخر غير مصر، بما أنّ الأمثلة الأقدم لمثل هذا الطّراز المعماري موجودة في دير إخميم القبطي المبنى في سنة 550 للميلاد[1]. نجد هذه المحاريب ذات القباب المتعدّدة الأضلع في إشبيلية دائماً في الطّرف الشّرقي لأروقة الكنيسة. وبُني محراب، ويسمى كذلك «مشرقيّة»، في كل جانب من الرّواق بحيث يكونان متقابلين. وتم تصميم المناور العلوية بحيث ينير الضّوء الدّاخل عبرها الصّور التي تزيّن الآن هذه الصّروح الإسلاميّة السّابقة. نجد في الأقبية أو الحنايا نصف الدّائرية في كل هذه الكنائس تقريباً أثر الفن القوطي الشّمالي في النّوافذ الطّويلة ذوات العقود المستدقّة والأسقف المقبّبة الرّشيقة التي سادت في القرنين الثّالث عشر والرّابع عشر هنا كما

(1) Gayet, *L'Art Copte*, p. 82.

فـي دول أوروبيـة أخرى. هنا نقف علـى أرض صلبة من اليقين، حيث نجد سـجلّات للإضافـات الأخيـرة في الكثير من الحـالات. صحيح أنّ مدوّنـي الحوليّات في القرن الرّابع عشـر غالباً ما كانوا يعطون لأنفسـهم حرية القول، كما فعل أسلافهم المسلمون من قبلهم، إن هذا المبنى أو ذاك «أعيد بناؤه» من قبل هذا الشّخص أو ذاك، ولكنهم في هذه الحالات كانوا يشيرون فقط إلى الحنية، لأنها وحدها تعود إلى الفترة المعنيّة. إنه لمن المثير للاسـتغراب أن نرى، على سـبيل المثال في كنيسة سان أندريس في إشبيلية والتي تشـتمل علـى كل الخصائص التي تم التّطـرق إليها أعلاه، تيجـان عمدان عليها صـورة رأس الإلهـة الفرعونيـة حتحـور ترتكز عليها قبّـة بنيت في القرن الرّابع عشـر، ونقـوش تمثـل أزهار لوتـس تقليدية على طنـف النّوافذ الطّويلة الرّشـيقة فـي الحنية، وقـد تم توسـيع الحنية وتعديلها في القرن الرّابع عشـر، ولكن لم يُعـد بناؤها. وعندما نرى سـتاراً خلفياً مزخرفاً جميلاً، مطلياً بماء الذّهب واللون الأحمر في وسـط الحنية القُوطيّـة بحيـث يحجب نصفها، في حين تشـوّه الجدران البازيليكيـة القديمة لوحات رديئة من أواخر القرن الثّامن عشر متنافرة مع المكان، عندها تكتمل حقاً قصّة الكنيسة فـي إسـپانيا، ويمكننا أن نقول عـن هذه المباني، كمـا يقول الدّكتور بتلر عن الأقمشـة المصرية: إنها «تعكس التّغيرات السّياسية التي عرفتها االبلاد مثل المرآة».

لـم يكن هنـاك خط فاصل بيـن المدرسـتين القبطية والعربيـة في مصر فيمـا يتعلّق بالتّصميـم الهندسـي والفنّـي حتى سـقوط الدّولـة الفاطميـة[1]. لم يفـرّق الأقباط بين المساجد التي تعاقدوا لبنائها وبين كنائسهم، حيث وظّفوا الأفكار نفسها في المساجد والكنائـس علـى حدّ سـواء. وعليه يمكننـا أن نجد في الفـن القبطي العربـي والقبطي المسـيحي في مصر، صليباً في وسط تصميم هندسي، وميدالية كبيرة متعدّدة الأضلاع

(1) نشير هنا بالطّبع إلى المدرسة التي انبثقت عن استخدام القادة المسلمين الأوائل للفنانين والمعماريين الأقباط، مثل عمرو بن العاص وعبد العزيز بن مروان، والخليفة الوليد بن عبد الملك، وابن طولون وهكذا حتى الفاطميين. وحتى في وقت متأخر مثل القرن الرّابع عشر، استعان الحسن الأول [السلطان حسن بن النّاصر محمّد بن قلاوون] بمعماري قبطي لتشييد مسجد ومدرسة السّلطان حسن والذي يحمل توقيعه في القاهرة. (Gayet, *L'Art Arabe*, pp. 27, 39, 41 – 42, 49 – 50, 121.)

يحيط بها إطار يتضمّن رسم الأرنب الغامض وهو الصّورة الهيروغليفية للفظ «أون»[1] وهو رمز أوزيريس إله العالم الآخر عند الفراعنة، وهكذا دواليك[2].

يتكرّر هذا المزج بين الرّموز والتّصاميم الهندسية بصورة ملفتة في إشبيلية وبعض المناطق المجاورة لها، وخصوصاً في ولبة (أكشونبة التي ذكرت في أخبار مجموعة) حيث استقر جند *Jond* مصر في القرن الثّامن. وبالإضافة إلى ذلك، نجد أن هذه التّصاميم تستخدم هنا حتى في زمننا الحاضر على مشغولات مماثلة لتلك التي عدّدها المقريزي بوصفها كانت رائجة في البلاط الفاطمي، مثل الكتّان النّاعم والشّاش الموسلين الشّفاف، والحرير الفاخر. كما أن طرق شغلها هي بالتّحديد تلك التي استخدمت لتزيين وزخرفة الملابس التي عثر عليها السّيد غاييه في القبور القبطية والعربية، والتي تعود إلى الفترة ما بين القرن الثّالث والقرن الثّالث عشر - أقمشة الحرير والكتان والموسلين المطرزة بطريقة نسل الخيط، والتّطريز على الدّنتيلا المشبّكة، والتي كان يطلق عليها هنا سابقا اسم «شبكة السّمك» *red de pez* وباتت تعرف اليوم باسم «مايّا» *malla*. ولا تزال هاتان الطّريقتان تستخدمان اليوم في الأندلس لصنع مشغولات راقية وصعبة التّنفيذ؛ وحتى في الأوقات الحاضرة يمكننا أن نجد رموزاً مثل الصّليب المعقوف ورمز «خا» kha[3] وغيرها من التّصاميم الهندسية ورسوم الحيوانات الرّمزية، التي تقوم الفلاحات بتطريزها لغاياتهن الخاصة. لقد رأينا مثالاً على هذه المشغولات على الكتان المغزول والمنسوج منزلياً، وعلي رسومات تذكّر برمز «خا»، الذي يتم تشكيله من خلال سحب الخيوط ليظهر رسم امرأة تنتهي أطراف يديها بدلاً من الأصابع بصليب[4] تحديداً كما في صورة «خا» على مصباح في المتحف المصري في القاهرة. لقد جاء هذا الرّسم من قرية نائية في جبال ولبة

---

(1) أون Oun وتعني «أن تكون» أو «تعيش». (م)

(2) *L'Art Arabe*, p30.; *Costume en Égypte*, *passim*.

(3) خا Kha رمز فرعوني معقد، من بين معانيه أنه مصدر قوة الحياة التي تهبها الآلهة، والرّوح التي تعيش داخل كل انسان. (م)

(4) عنخ ☥ هو مفتاح الحياة عند المصريين القدماء وهو على شكل مفتاح بذراعين ممدودتين تتعامدان وتتصالبان مع الجزء الطّولي. (م)

(سـييرّا دي ويلبـا Sierra de Huelva) حيـث لم يكن أحد يعرف شيئاً عـن المصريين أو الرّمـوز القبطيـة قبل مئـة عام. ولكن الرّسـوم التّقليدية تحفظ بعنايـة وتنتقل من جيل لآخر حتى في القرن العشـرين بحيث يمكننا أن نفهم سـبب بقاء مثل هذه الأفكار في مناطق نائية لم تتعرّض بعد ذلك لتأثير فني آخر من شأنه أن يغيّرها[1].

سـنتناول لاحقـاً صناعـة الخـزف والخشـب والعـاج والحفـر والحلـيّ والـدّروع والمفروشات القبطية القُوطيّة أو القبطية العربية، لأننا ابتعدنا كثيراً عن تاريخ الأندلس في ظل الحكم الإسـلامي. ولكن نأمل أن نكون قد بيّنّا أنّ إشـبيية كانت أكثر تقدّماً من قُرطُبـة قبـل تولّي عبد الرّحمن الثّالـث، وذلك بفضل الفن والثّقافـة التي عرفتها نتيجة التّفاعـل والاختـلاط بين العناصر الثّلاثـة التي اجتمعت فيها. هناك فـي البدء، التّقاليد الرّومانيـة التي حافظ عليها الأمـراء القوط الذين كانت إشـبيلية عاصمتهم ومركزهم. وثانيـاً، التّقاليد وثقافة التّرف والفخامـة التي حافظ عليها العرب اليمانية الذين اتخذوا إشـبيلية عاصمـة لهم تقريباً طوال فترة الحكم الإسـلامي في إسـپانيا. وثالثـاً، التّقاليد والفنـون والحرف والصّناعت المصرية التي رعاها العرب اليمانيون هنا كما في مصر، والتي لم يعق تطورها حظر تصوير المشاهد الحياتية كما فعل السُّنّة في قُرطُبة.

وفـي حيـن لا تذكر المصادر المتوافرة حالياً أنه تم اسـتخدام فنانين يونانيين في إشـبيلية (كمـا تفيد الحوليّات أنهم اسـتُخدموا في قُرطُبة، في مناسـبتين علـى الأقل)، فممّا لا ريب فيـه أنّ هنـاك تأثيـراً مسـيحياً ماثلاً بقـوة في كافـة الفنون في إشـبيلية في الفتـرة الأولى من الحكم الإسـلامي. ومن المسـتحيل أن يكـون الفضل في ذلك للقوط الذين عاشـوا، على أي حال بسـلام وود، إلى جانب المسـلمين في جنوب إسـپانيا، لأنهم لو كانوا تركوا تأثيراً

---

(1) الرّموز والتّصاميم التي تمثل الشّمس، والتي لا تزال على الارجح تسمى "*el sol*" أو "*dibujo de soles*" (تصاميم الشّمس) تنتشر على نطاق واسع في المناطق المشار إليها. سنناقش هذه الموز وغيرها من الرّموز التي بقيت على مر الزّمن باستفاضة في كتاب آخر مستقبلاً. علينا، على أيّ حال، أن نشير إلى مقبض باب برونزي في حوزتنا يمثل رأساً مصرياً يخرج منه ثعبانان. إنه من صنع إشبيلية في القرن الخامس عشر، لكن الزّوار يقولون عندما يرونه لأول مرة إنه لا بدّ أن يكون مصرياً، ويسألون لماذا هو بين مجموعة من المشغولات الأندلسية.

دائمـاً على الفن الأندلسـي خلال خمسـة قرون لم يكـن ممكناً أن يدخل خلالهـا أيّ تأثير مسـيحي إلى هنا من الخارج، لاسـتمرّ الفن والعمارة في إشبيلية في ظل الحكم الإسلامي على الطّراز الرّوماني كما كان لدى وصولهم. ويمكن أن نلمس مدى قوة التّقاليد الرّومانية حينها واسـتمرارها في مدينة صيدونيا (شـذونة)، حيث لا تزال توجد صومعة على الطّراز القوطي الغربي[1]. هذا المبنى الصّغير بأعمدته الضّخمة غير المتناسـبة مع حجمه، وسـقفه المنخفـض الأسـطواني الشّـكل، يختلـف كل الاختلاف عن كنائـس إشـبيلية البازيليكية.

وليس هذا الدّير الوحيد من نوعه في هذه النّاحية من إسـبانيا، ففي بويرتو دي سـانتا ماريّا، يوجد تحت القلعة التي قام آل غوثمان[2] Guzmán بترميمها في القرن الرّابع عشـر، كنيسة أخـرى مماثلـة، تتميّز بأعمدتهـا الرّومانية، من الواضـح أنها أُخذت عن مبنـى في الجوار. الأعمـدة هنـا تغـوص عميقاً فـي الأرض، دون قواعد ولا تيجـان، أمّا الأقـواس أو العقود فتبـدو خارجة مـن صبّة غير متقنة. وبالإضافـة إلى أنه لا توجد للعمـدان تيجان، فليس لها طبليّـة. يفتـرض بيلايـو كينتيرو إي أتوري في المقال المشـار إليه فـي الصّفحة 385 (طبعة الأصل) أن المستعربين بنوا الكنيسة قبل احتلال الموحّدين للمدينة، ونحن نتفق معه، ففي حيـن يعكس البناء الأوّلي التّأثير الرّوماني، هناك عقود على الطّراز القبطي وأقواس نضويّة تفتـرض بوضـوح أنها إضافـات على البنـاء الأصلي. وفي الكنيسـة الصّغيرة مسـحة مثيرة للفضـول تذكّر بمسـجد قُرطُبـة الكبير. فهي ليسـت بازيليكية في الشّـكل، وهو أمر صعب لـو أنها من الأسـاس صمّمت لتكون أساسـاً للقلعة التي بنيت فوقهـا. ينفتح المدخل على أقواس مستعرضة من يمين ويسار صحن الكنيسة، في حين يتساوى ارتفاع السّقف المقبب المنخفض جداً في أنحاء المبنى، فهو ليس مرتفعاً كما هي العادة فوق الصّحن المحوري.

وإذا تخيّلنـا مسـجد قُرطُبة كما كان عندما كان المسـلمون يتقاسـمونه في البدء مع

---

(1) لا يزال صحن الكنيسة على حالته الأولى، مع كتابة قوطية غربية تعود إلى القرن السّابع على واحد من الأعمدة الضّخمة. لا يبدو أنه تم إدخال تعديلات على هذا المبنى حتى القرن السّادس عشر، عندما قام دوقات شذونة (مدينة صيدونيا) من آل غوزمان، بتجديد الجدران عبر تغطيتها بالخزف القيشاني من تلك الفترة، وتوسيع خزنة المقدّسات.

(2) يسمّيهم المؤرّخون العرب: آل ابن قزمان. (أحمد)

المسـيحيين، قبل إضافة صفّ عُلوي من الأقواس في عهد عبد الرّحمن الثّاني لتوسيع المكان مع قدوم أعداد كبيرة من النّاس إلى قُرطُبة في عهده، يمكننا أن نرى أنّ المخطّط الأساسي لهذه الكنيسـة المسـيحية الصّغيرة هو نفس مخطط المسجد ولكن مصغراً. وتعزّز الأقواس النّضوية في أجنحة الكنيسـة هذا الانطباع. وفي وسـط المسـاحة أمام المذبـح المرتفـع الذي يحاط عادة فـي الكنائس بضوء خافت قاتم لإشـاعة جو ديني، يسـقط ضـوء الشّـمس سـاطعاً من المنـور المفضّـل لـدى الموحّدين، علـى الأعمدة الرّومانيـة والزّخـارف العائدة إلى القرن السّـابع عشـر على هيكل المذبـح المهدّم (لا توجـد مقاعد للرّهبان والشّمامسـة والكورس) مشـيراً إلى حقيقة الأسـطورة المحلّية القائلة بأنّ المسـيحيين خبأوا صورة العذراء مريم التي عثر عليها ألفونسـو العاشـر في خندق الحصن، لأن المغاربة استولوا على كنيستهم. لا شكّ أنهم هم الذين قاموا ببناء الأجنحـة، للحصول على شـكل مربّع أو مسـتطيل يتـلاءم مع إقامة الشّـعائر، وهذا ما أضفى على الكنيسة الصّغيرة لمسة من مسجد قُرطُبة الكبير.

يكشف المزيد من البحث في القرى النّائية عن آثار أخرى مماثلة من العهد القوطي الغربي لم يكن معظم علماء الآثار يتوقعون وجودها.

من الواضح أنّ معظم الكنائس المسـيحية في الأندلس ظلّت بعيدة عن أي تدخل، سواء كان إيجابياً أو سلبياً، طوال فترة الحكم الإسلامي، وحتى الوقت الذي انتصر فيه سـان فرناندو على الموحّدين وأعاد كل الكنائس التي استخدمت لأغراض أخرى إلى العبادة المسيحية. من جهة أخرى، يبدو واضحاً أنه حيث جرت أعمال إصلاح أو ترميم أو إعـادة بناء، قبل غـزو الموحّدين، اسـتُخْدِمَ فنانون أقبـاط أو تلامذتهم في الكنائس المسـيحية، كما اسـتعان المسلمون الشّـيعة في مصر بالمعماريين الأقباط لإصلاح أو بناء المباني التي كيّفوها لتناسب أغراضهم. ويثبت استخدام القوس المستدقّ أنّ تأثيراً غيـر التّأثير البيزنطي سـاد في هذه المنطقة كما في كل مكان سـاد فيـه العرب اليمانية. ولا يقتصـر الطّـراز القبطي علـى المباني في الأعمال العربيـة الأولى في جنوب غرب الأندلـس، إذ يمكن العثور عليه كذلك في أعمـال القصارة والزّخرفة بالجصّ وكذلك

في حواجز الشّـرفات ذات الفتحات *almenas* المنسوخة، باستخدام البلاط المقطّع، عن أسـوار الحصون العربية. أمّا الأسـوار التي بنيت في عهد الموحّدين، فكانت ذات شـكل مختلف. ومن الملفت أن نلاحظ كيف شـكلت الشّـرافة (الجدار الحجري بين فتحتيـن) ذات الرّأس المسـتدق في الفترة الأولى نمط الزّخرفـة الذي أُطلق عليه خطأ تسمية المدجّن في هذه المنطقة، في حين أنّ الأعمال التي قام بها الأفارقة المغاربة في فترة لاحقة دائماً ما تكون أقلّ ابداعاً.

لم يتبقَّ للأسـف حالياً سـوى القليل من الأقمشـة، والحليّ والمصـاغ والزّجاج أو الخزف الذي يقول ابن سـعيد إنه بلغ مسـتويات راقية من الكمال في إشـبيلية ومُرسية وغيرهـا في عهد اليمانيين خلال القرن الحادي عشـر عندما اكتسـبت المدرسـة الفنّية القبطية شـهرة واسعة سواء في إسـبانيا أو مصر. من المؤكد أنّ العرب اليمانية اكتسبوا بحلـول ذلك الوقت ما يكفي من الخبرة والمهارات في مجالات الانتاج تلك تضاهي معلّميهـم المصرييـن، ويبـدو أن المهـارة الحرفيـة الرّاقية لـم تكن تقتصـر على طبقة الصّناعيين، حيث أنّ أحد الأمثلة الأكثر شهرة هي قطعة مصاغ من القرن الحادي عشر عليها كتابة تؤكد أنّها صُنعت من قِبل أمير يماني لجدّه المُعتمِد أمير إشبيلية[1].

سـاعد المستشـارون اليمانيون في حكم إشـبيلية حتـى في فترة حكـم الموحّدين، ويمكـن أن نعزو إلى تأثيرهم على الحكّام الموحّديـن الطّابع العربي الذي تغلّب على الطّابع المغربي في برج الخيرالدا الشّـهير في إشـبيلية. فالتّشابه بين تصاميم الزّخارف في البرج وتلك الموجودة على القسم الأسفل من واجهة قصر إشبيلية (والذي يرجّح أن يكـون مـن بقايا القصـر الذي بنـاه المُعتمِد بن عَبّـاد)، لا بدّ أن يثير انتبـاه المهتمّين بدراسـة الموضـوع، حيـث أن التّناقـض جليّ تمامـاً بين هـذا العمل المتميّـز والجزء

(1) انظر خارطة الأنساب. تقول الكتابة التي ترجمها إلى الإسپانية الأكاديمي فرنانديث إي غونثالِث إن «عمل محمّد بن السّراج لا يضاهيه عمل أيّ من الصّناع، ولن يكون حتى في جنّة عَدْن مَن يفوق في عمله عمل أبي حسان (عندما يعمله) بأمر من الأمير. رغب الأمير محمّد في أن أصنعه لزوجته الثّانية، بدر، بشرى السّلام في عَدْن». (المتحف الإسپاني للآثار، i. 67). وعلبة الجواهر محفوظة في متحف مدريد.

المغربي في واجهة القصر. لقد تعرّضت الزّخارف العربية على الواجهة لتشويه كبير من خلال إضافة دروع ملوك قشتالة وليون الأولين (السّابقين لبِدرو الأول، باني القصر المفترض)، ولكن الخطوط العريضة تنتمي إلى المدرسة ذاتها.

إنّ التّشويه الذي أحدثه الفنانون معدّو شارات النّبالة لدى الملوك المسيحيين على هذه الزّخرفة البديعة يعطينا فكرة عن اختفاء معظم الأعمال الفنية القبطية اليمانية والقبطية القُوطيّة التي عُثر عليها في إشبيلية وغيرها عندما أُخرج منها الموحّدون. ويمكن الحكم على مدى رقيّ وروعة وغنى وأناقة الزّجاج والمفروشات والمفارش وغيرها من المشغولات التي نسبها القشتاليون لأنفسهم، من خلال الإضاءات التي سلّطت على أعمال ألفونسو العاشر، حيث نقلت وقائع الحياة المنزلية في تلك الفترة بأمانة ومع إعطاء الكثير من الانتباه إلى التّفاصيل التي لم تتجاوزها حصر بايو الجدارية[1]. ويظهر من رداء دفن سان فرناندو الذي حفظت قطعة منه في متحف مدريد، أنّ سكان قشتالة كانوا يفضّلون الأقمشة عربية الصّنع والتّصميم. تم تصميم الرّداء على شكل مربّعات رقعة الشّطرنج بالأحمر والأبيض وقد حيكت عليه بمهارة حصون وقلاع صغيرة وأسود قبطية المعالم تذكرنا بتلك المحفورة في المشغولات الخشبية في جامع الأزهر، وكذلك بالأسد الذي على رَنك (شارة) بَيْبَرس البُندُقداري[2]، كما أشار لنا السّيد ألبير غاييه في رسالة خاصة تتعلّق بالأسود «القبطية» في إشبيلية. ويوجد في كتاب ألفونسو «كتاب الشّطرنج» صورة للملك نفسه يرتدي رداءً آخر مماثلاً، كما توجد كتابات عربية على قطع من أثواب أبنائه المحفوظة في متحف مدريد، حيكت في القماش مع أسمائهم - وهو مثال قد يكون فريداً في استخدام الطّرز لزخرفة الأثواب الملكية المسيحية.

لا شكّ في أنّ مسيحيي قشتالة كانوا يقدّرون تماماً مظاهر الفخامة والجمال التي

---

(1) Bayeux Tapestries (في منطقة نورماندي في فرنسا).

(2) في الأصل: البُخاري، وهذا خطأ مضحك، فمن يجهل لقب الملك الظّاهر رُكن الدّين بَيبَرس البُندُقداري، المؤسّس الفعلي لدولة سلاطين المماليك؟ وكذلك فممّا شاع لدى المؤرّخين أنّ رنكه كان الأسد، بينما الواقع أنّه الفهد، وهو معنى اسمه بالتُّركيّة. (أحمد)

طبعت حياة المسلمين في إشبيلية في القرن الثّالث عشر، وكان ولعهم بها كبيراً جداً، بحيث أن ملوكهم بدأوا بعد وقت غير طويل في إصدار تشريعات تمنعهم من الانغماس بإسراف في هذه الأمور. ولكن، وكما هي الحال دائماً، فإنّ الأُلفة تولد الاحتقار، ولم يخطر ببال أحد أنّ قطع الزّجاج والفضة والخزف والمشغولات المطرزة والمحاكة التي كانت تزيّن المساجد والقصور في المناطق التي تمت السّيطرة عليها كانت تستحق من الغزاة أن يحتفظوا بها بعناية مثلها مثل الحجارة الجميلة المفرّغة والمنقوشة والزّخرفة بالجص، في واجهة قصر إشبيلية. خلال تسع سنوات من البحث والتّقصي تمكّنا، مع ذلك، من العثور على ما نعتقد أنه أفضل مثال تقريباً على السّجاد المستخدم في إشبيلية قبل حرب الاسترداد، ولم نفقد الأمل في أنه لا يزال ممكناً العثور على بعض بقايا الحرير والدّمقس والدّيباج في كنائس القرى النّائية حيث لا يتم التّعامل معها بوصفها أكثر من مجرّد خرق بالية.

هناك استثناء وحيد يتمثل في القطعة الرّائعة المعروفة باسم سجادة الصّيد *Paño de la Monteria* في كاتدرائية إشبيلية. ورغم أنّ ثلثها تقريباً انتزع منها، بالإضافة إلى الإطار الذي كان يمكن أن يكون حجمه كبيراً وربما يتضمّن كتابة، فإنّ ما بقي منها ثقيل جداً بحيث لا يقدر رجل واحد على حمله. ونفترض أنّ هذا هو السّبب الذي جعل القائمين على الكاتدرائية يرفضون تماماً عرض السّجادة على الدّارسين. لقد قيل لنا إننا كنا الأجانب الوحيدين الذين سمح لهم حتى الآن بدراستها، ونحن ندين بذلك للُطف رئيس الكاتدرائية وكبير الشّمامسة وتعاطفهما واهتمامهما بدراستنا للفن الأندلسي.

صنعت السّجادة من المخمل الأحمر ذي الوبر القصير القاسي، وليس فيها بوصة واحدة خالية، فقد تم تطريزها بخيوط متقاربة جداً لتشكيل لوحة صيد خيالية حيث تُطارِد حيوانات غريبة غير واقعية أو تطارِدُها حيوانات أخرى ذات شكل وهيئة غير طبيعية. صوّرت الحيوانات دائماً في أزواج، ويبدو العديد منها راكباً على ظهر الآخر لتنهش بشراسة متفاوتة أعضاء بعضها. هذه الفكرة الفريدة التي تشتهر بها الأقمشة السّاسانية، تتكرّر بنسبة كبيرة في القطع القليلة الأثرية المتبقّية من المشغولات الفنّية

العائدة إلى تلك الفترة. فهي موجودة على نافورة المنصور المصنوعة في إشبيلية سنة 988 م، ولكن في هذه الحالة على شكل نسور ممسكة بثعالب بمخالبها: في تابوت عبد الملك بن المنصور الذي يعود إلى عام 1005.

وكما ذكرنا سابقا بالنّسبة لسجادة الصّيد، تبدو أجنحة الحيوانات في الحالة الأخيرة فريدة، شبيهة كثيراً بأسد بيزا المجنّح، وهو أسلوب يقول السّيد غاييه إنّه ينتمي إلى الفن الفاطمي العائد للقرن العاشر[1]. يقول المقريزي إنّ تصوير الحيوانات في الفن الفاطمي كان قريباً جداً من الحقيقة بحيث أن النّاظر إليها عن بعد قد يظنّ أنها حقيقية، ولكن لا أحد ممّن رأوا تلك المخلوقات الخيالية، ذوات الأجنحة التي قد تكون على شكل ثعابين، أو الذيول الشّبيهة بأوراق نبات أو أزهار، يمكن أن يوافقه الرّأي. أما بالنّسبة لأصل رسم الحيوانين الرّاكب أحدهما على الآخر، فيمكننا أن نجد ذلك أيضاً في مصر. يورد السّيد غاييه صورة لمجموعة قبطية رمزية في المتحف المصري بالقاهرة. يبدو في الصّورة طير، يفترض أنه يمامة، واقفاً وقد أنشب براثنه في ثعلب، وقرد وغزال وأسدان في الأسفل، وكلّها بين ذراعي صليب وحولها كمية كبيرة من أوراق الشّجر. لقد حُفرت هذه الصّورة قبل قرون عدة من تاريخ تشييد نافورة المنصور، ورغم أنّ العمل الأخير أكثر اتقاناً، فإن الرّسم نفسه لا يختلف كثيراً، عدا عن أنّ الطّير في نافورة إشبيلية نسر – الرّمز الوثني السّابق في اليمن – وأن الأسود تحمل رؤوس نسور كما في بيزا، ولها أجنحة مثل أجنحة التّنانين في سجادة الصّيد في إشبيلية. نعتقد أن هذه الرّسوم مستوحاة من بلاد الفُرس عبر اليمن، قبل الإسلام. وتبدو الأسود في المجموعة القبطية شبيهة إلى حدّ كبير بالأسود المحاكة على رداء دفن سان فرناندو. وكما لإثبات مدى تكرار هذه الفكرة، نجد سجادة رائعة نُسجت في القرن الخامس عشر، أيضاً في كاتدرائية إشبيلية، تحمل الحرفين الأولين لإسمي الملكين

(1) *L'Art Arabe*, p. 189.

الكاثوليكيين إيزابيل[1] وفرناندو[2]، والتي تعتبر تقليداً للمجموعات السّاسانية لكنها نسخة محدثة ذات ملامح تقليدية، بالطّريقة نفسها التي تم تقليدها في سجادة الصّيد وتابوت عبد الملك، ولكنها محاطة بزوج من الثّيران المتصارعة كتلك التي نراها اليوم على صور بطاقات إشبيلية البريدية. لقد وجدنا الفكرة نفسها في مشغولات عربية أخرى تعود لفترة سابقة على القرن الثّاني عشر، لكن المساحة لا تتيح سرد المزيد من التّفاصيل هنا. لقد بينّا، كما نأمل، الصّلات الوثيقة في الرّمزية والأسلوب بين مختلف تلك الأعمال الفنية، المتباعدة بشكل كبير عن بعضها في الزّمن وعن المدرسة القبطية العربية في الفُسطاط، والتي اينبثقت منها مدرسة إشبيلية.

نقترح في المستقبل أن نورد رسوماً لتلك التّصاميم وغيرها لكي نبيّن استمرار التّأثير الفارسي المصري على الفن في الأندلس. لقد قيل ما يكفي حتى الآن كما نأمل، لإثبات أن هذا التّأثير كان موجوداً وترك علامة راسخة لا تمحى في الأفكار الفنية في المناطق التي تفوّق فيها الأقباط بفضل مهاراتهم وخبرتهم في فن الزّخرفة والعمارة لدى اليمانيين والقوط والمولّدين الذين اتخذوا من إشبيلية عاصمة لهم.



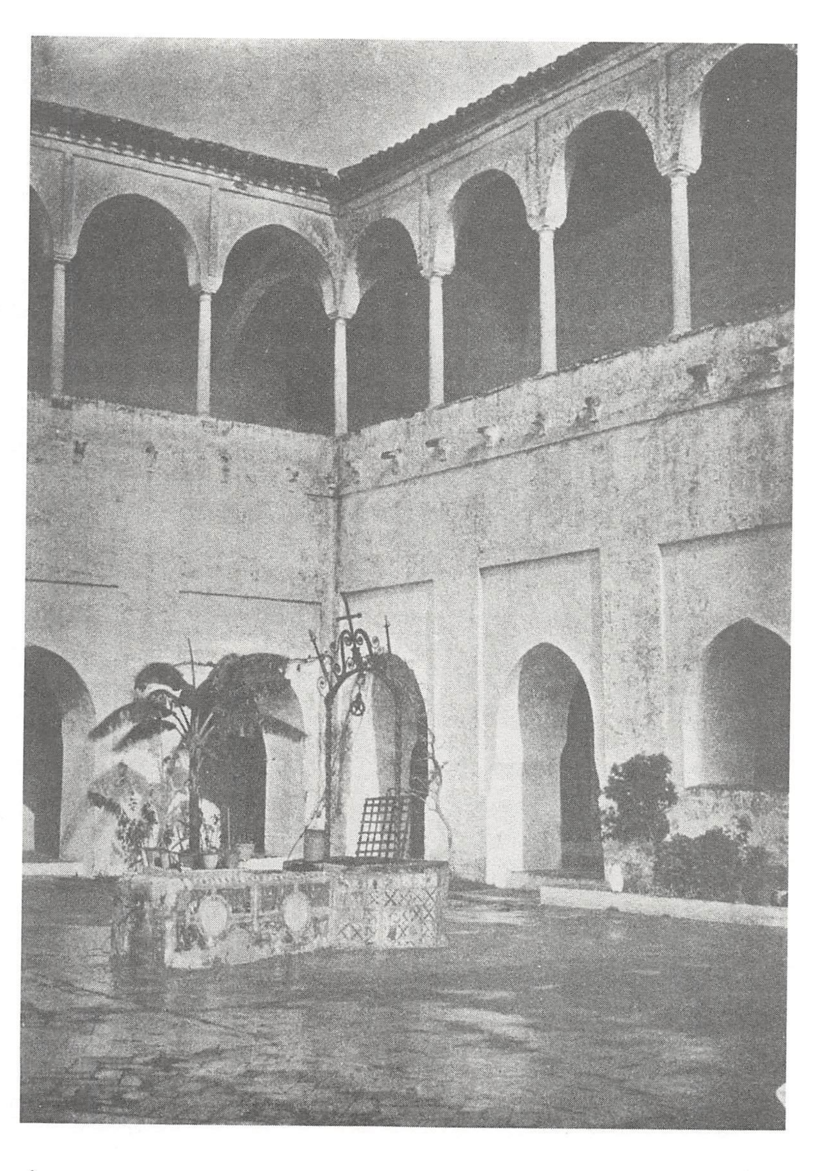
(1) نضطرّ لكتابة اسم ملكة قشتالة كما هو شائع بالعربيّة هكذا، رغم أنّ الصّواب في نطقه بالإسپانيّة القشتاليّة: «إيسابيل». وذلك أنّ حرف S يلفظ في الإسپانية سيناً بالمُطلق، ولا يُلفظ زاياً أبداً مهما أتى بعده من حروف علّة. لا بل حتى قد يأتي مشوباً بشين إن تلاه حرف ساكن أو بآخر الكلمة. (أحمد)

(2) الحرفان F و Y.

ب – مسجد ابن طولون، مصر، القرن الرّابع.

أ – كنيسة القديس جرجس القبطية، مصر، القرن الرّابع.

عمارة مستقدقّة قديمة في مصر.



كونڤنتو دي لا لوث (الرقم 1). العقود القبطية العربية في الباحة الوسطى، وفي الأعلى رواق من القناطر يعود إلى القرن الخامس عشر.

الفصل الثّامن

المسيحيون والمولّدون في عهد عبد الرّحمن الثّالث

لم يكن عبد الرّحمن قد أتمّ الثّانية والعشرين عندما تولّى الحكم. كان أشقر وعيناه زرقاوان، كما هو متوقع لكون أجداده من القوط، ووسيماً مثل الأمراء. ولكن جاذبيّته كانت تكمن، أكثر من حُسنه الجسدي، في طيبة قلبه وعفّة خلقه. كان ذكياً ومتعلّماً، ومتعقلاً وحصيفاً إلى أقصى حد. لقد كانت خصاله الحميدة معروفة للجميع، ولذلك عمّ الفرح بين النّاس لدى تولّيه العرش، وقرئت الخطبة باسمه في المساجد الرّئيسية.

كان عمّه المُطرِّف، الذي بات يظهر له عطفاً أبوياً، أول من أعلن له الطّاعة، وتلقّى عبد الرّحمن قسمه بكثير من الحب والتّقدير، ما جعل أعين الحاضرين تدمع[1]. ربما تذكر هؤلاء الذين دمعت أعينهم كيف تسبّب المُطرِّف نفسه بموت والد الملك الشّاب قبل نحو ثمانية عشر عاماً. ولكن أياً كانت الأمور، يمكننا أن نفترض أنّ المُطرِّف كان مخلصاً للعهد الذي قطعه ذاك اليوم، لأننا سنرى لاحقاً كيف خرج للقتال إلى جانب ابن أخيه في أكثر من مناسبة.

من أهم ما يميّز حكم أعظم الخلفاء الأمويين أنّ العداوة التي امتدت لسنوات طويلة بين إشبيلية وقُرطُبة تراجعت على الفور. ويعزو دوزي ذلك إلى ضعف الثّوار المولّدين واليمانيين بسبب التّقدّم في العمر أو الوفاة، والواقع أن أهل إشبيلية الذين توفي كبيرهم إبراهيم بن حجّاج وخلفه ابنه محمّد قبل تولّي عبد الرّحمن الثّالث العرش، قبلوا بالحاكم الجديد دونما اعتراض، كما أننا لا نجد ما يشير إلى

(1) Conde, i. 359.

تجدّد الاضطرابات هنا خلال فترة حكمه المديدة. ولكن لا يبدو أنّ الضّعف أصاب المولّدين والمسيحيين خلال خمسة وعشرين عاماً من المعارك والاضطرابات، لأننا نجد أنّ عُمَر بن حفصون، الذي بات زعيمهم المعترف به، أكثر إصراراً من ذي قبل على بناء مملكة لشعبه. كانت الهدنة مع إشبيلية تكتسي طابعاً شخصياً بالنّسبة لعبد الرّحمن.

فور وفاة الأمير عبد الله، أعلن محمّد بن حجّاج الطّاعة للأمير الجديد، وسرعان ما حذا حذوه الزّعماء اليمانيون. لا شك أنّ عبد الرّحمن بذل قصارى جهده لتسهيل إعلان عهود الولاء هذه لمن ابتعدوا عن جدّه. فهو لم يدّخر وسيلة لمداواة العداوات القديمة والخلافات، وإنهاء حالات الثّأر بين بعض العائلات، فكسب بفضل طيبته وحصافته قلوب الكثيرين من أصحاب المظالم: لقد عمل عل تحسين سُبل عيش رعاياه كافة عبر إلغاء العديد من المغارم أو الضّرائب التي فرضها سلفه، وبفضل حرصه على عدالة القضاء ونزاهته، وعلى تشجيع الزّراعة والتّجارة، أرسى الأسس التي حقّقت الازدهار لبلاده ووضعت قبل وفاته قُرطُبة في صدارة الأمم المتحضّرة في ذاك الوقت[1].

كيف كان من الممكن القيام بهذا كل وإنجازه كما يبدو تقريباً فور تولّي عبد الرّحمن الحكم لولا علاقة القرابة والدّم التي تربط الأمير الشّاب برعاياه اليمانيين والمولّدين؟[2] ولكن لا يمكن أن يطرأ على الفور تغيير جذري على الموقف الفكري لقبيلة أو فرقة لأنّ شاباً وسيماً ولطيفاً تولّى الحكم خلفاً لرجل عجوز، مهما تدنّت شعبية الأخير. لا بدّ أن والدة عبد الرّحمن المسيحية ماريّا هي التي سعت وراء تحقيق هذه المعجزة. ولكن الحوليّات لا تذكر إن كانت حيّة أم متوفاة عندما تولّى الحكم. وربما كانت لا تزال حية، لأنّ اسم والدة الخليفة - التي تحظى دائماً بأعلى مراتب

(1) Dozy, *G. der M.*, i. 456 – 7; Conde, i. 359; Makkari, ii. 134.

(2) ينبغي ألا تغيب عن ذهننا العداوة التي لا تنطفىء جذوتها بين اليمانيين والمُضَريين. ينتمي الأمويون إلى قبيلة قريش وهي من قبائل مُضَر.

التّقدير والإجلال – ورد لدى إعلان توليه. والعادة أن يشار إلى وفاة الوالدة لو أنها توفيت قبل تنصيبه. ولكن كونده[1] هو الكاتب الوحيد الذي يذكر ماريّا، ولا يقول لنا أكثر مما سبق أن أوردنا. فلو كانت لا تزال حية، يمكننا أن نتخيّل كيف وظّفت نفوذها لدى ابنها وكذلك لدى أقربائها في إشبيلية لتحقيق سلام دائم. وتؤكّد الكثير من الأحداث أنّ عبد الرّحمن أحسن معاملة عائلتها كرمى لها، إن لم يكن تقديراً لهم، طوال سنوات حكمه.

فمن بين أول ما قام به إعادة تعيين يماني قاضياً على قُرطُبة، بعد أن جرّده جدّه من لقبه، وإعادة تعيين ابن جمري وهو في سنّ متقدّمة قائداً للجيش، بعد أن عزله عبد الله من هذا المنصب[2]. لقد حرص عبد الرّحمن طوال فترة حكمه على فتح ذراعيه لاستقبال أيّ ثائر يبدي رغبة في إعلان الولاء، ثم عرض منصب عليه تحت إمرته. وعلى هذا الأساس من التّعاطف تعامل مع أتباع ديانة أمه، فلم يكتفِ بإصدار أوامر بمراعاة المسيحيين ومعاملتهم بالحُسنى، بل أنه أبدى ذات مرة رغبة في تعيين رجل والداه نصرانيان في منصب قاضي قُرطُبة، ولم يثنه عن ذلك سوى معارضة الفقهاء[3].

كانت علاقاته مع بني إسحاق[4] حميمة إلى درجة الوقوع على ما يبدو تحت تأثير أقرانه من تلك العائلة، وبهذا الصّدد يروي دوزي قصة مثيرة للفضول. لكن دوزي أغفل النّسب القوطي لبني إسحاق الذين ورد أنهم من أصل مسيحي، ولأنه من المحتمل أنّ عبد الرّحمن اعترف به كأحد أبناء أخواله، فقد وُصف أحمد بن إسحاق، بطل القصة، بأنه «سليل الأمراء»

(1) إنّ صمت الكتّاب السُّنّة وخصوصاً منهم ابن حيّان بشأن مولد ونشأة أعظم خلفاء الأمويين في إسپانيا ملفت جداً إلى الدّرجة التي لا يمكن معها اعتباره عرضياً.

(2) Conde, i. 359 – 60.

(3) Dozy, *G. der M.*, i. 458 – 9.

يضيف دوزي أنه في هذا الوقت كان الإسلام قد انحسر تقريبا في سلسلة الجبال التي كان يسيطر عليها ابن حفصون، وهناك دلائل أخرى على أن المسيحية كانت أقوى انتشاراً ممّا يُعتقد عموماً في كل جنوب غرب الأندلس.

(4) من ذرّيّة إسحاق ابن الأميرة سارة من زوجها الأول.

مفترضاً أنه لكونه أحد أقرباء الخليفة فلا بدّ أن يكون فرداً من العائلة الأموية الحاكمة. لقد كانت صلة القرابة بالطّبع من جهة والدة عبد الرّحمن المسيحية ماريّا، واستحق أحمد بن إسحاق نسبه الملكي من ناحية أجداده القوط وليس من بني أُميّة. ويبدو عليه أنه حتى سنة 937، وهو تاريخ حصول الواقعة التي سترد لاحقاً، كان لا يزال معترفاً بالنّسب الملكي لذرّيّة سارة، لأننا لا يمكن أن نفترض أن يطلق دوزي لقب «سليل الأمراء» على أحد إن لم يجد أساساً لذلك لدى الكاتب الذي نقل عنه.

ففي عام 915 أو 916، عيّن عبد الرّحمن كبير بني إسحاق وزيراً، ثم نجد أحمد بن إسحاق، ابن الوزير (المتوفّى عندما حصلت الواقعة) قائداً للخيالة في الحملة على القبائل المسيحية في الشّمال، وحاكماً للمناطق الحدودية الشّمالية، ومكلفاً بمحاصرة سَرَقُسطة (كان واليها [محمّد بن هاشم] التّجيبي قد ثار وتعامل مع ملك ليون)، في حين عُيِّن أخوه أُميّة حاكماً على شنترين. يقول لنا دوزي إنه في عام 937 بلغت الجرأة من أحمد بن إسحاق مبلغاً دفعه إلى أن يطلب من الخليفة أمير المؤمنين تعيينه وليّاً للعهد، ثم نجد أنه أُعدم بعد وقت قصير، بعد انكشاف أمره في تدبير المكائد بهدف تحقيق مطامعه. يورد دوزي ترجمة طويلة لخطاب كتبه عبد الرّحمن إلى أحمد رداً على طلبه تعيينه ولياً للعهد، وهو يكتسب أهمّية كونه يلقي الضّوء على عادات تلك الأيام.

يبدو أنّ أحمد أثار غضب عبد الرّحمن قبل ذلك بفترة قصيرة من خلال رغبته في استخدام القوة في الحصار على سَرَقُسطة.

وجاء في الخطاب الذي كتبه عبد الرّحمن:

«أمّا بعد فإنا كنا نرى الاستحماد إليك استصلاحاً لك، فأبى الطّبع الغريزي إلا ما استحكم منه فيك.. إلا أن استحوذ عليك الفقر يصلحك، والغنى يُطغيك، إذ لم تكن عرفته ولا تعوّدته، أوليس كان أبوك فارساً من فرسان ابن حجّاج، أخسّهم حالاً عنده، وأنت يومئذ نخّاس الحمير بإشبيلية، فأقبلتم إلينا، فآويناكم ونصرناكم، وشرّفناك وموّلناك، واستوزرنا أباك، وقلّدناك أعنّة الخيل أجمع، وفوّضنا إليك أمر ثغرنا الأعظم، فتهاونت بالتّنفيذ لنا وقلّة المبالاة بنا، ثم مع هذا: التّرشّحُ للخلافة، فبأيّ حَسَب أو أيّ نَسَب!

وفيكم قال القائل:

أنتم خُشار الخُشارِ وليس خَزٌّ كخَيْشِ
إن كنتم من قُريشٍ تزوّجوا في قُريشِ
أو كنتم قبطَ مِصرٍ فذا التّعاطي لأيشِ

أليست كانت أمّك حمدونة السّاحرة، وأبوك المجذوم، وجدُّك بواب حوثرة بن عبّاس، يفتلُ الحبال في أسطوانة، ويخيط الحَلْفاء على باب داره، فلعنك الله ولعن من أنشبنا في الاستخدام بك، فيا مأبون ويا مجذوم، ويا ابن الكلب والكلبة، أقبِلْ صاغراً»[1].

بعد هذه الرّسالة شديدة اللّهجة، بدأ أحمد وأخوه أُميّة بتدبير مكيدة غرضها التّحالف مع رُذمير (راميرو) ملك ليون، بهدف الإطاحة بعبد الرّحمن وتسليم إسپانيا إلى الخلفاء الفاطميين الحاكمين على مصر. ما إن اكتشف عبد الرّحمن المكيدة، حتى نفى أحمد من بلاطه، ثم سُجن لأنه واصل التّآمر عليه، وحوكم وأدين لكونه من الشّيعة، أو استناداً إلى رواية أخرى لارتكابه «جرماً» ضد الحق العام[2].

أيا كانت حقيقة الأمر، فقد اختفى أحمد الآن من التّاريخ، وعلينا أن نتتبّع مصير تلك العائلة فيما حدث لأخيه أُميّة.

«ما إن سمع أُميّة بن إسحاق بما وقع من أمر أخيه حتى غادر شنترين[3] وهرب مع ثلة من أتباعه إلى بلاط رُذمير الثّاني، ملك الجلالقة، وانضمّ إليه ودلّ جيشه على عورات المسلمين على حدودهم، وممرّاتهم، وطرق العبور التي يمكن من خلالها مهاجمة أرض الإسلام. مع ذلك، وفي يوم كان أُميّة، الذي كان محكماً سيطرته طوال الوقت على شنترين، يمارس هواية الصّيد، انتفض أحد أُجرائه الذي كان قد كلّفه بحماية الحصن، واستحكم بالموقع، وأغلق البوّابات دون أُميّة، وأرسل رسولاً إلى

(1) النّص العربي مقتبس من «أخبار مجموعة»، ص 138 – 139. ويورد كاتب أخبار مجموعة أن اسم أحمد هو: أحمد بن إسحاق القرشي. (م)

(2) Dozy, *G. der M.*, ii. 34 – 6; Makkari, ii. 136.

(3) شنترين Santarém (تُلفظ: سانتارين) مدينة ومحافظة في غربي البرتغال (أحمد).

عبـد الرّحمـن يطلعه على ما كان منه، بينما فرّ أُميّة مجدّداً إلى حليفه ملك جليقية الذي استقبله أحسن استقبال وعيّنه وزيراً. وكان هذا سبب غزوة عبد الرّحمن»[1].

يبـدو أنّ هنـاك خطأ ما، فأُميّة ما كان بوسـعه أن يتحرّك جيئة وذهاباً بين شـنترين وبلاط رُذمير فـي ليون، كما توحي الرّواية. وربما لم يذهب إلى هناك على الإطلاق إلى أن تمكّن فريق عبد الرّحمن، من خلال تدبير خطة عسكرية محكمة، من إغلاق المدينة دونه.

الحدث الثّاني في الرّواية يتعلق بمعركة سمورة[2]. ويقول المقّري «إن عبد الرّحمن غـزا فـي أزيـد من مئـة ألف من النّـاس، فنزل علـى دار مملكـة الجلالقة، وهـي مدينة سـمورة». وعندمـا حاصر عبد الرّحمن سـمورة هـب رُذمير (راميرو الثّانـي) لنجدتها وعسـكر فـي الجـوار. «وكانت الوقعـة بينه وبين رُذمير ملك الجلالقة في شـوال سـنة 327 (يوليو أو أغسـطس، 939 م) بعد الكسـوف الذي كان في هذا الشّـهر بثلاثة أيام، فكانـت للمسـلمين عليهم، ثـم ثابوا بعد أن حوصـروا وأُلجئوا إلـى المدينة»، ونفّذت حامية سـمورة هجوماً مباغِتاً، لكن المحاصِرين لاحقوهم بسـيوفهم، وعبروا الخندق وصـاروا داخل أسـوار المدينة. وفي حين كان المسـلمون يسـتعدّون للتّقدّم، فاجأهم النّصارى «فقتلوا من المسلمين بعد أن عبروا الخندق خمسين ألفاً»[3].

كان على مدينة سـمورة «سـبعة أسـوار من أعجب البنيـان قد أحكمه الملوك السّـالفة، وبين الأسـوار فصيلان وخنادق ومياه واسعة[4]، وافتتح (المسلمون) منها سورين» وعندما

---

(1) Makkari, ii. 136.

(2) يشير إليها المقّري باسم غزوة الخندق، ج 1، ص 353 - 354. (م)

(3) النّص العربي المقتبس من «نفح الطّيب»، المقّري، ج 1، ص 354 - 355. (م)
يقول غايانغوس إن هذه المعركة جرت في سيمانكاس، في 19 يوليو 939 م. (Makkari, ii. 463). كما ورد في السّجلات العامة (*Crónica general*, viii. 220) أنها جرت في سيمانكاس في سنة 938 م.

(4) يضيف غايانغوس كلمة «الجلالقة» بعد كلمة «الملوك السّالفة» في النّص، لكن هذا يفترض أنه من تخمينه.
كان ألفونسو الثّالث ملك ليون قد احتل سمورة قبل ذلك بعدة سنوات، وفي عام 893 قام وفقاً لابن حيّان، بإعادة بنائها وأسكانها وإصلاح تحصيناتها، وكان المهندسون الذين استعان بهم من طُليطلة.

وصلـوا إلـى الثّالـث، هاجمهم النّصـارى مـن كل جنب بكل عـزم، «فقتلوا ممـن أدركهم الإحصـاء وممن عُرف أربعين ألفاً، وقيل خمسـين ألفاً»، تـم إغراقهم في الخنادق. «كانت تلك شـر هزيمة مني بها أخواننا في الأندلس، سـواء من الجلالقة أو الباسـك، وكان النّصر سـيكون أكمـل لـو أنّ الملك رُذميـر طارد مـا تبقّى من جيش عبـد الرّحمن، الذيـن ما كان سيواجه صعوبة في القضاء عليهم، لما استحوذ عليهم من ذعر».

«وقيل: إنّ الذي منع رُذمير من طلب من نجا من المسلمين أُميّة بن إسحاق، وخوّفه الكميـن، ورغّبه فيما كان في عسـكر المسـلمين من الأموال والعـدّة والخزائن، ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين..»[1].

يـورد كوندِه، الذي يحدّد تاريخ الحصار في سـنة 938، متفقاً بذلك مع «الحوليّات العامة» *Crónica general*، سرداً مطولاً للمعارك يتفق في جوهره مع رواية المقّري[2]. والوقائـع الوحيـدة المهمّـة الإضافيـة في روايتـه تفيد بـأنّ المُطرِّف قـاد طلائع قوات المسلمين، وأنّ أُميّة بن إسحاق وأتباعه كانوا يرتدون دروعاً مصفّحة مثل النّصارى[3].

قـد يكون العنصر الأهم في هذه القضية الأثر الضّئيل الذي تركته على مشـاعر عبد

كانت طُليطلة في ذلك الوقت، بصورة متكرّرة، إن لم يكن مستمرّة، تحت سيطرة عُمَر بن حفصون، وهذا ما يجعل ألفونسو قادراً على إحضار مهندسين من مدينة يفترض أن تكون خاضعة بالاسم لقرطبة. (Makkari, ii. 453; Conde, i. 319, 342) لقد رأينا حصناً قديما في الأندلس إعيد بناؤه في القرن الرّابع عشر وتم ترميمه مؤخراً على الخطوط القديمة، مع خندقين جافين، الواحد فوق الآخر، وتوجد في قلعة بطليوس ثلاثة من هذه الخنادق، لا يزال الأدنى بينها يحتوي على منافذ للمياه التي كانت تساق إليه ممّا بات اليوم خزان المدينة. نعتقد أنّ نظام التّحصينات هذا وجد قبل الفتح الإسلامي. فلو كانت سمورة محصّنة بستة من هذه الخنادق الجافة، التي يعلو الواحد منها فوق الآخر، والتي تحميها المياه في الخندق الأدنى من بينها، يسهّل علينا أن نفهم أنّ المسلمين وجدوا أنفسهم تحت رحمة المسيحيين عندما تجاوزوا التّحصينات الخارجية فاستقبلهم المحاصَرون برميهم من استحكاماتهم العلوية خلف شرّافات الخنادق المتعاقبة الجافة.

(1) Makkari, ii, 136 – 7.

(2) Conde, i. 419 – 24.

(3) نقل المقّري وكوندِه روايتيهما للحصار عن المسعودي الذي كتب في مصر وتوفي في حوالي عام 946 أو 947.

الرّحمن وعطفه تجاه أقربائه من بني إسحاق. هناك اتفاق عموماً على أنّ مهارات أُميّة بن إسحاق العسكرية وحدها هي التي مكّنت رُذمير من الصّمود أمام الخليفة: ولكن «أُميّة استأمن بعد ذلك إلى عبد الرّحمن»، وترك بلاط رُذمير، وتوجّه بكل ثقة إلى قُرطُبة حيث «قبله عبد الرّحمن أحسن قبول»[1].

ويضيف كوندِه بعض التّفاصيل، بقوله إنّ عودة أُميّة إلى طاعة الأمير حصل بعد ذلك بسنة، أي في عام 940، بعد غزوة أخرى انتهت بسقوط سمّورة وحصن شنت اشتبين (سان إستيبان دي غورماث San Esteban de Gormaz)[2] بأيدي المسلمين. أختلف أُميّة بن إسحاق مع رُذمير الذي فقد الثّقة به (وهو ربما ليس مفاجئاً)، فخاطب عبد الرّحمن طالباً منه أن يعيده إلى خدمته، معتذراً عن سلوكه السّابق قائلاً إنه انقاد وراء الدّفاع عن شرفه ثاراً لمقتل أخيه.

وكتب كوندِه يقول إنّ أُميّة «بات الآن مقتنعاً بأن أحمد لم يُقتل ظُلماً، وتوسّل أن يُتاح له تقديم خدماته ليثبت ولاءه ويبرهن على أنه مسلم صالح. ولم يقبل عبد الرّحمن اعتذاره فحسب، بل أعاده إلى خدمته وأعاد له مكانته كوزير وقائد للجيش على الثّغور»[3].

كان فرد آخر من بني إسحاق، هو يحيى بن إسحاق، أحد أطباء عبد الرّحمن. كان ماهراً وضليعاً في علوم العقاقير، عيّنه عبد الرّحمن وزيراً وحكّمه على بطليوس. ويضيف ابن أبي أصيبعة الذي أورد هذه التّفاصيل أنّ أباه كان نصرانياً[4].

ومن سلالة الأميرة سارة ممّن أبدى عبد الرّحمن تجاههم عطفاً خاصاً إسماعيل بن بدر بن سعيد المكنّى أبا بكر والذي جعله والياً على إشبيلية في حوالي سنة 940. كانت عائلة أبي بكر من المولّدين، وأول من برز منهم زدلف الذي كان أبوه نصرانياً. كان ذاك

(1) Makkari, ii. 137.

(2) يبرز هذا الحصن بقلعته وأبراجه العربية رائعاً بين المناظر الطّبيعية على طريق السّكة الحديدية بين ڤالادوليد Valladolid (بلد الوليد) وأريثا Ariza.

(3) Conde, i. 429 – 30.

(4) Makkari, i. 187, 464.

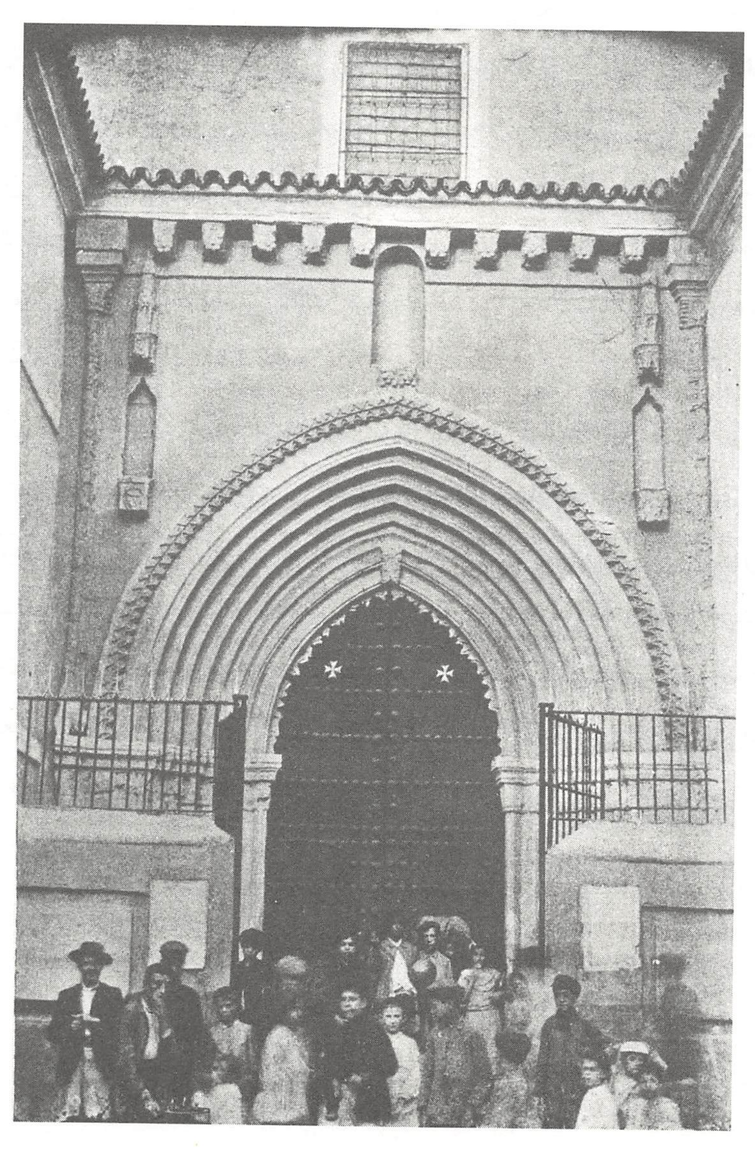
يحيى بن زدلف الذي بنى حصناً منيعاً ذا بوابات حديدية في شنتمرية الغرب، في إقليم أكشـونبة. وفـوّض إلـى ابنه بكر حُكم مدينة شـلب في الغرب، ولكنـه واصل مع ذلك مسـاندة المسـيحيين والمولّدين حتى وفاته في بداية حكم عبد الرّحمن الثّالث[1]. كان بنو سـعيد الأحفاد المباشـرين لابن سـارة الأوحد من زوجها الثّاني، جلباب أو حبيب بن عُمير بن سـعيد، مثلهم مثل بني حجّاج وبني مسـلمة وبني جُرج. ولا بدّ أن تسـري دماء ملوك القوط في دماء قريش Karis بن عَبّاد بن سـعيد اللّخمي إمام جامع إشـبيلية الكبير، والجدّ الأكبر لسـلالة بني عَبّاد أصحاب إشـبيلية ذائعي الصّيت، رغم أنّ أياً من الكتاب السُّنّة لم يلمح إلى ذلك.

ويبدو أنه لا مجال للشّك في أنّ انتساب هذه العائلة للملوك القوط هو أحد الأسباب التي جعلت هذه السّلالة ذات النّسب المختلط تحتل مكانة عالية في نظر عبد الرّحمن، بصـرف النّظـر عن الصّلة التـي تربط أمّه بهم. وقد يكون بوسـعنا أن نؤكّد دون تردّد أنّ العلاقة الشّـخصية التي ربطتهم بابن أمير بني أُميّة الذي توفي وهو يقود جيش إشـبيلية وزوجتـه القُوطيّـة المسـيحية التي تزوّجها فـي إشـبيلية، كانت السّـبب الحقيقي وراء تلاشـي العداوة التـي كان يكنّها اليمانيـون والمولّدون تجاه الحكم فـي قُرطُبة، عندما اعتلى ابن محمّد وماريّا، حفيد النّصراني إنييقا، عرش أعداء بني جلدتهم[2].



(1) كان ما يسمى «تفويض» منصب الحاكم في العديد من الحالات التّعبير الملطف لأمراء قرطبة السُّنّة للاستحواذ على الحكم بالوراثة أو بقوة السّلاح من جانب خصومهم اليمانيين أو المولّدين. ولقد كان الأمر كذلك على وجه التّأكيد في حالة بني سعيد، لأننا نجدهم هناك جيلاً بعد جيل، وباستمرار في معارضة الحكّام السُّنّة.

(2) Conde, i. 425; Makkari, ii. 250, 440, 503; Al – Kuttiyyah in *j.A.*



الباب الغربي لكنيسة سان خوان دي لا پالما. بناؤه مُستعربي في الأصل: يقول نقش لا يزال موجوداً إن السّيدة الكبرى اعتماد زوجة المُعتمِد بن عَبّاد أضافته في عام 1086 من أجل ابنها الرّشيد قاضي إشبيلية الذي يقع ديوان قصره قبالته مع طابق عُلوي أضيف في القرن السّابع عشر.

الفصل التّاسع

الأمراء الذين خلفوا عبد الرّحمن الثّالث

يلخص المقّري طباع عبد الرّحمن بقوله:

«قال مؤرّخو ذاك الزّمان إنه ما عرفت الدّنيا نموذجاً من الحكّام يماثله أو يشابهه في رقّة طبعه وسعة علمه. ضُرب المثل بدماثته ولين عريكته وكرمه وحبّه للإصلاح والعدل. فاق كل أسلافه في شجاعته في المنازلة، وفي خشوعه وخشية الله، وغيرها من الفضائل التي جعلت منه حاكماً كفوءاً محبوباً من رعاياه. كان محباً للعلم وراعياً مكرِّماً للعلماء، فكان يحبّ أن يحادثهم ويجالسهم، ويصرف تلك السّاعات التي يختلسها من شاقّ عمله في إدارة ملكه في المجالس الأدبية التي كان يحضرها كل من برّ من الشّعراء والعلماء في بلاطه. وتحفل تلك الفترة بقصص عن حبّه للعدل وتقديره لأهل العلم»[1].

من الواضح أنّ عبد الرّحمن كان حاكماً اجتمعت فيه أنبل صفات المسيحيين والمسلمين. وهذا وحده كافٍ لكي يقترن حكمه بأروع آيات المجد، ولكي ينجح في

---

(1) Makkari, ii. 147.

نقل المقّري عن القاضي منذر بن سعيد البلوطي، قوله في عبد الرّحمن الثّالث: «رفض الدّعة وهي محبوبة، وترك الرّكون الى الرّاحة وهي مطلوبة، بطوية صحيحة وعزيمة صريحة وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبة وريح هابّة غالبة ونصرة من الله واجبة، وسلطان قاهر وجَدّ ظاهر، وسيف منصور تحت عدل مشهور، متحملا للنّصَب، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التّعب، حتى لانت الأحوال بعد شدّتها وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها، ولم يبق لها غارب إلا جبة، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات..». ج 1، ص 368. (م)

إحلال السّلام داخل حدود بلد تنازعته الفتن بين أتباع الدّيانات المتعارضة. ليس ضرورياً البحث عن تفسير لاضمحلال روح القتال، وتراجع العداوة النّاجمة عن العصبية القبلية. فالوحدة التي حقّقها هذا الحاكم العظيم عائدة لأسباب شخصية. ولقد استمرّت طوال فترة ولاية ابنه على العرش وإدارته لشؤون الحكم على خطى أبيه مسترشداً بسياسة أساسها العدل والسّخاء، وفي ظل حاجب قوي حكم باسم حفيده. ولكن العداوة القديمة المتعذّر إخمادها اشتعلت مجدّداً عندما انزاحت تلك اليد الضّابطة، واضطرمت بضراوة أكبر من أي وقت مضى بعد ذلك بخمسين عاماً، ولم تهدأ حتى عندما قُطّعت أوصال الأمبراطورية التي بناها عبد الرّحمن فوق ما بدا أنّه أساس متين.

كان ابنه الحَكَم المستنصر بالله، الذي تولّى الحكم بعده شبيهاً به، أميراً حكيماً وعاقلاً ومتنوراً، عادلاً وكريماً ومتبصّراً. جعله التزامه الصّارم بفروض الدّين وتطبيقه لتعاليم السُّنّة يحظى بتأييد الفقهاء المتشدّدين، في حين أسهمت سعة معرفته وولعه بالأدب، بالإضافة إلى نسبه، في اكتسابه تقدير أهل العلم اليمانيين الذين ازدهرت العلوم الأدبية بين كبرى عائلاتهم منذ فترة طويلة. لقد تفوّق الحَكَم على كل من سبقه من الحكّام الأندلسيين في حبّه للعلم وتكريمه للعلماء، ويقال إنه «جمع من الكتب ما لا يحدّ ولا يوصف كثرة ونفاسة» وإنه «أقام للعلماء سوقاً نافقة» وكان يرسل تجّاراً لشراء الكتب من كل الأقطار المسلمة وبيعها فيها، فاجتمعت في الأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا بعده. لقد ركّز المؤرّخون العرب في الحقيقة كثيراً على هذا الجانب من حكمه بحيث أننا كان يمكن أن نشكك في وجود رغبة لصرف الانتباه عن صفات أخرى أقل استحقاقاً للثّناء، لو أننا لم نتبيّن أنه نجح في تسيير شؤون البلاد وإشاعة الطّمأنينة والازدهار، فاقتصرت حملاته العسكرية على صدّ هجمات مسيحيي الشّمال.

لا بل إنه نجح في إبرام عقود صلح مع هؤلاء المسيحيين استمرّت فترات طويلة من حكمه، فكان يستقبل الوفود والسّفراء من ملوك جليقية وقشتالة وناڤار وبرشلونة وطَرّكونة، ويُبرهن في كل عمل يأتيه أنه، مثل أبيه، يفضل التّفاوض على القوة.

ويظهر حسّه السّليم في موقفه من شرب الخمر الذي كان قد أصبح شائعاً في

الأندلس، بسـبب تسـامح أو تغاضي الأمراء السّـابقين، كما يقول المقّري. وربما كان الهدف من هذ الملاحظة الإشـارة إلى تعاطف عبد الرّحمن الثّالث مع اليمانيين الذين لم يتظاهروا قط بالتزامهم بتعاليم السُّـنّة في هذا الأمر، ولا في مجال تحريم تصوير أو نحت الحيوانات والأشخاص.

والأمـر على هـذه الحال، رغب الحكم في إبطال النّبيذ في مملكته ووقف انتشـاره ومضـاره، ولهذا أمر باسـتئصال شـجر العنب مـن كل أنحاء المملكـة. ولكن المقّري قال إنّ واحداً من أعقل مستشـاريه شـرح له أن مثل هذه العمل سيضرّ بمصالح زارعي الكرمـة، وكانوا من الفقـراء. وقال له أيضاً إنّ من اعتادوا على شـرب الخمر يمكن أن يشـتروها من بلاد النّصارى – حيث لا يوجد تحريم لشـرب الخمرة والإدمان عليها – أو يقومـوا بصنعهـا من التّين أو غيرها من الفاكهة التي يمكن اسـتخراج الكحول منها. وبعد أن اقتنع الحَكَم منطقياً وبعد تفكير بأنّ تصرّفه لن يكون ظالماً فحسـب وإنما غير عملـي، قرّر إلغاء الأمر، وسـمح بزراعة مـا يكفي من دوالي العنـب لتأمين احتياجات البلاد سـواء من العنب المقطوف الطّازج أو الزّبيـب، وصنع عصير العنب وغيرها من المشروبات المفيدة التي يجيزها الشّرع[1].

يـورد كونـدِه تفاصيل أخرى لشـرح أسـباب هـذا القرار. «بسـبب العادات السّـيئة والانحـراف عن المقبـول التي حملها إلى إسـپانيا أهل العراق وغيرهـم من الدّاخلين عليهـا، بات شـرب الخمرة حرّاً ويعتبر مشـروعاً بحيث أنّ عامة النّـاس وحتى الفقهاء كانوا يشـربونها، وكان مسـموحاً شـربها في الأعـراس وغيرها من المناسـبات بحرّية فاضحـة. جمع الخليفة الحَكَم الذي كان ورعاً وعفيفاً وعالماً بتفسـير القرآن، العلماء والفقهاء وسـألهم عن سـبب انتشـار «المفاسـد» في إسـپانيا حيث لم تكن تنتشر فقط الخمـرة الحمراء الكُمَيْـت *ghamat* وإنما البيضاء أو الصّهبـاء *sabha* كذلك، والنّبيذ *nebid* المصنـوع مـن التّمر والتّيـن وغيرها من المشـروبات القوية المُسـكِرة. فأجابه الفقهاء والعلماء أنه منذ عهد الأمير محمّد بات مقبولاً الرّأي القائل بأنّ مسلمي إسـپانيا

---

(1) Makkari, ii. 171.

يمكنهم شرب الخمر طالما أنهم في حرب دائمة مع أعداء الإسلام، لأنّ الخمر يقوّي بأس الجند ويشدّ من عزيمتهم في ميدان المعركة، وهكذا بات استخدامه على الحدود والثّغور مشروعاً بهدف تعزيز الرّوح القتالية. رفض الأمير هذه الآراء، وبسبب بغضه للخمر أمر باقتلاع كل دوالي العنب في إسپانيا، ما عدا الثّلث» الذي سمح ببقائه للأسباب الواردة آنفاً[1].

كان من الطّبيعي في عهد حاكم بمثل معرفته وسعة علمه أن يرعى الحَكَم المستنصر بالله كتّاباً ذاعت شهرتهم ومن بينهم العديد من اليمانيين والمولّدين.

يسرد كونذِه نوادر تلقي بعض الضّوء على العادات والتّقاليد السّائدة في ذلك الوقت، والتي لم يعرف عنها الكثير.

ومن تلك النّوادر أن «عالماً يدعى ابن سَفران الشّيباني[2] كان يعيش في قُرطُبة على ضفّة النّهر قرب النّبع، وفي يوم فوجىء القاضي الذي كان مارّاً بجانب بيته على فرسه بعاصفة ممطرة، فتوقف واقتاد حصانه الى فناء[3] منزل الشّيباني الذي خرج وألحّ على القاضي كي يترجّل عن حصانه ويدخل. وبعد أن جلس الضّيف على مقعد أكارم الضّيوف وتبادل الرّجلان المجاملات، قال الشّيباني:

لديّ في بيتي فتاة من هذه المدينة، لديها أجمل صوت سمعته أذن إنسان. إن كان يسرّك يمكن أن تنشد آيات من كتاب الله، أو بعض الأبيات.

---

(1) Conde, i. 465 – 6.

(2) لم نتمكن من العثور على أي ذكر آخر لهذا الرّجل في أي مكان آخر، وليس لدينا سوى اسمه كما نقله كونذِه (Ibn Safaran El Xeibani).

قلت: وما أكثر ما ينقل كونذِه عن مخطوطات بادت ونبقى في حيرة ممّا ينقله ويترجمه عنها، وخاصّة أنّ أهمّ كتبه قد طُبعت بعد وفاته عام 1820، وزاد محرّرها في أغلاطها ومعمّياتها. (أحمد)

(3) الفناء patio هو الباحة المفتوحة التي كانت تبنى حولها المنازل في الأندلس. الأرجح أن القاضي لم يدخل إلى الفناء وإنما إلى مدخل البيت الذي يطلق عليه اليوم اسم الأسطوان za-guan، ويكون مفتوحاً على الشّارع خلال النّهار، وحيث يمكن للعابرين أن يحتموا. ويكون مدخل الفناء عادة مغلقاً ببوابة حديدية.

أجابه القاضي: «لا بدّ أنّي جئت في ساعة سعد».

«ظهـرت الفتـاة، فكانت أجمل مـن وقعت عليه عينا بشـر. طلب منها الشّيباني أن تقـرأ، ثـم غنّت عدّة أبيات. فسُـرّ القاضي سـروراً عظيمـاً، ودون أن يـراه أحد، أخرج كيساً ووضعه تحت مقعده. عندما توقف المطر، شكر الشّيباني وغادر. رافقه الشّيباني لوداعـه، وعندمـا عـاد وجـد الكيـس وبه عشـرون قطعـة ذهـب تحت مجلـس أكارم الضّيوف»[1].

ويحكـى عن أحمد بن سـعيد الأنصـاري الطّليطلـي[2]، وهو فقيه واسـع العلم من طُليطلة، واسـع الثّراء جليل، أنه «كان يجمع في منزله ما يربو على أربعين من أصحابه المولعين بالآداب، ليس من طُليطلة وحدها، ولكن كذلك من قلعة ربّاح[3] Calatrava وغيرها. ففي أشهر نوفمبر وديسمبر ويناير كانوا يلتقون في قاعة فسيحة أرضها مفروشة بالسّـجاد والوسـائد المصنوعـة مـن الحرير والصّـوف، وجدرانهـا مكسـوّة بالحُصر المشغولة والمزخرفة والسّتائر المطرّزة. وفي وسط الغرفة كانون واسع مستدير بارتفاع رجـل مُليء بالفحم المشـتعل، يجلـس الجميع حوله على مسـافة تريحهم. وفي حين كانوا يقرأون آيات من القرآن أو ينشدون أبياتاً ويناقشونها، كانو يطيّبون بالمسك وغيره

(1) نقلت هذه القصّة عن «القاضي خوناس Kadi Jonás» الذي يبدو من اسمه أنه كان نصرانياً.
قلت: ليس بالضّرورة، فمن الممكن أن يكون كونده قد قولب الاسم عند ترجمته إلى الإسبانيّة من يونس إلى خوناس. وهذا بالضّبط كما جرى للاسم العبري الأصلي (يوناه) عندما تمّت قولبته إلى اليونانيّة (يوناس)، على اعتبار أنّ الاسم المذكّر المفرد المرفوع بهذه اللغة ينتهي بسين حكماً. (أحمد)

(2) كان الأنصار يمانيين استقرّوا في القرن الثّامن في مختلف أنحاء الأندلس وكان عددهم كبيراً في طُليطلة ونواحيها (Makkari, ii. 25). ومن هذه القبيلة تفرّعت سلالة بني نصر الشّهيرة التي حكمت غرناطة في القرن الثّالث عشر.
قلت: لكنّ المعروف والمشتهر أنّ نسب بني نَصْر يعود إلى قبيلة الخزرج، وليس إلى الأنصار. لكنّ في تاريخ كونده بالإسبانيّة ترد كنى بني الأحمر حكّام غرناطة: El Ansari ولعلّه ترجمها هكذا بالغلط بدلاً من: النَّصْري؟ انظر الجزء الثالث من تاريخ كونده الذي نشرناه مؤخراً. (أحمد)

(3) ناحية أخرى معظم سكانها من العائلات العربية من اليمن وقبيلة جُذام.

مـن الرّوائح الزّكية، ويُرشّ عليهم ماء الورد. ثم تقدّم إليهم مائدة عامرة بلحم الجديان أو الخراف النّدي، ومختلف الأطباق المطبوخة بزيت الزّيتون، ثم يتبعها اللّبن الرّائب وقشـدة الحليب، والزّبد وأصناف الحلويات والتّمر وغيرهـا من الفاكهة. وخلال أيام الشّـتاء القصيرة كانـوا يمضون معظم اليوم قرب المائدة. وكانت هذه اللقاءت تسـتمرّ حتـى نهايـة يناير وتتكرّر كل سـنة. لـم يكن في المدينـة من هو أحسـن ضيافة من هذا الفقيه وإن كان فيها أثرياء غيره. عيّنه الملك كبير قضاة المدينة، فتسـبّب قاضي النّاحية نفسـها بقتله حسـداً وغيرة. دخل القاتل إلى منزله حيث كان معروفاً ووجد ابن سـعيد يقرأ المصحف. قال له ابن سعيد:

«أعرف لماذا أتيت. افعل ما أُمرتَ به. سـبحان الله الذي في السّـماوات، لا يخفى عليه شيء، يرى ويبصر كل شيء وهو بكل شيء عليم».

فخنقه القاتل وزعم أنه مات ميتة طبيعية»[1].

ظلـت العداوة خامدة بين اليمانيين والشّـوام خلال ولاية الحَكَم المسـتنصر بالله، ويبدو أنّ الحَكَم بذل كل ما في وسـعه لكي يظهر المقدار نفسـه من التّعاطف مع أبناء السّـلالتين، فرغم أنّ العرب المُضَرية كانـوا كثيرين في قُرطُبة، فمن أبرز العلماء الذين اسـتقدمهم لتعليم ابنه الوحيد، الذي عُرف لاحقاً باسـم هشـام الثّانـي، أبو بكر محمّد بـن الحسـن الزّبيدي، وهو من عائلـة يمانية معروفة في إشـبيلية. كان علّامة عصره في النّحـو واللغة، وقد كلفه الخليفـة بتدريس الأمير الصّغير اللغـة العربية وعلومها. عيّنه الحكم «صاحباً للشّـرطة» في قُرطُبة، وعندما تولّى هشـام الثّاني الحكم قام بنفسـه، او كلّـف حاجبه (رئيس الوزراء) بتعيين الزّبيدي قاضياً على إشـبيلية، ومنحه ألقاباً رفيعة أخرى[2].

كان الحكم يحب السّـلام، فلم يترك حيلة أو وسـيلة لعقد السّلم والحفاظ عليه مع النّصارى خلال القسـم الأكبـر من ولايته، على الرّغم من اسـتعداء بعض الولاة له في

(1) Conde, i. 483 – 5.
(2) Conde, i. 485 – 6; Pons, p. 90.

المدن الحدودية، على الثّغور. يقال إن الدّروس التي أعطاها لابنه هشام كانت دائماً تختتم بهذه الكلمات:

«لا تخرج للغزو بغير ضرورة، واحفظ السّلم ففيه هناؤك وهناء شعبك، ولا تستلّ سيفك إلا في وجه الظّالم. فأيّة متعة في غزو المدن وهدمها، وتخريب الدّول ونشر الخراب والموت في حدود الأرض؟ احفظ رعيتك في سلم وفي عدل ولا يغرنّك قولٌ زائفٌ مغرور، وليكن عدلك مثل بحيرة صافياً نقياً على الدّوام، واعتدل فيما يصبو إليه خيالك، واكتم شهواتك، وليكن اتّكالُك على الله العليّ القدير، فتصفو سريرتك وتلقى ربّك راضياً متى حان أجلك»[1].

تميّزت هذه الفترة من تاريخ إسپانيا المسلمة بازدهار وثراء طائل، ورغم أنّ جزءاً من هذه الثّروة كان مصدره مناجم الذّهب والفضّة[2]، وإلى حدّ ما الحجارة الكريمة، فإنّ المنتجات الزّراعية كانت المصدر الرّئيسي لازدهار البلاد وثرواتها. وجرى خلال عهد الحكم تطوير أنظمة الرّي الرّائعة التي لا نزال نرى آثارها إلى اليوم، في تلال غرناطة ومُرسية وبلنسية وآراغون، حيث تم بناء خزّانات للمياه لهذا الغرض، وزُرعت كل أنواع الفاكهة والخضار الملائمة لمناخ المنطقة. وأنفق الحَكَم أموالاً طائلة على بناء المساجد والمساكن للفقراء والمستشفيات والمدارس كما أضاف الحمّامات والنّزل والنّوافير والأسواق في الكثير من المدن التّابعة له[3].

قبل سنتين من وفاته، رقّى الحَكَم المستنصر بالله قاضي قُرطُبة اليماني محمّد بن أبي عامر واستوزره، ممّا أثار كما يتضح استياء المؤرّخين السُّنّة الذين كرّس بعضهم - ابن حيّان على سبيل المثال - حيّزا كبيراً لما قالوا إنها مكائد دبّرها الوزير «للاستبداد» بالسّلطة، بحيث كانوا بالكاد قادرين على تقديره كرجل دولة متميّز.

كان محمّد بن أبي عامر «من رجال اليمنية من قبيلة معافر، دخل جده عبد الملك

(1) Conde, i. 486.

(2) ربما كان الذّهب يُجمع من بعض الأنهر، فلا وجود لمناجم ذهب معروفة في إسپانيا.

(3) Makkari, ii. 172; Conde i. 487.

إلى الأندلس مع طارق بن زياد، وكان عظيماً في قومه، وكان له في الفتح أثر»، واشتهر ابن أبي عامر لاحقاً باسم «المنصور» في العالم قاطبة.

يؤكّد المقّري أن محمّد بن أبي عامر، أو المنصور وهو الاسم الذي اشتُهر به، حصل على ألقابه وارتقى إلى مقامه في بلاط قُرطُبة بفضل خدمة أدّاها إلى السّيدة صُبح أم الأمير هشام المؤيد التي «استحسنته ونبّهت عليه الحكم ورغبت في تشريفه بالخدمة، فولّاه قضاء بعض المواضع فظهرت منه نجابة، فترقّى إلى الزّكاة والمواريث بإشبيلية وتمكّن في قلب السّيدة بما استمالها به من التّحف والخدمة ما لم يتمكن لغيره»[1]. إن ضعف احتمال أن يبدي رجل شرقي غيور عطفاً على شاب وسيم جمعته بزوجته صلة حميمة غير مقبولة، واضح جداً بحيث أنه لا يستوجب التّعليق. كما أنه ليست هناك حاجة لإضاعة الوقت على فرضيّة الكاتب نفسه بأن موهبة المنصور في التّنجيم وقراءة الطّالع كانت من الأسباب الرّئيسية التي جعلته يكتسب حظوة لدى الخليفة. فالحكم، وهو رجل ذكي وحاذق، كان قادراً من تلقاء نفسه على أن يتوسّم قدرات الشّاب اليمني الاستثنائية الواعدة، ويمكن أن نفترض بأمان أنه رقّاه تدريجاً إلى مراتب رفيعه لأنه لم يجد شخصاً آخر أفضل منه للقيام بذلك.

كان هشام الثّاني مجرد طفل عندما توفّي والده، ولا شك أنّ الحَكَم قدّر أنه لن يكتب لابنه الاحتفاظ بالخلافة ما لم يكن بجانبه رجل كفوء يتولّى إدارة الحكم من بعده. ويقال في الواقع إنّ الموالين للخليفة وجدوا من الضّروري التّخلّص من المُغيرة أخي المستنصر بالله، قبل مبايعة هشام لوجود فريق قوي في قُرطُبة كانوا يفضّلونه على الوريث الشّرعي نظراً لسنّه وخبرته، وعلى الأرجح لأنه لم يكن يحابي اليمنيين. ويُتَهم المنصور بأنه قتل المُغيرة بيديه الاثنتين بعد يومين من وفاة الحَكَم، وبأنه من بعدها «سما لابن أبي عامر في التّغلب على هشام لمكانه في السّنّ، وثاب له برأي في الاستبداد، فمكر بأهل الدّولة، وضرب بين رجالها، وقتل بعضاً ببعض»[2]. ويذكر المقّري العديد من الأمثلة – التي تعجز عن توفير إدانة – عن مكره ووحشيته ليس

---

(1) Makkari, ii. 178.

والاقتباس العربي منقول عن المقّري ج 1، ص 399. (م)

(2) المقّري، ج1، ص 396. (م)

إزاء الأفراد فحسب، وإنما عائلات بكاملها كان يشكّ في سعيها للنّيل من «تسلّطه» على هشام. ولكن يبدو واضحاً أنه كان على المنصور أن يواجه لبعض الوقت كل المعارضين لولاية هشام في البلاط، ولو أننا عرفنا وجهي القصة لوجدنا على الأرجح أنه كان لديه سبب وجيه بوصفه خادماً مخلصاً للعرش، لاتخاذ تدابير قاسية ضد من وصفهم ابن حيّان بأنهم ضحايا أبرياء لما يعتمر في صدره من ضغينة لا أساس لها[1].

وبعد أن تخلّص، كما يقول المقّري، من كل من وقف في طريق خططه الطّموحة، استبدّ المنصور بالحكم، «فتغلّب على هشام وحَجَره، واستولى على الدّولة (..) وقعد على سرير الملك، وأمر أن يُحيّا بتحية الملوك، وتَسمّى بالحاجب المنصور، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه، وأمر بالدّعاء له على المنابر باسمه عقب الدّعاء للخليفة». ومحا المنصور رُسومَ وشارات الخلافة بالجملة، ولم يبق لهشام المؤيد سوى اسمه المسكوك على القطع النّقدية والمشغول على حوافي الطّرز، أو الملابس الملكية. ولكن الكاتب يقول كذلك إن المنصور ذهب إلى حدّ التّنعم بهذه الميزات مع هشام لأنه أمر بكتابة اسمه «في السّكة والطّرز»[2].

واتُّهم المنصور ووالدة الخليفة الشّاب صُبح[3] بحجر هشام وحجبه داخل جناح

---

(1) Makkari, ii. 175 – 6, 183.

(2) *Ib*, 187.

يقول غايانغوس إنه رأى قطعاً معدنية نقش عليها اسم المنصور، وبعضها تحمل إضافة «الحاجب»، وبعضها دون تلك الإضافة. (المصدر نفسه ص. 477). قد تكون الطّرز مجرد هدية من هشام لأنه لم يكن غير معتاد أن يهدي الخلفاء ملابس للاحتفالات الرّسمية من خزائنهم إلى من يرغبون في تشريفهم. وكان يمكن بسهولة أن يتم تضخيم الأمر من قبل أشخاص يكنّون العداء للحاجب وتصويره بوصفه تعدّياً على الصّلاحيات الملكية. ولكن بعد فترة غير طويلة، بات استخدام الطّرز شائعاً بين النّبلاء، إن لم يكن في الأصل رائجاً حينها.

(3) يُقال إن والدة هشام صُبح كانت أخت الخصي الصّقلبي فائق رئيس حرس قصر الخليفة الذي شكّله عبد الرّحمن الثّالث، لكن يبدو الأمر موضع شك. (Makkari, ii. 175, 186, 477)
تجدر الإشارة إلى أنّ المقّري أورد في مكان آخر أن السّيدة صُبح كانت من البشكنس، من مملكة نافار (نبرة) من بلاد الباسك. ج 1، ص 603. (م)

الحريم لأغراضهم المبيّتة، ومعاملته بوصفه ضعيف العقل، حتى بات أقرب إلى الغباء. ولكن عندما نتذكّر الطّفل الذي كان عليه عندما توفي والده في سنة 976 (يقول المقّري إنه كان في التّاسعة من عمره فقط) وعندما نأخذ في الاعتبار العديد من الإشارات إلى المكائد التي حيكت ضد تولّيه الحكم، نرى أن الحاجب وأمّه الملكة كانت لديهما كل الأسباب التي تجعلهما يحرصان على إحاطته بحراسة دقيقة.

وينقل المقّري عن ابن بسّام (الذي يتبع دوزي كذلك على ما يبدو روايته للأحداث التي أعقبت وفاة الحكم على الفور)[1] أن فائق وخصيّاً آخر من الصّقالبة تآمرا لإزاحة الطّفل هشام وتولية عمّه المُغيرة على العرش. وزعم المصحفي، حاجب الخليفة المتوفى، أنه جزء من المؤامرة ثم أرسل على الفور المنصور مع عدد من الجند لقتل المُغيرة، وإحباط الخطة[2]. ويفترض هذا، في حال كان دقيقاً، أنّ ما نقله المقّري عن وجود علاقة قربى ما بين أم هشام وفائق، رئيس الخصيان، ليس صحيحاً لأنه من الصّعب أن يتآمر فائق لصالح رجل بالغ لإزاحة ابن اخته الطّفل الذي يمكن أن يتوقع أن يحافظ خلال توليه صورياً للعهدّ، على سلطاته ويعزّزها.

يقول المقّري إنّ المنصور طرد الحرس الصّقالبة من القصر إثر وفاة الحَكَم، وعيّن خلال فترة المكائد الطّويلة التي أعقبت ذلك، قائداً شيعياً مولوداً في الحيّ الأندلسي في مدينة فاس، وعليه يُعرف باسم «الأندلسي» لتنفيذ خططه وإسكات المعارضين لسلطته[3].

يورد كوندِه تفسيراً طبيعياً وأكثر إنسانية يتعلّق بحجب هشام في هذه الفترة، وتجدر الإشارة إلى أنه يقتبس، في أكثر من مكان في سرده لحكم هشام، عن المؤرّخ اليمني ابن أبي الفيّاض الذي لم يطّلع المقّري ولا غايانغوس أو دوزي على مؤلفه.

وجاء في روايته أنه عندما انتهت مراسم تشييع الحكم، بويع ولده هشام خليفة

(1) *G. der M.*, ii. 84 ff.

(2) Makkari, ii. 176 – 8.

(3) *Ibid.*, ii. 176, 475.

وعمره عشر سنوات وبضعة أشهر. كان الوليد الوحيد للحكم وكانت أمّه السّلطانة صبح Sobeya. ويقول كونده في ملاحظته إن الإسم يعني بالإسپانية «الشَّفَق» أو «ضوء الفجر» Aurora، و«أورورا» هو الاسم الذي يطلقه عليها دوزي باستمرار.

لقد شغف الحَكَم بالملكة الأم لتعقُّلها وحسن تقديرها وجمالها، فباتت أثيرة لديه، وعلى مدى عشر سنوات (واضح أن ذلك يتطابق مع انجابها ولداً ذكراً للخليفة الذي لم يكن لديه وريث) كان يأخذ برأيها في عظائم الأمور وصغائرها، ويشركها في تدبير شؤون الخلافة سواء في القصر أو في البلاط والمدن والنّواحي، فكانت حتى اقتراحاتها البسيطة مستجابة دون تأخير أو تبرير. كان محمّد بن أبي عامر كاتب السّلطانة، فاكتسب بفضل كياسته ونجابته وشجاعته وشدّة حصافته احترام وثقة الخليفة والملكة، وكذلك احترام وتقدير الولاة والوزراء والحكّام.

ولم يكن قد مضى وقت طويل على وصوله إلى قُرطُبة عندما عيّنت الملكة صُبح ابن أبي عامر كاتبها وكبير وصفائها، ونظراً لصغر سنّ ابنها، كلّفت المنصور لاحقاً بإدارة شؤون المُلك، وعيّنته كبير الحجّاب، ليكون الوصيّ على الخليفة والوزير الأول المكلّف شؤون الحُكم والجيش. لقد حاز هذا الاختيار على رضا الجميع ما عدا الحاجب السّابق المصحفي الذي اعتبره تقليلاً من شأنه، وبيّت مع أبنائه الضّغينة على المنصور.

في هذه الأثناء، لم يكن هشام، كما هو متوقّع لطفل في مثل صغر سنه، يفكّر سوى بألعابه وملذّاته البريئة، فلم يخرج قط من قصوره أو جنائنه الغنّاء، أو سعى إلى أي نوع آخر من التّسلية غير ما وجده فيها، في حين كان أصحابه من صغار الوصفاء في مثل عمره وعاشوا معه بعيداً عن الأعين، ولم يسمح لهم التّواصل مع أحد[1]. لقد كانت مثل هذه التّدابير الحذرة طبيعية في حال كانت هناك مكائد تحاك باستمرار لإزاحة الخليفة الصّغير أو قتله، كما كانت عليه الحال على ما يبدو.

---

(1) Conde, i, 491 – 493.

ولكننا نعتقد أن التّفسير الحقيقي لحجب هشام عن الأعين، والذي استمرّ حتى وفاة المنصور بعد ذلك بستة وعشرين عاماً، كان الرّغبة، وربما الضّرورة الموجبة لأخفاء كونه يعاني من ضعف ذهني. صحيح أنّ الوصايا التي كان والده يوصيه بها (كما ورد في الصّفحة 160 طبعة الأصل) لا تشير إلى أن التّلميذ كان يعاني من بلاهة، إلا إن كان القول بأنّ النّصيحة كانت تردّد عليه باستمرار يعني أنّ ذاكرة هشام كانت ضعيفة. ولكن حتى وإن كان بامكاننا أن نثق ضمنياً برواية مؤرّخ واحد، لم يوثقها آخرون، فهذا لا يعني أنّ الأمير الذي بدا نموّه طبيعياً حتى سنّ العاشرة، واصل نموه عندما بلغ سنّ المراهقة. ويقول كوندِه[1] إنه «لم تكن لديه رغبات تختلف عن رغبات خدمه» *que no tenia mas voluntad que la de sus siervos*، في إشارة إلى فترة الاضطرابات في سنة 1009.

بعد أكثر من عشر سنوات على مبايعته، عندما كان في سنّ العشرين على وجه التّأكيد (تختلف المراجع بشأن عمره الدّقيق عندما توفي والده) كانت الملكة الأم لا تزال تتصرّف كوصيّة عليه، إن كان يمكننا أن نحكم من خلال كتابة على خزّان في إستجة Écija، ظل قائما حتى سنة 1820، تشير إلى أنه بني «بأمر من السّيدة الكبرى والدة أمير المؤمنين، هشام المؤيَّد بالله بن الحَكَم»، وتحمل تاريخ 377 هـ. (987م)[2].

هناك دلائل تشير إلى الاحتفاء بوالدة ولي العهد في أعمال أمرت بإنجازها في مساجد سمّيت باسمها[3]. ولكننا نشكّ في أن تحمل أشغال عامة مهمّة مثل القناة والخزّان المشار إليهما هنا اسم الأم لو كان الخليفة قادراً على تولّي شؤون المُلك بنفسه.

ينقل دوزي عن المقّري قوله إنّ الزّبيدي وصف هشام المؤيَّد بأنه «كان في صباه في غاية الحُذق والذّكاء»، واستناداً إلى ذلك يقول إن أمّه والمنصور تعمّدا العمل على إضعاف عقله بعد أن أصبح الخليفة.

---

(1) *Ibid.*, i. 558.

(2) *Ibid.*, i. 496.

(3) على سبيل المثال، كنيسة سان خوان دي لا پالما San Juan de la Palma في إشبيلية.

كان يمكن أن يكون لشهادة الزّبيدي وزن أكبر لو أننا وجدنا أدلة أخرى على صحّة هشام الذّهنية. ولكن رغم أنه كان يمكن أن يكون طفلاً سريع البديهة (وليست هناك حاجة لموهبة كبيرة لجعل ولي العهد يظهر ذكياً في عيون أفراد حاشية أبيه) فإنه يبدو بلا شك - بقدر ما يمكن الحُكم من خلال المعلومات المتوفرة من التّرجمات - أنه كان يعاني من قصور في شبابه وبلوغه. عندما نتذكر أنّ أباه كان يبلغ من العمر حوالي اثنين وخمسين عاماً عندما ولد هشام، وأنه لم يكن لديه أطفال آخرون سواء من زوجاته أو محظياته الأخريات، يصبح من الممكن أن نأخذ في الحسبان أنّ الطّفل ربما كان يعاني من قصور ذهني. أما هشام نفسه، فلم ينجب على الإطلاق.

ولكن أياً كانت أسباب قصور الخليفة، فقد كان حكمه، بفضل هذا القصور ذاته، مزدهراً ومجيداً مثله مثل حكم جدّه عبد الرّحمن الثّالث، طالما تولّى الحاجب اليمني أمور المُلك بفضل حكمة أمّه التي اختارته ليكون وزيره الأول عند وفاة والده.

ولا بدّ أن كل من قرأ الحكايات الشّعبية التي تروى عن الأندلس اطّلع على الغزوات التي قادها المنصور وانتصاراته الظّافرة، ولن نكرّر ما هو معروف على نطاق واسع، ولكن بدلاً من ذلك سنروي بعض القصص التي تلقي الضّوء على جانب آخر من شخصيته.

يروي كونده نادرة ملفتة تشير إلى صرامته في تطبيق العدالة وتجاهله للرّوابط العائلية المؤثرة، والتي لم نجدها في كتابات غيره.

والقصّة أن شاباً في السّابعة عشرة من عمره يدعى مروان بن عبد الرّحمن بن مروان وحفيد عبد الرّحمن الثّالث، كان يحبّ جارية يملكها والده. كان الاثنان قد نشأا معاً منذ الصّغر ومع الوقت اشتدّ تعلقهما ببعضهما. ولكن والد مروان، الذي لم يكن على علم بالأمر، فصل بين الإثنين عندما بدا له أن الوقت حان لذلك، لكن تفريقهما لم يفعل سوى أن زاد في شغفهما.

في إحدى الليالي، دخل الشّاب المتهوّر الذي لم يعد قادراً على كبح جماح شوقه، سرّاً إلى الحديقة التي تتسلّى فيها جواري والده، وهناك، رأى الفتاة العذراء من خلف شجيرات الآس. فقال لها:

ليس هنا وقت للكلام، علينا أن نفعل بسرعة ما علينا فعله.

ومـن لهفتها عليه وحرصها على إرضائه، تبعتـه الفتاة خارج الحديقة وهرباً معا من المكان، ليلتقيا عند البوابات الخارجية بوالد مروان، عبد الرّحمن.

لم يتعرّف مروان، الذي أعماه شوقه وانفعاله، إلى أبيه، ولم يتوقف ليتذكر أن الرّجل الذي حاول إيقافه في مثل هذا المكان وهذا الوقت لا يمكن إلا أن يكون والده، فاستلّ سيفه وطعنه به.

هـرع الخدم عندما سـمعوا صرخـة عبد الرّحمـن، فلم يفلح مروان فـي اختراقهم. وسقطت الجارية بين ذراعيه مغمياً عليها، وما إن استدار ليمسك بها، حتى تم تجريده من سيفه، واعتقاله.

فـي غياب المنصـور، درس القضـاة القضية بأمر مـن الملكة، وقـرّروا، آخذين في الاعتبار كون مروان لا يزال شـاباً، الحكم عليه بالسّجن بقدر سنوات عمره. وصدّقت الملكة الأم والخليفة الحكم.

ثـم تأتي التّفاصيل التي تشـير إلـى أنّ الحاجب المنصور لم يكن يتعامل مع هشـام بوصفه لا يتمتع بأيّة مسؤولية.

عندما عاد المنصور من الغزوة التي اضطرّته للتّغيب عن قُرطُبة، وسمع بما حدث، قال للخليفة إنه حكم في القضية من وجهة نظر الشّـاب العاشـق، وليس من وجهة نظر الأب المسـؤول عن عائلة. ومعنى هذه الملاحظة، إن كان لها معنى، أنّ الحاجب كان ينتظر من هشام أن يحكم بلا تحيّز، حتى وإن كان المذنب شاباً من عائلته. ويصعب من خـلال ذلك اعتبار أن المنصور كان ينظر إلى هشـام باعتبـاره ضعيف العقل. من ناحية ثانية، تجدر الإشارة إلى أنّ الملكة الأم أمرت بإحالة القضية إلى القضاء وصدّقت هي والخليفة على الحكم[1].

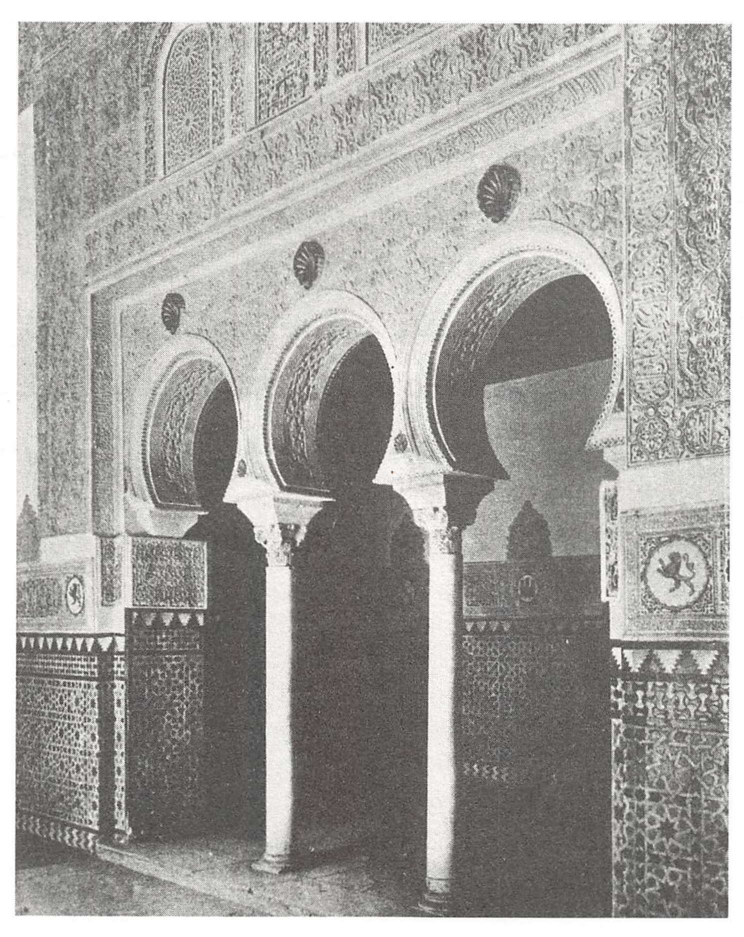
يبدو بصورة عامّة أنّ هشاماً، إن لم يكن بالفعل ضعيف العقل، فقد كان يتأثر بسهولة

(1) Conde, i. 499 – 500.

بالأشـخاص المقرّبين منه ولا يملك القدرة على اتخاذ القرار ولا الشّـجاعة لمواجهة الأخطار والمصاعب. وإن كانت هذه هي الحال - وهو ما يشـير إليه سـلوكه العام بعد وفـاة المنصور - تصبح رغبة أمّه وحاجبه في إبقائـه محتجباً وإخفاء نواقصه عن أعين المتربصين به من أعدائه في الدّولة، مبرّرة تماماً.

في محاولة لتكوين فكرة منسجمة عن الأشخاص والأحداث التي أورد المؤرّخون روايات شـديدة التّناقض عنهم، يصبح من المسموح الافتراض بأنه عندما تكون هناك روايتان عن سـلوك شـخص، فالأرجح أن تكون الرّواية الأكثر انسـجاماً مع شخصيته عمومـاً هي الأصدق. وفيما يتعلّق بالمنصور، تشـير كل الدّلائـل إلى أنه لم يكن رجل دولـة فحسـب، وإنما حاكماً عادلاً جـوّاداً، ويمكننا بناءً عليـه أن نخلص إلى القول إنه ما كان ليعامل ابن الرّجل الذي يدين له بكل شـيء، بالوحشـية التي أسبغها عليه أعداء سلالته.





مدخل إلى أحد أجنحة قصر إشبيلية المعروف تقليدياً باسم جناح نوم الملك والملكة المسلمين، وهو يفضي إلى باحة جناح الحريم. الزّخرفة المعتمدة هنا هي على الطّراز السّائد في القصور الإسلاميّة في مصر في أواخر القرن الثّاني عشر والقرن الثّالث عشر. ولا يزال قسم من البلاط القديم على حاله. وأحد الأجنحة أعدّه السّلطان الموحّدي يوسف أبو يعقوب في أعوام 1171 - 1175 لاستقبال عروسه اليمنية، الأميرة دانية (راجع الصّفحة 275 طبعة الأصل).

الفصل العاشر

المنصور والنّصارى

تعامل المنصور بتسامح وانفتاح مع المسيحيين، كأفراد ومجتمع، على الرّغم من أنه كان يجنّد الحملات في مواجهة النّصارى الذين يغزون الثّغور المسلمة وكان يقود هذه الحملات بنفسه تكراراً.

يعترف الكتّاب المسيحيون أنفسهم بذلك، وقبل سرد بعض الأمثلة من المؤرّخين العرب، سننقل بعض الأمثلة التي تبيّن مدى الاحترام والتّقدير الذي خصَّ به هذا اليمني عظيم الشّأن المسيحيين كما رووها هم أنفسهم.

في سرد لقصة حصار ليون في عام 984، يقال إن «كياسة المنصور وحسن معاملته للجميع، والعروض السّخية التي قدّمها لهم، دفعت العديد من «المسيحيين الضّالين» إلى التّخلّي عن قضيتهم ذاتها والالتحاق بصفوفه دون أن يشعرهم ذلك بالخزي»[1].

يقول المقّري في سرده لوقائع هذه الغزوة إنّ المنصور احتلّ ليون وأعمل السّيف في سكانها وحاول هدم تحصيناتها لكنه تراجع بسبب سماكة الجدران والوقت الذي يمكن أن يستغرقه ذلك[2].

عندما يختلف المؤرّخون المسيحيون والمسلمون كل هذا الاختلاف بشأن معاملة

---

(1) *España sagrada*, xxxiv. 303.

(2) Makkari, ii. 189.

يقال إن عبد الملك بن المنصور هدم ليون وسوّاها بالأرض (المصدر نفسه، ص 222، 486.)
أما بشأن هدم المدينة فيكفي القول إنّ الأسوار الرّومانية لا تزال قائمة.

المسلمين للمسيحيين، نعتقد أن بالامكان الاعتماد بلا تردّد على ما يرويه المسيحيون طالما، وكما في هذه الحالة، يشهدون على حسن المعاملة التي لقيها أبناء دينهم. ولا يحتاج أحد ممّن قرأوا الحوليّات الإسپانية عن الاحتلال المسلم لإسپانيا لأن نذكّره بأنها لم تكن متساهلة مع الفاتحين. يرسم أحد كتّاب «إسپانيا المقدّسة» صورة ملفتة عن السّذاجة السّائدة في عصره (سنة 1753) راينا من الجدير بنا ترجمتها.

فخلال إحدى غزواته الظّافرة، رغب المنصور في أن يدخل على صهوة جواده كنيسة الشّهداء القديسين، القديس كلاوديو وغيره، في ليون. كانت من الكنائس المفضّلة لإقامة الأعراس وفي اليوم الذي كان فيه المنصور على وشك ارتكاب فعلته وانتهاك حرمة الكنيسة، كان ما لا يقل عن اثني عشر نبيلاً مسيحيا مع اثنتي عشرة عروساً، قد ذهبوا إليها لعقد قرانهم. عندما أُبلغ المنصور بالأمر، توجّه إلى باب الكنيسة وقد سوّلت له همجيته أن ينهب الكنيسة ويأسر العرسان والعرائس الجدد. ولكن معجزة حالت دون ارتكابه خطّته الآثمة. فعلى عتبة مدخل *atrio* الكنيسة هوى حصانه فجأة ميتاً. دفع ذلك المنصور إلى السّؤال عما يحدث داخل الكنيسة (مع أن المنصور، تبعاً للكاتب، جاء إلى هناك لأنه كان يعرف بعقد قران اثني عشر من الأزواج) وبهرته تقوى أهل ليون وبدلاً من أن يمضي في تنفيذ نواياه الشّريرة، قدّم العطايا إلى القديسين الذين كُرّست الكنيسة لهم.

يبدو أن المنصور قدّم بالفعل العطايا إلى تلك الكنيسة، لأنّ الكاتب يقول إنه رأى السّجل في كتاب سجلات الكنيسة القديم *Leccionario antiguo*، وكانت هديته عبارة عن حصيرة جدارية مشغولة تحمل شارته، وعشرة أثواب للكهنة من أرقى الأقمشة، «لا تزال إلى اليوم محفوظة في برج كنيسة سان كلاوديو»[1].

أمّا الرّوايات المتعلقة باحتلال المنصور لشنت ياقُب فمتناقضة كالعادة. إذ يخبرنا ابن حيّان أنه «كان النّزول بعده على مدينة شنت ياقُب البائسة، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان، فوجدها المسلمون خالية من أهلها، فحاز المسلمون غنائمها،

---

(1) *España sagrada*, xxxiv. 360.

وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها، وعمـ ـهـا، ووكّل المنصور بقبر ياقُب من يحفظه ويدفع الأذى عنه، وكانت مصانعها بديـ ـكمة فغودرت هشيماً، كأن لم تَغْنَ بالأمس»[1].

لكن رواية ماريانا تختلف كثيراً عن رواية ابن حيّان، إذ يـ ـكأنه يصف جريمة:

«كانت الأوضاع بائسة، والمهانة التي لحقت بالدّيانة المسيـ ـظيعة. لقد عانت غاليثيا (جليقية) الأمرّين من هجمات وأسلحة الهمجيين: لقد ذهبوا إلى حدّ احتلال مدينة كومپوستيلّا وهدم أحد جدران كنيسة سانتياغو وتسويته بالأرض. لم يلمسوا ضريح الرّسول: وسبب ذلك غير معروف.. حتى أن المنصور نفسه.. عندما قال له رجل إنّ أحد تلامذة عيسى بن مريم مدفون هناك، أمر بالكفّ عن تلك الأفعال»، (ويعني بذلك على ما يبدو، الكفّ عن غزو المكان)[2]. وهذا لا يعني بتاتاً أنّ شنت ياقُب هدمت عن آخرها ولم يبق فيها حجر على حجر.

حتى ابن حيّان نفسه عندما قال «ووكّل المنصور بقبر ياقُب من يحفظه ويدفع الأذى عنه»، أقرّ بأن ابن أبي عامر كان حريصاً على التّعامل باحترام مع الضّريح الذي جرت التّقاليد على أن رُفات القديس يعقوب مدفونة فيه. وقالوا كذلك إنّ «المسلمين وجدوا شنت ياقُب خالية من أهلها إلا شيخاً من الرّهبان جالساً على القبر، فسأله المنصور عن مقامه وعما يفعله في ذلك المكان، فقال: أونس يعقوب. فأمر بالكفّ عنه وعدم إيذائه»[3].

وبالعودة إلى ما ورد في «إسپانيا المقدّسة» من أنّ المنصور استمال إلى صفوفه العديد من «المسيحيين الضّالين» الذين قاتلوا تحت راياته ضد أبناء دينهم، من المفيد أن نشير إلى المعلومات التّالية التي يوردها ابن حيّان فيقول:

---

(1) Makkari, ii. 195

المقّري، ج 1، ص 415 – 416. (م)

(2) Mariana, Book VIII., Chap. Viii.

(3) Makkari, ii. 195 – 6.

«فلمّـا وصل إلى مدينة غليسـية وافاه عددٌ عظيم من القوامس المتمسّـكين بالطّاعة في رجالهم، وعلى أتم احتفالهم، فصاروا في عسـكر المسـلمين، وركبوا في المغاورة سـبيلهم»، واجتـازوا جميعهـم حـدود بـلاد المسـيحيين[1]. كمـا يتطـرّق دوزي إلـى «الوطنيين الفاسـدين، المحتاجين، محبّي المال» بين المسيحيين الإسپان، الذين فرّوا من جيوش قشتالة وليون وناڤار طمعاً في الذّهب الذي عرضه المنصور عليهم[2].

يخبرنا ابن حيّان أنه في طريق عودته «انكفأ المنصور عن باب شـنت ياقُب وقد بلغ غاية لم يبلغها مسـلم قبله، فجعل في طريقه القصد (...) حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره، فأمر بالكفّ عنها، ومرّ مجتازاً [مناطقهم] حتى خرج إلى حصن بليقية» الذي كان قد هدم تحصيناته في وقت سابق. ويقترح غايانغوس أنّ بليقية هذه هي «ڤاليكوس» Vallecos القريبة من مدينة رودريغو Ciudad Rodrigo، بالتّالي فهي لا تبعد كثيراً عن قورية، من حيث دخل المنصور أرض أعدائه في مستهلّ حملته. جمع المنصور القوامس المسـيحيين الذين شـاركوا في الحملة، و«أجازهم بجملتهم على أقدارهم [تبعاً لأهمية ومكانة كل منهم]، وكسـاهم وكسـا رجالهم وصرفهم إلى بلادهم، وكتب بالفتح من بليقية، وكان مبلغ ما كساه في غزاته هذه لملوك الرّوم ولمن حَسُـنَ غناؤه من المسـلمين [الأمراء النّصارى وغيرهم ممن ناصروا المسلمين] ألفين ومئتين وخمسـاً وثمانين شُـقّة من صنوف الخزّ [الحرير] الطّرازي، وواحداً وعشـرين كسـاءً مـن صوف البحـر [جلد الفقمـة]، وكسـاءين عنبريين، وأحد عشـر سـقلاطوناً [قمـاش من الصّوف النّاعم القرمـزي الذي كان النّبلاء قادرين علـى الحصول عليه]، وخمس عشـرة مريّشـاً [وهي كلمة لم يتمكن غايانغوس من ترجمتها]، وسـبعة أنماط ديبـاج [كسـوة خيل من الحريـر المطرز]، وثوبي ديبـاج رومي [ثوبان من النّوع نفسـه مصنوعـان فـي اليونان]، وفروي فنك [فـراء ثعلب الصّحراء]، ووافى جميع العسـكر قُرطُبة غانماً، وعظمت النّعمة والمنّة على المسلمين»[3].

---

(1) Makkari, ii. 194.

(2) *G. der M.*, ii. 115.

(3) Makkari, ii. 194 – 6, 480 – 1.

لـم نتمكّـن مـن العثور فـي أي مكان علـى معلومـات تفيدنا فـي معرفة مـن يكون هـؤلاء النّبلاء والأمراء المسـيحيون. ويبدو أنّ مناطقهم التـي اجتازها جيش المنصور في سـلام، تمتدّ إلى الجنوب من ليون أو إلى الشّـمال من إستريمادورا. ومن الممكن أن يكون هؤلاء من أحفاد المسـيحيين الذين اسـتقرّوا، في عهد رُمُلة ابن غيطشـة، في نواحي طُليطلة وعاشـوا هناك مسـتقلّين عملياً لحوالي مئتي عام، حتى دخلوا في طاعة عبد الرّحمن الثّالث، قبل حوالي خمسين عاماً من غزوة المنصور. وستتذكر أنه عندما فتحـت طُليطلـة بواباتهـا لجيـش عبد الرّحمـن، فرّ جعفر [بـن عُمَر بـن] حفصون مع ألاف مـن أتباعـه، دون أن تُعرف وجهته. فإن كان بيـن هؤلاء النّبلاء أحفاد رُمُلة أو بني حفصون، فمن الممكن أنهم فضّلوا التّحالف مع المسلمين على الذّوبان ضمن قوات الشّـمال المتنامية، والتي كانت لا تزال تسـير على نهج رودريك (لُذريق). ولكن الأمر لا يعدو كونه مجرّد تخمين.

في سنة 995 أو 996، أسر المنصور غرسيّة بن شانجة (غارثيّا ابن سانچو، Sancho) «ملـك نصارى الجبـال»[1] الذي كانت مصاباً بجروح خطيـرة وتوفي بعد ذلك ببضعة أيـام علـى الرّغم من كل العناية التي أولاه إياها المنصـور. أمر المنصور بإعداد تابوت مزيّن بالنّقوش والزّخارف سُـجّي جثمان الملك بداخلـه وغُطي بقماش رائع باللونين الأحمـر القرمـزي والذّهبي، وطُيّب بأجود أنواع العطور، لإرسـاله إلـى أهله. وعندما وصل عدد من فرسـان جيش غرسـية لافتداء جثمان ملكهم بالهدايا، سـلّمه المنصور لهم رافضاً هداياهم[2].

الكلمات الواردة ضمن أقواس هي الشّرح الوارد بالإنكليزية لما أورده المقّري بالعربية، وملاحظات المؤلفَين. باقي النّص العربي مقتبس عن المقّري، ج 1، ص 416، بما يتفق مع النّص الإنكليزي. (م)

(1) ورد لدى المقّري أنّ غرسية هو ابن شانجة ملك البشكنس، ويقصد بها بلاد الباسك. المقّري، ج 1، ص 363. (م)

(2) Conde, i. 532 – 5.

يقول كوندِه في ملاحظة دوّنها على هذا المقطع إنّ المتوفى هو الكونت غارثيّا فرنانديث ملك قشتالة الذي توفي مع ذلك، تبعاً لماريانا، بعد ذلك بعشر سنوات، في عام 1006. (*Lib*, VIII.)

وفي سنة 997، عندما كتب عبد الملك، ابن المنصور، إلى أبيه يخبره عن نجاحه في غزوته في المغرب، حيث فتح مدينة فاس، لم يقف جود المنصور عند التّصدّق على المتسوّلين وتخفيف ديون الكثير من الفقراء الأمناء، بل أفرج عن خمسمئة أسير وثلاثمئة من الجواري النّصارى، تعبيراً عن امتنانه وشكره لله على نعمته ورحمته[1].

يقول دوزي استناداً إلى «راهب دير سيلوس»[2] the Monk of Silos إنّ المنصور كان يتحيّز دائماً للمسيحي عندما ينشأ خلاف بين مسيحي ومسلم. ويخبرنا المقّري، نقلاً عن تاريخ لم يسمّه للمنصور، أنّ يوم الأحد كان يوم راحة في بيت المنصور حيث كان ينعم أهل البيت في ذاك اليوم ببعض الرّاحة ويُعفَون من بعض أعمالهم، والسّبب في ذلك، كما يقول غايانغوس، أنّ العاملين في منزله كانوا من العبيد والجواري المسيحيين[3].

إنّ اعتراف الجميع بحسن معاملة المنصور للمسيحيين، يلقي الكثير من الشّك على القصّة المتكرّرة التي تقول إنه أرغم الأسرى المسيحيين في شنت ياقُب على أن يحملوا أجراس كنيستهم من تلك المدينة إلى قُرطُبة على ظهورهم. وتتراجع مصداقية تلك القصة كذلك من خلال قول ابن حيّان إن جميع سكان شنت ياقُب أخلوها قبل وصول المنصور. (راجع ما ورد أعلاه ص 171 طبعة الأصل) ومن غير المحتمل أن يكون ذاك الرّجل المتميّز بتسامحه وسعة إدراكه إلى درجة احترام ضريح قديس مسيحي، وتقدير احتياجات خدمه المسيحيين للرّاحة وللتعبّد، أن يكون قد أعمل السّيف بالنّساء والأطفال النّصارى، ونهب بيوتهم وهدم كنائسهم كما يروي ابن حيّان عن المنصور. والتّفسير الأكثر قابلية للتّصديق بشأن تلك القصة، أنّ ابن حيّان ينسب

(Chapter x). يقول واتس (*Spain*, p. 308) إن غارثيًا فرنانديس توفي في عام 995، ويتفق ذلك مع التّاريخ الذي حدّده كوندِه.

(1) Conde, i. 539.

(2) مخطوطات كتبها رهبان يعتقد انهم كانوا يعيشون في دير سان دومينغو دي سيلوس في قشتالة وتقول مصادر أخرى إن الدّير كان في ليون. (م)

(3) Dozy, *G. Der M.*, ii. 115; Makkari, ii. 215, 485.

للمنصور الشّيعي الأفعال التي كان سيقوم بها هو نفسه لو كان في مكانه.

ويروي المؤرّخون الكثير من النّوادر والقصص التي تدلّل على مدى سخاء المنصور وجوده وذكائه وحسّه للدّعابة. وسنترك الكثير منها لأنها خارجة عن موضوعنا. ولكن لا يسعنا مع ذلك أن نقاوم الإغراء لإظهار الجانب المرح في حياة الحاجب العظيم، من خلال ترجمة مقاطع من كونديِه لنادرة غير معروفة كثيراً عن المنصور.

كان هناك رجل من أهل الأدب واللغة يدعى أبا العلاء[1]، قدم إلى الأندلس من بغداد وقصد قُرطُبة ودخل على المنصور فأجزل له العطاء، لأنّ الحاجب بن أبي عامر كان مولعاً بالأدب وواسع العلم كما كان الخليفة الحكم المستنصر بالله. أكرمه المنصور ومنحه من المال الذي يدخره لرعاية العلم والأدب، ولكن أبا العلاء كان مسرفاً في معيشته، ولم يكن المال الذي يحصل عليه من الحاجب كافياً لسد حاجاته.

في يوم، دخل أبو العلاء على المنصور وهو يلبس قميصاً مخرّماً رثاً[2] *deshilado* بان لشدة رقّته ثوبه الدّاخلي من تحته. لاحظ المنصور ذلك فسأله:

ما هذا يا أبا العلاء؟

فأجابه بصوت متواضع مثير للشّفقة:

كان هذا هدية من سيّدنا، حفظه الله وأنعم عليه. ما عندي بقميصٍ أحسن منه، ولهذا لبسته اليوم.

فأجابه المنصور:

حسناً فعلت، ولكي لا تبقى متمسكاً به، سنرسل لك في الغد قمصاناً أخرى تستبدلها به، فنصلح الأمر كما ينبغي.

وفي يوم آخر، دخل صاعد أبو العلاء على الحاجب فوجد المنصور يقرأ في كتاب

---

(1) Cf. Makkari, i. 461.

(2) أورد المقّري أن الثّوب كان مرقّعاً، وأن خادم أبي العلاء هو الذي كان يلبسه، وفي رواية أخرى أن أبا العلاء لبس القميص تحت ثوبه ثم خلع الثّوب وبان. ج 3، ص 83.

وصلـه من عامل له (حاكم) في بعض الجهات يتحـدّث فيه عن قلب الأرض وتزبيلها قبل زراعتها، فنادى المنصور على أبي العلاء وسأله:

هل رأيت أو وصل إليك من الكتب القوالبة والزّوالبة لمبرمان ابن يزيد؟

إي واللـه ببغداد في نسـخة لأبي بكر ابـن دريد[1] بخط ككـراع النّمل، في جوانبها [علامات الوضاع].

فأجابه المنصور:

أما تسـتحي أبا العلاء من هذا الكذب؟ هذا كتاب عاملي ببلد كذا واسـمه كذا يذكر فيه كذا[2].

فجعل صاعد يحلف له أنه ما كذب، ولكنه أمر وافق.

لا شك أنّ المنصور، وبعيداً عن شعوره بالمهانة، كان يحب تدبير المقالب للأديب النّصّاب.

ونحـن مدينون كذلك لكونـدِه في وصف ضيافة قائد مُرسـية لأبي المنصور خلال إحدى حملاته، نقلاً عن ابن حيّان.

فعلى مدى ثلاثة عشـر يوماً تكفّل القائد السّـخي بتلبية احتياجـات الوزير ومرافقيه وخدمـه. لم يسـتقبلهم في منزله، ولكنه كان يرسـل لهـم كل يوم إلى النّـزل[3] كمّيات وافرة من الخبز واللحم والفاكهة من ماله، أمّا المنصور نفسـه ورجاله، فكان يقدّم لهم كل يوم أصنافاً من أطايب الطّعام والحلوى المحفوظة والفاكهة من أجود الأصناف.

عندمـا علـم المنصـور أنّ القائـد قـدّم كل تلـك العطايا دون مقابل، شـكره باسـم

---

(1) Abu Bakri Ibn Daweid (في الانكليزية)

(2) Conde, i. 525 – 6.

(3) لا تزال في إسپانيا إلى اليوم ثلاثة أنواع من الفنادق التي استخدمها المسلمون، وهي الفنادق *Fonda* الاعتيادية التي تقدّم الطّعام والخدمة، والنّزل *Posada* التي تقدّم الغرف دون الطّعام، والخانات *Parada* التي هي عبارة عن مكان يستريح فيه المسافر مع دابته.

الخليفـة، وعندمـا عـاد إلى قُرطُبـة اقترح على هشـام أن يعفـي القائـد وعائلته من كل المغارم والضّرائب اعتباراً من ذلك التّاريخ، وكان له ذلك.

وفـي رواية أخرى لتلـك القصّة ينقلها كونده كذلك، يقال إن القائد أضاف على كل الطّيبات وأسباب الرّاحة، حمّامات يومية بماء الورد، وأسرّة مغطاة بمفارش جميلة من الحرير الموشى بالذّهب[1].

كما وصلتنا تفاصيل قصّة ملفتة عن الاحتفال بزواج ابن المنصور البكر عبد الملك فـي ربيع سـنة 986 من حبيبة، ابنة عبد الله ابـن أبي عامر (من عائلة المنصور) وزوجته بُريهـة Boriha ابنة المنصور نفسـه. لم يكن زواج رجـل بابنة أخته امراً غير مألوف بين مسـلمي إسـبانيا في ذلك الوقت[2]، وفي الواقع في مجتمع حيث كان يمكن أن يكون لرجـل واحـد - أو لرجل في مصـاف الملك - مئة طفل من زيجـات مختلفة، ربما لم يكن من السّهل دائماً العثور على عروس لا تربطها بزوجها صلة قرابة. لقد كان تحريم زواج القربى في مجتمع تتشابك العلاقات بين أفراده بصورة معقدة في القرن السّادس عشـر، واعتبـاره سِـفاحاً والأطفـال المولودين منه غير شـرعيين، واحـداً من الفصول الكثيرة القاسية للاضطهاد الذي عاناه الموريسكيون على أيدي محاكم التّفتيش.

أُقيـم العرس في جنائـن المَريّة القريبة مـن قصر الزّاهرة بعد أن أذن الخليفة هشـام لحاجبـه بإقامة العرس فـي حدائق القصر. وحضر الاحتفالات والولائم كافّة أشـراف وأعيان قُرطُبة على شـرف العروسـين، وتخلّلت العرس احتفـالات عارمة عمّ خلالها المرح الصّاخب الشّوارع.

«سـارت العـروس الجميلة فـي موكب مظفّر عبر الشّـوارع الرّئيسـية تحيط بها كل العـذارى المقرّبـات من العائلـة، وفي مقدّمة الموكب وخلفه سـار القاضي والشّـهود وكبار رجال الدّولة والشّـيوخ وأشـراف المدينة. ووقفت الفتيات العذراوات يحرسن

---

(1) Conde, i. 511 – 3.

(2) كلام غريب ومستهجن. وكانت أمّ المنصور تسمّى أيضاً بُريهة، وهي بُريهة بنت يحيى بن زكرياء التميمي من أهل بيت من أشراف قرطبة يسمّون ببني برطال. (أحمد)

مدخل جناح العروس طوال النّهار مسلّحات بعصي من العاج والذّهب، حتى تمكن العريس مع هبوط الليل برفقة صحبه من أبناء أشراف عائلته، وفي حماية حرابهم المذهبة، من دخول الجناح عنوة بالرّغم من مقاومة العذارى المستميتة.

«ازدانت الجنائن بالأنوار، ومن كل المداخل والنّوافير والمراكب الطّافية فوق مياه بحيراتها الصّافية، صدحت موسيقى عذبة، وأنشد المغنّون أغاني تمتدح خصال العروس والعريس. استمرّ العزف والغناء حتى مطلع الفجر، واستمرّ المرح والاحتفالات طوال اليوم التّالي.

«أجزل المنصور العطاء بهذه المناسبة فأهدى حرّاسه قطعاً من السّلاح وكسوة، ووزّع الحسنات إلى فقراء الزّوايا[1]، ودفع مهر فتيات فقيرات من دور الأيتام في المسجد والحي *Aljama*[2] الذي يرعاه وزوّجهن، وكان كريماً في مكافأة كل من أثنى على ابنه وحفيدته. فلم تشهد قُرطُبة أياماً في مثل روعة تلك الأيام، أو عرساً بمثل عظمة عرس عبد الملك بن المنصور»[3].

وفي الختام سندع المقّري يلخّص خصال المنصور وأفضاله، فيجري قلمه بحرّية متناسياً أنه شيعي وأدرك في النّهاية أنه يستحق التّمجيد والثّناء.

ومن أخبار المنصور، «أنّه خطّ بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره يدرس فيه، ويتبرّك به. ومن قوّة رجائه أنّه اعتنى بجمع ما علق بوجهه وملابسه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده في بلاد المشركين، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازله، حتى اجتمع له منه صرّة ضخمة، عهد بتصبيرها في حُنوطه[4]، وكان

---

(1) كانت الزّوايا *Zawiya* مأوى لمن امتهنوا التّسوّل. وكان لكل مسكن كبير خدم يقوم على راحة وانضباط المقيمين فيه.

(2) يبدو أنها المدارس في الحي التّابع للمسجد الذي كان يرعاه المنصور.

Aljama كلمة إسبانية أصلها عربي من «الجامع» وكذلك «الجماعة» وتعني بالإسبانية الحيّ. (م)

(3) Conde, i. 519 – 20.

(4) سيرد شرح لهذه العادة الملفتة في كتاب لاحق.

يحملها حيث سار مع أكفانه، توقّعاً لحلول منيّته، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضّيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته، وكان يسأل الله تعالى أن يتوفّاه في طريق الجهاد، فكان كذلك. وكان متّسماً بصحّة باطنه، واعترافه بذنبه، وخوفه من ربّه، وكثرة جهاده،... وأعماله المجيدة وأخباره - رحمه الله تعالى - تحتمل مجلدات، فلنمسك العنان.. (وكان) إذا ذُكّر بالله ذكر، وإذا خُوِّف من عقاره ازدجر، ولم يزل متنزّهاً عن كل ما يفتتن به الملوك سوى الخمر، لكنّه أقلع عنها قبل موته بسنتين. وكان عدله في الخاصّة والعامة وبسطُ الحق على الأقرب فالأقرب من خاصّته وحاشيته أمراً مضروباً به المثل»[1].



(1) Makkari, ii. 220.

النص العربي من المقّري، ج 1، ص 409، بشيء من الضّبط ليتناسب مع التّرجمة.

الفصل الحادي عشر

قصة هشام الثّاني

سرعان ما اشتعلت العدواة القبليّة بين المُضَريين من جهة واليمانيين والنّصارى من جهة ثانية، بعد أن ظلّت خامدة لحوالي مئة عام في عهد الخليفة النّاصر عبد الرّحمن الثّالث، ومن خلفوه في الحكم، بعد وقت قصير من وفاة المنصور، الحاجب اليمني الذي عظم شأنه، وارتفاع يده الضّابطة عن عرش الأندلس.

وهكذا انقلبت الظّروف التي سادت في البدء رأساً على عقب.

انتفض اليمانيون والمولّدون في العام 886 على حكم الأمويين الذين تفصلهم عنهم عداوة قبلية ومذهبية. فالأمويون مُضَريون من السُّنّة. واستمرّت ثورة اليمانيين حتى اعتلى العرش أمير ينتسب إلى القبيلتين، فأذعنوا له على الفور. ولكن في سنة 1009، كان المُضَريون هم من ثاروا على حاكم من سلالتهم، هو آخر أمراء قُرطُبة من سلالة بني قريش، وهبَّ اليمانيون وأحفاد المولّدين في المقابل لحمايته وتأييده. ويُذكر بوضوح أن العرب المُضَريين هم من أزاحوا حفيد عبد الرّحمن الثّالث عن العرش، بسبب غيرتهم من اليمانيين. وهكذا نحن أمام مشهد فريد نجد فيه القبائل التي توارثت العداء تحافظ على ولائها لحاكم تجمعه بها صلة قُربى تعود إلى ثلاثة أجيال مضت، لأنّ أباه وجدّه أحسنا معاملتها، في حين أنكره أهله وفعلوا كل ما في وسعهم لقتله.

توفي المنصور في أغسطس 1002، وعندما بلغ الأمر إلى الخليفة استدعى عدداً من عامليه لينعي إليهم النّبأ، لكن حزنه عليه كان عظيماً فعجز عن أن ينبس بكلمة واحدة،

ووقف صامتاً، يحاول جاهداً أن ينقل إلى أهل قصره ووزرائه المصاب الحزين.

كان عبد الملك، أكبر أبناء المنصور في قُرطُبة عندما بلغه أمر وفاة أبيه، فعاد إلى مدينة سالم ليجد أن المنصور قد دُفن في قصره هناك. وبعد بضعة أيام، عاد إلى قُرطُبة، وارتدت القِيان، أو الجواري المغنيات، في حريم المنصور الأكياس الخشنة المنسوجة من شعر الخيل أو الجمال، بعد أن كن يرتدين الملابس المصنوعة من الحرير والدّيباج[1] التي نعمن بها في عهده.

وعامل الخليفة هشام عبد الملك المظفّر «على عادة أبيه، وخلع عليه، وكتب له السّجل بولاية الحجابة». ولكن خصيان القصر الصّقالبة ثاروا على الأمر و«اضطربوا، فقوّم (عبد الملك) المائل وأصلح الفاسد، وجرت الأمور على السّداد، وانشرحت الصّدور بما شرع فيه من عمارة البلاد، فكان أسعد مولود ولد في الأندلس»[2]. وجرى عبد الملك المظفّر أبو مروان «على سُنن أبيه في السّياسة والغزو، وكانت أيّامه أعياداً دامت مدّة سبع سنين وكانت تسمّى بالسّابع، تشبيهاً بسابع العروس، ولم يزل مثل اسمه مظفّراً إلى أن مات سنة تسع وتسعين وثلاثمئة في المحرّم، وقيل: سنة ثمان وتسعين»[3].

لسوء حظ هشام والأندلس، توفي عبد الملك شاباً، بعد واحدة من غزواته الظّافرة التي خاضها في مواجهة النّصارى، وتولى أخوه الأصغر عبد الرّحمن، الحجابة بعده.

---

(1) حداداً على المنصور، لبست الجواري «المسوح والأكسية بعد الوشي والحبر والخزّ»، كما جاء في المقّري (ج 3، ص 94). (م)

(2) يقول النّويري إنّ المعارضة لم تأتِ فقط من فتيان القصر، وإنما من أهل قرطبة عموماً، وإنّ الثّورة لم تهدأ إلا عندما خرج عبد الملك بنفسه على رأس حرسه وأنزل سيفه في المعترضين فذبح منهم أعداداً كبيرة. وعلينا أن نقرأ هذا في ضوء العداوة التي كان النّويري يكنها لبني أبي عامر ولكل ما يفعلونه.

(3) Makkari, ii. 221 – 2.

بما أنّ المقّري يقول إنّ المنصور توفي في عام 1002 وعبد الملك في عام 1008 أو 1007، فلا شك أن مدّة السّبع سنين هذه خاطئة. (المؤلفان)

النص العربي مقتبس من المقّري، ج1، ص 423. (م)

لكـن عبـد الرّحمن لم يكن قادراً على مواجهة العـداوة المتنامية التي يكنّها المُضَريون السُّنّة لسلالة بني عامر.

لقد كان السّـبب المباشـر للعصيـان الذي أدّى إلى سـقوط الخلافة فـي قُرطُبة، أنّ هشـاماً الذي لم يُرزق بولد سـمّى عبد الرّحمن الشّاب ولياً للعهد. ولنا أن نتخيّل مدى ما أثاره هذا الإعلان من نقمة لدى معارضي حكم بني عامر. لقد ظلّ الحكم في قُرطُبة لمئتين وخمسين عاماً في أيدي بني أُميّة القرشيين من أبناء مُضَر. أمّا الآن فالحكم يكاد أن يؤول بالوراثة إلى يمني من آل قحطان، وليس ذلك فحسـب، وإنّما إلى رجل ليس سليل نسب عربي أصيل[1].

ويورد المقّري نقلاً عن أحد كتاب تلك الأيام نصّ العهد الذي ولّى به هشام المؤيَّد عبد الرّحمن شنجول – لقد كان لقبه شنجول وهو تصغير لاسم شانجة (سانچو)، اسم جدِّه لأمه. وبعد تعداد صفاته وحميد خصاله التي تؤهّله لتولّي الخلافة من بعده، يقول الخليفـة في العهد الذي سـمّى فيه «المأمون أبي المُطرِّف عبـد الرّحمن بن المنصور» وليـاً لعهـده، «ومن كان المنصـور أباه، والمظفّر أخـاه، فلا غرو أن يبلغ من سـبل البرّ مـداه، ويحـوي من خلال الخيـر ما حواه؛ مع أنّ أمير المؤمنيـن – أيّده الله – بما طالع مـن مكنون العلم، ووعاه من مخزون الأثر، يـرى أن يكون وليّ عهده القحطاني الذي حدّث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة أنّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «لا تقوم السّاعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق النّاس بعصاه»»[2].

---

(1) كانت والدة عبد الرّحمن نصرانية بنت ملك يدعى شانجة. وقد نقل دوزي عن ابن الخطيب انّ «ملك الرّوم كان يخشى المنصور إلى درجة أنه رغب في أن يناسبه فأهداه ابنته. ولقد اصبحت الزّوجة الأثيرة لدى المنصور وتفوقت على كل الأخريات في التّقوى والصّلاح». (Dozy, *Re-cherches*, i. 209 – 10). يعتقد دوزي أنها كانت بنت سانچو غارثيّا Sancho Garcia ملك قشتالة، الذي كان المنصور قد عاهده على الصّلح عندما تزوج بابنته، في حوالي سنة 985، كما يقول دوزي. [سمّاه الكتاب العرب شانجة بن غارثيّا. (م)]

(2) Makkari, ii. 222 – 4

النص العربي مقتبس من المقّري، ج1، ص 425.

يقول دوزي إنّ نصّ العهد ورد في كتابات المقّري وابن بسّام وابن خلدون والنّويري، ولكن المثير للتّساؤل أنّ الحديث الذي أورده عن الرّسول يختلف عمّا أورده المقّري، حيث جاء على الشّكل التّالي:

«ولا تقوم السّاعة حتى يحمل رجل من قحطان صولجان» المُلك[1].

ويتفق دوزي والمقّري في أنّ تسمية عبد الرّحمن شنجول وليّاً للعهد هو الذي قاد إلى انهيار دولة العامريين، لكن المؤرّخين يوردان أفكاراً مختلفة عن أسباب الكراهية التي ووجّه بها وليّ العهد الجديد.

يقول المقّري إنه عندما سمّي عبد الرّحمن وليّاً للعهد، «نقم عليه أهل الدّولة (..) وكان أسرع النّاس كراهةً لذلك الأمويون والقرشيون، فغصّوا بأمره، وأسفوا من تحويل الأمر جملة من المُضَرية إلى اليمنية، فاجتمعوا لشأنهم، وتمشّت من بعض إلى بعض رجالاتهم، وأجمعوا أمرهم في غيبة من المذكور ببلاد الجلالقة في غزاة من صوائفه، ووثبوا بصاحب الشّرطة فقتلوه بمقعده من باب قصر الخلافة بقُرطُبة سنة تسع وتسعين وثلاثمئة، وخلعوا هشاماً المؤيّد وبايعوا» أحد أحفاد عبد الرّحمن الثّالث[2]. أمّا دوزي فيعزو انهيار دولة العامريين بصورة رئيسية إلى أنّ شنجول لم يكن يقدّر رجال الدّين بسبب أصله، ولأنه كان يكثر من شرب الخمرة وقيل إنه لم يكن ملتزماً بأمور الدّين[3].

أمّا كوندِه فيقول إنّ المُضَريين ثاروا عليه قبل الإعلان عن تسميته وليّاً للعهد.

«لم يكن لدى الملك هشام ابن يتولى الخلافة من بعده في ملكه، مع أنه لم يكن في سن متقدّمة تجعله يفقد الأمل في إنجاب ولد[4]. بادر الحاجب عبد الرّحمن من دون أن يضع في اعتباره هذا الأمر أو يحسب حساب أقرباء الملك، مندفعاً وراء غروره الأحمق

(1) *G. der M.*, ii. 166.

(2) Makkari, ii. 224 – 5

المقّري، ج 1، 425. يكمل المقّري بأنهم بايعوا « محمّد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين النّاصر لدين الله من أعقاب الخلفاء، ولقّبوه المهدي بالله». (م)

(3) *G. der M.*, ii. 164.

(4) كان هشام حينها في حوالي الثّالثة والأربعين من العمر.

فحسب، وواضعاً ثقته في تأييد سواد النّاس الذين أحبّوه وباركوه لإخلاصهم الأعمى لذكرى أبيه، واقترح وأقنع الملك بتسميته ولياً للعهد، على أن يبقى هذا الإعلان طيّ الكتمان إلى ما بعد عودته من أولى غزواته على النّصارى التي كان يأمل أن يعود منها ظافراً. ومع أنّ الحديث عن هذه الأمور كان يجري في السّر في قاعات القصر، فقد انكشف الأمر وأثار استياء وحقد عموم بني مروان، ولا سيّما أحد أبناء عمومة الملك هشام واسمه محمّد بن عبد الجبار بن عبد الرّحمن النّاصر، وهو شاب في مقتبل العمر، حميد الخصال، كان ينتظر أن تؤول إليه الخلافة طالما لم يكن للملك هشام أبناء»[1].

خرج شنجول في غزوته، ولم يمضِ وقت على مغادرته قُرطُبة حتى بلغه أن أعداءه استولوا عل القصر، واحتجزوا الخليفة هشام وخلعوه، وأزاحوه هو عن رتبة الحجابة. فأسرع عائداً أملاً في أن يؤدّي ظهوره إلى إنهاء العصيان لكنه وجد أنّ الأمور كانت قد خرجت تماماً عن سيطرته. ووقعت معركة شرسة ووقع، وقد أُصيب إصابة بالغة، في أيدي خصمه محمّد، الذي أمر بصلبه.

«تم الأمر في الحال، وانتهى عبد الرّحمن ابن المنصور المعظّم، وأخو عبد الملك المظفّر، مصلوباً على خشبة. ومع ذلك، لا يزال من يثق في سواد النّاس الجاحدين المتقلّبين... وهو الذي كان إلى أيام قليلة، محبوباً مباركاً من النّاس، بات في لحظة ملعوناً، فصودرت أملاكه ولم يعد اسمه يذكر إلا بعبارات الاحتقار، ولم يجرؤ صحبه على الظّهور في العلن خشية من حالة الاضطراب العامّة»[2].

هناك روايات أخرى عن مقتل شنجول لا نرى ضرورة لنقلها. ويقول النّويري إنّ نصرانياً يدعى الكونت ابن عومس Ibn Aumas [3] كان يرافقه في خروجه للحرب، وإن هذا الكونت أشار على شنجول عندما بلغته أخبار الثّورة عليه أن يحتمي لديه،

---

(1) Conde, i. 559 – 60.

(2) Conde, i. 561 – 2.

(3) يفترض غايانغوس أنّ النّاسخ ارتكب خطأ في نقل الاسم وأن الصّحيح هو ابن قومس Ibn Kumis). ويقول دوزي نقلاً عن ساندوڤال Sandoval إنه الكونت كاريون Carrion من أسرة غومث Gomez، أحد حلفائه من ناحية ليون. (*G. der M.*, ii. 171)

وورد في بعض المصادر العربية اسمه «ابن غومش». (م)

في مقاطعته، حتى تهدأ العاصفة. لكن شنجول رفض ذلك لثقته بحبّ أهل قُرطُبة له، فرافقه الكونت حتى دير يسمى دير شوس، حيث أسرهما رجال محمّد وقتلوهما. حُمل جثمان شنجول الى قُرطُبة حيث عُرض وصُلب على خشبة وبالقرب منه رئيس حرسه الذي أُمر بأن يصيح في النّاس قائلاً:

«هذا شنجول المأبون، لعنة الله عليه وعليّ!»[1].

يقول المقّري إنّ الخليفة محمّد الذي تلقّب بالمهدي بالله، بعد أن استتبّ له الأمر وأصبحت مقاليد الأمور في يديه، حجز هشام في قصره وأسبغ على نفسه لقب الخليفة والإمام. وكان أوّل ما فعله أن أسر وقتل كل من وقع تحت يده من القادة الموالين للعامريين. وأضاف النّويري أنه أحرق قصر الزّاهرة الذي بناه المنصور خارج قُرطُبة، وأمر بنهب وهدم منازل أنصار بني عامر الأثرياء وسلبهم فجمع منهم غنائم كبيرة[2].

وهكذا وبعد حوالي ثلاثة وثلاثين عاماً من العزلة الهادئة في ظلّ حكم حاجبيه اليمنيين المنصور وعبد الملك، وجد هشام تعيس الحظ نفسه فجأة في خطر، ليس بأن يفقد ملكه فحسب، وإنما كذلك حياته.

يخبرنا كونده أنّ واحداً من الحجّاب القائمين على خدمة هشام، ويدعى واضح العامري، هو الذي أنقذ حياته. فعندما صمّم المهدي على قتله، ثناه واضح عن ذلك بحجة أنّ قتل الخليفة لن يجدي نفعاً، وأنّه لكونه يعيش منعزلاً وفي حراسة شديدة، فلا خوف أن يؤذي مصالح من اغتصب منه الخلافة. وأقنع واضح المهدي بأنّ هشاماً يمكن أن يعيش بأمان ووعده بأن يوكله لعناية من هو جدير بالثّقة[3].

---

(1) Makkari, ii. 489 – 90.

وقيل إنه طيف برأسه ونودي عليه «هذا شنشول المأبون المخذول»، الذّهبي، «تاريخ الإسلام»، الجزء السّابع والعشرون، ص 389. (م)

(2) Makkari, ii. 225, 488.

(3) يقول النّويري إنّ واضحاً كان عبداً أعتقه المنصور وكان في ذاك الوقت حاكماً لمدينة سالم. ويبدو من المستحيل التّوفيق بين مختلف الرّوايات، ولكن النّقاط الأساسية أنّ حياة هشام كانت مصانة في تلك الفترة، وأن واضحاً، وإن كان يظهر للمهدي بعض التّأييد في العلن، فقد

جيء عندها برجل يشبه هشام في هيئته، وفي مثل عمره وطوله، فخُنِقَ ووُضِع في سرير الملك، وقيل للنّاس إنّ هشاماً أصيب بمرض عُضال، وإنه أمر بأن يولّى محمّد المهدي بالله ولياً لعهده. ثم دُفن هشام المزعوم في احتفال مَهيب في الباحة الأولى للقصر، واستتبّ المُلك للمهدي بالله وحده[1].

ويورد دوزي الوقائع عينها، لكنه يقول إنّ من قام باستبدال هشام ليس واضحاً أو أصدقاء هشام، وإنما المهدي الذي خشي أن يحتشد حوله المؤيّدون، ولذلك صمّم ليس على قتله وإنّما على أن يُزعم أنه مات. لم يكن بديل هشام إنساناً بائساً ضُرب على رأسه لهذا الغرض، وإنما كان نصرانياً يشبهه وقد مات للتوّ؛ أمّا هشام الحقيقي فبقي سجين قصر أحد وزراء المهدي[2].

عمّت الفوضى مدينة قُرطُبة، وظهر في الميدان طامح آخر لتولّي الخلافة هو سليمان أحد أحفاد عبد الرّحمن الثّالث. ونهب سليمان والمهدي والبربر قُرطُبة، وأعملوا سيوفهم في أهلها، واجتاحوا القرى والنّواحي المحيطة بها. ولم يمضِ وقت طويل حتى قُتِلَ المهدي، وبعد ذلك بثلاث سنوات لقي سليمان المصير نفسه على أيدي أحد قادته الذي قُتل بدوره بأيدي وصفاء صقالبة ممّن خدموا سابقاً في بلاط بني أُميّة.

واستمرّت حالة الفوضى سنوات عدة تعرّضت خلالها قُرطُبة للنّهب أكثر من مرّة، بما يستتبع ذلك من قتل واغتصاب وسبي وتدمير، وكان الشّيعة على الدّوام أول ضحايا ثورات العنف هذه. ودُمّرت مدينة الزّهراء، الحاضرة البديعة التي بناها عبد الرّحمن الثّالث بالقرب من قُرطُبة، ولقيت مدينة الزّاهرة القريبة منها المصير نفسه، وهي التي بنى فيها المنصور وأنصاره الأثرياء قصوراً وبيوتاً ريفية. ويذكر المقّري شاعراً شهيراً

كان مخلصاً لهشام ويعرف مكان اختبائه، وقد اغتنم أول فرصة مناسبة لإخراجه (النويري في المقّري: Makkari, ii. 491, 494).

(1) Conde, i. 563 – 4.

(2) *G. der M.*, ii. 176.

صـادف وجوده في قُرطُبة عندما تعرّضت للنّهب: لقد قتله البربر، وبعد أن ظلّ جثمانه لثلاثة أيام ملقى في الباحة المفتوحة لمنزله، ووري الثّرى في السّـر دون إقامة مراسـم الدّفن. ويضيف كوندِه أنّ الجثة ألقيت في القبر دون أن تُغسل أو تُلفّ في كفن أبيض، وهي أكبر إهانة يمكن أن تُلحق بالميت في أعين المسلمين.

ظلّ هشـام طوال هذه الفترة سـالماً علـى ما يبدو في حجزه. وفـي إحدى المرات، في سـنة 1010، أخرجه واضح وأجلسـه على العرش وألبسـه الشّـارات الملكية، فما إن علـم المهـدي بمـا يجري حتى أسـرع إلى غرفة العـرش وحـاول أن يجلس بجوار الخليفة، لكنه سُحب خارجاً وقُتل. وبدا أنّ واضحاً كان قادراً لبعض الوقت على إبقاء هشـام ممسكاً بزمام الأمور، ولكن في سـنة 1013، دخل سليمان وحلفاؤه البربر على قُرطُبة، وكما يقول المقّري «واسـتتبع ذلك سفكٌ للدّماء، وسلب لمنازل النّاس وهتك لحرماتها، ولحق بيوت قُرطُبة معرَّة في نسـائهم وأبنائهـم، وانقلبت حال أثرياؤهم من الغنى إلى الفقر، وهُدمت مبانيهم وسوّيت بالأرض».

لا نجد في كل سـجلات تاريخ إسـپانيا المسـلمة أيّة حقبة سـلك فيها اليمانيون سـلوكاً يقتـرب من هذه الوحشـية التـي تعامل بها العسـكر الذين يقودهم هؤلاء الأمـراء والأعيان المُضَريون. كما لم تظهر وحشيتهم هذه في مناسبة واحدة فحسب، فقُرطُبة تعرضت للنّهب والسّـلب على أيدي كل طامع في العرش، كل بدوره، وكان يرافق ذلك على الدّوام اعمال الاغتصاب والسّبي والقتل، مع تجاهل تام لكل ما يمتّ بصلة لقواعد السّلوك العسكرية[1].

ولـم يُعرف ما آل إليه مصير هشـام المؤيَّد. ففي سـنة 1016 هُزم سـليمان المستعين بالله على يد علي بن حمود الذي أسـره. وعندما سـأله علي عما فعله بهشام، أجاب أنّ المؤيـد مـات، وعندها أمر علي بنبـش القبر وفحص الجثة. فـكان ذلك ولم يجد على جثتـه آثـار عنف[2]. وما من شـك في أن الجثة التـي فُحصت كانت للبديـل الذي دُفن

(1) See Dozy, *G. der M.*, ii. 174 ff.; Makkari, ii. 225 ff.; and An – Nuwairi's account, *ib*. pp. 491 ff.

(2) An – Nuwairi in Makkari, ii. 497.

على أنه هشـام في سـنة 1009. وبما أنه كان قد مرّ على دفنه سبع سنوات، فلم يكن من الممكن التّعرف على صاحبها الحقيقي.

ويـورد كونـدِه رواية مختلفة قليلاً عـن هذه الحادثة، فيقول إنّ عليّاً بن حمود سـأل والد سـليمان عما فعله بهشـام، وإن الأخير أنكر معرفته بما حلّ به. فقتل علي سليمان وأبـاه وأخـاه، وأمر بالبحث عن هشـام في كل أنحـاء قُرطُبة، «فلم تبـقَ غرفة أو قبّة في قصور المدينة وبيوتها إلا وفُتّشت»، ولكن لم يُعثر لهشام على أثر، فأُعلنت وفاته على النّاس، «فراح العامة يتناقلون الحكايات والأقاويل»[1].

ويروي دوزي قصّة مصير هشام المؤيّد على النّحو التّالي:

هـرب المؤيـد مـن قُرطُبة بعد أن دخلها سـليمان وهام في بلاد الشّـرق ووصل إلى القـدس وتعلّـم صنعة الحُصر وأقام فيها سـنين، ولـم يرجع إلى الأندلس إلا في سـنة 1033، فشوهد في مالقة والمَريّة، وفي سنة 1035 ذهب إلى قلعة رباح، وبقي فيها[2].

يقول دوزي إن عامة النّاس صدّقوا هذه القصّة، وإن لم يكن لها (في رأيه) أسـاس. والحقيقة، كما يقول، أنه كان في قلعة رباح في ذلك الوقت صانع للحُصر يدعى خَلَف، شديد الشّبيه بهشام. ومن كثرة ما سمع الرّجل عن شدّة الشّبه بينهما، صار يقول للنّاس إنـه الخليفـة، فصدّقه أبناء مدينته لا بل ثاروا على واليهم إسـماعيل بن ذي النّون تأييداً لـه. ويجـدر القول إنّ خَلَفـاً هذا لم يكن من أهـل قلعة رباح، وهو ما أسـهم كما يقول دوزي، فـي أن يتقبّله أهل المدينة على أنّه هشـام الغائـب، الذي اختفى أثره. ولم يُذكر كم من الوقت عاش في المدينة، ولا من أين أتى.

يمكننا أن نتعامل مع قصة هيمان هشام في بلاد الشّرق، في آسيا، دون تردّد على أنها خرافة، ولكن قصة هروبه من قُرطُبة خلال فترة القلاقل والاضطرابات التي اسـتمرّت لفترة طويلة ولجوئه إلى قلعة رباح، ليسـت بعيدة الاحتمال. ففي هذ المدينة ونواحيها

---

(1) Conde, i. 592, 593.

لكن دوزي يروي القصة بطريقة مختلفة نقلا عن ابن حيّان (*G. der M.*, ii. 197.).

(2) *G. der M.*, ii. 197, 242 – 5.

استقرّ قوم من العرب من قبيلة جُذام الذين كانوا حلفاء مقرّبين من جهة النّسب من قبيلة مَعافِر التي كانت ينتسب إليها المنصور بن أبي عامر. وبالتّالي فقد كانوا راغبين في تقديم الملجأ للحاكم الذي كان سبب سقوطه المباشر حبّه لبني عامر وتفويض أمر ملكه لهم. ويتفق جميع المؤرّخين الذين تمكّنا من مراجعة أعمالهم، على نقل روايات تقول إنه كان مختبئاً في قلعة رباح.

وتبدو قصّة صانع الحُصر في الظّاهر غير قابلة للتّصديق. ويجدر بنا أن نتذكر أنّ هشاماً عاش منذ صغره في عزلة تامة، فلم يظهر في العلن إلا نادراً، وأن السّواد الأعظم من سكان قُرطُبة أنفسهم ما كانوا يعرفون هيئته أوسماته[1]. فكيف إذن يمكن لسكان حضرة قلعة رباح وفلاحيها أن يتعرّفوا على الخليفة الذي لم يروه في حياتهم من قبل، بعد وصوله غير المتوقع إلى مدينتهم؟ ولا يوجد ما يشير إلى المكان الذي جاء منه صانع الحُصر الغريب هذا، أو من كان أول من انتبه إلى الشّبه الكبير بينه وبين الخليفة الذي لم تكن قسمات وجهه معروفة خارج قُرطُبة. ولا يقدّم دوزي تفسيراً يشرح السّبب الذي جعل مواطنيه في قلعة رباح يصدّقون أنه هشام، فيما عدا أنه لم يكن من سكانها. وكيف يمكن لصانع حُصر متواضع، أن يستميل سكان مدينة بأكملها، بمجرّد الاعتماد على قوة الإصرار والتّوكيد، بحيث يثورون على واليهم من أجل نصرته؟ وحده الانطلاق من فرضية أنّ صانع الحُصر في قلعة رباح كان حقاً الخليفة المفقود، من شأنه أن يجعل القصّة قابلة للتّصديق في الحدّ الأدنى.

ولكن قبل أن نكمل هذه القصة، علينا أن نخوض في تاريخ العائلة التي قدّمت له الملجأ بعد طرده من قلعة رباح عندما حاصر الوالي ابن ذي النّون المدينة، أو عندما اختار ربما، أن يغادر لكي يجنّب أنصاره ويلات حصار نهايته محتومة.

لقد كان لبني عَبّاد صلة وثيقة بالسّنوات الأخيرة من حياة هشام الثّاني سيئ الحظ، وقد أصبحوا أسياداً على أكثر من نصف أراضي إسپانيا المسلمة بعد سقوط الخلافة في قُرطُبة، وجعلوا من عاصمتهم إشبيلية مركزاً حضارياً في القرن الحادي عشر، في مثل عظمة قُرطُبة في القرن العاشر.

---

(1) Makkari, ii. 27.

إنّ أول من وصلت إلينا أخباره من تلك العائلة - باستثناء جدّهم الأكبر عطّاف الذي دخل إلى الأندلس في سنة 741 - هو قريش[1] الذي، كما يقول ابن الخطيب، كان قائد الفرقة الوسطى في حرس هشام قبل أن يُعَيّنه الخليفة إماماً على مسجد إشبيلية الكبير. ثم أصبح ابنه إسماعيل في عهد هشام قاضي إشبيلية وإمامها[2].

كان بنو عَبّاد يفتخرون بانتسابهم إلى حِمْيَر، مثل باقي الأسر المنتسبة إلى قبيلة لَخْم. وإلى جانب نَسَبه العريق، كان إسماعيل يتمتع بمزايا عديدة رفعت من شأنه ومقامه مقارنة مع أقرانه. فقد كان واسع الثّراء واستطاع الحفاظ على مكانته وسلطاته في الأندلس قبل وبعد الاضطرابات والفتن التي أعقبت خلع هشام عن الإمامة في سنة 1009، وعاش حياة ترف وأبّهة شبيهة بحياة الملوك. لم يكن بين الخاصّة في إسبانيا رجل في مثل مكانته هذه. كان يملك قطعاناً كبيرة من الماشية من كل نوع، ولديه حاشية كبيرة من الخدم، وكان سمحاً واسع البصيرة جواداً. كان منزله ملتجأ للبارزين من الفرسان المنفيين من قُرطُبة خلال الفتن[3]، وجعلته صراحته وتسامحه، بالإضافة إلى حكمته ودهائه، وما ظهر من صفاء سريرته، يتملّك قلوب الجميع ممّا أعانه على تحقيق مطامحه في تقوية منزلته وإعلاء مكانته[4].

عندما توفي إسماعيل خلفه ابنه محمّد (أبو القاسم) الذي سار على خطى أبيه فأبقى منزله مفتوحاً لمن واجهوا صعوبات في قُرطُبة، ومن بين من وفّر لهم الرّعاية اللغوي أبو بكر الزُّبيدي، الذي عيّنه الحَكَم أستاذاً لهشام عندما كان صغيراً. وعيّن القاسم بن حمود، وهو أخو علي بن حمود الذي قتل سليمان انتقاماً منه على قتله المزعوم

(1) الاسم هو قريش Karis, Qarais. فالاسم الكامل لأبي القاسم محمّد بن عَبّاد قاضي إشبيلية الذي ينتسب إليه هو محمّد بن إسماعيل بن قريش بن عَبّاد بن عُمَر بن أسلم بن عمرو بن عطّاف بن نعيم اللّخمي (1023 - 1042 م) كما يرد في تاريخ ابن خلدون الجزء الثّاني. (م)

(2) Makkari, ii. 250, 503; cf. Ibn Khaldun in Makkari, i. App. xxxii. Dozy, *G. der M.*, ii 237 – 8.

(3) يشار هنا إلى الفتن التي اندلعت مع خلع الخليفة هشام في سنة 1009.

(4) يبدو أنّ الكاتب الذي نقل عنه كونده (Conde, ii. 7.) وهو سُنّي كما هو واضح، وجد صعوبة في التّوفيق بين إعجابه بخصال إسماعيل ومزاياه، وعصبيته التي تجعله يكره الإشادة بيمني.

لهشام، محمّد بن عَبّاد قاضياً على إشبيلية، وعُرفاناً له على صنيعه هذا، استقبل محمّد بن عَبّاد القاسم في قصره عندما اضطر للهرب من قُرطُبة. وخلال حكم يحيى بن علي بن حمّود، ابن أخي القاسم في قُرطُبة، بقي القاسم في إشبيلية إلى حيث لحق به عبيده السّود، وكذلك كل القادة البربر والأندلسيين المعارضين لابن أخيه. كان ذلك في سنة 1019، وبقي القاسم في إشبيلية حتى سنة 1023 عندما اضطرّ يحيى إلى مغادرة قُرطُبة، فعاد إليها عمّه[1].

استمرّ القتال بين القاسم وابن أخيه بعد ذلك للظّفر بقُرطُبة، ثم ظهر طامح آخر في إعادة الخلافة للأمويين. لكن مساعيه لم تنجح وأمر القاسم بإجراء بحث دقيق في كل الأنحاء التي يملكها عن أيّ من أفراد سلالة بني أُميّة الذين اضطرّوا خوفاً من بطشه إلى الهروب إلى الرّيف والاحتماء في مزراع وبيوت ريفيّة وتخفّوا تحت أسماء مستعارة[2].

بوسعنا الآن أن نعود لاستكمال قصّة هشام الثّاني كما رواها ابن حيّان.

«من أكثر القصص شيوعاً عن أبي القاسم (محمّد بن عَبّاد) أنه التفت إلى أتباع بني مروان ممّن بقوا على قيد الحياة، ثم بلغته رسالة عن ذاك الرّجل الذي يُقال إنه يشبه هشام بن الحَكَم في هيئته، والذي لم يعد يخفي قصة هربه وإفلاته من سليمان الذي طغا عليه، واختبائه سنيناً طويلة في الشّرق، وإنه قد عاد الآن إلى إسبانيا. ووجدت هذه القصة طريقها إلى قلوب النّاس، فقد جرى الحديث عن هذا الرّجل (هشام) من قبل وأحاطت بوفاته الشّكوك، لأنّ قاتله سليمان لم يُخرج جثمانه على النّاس، كما جرت العادة بين أتباع الملوك، عندما يخلعونهم عن العرش. وتفسير هذا إمّا أنّ سليمان كان ينظر بازدراء إلى أولئك الذين كان قد سيطر على أشرافهم بالقوة، أو أنّ خطأً حصل بمشيئة الله (أيّ أن شخصاً آخر قُتل بدلاً من هشام، وأنه هرب، كما كتب دوزي في ملاحظته).. أعلن بعض من أتباعه أنّ هشاماً قد مات، ولكن سرت في الوقت نفسه

(1) يحوي متحف إشبيلية مرثية أحد ضباط القاسم.

(2) Makkari, ii. 238 – 9. Dozy, *Abbadites*, ii. 32, *G. der M.*, ii. 200; Conde, ii. 7.

أقاويـل عن هـذه الواقعة بعيدة كل البعد عـن الحقيقة، تداولتها النّسـاء والخصيان في قصـر قُرطُبة. لقـد أقنعت هذه (الحكايـات) بعض كبار الوصفـاء القائمين على خدمة المروانيين والذين أكّدوا أنه هرب سالماً وقرّروا أنه لا يزال حيّاً....

وواصلت قصة شـبيه هشـام انتشارها في قلوب النّاس كما تنتشـر النّار في الهشيم؛ تفكّـر ابـن عَبّاد في هذه الأمور التـي قيلت عن هذا الرّجل، وبناء عليـه دبّر خطّة: فأقلّ ما يمكن أن يحصل له أنه سـيتمكّن من التّخلّـص من حُكم ابن حمود البغيض وحضّ الرّجال على إعلان الثّورة عليه. وهكذا أعلن أنّ هشاماً جاءه؛ وجمع كل النّساء الباقيات فـي إشـبيلية ممّن كن في القصـر أو ضمن الحريـم، واللواتي تعرّفن علـى ذاك الرّجل وشـهدن بأنـه كان هشـاماً ذاته؛ فقـد ألمح ابن عَبّاد لمـن هن محلّ ثقة عنـده بما ينبغي عليهن قوله عنه (هشـام)؛ وهكذا تم الأمـر، ولم تكن بهن رغبة لمعارضته، لا بل على العكس كنّ راغبات في إرضائه. وهكذا أوجد ابن عَبّاد سـبباً للحرب التي كان يسـعى إلى تأجيجها على ابن حمود. وأخفى هشـاماً ذاك عن أعين النّاس لكنه بعث خطابات إلى الأشـراف وكبار الأمراء يخبرهم بوجـوده ويحضّهم على بذل كل غالٍ ونفيس من أجـل الخليفة المختفي عن الأنظار، من خلال تحريـر العبيد وإطعام اليتامى والاعداد في السّر لخوض الحرب باسمه. هبّ كثيرون في إسپانيا بلا تردّد من أجل تحقيق هذه الغاية: لقد رغب أهل قُرطُبة في تعيينه إماماً على كل أهالي (إسـپانيا) وأرسـلوا رسـلاً للتّأكـد ما إذا كان ذاك الرّجل حقاً هشـام؛ ثم أصدرت شـهادات ثقة بشـأنه، فنشـر ابن جِهْوَر وآخرون شهادات في هذه المسألة مع أنهم كانوا يعرفون الحقيقة حق معرفة... ولكن ابن جهور سرعان ما تراجع واعترف بأنه أدلى بشهادة زور، وهو ما ظلّ عليه لما تبقّى من عمره»[1].

يقول دوزي الذي ينقل هذه القصة عن ابن حيّان وابن بسّـام وابن الأثير والنّويري، إنّ ابـن حيّـان والمـؤرّخ ابـن حَزم، لطالمـا عارضا هـذه الرّواية بوصفهـا خدعة باطلة شكلاً ومضموناً، «مع أنه كان سيكون من مصلحتهم الاعتراف بذاك المسمّى هشاماً».

(1) Dozy, *Abbadites*, i. 229 – 32; iii. 82 – 3.

ويضيف بأنّ أبا الحَزم ابن جهور (والد الكاتب) الذي كان حينها «رئيس جمهورية قُرطُبة»[1] لم تنطلِ عليه الخدعة لكنه «رأى استحالة معارضة رغبة الأهالي؛ فقد كان مدركاً لأهمية توحيد صفوف العرب والصّقالبة تحت راية حاكم واحد، وخشي دخول البربر إلى قُرطُبة، فلم يعارض رغبة أهل مدينته ووافق على إسباغ مظاهر الخلافة على هشام الثّاني من جديد»[2].

أمّا رواية المقّري فجاءت على الشّكل التّالي:

«عندما لم يعد هناك [في سنة 1031] أحد من بني أُميّة يصلح لأن يتولّى المُلك، اجتمع العلماء وعلية القوم من أهل قُرطُبة واتفقوا على أن يولّوا الأمر لأبي الحَزم جهور بن محمّد الذي اشتُهر بالحنكة ورجاحة العقل، وكان قد تولّى الوزارة في عهد بني أُميّة في عهد بني عامر [المنصور وابنه]. لم يتخذ ابن جهور في البداية لقباً آخر غير لقب وزير بني أُميّة. لا بل إنه ذهب إلى أن يزعم أنّ هشاماً المؤيَّد بالله كان لا يزال حياً، وذلك على ما يبدو من أجل كسب طاعة ملوك الطّوائف في الأندلس؛ وأمر بأن تقام الصّلاة باسمه على جميع منابر المساجد، وكتب إلى القاضي ابن عَبّاد ملك إشبيلية، وإلى المنذر ملك سَرَقُسطة، وابن ذي النّون ملك طُليطلة، يدعوهم إلى مبايعة هشام، والاعتراف بقُرطُبة عاصمةً للأندلس؛ فلم يستجب لطلبه أيٌّ منهم، وعليه، ولمّا أدرك أنّ خطته لم تسفر عن النّتيجة المرجوّة، أعلن أنّ هشاماً مات، واستولى على سلطان المُلك»[3].

وعن مزايا الحكم في عهد ابن جهور، يقول الحميدي[4] الذي كتب في حوالي سنة 1068، إن ما يجدر ذكره أنّ «ابن جهور، وإن تولّى أمر الحكم وأسدل الأمان والسّتر

(1) وتسمّى «طائفة قرطبة» وتعرف كذلك بـ «الدّولة الجهورية» نسبة إلى بني جهور. (م)

(2) *Ger. der M.*, ii. 242 – 5.

الجزء الثّاني من مجموعة المقتطفات التي جمعها دوزي عن بني عَبّاد والتي تتضمّن مقاطع من الأثير والنّويري وغيرهما، غير مترجم.

(3) Makkari, ii. 249.

(4) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، للحميدي، 1: 9 – 10. (م)

علـى العاصمة [قُرطُبة]، ومع أنـه كان يدير الحكم بتدبير السّـلطان الحاكم بأمره، فلم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً، ولم يسبغ على نفسه مظاهر الخلافة، بل دبّرها تدبيراً لم يُسبَق إليه، وجعل نفسـه ممسكاً للموضع إلى أن يجيء مسـتحقّ يُتفق عليه فيسلّم إليه كل أمـور الحكم والسّـلطة. وهكذا أمر بأن تبقى قصـور بني أُميّة على حالها كما كانت في عهد حكّامها السّـابقين، ورتّب البوّابين والحشـم على أبواب تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدّولة، ولم يتحوّل من داره إليها».

وبعـد الحديـث عـن حِكمة ابـن جهور وبراعتـه في إدارة شـؤون الحكـم، يضيف الحميدي هذه الفقرة، التي تقول:

«في هذه الأثناء، تمكّن هشـام المعتدّ بالله [يُسـمّى كذلك هشام الثّالث] الذي كان معتقـلاً، مـن الهرب ولحـق بابن هود فـي لارِدة، فأقام هنالك إلى أن مات سـنة سـبع وعشـرين وأربعمئـة (1035 م)، ولا عقـب له، وانقطعـت دولة بني مـروان جملة، إلا أنّ أهـل إشـبيلية ومن كان على رأيهم مـن أهل تلك البلاد، لما ضيّـق عليهم يحيى بن علي الحسـني الحصار، وخافوا أمره، أظهروا أنّ هشاماً ابن الحَكَم المؤيّد حيّ، وأنهم ظفـروا بـه فبايعوه، وأظهروا دعوتـه، وتبعهم أكثر أهل الأندلـس. ولكن ذلك كله كان من تدبير ابن عَبّاد ملك إشبيلية، كما بيّنا في موضع آخر. وبقي الأمر كذلك إلى حدود الخمسين وأربع مئة (1058 م)، فإنّ أهل [إشبيلية] أنفسهم الذين بايعوا هشام، أظهروا موت المؤيّد الذي ذكروا أنه وصل إليهم، وحصل عندهم، وانقطعت الخُطبة لبني أُميّة على منابر المساجد من جميع أقطار الأندلس من حينئذ وإلى الآن».[1]

لقـد نقلنـا الرّوايات المختلفـة التي تتحدّث عن ظهور هشـام بعـد اختفائه، وربما بالتّفصيل المملّ، لأننا أردنا أن نضع أمام القارىء كل المواد التي يمكن بالاستناد إليها تكوين رأي.

النقطة الأولى الجديرة بالملاحظة أنّ ابن عَبّاد الذي أظهر هشاماً للنّاس، كان يمنياً، وأن ابن جهور، الذي كان – كما يقول ابن حيّان – أول من اعترف به ثم سحب اعترافه،

(1) Makkari, ii. App. pp. xvi. – xvii.

كان وزيراً في خدمة الحاجب المنصور؛ في حين أنّ كل المؤرّخين الذين تم الاستناد إليهم ينتمون إلى المُضَريين أو السُّنّة. كان هشام بالكاد يعدّ أموياً في نظرهم، فقد كان حضور حاجبه العظيم طاغياً عليه، وكان ارتباطه بسلالة حاجبه ارتباطاً وثيقاً إلى درجة أن سقوط دولة بني عامر كان من نتيجته أن خُلع عن الخلافة بلا انتظار.

يشدّد دوزي على واقع أنّ ابن حيّان والمؤرّخ ابن حَزم رفضا الاعتراف بهشام المزعوم، مع أنهما كانا معنيين أن يفعلا. ونحن لا نرى كيف يمكن لذلك أن يكون من مصلحتهما، كما أنه بالتّأكيد سيكون مخالفاً لمبادئهما أن يقرّا بإمامة رجل وهو، وإن كان من العائلة الحاكمة، كان على ارتباط وثيق باليمنيين خلال فترة حكمه، كما يعود الفضل في ظهوره مجدّداً إلى تلك السّلالة الممقوتة. عندما نتذكّر أنّ المُضَريين تعمّدوا إغراق البلاد في الفوضى بسبب بُغضهم لحُكم اليمنيين الذين بلغت إسبانيا المسلمة في عهدهم أعلى مراتب المجد، سندرك كم كان الشّعور بالوحدة ضعيفاً، وكم كانت الغيرة الوطنية ضئيلة مقارنة مع العصبيّة القبلية، وبالتّالي كم كان يستحيل على الكتّاب السُّنّة مثل ابن حيّان والحميدي والمقّري أن يوردوا روايات خالية من التّحيّز وخصوصاً لأحداثٍ عاصروها.

يُعتبَر ابن حيّان الذي عاصر كل الفتن والاضطرابات في القرن الحادي عشر (وُلد في عام 987 أو 988، وتوفي في عام 1076)، مرجعاً موثوقاً وصاحب الكلمة الأخيرة بالنّسبة لأحداث عصره؛ ولكن فيما يتعلّق بمضمون ما كتبه، فلا شك أنه اعتمد على معلومات حصل عليها بطريقة غير مباشرة من مصادر أخرى بالنّسبة لكل ما كتبه عن بني عَبّاد وهشام بعد اختفاء الأخير في سنة 1013، وهناك بعض الشّك في أنه لم يكن شديد الدّقة في التّحقّق من صحة التّقارير التي كانت تصله، نظراً لأنها تتضمّن تشويهاً لصورة الرّجال والأسر التي كان يشعر بكراهية تجاهها. أمّا بالنّسبة للحميدي، فإنّ ما نقله بشأن إعلان ابن جهور عن وفاة هشام بعد أن إعلن مبايعته له إثر رفض باقي ملوك الطّوائف مجاراته في الدّعوة له، يتناقض ليس مع الوقائع فحسب (لأننا وكما سنرى، فقد لقيت دعوته لمبايعة هشام قبولاً واسعاً) ولكن مع ما نقله الحميدي نفسه من أنّ

الصّلاة ظلت تقام باسم هشام في المساجد حتى سنة 1058. وقد توفّي ابن جهور نفسه في سنة 1043، وخلفه ابنه ابو الوليد، «وتولّى الأمر بعده على هذا التّدبير في شؤون الحكم، إلى إن مات»[1].

أمّا المؤرّخ الآخر الذي يعتبر دوزي رفضه للاعتراف بهشام نهائياً فهو ابن حَزم. ويقول عنه السّنيور پونس: «لو أن رجلاً في مثل وقار ابن حَزم اعترف بالمدّعي، لكن حذا حذوه العديد من مؤيّدي الخلفاء الشّرعيين، وكان يمكن لذلك الفريق أن يعزّز قوته من خلال التّحالف مع ابن عَبّاد؛ ولكن ابن حَزم كان على قدر كبير من النّزاهة لكي يربط اسمه بتلك الخديعة، حتى وإن كانت ستعود عليه وعلى قومه بالفائدة».

ولكن بني حَزم، وكما يقول الكاتب نفسه، كانوا من عمّال بني أُميّة، وهذا الرّجل نفسه كان وزيراً في عهد عبد الرّحمن الخامس، سادس المطالبين بعرش قُرطُبة والذي ظهر بين سنتي 1009 و1024. لقد كانت عائلة بني حَزم تلك قُوطيّة النّسب وكان جدّ المؤرّخ أول من اعتنق الإسلام فيهم. كان والده أبو الحَزم بن جهور كما ذكرنا سابقاً وزيراً للمنصور وابنه عبد الملك المظفّر، وبالتّالي كانت مصلحته، إن لم يكن نسبه، تفترض به أن يكون حليفاً لليمنيين. ولكن ابن حَزم نفسه لم يكن يقبل مثل هذا الانتماء، بعد أن تبرّأ من عائلته، وبوصفه عاملاً لدى بني أُميّة ووزيراً لدى أحد الطّامحين إلى الخلافة، فمن الصّعب أن يكون لديه استعدادٌ للاعتراف بالخليفة الذي كان ظهوره سيخدم إلى حدّ كبير ويرجّح كفة ملك إشبيلية اليمني. أمّا بشأن مكانته وتبجيله الذي يعوّل عليه السّنيور پونس، فربما يكفي القول إنّ أهل قُرطُبة خلعوا سيده عبد الرّحمن الخامس (المستظهر بالله) لأنه «أنشغل عن أمور الحكم وكان يقضي وقته مع العلماء والشّعراء، مندفعاً وراء أهوائه الوضيعة». وأبو محمّد ابن حَزم ممّن خُصّوا بالذّكر من بين هؤلاء الشّعراء والأدباء، و«لقد اشتُهر بالرّد على العلماء» من مختلف المذاهب الدّينية بطريقة ساخرة مثيرة للجدل دون أن يتردّد في تسفيه آرائهم. ولقد أكسبته آراؤه

(1) Al – Homaidi in Makkari, ii. App. pp. xvi. – xvii.

الجدلية في نهاية الأمر عداوة الفقهاء المتزمّتين ما اضطرّه إلى الهرب للنّجاة بحياته[1].

وهكذا نرى أنّ شهادات ابن حيّان وابن حَزم، الرّجلين الوحيدين اللذان ذكر اسماهما بوصفهما اعترضا على اعتبار الرّجل الذي احتمى بقلعة رباح هو هشام المفقود، ليست جديرة بالثّقة في قضية تتعلّق بحسن نيّة أعدائهما، أي اليمنيين. من جهة ثانية، لدينا «الشهادة الثّابتة» لرُسل قُرطُبة التي نقلها ابن حيّان، ونساء حريمه اللواتي تعرّفن عليه، واعتراف حكّام كافة الدّول اليمنية في إسپانيا به إماماً عليهم.

ويُضعف ابن حيّان شهادة النّساء من خلال تأكيده أنّ ابن عَبّاد أخبرهن بما ينبغي لهنّ قوله، ولكن كيف يمكن تفسير وجود هؤلاء النّساء في إشبيلية بعد عشرين عاماً من اختفاء الهشام من قُرطُبة؟ ولا يشير ابن حيّان إلى أنهن دجّالات، أحضرهن ابن عَبّاد لتأدية دور محدّد: لا بل على العكس فهو يقول إن ابن عَبّاد «جمع كل النّساء الباقيات في إشبيلية ممن كن في القصر أو ضمن الحريم». التّفسير الوحيد لذلك أن هؤلاء النّساء، عندما فرّ هشام من قُرطُبة، هربن كذلك - بلا شك في حماية بعض من الموالين لبني عامر - ولجأن إلى المدينة في كنف الرّجل المعروف بولائه لمسعى الخليفة.

وقد تكون هناك علاقة أخرى أوثق صلة بين بني عَبّاد أصحاب إشبيلية وحفيد الخليفة عبد الرّحمن الثّالث المولّد. فبنو عَبّاد من قبيلة لَخْم، ويبدو (راجع الصّفحة 158 طبعة الأصل) أنّ جدهم الأول كان بدرجة أو بأخرى على صلة قرابة باليمني الزّوج الثّاني للأميرة سارة. لقد كان عبد الرّحمن الثّالث، كما نعرف، على صلة قرابة بني إسحاق الذين كان أبوهم النّصراني سليل إسحاق ابن سارة، وبالتّالي قد تكون هناك صلات قربى ونسب حقيقية بين هشام من خلال أمّ جدته النّصرانية ومحمّد بن عَبّاد[2]. وكان الانتساب للأميرة سارة، وكما أشرنا في السّابق، ذا قيمة كبيرة، سواء من

---

(1) على الرّغم من أنه نبذ عائلة أبيه وأنكر أي علاقة بهم، فقد التجأ عندما وجد نفسه في حال الخطر واحتمى في جبل مونتيليخم Montelixam في لبلة Niebla، حيث عاش أجداده النّصارى (Makkari, ii. 242).

(2) إنّ عدد الأجيال ما بين الأسلاف والفرد المعني لم يكن ذات أهمية بالنّسبة للعرب الذين اعتادوا على تتبع النّسب إلى أصل العائلة في اليمن.

زوجها المسلم الأول أو الثاني، بحيث أنّ ابن القُوطيّة حمل الاسم مثل وسام شرف خلال القرن الذي سبق القرن الذي نكتب عنه.

فإن كانت هناك صلة قرابة فعليّة، مهما كانت بعيدة، بين هشام وبني عَبّاد، فإنّ ذلك سيشكّل سبباً قوياً لحمايته إن كان حقاً الرّجل المقصود، في حين يضعف ذلك احتمال أن يهينوا عائلتهم واليمنيين بصورة عامة بأن يطلبوا منهم تأييد دجّال لم يكن حتى شريف النّسب.

واصل بنو عَبّاد حماية هشام المسكين المغلوب على أمره بعد تقدّمه في السّن ولسنوات عديدة، وواصلوا الاعتراف به خليفة لهم وإمامهم، وظلّوا يخطبون باسمه من على منابر المساجد. ولم يكونوا وحدهم من أخلص له.

يقول ابن حيّان إنه «ومع انه كان محتجباً في الظّل عن أعين الجميع ولم يكن يظهر لا على الحاشية ولا على النّاس، فقد كان أمراء شرق إسپانيا يعترفون بسلطانه» (كانت كل المناطق الغربية الجنوبية تحت حكم بني عَبّاد).

لو كان ذلك الرّجل هشاماً الحقيقي، فليس مستغرباً أن يخشى ضوء النّهار وألا يرغب غير أن يعيش في عزلة هادئة، بعد أن اعتاد منذ طفولته على حياة العزلة التّامّة، وصدمته وروّعته الأحداث التي سبقت هروبه من قُرطُبة. ولكنه لو كان دجّالاً أظهره بنو عَبّاد لغاية في نفسهم، كما يقول ابن حيّان، فلماذا سيتخذ هو أو هم نمط حياة مثيراً للشّكوك بكل تأكيد؟ فلم يكن لديهم دافع لحجب رجل شديد الشّبه بهشام قبله النّاس بوصفه هشاماً، وليس نساء قصره فحسب وإنما الرّسل الذين جاؤوا من قُرطُبة. لا بل على العكس من ذلك، فكلّما ظهر الدّجّال أكثر على النّاس، كلما كان ذلك سيبدو أفضل، لأنّ ذلك سيخدم خططهم، وإن كاان ذلك لمجرّد جعل النّاس يعتادون على فكرة وجوده بينهم ليس إلا. لقد كان قلّة في قُرطُبة معتادين في الأصل على ظهوره[1].

---

(1) يخبرنا كوندِه أنه حتى عندما كان يحضر الصّلاة في المسجد في شبابه بالجامع الكبير في أيام الأعياد، لم يكن هشام يترك مقصورته *maksurah* وهي المنبر المرتفع المحاط بقضبان مذهبة المخصّص للخلفاء خلال إقامة الشّعائر إلى أن يكون الجميع قد غادروا المسجد، فكان يخرج

أمّا في إشبيلية، فلم يشاهده أحد على وجه التّأكيد في تلك المدينة إلى حين هروبه من قلعة رباح خوفاً على حياته.

إنّ ما نُقل عن نمط الحياة التي اتبعها هشام، حتى في قمة مجده كخليفة على بلاد عرفت كل أسباب العظمة في عهد المنصور، يفترض أنه كان يعاني من مرض عصبي مزمن كان يدفعه إلى أن ينأى بنفسه عن عيون النّاس. وربما حصلت أول محاولة (غير مسجّلة) لاغتياله عندما كان لا يزال طفلاً صغيراً. ويقول دوزي إنّ محاولات التّخلّص منه كثرت لدى وفاة أبيه الحَكَم. فلو أنّ المتآمرين عليه – وعلينا أن نتذكّر أنّ رئيسهم وأولهم كان عمّه الذي كان من الطّبيعي أن يكون لديه إذن بدخول القصر – ذهبوا إلى حدّ ترويع الأمير الصّغير بأيّ شكل من أشكال العنف الجسدي، فمن المحتمل أن يكون ذلك قد سبّب له أذى مستديماً. لقد قيل لنا إنّ واضحاً كان عليه أن يخرجه من عزلته في إحدى المناسبات ويجلسه على عرشه (راجع الصّفحة 187 طبعة الأصل) في حين أن أيّ رجل طبيعي كان سيشق طريقه خارجاً في اللحظة التي ترفع فيه القيود المفروضة على تحرّكاته. قيل لنا إنه كان مبتعداً عن أعين النّاس في حياة والده. ويعود تاريخ عزلة الأمير – الخليفة الصّارمة داخل جدران قصره، حيث لم يكن أحد يدخل عليه ليراه إلا بناءً على إذن خاص من أمّه أو حاجبه، إلى المؤامرة المخيفة التي كلّفت كبير المتآمرين عليه عمّه المُغيرة حياته.

ولو افترضنا أنّ هشام الطّفل تعرّض للتّخويف إلى درجة إصابته بحالة من الحياء العصبي المزمن، والتي كان من شأن العزلة التي عاش فيها أن تفاقمها بدلاً من أن تخفّفها، فسيسهل أن نتخيّل الحالة التي انتهى إليها بسبب أحداث السّنوات العشرين التي أعقبت قتل شنجول. إنّ الأهوال النّاجمة عن تعرّض قُرطُبة بصورة متلاحقة للنّهب والسّلب، والتي لا شك أنه عايشها، والتّهديدات التي تلقّاها من سجّانيه المتعاقبين، واحتجازه المتكرّر، وهروبه إلى قلعة رباح واختبائه فيها مدّة طويلة، وأخيراً قيام ملك

حينها محاطاً بحاشيته وحرّاسه ويعود إلى القصر القريب منه وبالكاد يتسنّى للنّاس أن يروه.
(i. 509 – 10.)

طُليطلة بمهاجمة مخبثه، كانت كافية لتسحق آخر ما تبقى من جرأة كان يمكن أن يملكها، والأرجح أنه ما كان يمكن لبني عَبّاد مهما بذلوا وحاولوا أن يجعلوه يخرج من عزلته داخل القصر، ما إن وجد نفسه داخل أسواره الواقية.

مثل هذا التّصرّف، لو كان الرّجل هشاماً، يتفق تماماً مع ما نعرفه عن حياته السّابقة. ولكن لا يوجد ما هو أقل احتمالاً من أن يرفض دجّال ادّعى أنه الخليفة بدافع من الغرور والمطمح وعن طيب خاطر كل أسباب الأبّهة والمظاهر البرّاقة التي كان يمكنه أن يستحوذ عليها وينعم بها ما إن تنطلي حيلته على النّاس، من أجل أن ينعزل في قصر بني عَبّاد وبالتّالي يزيد من صعوبة اقناع المتشكّكين بأنه حقاً هشام.

لقد بقي «الدجال» كما يسمّيه ابن حيّان ودوزي، في إشبيلية حتى سنة 1059، عندما، وطبقاً لما يقوله ابن حيّان، «جاءنا الرّسل عدة مرات، نحن أهل قُرطُبة، يبلغوننا أنه لا ينبغي بعد اليوم أن تتلى الصّلاة باسم الإمام هشام بن الحَكَم في المساجد في أيّ من ممتلكاته، فقد توفي من كان اسمه يذكر على الدّوام في الخطبة منذ أن تولّى محمّد بن عَبّاد شؤون المملكة وحتى نهاية هذه السّنة». ويضيف أنّ المعتضد (ابن وخليفة محمّد بن عَبّاد) جمع شيوخ إشبيلية وأشرافها وأعلن عليهم أنّ هشاماً توفي قبل وقت نتيجة شلل أصابه، ولكن، وبما أنه كان حينها في إحدى غزواته، فقد أشار عليه «أمراء إسپانيا» (أي أولئك الذين اعترفوا بهشام خليفة) ألا يعلن موته وألا يقيم مراسم دفن عامة. والآن، وقد حلّ السّلام، فقد اقتضى الأمر إعلان الحقيقة على النّاس[1].

يقول ابن حيّان هنا إنّ الصّلاة كانت تتلى باسم هشام في المساجد «منذ أن تولّى محمّد بن عَبّاد المملكة». وإن كان يمكن الاعتماد على ابن حيّان في سرد هذه الواقعة، وإن كان يعني بتوليه المملكة عندما خلف محمّد أباه إسماعيل، فإنّ ذكر اسم هشام في الخطبة سابق لظهوره بنحو اثنتي عشرة سنة، لأنّ محمّداً خلف أباه في سنة 1023. ومن شأن هذا أن يقوّي نظريتنا القائلة بأنّ بني عَبّاد لم يغفلوا أبداً عنه وإنما انتظروا الوقت المناسب لإعلان وجوده على النّاس.

---

(1) *Abbadites*, i. 277 – 8.

أيّاً كان الأمر، فنحن نعرف من ابن حيّان والحميدي أنّ الصّلاة ظلّت تتلى باسم هشام حتى سنة 1058 أو 1059. لقد خلف المعتضد أباه محمّد بن عَبّاد في سنة 1042، والمؤكد أنه عندما اعتلى العرش، إن لم يكن قبل ذلك، كانت سلطة بني عَبّاد شديدة الرّسوخ والقوة وما كانوا بحاجة إلى هيبة أو دعم يمكن أن يحصلوا عليه من أن يصبحوا وزراء لدى خليفة في الظّل، محتجب عن العيون داخل جدران قصرهم. وحتى وإن كان محمّد قد أظهر على النّاس خدمةً لأغراضه الخاصّة خليفةً مزيفاً، ولم يفكّر فيما بعد أنه من المناسب التّملّص منه، فلم يكن هناك من سبب حتى واهٍ يجعل المعتضد يواصل تلك الخديعة. كان يمكنه وبكل سهولة تدبير قتل الرّجل أو حجزه وإعلان موته. فلماذا تحمّل مشقة الاحتفاظ بصانع الحُصر هذا المتنكر في هيئة ملك في أحضان عائلته عندما لم يعد ينفعه؟ وبعيداً عن انكار الدّجال المزعوم أو التّخلّص منه، خلف المعتضد أباه بعد وفاته واتّخذ لنفسه «لقب حاجب» أو رئيس وزراء هشام[1]، وعندما نعى وفاته إلى أشراف إشبيلية، «قيل إنه خطب في الوقت نفسه إلى أمراء إسبانيا الذين بايعوا هشاماً هذا الذي كان محتجزاً مثل رهينة، ليعلن لهم وفاته ويدعوهم إلى اختيار إمام آخر مكانه»[2].

لقد تعامل المعتضد إلى النّهاية باحترام وتقدير مع الرّجل المسنّ المسكين الضّعيف الذي اعترف بإمامته عليه. ودفن هشاماً في مراسم تليق بملك، وتبع بنفسه موكب الجنازة سائراً على قدميه خلف النّعش وقد خلع طيلسانه[3] *tailesan* «سيراً عل عادة حجّاب الخلفاء»[4].

ينبغي أن تحسم مسألة ما إذا كان «صانع الحُصر من قلعة رباح» الخليفة المفقود أم دجّالاً سوقياً، إن كان الحسم ممكناً، على أساس الموازنة بين الاحتمالات. ويمكننا أن نلخّص القضية باختصار لمصلحته.

---

(1) Dozy, *Ger. der M.*, ii. 273.
(2) Ibn Hayyan, in *Abbadites*, i. 278.
(3) الطّيلسان، أو التّيلسان، كلمة فارسية الأصل ومعناها العباءة السّوداء التي توضع على الكتف. (م)
(4) Dozy, *Ger. der M.*, ii. 294; and *Dictionnaires des vêtements*, p. 280.

مـن المؤكّـد أنّ أهل قُرطُبة لم يعرفوا ما حـلّ به، فقد قيل هناك إنه قتـل وبعث مراراً[1]. السّـؤال هـو في معرفة إن كان اليمنيون أصدقاء بني عامـر عرفوا أم لم يعرفوا منذ البداية أنه كان لا يزال حيّاً. لقد أعلن ابن جهور، العامل السّـابق لدى المنصور، منذ توليه الحكم في قُرطُبـة أنـه يحكم بوصفـه نائباً لحاكم أعلى مرتبة منه، وهو ما فعلـه ابنه من بعده وهو الذي أعلن بنفسـه مبايعة هشـام، كما يقول المقّري. وعندما أخرج ابن عَبّاد هشاماً المزعوم على النّاس، تعرّف عليه رُسـل جاؤوا من قُرطُبة لهذا الغرض، والنّسـاء اللواتي بقين من حريمه، فـي حين اسـتمرّ بنـو عَبّاد، الأب ومن بعـده ابنه، يحكمون باسـمه إلى مماتـه، حتى عندما لـم تكن مكانتهم سـتتعزز عندما يحكمـون أو يزعمون أنهـم يحكمون باسـمه. وليس لدينا مـا يعارض هذا سـوى تأكيدات ابـن حيّان وغيره من الكتّاب السُّـنّة الذيـن قادهم تحيّزهم العصبي بصورة دائمة إلى تشـويه صورة اليمنيين بكل وسيلة ممكنة. فلو كان الرّجل دجّالاً لاسـتعصى فهم سـلوك ابن عَبّـاد وابن جهور وغيرهم مـن الأمراء الذين اعترفـوا به خليفة لهـم. أمّـا إذا كان من ناحية ثانيـة الرّجل الحقيقي، فإنّ اعترافهم بـه واحترامهم له حتى يوم وفاتـه، كان طبيعيـاً تماماً، بالنّظـر إلى إخلاص اليمنيين وحبّهم لسـلالته منذ أن اعتلى جدّه عبد الرّحمن الثّالث المولّد عرش قُرطُبة[2].

❋ ❋ ❋

---

(1) يورد ابن بسّام نقلاً عن ابن حيّان الرّوايات التّالية التي شاعت في وقت أو آخر عنه: لقد قتله المهدي ودفن في احتفال عام كما لو أنه مات ميتة طبيعية. ثم أعاده إلى الحياة واضح الصّقلبي الذي أعلن أن ذلك كان خطة دبّرها مغتصب السّلطة ذاك، وأنّ هشاماً لا يزال حيّاً. لقد أمر سليمان بخنقه عندما استولى على قرطبة، ودفنه في السّر، ولكن بعد سنوات وبعد خلع المعتدّ بالله (هشام الثّالث) في سنة 420 (1029 – 1030)، ادّعى الوزير جهور أنه كان لا يزال حيّاً وأمر بأن يخطب باسمه في كل مساجد قرطبة... وأخيراً، اعلن ابو القاسم قاضي إشبيلية الطّامع إلى توسيع مملكته وبسط سلطته على المزيد من أراضي إسبانيا، أنه عثر على هشام في زنزانة في قلعة رباح» (Makkari, ii. 503.)

(2) ينقل ابن الأثير عن ابن أبي الفيّاض قوله إنّ أهل قلعة رباح اعترفوا بإمامة هشام عندما وصل إلى بلدهم، لكنهم اضطروا لإخراجه منها خوفاً من ابن ذي النّون. وفي معرض الإشارة إلى قصّة موته المفترض وزعم ابن عَبّاد بظهوره، يُلاحظ ابن الأثير بتهكم سخف الافتراض بأنّ دجالاً بويع كخليفة وتسبّب بحروب دامية بعد عشرين سنة من وفاة هشام الحقيقي. (Ibn Al – Athir, 438 – 40). ويبدو أن دوزي قلّل من أهمّية هذا المقطع.

تفاصيل سقف من عهد الموحّدين في قصر إشبيلية وقد رُكّبت فوقه وبطريقة مختلفة وأقل اتقاناً وابداعاً شارتا قشتالة وليون اللتان كان يحملهما فرناندو الثّالث في عام 1248، وبينهما الدّرع الذي منحه إلى صديقه وحليفه ابن الأحمر ملك غرناطة (الصفحة 346 طبعة الأصل) على شكل شريط يخرج من أفواه التّنانين والثّعابين، وقد أصبح فيما بعد شعار رتبة فرسان لا باندا (الفرقة).

الفصل الثّاني عشر

بنو عَبّاد في مملكتهم

إنّ الفكرة الشّـائعة عن ابن عَبّاد الملقب بالمعتضد بالله، الثّاني في سـلالة بني عَبّاد حكّام إشـبيلية، فـي العالم هي أنه همجـي متوحش كان يحتفظ بـرؤوس قتلاه ويتلذّذ بتزييـن حديقة قصـره بجماجم أعدائه التـي كان يعلّقها على أعواد على شـكل نباتات أو أزهـار. ولـم نتمكّن من معرفـة مصدر هذه القصّة التي يرويها كل مؤرّخ سُـنّي، وإن لـم تتّفق أيّ من رواياتهم مع الأخـرى. فيقول أحدهـم إنّ الجماجم حُوّلت إلى أصص جميلـة موشّـاة بالذّهـب ومرصّعة بالياقوت والزُّمُـرّد والعقيق. ويقول آخـر إنها كانت تمـلأ حديقة أو خزانة واسـعة مسيّجة كبيرة أمام بوابـات القصر[1]. ويقـول ثالث إنها كانـت محفوظة في خزائن فـي جرار محكمة الإغلاق. وهناك من ينسـب هذه الهواية الفريـدة في إقامة حديقـة مملوءة بالجماجم المرفوعة على أعـواد إلى مغتصب عرش قُرطُبة محمّد المهدي الذي توفي في سنة 1010 قبل أن يولد حاكم إشبيلية المعتضد.

ما من شـك في أنّ بني عَبّاد، مثلهم مثل كل أسـلافهم ومعاصريهم ومَن خلفوهم، تلقوا أحياناً رؤوس أعدائهم بعد تحنيطها بالكافور على شكل تذكارات للنّصر. كانت

(1) «ولنذكر كلام ابن اللّبّانة وغيره في حقهم فنقول: وصف المعتضد رحمه الله تعالى بما صورته: المعتضد أبو عمرو عَبّاد رحمه الله تعالى، لم تخلُ أيامه في أعدائه من تقييد قدم، ولا عطّل سيفه من قبض روح وسفك دم، حتى لقد كانت في باب داره حديقة لا تثمر إلا رؤوساً، ولا تنبت إلا رئيساً ومرؤوساً، فكان نظره إليها أشهى مقترحاته، وفي التّلفّت إليها استعمل جلّ بكره وروحاته، فبكى وأرق، وشتت وفرق، ولقد حكي عنه من أوصاف التّجبّر ما ينبغي أن تصان عنه الأسماع، ولا يتعرّض له بتصريح ولا إلماع»، المقّري، ج4، ص 242. (م)

هذه الهدايا تُقدّم باستمرار إلى الأمراء الظّافرين. وهكذا أهدي رأس عبد العزيز المحنّط بالكافور في حضور أبيه موسى إلى الخليفة سليمان في بداية القرن الثّامن، وأهدى بِدرو ملك قشتالة صديقه ملك غرناطة الشّرعي رأس مغتصب العرش المعروف باسم الملك الأحمر محنّطاً في الكافور في النّصف الثّاني من القرن الرّابع عشر، وبين هاتين الهديتين كثير غيرهما خلال الفترة الفاصلة بينهما والممتدّة على 650 عاما. وهكذا فلو قبل المعتضد ملك إشبيلية الذي حكم من سنة 1042 إلى 1069 رؤوساً محنطة من أصدقائه، فلا ينبغي وصفه بالمتوحّش الهمجي لأنه كان يتصرّف بما تمليه عادات عصره.

وعدا عن هذه القصة، لم نعثر على أيّ شيء يدلّ على أنّ أيّاً من أشراف بني عَبّاد، سواء من الولاة أو الحجّاب أو الملوك الذين حكموا إشبيلية لحوالي ثلاثة أرباع القرن، كانوا يتصرّفون بطريقة مختلفة عن أبناء ملّتهم ودينهم في معاملتهم الإنسانية والطّيبة لمن خضعوا لسلطانهم.

لقد أشرنا فيما سبق إلى النّهج أو الوصايا التي كانت تشكّل أساساً لشخصية وسلوك الشّيعة (راجع الصّفحة 75 طبعة الأصل)؛ وبيّنا الخصال التي اشتُهر بها مؤسّس سلالة بني عَبّاد، وكيف حافظ ابنه وحفيده محمّد المُعتمِد وعَبّاد المعتضد اللذان خلفاه في الحكم بانتظام على التّقاليد العائلية والقبلية في الضّيافة والإخلاص في معاملتهما لهشام الثّاني عندما التجأ إليهم واحتمى بهم.

لم يُكتب سوى القليل عن الحياة الخاصّة للمعتضد. فالكتّاب السُّنّة يؤكّدون أنه كان متوحّشاً متعطّشاً للدّماء، لكنهم لم يقدّموا أيّ دليل على ذلك، فيما عدا قصّة الرّؤوس. لقد علمنا أنه كان شديد التّعلّق بعائلته، وكان مولعاً بقراءة الطّالع. كما يقول لنا ابن حيّان إنه كانت لديه حتى في حياة أبيه سبعون جارية في حريمه، وأنّ عددهن ازداد إلى ثمانمئة بموت أبيه محمّد. لقد اعتبر الكاتب ذلك دليلاً على شهوانية مبالغ بها، لكن امتلاك سبعين جارية كان امراً شائعاً في ذلك العصر حتى لدى رجال أقلّ مكانة من المعتضد. أمّا زيادة العدد إلى ثمانمئة عند توليه الملك فهو على الأرجح من صنع

خيال ابن حيّان الذي لم تطأ قدمه يوماً قصر بني عَبّاد، هذا لو أنه زار إشبيلية أصلاً، وهو إنما لم يفعل على الأرجح سوى ترديد الشّائعات التي كان يروّجها أصدقاؤه في قُرطُبة والذين كانوا يعملون على تشـويه كل أفعال أمراء إشبيلية بهدف الإساءة إلى سمعتهم. وأيّاً كان عدد نسـاء قصر إشـبيلية خلال حكـم المعتضد، فيمكننـا أن نحذف منه عدداً كبيراً من نساء الخليفة هشام الذي عاش فيه وكأنه في قصره.

وعلـى الرّغـم من تصويـر حريمه بهـذه الضّخامة، فقـد وُصف المعتضـد بأنه كان متعلقاً بشغف بزوجته الأميرة دانية ابنة مجاهد العامري، ومع أنّ الكتّاب السُّنّة قالوا إنه تزوّجها فقط لأسباب سياسية، فإنه لم يتخذ غيرها زوجة لها. وعندما وُلد ابنه المُعتمِد، جعل أبوه محمّد المنجمين يقرأون طالعه، فأنبأوه أنه سـيعيش في عظمة ورخاء ولكن نهايته ستكون بائسة – وهي نبوءة قلّما غابت عن ذهنه عندما صار رجلاً[1].

اشـتُهر المعتضد بسعة علمه، مثل أبناء سلالته، ونظمه للشّعر وإن كان ابنه قد تفوّق عليـه فـي ذلك. ويصف المقّـري الأبّهة والعظمـة التي أحاط بها ملوك إشـبيلية هؤلاء بلاطهم وسخاءهم اللامحدود في إكرام الأدباء والشّعراء وحبّهم وشغفهم بالعلم[2].

وكان مـن عظم حـبّ المعتضد لأولاده أنّ مـا عجّل بموته وأدنـى أجله، كما يقول كوندِه، حزنه على موت إحدى بناته.

«حدث [في سـنة 1068] أنّ ابنة لملك إشـبيلية[3]، وكانت فائقة الحسن والجمال، أصابتها حمّى فماتت في ريعان صباها بين ذراعي والدها الذي كان مولعاً بها، وكانت أثيـرة لديـه. لقد بلغ الألـم والحزن مـن المعتضد مبلغاً حتـى أصابته الحمّـى وأعيته، وأصابه خمول فخشـي أطباؤه على حياته، وأعطوه عقاقير منشّـطة فبدا عليه التّحسن.

---

(1) Conde, ii. 24.

(2) Conde, ii. 250.

(3) يورد المؤلفان اسم ابنة المعتضد: Taira ومن الواضح أنّ هذا خطأ، مردّه النّقل عن ابن الأبّار في الحلّة السّيَراء: «هلكت له بنتٌ أثيرة لديه»، فظنّا أنّ اسمها «أثيرة»، وتورد بعض المصادر أنّ اسمها ريحانة لكنّ هذا غير مؤكّد، وكان للمعتضد 20 ابناً من الذّكور و20 من الإناث، ولا سبيل لحصر أسمائهم. (أحمد)

لكنه رغب في مشاهدة مراسم الدّفن المهيبة التي أعدّت لابنته الصّغيرة: لقد حمل كبار وزراء القصر النّعش وأمر المعتضد بأن تُدفن الأميرة عند مدخل القصر. كان الوقت نهاية شهر مارس وعلى الرّغم من تحذير الأطباء، جلس المعتضد بالقرب من نافذة ليتابع الدّفن، فازداد اعتلالاً. وسرعان ما تدهورت حالته، حتى لم يعد من أمل في شفائه، وبعد أسبوع من وفاة ابنته، قضى الله بتخليصه من آلامه، فاشتدّت الحمّى عليه وفقد قدرته على النُّطق، وانتقل الى رحمته تعالى في منتصف الليل. في تلك السّاعة علا النّواح من قصره، وتردّد صدى نحيب عبيده وأهله في أرجاء المدينة».

بويع ابنه المُعتمِد في اليوم التّالي، وأُعلن ملكاً وطاف على ظهر حصانه عبر شوارع المدينة يرافقه كبار وزرائه وقادة جيشه الذين أسبغوا عليه ألقاباً تبشّر بحسن الطّالع. ثم أمر بأن يُدفن أبوه في احتفال مهيب إلى جانب أخته، عند بوابة القصر، «في مساء ذلك اليوم بعد أن ترّحموا على المعتضد طالبين من الله أن يغفر له الله ذنوبه وخطاياه»[1].

يروي دوزي قصّة المعتضد وسفكه لدماء أمراء رُندة البربر[2]، ومثل قصّة الجماجم والرّؤوس، فقد عُدّت دليلاً قاطعاً على وحشيته المطلقة. وهي كالتّالي.

كان بربر الجنوب في سنة 1052 في حالة صلح مع المعتضد وقد اعترفوا بسلطانه على تلك النّواحي، «أو بالأحرى إمامة ذاك المسّمى هشام الثّاني». قرّر المعتضد أن يزورهم بشكل مفاجىء وفي نيّته أن يخلعهم كلهم ويستولي على دويلاتهم. وهكذا، ذهب برفقة اثنين فقط من عامليه، لزيارة أبي نور ابن أبي قرة، صاحب رُندة، ومحمّد بن نوح صاحب مورور، دون أن يلمح إلى ما يضمره لهما. ويعلّق دوزي على التّصرّف المتهوّر للمعتضد «الذي كان يعرف مدى كره البربر له»، ويشرح ذلك بقوله إنه على الرّغم من عدم إخلاصه لأيّ كان، فإنه من جانبه كان يثق في استقامة الآخرين. وإن صح هذا التفسير، فإن جُلّ ما يسعنا قوله إنها المرّة الأولى التي نسمع فيها عن رجل شيمته الغدر يأتمن الآخرين إلى هذا الحدّ. لقد أحسن الأميران استقباله، ووجد في

(1) Conde, ii. 47 – 8.

(2) *G. der M.*, ii. 286 ff.

المدينتيـن أنّ السّـكان العرب توّاقون للثّـورة على حكّامهم البربـر، ونجح، كما يقول دوزي، في تأليب العديد من قادة العسكر البرابرة من دون أن يثير شكوك أسيادهـم.

أقام حاكم رُندة ابن أبي قرة وليمة على شرف المعتضد الذي أبدى بعد تناول الطّعام رغبـة فـي أن يسـتريح. فأخذوه إلى أريكـة في غرفة الطّعـام على ما يبـدو، وأثناء نومه (كما خُيِّل لهم) راح مضيفوه يتشاورون في أمر قتله. فقال بعضهم إنهم لو بذلوا ذَهَبَ الأندلس كله ما كانوا سينجحون في إحضاره إلى معقلهم رغماً عن إرادته، والآن وقد جاء إلى هنا من تلقاء نفسـه، فالأجدى التّخلّص منـه والانتهاء من أمره. وقالوا «عندما يموت هذا الشّيطان، لن يكون هناك من ينازعنا المُلك على هذه البلاد».

لكـن صوتـاً واحداً تحدّث فـي صالح المعتضـد. كان ذلك مُعاذ بن أبـي قرة، وهو شـاب من أقرباء صاحـب رُندة، ذكّرهـم بأن واجبهم إكرام ضيفهـم، وأنّ العار سـيلحق بهـم إلى أبـد الآبدين بين القبائل إن هم قتلوا ضيفاً نزل بهم مسـتأمناً، ووثق بشـرفهم. فاقتنعوا بكلامه، وغادر المعتضد في اليوم التّالي دون أن يعرفوا باكتشافه لأمر المكيدة التي كانوا يدبّرونها، أو شعوره بأنه مَدين للشّاب مُعاذ.

ولكنـه انتقـم منهم بعد سـتة أشـهر. ويـروي دوزي أنه دعـا حاكمي مـورور ورُندة لزيارته في إشبيلية ليردّ لهما حسن ضيافتهما، ودعا كذلك عبدون بن خزرون البربري صاحـب حصني أركش وشـريش. لبّى الثّلاثـة الدّعوة ولدى وصولهم مع حاشـيتهم، عرض عليهم المعتضد دخول الحمّام. دخل سـتّون منهم بمن فيهم أمراؤهـم الحمّام، فما أن أصبحوا كلهـم في داخله وقد اطمأنوا إليه، أمر المعتضد بإيصاد الأبواب وإغلاق ممـرّات التّهوئة، وتشـغيل البخار. ولم ينجُ منهـم سـوى مُعاذ الـذي منعه المعتضد من دخـول الحمّام مـع الباقين. وأخبره الملك بمـا حدث في رُندة وعـن امتنانه لما فعله. وكافأ المعتضد مُعاذ بأن وهبه قصراً في إشبيلية والعديد من الهدايا الثّمينة، وعيّنه قائداً في عسكره وجعل له أجراً معتبراً، وكان يُجلسه في مجلس الشّرف كلما اجتمع بوزرائه لمناقشة شؤون الدّولة.

يتحـدّث القرطبي عن «قائد عسـكري مُحنّك اسـمه مُعـاذ بن أبي قُـرّة» تولّى قيادة

القوات التي أرسلها ابن عَبّاد لمساعدة ابن هود في إحدى حروبه مع آراغون. ويبدو أنّ هذه الحملة تعود كما أرّخها كوندِه إلى سنة 1068، وإن كان هذا التّاريخ صحيحاً، فقد يكون مُعاذ هذا هو الرّجل الذي ذكره دوزي في قصّته: من جهة ثانية، تُلمح رواية القرطبي ضمناً إلى أنّ الحملة جرت بُعيد سنة 1033.

لقد نقل دوزي القصّة (على ما يبدو) عن ابن بسّام والنّويري، ولم يُشر إليها لا المقّري ولا كوندِه، وطريقة سردها تطرح بعض التّساؤلات.

فالبربر، وإن تكلّموا العربية أصلاً، فقد كانوا يتحدّثون بها بوصفها لغة مكتسبة. ولم يكن العرب يفهمون لغتهم، ولذلك فإنّه من غير المرجح أن يكون المعتضد، سليل النّسب العربي الأصيل، قد كلّف نفسه عناء تعلّم لغة كان العرب ينظرون إليها بوصفها لغة همجية غير جديرة بأن يأخذ بها رجل متعلّم. ومن غير المطروح الافتراض بأنّ البربر تحدّثوا بلغة أجنبية وهم يدبّرون مكيدة فيما بينهم للغدر بالمعتضد. فكيف كان يمكن إذن للمعتصد أن يعلم بما كانوا يدبّرون؟ وإذا تركنا هذا جانباً، فإنه من المستحيل تصديق أنّ عربياً يمنياً أغفل تماماً، كما قيل إنّ المعتضد فعل، كل تقاليده القبليّة المتعلقة بقداسة إكرام الضّيف، وقبل بأن تلحقه معرّة الغدر بضيوفه، وهو أمرٌ أحجم حتى البربر عن تحمل وِزره. صحيح أنه عندما قتلهم، كما تقول القصة، ما كانوا قد تناولوا خبزاً على مائدته بعد، ولكن حتى في هذه الحال، فإننا نتردّد منطقياً في تصديق تلك القصة، في غياب دليل أفضل ممّا تقدّم.

يورد دوزي وصفاً ملفتاً للحمّام في دار المعتضد، لأنه يطابق بصورة مدهشة ما هو معروف في أيامنا هذه باسم «حمّام ماريّا باديّا Maria Padilla» في قصر إشبيلية. أمّا التّفاصيل التي تختلف بينه وبين حمّام المعتضد فتعود إلى القرن السّادس عشر عندما، وكما يخبرنا رودريغو كارو، أُدخلت عدة تغييرات جذرية إلى الحديقة في جانبي المبنى، بسقفها المقبّب والمَناور، بحيث تمّ إعلاء مستوى الأرضية إلى مستوى أعلى السّقف، وأزيل بستان البرتقال الذي كان إلى ذلك الحين تحت مستوى الأرض تقريباً خارج مبنى الحمّام. ولكن حتى الآن، ورغم أنّ خزان الماء الكبير فارغ، وأنّ الأرضية

الاصطناعية المضافة فوقه تخفي المسكن التّاريخي، يمكن للنّاظر الفضولي أن يرى خلف سياج الحنّاء الأضواء أو فتحات التّهوئة على طول العَقد، وفي حال تفحّص الممرّات التي تبدأ من هناك وتمرّ تحت القصر على ضوء مصباح، سيجد بقايا مواسير التّدفئة التي استُخدمت، كما قال دوزي، لخنق ستين من البربر قبل ثمانمئة وخمسين سنة خلت.

وعلى الرّغم من سفك دماء أمراء وقادة البربر، كان على المعتضد أن يخوض معارك شرسة قبل أن يستولي على رُندة. ولكنه أصبح في النّهاية سيد تلك النّاحية وبنى لنفسه فيها قصراً بديعاً أسكن فيه قسماً من عائلته لكي يكون جاهزاً عندما يزوره. وعندما اسودّت الأيام فيما بعد في وجه سلالته، دافع حفيده الرّاضي أو الرّاضي بالله ببسالة عن رُندة أمام جيش Kasur[1] أحد قادة المرابطين، و Kasur هذا هو الذي طعنه برمح بعد أن استسلم له، مستهيناً بالعدل، وناقضاً عهد الأمان الذي عقده معه مقابل استسلامه[2].

لم يكن المُعتمِد، ابن المعتضد، قد تجاوز التّاسعة والعشرين عندما خلف أباه على عرش إشبيلية. كان شجاعاً في غير تهوّر، ومتعقّلاً يعيش حياة رائعة في عزّ ورخاء ولكنه حليم سخي مع القائمين على خدمته المخلصين له، وهكذا أسر قلوب الجميع، وكان سلوكه واحداً معتدلاً ومنضبطاً في العزّ وفي ساعات النّصر. لم يكن شديد التّديّن، وكان يشرب الخمر ولا سيّما لدى خروجه للغزو، ويسمح لأتباعه أن يفعلوا الشّيء عينه أثناء القتال. كان شاعراً مُجيداً مبدعاً، وبزّ في ذلك صديقه مُعزّ الدّولة،

(1) كذا يرد الاسم لدى ويشو، نقلاً عن كوندِه، الذي ذكرنا مليّاً ورود أخطاء لديه، والصّحيح أنّ القائد جرور اللّمتوني المرابط هو الذي قاد جيش المرابطين الثّالث إلى رُندة، بينما سار سير بن أبي بكر إلى إشبيلية، وأبو عبد الله بن الحاج إلى قرطبة، وأبو زكريا بن واسندوا إلى المَريّة، وبقى يوسف بن تاشفين فى سبتة على رأس جيش احتياطى. ويبدو أنّ كوندِه أشكل عليه في بعض المخطوطات القديمة اسم «جرور» فقرأه «كسور» Kasur. راجع: الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام الشّنتريني، الحلّة السّيَراء لابن الأبّار، الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، البيان المغرب لابن عِذاري المرّاكشي. (أحمد)

(2) Dozy, *G. der M.*, ii. 290; Conde, ii. 25, 167.

ملك المَريّة[1]. يقول عنه عبد الجبّار[2] إنّ خصاله كانت من الكمال بحيث أنه لم يبق أحدٌ إلا مدح أوصافه، وذلك مع كثرته لا يفي بحقّ إنصافه[3].

تزوّج المُعتمِد في المرة الأولى بعد قصّة رومانسيّة. فقد كان سائراً ذات مساء على ضفّة نهر الوادي الكبير Guadalquivir مع جمع من أهل المدينة والجميع مستمتع بالنّسائم العليلة، وبرفقته ابن عمّار[4] أقرب أصدقائه، وهو شاعر مثله، وراح كلاهما يرتجل أبياتاً عن مياه النّهر المتموّجة، وفجأة قالت جارية مارّة بالمكان بيتاً مقفّى ينمّ عن شدّة ذكائها، فأثارت دهشة الأمير وإعجابه. وإلى ذلك كانت الفتاة بارعة الجمال، وعندما سأل المُعتمِد عنها (كما يقول ابن الخطيب) وعرف أنها جارية، اشتراها من سيدها وأعتقها وتزوّجها وجعل اسمها اعتماد، المشتقّ من اسمه، والشّبيه به[5].

كانت اعتماد تُعرف باسم الرُّميكية نسبة إلى رُميك بن حجّاج الإشبيلي الذي باعها للمُعتمِد. يقول دوزي إنها كانت جارية تعمل في سوق الحمير، ولكن لا المقّري ولا كونـدِه ألمحا إلى ذلك، وبناء على أنّ المُعتمِد تزوّجها بدلاً من أن يتّخذها محظية، نتوقع أنها كانت من أقربائه ولم تكن جارية لدى ابن حجّاج الذي يظهر من اسمه أنه كان مولّدا شريف النّسب[6]. فأفراد عائلة بني حجّاج الذين اشتهروا في القرن التّاسع كانوا لا يزالون يعيشون في إشبيلية. ويذكر دوزي رجلاً من بني حجّاج اصطفاه محمّد بن عَبّاد من بين آخرين ليكون صاحبه قبل سنة 1027 عندما «فوّضه أشراف إشبيلية لتولي الملك» ورفض أن ينفرد به[7].

---

(1) Conde ii. 47 – 9.

كونـدِه مخطىء بشأن الاسم: فالكاتب الذي اقتبس عنه كان يشير سواء إلى ابن عم المعتمد علي ملك دانية، أو ربما على الأرجح إلى المعتصم بن صمادح ملك المَريّة.

(2) هو الشّاعر عبد الجبار بن أبي بكر بن محمّد بن حمديس الصّقلّي (447 – 527 هـ). (م)

(3) Makkari, ii. 252

(4) لقد أصبح لاحقاً من الدّ أعدائه.

(5) Makkari, ii. 512.

(6) Makkari, ii. 299; Conde, ii. 169.

(7) *G. der M.*, ii. 238.

لبثت اعتماد أثيرة لدى ملك إشبيلية طوال حياته، فكان يعاملها بكل حبّ وشغف، وقد بادلته حبّه ذاك ورافقته عندما خُلع عن ملكه ونُفي، ودُفنت إلى جواره. ومن الأخبار المأثورة عن هذا الوله أنه زرع لها أشجار اللوز على جبل في قُرطُبة لأنها رأت يوماً عاصفة ثلجية على جبل الشّارات (سييرّا مورينا) فاستحوذ على مخيّلتها ورغبت أن تكرّر التّجربة. وبما أن الثّلج لا يهطل كثيراً في جنوب غرب الأندلس، فقد فكّر الملك الشّاعر أن يزرع لها اللوز حتى إذا نوّر بدت أشجاره وكأنها محمّلة بنُدف الثّلج.

ومن أعماله التي تشهد على حرص الملك على إرضاء محبوبته، والذي يبدو لنا أقل رومانسية من صنع عاصفة ثلجية من بتلات زهر اللوز، أنّ اعتماد رأت ذات يوم، في مكان غير بعيد من قصرها في إشبيلية، فلّاحات يبعن الحليب يمشين في الطّين حتى كاحلهن. فقالت لزوجها لدى عودتها «أشتهي أن أفعل أنا وجواريّ مثل هؤلاء النّساء».

عندها، أمر المُعتمِد أن تغطّى أرضية إحدى غرف القصر بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد، وصُيّر المزيج طيناً. ثم جعل لها قِرَباً وحبالاً من إبريسم، وهو أجود أنواع الحرير، وخرجت اعتماد وجواريها حاملات القِرب على ذراعهن وخضن جذلات في ذلك الطّين الرّومانسي.

ويُروى أنّ الملك والملكة تبادلا ذات يوم كلاماً قاسياً في ساعة غضب، جرح كبرياء الملكة اعتماد، فقالت له « والله ما رأيت منكَ خيراً»، فقال لها: «ولا يوم الطّين؟»، تذكيراً لها بذاك اليوم الذي «أنفق فيه من الأموال ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى»، من أجل إرضاء أبسط أهوائها، «فاستحيت وسكتت» اعتماد (التي كانت سليمة الفطرة، بلا شك)[1].

ويختتم المقّري أخبار المُعتمِد على الشّكل التّالي[2]:

«وأخبار الأندلس زاخرة بمدح هذا الملك. وقد قال ابن القطّاع في حق المُعتمِد، إنه أندى ملوك الأندلس راحة، وأرحبهم ساحة، وأعظمهم ثماداً، وأرفعهم عماداً،

(1) Makkari, ii. 299; Dozy, *G. der M.*, ii. 318 – 9.

(2) Makkari, ii. 300 – 2.

ولذلك كانت حضرته ملقى الرِّحال، وموسم الشّعراء، وقِبلة الآمال، ومألف الفضلاء، حتى أنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك من أعيان الشّعراء، وأفاضل الأدباء، ما كان يجتمع ببابه، وتشتمل عليه حاشيتا جنابه»[1].

«لقد كان هو نفسه شاعراً مبدعاً، كما يظهر من الأبيات العديدة الرّائعة التي وردت في مؤلفات الفتح وابن الحجري وابن سعيد، وخصوصاً ابن اللّبّانة. والكاتب الأخير، الذي كان أحد وزراء المُعتمِد وزار ذاك الأمير في سجنه [في أفريقيا بعد خلعه سنة 1091] ألّف ديواناً جمع فيه كل أبياته وكذلك تلك التي كتبها أبوه وجدّه...

ويقول ابن بسّام، إنه «لم يكن مثله شاعر في رقّة روحه، والمشاعر المتدفقة عبر أبياته: للمُعتمِد شعر، كما انشق الكمام عن الزّهر، لو صار مثله ممّن جعل الشّعر صناعة، واتخذه بضاعة، لكان رائقاً معجباً، ونادراً مُستغرباً، (...) وعزم المُعتمِد على إرسال حظاياه من قُرطُبة إلى إشبيلية، فخرج معهن يشيّعهن فسايرهن من أول الليل إلى الصّبح، فودعهن ورجع، وهو يرتجل أبياتاً منها[2]:

سايرتهم واللّيل عقد ثوبه ... حتى تبدّى للنّواظر معلما

فوقفتُ ثم مودّعاً وتسلّمَتْ ... منّي يدُ الإصباح تلك الأنجما

ويتابع المقّري قوله إنّ من «الأمور الغريبة النّادرة المرتبطة بالمُعتمِد، أنه عندما تُوفيَ في أغمات[3] (..) نودي في الصّلاة على جنازته، الصّلاة على الغريب، كما لو أنه كان مجرّد مغامر، دونما اعتبار لعراقة نسبه، واتّساع ملكه، وانتظام سلكه، وروعة وعظمة بلاطه؛ أو حكمه على إشبيلية وأنحائها، وقُرطُبة وزهرائها، وهكذا شأن الدّنيا في تدريسها نحو ندبتها وإغرائها»[4].

---

(1) المقّري، ج 4، ص 372.

(2) المقّري، ج 4، 373. (م)

(3) أغمات قرية قريبة من مرّاكش، في المغرب. (م)

(4) المقّري، ج 4، ص 224. (ضُبِطَ النّص على النّص الإنكليزي بالرّجوع إلى النّص العربي الأصلي. (م)

«وأخبار المُعتمِد رحمه الله تعالى تحتمل مجلدات.. ويكفي القول إنّ آثار ذاك السّلطان اللامع، إلى الآن بالغرب مخلّدات..، وإنّ قبره في أغمات معروف يقصده المسافرون.. وقد زرتُ أنا قبر المُعتمِد والرّميكية أم أولاده، حين كنت بمرّاكش المحروسة عام عشرة وألف (1601 م)، وعَمِيَ علي أمرُ القبر المذكور، وسألتُ عنه من تُظنّ معرفته له، حتى هداني إليه شيخ طعن في السّن، وقال لي: هذا قبر ملك من ملوك الأندلس، وقبر حظيّته التي كان قلبه بحبّها خفّاقاً غير مطمئن»[1].

ومن الغريب القول إن نُصباً لتلك التي «كان قلبه بحبّها خفاقاً» لا يزال موجوداً إلى اليوم في إشبيلية، رغم أن حبّ المُعتمِد الدّافق ونهايته المأسوية ليسا معروفين حتى لدى واحد من ألف ممّن يعيشون اليوم في المدينة التي حكمها قبل نحو ثمانمئة عام.

ويذكر كوندِه (ii. 169) كتابة تشير إلى «السّيدة الكبرى» "Saida Cubra" (وهو من الأسماء التي عرفت بها اعتماد) على مسجد شيّدته في سنة 1085. وظلّت الكتابة إلى ما يقرب من القرن الثّامن عشر على ذاك المسجد الذي صار اليوم كنيسة سان خوان دي لا پالما، عندما نقلت إلى متحف إشبيلية بنتيجة ترميم جزء من المبنى القديم. ومفاد ذلك أن «السيدة الكبرى، أم الرّشيد بن المُعتمِد، طلبت إضافة هذه المئذنة إلى مسجدها في سنة 1085»[2]. وغالباً ما كان الكتّاب القدماء والمعاصرون يشيرون إليها باعتبارها من الآثار «المغربية الأفريقية» الباقية في إشبيلية، بغضّ النّظر عن واقع أنّ الملكة لم تكن مغربية أفريقية وإنما ملكة عربية، سُلبت عرشها وخُلعت عنه وأُسرت في سجن مغربي إلى مماتها.

نُفيت اعتماد مع زوجها، لكنها سرعان ما أُصيبت بالمرض. فأسرع الطّبيب ابن زُهر الإشبيلي الشّهير، الذي كان طبيب قصر إشبيلية، وكانت له أملاك في المغرب، إلى أغمات تلبيةً لطلب المُعتمِد، لكن طبابته لم تُجدِ نفعاً وتوفيت اعتماد في السّجن. وكانت بناتها يسرن حافيات القدمين ويؤدّين كل الأعمال المنزلية، ويغزلن الكتّان

---

(1) المقّري، ج 4، 224.

(2) *Inscripciones Arabes*, p. 106.

لكسب لقمة العيش لهنّ ولأبيهن. ومع هذا، كان الشّاعر ابن اللّبّانة قادراً على أن ينشد عندما زارهم[1]:

انفض يديك من الدّنيا وساكنها ... فالأرض قد أقفرت والنّاس قد ماتوا ها

وقل لعالمها الأرضيّ قد كتمت ... سريرة العالم العلويّ أغماتُ

طوت مظلتها لا بل مذلّتها ... من لم تزل فوقه للعزّ راياتُ

فعلى الرّغم من فقرهم وبؤسهم، كان احتمالهم بنبلٍ لفاجعة لا يستحقّونها، يشعّ من محيّا الأمراء الذين كان لحبّهم لبعضهم دورٌ كبير في حياتهم.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يلحق المُعتمِد بزوجته إلى القبر. وقد مات أسيراً في عام 1095، بعد أربع سنوات فقط من مغادرته إشبيلية. وقد كتب ابن الأبّار عنه بعد نحو مئة وخمسين عاماً من وفاته يقول[2]:

«ورُزق من النّاس حُبّاً ورحمة فهم يبكونه إلى اليوم»[3].

وتدلّل الأخبار التي نقلها عنه أعداؤه أو أصدقاؤه على حدّ سواء أنّ آخر ملوك بني عَبّاد كان رجلاً موصوفاً بكرمه وسموّ مشاعره.

ومن تلك الأخبار أنّ الوزير ابن عمّار الذي أُودع السّجن لخيانته المُعتمِد، أرسل إلى سيده أبياتاً يخاطب فيها عزّته ورفعة شأنه وجلالته ويستعطفه أن يصفح عنه، فقال المُعتمِد في ذلك:

«أما لئن سلبه الله المروءة والوفاء، لما أعدمه الفطنة والذّكاء».

وحتى في اللحظة الأخيرة، كاد ابن عمّار أن ينجح في استعطافه للعفو عنه، فالمُعتمِد لم يكن قادراً على نسيان ما قدّمه له من صنائع، وعندما أدخلوه على المُعتمِد

(1) خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصبهاني. وفيها يقول الأصبهاني إنّ ابن اللّبّانة كتب هذه الأبيات بعد وفاة المعتمد وليس عندما زاره. (م)

(2) الحُلّة السِّيَراء لابن الأبّار، 2: 55. (أحمد)

(3) Al – Marrakushi, 124; Conde, ii. 170; Dozy, *G. der M.*, ii. 400, 404.

وارتمى الشّاعر على رجليه وتعلّق بركبيته، قال له المُعتمِد «قولاً تضمّن العفو تعريضاً لا تصريحاً». ومن سوء حظ الخائن، أنه كتب على الفور إلى الأمير الرّشيد[1] يخبره أنّ المُعتمِد عفا عنه. تسلّم الرّشيد الخطاب وفي حضرته رجال كانت بينهم وبين ابن عمّار ضغينة قديمة، وأوصلوا إلى الملك أمر خطابه إلى الرّشيد. عندها سأل المُعتمِد ابن عمّار إن كان قد أبلغ أحداً بما دار بينهما. فأنكر ابن عمّار أن يكون قد تحدث عن الأمر. فسأله الملك «من بين الورقتين اللتين استدعيتهما، كتبت في إحداهما القصيدة، فما فعلت بالأخرى؟».

فقال ابن عمّار، «لقد كتبت عليها مسوّدة القصيدة».

فقال له المُعتمِد، «أرني إذن تلك المسوّدة».

فلم يجد عندها الخائن جواباً، فاستبدّ الغضب فجأة بالمُعتمِد، وأمسك بطبرزين (فأس) وضربه به فقتله.

ومع ذلك، وعلى الرّغم من اقتناعه بخيانة الشّاعر، يبدو أنّ المُعتمِد ندم عندما عاد إلى رشده وأدرك ما فعله، فأمر بغسله وتكفينه وصلّى عليه ودفنه في القصر المبارك، قصر المُعتمِد في إشبيلية[2].

يمكننا أن نفهم أنّ رجلاً شقّ عليه أن يصدّق أنّ صديقه أراد به شراً، وشقّ عليه أن يرفض الصّفح عنه إلى أن تملّك منه الغضب، تعرّض للخيانة مرة تلو الأخرى من رجال أقلّ مروءة منه؛ وبالفعل لم يكن ابن عمّار الحالة الوحيدة.

يقول المرّاكشي عن أبي القاسم محمّد بن عَبّاد المُعتمِد على الله: «وكان المُعتمِد هذا يشبّه بهارون الواثق بالله من ملوك بني العبّاس ذكاء نفس وغزارة أدب، وكان شعره كأنّه الحلل المنتشرة، واجتمع له من الشّعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس، وكان مقتصراً من العلوم على علم الأدب وما يتعلّق به وينضمّ

(1) ذكر المرّاكشي، وفق النّسخة العربية التي لدينا، أن ابن عمّار كتب إلى الأمير الرّاضي بالله ابن المعتمد، وليس إلى ابنه الرّشيد، ص 58. (م)

(2) Al – Marrakushi, 108 – 9.

إليـه، وكان فيه مع هذا من الفضائل الذّاتية ما لا يُحصى كالشّـجاعة والسّـخاء والحياء والنّزاهة الى ما يناسـب هذه الأخلاق الشّريفة، وفي الجملة فلا أعلم خصلة تُحمد في رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم وضرب له فيها بأوفى سهم، وإذا عُدّت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت (سنة 1224 م) فالمُعتمِد أحدها بل أكبرها»[1].

يبدو أنّ حصار المرابطين لإشـبيلية بدأ بمكيدة دبّرتهـا مجموعة من المتألّبين على حكـم المُعتمِـد الذي لمّا بلغه ما يعدّون له من أفعال وما يبتغونه، وثبت له ما يضمرونه من شـرّ، أشـار عليـه البعض بـأن «يكشـف عورتهم ويسـفك دمهم وينـال من عرض نسـائهم، ويكشف وجوه بناتهم، غير أنّ نسبه النّبيل، وحكمته وسموّ خصاله منعته من الأخـذ بذلـك الرّأي، بمثل ما منعته عنه حنكته وصِـدق إيمانه الذي أكرم عليه الله به». فلم ينتقم منهم وهربوا من المدينة. وبعد مدّة قصيرة ثاروا عليه «بنصرة بعض البؤسـاء ممّن ضلّوا عن الله سواء السّبيل»[2].

يتابـع المرّاكشـي ويروي ما فعلـه المُعتمِد بقولـه: «فبرز هو من قصره وسـيفه بيده وغلالته ترفّ على جسده ولا درقة له ولا درع عليه، فلقي على باب من أبواب المدينة يسـمّى باب الفرج فارسـاً من الدّاخلين مشـهور النّجدة شاكي السّـلاح، فرماه الفارس

---

(1) Al – Marrakushi, 86 – 7.

النص العربي مقتبس من «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، لأبي علي المرّاكشي.

(2) قال ابن اللّبّانة في كتاب نظم السّلوك في مواعظ الملوك في أخبار الدّولة العبّاسية: إنّ طائفة من أصحاب المعتمد خامرت عليه، فأُعلم باعتقادها، وكُشف له عن مرادها، وحُضّ على هتك حرمها، وأغري بسفك دمها، فأبى ذلك مجده الأثيل، ومذهبه الجميل، وما خصّه الله تعالى به من حسن اليقين، وصحة الدّين، إلى أن أمكنتهم الغرّة فانتصروا ببغاث مستنسر، وقاموا بجمع غير مستبصر»، (المقّري، ج4، ص 216).

وكتب المرّاكشي (ص 64) عمّا حدث قائلا: «وأجمعت على الثّورة بحضرة إشبيلية طائفة، فأعلِم المعتمد بما اعتقدته الطّائفة المذكورة وكُشف له عن مرادها وأثبت عنده سوء اعتقادها وأُغريَ بتمزيق أديمها وسفك دمها، وحُضّ على هتك حريمها وكشف حُرمها، فأبى له ذلك مجده الأثيل ورأيه الأصيل ومذهبة الجميل، وما حباه الله به من حسن اليقين وصحة العقل والدّين، الى أن أمكنتهم الغرّة يوم الثّلاثاء منتصف رجب من السّنة المذكورة فقاموا بجيش غير مستنصر واستنسروا بغاثا غير مستنسر». (م)

برمح قصير أنابيب القناة، طويل شفرة السّنان فالتوى الرّمح بغلالته وخرج تحت إبطه وعصمه الله منه ودفعه بفضله عنه، وصبّ هو سيفه على عاتق الفارس فشقّه إلى أضلاعه فخرّ صريعاً»[1].

تلك كانت على ما يبدو بداية الهجوم الأخير على إشبيلية، إذ يتابع المرّاكشي سرد الواقعة بقوله:

«وانهزمت تلك الجموع ونزل المتسنّمون للأسوار عنها وظنّ أهل إشبيلية أنّ الخناق قد تنفس. فلمّا كان عصر ذلك اليوم عاودهم القوم فظهر على البلد من واديه ويئس من سكنى ناديه وبلغ فيه الأمل حاسده [أي حاسد المُعتمِد] وشانيه، وشبّت النّار في شوانيه فانقطع عنها الأمل والقول وذهبت القوة من أيدي أهلها والحول»[2].

لا بدّ أنّ الثّورة داخل المدينة جرت بالاتفاق مع المُرابطين، فالمرّاكشي يورد الآن أسماء قوّاد يوسف بن تاشفين الذين اقتحموا المدينة من البرّ ومن ناحية النّهر تباعاً[3]. ومع ذلك يتابع شارحاً أنّ الغموض والفوضى سادت لبضعة أيام، فيقول: «والتوت الحال أياماً يسيرة الى أن ورد الأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين وهو ابن أخي أمير المسلمين بعساكر متظاهرة وحشود من الرّعية وافرة، والنّاس في خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع وخالط قلوبهم الهلع يقطعون السّبل سياحة ويعبرون النّهر سباحة ويتولّجون مجاري الأقذار ويترامون من شرفات الأسوار حرصاً على الحياة، والموفون [للمُعتمِد] بالعهد المقيمون على صريح الودّ ثابتون، إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السّنة المذكورة [1091 م] وهذا يوم الكائنة

(1) المرّاكشي، ص 64.

(2) لا شك أن المقصود «بشوانيه» galleys جسر المراكب ما بين إشبيلية وطريانة، الذي كان المعتمد قد أعاد للتوّ بناء ما تهدّم منه. (ii, 163.)

(3) يقول المرّاكشي عندما يورد ذكر قادة المرابطين الذين هاجموا إشبيلية: «وكان الذي ظهر عليها من جهة البرّ رجل من أصحاب يوسف أمير المسلمين يعرف بجدير بن واسنو ومن الوادي رجل يعرف بالقائد أبي حمامة مولى بني سجوت». (ص 64). (م)

العظمى والطّامّة الكبرى، فيه حُمَّ الأمر الواقع واتسع الخرق على الرّاقع، ودُخل البلد من واديه وأصيب حاضرُه وباديه بعد أن جدَّ الفريقان في القتال واجتهدت الفئتان في النّزال، وظهر من دفاع المُعتمِد - رحمه الله - وبأسه وتراميه على الموت بنفسه ما لا مزيد عليه ولا تناهٍ لخلق إليه، وفي ذلك يقول المُعتمِد بعد ما نزل بالعدوة أسيراً حسيراً» في سجنه في مرّاكش بأفريقيا:

لمّا تماسكت الدّموعُ ... وتنبّه القلبُ الصّديعُ
قالوا الخضوعُ سياسةٌ ... فليبدُ منكَ لهم خضوعُ
وألذُّ من طعمِ الخُضو ... عِ على فمي السُّمُّ النَّقيعُ
إنْ تَستلب عنّي الدُّنا ... مُلكي وتُسلمني الجموعُ
فالقلبُ بين ضُلوعه ... لم تُسلمِ القلبَ الضُّلوعُ
لم أُستَلَبْ شرفَ الطّبا ... عِ أيسلبُ الشّرفُ الرّفيعُ؟
قد رُمتُ يوم نِزالِهم ... ألّا تحصّنني الدّروعُ
وبرزتُ ليس سوى القمي ... صِ عن الحشا شيءٌ دَفوعُ
وبذلتُ نفسي كي تسي ... لَ إذا يسيلُ بها النَّجيعُ
أجَلي تأخّرَ لم يكنْ ... بهوايَ ذُلّي والخُشوعُ
ما سِرتُ قطُّ إلى القتا ... لِ وكان من أملي الرُّجوعُ
شِيَمُ الأُلى أنا مِنهمو ... والأصلُ تتبعُه الفُروعُ!

ويتابع المرّاكشي في وصف ما حلّ بأهل إشبيلية قائلاً: «وشُنّت الغارة في البلد ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبداً ولا لبداً. وانتُهبت قصور المُعتمِد نهباً قبيحاً وأُخِذَ هو قبضاً باليد وجُبِرَ على مخاطبة ابنيه المعتدّ بالله والرّاضي بالله وكانا بمعقلين من معاقل الأندلس المشهورة لو شاءا أن يمتنعا بهما لم يصل أحد إليهما، أحد الحصنين يسمى رُندة والآخر مارتلة فكتب إليهما - رحمه الله - وكتبت إليهما السّيدة الكبرى أمهما، مستعطفين مسترحمين مُعلِمَيْن أنّ دمَ الكلِّ منهم مسترهنٌ بثبوتهما، فأنفا من

الذّلّ وأبيا وضع أيديهما في يد أحد من النّاس بعد أبيهما، ثم عطفتهما عواطف الرّحمة ونظرا في حقوق أبويهما المقترنة بحق الله عز وجل، فتمسّك كلٌّ منهما بدينه ونبذ دنياه ونزلا عن الحصنين بعد عهود مبرمة ومواثيق محكمة. فامّا المعتدّ بالله فإنّ القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه، وأمّا الرّاضي بالله فعند خروجه من قصره قُتِلَ غيلةً وأُخفِيَ جسده»[1].

لم يتخلَّ المُعتمِد حتى آخر لحظة في حياته عن عزّة نفسه وشيم قومه، فنظم أبياتاً يتحدّث فيها عن بعض الشّعراء الذين تعرّضوا له متوسّلين الحصول على عطاياه في أغمات، يقول فيها[2]:

شعراءُ طنجةَ كلّهم والمغربِ ذهبوا من الإغرابِ أبعدَ مذهبِ
سألوا العسيرَ من الأسيرِ وإنه بسؤالهم لأحقُّ فاعجبْ واعجبِ
لولا الحياءُ وعِزّةٌ لَخْميّةٌ طيَّ الحَشا ساواهمُ في المطلبِ
قد كان إن سُئِلَ النّدى يُجزلْ وإن نادى الصّريخُ ببابه اركبْ يركبِ

لا عجب في أنّ أتباع المُعتمِد وحاشيته، انتحبوا ولبسوا الحداد وهم يتابعون مليكهم وعائلته يرحلون. ويصف ابن اللّبّانة هذا المشهد في مرثيّة كتبها بعد وفاة المُعتمِد، تقول:

نسيتُ إلا غداة النّهر كونهمُ في المنشآت كأموات بألحادِ
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق أزبادِ
حُطّ القناع فلم تُستَرْ مخدرةٌ ومُزِّقَتْ أوجهٌ تمزيقَ أبرادِ[3]

---

(1) Al – Marrakushi, 119 – 22; cf. Makkari, ii. 298.

النص العربي مقتبس من المرّاكشي، ص 65 – 66. (م)

(2) Al – Marrakushi, 123.

المرّاكشي، ص 66. (م)

(3) لا يمكننا تفسير ما فعلته النّساء وقد نزعن نقابهن ورحن يمزّقن وجوههن كما يمكن أن يفعلن بثوب ملون، إلا بأن نساء الشّيعة كن يرتدين الأسود عموماً.

تفرّقوا جيرة من بعد ما نشأوا | أهلاً بأهلٍ وأولاداً بأولادِ
حان الوداع فضجّت كلُّ صارخةٍ | وصارخٍ من مُفداةٍ ومن فادي
سارت سفائنُهم والنَّوح يتبعُها | كأنها إبلٌ يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمعٍ وكم حملت | تلك القطائعُ من قطعات أكبادِ

ويقول كذلك:

عريسة دخلتها النّائبات على | أساود لهم فيها وآسادِ[1]
وكعبة كانت الآمال تعمُرها | فاليوم لا عاكف فيها ولا بادِ
تلك الرِّماحُ رماحُ الخط ثقفها | خطب الزّمان ثقافاً غير معتادِ

....

نور ونور فهذا بعد نعمته | ذوى وذاك خبا من بعد إيقادِ
يا ضيف أقفر بيت المكرمات فخذ | في ضمّ رحلك واجمع فضلة الزّادِ
ويا مؤمل واديهم ليسكنه | خفَّ القطين وجفَّ الزرعُ بالوادي
ضلّت سبيل النّدى بابن المسير فسِرْ | بغير قصدٍ فما يهديك من هادي[2]

إنّ ملكاً مبدعاً في تعبيره عن مشاعره وملهماً للآخرين، كما جاء في أخبار المُعتمِد

---

(1) كان للأسد في إشبيلية معنى مزدوجٌ. فهو رمز للقوة وقد جعل الفاطميون في مصر النّحاتين ينحتونه لهم «كرمز لقوّتهم» على أبواب قصورهم (cf. *L'Art Arabe, 279*). لقد كان الأسد والباز كذلك من الحيوانات المقدّسة في اليمن قديماً (*ib*, 186). ولذلك فإن وجود رؤوس الأسود المنحوتة، والتي تمثل نمط الفن المصري في الكنائس المستعربة التي بُنيت أو أضيفت في ظل الحكم الإسلامي في إشبيلية، يفسّر ذلك. أما بالنّسبة للأفاعي التي يشير إليها ابن اللّبّانة، فعلينا أن نتذكر أنّ الأفعى هي الرّمز الهيروغليفي للملكية في مصر القديمة، لكي نفهم لماذا وضع فنّانو الأندلس العرب الأقباط رسوماً تمثل الأفعى على مداخل القصور التي بنوها. ولا تزال الفكرة باقية أينما استقرّ الأقباط واليمنيون في هذه المنطقة، على الرّغم من أنها تحوّلت منذ مدّة طويلة إلى ما هو أكثر شبهاً بحرف S منه بالأفعى.

(2) Marrakushi, 125

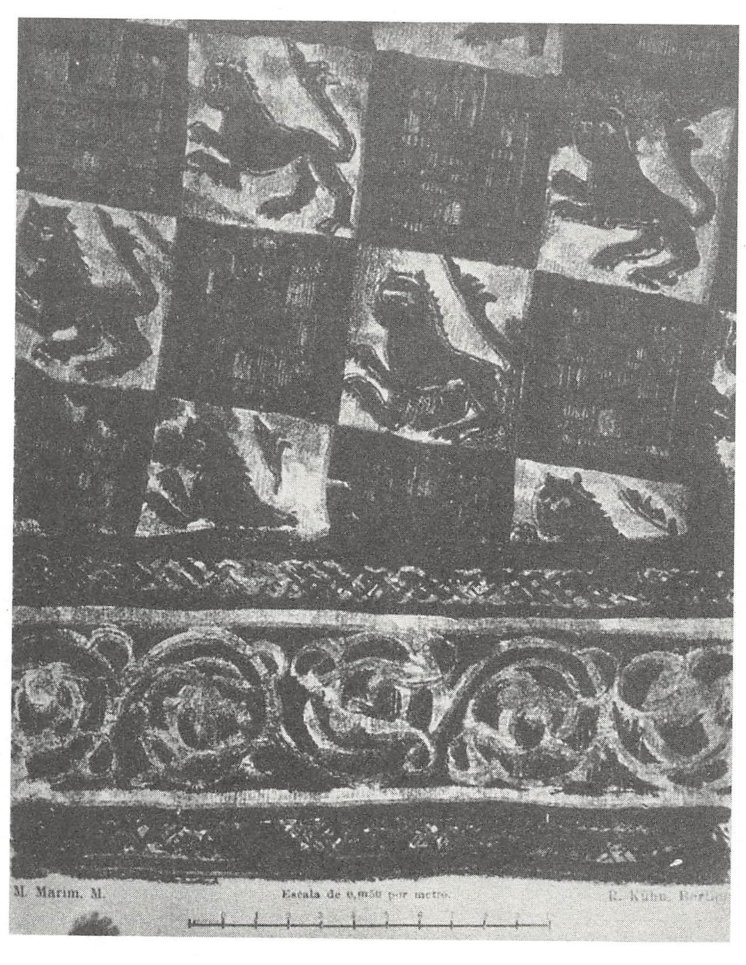
المرّاكشي، ص 68.

بن عَبّاد، لا بدّ أنه كان يتحلّى بطباع جعلته قريباً من قلوب النّاس بقدر ما كانت تسمو مكانته. ولا يقال إلا في عدد قليل من الملوك، بعد أن رقدوا لمئة وخمسين سنة في قبر حقير مهمل، إنّ «الناس لا يزالون يبكونه إلى اليوم»[1].

* * *

---

(1) ليس العرب وحدهم وإنما مسيحيو إشبيلية كذلك بكوا وحزنوا على المعتمد لأنه حماهم طوال فترة حكمه وترك لهم حرّية ممارسة شعائرهم الدّينية. وخلال القرن الحادي عشر بُني عددٌ من الكناس المستعربة ورُمّم بعضها الآخر في كل نواحي الجنوب الغربي، حتى أنّ المعتمد وظف مسيحيين ضمن حاشيته، ومن بينهم ابن المرغري، أحد الأثيرين لديه، وكان نصرانياً من إشبيلية وشاعراً متميّزاً. (Simonet, 660).



تفصيل من رداء دفن فرناندو الثّالث (سنة 1252) محفوظ في متحف الآثار في مدريد، وقد حيكت عليه أُسود وقلاع مثل دروع قصر إشبيلية. وفي كتاب الشّطرنج لألفونسو العاشر يظهر الملك مرتدياً رداءً مماثلاً.

الفصل الثّالث عشر

المرابطون

أصل المرابطين هو من أكثر ما تختلف الآراء بشأنه من بين عدد من المسائل المرتبطة بتاريخ الإسلام في إسپانيا. يقول بعض الكتّاب إنهم في الأصل من الأفارقة الهمج المتوحّشين أو من البربر الطّامحين بصورة رئيسية إلى النّيل من «أشراف العرب» الذين كانوا على احتكاك بهم: ويقول آخرون إنّهم من أصول عربية. ويؤكد البعض أنهم كانوا من المتزمّتين وأن الهدف من غزواتهم كان نشر دينهم، في حين يخبرنا آخرون أنهم كانوا قوماً طيبين اتسموا بالرّفق وانصب اهتمامهم على تطوير ثقافتهم أكثر من التّدخّل في شؤون جيرانهم.

تبرز من بين كل هذه الآراء المتناقضة بعض الوقائع، ومنها أن المرابطين كقوم كانوا ينتمون إلى المذهب الشّيعي من الإسلام، وكانوا يخطبون باسم الخلفاء العبّاسيين الحاكمين في الشّرق على منابر المساجد في المناطق التي يحكمونها، ويلبسون الأسود كما يفعل أشد أتباع الإمام علي بن إبي طالب إخلاصاً[1]. وأيّاً كان أصل القبائل الكثيرة التي اتحدت في نهاية المطاف تحت راية يوسف بن تاشفين، فقد كان هو نفسه ينتسب إلى العرب اليمانية، وقد قال عنه الشّاعر عبد الجليل في إحدى قصائده إنه «نمي في حِمْيَر». ويرد البيت في قصيدة كتبها الشّاعر للسّلطان المرابط ويقول فيها إن قبيلتي يوسف والمُعتمِد على الله كانتا موحّدتين مثل وشائج

(1) *Encyc. of Islam*, s. /v. "Almoravides" ; Conde, ii. 57; Al – Marrakushi, 79, 232.

السّيوف، وذلك لأن يوسف ينتمي إلى حِمْيَر، والمُعتمِد إلى لَخْم[1].

وبذلك يؤكد الشّاعر ما يورده كوندِه في تفصيله لتسلسل نسب المرابطين على الشّكل التّالي:

«يرجع أصلهم إلى قبيلة أخرى أكثر عراقة هي قبيلة لمتونة، نسبة إلى رجل يدعى لمتو[2] تربطه صلة قرابة برجل يدعى جدالة، وثالث يدعى مصطفى[3]، وإليهم جميعهم تنتسب قبائل تحمل الأسماء نفسها. كان الثّلاثة جميعهم يتفاخرون بانتسابهم إلى قبيلة أخرى أكثر عراقة ونبلاً هي قبيلة صنهاجة التي تنتسب بدورها إلى حِمْيَر أحد أقدم ملوك اليمن السّعيد... غادر الصّناهجة اليمن وارتحلوا إلى البادية بعد حروب اضطرتهم للهرب حتى لا يختلطوا مع البرابرة والهاربين في أفريقيا. ولكونهم فقراء، فقد كانوا يستخدمون رداءً بسيطاً يتدثرون به كالعباءة، ومن هذا الرّداء المسمّى لمط يقول البعض إنهم اشتقوا اسمهم، مع أنه يظهر أنهم يدينون به إلى جَدِّهم الأول الذي اكتسبوه منه في زمن غير معروف»[4].

يقول المقّري إنّ اسمهم مشتق من استخدامهم تروساً مغطّاة بجلد اللمط الذي ترجمه غايانغوس على أنه فرس النّهر، ولكنه يقول في مكان آخر إنّ اللمط هو نوع من الظّباء[5].

---

(1) *Abbadites*, i. 116.

يقول الشّاعر في قصيدته:

نمي في حِمْيَر ونمتك لَخْم … وتلك وشائج فيها التحامُ
فيوسف يوسف إذ أنت منه … كيامن، لا وهي لكما نظامُ

«الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، أبو الحسن علي بن بسّام الشّنتريني، تحقيق إحسان عبّاس، الدّار العربية للكتاب، ليبيا – تونس. ج 3، ص 245.

(2) Lamtu قد يكون الاسم لمطة (م)

(3) ورد في النّص الانكليزي اسم Mustafa كواحد من الرّجال الذين انتسبت إليهم تلك القبائل، ولكني لم أجد أي ذكر لشيخ انتسب إليه أبناء صنهاجة أو قبيلة بهذا الاسم ضمن القبائل المتفرعة عن صنهاجة في أي مرجع، وإنما هناك قبيلة: مسوفة. والأرجح أن مسوفة هو الأصح. (م)

(4) Conde, ii. 73 – 4.

(5) i. 408 note; ii. 273

ولا توجد أيّة إشارة إلى هذه التّروس أو الدّرق في أيّ مرجع آخر عن المرابطين[1].

يخبرنا لونورمان أنه عندما كتب في سنة 1869، كانت قبيلة بني لام الكبيرة لا تزال تسكن إحدى النّواحي التي استوطنها بنو يقطان Joktan - وهو اسم تم تعريبه قبل زمن طويل إلى بني قحطان - والتي كانت لا تزال تحمل اسم ملكهم حِمْيَر الذي أسّسها في القرن الأول قبل المسيح. نزل بنو لام فيما يسمّيه المؤلف «مهد بني قحطان» ويشمل بلاد مؤاب[2] (التي حكمها الملك ميشع الوارد ذكره في الكتب القديمة)، والحجاز، وحضرموت، واليمن[3]. وعليه يبدو الأكثر ترجيحاً أنّ اللمتونيين الأفارقة اشتقّوا اسمهم من أجدادهم في اليمن السّعيد وليس من تروسهم المصنوعة من جلد فرس النّهر أو الظّباء.

ولا يوجد في الموسوعة الإسلاميّة *Encyclopedia of Islam* ما يشير إلى تقاليد المرابطين وعاداتهم، فلا تتطرّق سوى إلى ديانتهم وغزواتهم. ولذلك سنورد بعض التّفاصيل المأخوذة عن كوندِه.

أول الأخبار التي تصلنا عن المرابطين هي تلك المرتبطة بيحيى بن إبراهيم زعيم قبيلة صنهاجة الذي نجح، بعد الحجّ إلى مكة في مطلع القرن الحادي عشر، في إقناع أحد الأدباء بالعودة معه لتعليم أبناء قبيلته أمور الدّين وما يُدرّس في المدارس. كان ذاك عبد الله بن ياسين الجزولي، الفقيه الذي درس لسبع سنوات في الأندلس والذي لم يُذكر أصله لا في كتاب كوندِه ولا في الموسوعة الإسلاميّة. أنشأ الجزولي رباطاً أو صومعة أو زاوية[4]

(1) ورد في رواية المقّري لمعركة الزّلاقة وخطاب يوسف بن تاشفين جواباً على طلب المساعدة من ملوك الأندلس أن «فلمّا فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه، فاستحسنه، وقرن به ما يصلح لهم من التّحف ودرق اللمط التي لا توجد إلا ببلاده، وأنفذ ذلك إليهم، فلما وصلهم ذلك وقرأوا كتابه فرحوا به، وعظّموه، وسرّوا بولايته، وتقوّت نفوسهم على دفع الفرنج عنهم، وأزمعوا إن رأوا من الفرنج ما يريبهم أنهم يرسلون إلى يوسف بن تاشفين ليعبر إليهم، أو يمدّهم بإعانة منه». ج 4، ص 356. (م)

(2) Meshalik, Mesha.

ميشع ملك مؤاب لذلك كان الأقرب اسم بلاد مؤاب شرق نهر الأردن (م)].

(3) Iii. 248, 251, 283.

(4) يقول كوندِه (i. 619, note) إنّ بيوت الرّباط كانت صوامع دينية ينزل بها المقاتلون وتشبه إلى

على جزيرة في نهر النّيجر أو السّنغال، بدعم من بعض الأتباع ومن بينهم اثنان من أشراف لمتونة هما يحيى بن عُمَر وأخوه أبو بكر وهما، كما يقول كوندِه، من قبيلة تنتسب إلى حِمْيَر؛ وسرعان ما جمع حوله عدداً كبيراً من المتنسبين، لأنّ بني لمتونة «لم يكونوا على درجة كبيرة من الهمجية والشّراسة، وإنّما راغبين في تعلّم الآداب وأصول الدّين لأنهم كانوا بطبيعتهم طيّبين عطوفين، على الرّغم من بساطة تقاليدهم البدائية».

تختلف رواية كوندِه هنا عن تلك الواردة في الموسوعة لأنه يعطي وزناً أكبر لرغبة هؤلاء القوم في التّحضر، وبدرجة أقلّ للعامل الدّيني. لكن المصدرين يتفقان مع ذلك بشأن التّبجيل الذي كان يحظى به المدرّس والسّلطة التي كان يتمتع بها لدى كبار القوم الذين «انضمّ سبعون منهم إلى مدرسته على الفور». جمع ابن ياسين نحو ألف من المقاتلين والقادة في رباطه وأطلق عليهم اسم المرابطين، وهي الكلمة التي تحوّلت في الإسپانية إلى *Almoravides*.

عندما مات يحيى بن عُمَر أثناء القتال، عيّن ابن ياسين أخاه أبا بكر مكانه، لكن ياسين قتل هو الآخر بعد مدّة قصيرة في معركة مع قبيلة من البربر الذين أراد ضمّهم إلى عقيدته بقوة السّيف. فتولّى أبو بكر الذي كان مجرّد زعيم صوري بالنّسبة لقائد بارع مثل ياسين، القيادة بكل جِدِّية وعزمَ على تقوية البلاد وتطويرها في الدّاخل، وكذلك توسيع حدودها في الخارج.

ازداد عدد أتباع أبي بكر بصورة كبيرة مع وصول أناس من البادية، وبحلول سنة 1068 «كانت أعدادهم تزداد باطّراد وبصورة كبيرة حتى صار المهاجرون يضغطون على السّكان

حدّ كبير أخويات الفرسان المسيحية the Military Orders of the Christians. ودير الرّابطة Monastery de la Rabida من حيث أبحر كولومبوس في رحلته الاستكشافية، هو ما تبقى من الرّباطات التي أنشأها المسلمون على تخوم مملكة لبلة، والتي تفصل الحدود بينها وبين إمارة شلطيش مدينة بالوس دي لا فرنتيرة (بلش). ويذكر الإدريسي (p. 14) [في كتاب الإدريسي العربي ص 248] صومعة تدعى رابطة روطة Rabida Rota قرب قادس حيث كان يوجد مسجد ذو شأن كبير يؤمّه النّاس من كل ناحية (Marrakushi, 270). ولا تزال المدينة التي يشير إليها تحمل اسم روطة لكن تم اسقاط «رابطة» من الاسم.

الأصليين ولم يكن في البلاد متسع لهم؛ ولم يكن السّكان الأصليون يتفقون مع الغرباء». لهذا السّبب، ونزولاً عند طلب قومه أسّس أبو بكر مرّاكش. لقد حصل ذلك، كما يقول كوندِه في سنة 1070. ولكن أثناء انشغال أبي بكر في بناء عاصمته الجديدة، وصلته أنباء بأنّ أقرباءه من قبيلة لمتونة في وضع صعب ويخشون أن يقدم جيران يعادونهم على تدمير بلادهم إن لم يهبّ لنجدتهم. فعيّن أبو بكر ابن عمّه يوسف بن تاشفين الذي كان مثله سليل «نسب حِمْيَر الأصيل» ليقوم بدور الوصيّ في غيابه، وأسرع لمساعدة عائلته.

عندما عاد بعد عام وجد أنّ يوسف يسيطر تماماً على الوضع وقد شهدت المملكة إزدهاراً واسعاً بفضله. ومن غير المعروف إن كان أبو بكر تخلّى طواعية عن المُلك، أم أن يوسف عزله. وواصل يوسف تسيير الأمور وعاد أبو بكر إلى مسكنه الأصلي في البادية ومات في السّودان في حوالي سنة 1087 – 1088 [1].

كان لدى يوسف بن تاشفين كل شغف اليمنيين بالبناء، وسرعان ما عظم شأن العاصمة الجديدة مرّاكش في رعايته. ولم يكن المرابطون قد وجدوا أول ما نزلوا فيها سوى وادٍ وسط غابة لا يعيش فيها غير الأسود والنّمور والماعز البرّي والنّعام وما إلى هناك، لكن طبيعة المكان كانت غنية بمواردها من المياه العذبة الباردة والمرعى الوفير والموقع الملائم. كان أبو بكر قد بدأ بتخطيط الطّرق والسّاحات والأماكن العامة قبل أن يستدعيه أهله، وعندما تولّى يوسف بن تاشفين زمام الحكم، قام ببناء أسوار حول المدينة ومسجد وأضاف حصناً لتخزين السّلاح والمال والكنوز. وعمل يوسف إلى جانب باقي العمال بيديه في بناء المسجد فكان «قدوة للجميع في حماسه وتواضعه. رحم الله من شيّد هذا البنيان». ويختتم المؤلف الذي نقل عنه كوندِه القصة بقوله «هذه الآن حضرة مرّاكش الشّريفة في موقع مبهج، وفير المروج والفاكهة والمياه، فأينما حُفرت بئرٌ على عمق قليل وُجدت مياه عذبة نقية»[2].

جمع يوسف الذي انتهى إليه حكم بلاد الأندلس وكل نواحي غرب أفريقيا بين

---

(1) *Encyc. of Islam*, s. /v. “Almoravides”; Conde, ii. 73 – 81.

(2) Conde, ii. 84 – 5.

مزايا كرم النّفس وصحّة البدن، وكان متعقّلاً في حكم قومه، ماهراً مقداماً في الحرب، حريصاً على الدّوام على تأمين وحماية مُلكه، شديد العناية بحدوده وثغوره، مُحباً للقتال، فكان يخوض الحرب بذكاء ثاقب وحسن طالع، وكان إلى ذلك متسامحاً، حازماً ومتقشفاً. ولم يكن يوسف بن تاشفين يهتم بملبسه وزينته وإنما شديد الاعتناء بنظافته، متعفّفاً في طلب الملذّات معتدلاً، كيّساً في أسلوبه وحديثه؛ لقد أثبت بشتّى الطّرق جدارته لتولّي المهمّة العظيمة التي خلقه الله من أجلها وقدّر له أن يتولاها، وهي أن يفتح ممتلكات واسعة من العالم من أجل نُصرة الإسلام. كان لباسه من الصّوف فلم يلبس شيئاً غيره؛ وأكله من الخبز المصنوع من الشّعير ولحم الإبل وغيره من الشّديد من الحيوان، ولكن بكميات صغيرة، لم يسمعه أحد يشكو مرة من مذاق طعامه، أو كميته ولا نوعه؛ فكان في ذلك منتظماً. لم يُعرف في حياته علّة ما عدا تلك التي أرسلها الله له عندما استدعاه لينال أجره وثوابه في الحياة الآخرة.

حكم ابن تاشفين بالعدل، ومع أنه حرص على أن يكون شديد العدل، فقد كان لطيفاً متسامحاً مع رعيّته. وقّع مواثيق صلح مع الكفرة الذين استولى على بلادهم، فكانت الجزية التي دفعوها بموجب تلك المواثيق كبيرة جداً حيث أنه بعد وفاته عثر في خزائنه على ثلاثمئة ألف ربع من الفضة، وخمسة آلاف وأربعين ربعاً من الذّهب[1]. لقد كان يوسف بن تاشفين حادّ الذّكاء، طلق المحيّا وإنما متواضعاً خجولاً. ويقول كاتب سيرته الذي يُستشف من معرفته بتفاصيل حياة يوسف اليومية إنه كان معاصراً له: «لقد اجتمعت فيه كل الخصال الحميدة».

يقال إنّ يوسف اشترى عدداً كبيراً من العبيد الذين ابتاعهم من تجّار كانوا يتاجرون مع غينيا في مدينة تدعى غازا Gasza، في عمق الصّحراء، وإن هؤلاء الزّنوج كانوا فيما سبق مسيحيين ولكن من خلال احتكاكهم بالبربر أو بسبب ويلات الحرب وأهوالها، أو

---

(1) الرّبع arroba الإسباني يساوي اليوم حوالي 25 lbs، أي 25 رطلا.
[الخمسة وعشرون رطلاً تساوي حوالي 11 كيلوغراما. والرّبع المستخدم قديماً هو ربع قنطار، والقنطار يساوي حوالي 45 كيلوغراماً. (م)]

لسبب آخر غير معروف؛ لم يحافظوا على ديانتهم[1]. أُرسل هؤلاء الزّنوج إلى سواحل الأندلس حيث تمّت مبادلتهم مع أسرى نصرانيين قايضهم الأندلسيون. حرص يوسف على تعليم الشّبان الأندلسيين أصول الشّريعة، وتزويدهم بالخيل والسّلاح، وتدريبهم على فنون القتال وركوب الخيل، وجعل مئتين وخمسين من خيرة وأمهر الرّجال منهم في حرسه الخاص. وبالإضافة إلى هذا الجيش الأندلسي، كان لديه حرس يتألف من ألفين من الزّنوج المدرّبين[2].

سكّ بن تاشفين عملة من الذّهب، وكانت خيوله مجلّلة بالذّهب، ومقابض سيوفه من الذّهب والفضّة. ولبس النّاس في بلاطه أثواباً من الكتّان وجلد الجديان الرّقيق، إلى جانب شالات أو بطانيات الصّوف النّاعم القرمزي والأبيض الذي يميّز قبيلة لمتونة. كما عرف قومه كيف يصنعون نوعاً من القماش النّاعم الواقي من الماء والمطر، واستخدموا خشب الصّندل ذا الرّائحة الحلوة الذّكية، والمسك والكافور والعنبر وقط الزّباد. وكانت كل هذه المواد ووسائل التّرف الرّاقية تلقى رواجاً في مرّاكش في مرحلة مبكرة من حكم المرابطين، فقد ذُكر العديد منها بين الهدايا التي تلقّاها أبو بكر عندما حُمل على التّنازل عن الملك لابن أخيه[3]. يصعب أن تتلاءم مظاهر التّرف والرّفاهية هذه مع رجل همجي، أو يدل الوصف العام لشخصية يوسف وأسلوب حياته ونمط تفكيره على أنه كان متديناً متزمّتاً. صحيح أنه قيل إنه ساعد في بناء مسجد بيديه، ولكن عبد الرّحمن الأول ملك قُرطُبة، فعل الشّيء نفسه من قبل، ومن المؤكد أن التّزمّت الدّيني لم يكن من صفات ذلك الأمير البارزة.

امتدّت مملكة يوسف بن تاشفين قبل وفاته من الجزائر إلى طنجة في الشّمال، وشملت كل المغرب ومدينة فاس. ويلقي كوندِه فيما يورده عن تطويره لمدينة فاس، ضوءاً مهمّاً على أسباب وسرعة تقدّم حضارة المرابطين.

---

(1) سيكون بوسع المطّلعين على التّاريخ القديم لغينيا أن يعرفوا إن كان لهذه الواقعة الغريبة أيّ أساس.

(2) Conde, ii. 82 – 6p cf. Codera, *Almoravides*, 30 note.

(3) *Ibid.*, ii. 88 – 90.

كان أول ما فعله يوسف هو هدم حائط كان يفصل «الحيّ الأندلسي» عن حي أهل قيروان داخل المدينة، ثم قام بتوسيع فاس وتطويرها في كافة الاتجاهات، وجعل أهلها يشاركون في العمل[4]. كان ذلك في سنة 1070.

كان هؤلاء الأندلسيون قد تركوا بصماتهم على المدينة قبل أن يحكمها يوسف بن تاشفين بوقت طويل. ولا تزال توجد في فاس مبانٍ قديمة تحمل كتابات بالخط الكوفي المميّز الذي شاع استخدامه في الأندلس في القرنين العاشر والحادي عشر. ويرجّح أن هذه الكتابات تعود إلى أيام المنصور، عندما كانت فاس تابعة لقُرطُبة، كما بنى عبد الملك بن المنصور، بوصفه ممثلاً للخلافة، مسجداً فيها. ويوجد في كتاب كونده رسم مطبوع لكتابة من هذا المسجد تحمل تاريخ 985 م. (375 هجرية)[5]. وهي مطابقة لكتابات منقوشة بالطّريقة نفسها على مبانٍ أندلسية تعود إلى القرنين العاشر والحادي عشر ولكتابات في قصر إشبيلية، وعلى قطع فنية وقطع منحوتة محفوظة في متاحف عدّة تحمل تواريخ عائدة لتلك الحقبة. وعلى الرّغم من مرور سنوات طويلة على تحرر فاس من السّيادة الإسبانية، فقد وجد يوسف جالية من الأندلسيين في المدينة في سنة 1070، وكان عددهم كبيراً بما يكفي ليشكلوا حيّاً خاصاً بهم، ولديهم من مهارات البناء ما يكفي بالنّسبة إليه لكي يهدم الجدار الفاصل لكي يختلطوا مع باقي السّكان ويشاركوا في العمل الذي بدأه من أجل تحسين المكان.

فكيف جاء الأندلسيون للإقامة في فاس بهذه الأعداد الكبيرة؟ لم تكن هناك حركة استعمار في عهد المنصور الذي كان احتلاله للبلد لأسباب عسكرية محضة واستمرّ مدّة قصيرة[6].

ويأتينا الجواب من ابن غالب، الكاتب الذي عاش في القرن الحادي عشر والذي ذكره واستشهد به كثيراً ابن سعيد الذي نقل عنه المقّري بدوره مقاطع طويلة في فصوله المتعلقة بالاقتصاد المحلّي في إسبانيا تحت الحكم الإسلامي.

(4) *Ibid.*, ii. 93.

(5) Conde, i. 517.

(6) *Ibid.*, i. 514 ff., 521 – 2.

يقول ابن غالب، الذي توفّي على ما يبدو في سنة 1044[1]، يمكن القول إنّ الفضل فـي الثّـراء الذي تعرفه أفريقيـا اليوم ومكانتها واتسـاع تجارتها، يعود إلى الأندلسـيين الذيـن اسـتقرّوا فيها. «فلمّـا نفذ قضاء الله تعالـى على أهل الأندلس بخـروج أكثرهـم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المُبيرة [يعني بذلك الحرب التي بدأت بعزل هشام الثّاني] لجـأ آلاف من سـكانها من كافة الطّبقـات والصّنائع إلـى تلك الشّـواطىء[2]، وتفرّقوا ببـلاد المغرب الأقصى من برّ العدوة مع بلاد إفريقية، واسـتقروا حيثما وجدوا الرّاحة أو العمـل. واتخذ العمّال وأهل الرّيف الأشـغال التي اعتـادوا عليها في الأندلس (..) أمّـا أهـل البادية فمالوا فـي البوادي إلى مـا اعتـادوه، وداخلوا أهلها وشـاركوهم فيها فاسـتنبطوا المياه، وغرسـوا الأشـجار، وأحدثوا الأرحـي الطّاحنة بالمـاء وغير ذلك، وعلّمـوا الفلاحيـن الأفارقة أشـياء لم يكونـوا يعلمونهـا ولا رأوها، فشـرفت بلادهم وصلحت أمورهم وكثرت مستغلّاتهم وعمتهم الخيرات.....

«وأمّـا أهل الحواضر [من الأندلسـيين] فمالوا إلـى الحواضر واسـتوطنوها، ولكونهم على درجة من العلم وضليعين في كافة فروع العلم والأدب، فقد برزوا وعُرفوا في البلاط، أو في المدن الرّئيسـية حيث استقرّوا. أمّا أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتّاب والعمّال وجُباة الأموال والمسـتعملون في أمور المملكة، ولا يُسـتعمل بلدي ما وُجد أندلسـي، فلم يعد في أفريقيا ناحية لا يكون فيها بعض من كبار العاملين من الأندلسيين.

«ولكـن الفائـدة الأكبر التـي جنتها أفريقيـا من تدفّق مـن هجّروا باتجاه شـواطئها، كانـت مـن العمال وأهل الصّنائع في شـتّى مجالاتهم. ومن المعـروف أنه قبل وصول الأندلسـيين كان الكثيـر مـن الحـرف المزدهرة اليـوم [يعني النّصـف الأول من القرن الحادي عشر] بالكاد تُعرف في أفريقيا، وأنّ أهل الصّنائع المهاجرين فاقوا أهل البلاد، في شـغلهم وحذقهم. فعلى سـبيل المثال، كانوا متى دخلوا في تشييد مبنى، عملوه في

(1) Makkari, i. 310, 332.

(2) كان هؤلاء شيعة الأندلس الذين تعرّضوا بشكل خاص للنّهب والسّلب والقتل على أيدي جيوش المغتصبين، سواء أكانوا من البربر أو العرب السُّنّة؛ انظر المقّري:
cf. Makkari, ii. 225 – 30; An – Nuweair in Makkari, ii. 448, 496, and passim.

أقرب مدّة، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتّجويد ما يميلون به النّفوس إليهم، ويصير الذّكر لهم، قال: ولا يدفع هذا عنهم إلا جاهل أو مُبطل»[1].

لم يقدّر المرابطون ويستفيدوا فحسب من حضارة ومهارة المهاجرين الأندلسيين الذين لجأوا إلى أفريقيا هرباً من تجاوزات السُّنّة وعساكر بربر إسپانيا، ولكن هناك أدلة على أنّ الحكّام المرابطين كانوا يقدّرون الثّقافة اليمنية واستوزروا شعراء وأدباء يمنيين في مجلسهم وحضرتهم. ومن بين أعيان الكتّاب الذين عملوا لدى يوسف بن تاشفين، أبو بكر المعروف بابن القصيرة كاتب المُعتمِد على الله. كما عمل كاتباً لدى علي، ابن يوسف وخليفته، الوزير أبو محمّد عبد المجيد بن عبدون ابن مدينة يابرة، الشّاعر ذائع الصّيت وأحد أبناء المُعتمِد كما يقول كوندِه[2]. من الواضح أنّ الحكّام المرابطين احتفظوا بما يكفي من غرائزهم القبلية وتقاليدهم لكي يتمكنوا ويرغبوا في الاستفادة من مكوّنات الحضارة اليمنية الأندلسية التي عرفوها في مدينة فاس وغيرها.

وقبل أن ننهي هذا الموضوع علينا أن نضيف أنّ العملة التي سكّها المرابطون كانت رائعة التّصميم والتّنفيذ ومنتشرة بكميات كبيرة قبل أن يغزو يوسف إسپانيا. ويشير السّنيور كوديرا إلى ذلك بوصفه أمراً جديراً بالملاحظة ويشرحه من خلال افتراض أنّ فنّ النّقش على الذّهب كان في ذلك الوقت متقناً لدى جميع الأمم الكبيرة، وأنّ تحسين العملة لم يكن تطوراً عارضاً أو معزولاً وإنما متماشياً مع منهج ثابت صادر عن سلطة مركزية. ويحتمل أنّ السّنيور كوديرا لم يطّلع على ما قاله ابن غالب عن تأثير الأندلسيين الذي كان شديد القوة في تلك الفترة في أفريقيا، وإلا ما كان سيصعب عليه فهم كيف تعلّم المرابطون صنع القطع النّقدية الجميلة. وهو يلفت الانتباه إلى الازدهار المادي الذي تعكسه تلك القطع النّقدية الذّهبية منها والفضّية. والقطع النّقدية الذّهبية ملفتة بشكل خاص نظراً لتوحيد وزنها. ولم تكن قطع النّقد الأندلسية الذّهبية المسكوكة

---

(1) Makkari, i. 118 – 9.

نقل المقّري النّص عن ابن غالب كما نقله ابن سعيد. والنّص العربي مقتبس من المقّري، ج 3، ص 152، مع ضبطه مراعاة للنّص الإنكليزي. (م)

(2) Marrakushi, 138 – 9; Conde, ii. 193.

بمثـل هذه الجـودة، ويبدو أنه تـم في عهد ابن تاشـفين اعتماد قوانين تفـرض الالتزام بوزن موحّد. أمّا بالنّسـبة للمعاملات التّجارية الأقل أهمية، فقسـم المرابطون الدّرهم إلى أنصاف وأرباع وأثمان وجزء من ستة عشر، وهو أمر يبدو كذلك مستحدثاً، مع أن بني الأفطس آخر ملوك بطليوس سعوا إلى إصدار مثل هذه القطع النّقدية الصّغيرة.

وينسـحب المسـتوى الفنـي الرّفيـع في سـكّ العملة النّقديـة كذلك على نمـط آخر من النّقش، هو تحديداً النّقش على الحجر. هنا لم تعد الكتابة الكوفية القديمة مستخدمة، ليحلّ محلهـا الخـط الجميل المتصل، فـي حين كانت الكتابة نفسـها محاطة بإطار مـن الزّخرفة البديعة الرّشيقة[1]. ويمكن رؤية بعض من الخطوط الجميلة التي يشير إليها السّنيور كوديرا فـي قصر إشـبيلية، وعادة ما تكون داخل الإطـار المنقوش للبوّابات الكبيـرة، ما بين الخط الكوفي البسيط الصّارم، والنّمط المزخرف الأفريقي الذي كان أثيراً لدى الموحّدين[2].

هذا ما كان من أمر الملك والنّاس الذين دُعوا لنجدة مسـلمي إسپانيا في سنة 1086 فـي مواجهـة انتهـاكات النّصـارى لحصونهم. وسـنبحث فـي فصل لاحـق العلاقات الدّاخليـة بين مسـلمي إسـپانيا والأسـباب التـي جعلتهم يقـرّرون اتخاذ خطـوة كانت نتيجتها النّهائية أنهم فقدوا استقلالهم[3].

---

(1) Codera, *Almoravides*, 218 ff.

(2) كان الخط الكوفي الإشبيلي هو المستخدم في سك العملة النّقدية في القرن الحادي عشر، ولم يعد يستخدم بعد سقوط المعتمد.

(3) كان لا يزال الحيّ الأندلسي *Barrio de los Andaluces* موجوداً في فاس، ولا تزال إحدى حاراته تحمل اسم طريانة على اسم حي الخزّافين في إشبيلية. هنا يقوم جامع بني إدريس الذين حكموا شمال أفريقيا من فاس إلى بنزرت، بالقرن العاشر. في سنة 973 أذعن آخر ملوك بني إدريس لإمامة هشام الثّاني وبنى المنصور محراباً لتزيين هذا المسجد، وأهدى الحيّ *Aljama* منبراً من الأبنوس المحفور غني الزّخرفة (Conde, i. 472, 514 – 6).

عندما حاصرت القبائل السّاخطة فاس الواقعة تحت الوصاية الفرنسية في مايو من سنة (1912)، كان أول ما فكّروا فيه اقتحام الحيّ الأندلسي والاستيلاء على راية بني إدريس الشّريفة المحفوظة في المسجد العتيق. ونجحوا في ذلك على الرّغم من قصف المدفعية الفرنسية، وهدفهم إعلان «الجهاد» تحت الرّاية القديمة لحكام مرّاكش الفاطميين.

Aljama كلمة إسپانية مأخوذة من كلمة الجامع أو «الجماعة» العربية وتعني الحي. (م)

الفصل الرّابع عشر
الأندلس في القرن الحادي عشر

نورد فيما يلي لمحة موجزة عن الظّروف السّياسية السّائدة في القرن الحادي عشر عندما توحّدت الدّول التي يحكمها رجال من أصل يمني أو عامِلوهم في إطار اتحاد فضفاض تحت إمامة الخليفة هشام الثّاني حتى مماته في سنة 1058. واستمرّ هذا الاتحاد قائماً تحت حكم بني عَبّاد ملوك إشبيلية.

بطليوس: تولى الحكم في بطليوس في سنة 1009 سابور الذي أعتقته عائلة المنصور بن عامر، وسكّ العملة باسم الحاجب (حاجب هشام الثّاني). عثر على شاهدة قبره في سنة 1881 أثناء هدم منزل في شارع أبريل في بطليوس Badajoz. وتحمل الشّاهدة اسم سابور الحاجب وتاريخ وفاته سنة 1022[1]. وخلفه في الحكم

---

(1) راجع مقالاً للكاتب أمادور دي لوس ريوس في مجلة "*Revista de Archivos*" لشهر فبراير 1909، الصّفحة 48. يتحدّث الكاتب عن سابور بوصفه «يحتمل أن يكون واحداً من بين العديد من ملوك الطّوائف غير المعروفين في تلك الفترة». ويختلف المقّري وغايانغوس بشأن تاريخ وفاته، ولا يعطي أيّ منهما التّاريخ المذكور على قبره.

قلت: كان يلقّب بسابور العامري، وكان أحد صبيان فائق الخادم، فتى الخليفة الأموي المستنصر بالله الحَكَم الثاني (350 – 366 هـ)، وقت انحلال الدولة. وكان سابور قد استبدّ سنة 400هـ بالجزء الغربي من الدّولة، الذي يشمل أرض الثغر الأدنى وحاضرته بطليوس وأسفل وادي التّاجه حيث مدينتا شنترين والأشبونة (لشبونة اليوم). واتخذ سابور لنفسه لقب «حاجب»، كما اعتاد معاصروه من ملوك الطوائف أن يصنعوا، واعتمد في إدارة دولته على وزيره عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الأفطس الذي اشتهر بأنه من أهل المعرفة والحكمة، وزوّج ابنته أحد أبناء ابن الأفطس. وتوفي سنة 413 هـ. انظر: الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسّام

بنو الأفطس من قبيلة تُجيب، الذين سكّوا بدورهم العملة بوصفهم حُجّاب الخليفة هشام. كان بنو الأفطس من العلماء والأدباء وظلوا على ما يبدو مخلصين حتى النّهاية لتحالفهم مع المُعتمِد واعترافهم بوصايته عليهم بعد وفاة هشام.

انضمت دويلات صغيرة إلى بطليوس، أو الغرب كما كانت تسمّى وهي لبلة وشنتمرية الغرب وشلطيش وولبة وجبل العيون وأكشونبة وشلب والتي بقي العديد منها ولقرون تحت حكم عائلات نصرانية أو من المولّدين ممّن هم على صلة مع أحفاد الأميرة سارة. وكانت كل هذه الدّويلات تدين بالطّاعة للخليفة هشام وبعده للمُعتمِد على الله الذي تزوّج ابنة أمير لبلة. ويشير الكتّاب المسيحيون والمسلمون على السّواء إلى بقاء الكنائس والأديرة في هذه النّاحية ولا يزال يمكن مشاهدة هذه المباني المستعربة في أنحاء البلاد.

سَرَقُسطة: حكمت عائلة من بني تُجيب هذه الدّويلة - وهي أبعد ناحية استوطنها العرب إلى أقصى الشّمال عندما حصل الغزو، وكانوا يمنيين بصورة رئيسية - حتى 1044، وسكّوا المال باسم حجّاب الخليفة هشام. وفي تلك السّنة، تولّى بنو هود على تلك الدّويلة، وهم من قبيلة جُذام. وسكّوا هم أيضا العملة باسم حجّاب هشام حتى سنة 1082. ولم نعثر على تفسير لماذا استمرّوا يفعلون ذلك لسنوات عديدة بعد وفاته، ولكنه أمرٌ لا خلاف فيه، حيث توجد نقود باسمهم تحمل ذلك التّاريخ. وحكم أفراد من بني هود كذلك على دويلات أقلّ شأناً مثل قلعة أيوب وتَطيْلة، حيث تم كذلك سكّ العملة باسم حجّاب هشام. وكان سكان قلعة أيوب ودورقة، ووُشقة من اليمنيين، وحكمها في الفترات الأولى بنو تُجيب الذين تحالفوا عموماً مع غيرهم من اليمنيين أو مع المسيحيين القوط في مواجهة حكّام قُرطُبة السُّنّة خلال الفتنة الأولى. هناك بعض أوجه التّشابه المذهلة بين ما وصلنا من الفن العربي العائد إلى الفترات الأولى في سَرَقُسطة وذاك العائد إلى الفترة نفسها في إشبيلية[1].

الشّنتريني، تحقيق إحسان عباس. (أحمد) سابور العامري أحد صبيان فائق الخادم، فتى الخليفة الأموي المستنصر بالله الحَكَم الثاني (350 - 366هـسابور العامري أحد صبيان فائق الخادم، فتى الخليفة الأموي المستنصر بالله الحَكَم الثاني (350 - 366هـ

(1) كان في سَرَقُسطة أسقف من سنة 1040 إلى 1063.

دانية وجزر البليار: كانتا تحت حكم بني العامري، من أحفاد رجل أعتقه ابن المنصور الأصغر عبد الرّحمن (شنجول). وظلوا يسكّون العملة حتى سنة 1075 بصفتهم حجّاب هشام، ومن ثم بوصفهم حجّاباً دون ذكر أيّ خليفة. تزوّج المعتضد ملك إشبيلية إحدى بنات مجاهد العامري، مؤسّس هذه السّلالة. وتزوّجت بنت أخرى له من عبد العزيز حاكم بلنسية، ابن عبد الرّحمن (شنجول). وعليه كان ملك إشبيلية وأمير بلنسية في الجيل التّالي أبناء خالات من الدّرجة الأولى، وقد عاضدوا بعضهم بعضاً حتى النّهاية. في سنة 1065، تمكن المأمون بن ذي النّون حاكم طُليطلة من إزاحة عبد الملك بن عبد العزيز والاستيلاء على أملاكه. ولكن بعد اثنتي عشرة سنة، ثار أهل بلنسية عليه وأعادوا توكيل بني عامر، فولّوا منهم عبد الملك بن أبي بكر. ولسوء حظه، تحالف أبو بكر مع يحيى بن المأمون بن ذي النّون، وتزوّج ابنته بهدف ترسيخ هذا التّحالف. وعندما استسلمت طُليطلة لألفونسو السّادس في سنة 1085، ذهب يحيى إلى بلنسية وبمساعدة ألفونسو استولى على مُلك صهره[1].

بلنسية: كانت تحت حكم بني أبي عامر، وهي سلالة أسّسها حفيد المنصور عبد العزيز بن عبد الرّحمن شنجول. وحملت العملة التي سكّوها اسم هشام بوصفه إماماً للمسلمين إلى مماته. وفي وقت لاحق، سكّ أحد أبناء تلك العائلة العملة باسم حاجب الخليفة العبّاسي عبد الله[2].

حتى طرطوشة، الدّويلة الصّغيرة غير ذات الأهمية، كانت لها عملتها الخاصة التي

---

(1) ارتبط بنو العامري بعلاقات صداقة مع النّصارى في بلدهم. وتوجد وثيقة جعل فيها علي بن مجاهد العامري أسقفية برشلونة مسؤولة عن جميع الكنائس في مملكته بما فيها أسقفيات جزر البليار ودانية وأوريولة، ويأمر فيها بأن يرسم أسقف برشلونة جميع الكهنة والقساوسة والشّمامسة في تلك الأبرشيات وأن يخضعوا لسلطته وحده وليس لأحد غيره. ولقد اعترف بحق ملك دانية في القيام بذلك أسقف برشلونة وثلاثة أساقفة آخرين ممّن حضروا حفل تكريس كاتدرائية سانت كروز وسانتا أولاليا في سنة 1058؛ وكذلك البابا وفقاً لبعض المراجع. ويمكن أن نستنتج من هذا أن علي بن مجاهد اتخذ لقب الملك عندما توفي هشام في تلك السّنة.

(2) لقد حمى بنو أبي عامر النّصارى كذلك ونقرأ عن وجود أسقف في بلنسية في سنة 1089. الخليفة العبّاسي هو عبد الله القائم بأمر الله 1031 – 1075م. (م)

حملت أسماء حكّامها بوصفهم حجّاب هشام الثّاني.

وكانت لدى لاردة عملة تحمل اسم الخليفة هشام.

أمّا قُرطُبة فحكمها بنو جهور من سنة 1031 بوصفهم حجّاب هاشم الثّاني إلى أن حاصر البربر المدينة سنة 1058 (سنة وفاة هشام)، فاستنجد ابن جهور بالمعتضد ملك إشبيلية وسلّمه مقاليد الحكم في المدينة. فشكّلت قُرطُبة منذ ذلك الوقت واحدة من دويلات الاتحاد تحت حكم اليمنيين. ولم يُعثر على عملة تعود إلى تلك الحقبة.

وحكمت مُرسية سلالة بني طاهر اليمنية من 1038 إلى 1069، بوصفهم حجّاب هشام الثّاني. ولم يُعثر على عملة مسكوكة باسمهم. وأطيح ببني طاهر من الحكم بمكيدة بين المُضَري ابن رشيق ووزير المُعتمِد وصديقه الخائن ابن عمّار. كان المُعتمِد قد أرسل ابن عمّار لتفقّد الوضع بعد قلاقل اتّهم فيها بنو طاهر جوراً بمساندة بربر طُليطلة على حساب اتحاد الدّويلات، لكنه خطّط مع ابن رشيق للاستيلاء على مُرسية لحسابهما. استدعى المُعتمِد ابن عمّار ليستطلعه على ما آلت إليه الأمور، ورغم أنّ بني طاهر استسلموا له لدى عودته تحت انطباع أنه يتصرّف لحساب المُعتمِد الذي كانوا له مخلصين، فقد كان ابن رشيق قد اتخذ في هذه الأثناء تدابير لخلع ابن عمّار. وعندما اقتنع المُعتمِد بخيانة ابن عمّار أمر بسجنه وقتله، وسعى إلى إعادة بني طاهر إلى المُلك، بناءً على طلب بني أبي عامر حكّام بلنسية. لكنّ ابن رشيق رفض إعادة الحكم المغتصب وبقي حاكماً على مُرسية حتى وقت قصير قبل احتلال المرابطين للاندلس، وشغل نفسه في هذه الأثناء في تدبير المكائد للمُعتمِد مع معتصم بن صمادح. يتساءل دوزي في الجدول الذي أعدّه لحكّام الدّويلات إن كان المُعتمِد أو ابن رشيق حكما مُرسية في ذلك الوقت. ويقول كوندِه إنّ ابن رشيق حكم في الظّاهر باسم المُعتمِد، ولكن من دون أن يدفع الخَراج أو يعترف بسلطته بأي حال. ويقول المرّاكشي إنّ المُعتمِد نجح أخيراً في استمالة ابن رشيق بعد أول حملة (أو الحملة الثّانية) للمرابطين (راجع صفحة 251 – 252 طبعة الأصل). ويقول دوزي إنّ بني طاهر كانوا قد استعادوا مُلكهم في ذلك الوقت.

حكـم المَريّـة مـن 1010 إلى 1038 على التّوالـي رجلان أعتقهمـا المنصور، وقُتل ثانيهمـا غيلة فـي معركة تحالف فيها مع معتصم بن صمادح الـذي خانه. وتولّى حينها ابـن صمادح، الذي يبـدو أنه من البربر، الحكم، ورغم تحالفه فـي الظّاهر مع المُعتمِد والاتحاد اليمني، فقد كان يتآمر مع ابن رشيق على حساب إشبيلية والدّويلات الأخرى الموالية للمُعتمِد. ولم يُعثر على عملة تعود إلى تلك الفترة.

لم نعثر في أيّ من المصادر التي راجعناها على معلومات تشـير بوضوح إلى أصل بنـي صمـادح حكّام المَريّـة، ولكن الإطراء الـذي حظي به البربر في الشّـعر الذي قيل فـي مدح المعتصم، الثّاني في السّـلالة، يفترض أنهم من البربر. من المحتمل على أيّ حال أن يكونوا من السّـنة، لأنّ المقّري في ملخّصه لأمراء القرن الحادي عشـر أسهب فـي وصف خصال المعتصم الحميدة، بوصفه «حاكما عاقلا ومتبصّراً» في حين أهمل التّعليـق على الأمـراء ذوي الأصل اليمني. تـزوّج المعتصم من ابنة عبـد العزيز حاكم بلنسـية، وبذلـك أصبح مـن أقربـاء المُعتمِد بالمصاهـرة. كان يبدي فـي الظّاهر مودّته لحاكم إشـبيلية، ويعمل في السّـرّ على خلعه، بعد أن بدأ يوغر صدر يوسف بن تاشفين علـى المُعتمِـد ويحرّضه عليه حتى قبل زيارته الأولى للاندلس. ويقول المرّاكشـي إنّ ابـن صُمادح كان قديم الحسـد للمُعتمِد وهذا سـبب خيانته له. ولكـنّ المُعتمِد وحتى النّهاية، إمّا لـم تساوره شكوك أو اختار تجاهل غدر المعتصم به.

استولى المعتضد بن عَبّاد على بعض الدّويلات الصّغيرة التي لا تتعدّى كونها مدناً محصّنة أو حصوناً مع الأراضي المحيطة بها مباشرة، من حكّامها البربر الذين اغتصبوا الحكـم فيهـا أثنـاء الفتنة التي أعقبت خلع هشـام الثّاني في سـنة 1009. وكان من أبرز هـذه الحصـون الجزيرة وقرمونة ومورور وأركُش ورُندة. وكان سـكان هذه المدن في غالبيتهـم مـن اليمنيين ويبغضـون حكـم البربر. وبعد سـنة 1058، بقوا على إخلاصهم لبنـي عَبّاد. وبما أنه تم الاسـتيلاء على هذه المدن بعد قتـال، فقد تم ضمها لتصبح من نواحـي إشـبيلية. أمّا باقـي الدّويلات المذكورة فلـم تتبع في يوم مـن الأيام أو تخضع لحكم إشـبيلية، وإنما ارتبط حكّامها بالمُعتمِد بوصفه رأس اتحاد تلك الدّويلات التي

انضوت تحت رايته كوسيلة للدّفاع عن أنفسها في وجه قشتالة وآراغون.
حكم البربر طُليطلة وغرناطة ومالقة، وكانوا في حالة حرب دائمة مع الدّويلات اليمنية ونجحوا من حين لآخر في الاستيلاء على إحدى الدّويلات أو الأخرى لفترات تطول أو تقصر. ولكن في أول مناسبة، ثار النّاس عليهم وقدّموا على أنفسهم حكّاماً من بينهم.

ظلت طُليطلة وغرناطة معزولتين ومستقلّتين حتى سنة 1085، فلم تجرِ أيّة محاولة لضمّ الدّويلات البربرية للاتحاد. ثم أرغم مسيحيو طُليطلة أهل المدينة المسلمين على الاستسلام لألفونسو السّادس ولم تعد تلك المدينة تضطلع بأيّ دور في تاريخ الأندلس المسلمة. وبعد فترة قصيرة، اصطلحت الأمور بين غرناطة والمُعتمِد على أساس إقامة حلف ودّي، وبدا أنّ آخر أمرائها البربر، عبد الله بن زهر، انضمّ إلى اتحاد الدّويلات الذي يتزعّمه المُعتمِد وهو على قناعة بأنّ إعلان الولاء لبني عَبّاد هو أفضل خياراته السّياسية. وقبل سنوات عدّة من ذلك، كان اختفى البربر الذين حكموا الدّويلات الأقل شأناً. وكان غالبيّة سكان غرناطة من أصل يمني أو نصراني.

يبدو أنّ مالقة كانت تضمّ عدداً أكبر من البربر والسُّنّة بين سكّانها من أيّ من الدّويلات الأخرى الصّغيرة التي ضمّها بنو عَبّاد أو انضوت تحت لواء الاتحاد؛ وحتى في وقت متأخر سنة 1273، نجد هذه المدينة وقد ثارت على ملك غرناطة اليمني محمّد بن نصر. ولا توجد أدلّة مباشرة مع ذلك على أنّ أهل غرناطة شاركوا بأيّ شكل في مؤامرات المعتصم وابن رشيق في بلاط يوسف بن تاشفين.

ويذكر دوزي وآخرون دولة أخرى حكمها البربر، لكن يبدو أنه لم يكن لها أيّ دور مهمّ في أيّ وقت. تلك كانت السّهلة التي حكمها بنو رزين من 1011 إلى 1090. كانت أراضيهم ممتدّة بين حدود مُرسية وبلنسية حينها. واليوم تعرف عاصمتها، شنتمرية بني رزين، باسم ألبَراثين. تكمن الأهمية الرّئيسية لهذه الدّولة الصّغيرة في اسم عاصمتها الذي يبيّن أن المسيحيين كان عددهم كبيراً بما يكفي للحفاظ على اسمها القوطي، شنتمرية Santa Maria. ويسمّيها السّنيور پونس سانتا ماريّا دِل ليڤانتِه، أي سانتا ماريّا المشرق[1].

---

(1) وردت لدى المقّري شنتمرية الشّرق وشنتمرية الغرب. (م)

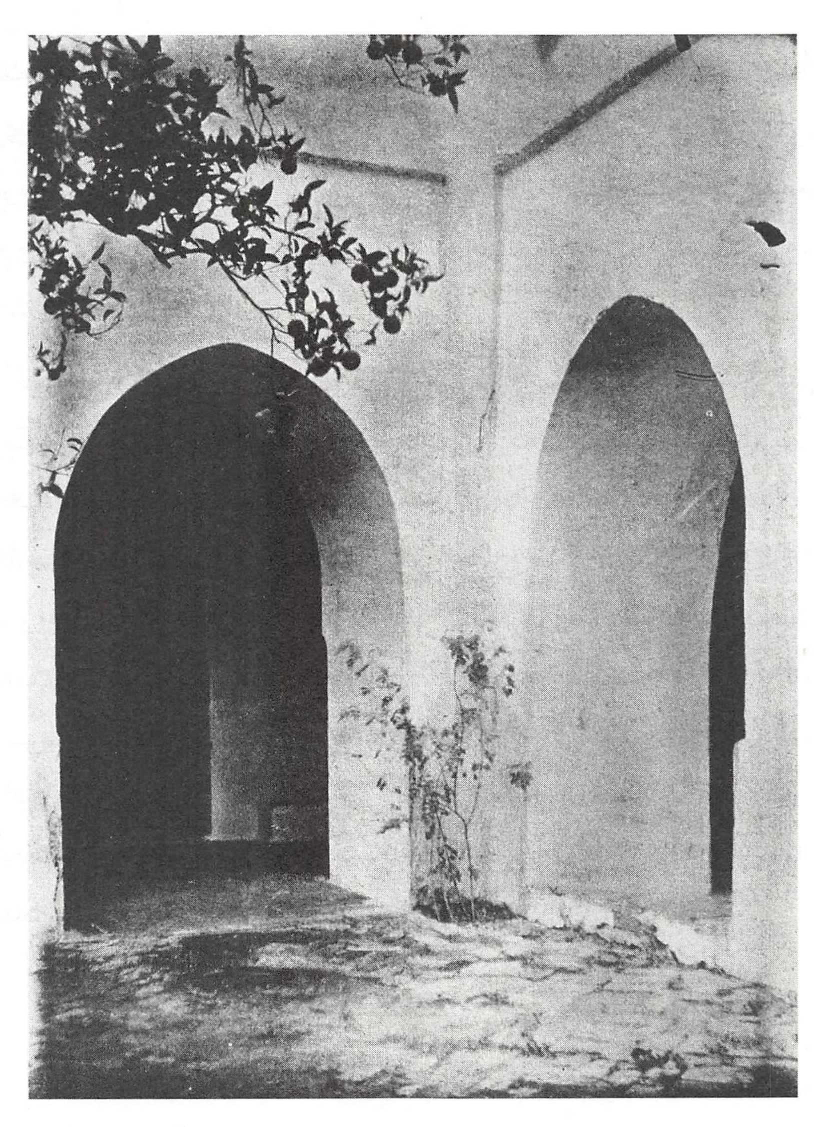
وعليـه، فـإنّ ما نكتشـفه من خلال تراجـم الكتّاب العـرب المتوفّرة لدينـا، أن ريبة يوسـف بن تاشـفين إزاء المُعتمِـد والتي قـادت المرابطين إلى احتـلال كل الأندلس، كانت من صنع حاكم مُرسية السُّنّي وأمير المَريّة البربري وحدهما، أمّا سائر الدّويلات فـي ذلـك الوقت، فهي إمّا كانت علـى ولائها للاتحاد اليمنـي أو خاضعة أصلا لحكـم النّصـارى. والاتهمـات التي كثيراً ما يتـم ترديدها بحق المُعتمِد، في أنّه اسـتولى على هذه الدّويلات بالقوة، إنما تفنّدها، في اعتقادنا، علاقاته الشّـخصية والقبليّة معها، عدا عن عدم وجود أيّة سـجلات عن تنظيم غزوات خلال فترة حكمه أفضت إلى مثل هذه الفتوحات.

وسـيكون من الإطالة والإسـهاب المملّ سـرد وقائع تفصيلية تؤيّد ما أوردناه للتّوّ. وقـد توصّلنا إلى القسـم الأكبر من المعلومات من خلال مقارنة جداول الأنسـاب في نهاية ترجمة غايانغوس للمقّري وفي كتاب دوزي «تاريخ المور»[1] *Geschichte der Mauren* مـع إفـادات لهـؤلاء الكتاب ضمن النّص ولـدى كوندِه، وكتـاب «بنو عَبّاد» لدوزي، و«دراسـات» *Estudios* لكوديرا، و«مؤرّخون وجغرافيون» *Historiadores y geografos* للسّـنيور پونـس، و«تاريـخ الموحّديـن» *Histoire des Almohades* للمرّاكشـي، و«تاريـخ المسـتعربين» *Historia de los Mozarebes* لسـيمونِه، والجغرافيـا للإدريسـي[2]. وحصلنا على المعلومات حول سـكّ العملـة، كما ورد في مقدّمة العمل، من «قطع العملة والمجتمعات الآسـيوية» Numismatic and Asiatic Societies للسّيد لونغوورث دايمز Longworth – Dames.



(1) Mauren بالألمانية تعني Moors بالانكليزية وهي تعني سكان شمال أفريقيا أو المغرب. (م)

(2) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. (م)



دير النّور (كونڤنتو دي لا لوث) (رقم 2). العقود القبطيّة العربيّة المستدقّة للباحة الدّاخلية الكبيرة.

الفصل الخامس عشر

إسپانيا والمرابطون

شـكّل الزّحف السّريع لأهل قشتالة في نهاية سنة 1085، خطراً جسيماً وداهماً على كل نواحي إسـپانيا المسلمة (الأندلس). فقد ضرب ألفونسو السّادس حصاراً فعلياً على مدينة طُليطلة في مطلع تلك السّنة بعد أن شنّ لبعض الوقت هجمات على النّواحي المحيطة بها، وبمسـاعدة من المسـيحيين القوط (المستعربين) داخل الأسـوار[1]، دخلها ظافراً في نهاية شـهر مايـو. لم تطل مقاومة يحيى البربـري آخر حكّام بني ذي النّون الذي كان قد اسـتولى علـى المدينـة بعد سـقوط الخلافة [في قُرطُبـة] وبقي في الحكم حتى ذلـك الوقت، وإنما اشترط لاستسلامه أن يساعده ألفونسو للاستيلاء على مملكة بلنسية التي كانت وعلى مدى عشـرين عامـاً موضع خـلاف بين بني ذي النّـون وبني أبي عامـر. وافق ألفونسـو على هذا الشّرط بلا تردّد وأرسل ألڤار فانييث Alvar Fañez بجمع كاف من العساكر ليفرض يحيى بالقوة على أهل بلنسـية غير الرّاغبين به. ولأنّ يحيـى كان عاجزاً عن دفع أتعابهم، أعطاهم أرضاً في المقابل، فاسـتقرّوا عليها واغتنوا من خلال الإغارة على النّواحي المحيطة. وفي الوقت نفسـه، كانت سَرَقُسـطة تحت الحصار وتحصّنت فرقة من عسـاكر قشـتالة في قلعة أليـط Aledo، القريبة من لورقة، وراحوا يغيرون على المَريّة[2]. وهكذا، في نهاية 1085 لم

(1) ورد في السّجلات (Chronicle, xi. 220) عن كاهن كان يعيش في طُليطلة في ذلك الوقت أنه في عام 1082، أرسل النّصارى وفداً إلى ألفونسو يتوسّلونه مواصلة الحصار، وأرسل يحيى وفداً آخر (من المسيحيين أيضاً) ليطلب منه الكفّ عن ذلك.

(2) Crónica general, xi. 226 – 8; Makkari, ii. 257, 505, Dozy, *G. der M.*, ii. 352 – 3. بالإضافة إلى جداول الأنساب.

يكن ألفونسو قد استقرّ في طُليطلة فحسب وإنما في موقع يؤهّله لأن يضمّ بلنسية وربما سَرَقُسطة، في أيّ وقت يشاء.

وبالإضافة إلى تقدّمه باتجاه الشّرق، كان ألفونسو يدفع قواته كذلك باتجاه الجنوب والغرب. ويقول المقّري إنه ما إن إصبحت طُليطلة في يده حتى راح يتوغّل ويغير على أراضي ملوك إشبيلية وبطليوس، «وأخذ يجوس من خلال الدّيار، ويستفتح المعاقل والحصون»، ومع اشتداد وطأة ملك الفرنج على المسلمين اتفق هؤلاء الملوك وعدد من الأمراء الصّغار أن يدفعوا له «شيئاً معلوماً كل سنة»، بدلاً من أن تبقى أراضيهم وممتلكاتهم تحت رحمة نقمته المدمّرة[1].

لم يكن لدى مسلمي إسبانيا من القوة التي تتيح لهم التّصدّي لتقدّم النّصارى الثّابت والمخيف. حتى إشبيلية، أقوى ممالك الأندلس، كانت أضعف من أن تقاوم ألفونسو بمفردها، وقد باءت جهود المُعتمِد المستمرّة للمّ شمل كل الإمارات الصّغيرة من أجل الدّفاع عن النّفس بالفشل بسبب الحسد المتأصّل بين حكّامها. ولم يعد لدى مسلمي إسبانيا بعد أن صاروا وحدهم سوى خيارين ليس إلا، كما يقول دوزي: الاستسلام لألفونسو أو النّفي. ورأى كثيرون منهم بالفعل أنّ عليهم مغادرة البلاد، ويقتبس دوزي سطراً من قصيدة لشاعر ينصح أهل الأندلس بالرّحيل، لأن البقاء ليس سوى ضرب من الحماقة[2].

وهكذا وعلى ما كانوا منه من الضّيق وقلة الحيلة، لم يعد لدى أهل الأندلس من خيار سوى الاستغاثة بمسلمي أفريقيا؛ ولكن هذا الخيار كان محفوفاً بمخاطر جسام.

---

(1) Makkari, ii. 270.

كما ورد في السّجلات (Chronicle, xi. 294) أنّ ألفونسو شن الحرب على المعتمد بعد استيلائه على طُليطلة.

(2) *G. der M.*, ii. 353.

الأبيات للشّاعر عبد الله بن فرج اليَحصُبي المشهور بابن العسّال (المقّري، ج 4، ص 351) (م):

يا أهلَ أندلسٍ حثّوا مطيّكمُ ... فما المقامُ بها إلا من الغلطِ
الثوب يُنسل منْ أطرافه وأرى ... ثوبَ الجزيرة منسولاً من الوسطِ
ونحن بين عدو لا يفارقنا ... كيف الحياةُ مع الحَيّات في سَفَطِ

فيوسف بن تاشفين قد يكون قادراً بالفعل على كبح جماح ألفونسو أو تدميره، لكنه قادر كذلك على أخذ الأندلس، كما أخذ القسم الأعظم من شمال أفريقيا. لقد كان المُعتمِد وأمراء الممالك الأقل شأناً جميعهم واعين تماماً لهذا الخطر، ولكن بدا لهم أنه أهون الشّرور، وفعلوا ما بوسعهم لضمان حريتهم عندما أخذوا على يوسف تعهداً بأنه لن يجرّدهم من ممتلكاتهم وأراضيهم[1].

بالإضافة إلى الخطر العام المحدق بكل إسپانيا المسلمة، بدا أنّ حياة المُعتمِد نفسه في خطر من ألفونسو بسبب بعض الصّعوبات في دفع الجزية له. ويورد المقّري روايات مسهبة تتعلّق بهذا الحادث، استناداً إلى كتّاب عاشوا في القرن الثّالث عشر (وربما) الرّابع عشر تباعاً، ويلاحظ «وتختلف رواية ابن اللّبّانة عما تقدّم». ومن المؤسف أنه لم يورد رواية ابن اللّبّانة الذي كان معاصراً للمُعتمِد وصديقه. والحقيقة الأخيرة قد تكون السّبب الذي جعل المقّري يحجم عن نقلها. والتّفاصيل التي يوردها غير دقيقة على الأرجح، وهي على أيّ حال ليست لها عواقب مهمّة؛ عدا عن أنها تظهر وجود اختلاف نوعاً ما، وأنّ ذلك كان أحد الأسباب التي أثّرت على المُعتمِد عندما اتخذ قراره للاستنجاد بالمرابطين.

وتفيد كافة الرّوايات بأنّ المُعتمِد كان وراء فكرة طلب المساعدة من يوسف بن تاشفين؛ وأخبر بذلك أمراء غرناطة وبطليوس الذين بعثوا برسلهم لحضور اجتماع دعاهم إليه في إشبيلية وحضره كذلك قاضي قُرطُبة وابن زقوت Ibn Zagut حاكم مالقة الذي عيّنه المُعتمِد، ووزير المُعتمِد نفسه، ابن زيدون. وتقرّر في هذا الأجتماع طلب المساعدة من يوسف، والوحيد الذي خرج عن الاجماع هو حاكم مالقة الذي أشار إلى مدى خطورة مثل هذه الخطوة على استقلالية البلاد، وأشار عليهم أن الأحرى بهم أن يتناسوا خلافاتهم ويتّحدوا كمسلمين صالحين في مواجهة ألفونسو، عندها تصبح قوتهم لا تقهر. لكن هذا التّفكير الحكيم، كما يقول الكاتب الذي نقل عنه دوزي وقائع الأحداث، قوبل باستهجان، واعتبر الآخرون ابن زقوت مسلماً مارقاً،

---

(1) Makkari, ii. 277.

يستحق القتل. وتقول بعض المصادر إنّ المُعتمِد حمل بنفسه خطاب الدّعوة إلى ابن تاشفين(1).

نزل يوسف بالجزيرة في يونيو 1086، وتنازل حاكم تلك المدينة الرّاضي بالله، ابن المُعتمِد، عنها لابن تاشفين، فأصلح تحصيناتها، ثم توجّه إلى إشبيلية حيث انضمّ إليه أمراء الأندلس وعساكرهم، ثم انتقل إلى ساحة المعركة الكبرى. ويقول كوندِه إنّ المُعتمِد تولّى قيادة كل قوات الأندلس. (ii. 130.).

كوندِه هو المصدر الوحيد الذي وجدنا لديه معلومات تشير إلى موقع المعركة. ويقول إنّ الجيشين عسكرا على الضّفتين المتقابلتين لنهر «هاجر» Nahr – Hagir (قد يكون نهر Guadajra أحد روافد نهر يانة) «في الأيكة والسّهول التي تسمى الزّلاقة، على بعد أربعة فراسخ من بطليوس» (ii. 134.)(2).

جرت المعركة في 23 أكتوبر من عام 1086، وكانت نتيجتها هزيمة ساحقة لألفونسو (الأذفونش). ولكن نتيجة المعركة بدت في البدء غير محسومة لأنّ أمراء الأندلس، كما يقول كوندِه، لم يثبتوا أو يبلوا بلاء حسنا، ولأنّ المُعتمِد وأهل إشبيلية هم وحدهم الذين قاتلوا ببسالة؛ وهذا ما يؤكّده المرّاكشي بقوله إنّ يوسف فوجىء بهجوم جيش النّصارى، وإنّ المُعتمِد الذي كان في مؤخّرة الجيش مع أصحابه «أغنى ذلك اليوم غناءً لم يُشهد لأحد قبله»(3).

وبعد انتصار يوسف بن تاشفين والمُعتمِد في معركة الزّلاقة، توجّها معاً إلى إشبيلية

---

(1) Conde, ii. 72, 97 – 8; Dozy, *G. der M.*, ii. 354; Makkari, ii. 274.

(2) يحدّد السّيد زيبولد في كرّاسته بعنوان «الموقع الجغرافي للزّلاقة» *Die Geographische Lage von Zallaka – Sacralias* الصّادرة في باريس عام 1906، موقع الزّلاقة على نهر غيريرو على بعد نحو 15 كلم شمال شرق بطليوس Badajoz.

(3) Conde, ii. 146; Marrakushi, 114; Dozy, *G. der M.*, ii. 358, 416.

حيث يقول دوزي إنه لا توجد روايات معاصرة لهذه المعركة، وإنّ أقدم ما كتب عنها يعود إلى القرن الثّاني عشر.

الاقتباس العربي من المرّاكشي، ص 61. (م)

التي بقي فيها يوسف مدّةً في ضيافته. ويروي المقّري نقلاً عن الحِمْيَري ما جرى خلال تلك الزّيارة بقوله:

«فلمّا انتهى ابن تاشفين إلى إشبيلية مدينة المُعتمِد – وهي من أحسن المدن وأجلّها منظراً – أمعن يوسف النّظر فيها وفي محلها، وهي على نهر عظيم مستبحر تجري فيه السّفن بالبضائع جالبة من برّ المغرب وحاملة إليه، وفي غربيّها رُستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف من الضّياع كلها تين وعنب وزيتون، وهذا هو المسمى بشَرَف إشبيلية... وفي جانب المدينة قصور المُعتمِد وأبيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء، وفيها أنواع ما يُحتاج إليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمشروف وغير ذلك، فأنزل المُعتمِد يوسف بن تاشفين في أحدها، وتولّى من إكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له»[1].

لقد بدا يوسف وتاشفين والمُعتمِد حتى تلك اللحظة على أحسن حال وفي وئام تام، ويقول المرّاكشي إنّ ابن تاشفين جال في الأندلس كما رغب وكان «في خلال ذلك كله يظهر إعظام المُعتمِد وإجلاله ويقول مصرِّحاً إنما نحن في ضيافة هذا الرّجل وتحت أمره وواقفون عند ما يحدّه»، وإنه لن يبقى في إسپانيا أطول ممّا يرغب له مضيفه.[2]

ولكن في هذا الوقت، كان هناك من يوغر صدر بن تاشفين على المُعتمِد وهو أبو يحيى محمّد بن معن بن صمادح المعتصم، صاحب المَريّة، والذي كان «قديم الحسد للمُعتمِد كثير النّفاسة عليه، ولم يكن في ملوك الجزيرة من يناوئه غيره.. [وكان] أكبر أسباب تقريب أمير المسلمين [يوسف بن تاشفين] إياه ثناء المُعتمِد عليه عند أمير المسلمين ووصفه إياه عنده بكل فضل.... ولما اشتدّ تمكُّن المعتصم من أمير المسلمين بدا له أن يسعى في تغيير قلبه على المُعتمِد وإفساد ما بينهما... فشرع

---

(1) Makkari, ii. 289.

المقّري، ج 4، ص 375.

(2) المرّاكشي، 62، بما يتفق مع النّص الإنكليزي.

المعتصم فيما أراده من ذلك ولم يدر أنه ساقطٌ في البئر التي حَفر، وقتيلٌ بالسّلاح الذي شَهر»[1].

وقيل ليوسف بن تاشفين إنّ المُعتمِد يعيش عيشة إسراف وترف، ولا يفكر سوى في نعيمه، وإنه أخذ أموالاً طائلة من رعيّته بالظّلم لينفقه على ملذاته المحرّمة وتساليه التّافهة، وإنه بدلاً من أن يولي اهتمامه لضبط بلاده وحفظها وصون رعيته، لم يكن يفكر سوى في إشباع رغباته الخالصة. وقيل له كذلك إن أصحابه وأنصاره وكبار وزرائه والعاملين في بلاطه، وبدلاً من أن يحذوا حذوه في حماقته، كانوا غير راضين عن سلوكه وغير مسرورين بما يفعله؛ وباختصار، لم تُترك حجّة إلا وسيقت للحطّ من قدر ملك إشبيلية في نظر القائد المرابط الصّارم والمتقشف، الذي كان معروفاً باقتصاده وبساطة عاداته وانكاره لذاته. يقول الحِمْيَري إنّ يوسف نفسه وجّه طواعية انتقادات لسلوك المُعتمِد بهذه العبارات على مسامع حاشيته، ولكن هذا القول يتناقض مع جملة في الفقرة نفسها تقول إنّ «العديد من أصحاب يوسف كانوا ينبّهونه كل يوم إلى هذه الأمور».

من ناحية ثانية، كان هناك من نبّه المُعتمِد إلى ضرورة عدم الوثوق بضيفه، الذي قيل له إنه كان «طامعاً في ملكك» وإنه يودّ «الحلول لما أنت فيه من خصب الجناب». ونصح هؤلاء المُعتمِد بقولهم إنّ «[عليك] أن تجمع أمرك على قبض ضيفك هذا واعتقاله في قصرك، وتجزم أنك لا تطلقه حتى يأمر كل من بجزيرة الأندلس من عسكره [من الأفارقة] أن يرجع من حيث جاء»[2] إلى البادية.

ليس غريباً أن يعتري الشّك والرّيبة صدر أيّ من الرّجلين أو كليهما بشأن حقيقة ما نُقل اليهما ممّن يحيطون بهما من أهل الغدر السّاعين إلى تأليب كل منهما على الآخر؛

---

(1) Marrakushi, 115 – 7; *Abbadites*, i. 118.

المرّاكشي، 62 – 63. (م)

(2) Makkari, ii. 289 – 91

الاقتباس العربي من المقّري،ج 4، ص 375 – 376. (م)

حيث لم يتوقف أصحاب المكائد عن إسداء النّصح، وإنما قاموا بتكرار ما قيل على مسامع من كان ضحية للافتراء، وكأن تلك الكلمات صدرت على لسان هذا الملك أو ذاك. وفيما يلي مثال على ما كان يفعله أصحاب المكائد:

«ذات يوم والمُعتمِد غارق في تفكيره، تشاجر أحد ندمائه مع رجل غريب كان يسدي إليه نصائح توغر قلبه، فقال:

«ما كان [لأمير] مثل المُعتمِد على الله – وهو إمام أهل المكرمات – ممّن يعامل بالحيف، ويغدر بالضّيف».

«فقال الرّجل [الذي لم يرد اسمه]: «لا بأس، إنما الغدر أخذ الحق من يد صاحبه، لا دفع الرّجل عن نفسه المحذور إذا ضاق به» ».

«فقال ذلك النّديم: «ضيم مع وفاء، خير من حزم مع جفاء» ».

وصرف المُعتمِد النّاصح الزّائف بعد أن شكره على نصحه و«وصله بصلة». ولكن يبدو أنّ هذه الأخبار بلغت يوسف بن تاشفين «فأصبح غادياً، فقدّم له المُعتمِد الهدايا السّنيّة والتّحف الفاخرة، فقبلها ثم رحل» في اليوم نفسه بعد أن استأذنه[1].

لقد كان سلوك الأمراء السُّنّة والبربر ثابتاً على الدّوام؛ كان هدفهم الأوحد هو بوار المُعتمِد بأيّ ثمن. فقد عارضوا استدعاء يوسف، آملين بلا شكّ في أن يؤدّي ترك المُعتمِد وحيداً بلا سند إلى سقوطه سريعاً أمام ألفونسو. قد يكون تصرّفهم في الزّلاقة نابعاً من جُبنهم، وبالمثل فإنّ سعيهم إلى إنزال الهزيمة بالمُعتمِد ويوسف كان يتّسم بالغدر على أقلّ تقدير. ولكنهم وبعد فشل محاولاتهم، عقدوا العزم على تقويض العلاقة الجيدة التي نشأت في البدء بين يوسف والمُعتمِد، وقد نجحوا في ذلك أيّما نجاح. والمثير للدّهشة أنهم أعموا عيونهم عن واقع بديهي وهو أن سقوط المُعتمِد لا بدّ أن يجلب معه سقوطهم هم أنفسهم، وكما رأينا فقد أثار ذلك استغراب المرّاكشي.

---

(1) Makkari, ii. 292; cf. *Abbadites*, ii. 252 note.

المقّري، ج 4، ص 377. (م)

عاد يوسف إلى المغرب بعد فترة وجيزة من معركة الزّلّاقة[1]، ولكنه استدعي بعد ذلك بعامين.

والسّبب في استدعائه للمرة الثّانية أن الدّويلات الشّرقية كانت تعاني من ضعف كبير، وكانت حامية الفونسو المتمركزة في حصن أليط Aledo، مصدراً للقلاقل لكل تلك النّواحي وتشكل خطراً جاثماً على صدر المَريّة ومُرسية ولورقة. كان يحكم مُرسية ابن رشيق، وهو من عائلة عربية مُضَرية استقرّت في تلك النّاحية قبل نحو أربعمئة وخمسين سنة واستولت عن طريق المكائد على تلك الدّويلة ولا زالت. ولم يكن مضى وقت طويل على تقديم حاكم لورقة التي يقع حصن أليط في نواحيها نفسه عاملاً لدى المُعتمِد يدفعه إلى ذلك طمعه في مساندته له في مواجهة النّصارى المتمركزين في أليط. وكانت المَريّة تحت حكم المعتصم البربري. سافر المُعتمِد بنفسه إلى المغرب ليشرح الوضع ليوسف الذي عبر البحر في عام 1088 واجتمع بملوك الاندلس بالقرب من أليط. وإلى هذا اللقاء، جاء المعتصم، الصّديق المخلص للمُعتمِد في الظّاهر وعدوّه في السّر، وهو يرتدي بُرنساً أسود كذاك الذي يرتديه يوسف. وما كان من المُعتمِد إلا أن سخر من تغييره لطريقة لبسه فقال إنه كان يبدو كغراب بين الحمائم، لأنّ أصحابه في المَريّة أعتادوا أن يلبسوا الأبيض. لقد كان لهذه الحادثة البسيطة أثرٌ على الوضع، لأنّ الشّيعة عادة ما يلبسون السّواد والسُّنّة البياض. كان من الواضح أنّ المعتصم ويوسف ينتميان إلى مذهبين متعارضين، ولكن ذلك كان مؤشراً إلى أن المعتصم مستعد للتّخلي عن وسم مذهبه لكي يفوز برضا السّلطان الشّيعي[2].

وسرعان ما برز الخلاف ما بين المُعتمِد وابن رشيق. كان يوسف والمُعتمِد وابن

---

(1) تقول بعض المراجع إنه عاد على الفور نتيجة وفاة ابنه، ولكن هذا الأمر غير ذي أهمية بالنّسبة لنا هنا. للمراجعة الاطلاع على: Codera, *Almoravides*, p.2.

(2) Dozy, *G. der M.*, ii. 360 – 3; Conde, ii. 157.

يؤرّخ دوزي مجيء يوسف بن تاشفين في المرة الثّانية إلى الاندلس في سنة 1090؛ أما كوديرا (*Almoravides*, 226 – 7) فيقول إنه حصل في عام 1088، وإنه جاء للمرة الثّالثة في عام 1090.

زيـري Ibn Zeyr حاكـم غرناطة متفقين علـى أنّه من الأفضل للمسـلمين أن يهاجموا النّصـارى على حدودهـم لأن حصن أليط كان منيعاً وحصاره سـيكون مضيعة للوقت. لكن ابن رشيق عارض هذه الفكرة ورغب في محاصرة الحصن. واحتدم النّقاش حول هذه المسـألة حتى أن ابن رشـيق شـهر سـيفه في وجه المُعتمِد الذي اتهمه بأنه ينتصر لفكـرة محاصـرة الحصن لما فيه مصلحـة النّصارى وبأنـه عقد اتفاقا مع ألفونسـو[1]، فاعتُقل ابن رشـيق وأودع السّـجن. ويبـدو أنّ ذات البين أُصلحت بيـن المتخاصمين، ويقول المرّاكشـي إنه وبفضل مسـاعي يوسـف الحميدة، وافق ابن رشـيق بعدها على إعـادة مُرسـية إلى بني طاهـر، وهم أحـق بحكمها، في مقابـل مبلغ من المـال وتعيينه حاكماً على ناحية من نواحي إشبيلية[2].

ولكـن وفـي هذه الأثنـاء، نجمت عن الخلاف مع ابن رشـيق اضطرابات جسـيمة. فلدى رؤية قائدهم يودع السّـجن انسـحب قادة قوات مُرسـية من الميدان بعسـكرهـم، ولـم يكتفوا بذلك وحسب وإنما عسكروا على الطّريق المؤدّية إلى حصن أليط وراحوا يعترضون مرور الامدادات إلى المعسـكر ويسـلبون التّجّار كل ما يحملونه. وتسـبّبوا بذلـك بمجاعة بين المحاصِرين، وعندما بلغ الأمر ألفونسـو توجّـه برتل من قواته إلى أليط، مستنفراً حلفاءه في كل ناحية طلباً للعون.

يقول كوندِه إنّ يوسـف لـم يغامر بانتظار وصول ألفونسـو بسـبب الانقسـامات في صفوفه وانسحب باتجاه لورقة يرافق المُعتمِد وقواته أويتبعه. ويقول المرّاكشي كذلك إنّ يوسف ذهب إلى لورقة، ومع أنه لا يذكر سوى تفقده للعسكر هناك، فأنه لا يقدّم أيّة

---

(1) Conde, ii 158 – 9.

هناك إدلة إفتراضية على أنّ بعض أعداء المعتمد كانوا في هذا الوقت يتعاملون مع السّيد (السيد القنبيطور أو القمبيطور) El Cid ومن بينهم رجل يدعى ابن لبون هو ابن أو أخو رجل يدعى ابن لبون يقول كوندِه إن المعتمد عيّنه حاكماً على لورقة وتوفي في عام 1087 وخلفه أبو الحسن بن اليسع. (Dozy, *Recherches*, ii. chap. iii.; Abbadites, i. 100; Conde, ii. 60, 151) لكن تاريخ تلك الفترة متشابك وغامض للغاية.

(2) P. 112; cf. Dozy, *G. der M.*, Chron. tables.

معلومات حول ما حصل في حصن أليط Aledo، وجُلّ ما يذكره عن تلك الفترة يؤكّد في خطوطه العريضة ما يرويه لنا كوندِه. بلغ ألفونسو أليط وحرّر المدافعين النّصارى، لكنه لم يسعَ إلى السّيطرة على الموقع الذي كان في قلب بلاد المسلمين[1].

قبل أن نواصل سـرد قصّة بن يوسـف والمُعتمِد التي انتهت بنفيه وسجنه، علينا أن نلقي بعض الضّوء على حقبة مهمّة من حكم المعمتد والتي لا يوجد عنها سـوى القليل جداً من المعلومات، ولكنها كانت، إن صحّ حدسـنا، ذات تأثيـر كبير على مصيره. إنها فترة تحالفه مع ألفونسـو. لم يذكر المؤرّخون العرب شيئاً عن ذلك، والرّوايات المنقولة في الحوليّات العامة *Crónica general* مرتبكة إلى حدّ كبير في سردها لتسلسل الأحداث، ومن الصّعب التّوفيق بينها وبين الأحداث التي نقلها المؤرّخون العرب والمتصلة بحياة المُعتمِد. ولكن، في خضم الالتباس والارتباك، تبرز واقعة أو اثنتان، ينبغي أخذهما في الاعتبار.

في الحوليّات الخاصة بألفونسو السّادس، نعثر على المقاطع التّالية:

«كانت تربط الملك ألفونسـو صداقة عميقة بابن عَبّاد ملك إشـبيلية الذي كان حماه وجدّ الأمير دون سانچو ابن الملك ألفونسو، وقد اتفقا معاً على أن يصبحا ملكين على كل مسلمي إسپانيا.. الذين كانوا يكنّون حقداً أعمى على المُعتمِد ملك إشبيلية بقولهم إنه وإن كان مسلماً في العلن، فإنّه كان في السّر نصرانياً وعدوّاً للنّبي محمّد»[2].

---

(1) Conde, ii. 159 – 60.

ينقل المرّاكشي أحداث أليط وكأنها حصلت في أول زيارة ليوسف إلى الأندلس قبل معركة الزّلاقة؛ لكنّ هذا خاطىء بلا شك، لذلك نقلناها إلى مجيئه في المرة الثّانية في عام 1088. يقول السّنيور كوديرا إنّ يوسف جاء إلى إسپانيا خمس مرات بين عامي 1086 و1102 (*Almoravides*, 226) ولكن بناء على روايته هناك اختلافات كبيرة في الآراء بشأن ما حصل خلال المرة الثّالثة لمجيئه، حيث يقول بعض المؤلفين إنه في تلك المناسبة استولى على غرناطة ومالقة، ويقول آخرون إن ذلك حصل في زيارته السّابقة، ويقول آخرون إنه كان في المرة الثّالثة مصمّماً على أن يصبح حاكم الأندلس. لا حاجة لنا للوقوف ومناقشة مختلف الرّوايات، فهدفنا الوحيد من لفت الانتباه إليها هو تسجيل الاختلافات الكبيرة في مختلف الرّوايات التي ينقلها الكتّاب المختلفون عن الاحداث عينها.

(2) هناك أدلة على أن العلاقات بين بني عَبّاد والمستعربين الذين يعيشون في الأراضي التّابعة لهم كانت تحكمها المودة على الدّوام.

ويتبع هذا المقطع سرد لكيف أوصى المُعتمِد ألفونسو بالتّحالف مع المرابطين، ووصف لتفاصيل مجيئهم. وتقول الرّواية إنّ ملك المغرب كان مسروراً بصداقة ألفونسو وإنه أرسل إليه أحد قادة جيشه الذي ثار وأعلن استقلاله. وعندها ثار مسلمو إسپانيا رافضين دفع الجزية والخضوع لألفونسو[1]. سعى ملك إشبيلية لإعادتهم إلى رشدهم، وعندها تشاجروا معه وقتلوه باعتباره نصرانياً في السّر[2].

يستحيل التّوفيق ما بين الرّواية الإسپانية والرّوايات العربية، على قدر ما نعرفه حتى الآن منها، وبالطبع فإنّ القول بأنّ الأمراء قتلوا المُعتمِد ليس صحيحاً على الإطلاق. ولكن هناك قدراً من الصّحة في المزاعم التي تحدّثت عن وجود علاقات من نوع ما بين المُعتمِد وألفونسو على شكل «عهود سرية» تم التّفاوض عليها بينهما بوساطة ابن عمّار، يرويها كوندِه (ii. 62)، وإن كان يبدو أنّ ما نقله يعود إلى سنة سابقة. كما تؤيّد هذه الرّواية ما نقله كتّاب آخرون بشأن الموقف العدائي الذي اتخذه أمراء الأندلس منه.

لكن الواقعة التي لا تُدحض وبالغة الأهمية المذكورة في الحوليّات هي أن ألفونسو تزوج ابنة المُعتمِد زايدة. وهذا ما لم يذكره أيّ من المؤرّخين العرب الذين اطّلعنا على كتاباتهم، ما عدا إشارة مبهمة وردت لدى كوندِه[3]، وعلينا أن نزوّر الحوليّات لكي نحصل على هذه المعلومة.

يناقش ساندوڤال، كاتب سجلات ألفونسو السّادس، تاريخ الزّواج ويميل إلى اعتماد سنة 1097 لأنه يقال إنّ ولي العهد سانچو المولود من ذاك الزّواج، كان في

---

(1) يقول المقّري إنّ كل أمراء الأندلس، بمن فيهم المعتمد نفسه، كانوا يدفعون الجزية إلى ألفونسو (ii, 270; cf. Marrakushi, 113).

(2) *Crónica general*, xi. 316 ff.

(3) في المقطع المتعلق بالمفاوضات التي كان يجريها ابن عمار، والمذكورة أعلاه، يقول:
"sacrificaba Aben Abed á su ambicion pueblos de Muzlimes, y su propria familia"
ومعناه أنّ ابن عَبّاد خلال تعامله مع ألفونسو، «ضحّى من أجل طموحه بشعوب المسلمين وحتى بعائلته نفسها»، وهو ما يشير على ما يبدو إلى الزّواج والمهر.

الحادية عشرة من عمره عندما قتل في معركة أقليش. ونحن نعرف أنّ هذا خطأ لأن المُعتمِد كان قد جُرّد من ملكه ونفي في عام 1091. ولكن يستحيل بناءً على المعلومات الواردة في الحوليّات الوصول بصورة أكيدة إلى التّاريخ الصّحيح للزّواج. فقد تزوج ألفونسو ست مرات، وينبغي الحصول على تواريخ زيجاته من تواقيع زوجاته العرضية على الهدايا والامتيازات التي منحها لهن. وما يزيد من الارتباك أنّ زايدة عمّدت عندما تزوجت منه باسم إيزابيل والتي تقول شاهدة قبرها إنها توفيت في سنة 1107 وكانت ابنة لويس، ملك فرنسا[1]. ولكن كاتباً سابقاً اقتبس عنه ماريانا حلّ تلك المشكلة العويصة بقوله إن زايدة لم تكن زوجته على الإطلاق وإنما خليلته؛ غير أنّ هذا القول يدحضه ليس فقط الاحتمال المستبعد تماماً بأن يكون المُعتمِد قبل لابنته مثل هذه المكانة[2]، والمهر الذي منحها إياه، ولكن كذلك الشّاهدة الموضوعة على قبرها والتي تذكر بوضوح أنها كانت زوجة ألفونسو[3]. وللأسف لم يُذكر على تلك الشّاهدة تاريخ وفاتها. ولكن الكاتب يورد وصفاً تفصيلياً دقيقاً للضّريح الموجود في الكنيسة الملكية في سان إيسيدورو في ليونة.

وقعت معركة أقليش في سنة 1108؛ كان سانچو في ذلك الحين، كما ورد في الحوليّات الملكية، في الحادية عشرة «على أبعد تقدير». لكن توقيع وليّ العهد مُرفق بمنحة وهبها له والده في سنة 1103 عندما كان بالكاد في السّادسة، وفق الحوليّات عينها[4].

---

(1) *Crónica general*, xi. 314.

وهذا يزيد من الإرباك، لأن لويس السّادس لم يعتلِ العرش إلا بعد سنة من تاريخ وفاة ابنته المزعوم.

(2) مراجعة بيانات Kadi المتعلق بما ورد في الشّريعة الإسلاميّة عن النّساء الحريرات، ص 115.

(3) *H.R. Regina Elisabeth, uxor regis Adefonsi, filia Benabet Regis Sevillae, quae prius Zayda, fuit vocata.* (*Crónica general*, xi. 296; Mariana, Book IX. Chap. Xx.)

الترجمة العربية لتلك الكتابة هي: «الملكة إليزابيث، زوجة الملك ألفونسو، ابنة بن عَبّاد، ملك إشبيلية، والتي كانت تسمّى سابقاً زايدة».

(4) *Crónica general*, xi. 306, 317 – 8.

كانـت زوجـة ألفونسـو الثّانيـة كونسـتانس ابنـة دوق بورغونيـا Constance of Burgundy التي تزوّجها على ما يبدو في سـنة 1077 لأنّ توقيعها كملكة مرفق بوثيقة تعـود الى نهاية تلك السّـنة، وكانت حيّة في أبريل 1087 عندما ورد اسـمها إلى جانب اسـم زوجها على منحة من الامتيازات الى رجال الدّين في أسـترقة. لم يرد اسمها بعد ذلـك فـي الحوليّات. ويقول سـاندوفال الذي قـام بجمعها إنها توفيت في سـنة 1092 لكنـه لا يورد ما يؤيد ذلك؛ في تلك السّـنة تزوج ألفونسـو من بيرتـا Bertha، التي قيل إنها فرنسية الأصل[1]. توفيت كونستانس على الأرجح في سنة 1087، وتزوج ألفونسو عندهـا زايـدة. وبناءً عليه يكون عمر ابنها سـانچو تسـعة عشـر أو عشـرين عاماً عندما حصلت واقعة أقليش، أو أربعة عشر أو خمسة عشر عاماً عندما وقّع على منحة والده، وذلك أكثر احتمالاً من الأعمار الواردة في الحوليّات؛ وفي حين أنّ هذه التّواريخ تتفق مـع ما ورد فـي الحوليّات بأنّ المفاوضـات لإتمام الزّواج بدأت «بعد الاسـتيلاء على طُليطلة» (p. 294). ولا يورد الكاتب وصفاً لأحداث سنة 1097، التّاريخ الذي يحدّده لحصول الزّواج، بوصفه حصل «بعد الاستيلاء على طُليطلة» في عام 1085.

وعليه تخبرنا الحوليّات، أنه بعد الاستيلاء على طُليطلة، شنّ ألفونسو الحرب على المُعتمِـد وغزا أراضيه. ولكن المُعتمِد كان راغباً في مصادقته، و«أكثر منه كذلك ابنته» التـي تعلّقـت به عاطفيا بناء علـى الأخبار المنقولة عن صيته الذّائـع ومفاتنه. وبموافقة والدها، أرسلت كلمة إلى ألفونسو تبلغه أنها تودّ رؤيته، وأنها راغبة في الزّواج منه بعد وفـاة زوجتـه، وأنها راغبة في أن تمنحـه البلدات والحصون التـي تملكها. وتم ترتيب لقاء في أوكانية؛ ووقع الإثنان في الحب منذ أن وقعت عينا كل منهما على الآخر، وتم ترتيب الزّواج. عُمِّدت زايدة وجلبت معها مهراً بلدات وحصون قونقة ووبذة وأوكانيا وأقليش ومورة وڤاليرا وكونسـويقرا والأرك وكركويل، «والعديد من المواقع الأخرى ذات الأهمية الكبيرة بالنّسبة للفتوحات التي كان الملك يعتزم القيام بها». ويقع معظم هـذه البلدات والحصون حالياً فيما يعرف اليوم بمحافظة قونكة Cuenca إلى الشّـرق

(1) *Crónica general*, 166, 242, 275.

مـن محافظة طُليطلة وأسـهمت في تقوية النّواحي التي يسـيطر عليها ألفونسـو ومدّها باتجاه حدود آراغون وبلنسية[1].

يبـدو أنّ طفـلاً واحـداً ولد من هذا الـزّواج، لكنه كان ذكراً ولـم يكن لدى ألفونسـو سـوى بنـات. ولا شـك أنّ الرّغبة فـي إنجاب ولي للعهـد كان وراء زيجات ألفونسـو المتعدّدة.

ويقول كونِده (ii. 62) إنّ المُعتمِد عقد عهداً سرياً مع ألفونسو قبل وقت قصير من سقوط طُليطلة كانت نتيجته المباشرة أن هاجم ألفونسو الأراضي التّابعة لتلك المدينة، «بهـدف المضيّ قُدُماً فـي تحقيق خطط ابن عَبّاد». وفيما بعـد، «ولمّا رأى ابن عَبّاد أن ألفونسـو لم يكتفِ بفتح مدينة طُليطلة وإنما.. كان يسـتولي على المدن والحصون من دون مقاومة، فكّر في أنّ عليه أن يضع حداً لهذه الفتوحات خشـية من اتسـاع سـلطانه. فكتـب إليـه يطلب منه أن يعزف عن احتلال المدن التّابعـة لمملكة طُليطلة وأن يكتفي بتلك المدينة، وأن ينفّذ ما عرضه عندما عقدا التّحالف بينهما. أجاب الملك ألفونسـو بأنه مسـتعدّ لمسـاعدته في الأندلس بإرسـال نخبة من قوات الخيّالة ولكي يثبت له أنه يقيم وزناً لاتفاقهما أرسـل له خمسـمئة من الخيّالة ليغزو بهم أراضي غرناطة»، وشرح لـه أن البلدات التي احتلها هي مُلك له ولصديقه وحليفه ملك بلنسـية[2]. يروي كونِده أن هـذه الواقعة حدثت مباشـرة قبل روايتـه (أو إحدى رواياته، وهمـا اثنتان) المتعلقة باللقاء الذي عقده الأمراء والولاة ونتج عنه دعوة يوسف بن تاشفين.

وتكمن أهمية روايات كونِده هذه في أنها تؤكّد الإشارات المرتبكة الواردة في الحوليّات بشأن قيام حلف بين ألفونسو والمُعتمِد، وإن كان من غير الأكيد متى حصل ذلك.

ويبـدو أنّه ليس مسـتبعداً، مـع ذلك، أنّ هذا الحلف قام بعـد معركة الزّلاقة. ويتفق ذلـك مـع التّاريـخ الذي افترضناه لزواج ملك قشـتالة مـن زايدة، ويبدو أنّ هناك سـبباً جيـداً لـه يتمثل في الخوف الـذي أثارته تلك المعركة في صفـوف الطّرفين. فالمُعتمِد

(1) *Ibid*, xi. 294 – 6.
(2) Conde, ii. 71.

الذي كان يخشى على نفسه من تدخّل الأفارقة، ربما زادت مخاوفه تلك بسبب النّتيجة المباشـرة لاستنجاده بالمرابطين: فألفونسو خرج مهزوماً من معركة الزّلاقة في الوقت الحالي، ولم يكن هناك ما يردع يوسف من الاستيلاء على كل إسپانيا المسلمة لو شاء. أمّـا ألفونسـو فكان يبحث من جانبه عـن أيّ دعم، وتفيد الحوليّات أنه طلب مسـاعدة دوق بورغونيـا وأمراء فرنسـا، وقال لهم إن لم يقدّموا له العـون فقد يتوصل إلى اتفاق مع يوسف ويعطيه ممرّاً عبر أراضيه إلى فرنسا[1].

ولا شـّك أنّ العلاقـات الوثيقة بين المُعتمِد وألفونسـو سـاهمت في توسـيع شـقّة الخـلاف بين يوسـف وملك إشـبيلية والتي كانت قـد بدأت تظهر نتيجـةً للمكائد التي دبّرهـا المعتصـم وغيره من أعداء المُعتمِد. وعاد يوسـف للمـرة الثّالثة في عام 1090، دون أن ينتظر اسـتدعاءه هذه المرة. جاء بمبادرة منه «بغية شـنّ الحرب على الكفّار». وبهذه المناسـبة يقول المقّري إنه «لم ينضـمّ إليه أي من أمراء الأندلس على الرّغم من أنه طلب منهم ذلك، الأمر الذي أغضب يوسف كثيراً فقرّر معاقبتهم على قلّة اكتراثهم وتجريدهم ممّا يملكونه». اسـتولى يوسـف على غرناطة ثم عاد إلى أفريقيا تاركاً أحد قوّاده سير بن أبي بكر ليواصل الحرب. أبلغه سير أنه لا يلقى العون من ملوك الأندلس فكتب إليه يوسف يبلغه بالآتي:

«أصـدر إليهم الأمر بمرافقتك إلـى بلاد العدو (أراضي النّصارى) فإن أطاعوا، كان ذلك الأمر حسناً، وإن رفضوا، حاصر مدنهم وهاجمهم واحداً بعد الآخر ودمّرهم بلا رحمة. عليك أن تبدأ بأولئك الأمراء الذين تقع ممالكهم على الثّغور مع العدو، ولكن لا تهاجم المُعتمِد حتى تصبح سائر بلاد الأندلس طوعا لك»[2].

---

(1) *Crónica general*, xi. 241.

تضيف السّجلات بأنّ القوّات باشرت سيرها من فرنسا، وأنّ يوسف خاف انتظارها وغادر المملكة.

(2) Makkari, ii. 294 – 6.

«فكتب إليه أن يأمرهم بالنّقلة والرّحيل إلى أرض العدوة، فمن فعل فذاك، ومن أبى فحاصِره وقاتله، ولا تنفس عليه، ولتبدأ بمن والى الثّغور، ولا تتعرّض للمعتمد بن عَبّاد، إلا بعد استيلائك على البلاد».

لا يقدّم الكاتب سبباً للتغيّر الذي طرأ على موقف يوسف بن تاشفين من المُعتمِد على الله الذي كانت تربطه به علاقة مودّة إلى قبل عامين، ولكن لو أنه كان على علم بأنّ المُعتمِد قد عقد عهداً مع ألفونسو، فقد كان ذلك بلا شك سبباً كافياً لإزاحته عن ملكه. ولكن من الممكن كذلك أن يكون سير قد أفرط أو استبق أوامره، لأننا نجد الرّواية التّالية لدى القرطبي كما ترجمها عنه غايانغوس:

«أرسل الأمير (يوسف) عندها سير إلى إشبيلية وقد أمره بأن ينتزع المُلك من أيدي المُعتمِد على أن يضمن سلامته إن استطاع، وبأن يقتل كل من يعارضه سواء من أهل المدينة أو العساكر. ويزعم بعض الكتّاب أنّ الأمير لم يصدر مثل هذه الأوامر حيث أنه كان قد أقسم للمُعتمِد علانية في إحدى المناسبات بأنه لن ينزع ملكه إلا إذ رغب العلماء والقضاة وقادة العسكر وكبار أهل المدينة أن يفعل ذلك»[1].

يبدو أنه لا مجال للشّك في أنه عندما أيقن المُعتمِد أن يوسف انقلب عليه وأنّ الهجوم بات وشيكاً على إشبيلية، استنجد بألفونسو، وأنّ ألفونسو أرسل إليه العسكر. لكن القائد سير التقى بالقشتاليين وأوقفهم فلم يتمكنوا من التّقدّم أكثر من حصن المدور (المودوڤار دل ريو) بالقرب من قُرطُبة. يقول المرّاكشي إنّ إشبيلية تعرّضت للهجوم من البرّ ومن وادي النّهر وشبّت النّار في «شوانيها»[2]، ولم يعد الثّبات فيها

المقّري، ج 4، ص 370. (م)

(1) In Makkari, ii. app. xli.

(2) P. 120.

يبدو من المرجّح أن «الشواني» galleys التي دمّرت هي جسر القوارب الذي كان يصل إشبيلية بناحية طريانة والشَّرَف على الضّفة المقابلة. لم نعثر في أيّ مكان على أيّة معلومات بشأن وجود مثل هذا الجسر، ولكننا نعرف من تاريخ حصار فرناندو الثّالث لإشبيلية أن معظم المؤن كانت تجلب من الضّفة الأخرى للنّهر وأنه لمن المستبعد أن يستخدم ملوك بني عَبّاد الذين اسّسوا حضارة متقدّمة العبّارات النّهرية لتأمين نقل المؤن الضّرورية بهذه الطّريقة. كان هناك قصر واحد على الأقل من قصور بني عَبّاد على الضّفة اليمنى للنّهر، وتفيد السّجلات المكتوبة أنه في إحدى المناسبات (في سنة 1063) عندما كان المعتضد مقيماً في هذا القصر، ثار أحد أبنائه واستولى على بعض النّفائس من قصر أبيه، وقام «بإغراق المراكب المستخدمة لعبور

ممكناً. ومع ذلك «التوت الحال أياماً يسيرة إلى أن ورد الأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين وهو ابن اخي أمير المسلمين بعساكر متظاهرة وحشود من الرّعيّة وافرة»[1]، فاشتدّ الحصار على المدينة. لا شكّ أنّ حالة الغموض المؤقتة تلك كانت ناجمة عن التّساؤل عمّا إذا كانت قوّات ألفونسو ستتمكن من فكّ الحصار عن المدينة. يتحدّث كوندِه عن كرم ألفونسو «المثير للاستغراب» في هبّته لنجدة المُعتمِد، ولكن تحالفه مع ابن عَبّاد وعلاقة المصاهرة بينهما يشكّلان سبباً كافياً لذلك، هذا عدا عن مصلحته الشّخصية التي تدفعه لاغتنام أيّة وسيلة ممكنة لمواجهة تقدّم المرابطين السّريع ومقاتلتهم[2].



النّهر والتي كانت مصطفة في النّهر أمام القصر» quae ante palatium in flumine dispositae erant وهرب. (Abbadites, i. 291 – 5) يخبرنا ثونيغا أنه كانت هناك سلسلة كبيرة من الجذوع الخشبية الموصولة بحلقات حديدية ممتدّة من برج مراقبة تورّه دل أورو (برج الذّهب) إلى جدار في الجهة الأخرى، ولا تزال أساساتها قائمة إلى هذا اليوم. (i. 22.) قد تكون سلسلة الألواح الخشبية هذه هي ما تبقى من جسر القوارب الذي بناه المعتمد ويتفق موقعها مع موقع «المراكب» التي أغرقها الأمير الثّائر، حيث كان برج الذّهب برجاً للمراقبة خارج القصر.

(1) المرّاكشي، ص 65. (م)

(2) Conde, ii. 168; Makkari, ii. 297; Al – Marrakushi, 120.

الفصل السّادس عشر

بنو هود وابن مَردنيش

في سنة 1106، كان يوسف بن تاشفين يحتضر وقد بلغ المئة عام، وكانت وصيّته الأخيرة لابنه أن يتخذ من إشبيلية مقرّاً لبلاطه وليس قُرطُبة، وأنّ عليه ألا يتعرّض لقبيلة مصمودة والقبائل الأخرى في جنوب المغرب، وأن يعقد صلحاً مع بني هود، سلاطين سَرَقُسطة[1].

ويتفق مع ذلك مع ما يورده كوندِه في الجوهر عن وصيّة يوسف وهو على فراش الموت، ويضيف أنه أوصى ابنه أن لا يخوض الحرب بغير ضرورة (راجع نهج علي، الصّفحة 75). ويضيف أنّ والدة علي بن يوسف كانت نصرانية تدعى كومايكا Comaica أما كاتبه فهو أبو محمّد، أحد أبناء المُعتمِد ملك إشبيلية[2].

غالباً ما يوصف يوسف بن تاشفين بالمتزمّت الذي كان جلّ تفكيره ينصبّ على إعلاء شأن عقيدته وترسيخها، ولكن وصيته لابنه على فراش الموت قلّما تؤكّد هذه الرّؤية عن شخصيته. لقد كان اختيار إشبيلية عاصمة، على ما نظن، عائداً لقيمتها كميناء نهري داخل البلاد وأهمّيتها لأنها كانت بحكم الأمر الواقع عاصمة الأندلس على مدى قرن تقريباً، ولحقيقة أن سكّانها كانوا من الشّيعة، من أبناء المذهب نفسه

---

(1) Makkari, ii. 302.

(2) Conde, ii. 192 – 3.

يقول كوديرا إنّ أمّه كانت جارية نصرانية. (*Almoravides*, 230.)

الـذي يتبعـه المرابطون[1]. وسـرعان ما وجدت مخاوف يوسـف من قبائـل مصمودة وسـائر القبائـل الأخرى فـي الجنوب تبريـراً لها، عندما تمكـن هؤلاء البربـر الأفارقة الذين كانوا شديدي التّزمّت مقارنة مع المرابطين، من انتزاع كل ممتلكاتهم في أفريقيا وإسپانيا على السّواء.

أمّا بنو هود، فمن الواضح أنّ وصيّة يوسف لعقد السّلم معهم كانت نابعة من معرفته بمدى القوة التي تتمتع بها السّلالة اليمنية الوحيدة الباقية في الأندلس والتي كانت على الارجح قادرة، في حال معاداتها للمرابطين، أن تجمع تحت رايتها كل جموع السّكان المتعلّقين بانتمائهم القبلي وبالمذهب الشّيعي. ورغم أنّ المُعتمِد كان قد توفي وانتهى أمـره، فـإنّ ذكراه ظلّت حيّة في أذهان شـعبه. ورغـم أنّ بني أبي عامـر، وبني العامري وبني طاهر وبني الأفطس وسـائر الأشـراف اليمنيين هُزموا وجرّدوا من ممتلكاتم فقد كان النّاس لا يزالون مخلصين لهم، وكل ما كانوا يحتاجونه وجود قائد ليهبّوا في وجه القادمين الجدد الا في حال تولّى هؤلاء المُلك بصورة سـلمية من خلال التّحالف مع أصحابـه الأصليين. كانت سَرَقُسـطة حالة متميّزة وحافظ بنـو هود على علاقات جيدة مع بني تاشفين حتى سنة 1126.

فـي تلك السّـنة، كان عبد الملك بن هود مهدّداً بهجوم يشـنه عليـه المرابطون على أسـاس عجزه عن الدّفاع عن عاصمته سَرَقُسـطة بعد أن استولى عليها نصارى الشّمال في سنة 1118، بعد حصار طويل[2].

ويبدو أن السّـبب الحقيقي وراء إغارة المرابطين على حليفهم السّـابق هو خشيتهم مـن أن يـؤدّي خضوع ابـن هـود لألفونسـو الأول ملك آراغـون إلى الإضـرار بقضيّة المسـلمين في إسـپانيا. ويبدو أنّ علي بن يوسف نسـي تحذير والده من عدم إعطاء أيّة

(1) كلام عجيب من المؤلفين فيه خلط فادح، فالمرابطون لم يكونوا من الشّيعة، بل كانوا يستندون إلى قوتهم المتشبّعة بروح إسلامية إصلاحية مبنية على المذهب المالكي باعتقاد أشعري سُنّي، وأطلقوا على دولتهم تسمية معبّرة هي «دولة الرّباط والإصلاح». (أحمد)

(2) Makkari, ii. 303.

ذريعة لبني هود للشّعور بالتّهديد لأنّ قوتهم تكمن في كونهم على علاقات جيدة مع النّصارى. احتفظ ابن هود بعد سقوط عاصمته بالقسم الأكبر من أراضيه من خلال التّخلّي عن عدد من الحصون الحدودية بفضل التّوقيع على عهد صلح مع المحتلين.

عندما بلغه ما يدبّر له علي بن يوسف، كتب له خطاباً مطوّلاً يذكّره فيه بالعهد الذي وقّعه أبوه يوسف مع أبيه المستعين، والذي نصّ على أن يحتفظ الأخير بمملكته، ويلمح إلى أن ما وصل واليه في المغرب بشأن تعامله مع النّصارى قد تم تحريفه:

«معاذ الله أن نفضّ ما اتصل بيننا من مودّة وأن نجلب على أنفسنا الأذى فندع أعداءنا يشمتون بنا؛ وكما حافظنا حتى الآن في العلن وفي السّرّ على الصّداقة التي تجمع بين طليعة قومنا، فلا تدع نوايا المستشارين المغرضة أو جهلهم سبباً لقطع ما اتصل بيننا من وئام...

إنّ الله هو الحَكم وهو المنتقم من كل من ابتغى بنا شرّاً وزرع الشّقاق والخلاف فيما بيننا؛ وأعود وأقول إنّ الله هو الحَكم العدل وإليه الحُكم».

وبناءً عليه، غيّر علي بن يوسف رأيه وأمر قائده بعدم التّعرّض لممتلكات ملك سَرَقُسطة[1].

لا يأتي المقّري على ذكر هذه الحقبة، ولكن عدم قيامه بذلك ليس مستغرباً لأن ما نقله عن بني هود مختصر وقد خصّص له أقل حيّز ممكن، كما هي في الحقيقة الحال بالنّسبة للجزء الذي خصّصه من عمله للحديث عن المرابطين. يبدو وكأن هؤلاء القوم، سواء كانوا من «قطعان المتوحّشين القادمين من صحارى أفريقيا»، أو من النّخبة المتعلّمة ذات الأصول اليمانية، ومن المذهب الشّيعي على وجه التّأكيد، ما كانوا يحظون سوى بقليل من الاهتمام لدى مؤرّخ أهل الأندلس السُّنّة في القرن السّابع عشر. وهو لم يكن بالطّبع ليجد صعوبة في الكشف عن أصولهم أو أيّة تفاصيل تتعلّق بصعود نجمهم أو أفوله سواء في أفريقيا أو إسبانيا.

---

(1) Conde, ii. 241 – 3.

يفتـرض المؤرّخـون أنّ أثر بني هود زال من التّاريخ سـنة 1146 بوفاة أحمد بن عبد الملـك الذي أُخـذت منه مدينة سَرَقُسـطة. ويقال إنه بعد ثلاث سـنوات مـن وفاة أبيه تخلّـى للنّصـارى عـن جميع الحصـون التي كانت لا تـزال معه على الحدود الشّـرقية للأندلس، كما أنّ غايانغوس لـم يذهب في شـجرة العائلة التي رسـمها لسلالة بني هود أبعد من سنة [1]1146. لكن تلك لـم تكن نهاية بني هود لأنهـم اعتلوا السّلطة مجدّداً بعد تسـعين سـنة من ذلك التّاريخ، وفي فترة متقدّمة حتـى 1255 نجد محمّد بن محمّد بن هود، ملك مُرسية، يشهد على منحة باعتباره من عمّال ألفونسو العاشر[2].

وسنتجاوز انقلاب الموحّدين على المرابطين واستحواذهم على ملكهم في أفريقيا كونـه لا يمـتّ بصلة إلى موضوعنـا، وكذلك الثّورات المتعدّدة التي قـام بها أمراء أقلّ أهميـة في الاندلس، ونخوض في أحوال اليمانيين لدى هزيمة ألفونسـو الأول ووفاته في سنة 1134 والتي أدّت بصورة مفاجئة إلى بروز أحد اليمانيين وذيوع شهرته ليصبح خـلال وقت قصير حاكمـاً على جميع الممالك تقريباً في شـرق الأندلس والتي كانت ضمن الاتحاد الموالي لهشام الثّاني والمُعتمِد.

إنه محمّد بن سعد الجُذامي، المعروف باسم ابن مَردنيش.

يبـدو مـن المؤكّد أنّ بعض الدّماء النّصرانية كانت تسـري في عـروق ابن مَردنيش. كان نصارى الشّـمال يطلقون عليه اسـم الملك لوپـه Lope أو لوبو[3] Lobo، وجرت محاولات عدة لإثبات أنه كان هو نفسـه مسـيحياً، ولكننا لـم نعثر على شيء في تاريخه يمكن أن يشـرح لماذا قام البابا بعد مئة سـنة من وفاته بتسـميته «الملك لوپه الممجّدة ذكراه»[4]. يقول دوزي إنّ اسم مَردنيش مشتق من اسم مارتينيث. لكن السّنيور كوديرا يقول إنه لا يقبل بهذا التّفسـير لأسـباب تتعلق بالكتابة الإملائية في اللغة العربية. وهو

---

(1) Conde, ii. 267; Makkari, ii. Ixxxvii.

(2) Rodriguez, *Memorias para la Vida de Fernando III.*, p. 397.

(3) ومعنى هذا الاسم بالإسپانيّة: الذّئب. (أحمد)

(4) Codera, *Almoravides*, 115.

يتفق مع دوزي بأنّ اسم مَردنيش ليس اسماً عربياً لكنه يقترح اسم مردونيوس كأصل له بدلاً من مارتينيث. ويقترح السّنيور كوديرا إن مَردنيش قد يكون من أحفاد البيزنطيين القادمين من قرطاجة، ويورد لتأييد وجهة نظره ما قيل عن أن بناته كان شعرهن أشقر وعيونهن زرق[1]. لكن السّنيور كوديرا لا يؤكد ما هو منقول عن الصّفات الجسمانية لبنات أسرة مَردنيش، ولكننا نفترض أنهن ورثنها كذلك من أصلهن القوطي، والذي هو أقرب من الأصول البيزنطية البعيدة. وأياً كانت عليه الحال، فإنّ المؤرّخ ابن الخطيب يقول بوضوح إنّ ابن مَردنيش كان جُذامياً، في حين يقول المقّري إنه نصراني الأصل[2]. يبدو من الصّعب أن يرتكب ابن الخطيب، اليماني هو نفسه، خطأ في تحديد أصل نسب حاكم بمثل هذه الشّهرة، الأمر الذي يرجّح أن يكون ارتكبه المقّري الذي كتب بعده بثلاثة قرون ولم يكن على اطلاع على المصادر اليمنية. وعليه سنعتمد على أنّ ابن مَردنيش الذي أصبح ملك كل ممالك الشّرق اليمانية، ينتسب إلى قبيلة جُذام مثل جاره ابن هود ملك سَرَقُسطة. أمّا علاقاته الشّخصية مع القوط المسيحيين، فسيبقى ذلك سؤالاً مفتوحاً إلى أن نحصل على المزيد من المعلومات عن تلك الفترة والتي لم تُكشف بعد للعالم.

كان سعد[3]، والد ابن مَردنيش قائداً اشتهر ببسالته وحنكته، وكان العنصر الرّئيسي في هزيمة ألفونسو الأول ملك آراغون ووفاته في عام 1133. عندما ضرب ألفونسو حصاراً حول أفراغة، قاوم سعد، حاكمها في ذلك الوقت، مقاومة شديدة فكسب الوقت إلى حين وصول القائد المرابط ابن غانية[4] لنجدته والاشتباك مع قوات ألفونسو. لقد تدرّب ابن سعد، الذي نعرفه باسم ابن سعد بن مَردنيش، على استخدام السّلاح منذ صغره، فلما بلغ الثّامنة عشرة كان قد أصبح قائداً فذّاً. صاهر ابن سعد بن

---

(1) *Ibid*. 113, 310 – 1.

(2) Makkari, ii. 314; Al – Khattib, in *id*. Ii. 519.

(3) Sad كان يجب أن نكتبها Sa'd، لكننا أغفلنا في الكتاب هذا التّمييز في الأسماء العربية. (المؤلفان).

(4) يحيى بن علي بن يوسف المسوفي. (م)

مَردنيش أمير مُرسية ابن عيّاض[1] الذي عيّنه حاكماً على بلنسية؛ ولما توفي ابن عياض خلفه ابن مَردنيش ليصبح أميراً أو ملكاً على مُرسية[2].

يقول المرّاكشي إنّ ابن عياض فضّل القائد الشّاب محمّد بن سعد بن مَردنيش على ابنه عندما طُلب منه أن يعيّن خليفة من بعده على ملكه. ويوضح المرّاكشي «فلما حضرته الوفاة اجتمع إليه الجند وأعيان البلاد فقالوا له إلى من تسند أمورنا وبمن تشير علينا؟ وكان له ولد فأشاروا به عليه، فقال: إنه لا يصلح لأني سمعت أنه يشرب الخمر ويغفل عن الصّلاة، فإن كان ولا بدّ فقدّموا عليكم هذا - وأشار إلى محمّد بن سعد - فإنه ظاهر النّجدة كثير الغناء ولعلّ الله أن ينفع به المسلمين!»[3].

«فاستمرّت ولاية ابن سعد على البلاد إلى أن مات في شهور سنة 568» الموافقة 1172 ميلادية، كما يضيف المرّاكشي[4].

لم يمضِ وقت طويل حتى أصبح ابن مَردنيش حاكماً على جيان وبيّاسة، وبسطة، ووادي آش، وقرمونة، أي كل المدن التي كانت تسعى إلى نيل استقلالها، وكلّها أو معظمها، كما تفيد المعلومات المتوفرة، ثارت خلف قادة من أصل يماني[5]. وخلال وقت قصير صار ابن مَردنيش ملكاً على القسم الأكبر من شرق الأندلس وضرب حصاراً على إشبيلية وقُرطُبة، وكاد ينجح في إخضاعهما إن لم ينجح فعلاً في ذلك[6].

---

(1) عبد الرّحمن بن عياض. (م)

(2) Al – Khattib in Makkari, ii. 519.

يقول المقّري (Makkari, ii. 334.) إن أحد أبناء أبي عامر حكم مُرسية قبل ابن عياض.

(3) المرّاكشي، ص 98. (م)

(4) Al – Marrakushi, 180 – 1.

تستمدّ رواية المرّاكشي لتاريخ تلك الفترة قيمتها وروعتها من كونه معاصراً للأحداث، وقد حصل على رواية تعيين ابن عياض لخليفته من أشخاص عرفوا ابن عيّاض شخصياً.

(5) يورد كوديرا في كتابه «المرابطون» *Almoravides* أسماء على ارتباط بهذه الثّورات تشير إلى أصل يمني أو من المولّدين، وإن كان يبدو أن السّنيور كوديرا لايقدّر أهمية هذه الحقيقة. وتؤكّد روايات كوندِه عن هذه الثّورات ما يورده السّنيور كوديرا في الإجمال.

(6) Makkari, ii. 519 – 20.

ومن خلال ما ذكره ثونيغا عن ملوك بيّاسة ومُرسية وغيرهما، خلال روايته لاستيلاء فرناندو الثّالث على الأندلس، نعلم أنّ ابن مَردنيش لم يجرد حكّام تلك الدّويلات المختلفة من ألقابهم وأملاكهم، وإنما واصل النّهج الذي درج عليه اليمانيون في توحيدهم تحت رايته، وهو ما يفسر تقدّمه السّريع في توسيع سلطاته وممتلكاته.

وكانت إحدى زوجات ابن مَردنيش ابنة إبراهيم بن مفرّج، الذي اشتهر باسم ابن هَمُشَك، وكان من أصل نصراني والتحق جدّه لأبيه ببني هود في سَرَقُسطة. فقد ابن مفرّج إحدى أذنيه خلال القتال، وعندما التقاه النّصارى في الميدان أطلقوا عليه من باب السّخرية اسم هَمُشَك *Ha Meshak* أو صاحب الأذن الواحدة. وهكذا بات إبراهيم معروفاً لدى العرب باسم هَمُشَك، لأنه وكما يقول ابن الخطيب، فإنّ كلمة *al mushk* (المشك) تعني «بلسان النّصارى» الرّجل الذي قُطعت إحدى أذنيه؛ وانتقل الاسم منه إلى ذرّيته[1].

باغت ابن هَمُشَك خلال فترة تحالفه مع صهره ابن مَردنيش غرناطة وانتزعها من الموحّدين في سنة 1162، بالتّواطؤ مع النّصارى واليهود الذين يعيشون داخل المدينة. فقد دخل ابن هَمُشَك سرّاً من بوابة فتحها له أنصاره واستولى على غرناطة دون صعوبة إلى حين وصول تعزيزات كبيرة من الأفارقة من المغرب. لم يربك ظهور الجيش كثير العدد ابن هَمُشَك الذي اندفع خارج أسوار غرناطة وهزم الموحّدين وذبح منهم أعداداً كبيرة بعد أن علقوا بين الخنادق والأقنية المنتشرة في السّهل *vega* الممتدّ أمام المدينة، ممّا أعاق هروبهم. واستغرق الأمر بضعة أشهر قبل أن يتمكّن حكّام الأندلس الاسميون من إخراج حليف ابن مَردنيش القوي من غرناطة. وأُرسل جيش كبير بقيادة ابناء السّلطان الموحّد وبعد معركة لا يختلف بشأنها أحد تقريباً، جرت في السّهل بين

---

(1) يفيد ما كتبه ابن الخطيب عن أصول الأعلام في "the Christian language" (لغة النّصارى) في فهم التّحوير الغريب لكثير من الأسماء القُوطيّة.
ويعطي السّنيور كوديرا التّفسير الصّحيح بلا شك، بما معناه أن ما قاله الإسپان هو: *He mo-chico* (إي موتشيكو) ومعناه *He aqui el mocho pequeño* أو «ها هو ذا الموتشو الصّغير».
وكلمة *mocho* تعني ما ينقص منه طرفه أو نهايته، مثل بقرة نُزع قرناها أو شجرة قُلّمت أغصانها.

جحافل الأفارقة وقوات ابن مَردنيش وابن هَمُشَك، كان القدر إلى جانب الموحّدين، وهرب ابن مَردنيش إلى مُرسية.

بعد فترة من تلك المعركة، طلّق ابن مَردنيش زوجته، وفي النّهاية، وإن لم يحدث ذلك على الفور، تشاجر ابن هَمُشَك معه وانضم إلى الموحّدين. وخدم لديهم ضدّ صهره لبضع سنوات، ولكن في سنة 1175 طلب أن ينسحب إلى أفريقيا مع عائلته وتوفي فيها بعد فترة قصيرة[1].

يكتب كونده في هذه الفترة بصورة متكرّرة عن قوات ابن مَردنيش والمرابطين وكأنها تشكّل كلّاً واحداً؛ والحقيقة أنهما كانتا كذلك على ما يبدو في فترة غزو الموحّدين. يمكننا أن نأخذ على سبيل المثال استيلاء ابن هَمُشَك على غرناطة، حيث يقول كونده: «استولى المرابطون على مدينة غرناطة.. وولّى ابن مَردنيش نفسه على المدينة بمساعدة قريبه ابن هَمُشَك ملك شقورة وحاكم مُرسية، المتحالف مع النّصارى»[2].

أمّا بالنّسبة لإشبيلية، فلم ننجح في الحصول على أيّة معلومات محدّدة بشأن ما اشتهر عن استيلاء ابن مَردنيش على المدينة، لكن المرّاكشي يقول إنه بقي مخلصاً للمرابطين (p. 181)، موحياً إلى أنه كان متعاطفاً، كما هو على الدّوام، مع الحكّام الشّيعة؛ ويورد المقّري أنّ ابن مَردنيش نجح تقريباً في احتلال إشبيلية وقُرطُبة اللتين أخذهما على حين غرّة، وكذلك غرناطة، وهذا يعني أنّ المرابطين[3] والشّيعة العرب كانوا يقاتلون جنباً إلى جنب مع ابن مَردنيش في المدن الثّلاث. ويقول كوديرا وكونده إنّ هذه الأحداث دارت بين عامي 1162 و1163، لو أنها، كما نفترض، شكّلت جزءاً من حملة واحدة[4].

(1) Codera, *Almoravides*, 133 – 44, 147 – 8. Al – Khatib in Makkari, ii. 315 – 6 and 520 – 1.

(2) Conde, ii. 346.

(3) يظنّ المؤلفان أنّ المرابطين كانوا من الشّيعة، وهذا بالطبع خطأ جليّ، إذ كانوا على المذهب السُّنّي المالكي باعتقاد أشعري. (أحمد)

(4) Conde, ii. 362 – 4; Codera, *Almoravides*, 142 – 4, 316 – 8.

ويورد المقّري وكوندِه وكوديرا على سبيل المثال المدن التّالية بوصفها أهم المراكز التي خسرها الموحّدون الظّافرون في القرن الثّاني عشر: بلنسية، مُرسية (لم يعد يشار إلى تدمير بوصفها حكومة منفصلة، وعليه يفترض أنها باتت الآن أخيراً ملحقة بمُرسية)، وسَرَقُسطة، والمَريّة، ودانية، وغرناطة، وجيان، وبيّاسة، وبسطة، ووادي آش، ومارتلة، وقرمونة، والغرب، وشلب، ولبلة، والرّابطة، وشلطيش، وبالطبع إشبيلية. وهي أسماء معروفة بالنّسبة لقرّائنا لأنه لا يوجد من بينها واحدة لم يرد ذكرها خلال الحروب الأهلية سواء في القرن التّاسع أو الحادي عشر، أو كليهما، وبوصفها كانت موالية لقضية اليمانيين أو المولّدين في مواجهة الفريق السُّنّي أو البربر.

ومن بين القادة والأمراء اليمانيين، برّ أولئك الذين ينتمون إلى قبيلتي جُذام ولَخْم. فهاتان القبيلتين وفقاً لأصول السّلالات الذي يورده المقّري، تفرّعت عن أخوين، ورغم أنّ العلاقة المتينة بينهما تعود إلى التّاريخ الغابر، فقد تشبّث أبناؤهما بعلاقاتهم الوثيقة حتى النّهاية كما فعلوا منذ البداية. وعليه، اعترف بنو جُذام بولاية المُعتمِد اللَّخْمي عندما كان حاكماً على القسم الأكبر من إسپانيا المسلمة. وعندما نجح ابن مَردنيش، الجُذامي، في بسط سلطاته على الدّويلات الشّرقية وتأسيس مملكة لها من القوة ما كان لمملكة المُعتمِد في الغرب، أظهر اللَّخميون في إشبيلية ونواحيها ولاءهم له.

كانت سياسة ابن مَردنيش تقوم في خطوطها العريضة على تلك التي اعتمدها كل رجال الدّولة اليمانيين العظام من قبله. كان هدفه إقامة دولة موحّدة (فدرالية) ضمن حدود البلاد المسلمة وعقد عهود حياد أو التّحالف مع النّصارى في الشّمال. وكانت كل ثورة من الثّورات المتعاقبة تجعل الأمر بالنّسبة للشّيعة التّوّاقين للسّلم أكثر وضوحاً بأنّ تجارتهم ومبادلاتهم التّجارية وصناعاتهم وزراعتهم ستتعرّض للتّدمير بلا طائل إن لم يتوصّلوا إلى حلّ وسط مع النّصارى. كان الموحّدون لا يزالون قلّة وقدرتهم على الوصول إلى إسپانيا فقط عبر البحر ربما جعلت المقاومة المشتركة من جانب الاندلسيين ممكنة. ولكن النّصارى كانت لديهم، إذا جاز التّعبير، كل أوروپا خلفهم،

وكما نعرف فإنّ شنّ الحرب على المسلمين الإسپان بات يعتبر بمثابة حرب مقدّسة تكاد ترقى إلى مصاف الحروب الصّليبية في الشّرق، قبل وقت طويل من استيلاء فرناندو الثّالث على إشبيلية.

وهكذا عقد ابن مَردنيش عهوداً مع كل النّصارى على حدوده، لا بل إنه أرسل هدايا من الحرير المصنوع في مُرسية والذّهب والخيول والجمال إلى هنري الثّاني ملك إنكلترا الذي تلقّى منه هدايا في المقابل. ووقّع كل من كونت برشلونة وملك قتشالة وجمهوريتي پيزا وجنوة معاهدات معه. ونصّ اتفاق وقّع مع الجمهوريتين في سنة 1149 على ألا يتدخل أهل جنوة بأمور رعايا ابن مَردنيش في طرطوشة والمَريّة، ومقابل ذلك يتعهّد ابن مَردنيش بدفع عشرة آلاف دينار مرابطي خلال سنتين. لقد كانت تلك العهود بالطّبع محض تجارية الطّابع، حيث أنّ ابن مَردنيش بالإضافة إلى ذلك «قدّم لأهل جنوة المقيمين في بلنسية ودانية فندقاً أو نزلاً للتّجارة ومنع غيرهم من الإقامة فيه». ويبدو أنه رغب في غرس فضيلة النّظافة التي اشتهر بها المسلمون، والتي لم تكن في ذلك الوقت منتشرة بين النّصارى، لأنه رتّب لتجّار جنوة زيارة للحمّام مرة في الأسبوع مجاناً[1].

وابتداءً من سنة 1148 كان ابن مَردنيش يدفع الجزية لأسياده ملوك قشتالة وبرشلونة عن أملاكه في مُرسية وبلنسية وحتى سنة 1168 عندما جدّد ألفونسو الثّاني ملك آراغون العهد لمدّة سنتين عندما خلف [أباه الأمير] بيرنغر كونت برشلونة. وكانت الجزية مئة ألف مثقال من الذّهب، من الذّهب الخالص، كما يلاحظ السّنيور كوديرا، والتي يمكن رؤية نماذج منها ضمن العديد من مجموعات العملة. ولكنه لا يوضح ما إن دفع ابن مَردنيش هذا المبلغ لكل واحد من الملكيين النّصرانيين، أم نصف المبلغ لكل منهما. وفي سنة 1154، توجّه ابن مَردنيش مع ألفونسو الثّامن ملك قشتالة لنجدة المَريّة عندما

---

(1) Codera, *Almoravides*, 115, 123.

لقد ترجم السّنيور كوديرا كلمة «فندق» بكلمة "*mesón*" ومعناها نزل. وفي قاموس بُلو Belot ترجمت كلمة «فندق» *fondak* بمعنى «سجلّ الإيرادات والنّفقات». يمكن أن نفترض أنّ ما قدّمه ابن مَردنيش لتجار جنوة لم يكن نزلاً يبيتون فيه وإنما مكاناً للتّجارة والمبادلات.

حاصرها الموحّدون. وخرج ألفونسو ومعه 12 ألف رجل وابن مَردنيش ستة آلاف، ولكنهما عجزا عن فكّ الحصار. وكانت تلك آخر حملة مشتركة لهما، لأن ألفونسو مات بعدها بثلاث سنوات[1].

لن نمضي في سرد السّجل الطّويل للمعارك والأعمال البطولية التي قام بها ابن مَردنيش. ومن الواضح أنه مُني بالكثير من الهزائم، وبعضها كان خطيراً، وما كان يمكن أن يكون الأمر في الحقيقة مختلفاً عن ذلك، نظراً لما كان يحيط به من أعداء. ولكننا نقرأ باستمرار بأنّ هذه المدينة أو تلك وغيرهما من المدن التّابعة له، كانت تتعرّض للحصار بلا طائل، بحيث أنه يصعب علينا أن نقبل تقدير السّنيور كوديرا بشأن تضاؤل قوته عندما خطفه الموت مبكراً وهو في التّاسعة والأربعين، في أو حوالي سنة 1172.

ويختلف المؤرّخون بشأن سبب وفاته؛ إذ يقول بعضهم إنّ معنوياته انهارت عندما أيقن استحالة الاحتفاظ بملكه في وجه الموحّدين بعد أن تحالف حموه مع العدو؛ ويقول آخرون إن ابن مَردنيش، مثل أيّ جبان رعديد، أصيب بالسّقم ومات خوفاً عندما سمع بقدوم سلطان موحّد جديد إلى إسپانيا. ويقول آخرون كذلك إنّ أمّه قتلته لأنها خشيت من تصرّفه العنيف وأعطته السّم لأنه شجب بقسوة سلوكها إزاء خدمها وأسرتها وكبار أعيان الدّولة[2]. غير أنّ المرّاكشي يقول إنه مات ميتة طبيعية، وإن كان مات في شبابه. لقد مُني بهزيمة قاسية في الجلاب، على بعد أربعة أميال من مُرسية، وانسحب إلى عاصمته وقاوم فيها الحصار حتى وافته المنيّة وحالت دون إتمام عمله. وبقيت وفاته طيّ الكتمان إلى حين وصول أخيه أبي الحجّاج الذي أسرع قادماً من دويلة بلنسية التي كان والياً عليها باسم ابن مَردنيش[3]. يقول السّنيور كوديرا إنّ أبا الحجّاج ثار على أخيه وأعلن نفسه والياً على بلنسية، لكن ما يرويه المرّاكشي يتناقض مع ذلك. وينبغي في هذه الأثناء، أن يكون رُفع الحصار عن مُرسية، إذ يبدو أن أبا الحجّاج لم يواجه صعوبة في الوصول إلى عائلته داخل المدينة.

---

(1) Codera, *Almoravides*, 120 – 2, 136 – 7.

(2) Makkari, ii. 318; Codera, *Almoravides*, 151 – 2.

(3) Al – Marrakushi, 215 – 6.

كانت مُرسـية وبلنسية والمَريّة موالية لابن مَردنيش طوال الوقت، وامتدّ حكمه إلى الشّمال حتى طرطوشة ولاردة وأفراغة، وكلها مدن قوية غاية في الأهمية كمواقع أمامية على حدود إسپانيا المسلمة. وكانت تتبع لسلطاته في الغرب العديد من المدن فيما كان في وقت من الأوقات ضمن أملاك الأمير أرطباس، وامتدّت حدوده في بعض الأحيان إلى قُرطُبة وإشبيلية، إن لم تكن المدينتان مشمولتين بسلطاته. أمّا في الجنوب الغربي، فلـم تكـن لدى مدينتي الغرب ولبلة وغيرهما من الدّويـلات والمدن الأقل أهمّية التي يسكنها اليمانيون وأحفاد المولّدين، سوى فرصة قليلة لإعلان تأييده في بسط سلطاته، حيث كانت إشبيلية مركز حكم الموحّدين خلال معظم الفترة التي كانت فيها الأندلس خاضعة لسلطانهم؛ لكن ورود ذكر مقاومة الثّورات بصورة متقطعة في ذلك الجزء من البـلاد، يبيّن أنّ قوّة قاهـرة هي التي كانت تمنعهم من الانضواء تحت راية ابن مَردنيش وليس رغبتهم في ذلك.

هناك العديد من الإشارات إلى تحالفاته مع النّصارى. فقد هبّ ملك قشتالة لنجدته لـدى حصار المَريّة، وأرسـل «حاكم برشـلونة» له العون في عـام 1151. وفي معركته الأخيرة مع الموحّدين في الجلاب، كان النّصارى يشكلون القسم الأكبر من جيشه[1].

يقـول القرطبـي إنّ آخر ملوك بنـي هود، وبدافعٍ من بُغضه للموحّدين، قبل شـروط ألفونسو الثّامن ملك قشتالة والتي تضمّنت التّخلّي عن حصن الرّوضة أو روضة اليهود في آراغون وكل المدن الحدودية التّابعة لبني هود مقابل الحصول على «أراضٍ أوسع وأفضل في قشـتالة»، وكان هدف ألفونسـو من المقايضة أن يبسط سلطاته على المدن الحدوديـة. ويتطابق ذلك مع مـا ذكره مؤلف «روض القرطاس» *Kartas* والذي يقول وفقـاً للسّـنيور كوديرا[2] إنه في سـنة 1149 اسـتولى النّصارى على المَريّة وطرطوشـة ولاردة وإفراغة وشـنترين، وشـنتمرية (يفترض أنها شـنتمرية بني رزين، أو البراثين). كمـا يتفق مع مـا قاله كونده بأنّ آخر ملوك بني هود تحالف مع ألفونسـو وتنازل له عن

(1) Makkari, ii. 313; Marrakushi, 215.

(2) *Almoravides*, 126 note.

كل حصونه على الحدود الشّرقية للأندلس، أو إسبانيا المسلمة.

لكن كل هذه المعلومات لا توضح كيف تمكّن ابن مَردنيش من بسط سلطاته على معظم إن لم يكن كل هذه المدن خلال فترة حكمه، بموافقة من، أو بوصفه ممثلاً للنّصارى الذين تنازل لهم بنو هود عنها. أمّا المَريّة، فإن صحّ أن الموحّدين نجحوا في السّيطرة عليها في وقت من الأوقات، فلا بدّ أن ابن مَردنيش استعادها بعد فترة وجيزة، إذ أنّ ابن عمّه محمّد بن سعد كان يحكمها باسمه في سنة 1168[1]. يقتبس السّنيور كوديرا معلومات تشير إلى أن بلنسية كانت كذلك تابعة له في سنة 1169. ويقول ابن خلدون إنّ أبا الحجّاج يوسف بن سعد حاصر بلنسية، ولدى استيلائه على المدينة قرأ اسم الخليفة العبّاسي في الخطبة. لم يكن هذا على أيّ حال بجديد، لأنه يبدو أنّ ابن مَردنيش درج على الاعتراف بالسّلطة العليا للعبّاسيين على العملة التي سكّها[2].

يتفق جميع المؤرّخين على أنّ أبناء محمّد بن سعد بن مَردنيش أسلموا الأمر إلى الموحّدين بوصفهم حلفاءهم أو أولياءهم، في أو حوالي سنة 1172، لكنهم اختلفوا في الطّريقة التي أعلنوا بها الطّاعة لهم. وسنعتمد هنا رواية المرّاكشي باعتباره كان معاصراً لتلك الأحداث.

ويقول المرّاكشي «قيل إنّ أبا عبد الله محمّد بن سعد حين حضرته الوفاة جمع بنيه (....) فكان فيما أوصاهم به أن قال: يا بَنيّ إنّي أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر وأتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد في طاعتهم وإني أظن أنه لا طاقة لكم بمقاومتهم فسلّموا إليهم الأمر اختياراً منكم تحظوا بذلك عندهم قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم، وقد سمعتم ما فعلوا بالبلاد التي دخلوها عنوة، ففعلوا ما أمرهم به فالله أعلم أيّ الأمرين كان».[3]

---

(1) Codera, *Almoravides*, 129.

نقبل ما نقله السّنيور كوديرا من وقائع أكّدها المقّري، ولكننا نشير إلى أنّ ابن مَردنيش نفسه كان يدعى محمّد بن سعد بن مَردنيش.

(2) *Ibid*., 128, 130, 395.

(3) P. 216.

المرّاكشي، ص 120.

تبـدو هـذه الرّوايـة لنـا معقولـة، إذ أنه وبغـضّ النّظـر عن عظمـة قوتهـم المتزايدة باضطـراد، فمن المؤكـد أنّ الموحّدين كانوا قادرين قبل وفاة ابـن مَردنيش على انتزاع ملكـه منه. لكن لا بـدّ أن أولاده كانوا لا يزالون فتياناً، وربمـا خاف ألا يكون لديهم ما يكفي من القوة لخوض المعركة.

ويؤيّـد كوندِه ما رواه المرّاكشـي ويؤكّد عليه بقوله إنـه بعد وفاة ابن مَردنيش «ملك شـرق إسـپانيا، وبلنسـية ومُرسـية والعديد غيرها من المـدن، التجأ أبنـاؤه إلى الملك يوسف أبي يعقوب، ملك أفريقيا، وسلّموه كل أراضيهم خشية ألا يكونوا قادرين على الاحتفـاظ بها، لأنهم كانوا يواجهون حرباً ضروس شـنّها عليهم النّصارى من جهة[1]، وكان الموحّـدون الأفارقـة يناكفونهم من الجهة الأخرى. وقد أعطاه القدر (ليوسـف أبـي يعقـوب) بالمجّـان ما لم يكن يأمـل أن يحصل عليه بالقوة؛ فأعطى أبناء سـعد بن مَردنيش ألقاباً ومدناً جديدة وتزوّج واحدة من أخوات هؤلاء الأمراء». وبعد صفحتين من ذلك يضيف كوندِه فقرة مأخوذة عن كاتب آخر تقول:

«في سـنة 570 (1174 – 1175)، ورغبة منه في إحلال السّـلام والطّمأنينة لدى مسلمي إسـپانيا، تـزوّج الأميـر يوسـف أبـي يعقوب ابنة سـعد بـن مَردنيـش الجميلـة، اخت ملك دانية وشـاطبة وقسـم كبير من شـرق إسپانيا؛ ولاسـتقبالها وتشـريفها أمر ببناء «المهرگانه» *miherghana* (المهرجانة)[2]، وهو منزل يعجز أي لسان عن وصف جماله وعظمته»[3].

وهكذا وبعد أن سـلّموا، وفقاً لمصدر آخر، «كل ممتلكاتهم» إلى يوسف، كان أخو العروس لا يزال «ملك دانية وشاطبة وقسم كبير من شرق إسپانيا». من الواضح هنا أنّ بني مَردنيش لم يُجرَّدوا من ممتلكاتهم على الإطلاق، وإنما أعلنوا ولاءهم ومبايعتهم لصهرهم وفق شروطهم عملاً بوصية أبيهم.

---

(1) لقد رأينا أنّ الأمر لم يكن على هذا المنوال لأن ابن مَردنيش كان متحالفاً مع كل من قشتالة وآراغون، ولكن الأب المحتضَر كان يخشى ألا يتم تجديد العهود لصالح أبنائه.

(2) *miherghana*

(3) Conde, ii. 380 – 2.

يشكل المبنى جزءا من قصر إشبيلية.

إنّ زواج ابنة ابن مَردنيش من أبي يعقوب الذي يورده كوندِه يؤكّده غيره من الكتّاب. فالمرّاكشي يذكر اثنتين من بناته تزوّج إحداهما يوسف أبو يعقوب، وتزوّج الأخرى خليفته «أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب بن يوسف»[1]. ويخبرنا السّنيور كوديرا أنّ الأمير يوسف ولّى يوسف عمّ العروس على بلنسية، «التي كان لسنوات طويلة من قبل والياً عليها نيابة عن أخيه الملك لوبو»[2].

ونجد أنه في سنة 1224، كان أحد أبناء سلالة بني مَردنيش يدافع عن بلنسية في مواجهة الموحّدين إلى أن استسلمت المدينة للنّصارى في سنة 1238. وبما أننا لن نجد ذكراً لبني مَردنيش فيما بعد هذا التّاريخ، يمكن أن نفترض أنه كان استسلاماً غير مشروط، وإلا لكنا توقّعنا العثور على ابن مَردنيش هذا من بين الأمراء التّابعين لسان فرناندو مثل جاره ابن هود.

وأصبح الابن الثّاني من بين أبناء ابن مَردنيش الثّمانية أميرالاً في أسطول الموحّدين وقاد حملة على لشبونة في سنة 1179[3].

ومع أنّ المعلومات المتوفرة هنا تبقى ناقصة وغير مترابطة من النّاحية السّردية، فإننا نعتقد أنها تثبت أنّ اليمانيين والقوط المسيحيين في إسپانيا المسلمة اضطلعوا بدور مهم في القرن الثّاني عشر كما فعلوا في القرون السّابقة بوصفهم في الواقع الطّرف الذي كان يتمتع في الأندلس بما يكفي من القوة والحنكة السّياسية لكي يدركوا أنّ التّحالف مع النّصارى كان الطّريق الآمن الوحيد لكي يتفادوا الإبادة على أيديهم. ولو أنّ ابن مَردنيش عاش لفترة أطول لبقيت لا مملكة غرناطة وحدها وإنما كافة دويلات الشّرق إن لم يكن كذلك تلك الواقعة في الجنوب والجنوب الغربي، لمئتين وخمسين سنة أخرى؛ فسياسته هي بالتّحديد تلك التي أتاحت لابن الأحمر بن نَصْر أن يبني

---

(1) P. 216.

المرّاكشي، ص 120.

(2) *Almoravides*, 153.

(3) Makkari, ii. 334 – 5; Ibn Khaldun, in *id*. App. lxxvi. – vii.; Codera, *Almoravides*, 153.

لنفسه مملكة حصينة بما يكفي لكي تبقى مستقلّة بمفردها حتى سنة 1492.

لم يُنشر سوى القليل عن مصائر اليمانيين خلال الرّبع الأخير من القرن الثّاني عشر. ولكن من الواضح أنهم لم يؤيّدوا طوعاً الحملات التي شنّها الموحّدون في أيّ اتجاه. ومن بين الأسماء التي يوردها كونده على صلة بمعركة حصن الأرك في عام 1195، والتي هزم فيها ألفونسو التّاسع ملك قشتالة هزيمة نكراء، لا يوجد اسم واحد يشير إلى كونه من نسب يماني[1]. كما أنه ينسب من جهة أخرى الهزيمة النّكراء التي مني بها الموحّدون الأفارقة في معركة العقاب Las Navas إلى هروب الأندلسيين الذين كانوا في ذلك الوقت كلهم تقريباً من الشّيعة، إذ يبدو أنّ العرب المُضَريين، الذين لم يكونوا كثيري العديد في أيّ وقت من الأوقات، كانوا قد اختفوا في ذلك الوقت من إسبانيا واختلط المرابطون الذين لم يفرّوا إلى بلادهم الأصلية مع اليمانيين في شبه الجزيرة الإسبانية.

أمّا العُذر المقدّم لهربهم في خضمّ المعركة فهي المعاملة الوحشية التي تلقاها أحد أصحابهم، وهو أبو الحجّاج يوسف بن قادس الذي أرغم بعد أن دافع بشهامة عن حصن قلعة رباح من أجل أوليائه الموحّدين، على الاستسلام للنّصارى. وكان قد أرسل إلى «أمير المؤمنين» (أبي عبد الله النّاصر) الكثير من نداءات النّجدة للحصول على تعزيزات، لكن وبتدبير من وزير ذاك السّلطان[2]، لم تصل خطاباته إلى مقصدها. وعندما وصل أبو الحجّاج المهزوم إلى معسكر الموحّدين مع حميه، صدر أمر باعتقال القائدين؛ ثم بعد أن ذاقا أنواع العذاب في سجنهما، أخرجا وتم طعنهما بالرّماح من دون أن يُسمح لهما بأن يتكلما ليدفعا عن نفسيهما تهمة الخيانة في استسلام قلعة رباح.

وكانت النّتيجة أن احتجّ أمراء الأندلس علانية، وبعد أن لقيا معاملة غير لائقة مستهجنة من جانب وزير أبي عبد الله، الذي كان على ما يبدو راغباً في تأجيج العصيان،

---

(1) Conde, ii. 401.

(2) الوزير ابن جامع (م)

قرّر القادة الأندلسيون وعساكرهم من النّخبة المختارة، أن يحوّلوا سير خيلهم ويغادروا الميدان مسرعين في خضمّ المعركة التي حمي وطيسها مع النّصارى[1].

يبدو أنّ أبا عبد الله هذا كان تعيس الحظ منذ ولادته، فعلى الرّغم من تحذيره من أنّ البلاد على شفا الثّورة، واصل في تأجيج غضب مسلمي إسپانيا ضده.

«لقد استبدّ الغضب بالملك النّاصر وألقى باللائمة في تلك الهزيمة، لا على براعة النّصارى وقوتهم، وإنّما على انهزام القادة الأندلسيين، وعليه عندما بلغ إشبيلية، انتقم منهم شر انتقام، فقطع رؤوس بعض كبار القادة وجرّد آخرين من ألقابهم ومناصبهم. ومن خلال إشباعه الجائر لرغبته في الثّأر منهم، أشاع شعوراً كبيراً بالمهانة بين أمراء الأندلس وأعيانها، فكان من الطّبيعي أن يرغبوا في الانتقام. وهكذا، عندما حانت الفرصة، كان هؤلاء الأشراف كثيرو العدد مستعدين أحسن استعداد ليظهروا قوة تأثير سخطهم المبرّر»[2].

ويعزو المرّاكشي هزيمة وقعة العقاب إلى انهزام قوات الموحّدين أنفسهم، وليس إلى انسحاب القادة الأندلسيين من ميدان المعركة. ويقول إنهم منذ عهد أبي يوسف يعقوب كانوا يتسلّمون عطاءاتهم بصورة منتظمة كل أربعة أشهر في حين أنهم كانوا يتأخّرون في قبض أجرهم في عهد خليفته أبي عبد الله، وخصوصاً خلال هذه الحملة، وقد حمّلوا الوزراء مسؤولية ذلك وخرجوا إلى المعركة «وهم كارهون، فبلغني عن جماعة منهم أنهم لم يسلموا سيفاً ولا شرّعوا رمحاً ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم قاصدين لذلك»[3].

ويتفق ما يرويه المرّاكشي مع ما رواه كوندِه بشأن عودة الأمير إلى إشبيلية بعد معركة العقاب وبقائه فيها لفترة قصيرة، وإن كان لا يذكر ما حصل بشأن قتل أشرافها[4].

---

(1) Conde, ii. 420; cf. Al – Marrakushi, 279; and Makkari, ii. app. lxvii.

(2) Conde, iii. 1.

(3) المرّاكشي، ص 159. (م)

(4) Al – Marrakushi, 280.

وعليه نجد أنّ قوات الموحّدين كانت تشعر بالسّخط مثل أمراء الأندلس وإن اختلفت أسبابها. ويورد المرّاكشي بعض المعلومات المهمّة بشأن قوات الموحّدين هذه لما لها من أثر على المقاومة الطّويلة التي أبدتها فيما بعد أمام قوات سان فرناندو في إشبيلية وحواليها، عندما تراجعت سلطة الموحّدين في سائر الأنحاء الأخرى. وسيتم إيراد تفاصيل ذلك في الفصل التّالي.

يبدو أنّ الموحّدين لم يكن من قومهم في إسپانيا غير القوات التي كانت تعسكر في حاميات مختلف المدن، والذين كان جموع النّاس ينظرون إليهم طوال فترة احتلالهم للبلاد باعتبارهم أعداء لهم. لقد كانت معتقداتهم الدّينية وحدها كفيلة بإثارة هذا الموقف العدائي لهم، فعلى الرّغم من أنهم كانوا يتبعون نوعاً خاصاً من «الإصلاح» ويشكّلون مدرسة خاصّة بهم، فقد كانوا يتبعون مذهب أهل السّنّة والجماعة، وأنّى حكموا كانوا يحذفون اسم الخليفة العبّاسي من الخطبة[1].

عندما غدر العساكر بحكّامهم، باتت النّهاية تلوح في الأفق؛ وما كان يمكن لحاكم يمني أن يفوّت الفرصة المتاحة لكي يثور على الأفارقة المتوحّشين والمستبدّين.

وعلى الرّغم من أنّ بني هود كانوا قد أصبحوا تابعين للنّصارى في عام 1145 – 1146، ثم باتت أملاكهم تابعة لإدارة بني مَردنيش فيما بعد، لم تكن تلك السّلالة قد زالت، وكنتيجة لمعركة العقاب، «عندما أتيحت الفرصة لفارس شريف النّسب من سلالة ملوك سَرَقُسطة للانتقام من الموحّدين واستعادة حقوق سلالته الغابرة، وبفضل بلاغته وسخائه ومثابرة أتباعه وأنصاره، جمع عدداً كبيراً من الأشراف البواسل الذين بايعوه واعلنوا استعدادهم للتّضحية بأنفسهم في سبيله»[2].

ويؤكّد المقّري رواية كوندِه مضيفا قصّة طويلة ومضجرة عن تنبؤ أحد المنجّمين بصعود ابن هود[3] وتولّيه للسّلطة، وهو ما لسنا بحاجة إلى التّوقف عنده ومناقشته. الجزء

(1) *Encyc. Of Islam*, art. "Abd Al Mumin," p. 51.

(2) Conde, iii. 4.

(3) هو المتوكل على الله محمّد بن يوسف بن هود. (م)

المهم في رواية المقّري هو قائمة المدن التي بايعت القائد الجُذامي على الفور. هذه المدن هي - وسيعرف قرّاؤنا ما حلّ بعد ذلك - مُرسية ودانية وشاطبة وغرناطة ومالقة والمَريّة، اللواتي تبعتها بعد فترة قصيرة قُرطُبة وجيان وغيرها من المدن التي لم يذكرها المقّري[1].

ثم يرد مقطع غاية في الأهمية لأنه يظهر كيف ثار أهل الأندلس على العقيدة التي فرضها الموحّدون على البلاد.

جاء في كتاب المقّري أنه «عندما رأى ابن هود أنّ أمره استفحل في الأندلس، لم يتردّد في أن يتخذ لقب أمير المؤمنين وفي أن يبعث رسولاً إلى الخليفة العبّاسي المستنصر بالله صاحب بغداد، يطلب منه مرسوماً بولايته على الأندلس لجهته، وبأن يخطب باسمه من على منابر المساجد. ويقول ابن الخطيب إنّ الرُّسل عادوا إلى الأندلس سنة 631 (1233 - 1234) ومعهم ردٌّ من الخليفة الذي أجاب طلبه، وخطابٌ يولّي ابن هود على كل الولايات والبلاد التي يحكمها، ويسوّغه كل ما يفتتحه من ممالك. وكان ابن هود حينها في حاضرة غرناطة فأمر بأن تُقرأ خطابات الخليفة على النّاس، فكان ذلك في المسجد الكبير. وحضر ابن هود نفسه الاحتفال ووقف وهو يرتدي الخلعة السّوداء [رداء العبّاسيين] ويمسك بيده راية سوداء»[2]. وفي اتصال مع هذه الواقعة، من الجدير بالذّكر أنه وقبل سنوات من ذلك فكّر ابن هود بضرورة «تطهير» مساجد الموحّدين وطلى الأسلحة والرّايات بالأسود[3].

لم يكن للعبّاسيين نفوذٌ سياسي في الأندلس في تلك الفترة وما كان يمكنهم أن يقدّموا لابن هود مساعدات مادية من أيّ نوعٍ كان. وبناءً عليه، فمن الواضح أنّ الإعلان عن مبايعته للخليفة الشّيعي كان فعلاً دينيّ الطّابع فحسب الهدف منه الاحتجاج بصورة علنيّة على العقيدة التي فرضها الأفارقة بقوة السّيف على الأندلس فكانوا يخطبون باسم الإمام المهدي في المساجد، من أول الإمبراطورية إلى آخرها.

---

(1) ii. 327.

(2) Makkari, ii. 327 – 8.

(3) *Primera Crônica*, p. 721.

واستعادة العبّاسيين للمكانة التي كانوا يشغلونها لأجيال عدّة في الصّلاة من على منابر المساجد في المناطق التي حكمها اليمانيون كان بمثابة نداء النّفير لقوات أهل العقيدة الشّيعية في إسپانيا، وربما كان على الارجح السّبب في تحقيق ابن هود النّجاح الفوري في فرض سلطاته على الممالك اليمانية آنفة الذّكر.

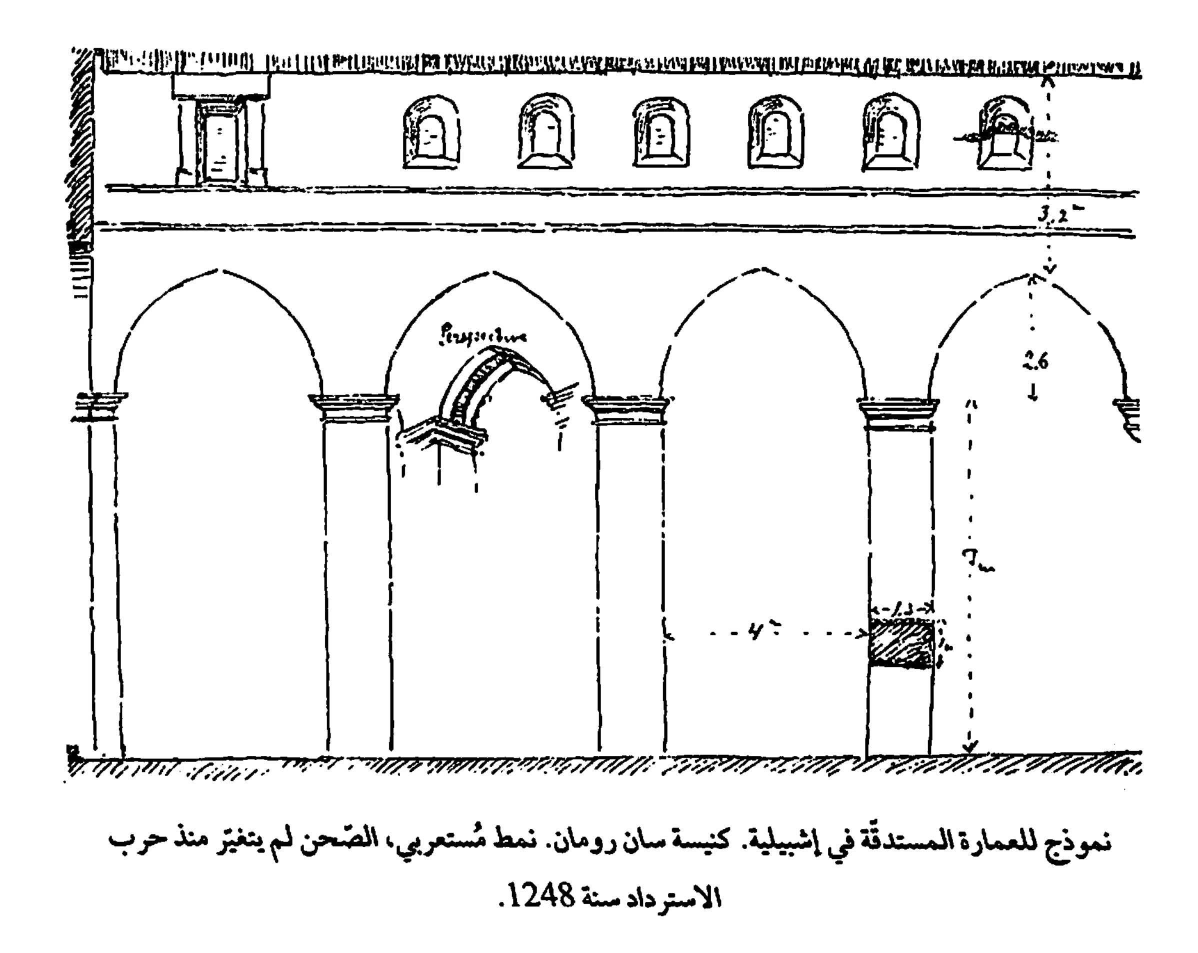
ويدا لفترة من الزّمن وكأنه قادر على ترسيخ حكم ملكي يمني قوي، ولو أنه كان يتمتع بمزيد من الحنكة السّياسية وبقدر أقل من الميول الحربية، فلربما تمكّن من توحيد أتباع عقيدته تحت لوائه. ولكنه كان مقاتلاً، لا أكثر ولا أقل، وليس رجل دولة على شاكلة ابن مَردنيش والمُعتمِد بن عَبّاد اللذين كانا أقرب إلى النّجاح في ظلّ ظروف أكثر صعوبة بكثير. انفرطت قوة الموحّدين بعد هزيمة وقعة العقاب ولم يعد أهل المدن المعزولة يشعرون بالأمان، والتي كان أمراء وولاة الموحّدين يحكمونها بالقوة رغما عن إرادة أهلها. والأرجح أنّ الملك فرناندو النّصراني ملك قشتالة كان على استعداد كافٍ للتّحالف مع الملك اليماني بهدف تحقيق مبتغاه في إخراج المغاربة من البلاد، كما فعل فيما بعد مع ابن الأحمر في غرناطة. وحتى في إشبيلية حاضرة الموحّدين، كان أهل المدينة يكرهونهم إلى حدّ أنهم ثاروا عليهم من تلقاء أنفسهم وقدّموا على أنفسهم أحد بني هود لتولّي الحكم[1].

كان كل شيء في صالحه، لكنه فشل في أن يكون بمستوى التّحديات، وفي سنة 1237 قتله أحد قوّاده في حين أرغم ابنه على القبول بولاية ابن الأحمر ملك غرناطة. وسعى أفراد آخرون من بني هود لبعض الوقت للصّمود في مُرسية والمَريّة، ولكن في عام 1242 – 1243 استسلموا إلى فرناندو ملك قشتالة؛ وزار ابنه ألفونسو «الأرض وكأنها مُلكٌ له دون أن يتعرّض لساكنيها، وكان يوم دخوله إلى مُرسية يوماً سادت فيه بهجةٌ عظيمة. ومن خلال تعامله بالحُسنى تمكن من تهدئة وإخضاع العديد من النّواحي الأخرى التي لم تكن في البداية راغبة في إعلان خضوعها»[2].



(1) Conde, ii. 9; Makkari, ii. App. Ixxix., and p. 530 note 26.

(2) Makkari, ii. 337 – 8 and 530; Conde, iii. 24 – 5.



نموذج للعمارة المستدقّة في إشبيلية. كنيسة سان رومان. نمط مُستعربي، الصّحن لم يتغيّر منذ حرب الاسترداد سنة 1248.

الفصل السّابع عشر
سان فرناندو وابن الأحمر

تورد الأدلّة السّياحية روايات مختلفة حول صعود وأفول سلالة بني نصر (النّصريون) في غرناطة، وحول علاقة ابن الأحمر، مؤسّس هذه الأسرة الحاكمة، بسان فرناندو ملك قشتالة، ولكننا نعتقد أنّ الكتّاب الذين يستند إليهم السّياح للحصول على معلوماتهم التّاريخية حول قصر الحمراء لا يذكرون أن ابن الأحمر لم يكن «أفريقياً» وإنما عربياً يمنياً ينتسب إلى قبيلتي الأنصار والخزرج[1].

في عام 1232 م، وفيما كانت الأندلس تعاني الأمرّين بسبب هجمات المسيحيين من ناحية والصّراعات الدّاخلية النّاجمة عن بُغض السّكان للموحّدين، برز محمّد بن نصر الأنصاري المعروف بالأحمر كالنّجم السّاطع في أُفق مظلم، وقُدّر لهذا الرّجل أن يؤسّس مملكة استمرّت مئتين وخمسين عاماً بعدما خضعت سائر أنحاء الأندلس للهيمنة المسيحية.

أغار ابن الأحمر على مدينة جيان واستولى عليها في السّنة ذاتها (1232م)، بعد أن ارتأى أداء عمل متميّز بالنّيابة عن عمّه يحيى الذي انشأه ليكون مفخرة في حمل السّلاح. أصيب عمّه أثناء حصار المدينة إصابةً خطيرةً وقبل وفاته بعدها بفترة قصيرة متأثرا بجروحه، جعل ابن أخيه وريثاً لكل ممتلكاته ومناصبه.

أخفى ابن الأحمر خبر ممات عمّه عن أنصاره إلى أن ضمن سيطرته باسم عمّه على

---

(1) Makkari, ii, 341

مدينتي وادي آش وبسطة، فلما استتبّ له الأمر ووجد قبولا من سكانها، أعلن وفاة يحيى وبويع ملكاً على أرجونة وجيان ووادي آش وبسطة، وكما يورد المقّري على شريش أيضاً[1].

يعيد ابن الخطيب ولادة ابن الأحمر إلى عام 1195 م في أرجونة من إقليم قُرطُبة حيث ورث أراضي شاسعة تولّى زراعتها بنفسه على ما يعرف من عادات اليمنيين في هذا المجال. كان ابن الأحمر قائداً مقداماً ماهراً، يتميّز عن أقرانه من الشّباب الأندلسيين بشجاعته وكياسته، ولكم هو ملفت كيف تتكرّر الإشارة إلى هذه الصّفة الأخيرة لدى الحديث عن أشراف اليمنيين.

بويع ابن الأحمر ملكاً في أرجونة مباشرة بعد سيطرته على جيان، ولكن يختلف المؤرّخون حول السّبب الذي دفعه إلى القيام بذلك، فيقول بعضهم إنّ السّبب يعود إلى ظلم تعرّض له من قبل حاكم تلك المنطقة دفعه إلى الثّورة على سلطته.

بعد أن ضمن ابن الأحمر مبايعة سكان جيان له سيطر على غرناطة، ودخل بعدها إلى إشبيلية وبقي فيها شهراً. والأرجح على ما يبدو استناداً إلى الرّوايات المختلفة التي نقلها مختلف الكتّاب أنّ العامة من سكان إشبيلية دعوه لنصرتهم في سعيهم للتّخلص من نير الموحّدين.

كما أنه ليس من السّهل فهم العلاقة بين ابن الأحمر وابن هود الذي كان سيداً على جزء كبير من الأندلس عندما برز نجم ابن نصر، أو لماذا كان الرّجلان على خصومة دائمة برغم كونهما يمنيين، لكن ما هو أكيد أن قُرطُبة وإشبيلية عادتا وأعلنتا الطّاعة لابن هود بعد أن خضعتا لحكم ابن الأحمر. ويذكر ابن الخطيب أنّ ابن الأحمر استولى على قُرطُبة وإشبيلية بين عامي 1231 م و1232 م وأنه ألحق بابن هود هزيمة ساحقة في إقليم إلبيرة قرب غرناطة بعد ذلك بخمس سنوات، وهذا يوصلنا إلى خضوع ابن

---

(1) نعتقد بأنّ المقّري أخطأ هنا، لأنّ جند الموحّدين كانوا يحتلون شريش، وهم مقاتلون أشدّاء على عداء مع شيعة الأندلس (See Conde, iii. 11 – 2; Makkari, ii. 339 – 40).

هود عقب ذلك لألفونسو أمير قشتالة الذي أصبح فيما بعد الملك ألفونسو العاشر[1].

يقول ابن خلدون إنّ ابن الأحمر نصّب نفسه سلطانا على الأندلس عام 1231 م، وخضعت له جيان وشريش (؟) في العام التّالي. بيد أنّ ابن الخطيب يذكر بوضوح أنه لم يُبايع ملكاً على غرناطة قبل عام 1238 م، وهي المدينة التي دخلها كملك في مايو من ذلك العام.

ويقول الكاتب «وصل ابن الأحمر إلى غرناطة في المساء وعسكر خارج أسوارها. ودخل المدينة في الصّباح التّالي مع بزوغ الفجر وسار إلى القلعة وقت المغيب. يروي أبو محمّد البَسطي (من بسطة) الذي رأى ابن الأحمر يجول في المدينة أنّ الأخير كان يرتدي رداءً tunic مقلّماً من النّوع المسمّى «ملحف»[2] أكمامه مفتوحة من الجانبين. وبوصوله إلى بوّابة «القصبة» تعالى صوت المؤذّن في الأنحاء داعياً النّاس إلى صلاة المغرب، فأوقف ابن الأحمر مسيره ودخل مباشرة إلى المحراب وقرأ السّورة الأولى من القرآن ومن ثم ذهب إلى قلعة باديس يتقدّمه رجال يحملون المشاعل»[3].

أرسل ابن الأحمر إلى الخليفة العبّاسي معلناً مبايعته له، تماما كما فعل ابن هود في اليوم الذي نُصّب بدوره سلطاناً على الأندلس وغرناطة. «في بداية حكمه أمر ابن الأحمر بأن يُخطب للمستنصر العبّاسي خليفة بغداد في مناطق سلطانه»[4].

بعد أن ثبّت موقعه على عرش غرناطة، عمل ابن الأحمر على تحصين حدوده وإصلاح أسوار قلاعه. وشيّد الأبنية الجميلة في غرناطة بما في ذلك المستشفيات

---

(1) Makkari, ii. 341 – 3, and app. Ixxix.

(2) إنّ ترجمة "tunic" تعني «الشّاية» وبالإسپانية «سايا» *saya* أي تنّورة. لا يعطي غايانغوس ترجمة لكلمة "*milaf*" التي أورد دوزي كتابتها على شكل "*milhaf*" و "*milhaffah*" وقال إنها كانت في إسپانيا ترمز إلى حجاب المرأة وأحيانا رداء الخيل، "*milaffah*" وهي جزء من غطاء الرّأس للمرأة (قاموس الألبسة، *Dict. des vêtements*, 401 – 3.)

(3) ابن الخطيب كما يرد لدى المقّري، الجزء الثّاني، 344. وكان باديس واحداً من أمراء البربر في غرناطة وحكمها بين عامي 1038 و1073 م.

(4) ابن الخطيب كما يرد لدى المقّري، الجزء الثّاني، 532.

للمرضى والدّور للعجزة وللزوّار، والمعاهد والمدارس والأفران والحمّامات والمسالخ والمحال التّجارية والأهراءات أو مخازن الحبوب جيدة البنيان لتخزين المؤن.

واضطرّ من اجل تنفيذ هذه المشاريع إلى فرض ضرائب مختلفة بصورة مؤقتة وإنما أزيد من تلك المنصوص عليها في الإسلام، لكن عندما رأى النّاس حسن تدبير وإدارة مؤسّسات حكمه وكيف أنه وظّف كل الأموال التي جمعها منهم لأجل المنفعة العامة، لم يعترضوا على دفع هذه الرّسوم الجديدة.

وابتنى نوافير عامّة جميلة تتغذّى من مياه الأنهار التي تنبع من الجبل وتعبر المدينة، كما عمل على تطوير وتوسعة أقنية الرّيّ الموجودة في السّهل. وحرص على توفير كل أساسيات الحياة بكثرة وبأسعار رخيصة. وبناءً عليه، من غير المستغرب أن تصبح زيادة الضّرائب أمراً ضرورياً.

كانت حياته الشّخصية نموذجا للحاكم القدوة. ودأب على حضور مجالس شيوخه وقضاته، وكان يفتح مجلسه لاستقبال الفقراء والأغنياء مرتين أسبوعياً، ويزور المدارس والمستشفيات والمعاهد مستعلماً بنفسه عن الخدمات التي يقدّمها الأطباء، وسائلاً المرضى أنفسهم كيف يتم الاعتناء بهم. ولم تكن إدارته لداره الخاصة أقلّ إثارة للإعجاب، حيث كان لديه عدد قليل من النّساء في حريمه وكان قلّما يزورهن، غير أنه كان حريصاً على أن يوفر لهن كل ما يحتجن إليه.

وكانت هؤلاء النّساء من بنات أشراف القوم، وكان يحنو عليهن ويحرص على رضاهن وعلى إشاعة الودّ فيما بينهن موظفاً لذلك لباقته وحسن خصاله.

تقرّب ابن الأحمر من أمراء أفريقيا وبنى علاقات صداقة معهم، كما بعث الرّسل إلى ملك تونس [أبي زكريا] الحفصي وإلى نصراني ذكر كونده أنّ اسمه كان «يوغومارسان»[1] Yugomarsan (فهل كان أوغو دي لوزينيان كونت لا مارتشه؟

(1) غمض هذا الاسم على الكثير من باحثي الغرب، أولهم خوسيه كونده وآخرهم هنا برنهارد

(Hugo of Lusignan, Count of La Marche) وكذلك إلى بني مَرين الذين كانوا في صراع مع الموحّدين[1].

* * *

نصل الآن إلى ما نعتقد أنها واحدة من أهم الفترات التّاريخية وأكثرها غنى بالأحداث في مجمل تاريخ إسپانيا، وهي العلاقات بين ملك غرناطة الحكيم والمحبوب وفرناندو الثّالث ملك قشتالة، الذي ستعرفه الأجيال اللاحقة بالاسم الذي استحقّه نظراً للحب الذي كان شعبه يكنه له، وهو «سان فرناندو».

إذا ما وضعنا جانباً المديح المبالغ الذي أغدق به المؤرّخون الكهنوتيون على هذا العاهل، وخفّفنا قدر المستطاع من الأوصاف الوردية للمؤرّخين الكنسيين، فإنه لا يبقى مع ذلك مجال للشّك بأنّ فرناندو الثّالث ملك قشتالة كان بصدق واحداً من أولئك البشر الأقرب إلى الملائكة والذين يظهرون على الأرض في فترات زمنية متباعدة ويتركون العالم أفضل حالاً ممّا كان عليه. لم تطوّبه الكنيسة قديساً إلا بعد أربعمئة عام من مماته، ولكن في الذّكرى الأولى لوفاته بعد عام واحد من رحيله، أطلق رعاياه من المسيحيين والمسلمين على حدّ سواء عليه الاسم الذي لا زال يكنّى به في إسپانيا حتى يومنا هذا وهو «الملك المقدّس»، وباتوا يقدّسونه ويتلون آيات الخشوع عند ضريحه.

يصوّر الكتّاب المشهورون خضوع ابن الأحمر لسان فرناندو عموماً باعتباره دليلاً

وإلن ويشو. والواقع أنّه يغمراسن بن زيّان، سلطان إقليم تلمسان في عهد الخليفة الموحّدي عبد الواحد الرّشيد بن المأمون الذي كتب له بالعهد على ولاية المغرب الأوسط (الجزائر) بعد وفاة أخيه أبي عزّة زيدان بن زيّان. ويعدّ يغمراسن المؤسّس الحقيقي للدولة الزيّانية وعاصمتها تلمسان، واسمه كما هو واضح أمازيغي. (أحمد)

(1) يقدّم كوندِه وصفاً مختصراً لحكم بن الأحمر (iii. 26 – 7. Cf. Makkari ii. 340, and gayangos, ib. 352) الرّواية المشكوك في صحتها التي نقلها ابن خلدون عن أنّ ابن الأحمر أمر بأن يخطب للحفصي سلطان شرق أفريقيا، وكذلك للخليفة العبّاسي في الصّلوات العامة، قد تكون نتيجة لبعض التّسجلات غير الصّحيحة بشأن البعثة.

على أفول سلطة «المسلمين»، لكن في هذه المرحلة، كما هي الحال في كل مرحلة من تاريخ حكم اليمنيين، هناك رواية أخرى.

عمد المؤرّخون السُّنّة كما هو متوقّع إلى إدانة تحالف ابن الأحمر مع الملك النّصراني، وتعمّدوا أن يشيروا إليه بأقل قدر ممكن. وبالفعل، يختصر المقّري كل فترة حكم وازدهار سلالة بني نَصْر في صفحتين، مجملاً ذكر ملك غرناطة مع مختلف الثّوار الذين فشلوا في مواجهة هيمنة الموحّدين، كما لو أن ابن الأحمر لم يكن أعلى منهم شأناً.

وكذلك فقد حاول المؤرّخون المسيحيون تجنّب ذكر التّحالف بين ابن الأحمر وسان فرناندو قدر المستطاع، لاعتقادهم بأنه يحطّ من شأن العاهل المسيحي.

ولكن لحسن الحظ، يتّفق المؤرّخ المعتمد كمرجع لتاريخ إشبيلية أورتيث دي ثونيغا Ortiz de Zúñiga فيما يسرده عن الأوضاع السّياسية في الأندلس خلال حكم سان فرناندو، مع كوندِه فيما يورده في مجلّده عن «ملوك غرناطة»، في إيلاء أهمية أكبر للصّداقة التي نشأت بين ابن الأحمر وفرناندو عمّا كتبه الكتّاب الآخرون من خارج إسپانيا.

ويمكننا من خلال ما كتبه الاثنان معاً أن نستخلص سرداً مقنعاً ومنصفاً للسّياسة التي اتبعها الملكان المسيحي واليمني في مسعاهما المشترك لإحلال السّلام والازدهار في المناطق التّابعة لهما.

وكما أسلفنا، انصبّ اهتمام ابن الأحمر على تحقيق الازدهار المادي لشعبه من خلال ترشيد الحكم في بلاده أكثر من توسيع مملكته عن طريق القوة، وحافظ بالتّالي على المبادىء التّقليدية لقومه. كان يتحلّى بما يكفي من البصيرة ليدرك أنّ مقاومة إسپانيا المسيحية بكل ما لديها من قوة لا يمكن أن تؤدّي سوى إلى نتيجة واحدة، وبالتّالي سعى إلى تجنّب الصّدام مع فرناندو قدر المستطاع.

ولكن الرّجلين لم يكونا غير متكافئين كما يبدو للوهلة الأولى. صحيح أن

االقشتاليين كانوا يوسّعون نطاق سيطرتهم بشكل تدريجي عبر إخضاع مناطق جديدة، ولكن يستحيل عملياً على ملك في توسّع مستمرّ أن يحقّق أكثر من الاحتلال العسكري للمدن التي يخضعها جنده. ولم يكن بوسع فرناندو أن يوطّن المسيحيين في الدّول التي يغزوها، لأنّ القشتاليين لم يكن لديهم أعداد كافية من السّكان لذلك، ويشير تباكي المؤرّخين المعاصرين على البلدات والقرى الأندلسية المهجورة في القرنين الثّالث عشر والرّابع عشر بوضوح إلى أنه لم يكن هناك من يحلّ محل المسلمين في حال طردهم منها.

أدرك سان فرناندو الذي كان يجمع بين صفات رجل الدّولة والمتديّن الورع تماماً هذا الوضع، لأنه رأى من جهة أنه السّبيل الأمثل ومن جهة ثانية لأنّ نبله ما كان يسمح له بارتكاب أعمال وحشية بلا طائل. كان مستعداً على الدّوام لأن يعقد مع العدو مواثيق استسلام يتبعها إبرام حلف بدلا من أن يسيطر على الدّويلات والمدن المسلمة بالقوة وحدها.

ويُقال إنّ ابنه ألفونسو العاشر «كان لديه طموح نبيل لأن يجعل الملوك أتباعاً له» ومن المؤكّد أنّ عدداً من الأمراء المسلمين أقسموا الولاء له، بيد أن ما ليس معروفاً بصورة عامة أنّ هذه السّياسة اتّبعها والده من قبله وبصورة منهجية عندما كانت الطّرق السّائدة أقلّ انفتاحاً بكثير مقارنة مع ما أصبحت عليه الأمور بعد سقوط إشبيلية الذي أدّى إلى تجريد المقاتلين الأفارقة المسلمين من آخر معاقلهم الحصينة.

كان من السّهل على ألفونسو الذي ورث الممالك الشّاسعة التي افتتحها سان فرناندو أن يفرض شروطه على ما تبقّى من أمراء المسلمين، ولكن الأمر كان مختلفاً بالنّسبة لأبيه.

عندما تولّى فرناندو العرش وهو في الثّامنة عشرة عام 1216 م، كانت قشتالة وليون منقسمتين وفي حالة حرب مستمرّة، ولم يكن بإمكانه الاعتماد على صداقة ملك آراغون، خاصّة وأنّ معظم الأندلس كان بشكل أو بآخر خاضعاً لحكم ابن هود الذي زعزع إلى حدّ كبير الحكم الاسمي الذي كان الموحّدون لا يزالون يدّعون ملكه، وكان

مستعداً للتّحالف في أيّ وقت مع آراغون ضد قشتالة أو ليون أو كليهما معاً.

عندما توفي فرناندو عام 1252 م، أي بعد 36 عاما على توليه الحكم، كانت قشتالة وليـون موحّدتين ولم تنقسـما بعـد ذلك أبداً. كانت ابنة ملـك آراغون زوجة ولي عهد فرنانـدو، وكانـت كل الأندلس باسـتثناء مملكة غرناطـة وبعض المـدن المتناثرة التي كانت بيد قادة الموحّدين، قد خضعت له.

واحتفظ أمراء بيّاسـة وشرق الأندلس بممالكهم بوصفهم عمّالاً لدى ملك قشتالة، ولم يكن ابن الأحمر ملك غرناطة تابعاً لفرناندو فحسب، بل كان حيلفه الوفي وصديقه الحميم.

في عام 1248 م، أصبح التّوسّـع المسـتمرّ لملك قشـتالة مصدر قلق لابن الأحمر، مـع أنّ الأخيـر لم يكن قد واجه حتى ذلـك التّاريخ أيّة هزيمة على يـد فرناندو. وحتى فـي ذلـك الحين، بـدا أنه لم يكن راغباً في اسـتخدام القوة في مواجهـة التّعدّيات على حدوده، ولكنه قام في تلك السّنة بتعزيز جميع حاميات حصونه الحدودية، مولياً إياها عناية خاصة، لأنه تنبأ بأنّ اختبار القوة كان أمراً حتمياً.

فـي أحد الأيام، غـادرت قافلة من غرناطـة تضمّ 1500 دابّة نقل محمّلة بالأسـلحة والطّعام يرافقها 500 من الخيالة باتجاه جيان التي كانت من ضمن المدن التي شملتها تعزيزات ابن الأحمر.

عرف المسـيحيون بأمر القافلة فكمنوا على الطّريق الذي كان عليها ان تسلكه بعدد كبير من العسـكر. واكتشف بعض المقاتلين الكمين الذي نُصب لهم، وبعد أن أخبروا قادتهم بالأمر تمكنوا من الانسحاب بنجاح عائدين إلى حاضرتهم. إلا أنّ صوابية هذا القرار بقيت مثار جدل بين أعضاء القافلة لفترة، لأنّ بعض التّواقين للمغامرة اعتبروا أن واجبهـم يقتضي مواصلة الطّريق مهما كان الثّمن، وأنه لمن العار ألا يخاطروا بخوض معركة من أجل الملك.

غيـر أنّ ابـن الأحمر بـارك القـرار المتعقّل بالعودة إلـى غرناطة، والـذي تغلب في

النّهاية وأثنى في الوقت نفسه على بسالة الشّبان الذين كانوا على استعداد للقتال من أجل الوصول إلى وجهتهم.

لم تعد القرارات المتأنّية ذات فائدة بعدها، لأنّ ما كان يخشاه ابن الأحمر وقع، حيث فرض المسيحيون حصاراً على جيان بعد خيبة الأمل التي تعرّضوا لها لعدم تمكّنهم من الاستيلاء على القافلة. لكنهم أدركوا صعوبة مهمتهم لأن واليها كان مقاتلاً مقداماً، وبدا أن الحصار سيطول.

ولكن القوات القشتالية كثيرة العدد اجتاحت الإقليم ودمّرت المزارع وكروم العنب وبساتين الزّيتون، وسرقت قطعان الماشية ونهبت القرى، وقتلت وأسرت الرّجال والنّساء والأطفال.

بعد ن احتلّ المسيحيون قلعة بني سعيد[1] ودمروا وأحرقوا بلدة يورا (إيّورا) Íllora، أدرك ابن الأحمر أن الوقت قد حان للمعركة مع أنه لم يكن راغباً بها، لأنّ جيشه كان يتألف في الأساس من متطوّعين تم تجنيدهم على عجل وينتمون إلى طبقات المزارعين والصّناع والحرفيين التي كانت تمثّل أغلبية السّكان في المناطق التي سيطر عليها اليمنيون حديثاً، وجُلّهم لم يكن معتاداً على هول الحروب واستخدام السّلاح[2].

وقعت معركة حامية الوطيس في حصن مرية بلش على بعد اثني عشر ميلاً عن غرناطة، وهي النّقطة التي وصل إليها سان فرناندو، واضطرّ ابن الأحمر إلى الانسحاب من المعركة بعد أن ارتبك رجاله الذين كانوا يفتقدون الى النّظام والتّدريب وهربوا من الميدان، وهو ما أحدث حالة من الفوضى وأثّر على القلّة من المقاتلين الأكفاء. وخسر الجيش العديد من الرّجال أثناء انسحابه[3].

---

(1) تعرف اليوم بالقلعة الملكية.

(2) هذه الفقرة تدعم قولنا بأن السّياسة الأساسية التي اعتمدها ابن الأحمر قامت على تطوير مملكته بالطّرق السّلمية عوضا عن شنّ الهجمات أو مقاومة العدوان.

(3) Conde, iii. 28 – 9.

وتبع هذا الحظ العاثر هطول أمطار غزيرة وعواصف هوجاء. وحدهم من يعيشون في الأندلس يمكنهم أن يقدّروا تأثير الطّقس العاصف حتى على أبسط أمور الحياة في ذلك الجزء من إسپانيا. كانت تمضي شهور عدّة كل عام دون نقطة مطر واحدة، لدرجة أنّ قسماً كبيراً من النّاس لا يملكون ملابس تقيهم المطر الخفيف. وفي غضون ساعات امتلأت الطّرقات بالسّيول الموحلة التي تصل حتى الرّكبة، وتحوّلت الأقنية الجافة إلى تيّارات جارفة. هذا ما كانت عليه الحال في السّهول المسطّحة المحيطة بإشبيلية، ومثل ذلك وأكثر في منطقة غرناطة الجبلية. ولا تزال ماثلةً في ذاكرة الأندلسيين العاصفة المفاجئة التي ضربت في العاشر من أكتوبر 1906 م وأدّت إلى فيضان نهر وادي المقص الذي غمرت مياهه في غضون ساعات أجزاء كبيرة من مالقة حتى ارتفاع 12 إلى 13 قدماً. من هنا، يمكننا أن نتخيّل الأثر الذي تركه الطّقس السّيئ الذي استمرّ مدّة على الحملة العسكرية في سهول غرناطة في سنة 1243 مع جيش من المزارعين الأندلسيين غير المعتادين على الحرب، الذين وجدوا أنفسهم فجأة يعيشون حياة العسكر التّعسة في بلد تغمره السّيول.

ولم يكن من الضّروري إطلاق أوصاف الضّعف والدّعة على المسلمين، كما يفعل الكتّاب المعاصرون في شرحهم للخاتمة المهينة التي آلت إليها المعركة.

إنّ الانطباع بأنّ كلّ أمّة غزت جنوب إسپانيا فقدت عزيمتها بسبب الطّقس السّيئ ورفاهية الحياة في الأندلس، يعود منشؤه على الأرجح إلى إشارة الكتاب المسلمين والمسيحيين بشكل مستمرّ إلى تأجيل أو إلغاء الحملات العسكرية بسبب رداءة الطّقس. لماذا عرف المشرقيون أو أهل شمال أفريقيا الذين ولد أسلافهم في ظروف مناخية تؤدّي في الحد الأدنى إلى الخمول كما هي الحال في جنوب إسپانيا، تغييراً جذرياً بعد جيل أو جيلين لمجرّد أنهم عبروا المتوسّط؟ إنّ الشّعوب التي تسكن القسم الشّمالي من الكرة الأرضية المعتادة والمهيئة لمواجهة الأمطار والبرد والرّياح، ليس لديها تصوّر عما يعنيه ذلك بالنّسبة لبلد شبه استوائي حيث يندر نسبياً أن تجتمع هذه الظّروف.

لا شّك أنّ الظّروف المناخية التي نشهدها اليوم كانت سائدة على نطاق أوسع في العصور الوسطى؛ وبغضّ النّظر عن الافتراض غير المباشر، كما ورد آنفاً، بأنّ

الأندلسيين كانوا سريعي التّأثر بالمناخ السّيء، لا يوجد دليل ملموس على أنهم كانوا أقلّ رجولة في فترة دون سواها، ولا نجد كذلك ما يؤيد القول بأنّ الثّورات التي حصلت في المناسبات المذكورة ونقلت السّلطة الاسمية للأمّة من قوم لآخر، كانت بأي حال من الأحوال نتيجة للضّعف الجسدي للطّرف المهزوم.

وفي حالة جيش غرناطة بقيادة ابن الأحمر، فإنّ العكس هو الصّحيح لأنهم، وعلى الرّغم من حالة الفوضى التي سادت صفوفهم وأرغمتهم على الانسحاب من المواجهة الأولى مع سان فرناندو، فقد كانت هذه السّلالة اليمنية قوية بما يكفي لكي تحافظ على استقلاليتها لعشرة أو اثني عشر جيلاً قادماً.

يبدو أنّ العاصفة التي ضربت عام 1244 م وأدّت الى ضعضعة مقاومة جيش غرناطة ذي الملابس الهشّة، لم تلحق ضرراً بجيش قشتالة المدجّج بالدّروع والذي واصل حصار جيان بعزم لا ينقطع، ولم تعرف حامية المدينة المحاصرة الرّاحة ليل نهار.

ومع طول مدّة الحصار، كان ابن الأحمر يتألم لمعاناة أفراد شعبه المحاصَر والذين كان أغلبهم من المزارعين والتّجّار الخائفين من قرع طبول الحرب، فقرّر أن يتنازل عن كبريائه كجندي وملك وأن يذلّ نفسه أمام المسيحيين من أجل خلاص أولئك الذي أقسم أن يحميهم ويدافع عنهم. وعلينا ان نأخذ بعين الاعتبار، أنه كمسلم ملتزم بتعاليم دينه أن يحمي النّساء والأطفال والعجزة وكل العزّل من غير المقاتلين، لأنهم أكثر من يعاني من غارات القوات القشتالية. من جهة ثانية، لا بدّ أنه كانت لدى ابن الأحمر قناعة بأنّ فرناندو يشاركه القناعات نفسها بشأن هذه المسائل، وإلّا لما تصرّف على هذا النّحو. وبالفعل فإنّ المؤرّخ الذي استقى منه كوندِه معلوماته عن اللقاء الأول بين الملكين وإن كان سرده له موجزاً، يشير إلى أنّ ابن الأحمر كان لديه أساس يستند إليه ليراهن على أنه سيحظى باستقبال لائق لدى فرناندو الذي كان معروفاً عنه أنه لم يكن يتعامل معاملة العدو الدّنيء مع الأمراء الخاضعين لسلطته.

يذكر كوندِه أن «ابن الأحمر الذي كان مدركاً قرار وتصميم الملك فرذلند الذي أقسم أنه لن يفكّ الحصار حتى يُخضع المدينة، حمل معه حلا غريباً، وذهب وكلّه ثقة

إلى معسكر ملك النّصارى واستجار بشرفه طالباً الأمان[1]، وعرّفه عن نفسه وقال له إنّه يضع نفسه مع كل ما يملك تحت تصرفه، وقبّل يده دليلاً على الطّاعة».

أثبت فرناندو أنّه أهل للثّقة «ولم يرتضِ أن يتفوّق عليه ابن الأحمر في الأمانة والسّخاء، فاحتضنه وناداه صديقه، وقال إنه لن يقبل بأن يأخذ منه ما هو له، ورضي أن يقبل به كتابع له فحسب على أن يبقى سيداً على كل أراضيه ومدنه»[2].

الغريب في الأمر أنّ هذه الحقبة الدّرامية لم تسترعِ انتباه الكتاب الإنكليز، لأنّ المتوقع أن يستسيغها الذّوق الشّعبي في التّاريخ الإسباني. وربما اطّلعوا عليها واعتبروها لا تستحق الذّكر لأنّ كوندِه هو من نقلها، بيد أن هناك ما يؤكد صحتها في أكثر من مناسبة، ليس فقط فيما رواه ثونيغا عن الحدث حيث يقول إنّ «سان فرناندو تلقّى عوناً من السّماء»، بل من خلال العديد من الأحداث التي تلتها خلال حصار إشبيلية والتي ذكرها العديد من المؤرّخين الإشبيليين والمسيحيين.

تضمّنت بنود المعاهدة التي تم الاتفاق عليها دفع «كمّية معيّنة» من الذّهب قيست بالمثقال كل سنة وتوفير «عدد معيّن» من الخيّالة لأداء مهمّة يتم تحديدها، وأخيراً نصّت المعاهدة على أن يحضر ابن الأحمر مجالس فرناندو عندما يُدعى إليها. ولم يكن الهدف من هذا البند في الميثاق الانتقاص من شأن ابن الأحمر بل على العكس، كانت أعظم مجاملة يمكن تقديمها في تلك الأيام، لأنّ هذه المجالس كانت تتألف من كبار النّبلاء وكبار الأشراف الأغنياء «Ricos Omes»[3] ليس هذا فحسب، بل إنّ دعوة

---

(1) Se puso bajo y su fe y amparo

(2) Conde, iii. 29 – 30; cf. Zúñiga, i. 139.

يضيف المجلد الأول في السّجلات العامة *The primera Crónica General* أنه ترتّب على ابن الأحمر دفع جزية سنوية بقيمة 150,000 دينار مرابطي (ص 746).

(3) يشار إلى رتبة النّبلاء هذه بصورة مستمرة في وثائق إشبيلية Archives of Seville كما لو أن لقب Rico Ome كان مرادفا للقب النّبالة.

اللقب هو Ricos Hombres ومعناه كبار الرّجال الأثرياء وهي أعلى طبقة في النّبالة وكان يحق لأحد الأبناء أن يرثه. *A History of Aragon and Catalonia* (م)

فرناندو لابن الأحمر لحضور مداولات المجلس دليل على أنه اعتبر رأي المسلمين في الحكم مهمّاً بالنّسبة للمملكة التي غدا عدد المسلمين فيها بقدر عدد المسيحيين. لأنه، وكما سنرى لاحقا، كان ملك قشتالة مدركاً لصعوبة المهمّة التي تنتظره قبل أن يتمكّن من إخضاع ما تبقى من الأندلس لسيطرته.

ويبدو أنّ أحد شروط الاستسلام كان تعهّد فرناندو بأن يعيد جيان لابن الأحمر عندما يطلب ذلك، وذكر فرناندو وهو على فراش الموت هذا الوعد لابنه ألفونسو مشدّداً عليه أن يحفظه[1].

من الغريب كيف أنّ المؤرّخين لم يدركوا أهمية التّحالف بين الرّجلين القويين حينها كما أغفل الرّوائيون روعة اللقاء في الخيمة الملكيّة في جيان. ومن المحتمل أن تكون الوثائق المتعلّقة به مدفونة في أرشيف المدينة ولكننا لم نتمكن من العثور على أيّ منشور حول المسالة حتى الآن.

ما إن أُبرم الحلف حتى عُيّنت حامية مسيحية على جيان وأصبحت المدينة خاضعة لحكم قادة فرناندو كضمانة على صدق نوايا ابن الأحمر.

تم التّوقيع على المعاهدة في المعسكر القائم قبالة جيان في أبريل من العام 1246 وفقا لثونيغا[2]. وعاد ابن الأحمر إلى غرناطة وقد واظب فرناندو على معاملته بكل تقدير حتى رحيله. اصطحب ابن الأحمر حاكم جيان معه، وكافأه على صموده ودفاعه عن المدينة بتعيينه قائدا لخيّالته.

بعد فترة قصيرة من استسلام جيان، أبدى فرناندو رغبة قوية في مواصلة التّقدّم فوراً نحو إشبيلية، لكن مستشاريه لم يجمعوا على تأييد اقتراحه. صحيح أنّ البعض كان من

---

(1) Pineda, *Memorial para la canonizacion del Rey Fernando III.*, Seville, 1637, p. 118,

بينيدا، (نصب تطويب الملك فرناندو الثّالث)، نقلا عن مخطوطة *las antigüedades de España*. (آثار إسبانيا القديمة). يخبرنا السّنيور باليستروس أنه وجد تأكيداً مستقلاً لهذه الرّواية.

(2) i. 1, 138; cf. Conde, iii. 30, and Makkari, ii. 344.

رأيه أن يهاجم الجيش معقل الموحّدين فوراً، في حين رأى آخرون ضرورة إخضاع كل النّواحي المجاورة لها أولا، وبالأخصّ المرافئ التي كانت تصلها المؤن والذّخيرة من أفريقيا لنقلها إلى إشبيلية. واعتبر أصحاب هذا الرّأي أنه بمجرّد قطع الإمدادات الخارجية عن إشبيلية ستُرغم المدينة عاجلا أم آجلا على الاستسلام، إما من دون مقاومة أو في أسوأ الحالات بعد حصار قصير، لأنّ عدد السّكان الكبير الموجود فيها سيستهلك المؤن المتوافرة بداخلها بسرعة عندما تنقطع الإمدادات الخارجية[1].

ولكن بدا أصحاب الرّأي الثّاني أكثر حكمة من أولئك الفرسان الذين حاولوا إرضاء الملك عبر اتّباع رغبته بالهجوم على المدينة، عندما اضطرّ جيش المسيحيين للانسحاب أمام بسالة المقاومين وصمود المحاصرين. ولكن وقبل سرد تفاصيل الهجوم على إشبيلية، لا بدّ من العودة بضع سنوات إلى الوراء لنعرف لماذا قاومت هذه المدينة التي كانت لعصور قلعة منيعة لليمنيين، لثمانية عشرة شهراً ملكاً مسيحياً يدعمه حاكم ذو نسب يمني مثل العديد من سكّانها.

كانت مدن بلنسية ومُرسية وبيّاسة وبسطة ووادي اش وجيان وغرناطة وسواها من المدن القوية التي يحكمها رجال من أصول يمنية قد اخضعت لسلطة فرناندو الثّالث، باستثناء إشبيلية.

ظلت إشبيلية حاضرة وبلاط الموحّدين لسنوات طوال لكن قوتهم فيها تزعزعت، كما في كل النّواحي الأخرى في الرّبع الأول من القرن الثّالث عشر حيث أزيح عاملوهم ومو الوهم واحداً بعد الآخر وأُرغموا على الذّهاب إلى مكان آخر. فما الذي مكّن إشبيلية من أن تستعصي على جيش المسيحيين عندما هاجمها؟

الجواب على ذلك نجده فيما ذكره المرّاكشي بصورة عرضية[2] بأن الحاكم الأول

---

(1) Zúñiga, i. 4..

(2) كان (عبد الواحد) المرّاكشي قادر على التّجرّد وعدم تبنّي وجهة نظر أيّ طرف بما يكفي لينقل لنا صورة غير منحازة عن سلالة الموحّدين الذين كتب في عهدهم عام 1224 م، دون إغفال كونه (على ما يبدو) شيعياً يعيش بين السُّنّة. وتعتبر آراؤه الموضوعية عن الأشخاص والاحداث في حقبته ذات اهمية كبيرة للطّلاب الذين يعتمدون على التّرجمة للاطّلاع على الوقائع.

للموحّدين أنشأ ميليشيا [جُنداً] من الفرسان في ضواحي إشبيلية.

عن أول مرّة عبر فيها سلطان الموحّدين عبد المؤمن بن علي إلى إسپانيا كتب المرّاكشي: «وقد كان حين أراد العبور إلى جزيرة الأندلس استنفر أهل المغرب عامة، فكان فيمن استنفره العرب الذين كانوا ببلاد يحيى بن العزيز وهم قبائل من هلال بن عامر خرجوا إلى البلاد حين خلّى بنو عبيد بينهم وبين الطّريق إلى المغرب فعاثوا في القيروان عيثاً شديداً أوجب خرابها إلى اليوم ودوّخوا مملكة بني زيري بن مناد». وكانت هذه القبائل العربية اعتادت على أن تدفع جزية مقدارها «نصف غلّة البلاد من تَمرها» وقمحها، ولكن عندما «ملك البلاد أبو محمّد عبد المؤمن - رحمه الله - أزال ذلك من أيديهم وصيّرهم جنداً له وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد» بوصفهم تابعين له.

وعندما أراد أن يعبر بجيشه إلى شبه جزيرة الأندلس في إسپانيا «كتب إليهم رسالة يستنفرهم إلى الغزو بجزيرة الأندلس فاستجاب له منهم جمع ضخم، فلما أراد الانفصال عن الجزيرة» والعودة إلى أفريقيا «رتّبهم فيها فجعل بعضهم في نواحي قُرطُبة وبعضهم في نواحي إشبيلية مما يلي مدينة شريش وأعمالها فهم بها باقون إلى وقتنا هذا - وهو سنة 621 (1224 م) وقد انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلقٌ كثير وزاد فيهم أبو يعقوب وأبو يوسف [خليفة عبد المؤمن وابنه من بعده] حتى كثروا هنالك. فبالجزيرة اليوم من العرب من زغبة ورياح وجُشم بن بكر وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرّجّالة» في خدمة الولاة الموحّدين لإشبيلية وشريش وغيرهما من الحصون المنيعة التي يمكن أن يصلوها على عجل[1].

ويلقي ابن خلدون الضّوء على موقع كل طرف في المدينة في ذلك الوقت.

---

(1) Al – Marrakushi, 192 – 193. Cf. article "Amir", *Dict. Islam*, p. 329.

نأمل أن نبيّن في مجلد لاحق العلامة المثيرة للاهتمام التي تركها هؤلاء العرب الأفارقة على الطّراز اليمني الفني من خلال الآثار الفنية في شريش وجوارها.

النص المقتبس بالعربية من المرّاكشي، ص 106 - 107. (م)

كان في حوالي العام 1233 م رجلان (يمنيان) صاحبا نفوذ من مواطني إشبيلية، احدهما يدعى أبا مروان الباجي[1]، والثّاني أبا عمرو بن الجدّ، سليل الرّاوي الشّهير أبي بكر بن الجدّ. ورث الرّجلان اللذان كان لأسلافهما حُظوة لدى الخلفاء، الكثير من الأراضي ونفوذاً لا يستهان بهما. وكانا وقورين يحظيان بتقدير عظيم من أهل إشبيلية الذين كانوا غالباً ما يستشيرونهما ويسألون رأيهما في كلّ أمر طارىء. ولم يقتصر الاحترام والتّقدير على العامّة من النّاس، بل كان الحكّام الموحّدون يجلّونهما، حيث أنّ كل الأمراء والسّادة من بني عبد المؤمن الذين تعاقبوا على حكم الأندلس عيّنوهم (أسلاف الباجي وابن الجدّ اللذين نتحدث عنهما) في مناصب هامة، وحفظوا لهم مكانا في مجالسهم.

بعد وفاة الخليفة الموحّدي المستنصر، دبّت الفوضى في البلاد عندما استقلّ أمراء سلالة الموحّدين كل في ناحية. ثم رفع ابن مَردنيش وابن هود راية الثّورة في الإقاليم الشّرقية (صفحة 275 و 279 طبعة الأصل) في حين برز ابن الأحمر غرباً.

في نوفمبر من العام 1228 م، أحكم ابن هود الذي تغلّب على الموحّدين المنقسمين فيما بينهم في كل مكان نازلهم فيه، سيطرته على إشبيلية لكن أهل المدينة طردوا أخاه الذي عيّنه والياً عليها بعد ثلاث سنوات وانتفضوا عليه. وعقب ذلك قدّم أهل إشبيلة وجارتها قرمونة المنيعة الشّريف اليمني الباجي والياً عليهم. وتحالف الباجي بدوره مع ابن الأحمر ملك غرناطة.

زوّج ابن الأحمر إحدى بناته للباجي ووعده بمدّ يد العون له في مواجهة ابن هود إن أعلن ولاءه له، وهو ما وافق الباجي على فعله، ودخل ابن الأحمر إشبيلية بوصفه سيداً عليها عام 1234 م[2].

لا يتضح ما حصل في إشبيلية بعد ذلك، فالكتّاب على اختلافهم ينقلون روايات متناقضة ومبهمة وليس من الممكن استخلاص رواية منسجمة منها.

---

(1) من قبيلة تجيب (Cf. Gayangos in Makkari, i. 508).

(2) Makkari, ii. 340, lxxviii. – lxxix

يقـول ابن خلدون على سـبيل المثـال إنّ ابن الأحمر هاجم الباجي من دون سـبب ظاهـر وقتلـه خارج أسـوار المدينة. لا بدّ أن مثل هـذا التّصرّف، في حـال كان الباجي صهره[1]، كان وراءه حُكماً دافعٌ قوي، ولكن لم يرد ذكر لأيّ دافع باستثناء الإشارة إلى طموح ابن الأحمر في التّوسع.

ووفقـاً لهذه الرّواية، كلّـف ابن الأحمر علي بن أشـقيلولة Escaliola للقضاء على الباجـي. وابن أشـقيلولة يمني من قبيلـة تُجيب تماماً مثل ابن الجـدّ صديق الباجي في حكومة إشبيلية. كما أنّ ابن اشقيلولة هذا كان صهر ابن الأحمر ويستدلّ على ذلك من الكتابـة على شـاهد قبر ابن أشـقيلولة في غرناطة من أنّ أمّه كانـت أختاً لأحد أبناء ابن الأحمـر. وعليـه، وفي حال صحّـت رواية ابن خلدون، لا شـك أنّ هذا الفعل أغضب العائلة كما سائر أقرباء ابن الأحمر اليمنيين.

أغلـب الظّن أنّ ابن خلدون الذي عاش في القرن الرّابع عشـر، خلط ما بين حدثين في تلك الفترة المضطربة، فنسـب إلى ابـن الأحمر فعلاً ارتكبه الموحّدون أو ابن هود الذي بذل على ما يبدو جهوداً كبيرةً لاستعادة إشبيلية[2].

وعلى الرّغم من الاضطرابات التي شـابت السّـنوات التّالية، يبدو أنّ ابن الجدّ كان يمسك بزمام الأمور عملياً إن لم يكن اسمياً في إشبيلية بعد موت رفيقه الباجي، حيث أننـا نجـد أنه عيّـن في سـنة 1238 محمّد بن السّـيد أبي عمران، وهو شـاب من أسـرة الموحّدين الحاكمة، في منصب هام في الحكومة وأبقى على هذا الشّـاب على عرشـه المهتـزّ حتـى عـام 1242 م. ويظهر ابـن الجدّ مجدداً فـي العـام 1245 بوصفه الحاكم المُطلق على إشبيلية.

بعـد ذلـك، ووفقـاً لابن خلـدون، تصالح ابـن الجدّ مع سـان فرناندو وعقـد حلفاً معـه، ولكـي يسـترضي الملـك المسـيحي، سـرّح مـن عسـكره أفضـل المغاورين[3]

---

(1) كما قال ابن خلدون نفسه انه كان (quoted in Makkari, loc. cit).

(2) Makkari, ii. 340, 532.

(3) Makkari, ii. App. Ixxix. – ixxx.

almogavares. يعرّف غايانغوس المغاور Al - mughawar بأنه «جندي يُعيّن على الجبهة الحدودية»، وممّا لا شك فيه أنهم كانوا الجند أو الميليشيا التي أنشأها عبد المؤمن في ضواحي إشبيلية. لم يعد بإمكان الموحّدين إبقاء فرق مكرّسة لحماية حدودهم المتبدّلة والآخذة بالتّراجع، مع أن الجند حصلوا على الأرجح على تسمية «المغاورين» لأنهم كانوا منتشرين على الثّغور في شريش دي لا فرنتيرة وجوارها[1].

كان المغاورون لا يزالون يشكّلون قوة كبيرة عندما أُعلن ابن الجد حاكماً على إشبيلية عام 1245. ومن الصّعب لنا أن نفهم كيف «سرّحهم من صفوف جيشه» إذا كانوا رجالا يمكنه الاعتماد عليهم، لأننا لا نستطيع أن نتخيّل أنه عمد بملء إرادته إلى تجريد دولته الضّعيفة من أيّة عناصر دفاعية. ولذلك نعتبر أنه على الرّغم من كونهم من أصول عربية، كانت الميليشيات الأفريقية تعتنق مذهباً يتعارض مع مذهبه، ونتيجة لذلك رفضت أن توضع تحت إمرة حاكم يمني. لا شكّ أنّ أسباباً وجيهة دفعت ابن الجدّ ليعتمد المسار الذي انتهجه ولكن الأمر لم يكن في صالح السّلام في المدينة؛ كانت تلك الميليشيا أقوى بكثير من ابن الجدّ، فثاروا عليه وقتلوه بتحريض من قائدهم السّقاف - Axataf لدى مدوّني الحوليّات المسيحية - وهكذا كان على إشبيلية أن تخوض مجدداً الحرب مع المسيحيين. ولكن المدينة خضعت هذه المرة لإمرة مجلس مؤلف من ستة أفراد أغلبهم من أصول أفريقية، وكان العربي الوحيد بينهم على ما يبدو يحيى ابن خلدون جدّ المؤرّخ الذي نقلت عنه هذه الرّواية[2]، وكان واحد

---

(1) هناك عدد من البلدات في هذا الإقليم لا تزال تسمى دي لا فرنتيرة de la Frontera أي الحدودية، شريش هي الرّئيسية بينها. البلدات الأخرى هي تشيكلانا [الاسم الأقرب لفظا هي بنشكلة وهو حصن منيع على ضفة البحر، الإدريسي، ص 256] وأركش ومورور. ويبدو أنها كانت جميعها بلدات حدودية ترسم حدود مملكة غرناطة في القرن الثّالث عشر وكانت القوات المسيحية تعسكر فيها بموجب الحلف الذي عقده ابن الأحمر مع سان فرناندو. مع ذلك، وقبل سقوط إشبيلية يبدو أن المغاوير أو جند الموحّدين هم الذين كانوا يتمركزون فيها، وإن صح ذلك يصبح من المفهوم تعبير «دي لا فرنتيرة» أو «عساكر الحدود» الذي كان يستخدم للإشارة إليهم أو إلى الموحّدين المدافعين عن الحصون الحدودية.

(2) يعتبره غايانغوس سليل بني خلدون الذين تآمروا على إبراهيم بن حجّاج بهدف تشويه صورته

آخـر منهـم يمثل السّـلالة الأفريقية الجديـدة لبني حفـص والتي وضعت حـدّاً لهيمنة الموحّدين في تلك القارّة، وكان بينهم كذلك القائد الموحّدي السَّقّاف نفسه.

الطـرف الوحيد الذي لم يكن ممثّلاً في هذا المجلس ذي الخليط المتنوع كان أهل المدينة أنفسهم، وهم اليمنيون الذين يشكلون الأكثرية العظمى من السّكان. ولكن لم يكن بوسـعهم أن يفعلوا شـيئاً بعد مقتل الأميرين اللذين اختاروهما لتولّي زمام أمرهم ولم يكن على ما يبدو من بديل يحلّ مكانهما.

مـع أنّ علاقة القربى المباشـرة للمؤرّخ بأحد أعضاء المجلس من شـأنها أن تعطي وزنـاً كبيـراً لروايته لأحداث تلك الفترة، فإنّ تفسـيرنا للتّناقاضـات والاختلافات التي تشوبها هو كونه ولد بعد تسعين عاماً من سقوط إشبيلية وأنه على ما يبدو لم يزر إسپانيا قط.

وهنـاك ملاحظـة مثيرة للاهمـام لدى ابن خلدون قد تكون أو لا تكون مسـتندة إلى وقائع، ولكننا لم نجد بعد ما يعزّزها في الكتابات المسيحية. فهو يقول إنّ سان فرناندو شـنّ هجومه ثاراً لمقتل حليفه ابن الجدّ على يد السَّـقّاف واتخذ من ذلك ذريعة ليعلن الحرب على الموحّدين، واحتلّ قرمونة ومرشـانة ومن ثم فرض حصاراً على إشبيلية. بعث إليه أهلها يعرضون السّلم، لكنه «استعلى عليهم وأبى» وكانت تلك بداية الحصار الذي استمرّ زهاء عامين.

لنـا أن نسـتدلّ مع ازدياد معرفتنا بتلـك الحقبة أنّ هذه الرّوايـة تنطوي على قدر من الحقيقة، غير أنه من الواضح أنّ المؤرّخ اعتمد فقط على الرّوايات المنقولة شفاهاً في هذا الجزء من عمله، لأنه لا يشير ولا مرّة واحدة إلى أي مرجع سابق. ومن المرجّح أنه ربط الأحداث مسـتنداً إلى السّـرد الذي نقله جدّه لأفراد عائلته. كما أنه من المستحيل أن يكـون قـد حصل عليها مـن جدّه مباشـرة لأنّ يحيى بن خلدون كان سـيكون عمره علـى الأقـل مئة عـام عندما ولـد حفيده عـام 1332. ولذلـك فالأرجـح أنّ العديد من

لدى الأمير عبد الله في نهاية القرن التّاسع. راجع الصّفحة 90 طبعة الأصل. (Gayangos in Makkari, i. 311 – 2.)

الأخطاء تشوب السّرد الزّمني، فجميعنا ندرك كم هو صعب إعادة سرد القصة نفسها مرتين باستخدام الكلمات عينها؛ كما أنّ فصول ابن خلدون عن سقوط إشبيلية زاخرة بالأسماء والتّواريخ[1].

ويروي المؤرّخ نفسه أنّ حاكم إشبيلية الموحّدي أرغم البيّاسي (أمير بيّاسة) و«حليفه ملك النّصارى» على الانسحاب بعد مهاجمتهما لتلك المدينة. كان أمير بيّاسة قد أقسم ولاء الطّاعة لسان فرناندو قبل العام 1227 م[2]. كما يذكر المؤرّخ أنّ ابن الأحمر دخل إشبيلية كسيّد لها في عام 1233 أو 1234 وكان معه كتيبة من النّصارى تحت إمرته[3] ومن الممكن أن يكون هؤلاء من أحفاد القوط المسيحيين في غرناطة، والذين سمعنا سابقاً عنهم، أو قد يكونون من العسكر الذين أرسلهم فرنانادو لمؤازرة حلفائه اليمنيين في إشبيلية ضدّ الموحّدين الذين يدعمهم المغاورون أو الميليشيا. وفي حال كانت تربط سان فرناندو علاقات صداقة مع أمراء اليمنيين الذين كانوا يسعون جاهدين لطرد الموحّدين من الأندلس قبل عشرة أعوام أو اثني عشر عاماً من حصار إشبيلية الأخير - كما يمكن أن نستنتج ممّا تشير إليه هذه التّلميحات المجتزأة - يمكننا أن نفهم لماذا كان ابن الأحمر يضع ثقته في ملك النّصارى ليقبل مساعدته عندما دارت الحرب في بلاده ذاتها.

لم يُبذل سوى جهد ضئيل حتى يومنا هذا لإزالة التّناقضات والغموض والتّوفيق ما بين الرّوايات المتعلّقة بالحملة المسيحية للسّيطرة على الأندلس كما نقلها المؤرّخون الذين ينتمون إلى القبائل المعارضة لليمنيين، ولذلك فقد أُسيء تماماً فهم الحلف الذي قام ما بين ابن الأحمر وسان فرناندو. وعلى الرّغم من معرفتنا المحدودة بتفاصيل الأحداث، فهناك أمرٌ واحد على الأقل نراه واضحاً عبر الضّباب المخيّم عليها على مدى قرون عدة، وهو أنّ العهود الموقّعة بين حكّام غرناطة اليمنيين وملوك

---

(1) عملياً، النّص أعلاه بكامله من الجزء المأخوذ عن ابن خلدون والمترجم عن المقّري (.ii. app D) وهو السّجل الزّمني الوحيد المفصّل لتلك الحقبة الذي استطعنا الحصول عليه.

(2) Op. cit. Makkari, ii. Ixxiv / Zúñiga, i. 109, 110.

(3) Makkari, ii. 340 – 1, app. Ixxix.

قشتالة المسيحيين لم يكن مبنياً فحسب على الاحترام المتبادل بل على المصلحة المشتركة أيضا، لأنّ الموحّدين الذين أقسم ابن الأحمر على مقاتلتهم عندما استدعاه سان فرناندو لذلك، كانوا يمثّلون عدواً مشتركاً لكليهما[1].

* * *

(1) يقول ماريانو غاسپار راميرو Mariano Gaspar Ramiro في كتابه مُرسية المسلمة *Murcia musulmana* (سَرَقُسطة، 1905، ص 272) إنه عندمل غادر المأمون، آخر خلفاء الموحّدين إسبانيا عائدا إلى المغرب عام 1228 م، انتفض مسلمو إسبانيا جميعاً وقاموا بطرد الموحّدين، أو ذبحهم أينما وجدوهم.

الفصل الثّامن عشر

اليمانيون والموحّدون في إشبيلية

في عام 1245، وبعد مرور ثمانية أشهر على اجتماع الملكين في جيان Jaén، كتب سان فرناندو إلى ابن الأحمر ليعلمه برغبته ببدء الحملة على إشبيلية وعبّر عن أمله في أن يرافقه ابن الأحمر في هذه الحملة العسكرية ضدّ «أعدائهما المشتركين».

كان ملك غرناطة، استناداً إلى كوندِه، والفرسان الخمسمئة الذين أخذهم معه راغبين تماماً (todos dispuestos) في الاشتراك في الحملة، وفي وقت مُبكّر من خريف عام 1245 اجتمع الحليفان على الطّريق الممتدّة من قُرطُبة إلى قلعة جابر، وهي قلعة عربية عظيمة ترتفع أطلالها فوق نهر وادي الرّحى وتبعد حوالي تسعة أميال عن إشبيلية.

شهدت القلعة الكثير من المعارك خلال الحروب الأهلية في القرن التّاسع. وأُطلق عليها لقب «مفتاح إشبيلية» وكانت بالتّأكيد ذات أهمية إستراتيجية عظيمة في القرون الوسطى. لا يحتاج المرء سوى أن يرى القلعة ليدرك مدى أهميتها. فهي تجثم عالياً فوق الطّريق الرّومانية الممتدّة من قُرطُبة إلى إشبيلية بانحدار عمودي من ارتفاع يبلغ حوالي 200 قدم باتجاه النّهر من جهتين، ولها بوّابتان تؤدّيان إلى الحصن، إحداهما محميّة بخندق مائي عميق، ويمكن الوصول إلى الأخرى عبر ممرّ ضيق يمتد مسافة ربع ميل أسفل الأسوار، بينما تشرف البوابة بالذّات على منعطف مباغت ومنحدر حادّ قبلها مباشرة بحيث يستطيع أن يصدّ رجلان يقفان في الممر المؤدي إلى البرج هجوماً ينطلق من تلك الجهة.

من الصّعب تصوّر حصول أية محاولة هجوم من هذه الجهة، لأنه بعد البوابة يمتدّ سور بصورة عمودية تقريباً باتجاه الأسفل إلى النّهر وبذلك لا تتوفر إمكانية الفرار لعدو مهزوم. يحمي سور ثانٍ بمنحدر حادّ مماثل الممرّ المؤدّي إلى الحصن الخارجي الموجود على الضّفة الأخرى من منعطف النّهر. وبين الاثنين تقع على ضفة النّهر المطحنة الرّومانية التي تؤدّي أدراجها وممرّاتها تحت الأرضية إلى أهراءات اكتُشفت تحت الحصن الدّاخلي، والتي مكّنت المدافعين من السّيطرة على إمداد غير محدود من الماء. ويمكن أن تضاف إلى هذه المزايا الأسوار الخارجية القوية الضّخمة التي لا تزال بقايا عديدة منها ماثلة، وموقعها المشرف من فوق ربوة يرى منها إلى الغرب سهل إشبيلية مع المدينة التي تظهر في البعيد من خلال فتحة في التّلال يقطعها النّهر والطّرق المؤدّية إلى المدن المجاورة، أطريرة وأشونة وقرمونة، على بعد أميال إلى الجنوب والشّرق. يمكن لهذه القلعة لو حُصّنت بطريقة ملائمة أن تكتسب حتى في زمننا الحاضر قيمة إستراتيجية، ولا بدّ أنها كانت قلعة يستعصي إخضاعها في القرن الثّالث عشر لو أخلص حرّاسها في الدّفاع عنها. ولقد أمر الخليفة الموحّدي أبو يعقوب، استناداً إلى ابن خلدون، بإصلاح القلعة التي بقيت مهدّمة منذ الحروب الأهلية التي اندلعت في القرن التّاسع[1].

على مدى ألفي عام أو ما يقرب من ذلك، ظلّت الطّريق العريضة الممتدّة عبر الممرّ الأسفل من التّلال ونجد الكورس الغني - منطقة زراعة الذّرة وتشتهر بانتاجيتها المتفوقة بحيث لم يتم تسميدها بتاتاً منذ الحقبة الإيبيرية - لإرسال الخبز من القلعة إلى إشبيلية بشكل يومي. شيء ما في المكونات الكيميائية للمياه المتدفّقة من المغاور والممرات تحت الأرضية لتملأ قناة جر الماء الرّومانية المعروفة باسم قناة قرمونة يضفي نكهة مستساغة على الخبز المصنوع في القلعة. وتستخدم هذه الينابيع التي لا تنضب كذلك لتشغيل العديد من طواحين المياه التي كانت تطحن القمح لصنع الخبز. وهكذا تعيش القلعة من خبزها كما تعيش إشبيلية عليه؛ وعندما توقف إمداد الخبز إلى

(1) In Makkari, ii. app. Ix. (نعتقد أن ما ورد هنا خاطىء)

المدينة عام 1245 عجّل ذلك بدرجة كبيرة في استسلام إشبيلية.

علـى الرّغم من الأهمية الهائلة للقلعة بالنّسـبة لحكّام إشـبيلية وواقع ان المدافعين عنهـا «كان بامكانهــم أن يقاوموا لمدّة طويلة بفضل مهارتهم وطبيعة المكان» فإنهـم لم يبذلـوا جهداً حاسـماً للصّمود في وجه الجيش الموحّد لسـان فرنانـدو وابن الأحمر. يتفـق كونـدِه وثونيغا حول هذا الأمـر، حتى أن ثونيغا يعبّر عن حيرته إزاء استسـلامهم السّريع. لكن يبدو الأمر طبيعياً بالنّسبة لنا. كان هؤلاء النّاس من اليمانيين وكانت تلك فرصة سـانحة للإطاحة بقائدهـم أو حاكمهم الموحّدي لصالـح نصراني متحالف مع واحد من أبناء قومهم. فقبلوا بنصيحة ابن الأحمر بعد مقاومة بسيطة أو من دون خوض معارك بالخضوع لسان فرناندو والحصول على كافة مزايا التّابعية بدلاً من معاناة بؤس الحصار. واستسلموا فوراً إلى ملك غرناطة الذي أعطى القلعة إلى فرناندو[1].

قسّـم سـان فرناندو جيشـه عندئـذ إلى فرقتيـن، وفي حين أنـه بقي فـي القلعة يعزز التّحصينات ويزود المكان بالمؤن، أرسل فرقة بقيادة ابن ملك مولينا والرّئيس الأعلى لرتبـة سـانتياغو العسـكرية لاسـتنزاف إقليم الشَّـرَف، وأرسـل الفرقة الأخـرى بقيادة الرّئيـس الأعلـى لرتبة قلعـة رباح وملـك غرناطة لاحتـلال النّواحي المحيطـة بمدينة شـريش. وكان جند الموحّدين، أو الميليشـيا المشـار إليها في الفصل السّابق، يتولّون كمـا يبـدو حماية الإقليميـن كليهما. ومـع أنّ وقف إمـدادات الخبز من القلعة شـكّل خسـارة جسيمة، لم يشكّل ذلك ضغطاً على إشـبيلية على الإطلاق طالما بقيت تملك منفـذاً حرّاً إلى السّـهل العظيم الممتدّ من حصن الفرج (سـان خوان دي حصن الفرج San Juan de Aznalfarache) على نهر الوادي الكبير المؤدّي إلى لبلة Niebla، وهي

(1) Los moros de Alcala de Guadera, quando lo sopieron que el rey de Granada yua y, salieron et dieronse a el, et el dio luego el castiello a su sennor el rey don Fernando. Primera Crunica General, p. 748; cf. Zúñiga, i. 5, and Rodrigo Caro Antigiledades de Sevilla, fo. 151, v.; who repeat this.

أوردت مختلف المصادر المذكورة هنا هذا النّص الذي يفيد بأنّ الأفارقة غادروا قلعة جابر وأنّ ملك غرناطة سلّمها إلى سان فرناندو. (م)

مدينـة مسـوّرة كانت في ذلك الوقت في مثل منعة قلعة جابـر بالذّات. كان الموحّدون لا يزالـون يسـيطرون على هذا الجزء مـن البلاد متخذين من لبلة قاعـدة لهم في جهة، وشـريش فـي الجهة الأخرى. لـم تكن توجد (ولا تزال) أيّة جسـور فـوق نهر الوادي الكبير أقرب من قُرطُبة باسـتثناء جسـر المراكب في إشـبيلية، كما لا يوجد أي مجرى مائي منخفض أسـفل المدينة، لذلك كانت الشَّـرَف في ذلك الوقت آمنة كما لو كانت القلعة غير محتلة.

فـي هذه الأثناء كان الموحّدون يحشـدون قواتهم في إشـبيلية. رفـض أهل قرمونة وقسـطنطينة اللتيـن تُركتا تحـت إمرة ضبّـاط ثانوييـن إطاعتهم وأرغمـوا قادتهم على بعث رُسـل إلى سـان فرناندو عارضين أن يصبحوا أتباعاً له شـرط ان يصون مزارعهم ويبقي عليهم ممتلكاتهم. أقنع ابن الأحمر سـكان لـورة وغليانة Guillena بأن تحذوا حـذو سـكان قرمونة وقسـطنطينة ولكن لـم يتم ذلك إلا بعـد ان أُلحقـت هزيمة كبيرة بالمسيحيين في قطنيانة تبعتها على الفور حملة انتقام وحشية.

قطنيانـة مدينـة جبليـة في موقع مشـرف فوق سـدّ رومانـي على نهر الـوادي الكبير Guadalquivir علـى بعد عشـرة أميال أو ما يقارب ذلك صعوداً من إشـبيلية، وكانت هذه المدينة في ذلك الوقت شـديدة الحصانة. حفر النّهر لنفسـه هنا قناة عميقة وضيّقة بيـن ضفّـة طينية عالية من جهة ونتـوء صخري تتربّع فوقه قطنيانة مـن الجهة الأخرى. لكن يوجد على بعد مسافة قصيرة أسفل السّد (لا تزال آثاره ظاهرة إلى اليوم) منعطف عظيم في النّهر حيث تفيض المياه خلال فصل الشّـتاء مشـكّلة سـبخات ومسـتنقعات علـى امتداد عـدّة فدادين تتخلّلها أقنية وحفـر عميقة بما يكفي لإغـراق حصان. وقع المسـيحيون هنـا في شـرك بسـبب جهلهـم للمنطقة وعدم وجـود مرشـدين. انقضّت عليهم حامية قطنيانة عندما لاحظ أفرادها أنّ المسـيحيين في محنة وعاملوهم بقسـوة لأنّ الفرسـان المدججين بالدّروع والسّلاح كانوا عاجزين عن الخروج من المستنقع. هرعت قوات المشـاة لإنقاذهم فكان على سـكان مدينة قطنيانـة التّراجع إلى قلعتهم. حاصر المسيحيون عندئذ المدينة وقد تملّكهم الغضب إزاء المحنة السّخيفة والمأساوية

التي وقعوا فيها ثم اقتحموها وذهب سكانها التّعساء ضحيّة مذبحة مريعة[1].

حزن ابن الأحمر كثيراً عندما علم بما حصل نظراً لشعوره بأنه كان في مقدوره لو كان مع المسيحيين أن يتفادى كل هذه الخسائر البشرية، فذهب فوراً للتّشاور مع فرناندو كي يمنع هدر الدّماء بلا طائل في المستقبل. وافق الملكان اللذان كانا دائماً متفقين في الرّأي عندما يتعلّق الأمر بصالح السّكان غير المقاتلين، على وجوب إصدار الأوامر إلى أفراد القوات بأن يلجأوا إلى الإقناع والمسايرة في بادئ الأمر مع كل مدينة وقلعة يصلون إليها، وأمرا باستخدام القوة فقط عندما لا يوافق المسلمون على الاستسلام أو يرفضون إعمال المنطق. واتفقا كذلك على عدم التّعرّض للمسنّين والنّساء والأطفال تحت أيّ ظرف من الظّروف أو أيّ شخص آخر يستسلم دون سلاح خلال عمليات الانتقام العنيفة. عند ذلك كتب ابن الأحمر رسائل حملها فرسانه إلى مختلف المدن الواقعة في نطاق المعارك ليخبر أهلها بالشّروط المقترحة ويوصيهم بالاستسلام من دون مقاومة. نجحت هذه الطّريقة في حقن الكثير من الدّماء وهي تشهد مجدّداً كم كان اليمانيون قوماً مسالمين بالفعل وكم كانوا على استعداد لقبول التّبعية بدلاً من الحرب.

كانت غليانة التي تقع على نهر ولبة إلى الجنوب الغربي من قطنيانة وإلى الشّمال من إشبيلية أول مدينة تستجيب لتوصية ابن الأحمر، وقاد فرناندو بنفسه قواته إلى داخل المدينة، ومن هناك توجّه إلى جرينة وهي مدينة أخرى من المدن العديدة المتناثرة حول سفح جبل ولبة، حيث لا زالت بقايا أسوار قوية شاهدة على منعة تحصيناتها في القرون الوسطى. هنا بدا أنّ الموحّدين حشدوا قوة كبيراً نظراً لأنهم أبدوا مقاومة عنيفة على الرّغم من أنّ الموقع كان ذا أهمية ضئيلة، ولم يوافقوا على شروط الاستسلام إلى ان أصبحت الحامية بأكملها مهدّدة بالهلاك. لم تُجدِ المساعي الحميدة التي بذلها ابن الأحمر نفعاً في جرينة مع أنها كانت فعّالة بدرجة مؤثرة في غليانة التي تبعد مسافة فرسخ واحد عن جرينة.

---

(1) Zúñiga, i. 5, 9 ; Conde, iii. 31 – 2.

من الواضح أنه بدا من غير المستحسن مواصلة الزّحف في ذلك الاتجاه لأنّ سان فرناندو رجع إلى غليانة حيث أصيب بمرض شديد أرغمه على البقاء في المدينة لفترة زمنية. لقد كان من دون شك قد بدأ يعاني من المرض الباطني الذي أدّى إلى وفاته بعد بضع سنين؛ ومن الجائز أنّ معرفته بأنّ أجله قد اقترب أسهمت في استجابته باندفاع لرغبات ابن الأحمر في اعتماد الرّأفة خلال الحملة. لم يكن من الأمور الاعتيادية في ذلك الزّمن أن يقبل فاتح مسيحي نصيحة رجل يعتنق ديناً آخر كما تظهر الحوليّات الواردة حول هذه الأحداث أنّ فرناندو فعل، سواء كتبها مسيحيون أو مسلمون. كما لم يبدِ فرناندو أو يسمح لمستشاريه بإبداء أدنى شك في حسن نوايا ابن الأحمر. قامت صداقتهما على الإعجاب والاحترام المتبادلين ومن الواضح أن فرناندو، ذلك الرّجل الحكيم بين أفراد جيله، قدّر المزية الهائلة المتمثلة بالنّسبة له فيما يتمتع به الملك اليماني من نفوذ بين أبناء قومه ودينه طوال السّنتين اللتين قاتلا خلالهما جنباً إلى جنب.

يتضح لنا من خلال قراءتنا بين السّطور أنه لم يُطلب بتاتاً من ابن الأحمر أن يشارك في معارك فعليّة ضد مناطق يعيش فيها سكان مسالمون من قومه. نسمع عنه في قلعة جابر وقرمونة وغليانة وغيرها من المدن التي استسلمت من دون قتال - ولكن لم يرد اسمه في الأخبار الواردة عن حصار جرينة ولا يبدو أنه كان موجوداً في قطنيانة. ولكنه أُرسل إلى شريش التي كان يتمركز فيها أعداؤه، ثم جاء ذكره في معركة قلعة النّهر التي جاءها القائد الموحّدي السّقّاف من إشبيلية لقيادة القوات المدافعة نظراً لكون هذه المدينة الواقعة على ضفّة النّهر كانت البوّابة التي تدخل عبرها الإمدادات الغذائية القادمة من الجبل لاستهلاكها في العاصمة إلى حيث كانت تُرسل على متن المراكب الشّراعية.

كان السّقّاف يلحق الهزائم بالمسيحيين هنا خارج الأسوار حين وصل الغرناطيون في الوقت المناسب. وبفضل مناورة سريعة نشر ابن الأحمر سلاح الفرسان بين الموحّدين والقلعة، ثم هاجمهم بثبات بحيث أجبرهم على الالتفاف والفرار إلى

إشبيلية. بعد ذلك أقنع ابن الأحمر من دون صعوبة سكان المدينة بالاستسلام إلى سان فرناندو مؤكّداً لهم أنّ الملك المسيحي سوف يحميهم ويحرسهم. وبذلك ظفرت قشتالة بهذه القلعة بفضل تدخّل الملك اليماني.

عندما كان فرناندو في قلعة النّهر بعد الاستسلام، وصلته أنباء تفيد بأنّ الأدميرال رامون بونيفاث Ramon Bonifaz كان قد وصل إلى مصبّ نهر الوادي الكبير مع أسطوله المكوّن من ثلاث عشرة سفينة كبيرة وعدد من السّفن الأصغر حجماً، وأنه اشتبك مع العدو هناك وأصبح الآن مسيطراً على مشارف إشبيلية من جهة البحر. تمكنت قوة أرسلت من قلعة جابر من التّغلب على قوة من الموحّدين أرسلت لمساعدة سفنهم بين مستنقعات لبريخا، وشجّع هذا النّجاح المزدوج سان فرناندو فقرّر غزو إشبيلية دون مزيد من التّأخير.

في 20 أغسطس من سنة 1247، نصبت القوات المسيحية خيمها خارج المدينة وقريباً جداً منها، بحيث كانت الخيام الملكية موجودة على ما يعرف في اليوم الحاضر باسم مرج سان سيباستيان الذي كان يقام عليه معرض إشبيلية الكبير. يقول ثونيغا إنّ الجيش كان محدود العدد إلى حدّ كبير وإن كان تدريبه متقناً. لكن الثّقة المبالغ بها التي كان يبديها الملك ومستشاروه كانت السّبب في حصول «علل يستحيل مداواتها». ويضيف ثونيغا أنه من الصّعب اكتشاف الحقائق الدّقيقة لأنّ المؤرّخين التزموا الصّمت حيالها، ولكن من المعروف أنه سرعان ما تكشّف أنه لا بدّ من الانسحاب من مرج سان سيباستيان إلى تَبْلَدة، الزّاوية التي يشكلها التقاء نهر وادي الرّحى بالوادي الكبير حيث كان يجري وقت كتابة هذا الكتاب حفر قناة جديدة عظيمة لتجنّب عبور المنعطف الضّحل للنّهر عند سان خوان دي حصن الفرج San Juan de Aznalfarache والسّماح للبواخر العابرة للمحيط بالدّخول إلى ميناء إشبيلية عندما يرتفع المدّ.

احتلّ سلاح البحرية بقيادة بونيفاث في ذلك الوقت ضفّتي النّهر حتى سان خوان، ومن المحتمل أن السّفن الحربية تمركزت بالقرب من تَبْلَدة. بات المسيحيون الآن يسيطرون على الطّريق الممتدّة من إشبيلية إلى دوس إرماناس Dos Hermanas

(حصـن الأختيـن) وأطريرة كما علـى الطّريق الممتـدّة من قلعة جابـر وقرمونة وعلى الطّريق المتجهة إلى الجبل في الشّـمال وبمحاذاة النّهر صعوداً من إشـبيلية حتى مدينة قُرطُبة. وهكذا أصبحت المدينة تعتمد بالكامل على إمداداتها الغذائية من الشَّرَف حيث كانت قوات الميليشـيا تحرس قوافل الإمدادات القادمة يومياً إلى المدينة دون صعوبة عبر جسـر الزّوارق. كانت تحرس الجسر قلعة طريانة القوية التي تُبّتت داخل جدرانها السّلاسـل التـي تربط الزّوارق سـوية. صحيح أنّ غالبيـة المزارعيـن والفلّاحين كانوا يعارضـون الموحّدين، ولكنهم كانوا هم الحاكمين ولـم يكن هؤلاء القوم المسـالمون يجرؤون على رفض طلباتهم.

كانـت المنطقـة الرّيفيـة بكاملهـا الممتـدّة مـن إشـبيلية حتـى لبلـة ولا تـزال غنيّـة بالمزروعـات، كمـا كانـت لبلة ولا تـزال بأيـدي الموحّدين تحت حكـم محمّد الذي نعتقد انه كان محمّد بن عمران الذي نصّبه ابن الجدّ والياً على إشبيلية وأطيح به بعد ان اغتال السّقّاف ابن الجدّ[1]. لم تذكر الحوليّات أنّ محمّد ابن السّيد أبي عمران قُتل مع حاميه ابن الجدّ في إشبيلية، أمّا محمّد ملك لبلة فكان على وجه التّأكيد من الموحّدين، ولقد فرّ كما نعتقد خلال ثورة عام 1242 مع والدته التي كانت على ما يبدو امرأة قديرة وأرسى حكمه في لبلة. لم يذكر ابن خلدون أنّ محمّداً هاجم المغاوير، ولذلك يمكن القـول إنهم دعموه بعد وفاة الملك اليماني من أجل تأمين قاعدة لعملياتهم على رأس الشَّـرَف نظراً للأهمية الهائلة بالنّسـبة لإشـبيلية في إبقاء تلك الطّريق مفتوحة للوصول إلى المدينة[2].

تقع مدينة لبلة مثل قلعة جابر على تلّة شـديدة الانحدار تعلو منعطفاً حاداً من النّهر الأحمـر – وهـو جدول هـادئ مياهه بلون غريـب برونزي مائل إلـى الخُضرة تنبع من مناجم النّحاس. تشـرف المدينة المسوّرة على الطّريق الممتدّة عبر السّهل إلى إشبيلية من جهة وتشرف من الجهة الأخرى على ممرّ صخري يتعرّج النّهر عبره حتى الوصول

(1) راجع الصّفحة 298 طبعة الأصل. يسمّيه كوندِه «محمّد سيد لبلة» (i. 33)، وثونيغا (i. 27, 402) يسميه "Aben Amafon" و "Aben Mahfot".

(2) Ibn Khaldun in Makkari, ii. app. Ixxix – Ixxx.

إلى البحر أسفل ميناء ولبة. ليس وضعها قوياً من الوجهة الحربية كما هي الحال بالنّسبة للقلعة، ولكن من الواضح أنها أبدت مقاومة شرسة في القرون الوسطى نظراً لأن سور المدينة الذي لا يزال كاملاً تقريباً يمتدّ نحو الأسفل حتى طرف النّهر بحيث أنه كان من الصّعوبة بمكان لعدو أن يقطع المياه عنها عدا من خلال تحويل مجرى الجدول؛ وهو فعلٌ لم نقرأ أنه مورس إلا نادراً أو على الإطلاق في الأندلس.

يبدو أنّ سان فرناندو ترك الموقع وشأنه، إذ لا يوجد ما يشير إلى تنفيذ هجوم على لبلة في عهده، وعندما حاصر الملك ألفونسو العاشر المدينة بمساعدة ابن الأحمر بعد تسع سنوات من سقوط إشبيلية لم يتمكن الحليفان من إخضاعها إلا بعد انقضاء عشرة أشهر.

كانت مدن جبل العيون وسربا ومورة وفارو وعدّة مدن أخرى وكامل إقليم الغرب تقريباً لا تزال تحت سيطرة الموحّدين وأميرهم محمّد، واستسلمت جميعها إلى المسيحيين سوية مع مدينة لبلة عام [1]1257.

في بداية الحصار، حتى قبل أن يعسكر فرناندو أمام مدينة إشبيلية على ما يبدو، عبر سَيّد إقليش إلى الضّفة الغربية من النّهر مع 280 فارساً «من بين رهبان وعلمانيين» ونصب خيمة أمام حصن الفرج حيث صمد بصعوبة في موقعه إلى أن أرسل إليه فرناندو بتعزيزات. بقيت هذه القوات على الضّفة الغربية طوال فترة الحصار تشتبك مع حامية حصن الفرج وقلعة طريانة[2]. ولم يتمكّن المحاصرون من إحداث أيّ تأثير على قلعة طريانة التي صمدت حتى بعد تحطيم جسر الزّوارق ولم تستسلم إلا مع استسلام المدينة.

في هذا الوقت تقريباً، جاء رئيس كهنة سانتياغو، مقتدياً بغيره من رجال الدّين المحاربين، للمساعدة في الحصار على رأس فرقة من فرسان جليقية. خيّمت الفرقة

---

(1) Conde, iii. 41 ff. ; Zúñiga, i. 221 ff.

كان السّواد الأعظم من سكانها من المستعربين واليمانيين.

(2) *Prirmera Crónica*,750 – 1. Zúñiga, i. 11,

يقول ثونيغا إن سيد أو حاكم سانتياغو (شنت ياقُب) هو الذي قاد القوة وليس حاكم إقليش.

بالقرب مـن تغرت، وهو جـدول مياه راكـدة يتعرّج خارج الأسـوار الشّـرقية للمدينة ويصـبّ في نهـر الوادي الكبيـر Guadalquivir أسـفل ما يعـرف الآن برصيف «مويَّه مينرال»[1] *Muelle Mineral*، لكن الرّائحة البغيضة المنبعثة من مياه الجدول الآسـنة سمّمت رئيس الكهنة وكافّة رجاله. عندما أدرك المسلمون الدّاء الذي ألمّ بهم خرجوا مـن معقلهم وهاجموهـم. وانتقاماً لما أصابهم دبّر عدد من الفرسـان فخّـاً بأن أطلقوا قطيعـاً مـن الأغنـام دون راعٍ وعندما حاول الموحّدون الإمسـاك بالأغنـام قتلت فرقة رئيـس الكهنة خمسـمئة رجلٍ منهـم؛ على الأقل هذا ما يقوله ثونيغـا، لكن من دون أن يسـند قصته إلـى مرجع موثوق. ويمكـن تصديـق أنّ الرّائحة المنبعثة مـن مياه جدول تغـرت الآسـن أدّت إلى اعتلال فرسـان جليقية، فإلى اليوم لا يـزال كل من يخيّم على ضفّـة هـذا الجدول معرّضاً للتّسـمّم. ولكننا نشـكك فـي قوله إنّ المسـلمين خاطروا بحياة خمسـمئة رجل من حاميتهم لالتقاط بضعة خراف؛ لأنه ونظراً لندرة المؤن لدى الفريقين لا بدّ أنهم أدركوا أنّه من غير الممكن ترك قطيع أغنام يرعى دون حراسة ان لم يكن وراء ذلك غرض معيّن. لم يتعافَ رئيس الكهنة من مرضه، وعندما سـاءت حالته الصّحية تماماً أعاده سان فرناندو إلى الشّمال[2].

يقول ثونيغا، كما ورد آنفاً، إنّ فرناندو نصب خيامه في مرج سـان سيباستيان خارج أسـوار المدينة مباشـرة. لكن كتاب «الحوليّات الأوليّة» *Primera Crónica* لا يشـير إلـى ذلـك بل يخبرنا بأنه ذهـب إلى تَبْلَدة حيث عزّز تحصيناتـه إلى أقصى حدّ ممكن، نظراً لقلة عدد فرقته. من المحتمل أن فرناندو عسكر لفترة قصيرة خارج الأسوار ولكن لا يوجـد أدنى شـك بأنه خيم هنـاك أولاً. يقول كتاب الحوليّـات إن فرناندو انتقل إلى تَبْلَدة «بعد ان أنهكته مناوشـات المسلمين حيث كان». حرص الملك ألفونسو العاشر الذي أشرف على كتابة « الحوليّات الأوليّة العامة» على التّقليل قدر الإمكان من أهمّية الانتكاسات التي مُني بها والده انطلاقاً من واجبه البنوي تجاهه.

---

(1) معنى الاسم في الإسپانيّة: النّبع المعدني. (أحمد)

(2) Zúñiga, i. 20. 2 p. 751.

كان علــى ســان فرناندو أن يســتدعي ابنه من آراغــون التي قصدها لعقــد قرانه على الأميــرة ڤيولانتِـه ابنة خايمِه الأول، ملك آراغون. ومع أنّ الأمير عاد على غير رغبة منه فقــد اصطحب معه جيشــاً من مُرســية التي كان أميرهــا ابن هود تابعــاً لفرناندو، وعدداً كبيراً من جنود آراغون الذين أرسلهم حموه.

كانت التّعزيزات ضرورية من دون شــك، لأننا من خلال قراءتنا ما بين السّــطور يمكننا أن نلاحظ أنّ الأمور لم تكن تســير بشــكل جيد بالنّســبة للمحاصِرين، وإن كان المؤرّخون المســيحيون يحاولون أن يؤكّـدوا عكس ذلك. كان عمل المكلّفيـن بتأمين الطّعام والمؤن للجيـش محفوفـاً بالمخاطر، ولكنه بالتّأكيد عمل لا يمكن إهمالـه حتى ليوم واحد. برزت شــهرة الفارس غارســي پيريث دي ڤارغاس Garci Perez de Vargas للمرة الأولى عندما كان يرافق إحدى فرق البحث عن الطّعام ونجح في التّغلب بمفرده على «سبعة من الأفارقة» بســيفه العظيم المحفوظ الآن في مكتبة كولومبوس في إشبيلية، وقد نقش عليه بفخر «بهذا السّــيف وبفضل غارسي پيريث تمت السّيطرة على إشبيلية». لكن ثونيغا وكتاب الحوليّات يوضحان وإن عن غير قصد، أنه لا غارسي پيريث ولا رفاقه خرجوا على الدّوام ظافرين من مثل هذه المواجهات لأنه في أكثر من مناسبة قُتل كامل أفراد فرقة الحراسة.

نفّـذ الموحّـدون هجمات متكرّرة من البـر والنّهر، حتى أنهم حاولوا إحراق ســفن مســيحية بواســطة «طـوف مشــتعل مهـول»، وتطلّب لإحبــاط محاولتهم أن يســتخدم الأميرال بونيفاث كامل مهارته وشــجاعته. يبدو أن بونيفاث أرســى أسطوله عند أعلى النّهر قريباً من ســان خوان دي حصن الفــرج San Juan de Aznalfarache، كما يبدو أيضاً أنه إثر محاولة حرق سفنه، ثَبّت فرناندو زوجاً قوياً من جذوع الأشجار أو وتدين كبيرين في عرض النّهر لمنع العبور.

الأمر الوحيد المؤكد هو أن المسيحيين لم يظفروا أو يسيطروا على النّهر دون قتال عنيف للغاية. وفي نهاية الأمر اســتولى بونيفاث بالقوة على بعض السّــفن الحربية التي عرفت باســم «السّــمرة» Zambras[1] وبعد ذلك لا يُذكر شــيء عــن المواجهات التي

(1) Zúñiga, i. 17.

دارت على نهر الوادي الكبير حتى تحطيم جسر الزّوارق الذي أذن ببدء الفصل الأخير من ملحمة المقاومة المديدة.

حصلت معظم المواجهات البرية على ضفتي نهر وادي الرّحى. خرج المسلمون عبر بوابة القصر واجتازوا الجسر المقام فوق نهر الوادي على بعد ميلين من إشبيلية. في زمن ثونيغا كانت بقايا التّحصينات[1] التي أقيمت على هذا الجسر واضحة للعيان ويبدو أنه كان بالإمكان اجتياز النّهر فقط من هذه النّقطة، إذ من خلال ترك الموحّدين لحارس واحداً عند مشارف الجسر كانوا يستطيعون دائماً العودة إلى المدينة بسلام بعد قيامهم بهجوم على معسكر المسيحيين.

علينا ألا ننسى أنّ المؤرّخين في بلاط غرناطة الذين اعتمد كوندِه عليهم في سرد أحداث الحصار (لا توجد تفاصيل عن الحصار لدى المقّري) كانوا مهتمّين بقدر اهتمام مؤلف كتاب الحوليّات المتعلقة بعهد ألفونسو بالتّقليل من شأن الهزائم التي لحقت بملكهم ابن الأحمر، وعليه لم نحصل على مساعدة من الكتّاب المسلمين هناك تمكننا من التّثبّت من الحقائق.

تؤكد الحوليّات بصورة عامّة أنّ المسيحيين تعقبوا المسلمين حتى بوابات أسوار إشبيلية بعد أن أجبروهم على الفرار إثر هجماتهم المتكرّرة. وفي أحد الأيام رغب غارسي پيريث ولورنثو سواريث Lorenzo Suarez في أن يجعلا من «الكافرين» المتجاسرين عليهم عبرة، فكمنا في مكان سرّي وأنذر لورنثو رجاله بأنه عندما يفرّ المسلمون «كالعادة» عليهم عدم تعقّبهم فوق الجسر لما يمكن ان يترتب عن هذا العمل من أخطار. وقع المسلمون في الفخ وفرّوا بصورة عشوائية تاركين الميدان مغطّى بقتلاهم.

تبعاً للأوامر، توقف المسيحيون عن ملاحقتهم عند طرف الجسر ولكن غارسي پيريث لم يفعل ذلك. متناسياً ما تم الاتفاق عليه مع لورنثو، اندفع عبر الجسر وحيداً. عند ذلك قال لورنثو لرجاله:

(1) اختفت هذه التّحصينات الآن لكن الجسر لا يزال قائماً.

«أيهـا السّـادة لقد خدعنا غارسـي بيريث دي ڤارغـاس، انظروا كيـف يخوض بين المسـلمين. سـوف يدخلنا إلى موضع حيث يتوجب علينا ان نستخدم كل ما أوتينا من قوة».

انطلـق الجميع لمسـاعدة المغامر الجسـور وبعد ان قتلوا «أكثر مـن ثلاثة آلاف»[1] تعقّبوا المسلمين المنهزمين حتى بوّابات القصر.

يـورد في كتاب الحوليّات أنه في «ذلك اليوم اعترف لورنثو سـواريث بأنّ غارسـي بيريث كان أكثر جسارة منه» وكانت النّتيجة أن تراجعت وتيرة الهجمات التي تقوم بها حامية القصر[2].

لكن لم يوافق سـان فرناندو على هذه الاسـتعراضات الطّائشـة من جانب فرسـانه، وفـي إحدى المـرات أمر بإلقاء القبض على غارسـي بيريث ولورنثو سـواريث لأنهما كادا أن يتسـبّبا بكارثة خطيرة عندما ركبا بمفردهما ليطرقا على بوابات إشـبيلية بعقب حربتيهمـا، العمل الذي أدّى إلى خروج قوة كبيرة للاصطدام بهما، ممّا اضطرّ الجيش بأكمله عملياً للتّحرك لنجدة المغامرَيْن. صفح فرناندو عنهما ولكنه جعلهما أضحوكة من خلال طرح السّـؤال حول مَن منهما قدّم دليلاً أعظم من الآخر على استبسـاله؛ هل هو من خاطر أولاً بحياته، أو من بقي لمدّة أطول عند البوابة، أم ذاك الذي تمالك نفسه وبقـي هادئاً بدلاً من اسـتفزاز الطّرف الآخر للهجوم. طُرح الأمـر للتّصويت ولكننا لا نعلـم مَـنْ مِـن الاثنين حصل على أعلـى تقدير، كمـا أنّ كتاب الحوليّات لا يشـير إلى اسم الفارس الذي تمالك نفسه وكبح جماح حماسته العسكرية بدلاً من استثارة العدو للهجوم على المخيّم. يخبرنا ثونيغا اسمه بالاستناد إلى مصدر آخر. تشكّل هذه القصة مؤشـراً إلى أن سـان فرناندو وُلد قبل زمانه لأنّ ثونيغا نفسه يقدّم شبه اعتذار عن وجهة نظر الملك فيما كان يُعتبر استبسالاً آنذاك.

(1) لم يكن مؤرّخو القرون الوسطى في إسبانيا، سواء من المسيحيين أو المسلمين، يرضون بأقل من «آلاف» القتلى في صفوف الأعداء في مناسبات كهذه. وهذه السّمة ليست غائبة تماماً عن بعض الصّحافيين الإسبان حتى في أيامنا هذه.

(2) Zúñiga, i. 21.

علـى الرّغم مـن ذلك – وربما فـي الحقيقة نتيجـة – لهذه المفاخرات العسـكرية، لـم يحقّـق المحاصِرون أيّ تقـدّم، وبدا على المدى البعيد أنّ إشـبيلية كانت وسـتبقى منيعة طالما كان أهلها قادرين على الوصول إلى المناطق الزّراعية الخصبة في الشَّرَف. ولكـن كان من الصّعوبة بمكان قطع الإمـدادات عنها من تلك النّاحية لأنّ قلعة طريانة كانت محصّنة ضدّ أي هجوم كما أن حاميتها نفّذت هجمات عدّة وواصلت الدّفاع عن كل جزء منها بعزيمة لا تكلّ.

مع طول مدّة الحصار، بعد حوالي تسـعة أشـهر على تطويق المدينة، اقترح ابن الأحمر علـى فرناندو أنه سـيكون من الأفضل تدمير جسـر الـزّوارق لحرمان الحامية من وسـيلتها الوحيدة للوصول إلى الشَّـرَف الـذي تعتمد عليه بالكامل لتأميـن إمداداتها الغذائية. كانت خطّته تقوم على إعداد سفن مشتعلة لحرق الزّوارق وسفينتين كبيرتين لكسر السّلاسل التي تربط الزّوارق سوية وترك النّهر يجرفها عندما تكون الرّيح والتّيار مواتيين[1].

لا يذكـر كتـاب الحوليّـات ولا ثونيغا السّـفن المشـتعلة، ومن المحتمـل أن يكون الكاتب الذي اسـتند إليه كوندِه قد خلط بين تحطيم الجسـر والهجوم السّـابق بواسطة سـفن مشتعلة على أسـطول فرناندو، مع أنه من المحتمل جداً أن يكون ابن الأحمر قد اقترح اسـتعمالها لأن من الواضح أنّ هذه الخدعة الحربية كانت مألوفة لدى مسـلمي الأندلـس في ذلـك الوقت. يقول ثونيغـا إن الملك اقترح الخطّة علـى بونيفاث وعلى خبراء آخرين في قيادة البحرية، ولكنه لا يذكر شـيئاً حول اسـتعمال سـفن مشتعلة. لم يكن لأهل قشـتالة خبرة في فنون الحرب البحرية، وبالفعل لم يكن موقع بلادهم يتيح لهم اتقانها، وكانت أول إشـارة إلى أسطول قشتالي قصّة السّفن الثّلاث عشرة التي أمر فرناندو بصنعها في سانتانديرSantander لمحاصرة إشبيلية. أمّا المسلمون، فكانوا في المقابل على دراية باستخدام النّار الإغريقية التي أشار إليها كتاب الحوليّات باعتبارها مصدر رعب للمسيحيين مضيفاً أنّ هذه النّار تسمّى باللغة العربية «نار القطران»[2].

(1) Conde, iii. 33 – 4.

(2) Et dizenle en arauigo fuego de alquitran. (*Primera Crónica*, pp. 754, 756.)

مـن المحتمـل جداً أنه لـم يُؤخذ بنصيحة ابـن الأحمر، نظراً لعدم توفر سـفن لدى المحاصريـن يسـتطيعون الاسـتغناء عنها، كما لم يكن سـان فرناندو فـي ذلك الوقت يسيطر على أي ميناء في الجنوب، وكما رأينا كان على بونيفاث ان يذهب إلى الشّمال لشراء السّفن.

كان جسر الزّوارق الذي بناه الموحّدون في مكان أعلى على النّهر من موقع الجسر الـذي دمّـره المرابطـون عندما حاصـروا إشـبيلية وأطاحوا بحكـم المُعتمِد فـي العام 1091. كانت لا تزال بقايا السّلاسـل المسـتعملة في الجسـر السّـابق ماثلة عندما كتب ثونيڠا مؤلّفه، وكانت مثبتة في أساسات الأسوار العظيمة قريباً من برج الذّهب وقبالته.

نُفّـذت المحاولـة في 3 مايـو من العـام 1249. تم إعداد سـفينتين كبيرتيـن عُزّزت عوارضهمـا بصفائـح حديدية ونقلتا لمسـافة أسـفل مجرى النّهر مـع طواقمهما على متنهما وتحت إمرة بونيفاث نفسـه. تحركت السّفينتان صعوداً مع ارتفاع المدّ تدفعهما ريح قوية عبر عاصفة من المقذوفات المنطلقة من ضفتي النّهر كليهما. هزّت السّـفينة الأولى الجسـر بقوة ووجّهت السّفينة الثّانية التي كان على متنها بونيفاث «ضربة عنيفة جعلتهـا تعبـره إلى الجانـب الآخر» وسـط صيحات النّصـر الصّادرة عن المسـيحيين والعويل المرير للعرب[1].

كان يفترض أن يصبح انتهاء الحصار وشـيكاً بعد هذا النّجاح، ولكننا نشـك في أن الجسـر دُمّر تماماً كما يوحي لنا كتـاب الحوليّات، نظراً لأن المدينة صمدت لأكثر من ستة أشهر بعدها.

على كل حال لم يكن لدى ثونيڠا أدنى شك في النّتيجة المرضية للمحاولة، ويقول فـي كتابـه إن السّـفينتين الشّـهيرتين «كانتا أكثـر اسـتحقاقاً بتخليد ذكراهما من سـفينة آرغو الإغريقية»[2]. ويخبرنا أنّ مدينة سـانتاندير «نقشـت رسـم السّـفينة على شعارها

(1) *Primera Crónica*, 761.

(2) سفينة آرغو Argo ومعناها «السّريعة» مرتبطة بأسطورة يونانية تتعلق بمغامرة البطل الإغريقي ياسون لجلب جزّة الصّوف الذّهبي واستعادة عرشه في حماية آلهة الإغريق. (م)

لأنها كانت فخورة لكونها صنعت في مينائها. ونقشت كاتدرائية إشبيلية رسم السّفينة عينها على أول ختم للمجمع الكنسي مع صورة السّيدة مريم في الكوثل [أي مؤخرة السّفينة]، والصّليب المقدّس على الشّراع». هذا القول صحيح بلا شك لأنه يورد نقشاً خشبياً للختم يعود إلى العام 1256 محفوظاً في أرشيف مدينة إشبيلية. ولكن ثونيغا لا يشرح لماذا اعتُبرت سفينة واحدة جديرة بتخليد ذكراها في حين يذكر لنا بوضوح أنّ سفينتين استعملتا في تدمير الجسر.



الفصل التّاسع عشر

سقوط إشبيلية

كان تدمير جسر الزّوارق أول تقدّم ملموس يحرزه المسيحيون، ولكنهم كانوا ما يزالون بعيدين جداً عن النّصر النّهائي.

يقول ثونيغا إنّ الجنود كانوا مُرهقين بسبب نقص المؤن وقساوة الطّقس وبدأوا يتململون بصورة تنذر بالأسوأ مع تأخّر دفع رواتبهم بسبب النّقص في التّمويل، رغم أنه جرى تخفيض قيمة النّقود تحت وعد بدفع فارق القيمة المخفّضة من حساب الخزينة بعد أن يتم التّغلب على الصّعوبات المالية. .... حزن الملك من هذا التّذمُّر العام ولكنه عزّز وضعه الرّوحي بتخصيص وقت أكبر للصّلوات التي رافقها بالصّيام، والانضباط وارتداء قمصان من الوبر الخشن»[1].

وكان تحقيق انتصارات ثانوية يرفع معنوات المحاصِرين بين الفينة والأخرى. يقول كوندِه إنهم «دخلوا إلى غولِس Goles وأحرقوا حيّ بن الفوفار ونهبوا حيّ باب ماكارينا»[2].

---

(1) i. 27 – 8.

(2) (iii. 35.) كانت غولِس في القرن السّادس عشر لا تزال مجموعة من البساتين خارج أسوار المدينة بين البوابة التي سميت آنذاك بهذا الاسم والنّهر. كان يملكها في زمن ثونيغا ورثة عائلة كولومبوس. أصبحت الآن ضاحية صناعية على طريق السّكة الحديدية المتوجّهة إلى مدريد. أمّا حيّ بن الفوفار Ben Alfofar الذي يسميه كتاب السّجلات بن اليوفار Benaliofar ويسمّيه ثونيغا بيناوار Venahoar ويعرف الآن باسم سان برناردو كما يقول، فيقع بين مرج سان سيباستيان وبوابة ماكارينا (Primera Crónica, p 758; Zúñiga, i. 19).

فـور تدميـر جسـر المراكب، هاجم سـان فرنانـدو قلعـة طريانة من البـر والبحر. حـاول المحاصِـرون أولاً اقتحامها بهجـوم عاصف، ولكنهم فشـلوا لعدم توفّر عدد كافٍ مـن السّـلالم والمعـاول. ثـم حاولـوا تفجيرهـا لكنهم لـم ينجحـوا. بعد ذلك فرض سـان فرنانـدو الحصار عليها مسـتخدماً آلات صُنعت علـى عجل، لكن ذلك لم يؤدِّ إلا إلى تكبيد المحاصِرين خسائر شديدة من آلات المنجنيق القوية أو أقواس النّشـاب *ballestas* التي استعملتها الحامية؛ ويقال إنّ السّهام ذات الرّؤوس المربّعة *cuadrillos*[1] التي كانوا يطلقونها كانت تخترق الفارس المدرع وتنغرز في الأرض، ولا يبـدو أنـه تم تحقيق أيّ تقدّم قبل قدوم تعزيزات إضافية من قُرطُبة نصبت خيامها قريباً من الأسـوار. يقول كتاب الحوليّات إنّ المسـلمين باتـوا عندها محاصَرين ولـم يعـد بإمكانهم الخـروج من المدينة والدّخول إليها إلا عبـر النّهر، على متن زورق او سـباحة معرِّضين أنفسـهم لخطر جسـيم. مع ذلك وعلى الرّغم من كافة الجهود التي بذلهـا المحاصِرون لم يتمكنوا من منع عبـور المحاصَرين إلى طريانة او إدخال مؤن إلى المدينة[2].

لـم يدوّن كتّاب الحوليّات تفاصيل معجزتين حصلتا أثناء الحصار بل رواهما پيراثا Peraza وخوان دي پينيدا وقد أوردهما ثونيغا. سوف نكرّر سردهما هنا لأنه حتى هذا اليوم لا تزال توجد نُصب تذكارية لهما في إشبيلية.

فبعـد أن سـيطر رئيـس رتبة سـانتياغو[3] علـى مدينة جلبـال الصّغيـرة الواقعة على الضّفة اليمنى من النّهر هاجم عدة مرات قلعة طريانة التي كانت قوية بحيث أنها ظلّت مسـتعصية حتى نهاية الحصار. «من هنا[4] هاجم مسلمي سييرّا مورينا من أجل تحطيم كبريائهـم. فـي أحد الأيام عندما بدأ ضوء النّهار يتضاءل وينحسـر عـن أرض المعركة

---

(1) مقذوف يشبه السّهم، هو السّهم ذو الرّأس المربع المستخدم في القوس العائد للقرون الوسطى.
(2) *Primera Crónica*, pp. 761 – 5.

يذكر كونده أيضاً الصّواريخ القوية التي استعملها جنود الحامية (iii. 35.)
(3) يقول كتّاب السّجلات *Primera Crónica* إنه كان سيّد أقليش (صفحة 753)
(4) يفترض أن المقصود من جلبال؛ إذ لم يتم الاستيلاء على قلعة طريانة أبداً؛ مراجعة ما ورد أدناه.

مع إسدال الليل ظلاله بسرعة مسهّلاً فرار العدو، وكما فعل يوشع[1]، جعل الشّمس تستوي في السّماء متوسّلاً العذراء بكلماته المشهورة: «يا قديسة مريم أوقفي نهارك!» فأجابت الرّحمة الإلهية طلبه وبقي ضوء النّهار يشع بصورة عجائبية إلى أن حقّق انتصاره، بينما ساعده سان فرناندو بصلواته بالتّضرع إلى السّماء فكان فعل ذلك أقوى من أكثر الجيوش استبسالاً. إنها معجزة تؤكّد صحتها كنيسة سانتا ماريّا دي تِنتوديا Tentudia التي شيّدها هذا الرّئيس نفسه فيما بعد»[2].

كان للمعجزة الثّانية أساس واقعي، ونظراً لأنّ لها تأثيراً مباشراً على تاريخ إشبيلية تحت حكم اليمانيين، فهي تستحق مناقشتها مع بعض الإطالة.

لقد بيّنا سابقاً كيف أنّ أحفاد الأميرة سارة، الأشراف والنّبلاء ذوو النّسب المختلط، القوطي واليماني، حكموا إشبيلية لأجيال عديدة، وكم كانت واسعة الحرية الممنوحة لذرّية المسيحيين القوط الذين شكلوا جزءاً كبيراً من سكان أرض إشبيلية في القرن الثّامن وما بعده. استمرّت هذه الحرية قائمة على ما يبدو نظراً لعدم وجود أيّ دليل يؤكد أنّ المرابطين اضطهدوا مسيحيي إشبيلية أو أن الموحّدين تدخلوا بحزم في شؤونهم. يكفي أن كنيسة سانلوكار لا مايور San Lucar la Mayor بنيت عام 1214 (انظر الصّفحة 18 طبعة الأصل) وأنّ دير النّور المبني على الطّراز المستعربي في قرية المغر لم يعكّر وجوده شيء حتى حرب الاسترداد التي خاضها المسيحيون (انظر الملحق)، وهذا بحد ذاته كدليل يؤكد أنّ الموحّدين لم يعاملوا المسيحيين في هذا الإقليم بتعصّب مفرط.

---

(1) هو النّبي يوشع بن نون الذي خرج ببني إسرائيل من التّيه ودخل بهم أورشليم (بيت المقدّس) وأثناء القتال دخل عليهم المغيب يوم السّبت فنظر إلى الشّمس ودعا ربّه بألا تغيب، فاستجاب لدعائه وكان له ذلك. (م)

(2) ثونيغا (2 – 11 .i.)، مع أن الكنيسة لم تعد موجودة فلا زال موقعها معلماً بشارع صغير يسمى تندوديا يقع في خراج مدينة إشبيلية بجوار مرج برادو دي سان سيباستيان. قال رئيس رتبة سانتياغو مبتهلاً إلى السّيدة مريم:

!Santa Maria, deten tu dia (أيتها العذراء اوقفي نهارك!) ومن هذه العبارة اسم كنيسة سيدة تندوديا.

صحيح أنه لم يرد ذكر واضح في كتاب الحوليّات للكنائس التي كانت موجودة في إشبيلية عندما احتلّها سان فرناندو؛ لكن يشير سيمونه (انظر الملحق) إلى أنه كان يوجد ما لا يقلّ عن ست كنائس في القرن الثّاني عشر ولا تزال جميعها قائمة في إشبيلية مع أبرشياتها. كما توجد أساطير عديدة حول الحماية العجائبية لصور القديسين والأيقونات التي يوجد بلا شك أساس واقعي لها. نشأت هذه الأساطير على وجه الخصوص حول بعض اللوحات الجدارية التي كان لا بدّ لها أن تثير قبل وقت طويل اهتمام الطّلاب الأجانب الدّارسين للفن المسيحي في المراحل المبكرة، لو كان وجودها في إشبيلية معروفاً بصورة عامة.

اللوحة الجدارية التي تُشكِّل بحد ذاتها موضوع الأسطورة التي سنسردها، رغم تخريبها بفعل عمليات التّجديد وإعادة الطّلاء العديدة، يمكن فوراً ان يعرف أيّ طالب يفحصها بأنها قديمة العهد. لكن بما أن الكنيسة التي تحتويها مقفلة ولا تشير الأدلّة السّياحية بتاتاً إلى أهميتها، يبدي عدد قليل من هواة فن العصور الوسطى اهتماماً بالنّظر إليها.

بعد هذه المقدّمة نقدّم سرد ثونيغا للحدث المعني:

«كان منذ زمن القوط في الجامع الكبير صورة زيتيّة لسيدتنا العذراء أكبر من الحجم الطّبيعي، عادة اتبعتها الكنيسة البدائية للتّأكيد على أنّ للشّخص الماثل في الصّورة قدرات تفوق قدرات البشر. حالت العناية الإلهية دون المسلمين وإزالتها رغم أنهم حاولوا تنفيذ ذلك؛ فقد بقيت هذه الصّورة رغماً عنهم أكثر جمالاً ورونقاً؛ لذلك ولعدم قدرتهم على تدميرها أخفوها عن الأنظار ببناء جدار آخر أمامها[1] لكن المؤمنين القاطنين في إشبيلية لم ينسوها أبداً وكانوا يقدّسونها حتى من دون رؤيتها إلى ان أصبحت قبل بضع سنوات من فتح إشبيلية مرئية يشع منها النّور وهو أمر رأى فيه الأفارقة نذيراً لهلاكهم، ولم يعد بوسعهم إخفاؤها، وفي كل مرة خاطروا بالنّظر اليها كانت تجبرهم على الرّكوع أمامها تلبية لدافع يعجزون عن مقاومته.

(1) يُظهر هذا القول أنّ الأمر يتعلق بلوحة جدارية وهو أمر لم يذكره ثونيغا في السّابق.

«سمع سان فرناندو عن هذه الصّورة العظيمة، ومدفوعاً برغبة قوية في الخشوع أمامها دخل إلى إشبيلية في إحدى الليالي للبحث عنها، وبعد ان غمرته النّشوة فقد الوعي وهو غارق في تأملها؛ وبعد أن صلّى وخشع أمامها عاد ترافقه حراسة إلهية ليغادر من بوابة شريش[1] حين سقط سيفه وتعثّر به، عندئذ استعاد وعيه وأدرك أين هو والنّعمة الإلهية التي أُغدقت عليه. استفقده في هذه اللحظة دون رودريغو غونثالِث خيرون Don Rodrigo Gonzalez Giron الذي كان أحد أقرب مساعديه، وفرنان يانييث Fernan Yañez وخوان فرناندِث دي مِندوثا Juan Fernandez de Mendoza شقيقا أخلص أصدقائه الذين اصابهم القلق وانطلقوا للبحث عنه. ... دخل هؤلاء السّادة مع آخرين إلى إشبيلية للبحث عنه واشتبكوا في قتال عنيف قرب الجامع مع المسلمين ثم غادروا المدينة بعد أن حالفهم حظ يوازي جسارتهم. «نحن نعرف»، يقول ثونيغا «أنه عند احتلال غرناطة أقدم فرناندو دِل پولغار على فعل جسور مماثل. ويختتم ثونيغا مستنتجاً «الصورة هي تلك التي لا تزال موجودة في الكنيسة المقدّسة [كاتدرائية إشبيلية] تحت عنوان لا أنتيغوا [القديمة]»[2].

إنّ قصّة هذا الدّخول «العجائبي» لسان فرناندو إلى المدينة المحاصرة تحت جنح الظّلام وحادث تعثّره بسيفه والمعركة بجوار المسجد هي بالتّأكيد قصّة عملية تسلّل سرّية سهّلها اليمانيون أو المسيحيون المولّدون داخل الأسوار والذين كان يمكنهم الوصول إلى الصّورة المخفيّة التي عرضوا على الملك المسيحي مشاهدتها كعربون لحسن نواياهم بهدف التّعجيل باستسلام الحاضرة. يمكن للمرء أن يفهم أهمّية مشاهدة هذه الصّورة القديمة بالنّسبة للملك الورع، في حين أنّ وصول فرسانه في الوقت المناسب لحظة سقط سيفه على الأرض ونبّهت صلصلته الحامية قد يكون جزءاً من الخطة المتفق عليها سلفاً. وتفصل بين بوابة شريش (التي لا تزال تسمّى كذلك مع أنّ جدرانها هدمت قبل مدّة طويلة وبني في موقع البوابة قصر نبيل إشبيلي)

---

(1) كانت هذه البوابة الأقرب للمدينة إلى بوابة القصر التي كانت الحامية بصورة عامة تخرج منها لمهاجمة المعسكر المسيحي.

(2) i. 28 – 9.

والكاتدرائية (التي كانت قد حوّلت إلى مسجد قبل وقت غير طويل) مسافة قصيرة، وإذا كانت فرقة حراسة فرناندو قوية بالفعل فقد كان من السّهل عليهم التّسلّل إلى هذه المسافة بعد أن فتح البوابة أصدقاؤه المسيحيون في الدّاخل قبل أن تُنذر الحامية[1].

يقول ثونيغا إنه في فترة سابقة من الحصار اتصل عدد من سكان المدينة بالأمير ألفونسو من خلال فقيه أو عالم أسماه ثونيغا «أُرياس» Orias كان قد وصل حديثاً من أفريقيا لتفقّد مساجد الأندلس – «التي يعدّونها مقدّسة حسب مفهومهم»، يقول ثونيغا – حمل اقتراحاً وصفه المؤرّخ بأنه شرك صُمّم لقتل ابن الملك او أسره رهينة. عرض «أرياس المسلم» على ألفونسو نيابة عن عدد من «قادة المسلمين» أن يسلّموه برجين يستطيع بعد أن يصبحا تحت سيطرته أن يحتلّ المدينة بسرعة. «خشي الأمير الحكيم من هذا الاقتراح الغادر ورغم أنهم توسلوا إليه بأن يذهب بنفسه، أرسل دون بِدرو دي غوسمان[2]... الذي نجا من الفخ ولم يقتل من مرافقيه سوى فارس واحد»[3].

من غير الممكن استناداً إلى المواد المتوفرة لدينا معرفة حقيقة هذه «المؤامرة» ولم يكن بالطّبع لدى ثونيغا أيّة فكرة بانه يوجد فرق بين المغاربة الأفارقة أي الموحّدين والعرب والمولّدين في المدينة المحاصرة. ولكن من المحتمل ان الحذر الشّديد الذي أبداه ألفونسو حيال المسألة لم يكن في محلّه، ولو أنه ذهب بنفسه بدلاً من إقلاق العالم وفريقه بإرسال رجل لا يعرفونه لربما حصل على برجيه وأكثر.

ولد في سبتة عام 1260 كاتب أصبح فيما بعد إماماً وخطيباً في الجامع الكبير في غرناطة وكان يفترض أنه من سلالة يمانية ويعتنق المذهب الشّيعي. عُرف هذا الكاتب باسم ابن رُشيد تصغيراً لاسم رُشد التي ترجمها يونس (ص 317) على أنها تعني

(1) من الممكن أنهم كانوا يعتزمون إدخال عدد كافٍ من الرّجال للتّغلب على حراس بوابة شريش وفتحها أمام المحاصرين ولكن الخطة فشلت.
(2) مؤسّس سلالة غوسمان العريقة التي يتفرّع منها دوقات مدينة صيدونيا وعائلات نبيلة أخرى.
(3) Zúñiga, i. 26 – 7.

«المُرشـد». فإذا كان والده رُشـد كما يوحي الاسم بذلك خطيباً كذلك، فمن المحتمل أن يكون هو نفسه الفقيه العالم «أُرياس» Orias – Ar – Roshd أو Ar – Rosh الذي أشـار إليه ثونيڠا، وفي هذه الحالة يصبح الاتصال محتملاً بين شـيعة إشـبيلية والشّيعة من أتباع ابن الأحمر في المعسـكر المسـيحي. كان «ابن رُشـيد» بالتّأكيد رجلاً ذا شأن في إشبيلية لأنه «مع عدد آخر من كبار مسلمي إشبيلية» قام بدور رئيسي في المحادثات التي سبقت استسلام المدينة[1].

نسـمع عن أُرياس مرة أخرى من ثونيڠا الذي يقول «نقلاً عن مذكرة قديمة» إنه بعد الاستسـلام رحل السَّـقّاف من إشـبيلية إلى أفريقيـا، «حيث كان اسـمه مكروهاً طوال حياته وأصبح مكروهاً أكثر بسـبب لعنات الفقيه أُرياس»[2]. لو كان أرياس او ابن رُشد قادراً على إبرام اتفاق صلح مع فرناندو على أسـاس إقامة حلف مع اليمانيين بدلاً من الاستسلام الكامل للمدينة لأمكننا أن نتصوّر أن يلعن الموحّدي أبناء قومه بعد أن أدّى تصميمه العنيد على القتال حتى النّهاية إلى خسارة المسلمين لإشبيلية.

يمكن أن نسـتوحي أنّ سـان فرناندو لم يكن لديه شعور كبير بالثّقة في فرص الظّفر بالمدينـة فـي النّهايـة مـن اسـتعداده للموافقة على شـروط الاستسـلام التـي اقترحها المحاصَـرون، وكانـت بالتّأكيـد متسـاهلة إلى حدّ كبير بالنّسـبة إلى مدينـة هُزمت بعد مقاومـة دامت سـنة وربع السّـنة. بالتّأكيد يختلف المسـار الكامل لحصار واستسـلام إشبيلية بصورة كبيرة عن سقوط مدن أخرى بيد المسيحيين في تلك الفترة، حيث كان يتـم التّعامـل بحزم وبطش مع كل من يبـدي مقاومة فاعلة ومديدة. كما لا نسـتطيع أن نعـزو تصرّف سـان فرناندو في هذه القضيـة بالكامل إلى تأثير ابـن الأحمر، مع أن من الواضح أنّ الملك المسـيحي كان يقدر نصائحه. من المحتمل أنّ الاستسـلام النّهائي فُرض على الموحّدين في الحامية بواسـطة اليمانيين المحبّين للسّلام والعمليين الذين يشـكّلون غالبية السّـكان. فلو كان قائدهم المختار ابن الجدّ على قيد الحياة لكان من

---

(1) *Primera Crónica*, p. 766.

(2) i. 42

المحتمل أنّ الحصار لم يُفرض من الأصل، فمن الأسلم الافتراض بأنه لو عاد الأمر إلى اليمانيين وحدهم، لكانوا تحالفوا مع سان فرناندو كما فعل ابن الأحمر، ولكانت إشبيلية مع الشَّرَف والغرب قبلت أن تدفع الجزية كما فعلت غرناطة إلى ملوك قشتالة، بصفتهم سادتها لسنوات عديدة قبل أن يصبحوا حاكميها الفعليين.

ننتقل الآن إلى وصف المشهد الأخير للحصار الطّويل حسب ما أورده كتاب الحوليّات:

«استبدّ الغضب بالملك لأنه لم ينجح لا بواسطة الآلات الحربية ولا المعارك ولا بأيّة طريقة أخرى في احتلال قلعة طريانة أو منع عبور المسلمين إليها ومنها. حاول أن يمركز بعضاً من العسكر في أرنال[1] بغية منع المرور عبر النّهر ولكنه طُرد من الموقع. في أحد الأيام عندما عبر أُرياس وعدد من قادة الحامية النّهر إلى طريانة، حرّك بونيفاث عدداً من السّفن وتمكن من قطع الطّريق عليهم. وجدت حامية طريانة، بعد أن حوصرت من الجهتين من دون أمل في الحصول على مساعدة، نفسها مضطرّة إلى التّفاوض وطلب اللقاء مع فرناندو. وبعد ان قابل أفراد الحامية فرناندو ذهبوا إلى إشبيلية، حيث عرض السّقّاف شروطه[2].

نصّت الاقتراحات الأولى التي قدّمتها الحامية على تسليم قصر إشبيلية إلى سان فرناندو، ودفع كامل الجزية التي كانت المدينة تدفعها إلى «أمير المؤمنين عندما كان والياً عليها». رفض فرناندو هذه الاقتراحات فعرض السّقّاف عليه ثلث المدينة مع قصر إشبيلية وكافة حقوق الملكية. رفض فرناندو أيضاً هذا العرض ثم اقترحوا إعطاءه نصف المدينة بعد تقسيمها إلى قسمين يفصل جدار بين منطقة المسلمين ومنطقة المسيحيين؛ نصح بعض أفراد حاشية سان فرناندو الملك بقبول العرض ولكنه امتنع، ثم وبعد طول تفاوض وافق السّقّاف على إخلاء المدينة على أن يعطي

(1) قسم رملي من ضفة النّهر خارج الأسوار في جانب المدينة يعرف الآن باسم باسيو دي كولون Paseo de Colon.

(2) *Primera Crónica*, p. 766.

الملك لـه وللرئيس «ابن شـعيب» الإذن لهما بعد دفع الجزيـة بالذّهاب إلى لبلة، أو حصن الفرج أو سانلوكار[1].

وضع المسـلمون شروطاً لتسـليم أسـلحتهم وممتلكاتهم وافق عليها سان فرناندو الـذي اسـتولى على قصر إشـبيلية في 23 نوفمبـر 1248. ولكنه لم يدخـل إلى المدينة بصورة رسـمية لأن المسلمين طلبوا إعطاءهم مهلة شهر واحد لبيع ممتلكاتهم التي لا يسـتطيعون حملها معهم. في النّهاية دخل سـان فرناندو المدينة في 22 ديسـمبر 1248 يوم الاحتفال بذكرى نقل رُفات القديس سان إيسيدورو [من إشبيلية إلى ليون].

يورد كتاب الحوليّات أنّ الملك قدّم لأولئك السّكان الذين رغبوا في الرّحيل بحراً، خمس سفن وثمانية قواديس[2] وقدّم إلى الذين وصلوا عن طريق البرّ حيوانات ركوب وحرّاسـاً. وذهب العديد منهم إلى شـريش (التي كانت في أيدي الموحّدين) يرافقهم سيد قلعة رباح[3].

يذكـر كتاب الحوليّـات بصورة خاصة معانـاة المحاصِرين من مـرض أودى بحياة كثيريـن منهم، ومن ريح، «سـاخنة وكأنها قادمة من جهنـم»؛ ويقول إنّ «جميع الرّجال

---

(1) *Primera Crónica*, 766 – 7; Zúñiga, i. 29 – 30.

يضيف ثونيغا أن السَّقّاف أراد ان يدمر الخيرالدا ولكنّ ألفونسو ردّ بانه لو نُزعت طوبة واحدة منها فسوف يذبحهم جميعاً. ومن الواضح أنّ الاقتراح وشروط الرّفض كلها مفبركة في فترة لاحقة.

لا شك أن "Aben Xueb" هو ابن شعيب وهو أحد أعضاء مجلس إدارة الموحّدين الذي تمّ تعيينه بعد اغتيال ابن الجدّ (مراجعة ابن خلدون في المقّري، Makkari, ii. App. Ixxx.). ليس من الواضح ما إذا كان سان لوكار هو سان لوكار لا مايور في الشَّرَف أو سان لوكار دي بارّاميدا Barrameda قرب منبع النّهر، لان ثونيغا يستبدل «سان لوكار» باسم تيخادا Tejada. لم يذكر متى سقط حصن الفرج ولكن لبلة لم تفتح إلا في عام 1257، بعد خمس سنوات من وفاة سان فرناندو.

(2) سفن شراعية كبيرة. (م)

(3) *Primera Crónica*, 761 – 767; Conde, iii. 36 – 7.

يقول كتاب السّجلات إنّ 120 ألفاً ذهبوا إلى سبتة (في خمس سفن وثمانية قواديس!) وإنّ 300 ألف ذهبوا إلى شريش. ولا تحتاج مثل هذه الإحصائيات إلى تعليق.

كانوا يقطرون ماء طوال اليوم، في الظّل وخارجه، كما لو أنهم كانوا في الحمّام»[1]. لا بدّ أن ذلك كان ما نعرفه اليوم باسم صبا الرّيح الشّرقية.

كان معسكر الجيش المحاصِر، كما يورد كتاب الحوليّات، أشبه بمدينة عظيمة نبيلة تتخلّلها شوارع وساحات. خصص فيه شارع لتجّار الملابس والصّرافين وآخر لتجار التّوابل والعطارين لبيع الأدوية التي يحتاج إليها المرضى والجرحى؛ وشارع آخر للجزّارين وبائعي السّمك وإلى ما هنالك. كانت توجد وفرة عظيمة في الطّعام والسّلع وكان الرّجال يجلسون أمام سلعهم مع زوجاتهم وأولادهم، «كما لو كانوا سيبقون هناك إلى الأبد»، نظراً لأن الملك وعد بعدم رفع الحصار إلا بعد ان يستولي على المدينة، وهذا التّأكيد على احتلال المدينة جعل كثيرين يتدفقون من كل صوب[2].

يصف كتاب الحوليّات منعة وعظمة أسوار إشبيلية وجمال وكلفة برج الذّهب، وذاك الذي يعرف اليوم باسم الخيرالدا. «هل يوجد من يستطيع ان يقول كم كلّف بناء هذا البرج الملك الذي أمر بإنشائه؟» يواصل الكاتب فيقول إنّ «السّفن كانت تأتي عبر النّهر كل يوم إلى داخل الأسوار حاملة البضائع من كافة أنحاء العالم: من طنجة، وسبتة، وتونس، وبوجيا Bugia، والإسكندرية، وجنوة، والپرتغال، وإنكلترا، وپيزا، ولومباردي، وبورديل (هل كانت بوردو؟) وبايون، وصقلية، وغسقونيا، وقطالونيا، وآراغون وحتى من فرنسا والعديد من الأماكن الأخرى عبر البحر من بلاد المسيحيين والمسلمين».

كان في الشَّرَف مئة ألف مزرعة أو ضيعة أو قرية *alquerias* ويضيف كتاب الحوليّات أنّ «المدينة كانت من العظمة بحيث أنّ الاستيلاء عليها ما كان سيتم خلال تلك الفترة القصيرة لولا العناية الالهية»[3].

---

(1) P. 767 – 8.

(2) P. 768.

(3) صفحة 769. الأماكن المذكورة التي تنهي سرد عملية فتح إشبيلية هي بالتّأكيد المدن التي كانت تتاجر معها خلال الحكم المسلم. استمرّت العلاقات التّجارية بين إشبيلية والعديد إن لم يكن كافة هذه البلدان حتى نهاية حكم هنري الرّابع، شقيق إيزابيل الكاثوليكية الذي سبقها

يضيـف كونـدِه تفصيـلاً واحـداً أو تفصيليـن. فيقول: «سـلّم الوالي أبو الحســن[1] مفاتيح المدينة في 12 شعبان، 646 (نوفمبر 1248) وفي اليوم ذاته ركب سفينة وتوجّه عبـر البحـر إلى أفريقيـا. «احتلّ الملـك فرناندو قصر إشـبيلية واحتـلّ ضباطه حصون المدينـة والجـوار. بدأ المسـلمون فوراً بمغادرة هـذه المدينة المكتظّة بالسّـكان وقَبِل الكثيـرون حمايـة الملك ابن الأحمـر وذهبوا إلى نواحي غرناطـة، وذهب آخرون إلى

في حكم البلاد. حمى هنري الرّابع وحافظ على علاقات ودية مع المسلمين والموريسكيين في أراضيه، ورغم أنه كان حاكماً سيئاً من نواحي عدّة، فلا يوجد أدنى شك بأنّ التّجارة ازدهرت خلال حكمه، وعلى وجه الخصوص تجارة الأقمشة الحريرية الجميلة التي نشرت صورها تحت عنوان «الشّرقيون» في الكتاب العظيم الذي وضعه الرّاحل فريدريك فيشباخ Frederick Fischbach حول زخارف الأقمشة. لا تزال توجد آثار من الفن العربي في القرون الوسطى، نقشت عليها أسماء او تواريخ او كلاهما تؤكد أنها على صلة بإشبيلية. والعلاقة بين هذه الزّخارف وعدّة أشكال اخرى من التّصاميم كما وردت في قسم «الشرقيون» من كتاب «زخارف الأقمشة» *Textile Ornaments* لا تترك أدنى شك بأنّ إشبيلية هي مصدرها. ومنذ أن بدأ فرناندو وإيزابيل حربهما التي لا هوادة فيها على المسلمين الذين كانوا العمال الرّئيسيين في كافة مصانع النّسيج في ذلك الوقت، تراجعت بسرعة صناعات الأقمشة الحريرية وتلك المصنوعة من خيوط الذّهب والفضة. شعرت إشبيلية التي كان معظم سكانها من الموريسكيين بوطأة تغيير أنظمة الحكم. وعلى الرّغم من الازدهار الواضح الذي نتج عن تجارتها المتميّزة مع العالم الجديد خلال القرن السّادس عشر، بدأت مصانعها ومعها الازدهار الحقيقي تتراجع تحت حكم الملكين الكاثوليكيين، واستمرّ هذا التّراجع في الواقع وإن لم يكن في الظّاهر إلى أن طرد الملك فيليپ الثّالث الموريسكيين وتابع الدّمار الذي بدأته الملكة إيزابيل بحجة حماية الدّين. من المهم أنّ ثونيغا الذي ألف كتابه عند حوالي أواخر القرن السّابع عشر يشتكي من أنّ حائكي الأقمشة الحريرية في إشبيلية يخسرون أعمالهم شيئاً فشيئاً مع الميل إلى استيراد أقمشة ارخص ثمناً ومن نوعية متدنّية من إيطاليا لا تقدر مصانع إشبيلية على منافستها. (iv. 1 – 120)، والحقيقة أنّ الصّناع المهرة أصبحوا قلّة بسبب غياب العمّال الموريسكيين المنفيين، إذ اصبح من غير المربح إنتاج المشغولات بالمواصفات التّقليدية المميّزة لمنتجات إشبيلية. لا تزال حتى وقتنا الحاضر تحاك مشغولات على أنوال يدوية في إشبيلية وغرناطة وفي بعض المناطق الرّيفية ويتم إنتاج أقمشة رائعة، من الأشرطة الحريرية وكتّان الدّمقس بحرفية رائعة ولكن بكميات ضئيلة جداً بسبب تفضيل المواطنين شراء ملابس أرخص ثمناً مصنّعة بآلات أكثر تطوّراً.

(1) ربما يكون أبو فارس، رئيس مجلس إدارة الموحّدين (Makkari, ii. app, Ixxx.)

شـريش ومدن أخرى وإلى الغـرب، وعبر عدد قليل منهم إلى سـبتة مع الموحّدين[1]. وهكذا انتهت إمبراطورية هؤلاء الأمراء (الموحّدين) في إشـبيلية وخسـر المسـلمون تلـك المدينـة الرّائعة وامتلأت أبراجهـا وجوامعها بالصّلبان والتّماثيـل وجرى انتهاك حرمة قبور المسلمين المؤمنين»[2]. القبور المشار اليها هنا ليست قبور اليمانيين الذين كانـوا يدفنون بصـورة عامة أمام أبواب قصورهـم، أو إذا كانوا من الفقـراء في المقبرة العامة خارج الأسوار. والإشارة هي إلى تقليد أُدخل منذ حوالي القرن الثّاني عشر من مصر ويقوم على إنشـاء ضريح لصيق الجامع ليكون بمثابة قبر ومسـجد خاص للرّجل المهمّ الذي أنشأه. كان لمعظم الكنائس في إشبيلية التي ذكرت على أنها كانت مساجد في السّابق في القرن الثّالث عشر أضرحة إلى الشّمال وإلى الجنوب من صحن الكنيسة باتجاه ما يعرف الآن بالمذبح وغالباً على الجانبين.

كانت تلك دون شك القبور التي قيل إنّ المسيحيين دنّسوها عندما حوّلوا المساجد إلى أماكن عبادة مسـيحية عام 1248. ولا يوجد أيّ دليل يؤكد أن المسـيحيين انتهكوا حرمة مقابر المسلمين لعدم وجود أيّ سبب يدفعهم إلى ارتكاب أعمال التّدنيس هذه، بل على العكس توجد إشـارات تدلّ على أنهم اسـتخدموا هذه المقابر واسـتمرّوا في استعمالها لقرون طويلة بعد الاسترداد.

دخـل فرنانـدو منتصـراً إلـى إشـبيلية فـي 22 ديسـمبر يوم ذكـرى نقل رُفات سـان إيسيدورو إلى ليون (انظر الصّفحة 27 طبعة الأصل). ويقول ثونيغا إنّ الاعتقاد السّائد هو أنّ هذا القديس بشّـر سان فرناندو بانتصاره؛ وحوّل الملك الورع مسيرة النّصر إلى موكب ديني. ويقول ثونيغا في وصف هذا الموكب: «سارت قطعات الجيش أولاً وفق نظام عسـكري تلوّح برايات المنتصرين وتمزّق رايات المنهزمين[3]. وعزّز التّعبير عن الفرح العام صوت آلاف الآلات الموسـيقية العسكرية. سار في مقدّمة الموكب القادة

(1) تثبت هذه القصة كم كان عدد السّكان الموحّدين قليلاً.

(2) Iii. 36 – 7.

(3) هكذا يقول ثونيغا، ولكن هذا العمل غير النّبيل غير محتمل على الأرجح نظراً للتّقدير الذي خصّ به فرناندو المسلمين في إشبيلية.

الرّئيسـيون، والنّبـلاء *infanzones*، وكبـار الأثريـاء وقادة الجيش أصحاب الأوسـمة العسكرية وعدد كبير من الكهنة، المدنيون العلمانيون والنّظاميون، يرافقون مع رؤساء الكهنة والمطارنة عرشـاً نقالاً وضعت عليه الصّورة الطّاهرة لسـيدتنا مريم». ويواصل ثونيغـا كلامه بالقول: «لن أخاطر في التّأكيد ما إذا كانت هذه الصّورة هي الصّورة التي كان يملكهـا الملـوك أم المطرانيـة *Sede*، لأنّ الاحتماليـن كليهمـا متسـاويان، ولكن الاحتمـال المقبول بشـكل عام هو أنها كانـت الصّورة التي كانت لـدى الملوك والتي يمكننا أن نشـاهدها معروضة بشكل مهيب في الكنيسـة الملكية. مع ذلك فإنّ الصّورة التـي كانـت لدى المطارنـة، صورة القديسـة الرّاعيـة أو الحارسـة لكاتدرائيتنا فكانت موضوعة على المذبح الرّئيسي وظلّت مقدّسة لمدّة طويلة بحيث كان يبدو أنّ من غير الممكن اعتبارها ذات أهمية من الدّرجة الثّانية.

«في آخر الموكب سـار سان فرناندو، وزوجته[1] وأولاده، وشقيقه ومختلف رجال البلاط». مرّ الموكب بين برج الذّهب والنّهر إلى بوابة غُولِس Goles (التي تسمى اليوم بويرتـا ريـال Puerta Eeal)، أي البوّابـة الملكيـة) ثم توقف في موقـع أرينال Arenal لاستلام مفاتيح المدينة من السّقّاف.

عندمـا وصـل الملك إلـى الجامع الكبيـر الذي كان قـد جرى تطهيـره «من رجس الكفّار» تلا واحد أو أكثر من رؤساء الكهنة القداس و«بذلك عاد هذا الهيكل إلى العبادة المسـيحية[2] وحمل اسـم سانتا ماريّا دي لا سِـيدِه» *Santa Maria de la Sede*. ترك سـان فرناندو في هذا المعبد الصّورة المذكورة آنفاً المسـمّاة دي لا سِـيدِه، المصنوعة بالكامـل من الفضّة والموضوعة فوق المذبح الأكبـر. ووضعت صورة عذراء الملوك فيما كان يُعرف في السّـابق بالكنيسـة الملكيّة في القسـم الشّـرقي من المسـجد. وفي

---

(1) خوانا، كونتيسة أومال Aumale وبونتيو Ponthieu التي تزوجت ابنتها إليانور الملك إدوارد الأول ملك إنكلترا. قلت: واسمها الأصلي بالفرنسيّة: جانّ Jeanne de Dammartin لكنّها صارت تُدعى خوانا Juana لمّا صارت ملكة إسبانيا. (أحمد)

(2) انظر الصّفحة 398 طبعة الأصل.

الوقت نفسه رُفعت الرّاية الملكيّة ذات الصّليب على أعلى البرج المرتفع للجامع[1].

وصورة عذراء الملوك الموجودة في الكنيسة الملكية تعود دون شك وباتفاق كافة المراجع المسؤولة إلى الفترة التي حدّدت لها هنا، ويؤكد وجود الزّنابق الفرنسية كجزء من التّصميم على الأحذية الفضّية - الصّورة بالحجم الطّبيعي - على ما يبدو الاعتقاد المتداول بأنها كانت هدية إلى سان فرناندو من ابن عمّه سان لويس ملك فرنسا.

فيما يخصّ هذا الحدث، أورد محرّر كتاب ثونيغا نبوءة مثيرة للفضول تقول إنّ «المغاربة» في إشبيلية عرفوا قبل مدّة بخسارتهم القريبة المحتومة للمدينة. وقيل إنّ الملكين الكاثوليكيين عثرا على تلك النّبوءة في دار المحفوظات في غرناطة عندما فتحوها.

ومن تفاصيل هذه النّبوءة أنه عندما سيطر الموحّدون على الأندلس، ثار فارس شاب يدعى ابن هود Abenhud كان أغنى وأقوى رجل في مملكة مُرسية وانتصر عليهم وأخضع كافة «العرب» Alarabes القاطنين في تلك المناطق[2]، و«بغية تعزيز دعائم مملكته قتل بالسّيف كافّة الموحّدين مدّعياً بأنهم يمارسون شعائر ويتبعون خرافات، وأنهم يزدرون الذّات الالهية بخطاياهم ورذائلهم. أمر كهنته بتنظيف وغسل مساجدهم بالماء وبأن يصبغوا بالأسود الدّروع والرّايات التي تحمل شعارات الموحّدين. وبعد أن تم تنفيذ ذلك إذا بساحر مغربي (*hechichero*) كانوا يعتبرونه نبياً عظيماً ينوح [حرفياً يولول بشدّة] عندما رأى تلك الدّروع مصبوغة بالأسود، وبعد أن جمع أشراف المغاربة أخبرهم بأنّ مملكة المسلمين في إسبانيا أوشكت على نهايتها، وأنه انتقاماً لمقتل الموحّدين سوف يموت الملك ابن هود شرّ ميتة؛ وأنه في يوم مماته ستسقط كافة هذه الدّروع والرّايات السّوداء أرضاً ولن يظهر بعد ذلك أبداً ملك مُسلم في إشبيلية. بعد ذلك توفي ابن هود الذي أسكره صديق حميم له في حفلة أُنس في

(1) Zúñiga, i. 39 – 49.

(2) المقصود بكلمة العرب هنا العرب الشّيعة الذين تبعوا ابن هود. ولا يميّز الكتّاب الإسبان في غالب الأحيان بين العرب والمغاربة الأفارقة (المور) أيّ الموحّدين.

المَريّة، وعندما فقد وعيه أغرقه في خزان مملوء بالماء. وفي اليوم نفسه سقطت إلى الأرض تلك الدّروع والرّايات في جامع إشبيلية، واعتبر المسلمون المغاربة (الأفارقة) أنّ خسارة المدينة باتت أكيدة؛ ولم يبرز أيّ ملك بعد ابن هود، نظراً لأنّ السَّقّاف الذي كان في إشبيلية عندما فتحها الملك القديس لم يكن ملكاً بل قائداً»[1].

وقصّة قيام ابن هود بصبغ الرّايات بالأسود وموته التّالي صحيحة في خطوطها العريضة، ولكن الأرجح أن القصة مأخوذة عن الرّواية المسيحية للأحداث، لأنه من غير الممكن لأي مسلم ان يخلط ما بين مُرسية وإشبيلية (انظر الصّفحة 280 طبعة الأصل).



(1) Zúñiga, i. 48 – 9.

الفصل العشرون

وفاة سان فرناندو

عاد ابن الأحمر إلى غرناطة بعد استسلام إشبيلية «حزيناً أكثر ممّا هو راض» بسبب الانتصارات التي حقّقها المسيحيون لأنه لم يتوقف عن التكهّن بأنه عاجلاً أم آجلاً سوف يؤدي توسّع هذه الانتصارات إلى إنتهاء الحكم الإسلامي في إسپانيا؛ ولكن ذلك لم يقلّل من محبّته وإعجابه بملك المسيحيين.

كرّس جهوده خلال الفترة القصيرة الخالية من المعارك إلى تشجيع الصّناعات والتّجارة في مملكته ومنح إعفاءات من الضّرائب، وقدّم جوائز إلى أفضل المزارعين ومربّي الخيول وصانعي الدّروع والحائكين وصانعي عدّة الخيل. وهكذا ازدهرت هذه الفنون في مملكته وتضاعفت خصوبة الأرض الخصبة بطبيعتها بفضل الاعتناء بالزّراعة. وأولى عناية خاصّة لرعاية تربية دودة القزّ وصناعة الحرير حتى بزّت صناعة الأقمشة الحريرية المنتجة في غرناطة مثيلاتها في الشّام[1].

وحسّن عملية سكّ النّقود واستثمر في مناجم الذّهب والفضة ومعادن أخرى وباشر ببناء قصر الحمراء - لأنّ القلعة كانت موجودة منذ قرون - وأشرف بنفسه على الأعمال، وكان يرافق بصورة متكرّرة المهندسين المعماريين ويتواجد بين العمال. كانت هوايته الرّئيسية مطالعة كتب التّاريخ والبستنة.

كان معظم، إن لم يكن كافة وزرائه وقضاته، وغيرهم من اليمانيين وكان من

(1) Conde, iii. 37 – 8; cf. Williams, Arts and Crafts, iii. 49, and Gudiol *Arqueologia sagrada*, 408 note.

بينهم شخص من سلالة بني أبي عامر حكم لمدّة طويلة في المقاطعات الشّرقية من الأندلس[1].

وهكذا كرّس الأحمر أوقاته، مثل كافة الحكّام اليمانيين العظام الذين سبقوه، لتعزيز مملكته، وذلك من خلال تشجيع وتطوير الفنون والصّناعات المعروفة في تلك الأوقات داخل حدود بلاده بدلاً من محاولة توسيعها من خلال الحروب المتواصلة مع جيرانه[2].

أثناء ذلك كان فرناندو منهمكاً في تأمين استقرار إشبيلية وإخضاع النّواحي المجاورة لها. يقول كتاب الحوليّات إنه احتلّ شريش ومدينة (صيدونيا)، والقلعة (لا بدّ أن تكون هذه قلعة بني سعيد، التي عُرفت بعد ذلك باسم لا ريال نظراً لانّ قلعة النّهر وقلعة جابر كانتا تحت سيطرته)، وبيخير Bejer، وبويرتو دي سانتا ماريّا (بوابة شنتمرية) وقادس، و«سالوكار دالبيشين»[3] Salucar d'Alpechyn، وأركش، ولبريخا، وروطة، وطربشانة. «سيطر على كل شيء من البحر هنا، تارة من خلال القتال وتارة من خلال الصّلح»، باستثناء لبلة وحصن الفرج التي استسلمت لاحقاً. ثم «عندما لم يبقَ أمامه أعداء للتّغلب عليهم في إسبانيا» صنع عدداً من السّفن لتنفيذ حملة على المسلمين Morisma في أفريقيا. «خطط مسيحية وبارعة (..) حالت وفاته دون قيامه بها»، كما يقول ثونيغا[4].

---

(1) Conde, iii. 38 – 9.

(2) انظر وصية الحكم إلى ابنه، ص 160 طبعة الأصل.

(3) قسم من سان لوكار (دي بارّاميدا ربما). انظر the Repartimiento في كتاب إسبينوثا Espi- noza « تاريخ إشبيلية» (*Historia de Sevilla*, pt. II. Fol. 2.)، توجد ثلاث مدن تحمل اسم سان لوكار في جنوب غرب الأندلس: سان لوكار دي بارّاميدا، وسان لوكار لا مايور في مقاطعة إشبيلية وسان لوكار دي وادي يانة في إقليم ولبة. والاسم هو تحريف لاسم سولوكار Solucar وهو حسب اعتقادنا غير معروف الأصل.

(4) Zúñiga, i. 85; *Primera Crónica*, 770 – 1.

بعض الأماكن المشار إليها، في حال كانت أخضعت على يد سان فرناندو، ثارت مجدّداً بعد وقت قصير لأنه جاء ذكرها لاحقاً على أنّ ابنه ألفونسو احتلها. وردت تفاصيل وقائع ضم

حلّت سنة 1252 تصحبها استعدادات عظيمة لتنفيذ حملة بحرية، ولكن قضي على هذه الحملة في مهدها وعمّ القلق نظراً لاصابة سان فرناندو بمرض الاستسقاء الخطير، وبات واضحاً للجميع أنّ نهايته باتت قريبة. أوهنت قوته أنواء الحروب وحياته المتقشفة ولم يُجدِ تملّق رجال بلاطه نحوه في إخفاء خطورة مرضه. كان هو نفسه مدركاً لوضعه الصّحي ومستعدّاً للموت وقدّم مثالاً يحتذى في الصّبر والإذعان لمشيئة الله.

القناطر أو بويرتو دي سانتا ماريّا (لم تذكر في كتاب السّجلات) باسهاب في كتاب الأناشيد *Cántigas* الذي كتب في عهد ذلك الملك دون ان يتم التّلميح إلى أنها كانت محتلة في الأصل. «لدى عودته من حملة إلى أفريقيا ضد مسلمي سِلا، احتلّ ألفونسو «الميناء الإسلامي» القناطر، ولشدّة ما أبهجه المنظر الطّبيعي والهواء المنعش، أبقى سفينته راسية لبضعة أيام هناك. أثناء وجوده هناك جاءه قاضٍ مسلم (a Moslem Alguazil) من شريش وأخبره بأنّ المسلمين كانوا منزعجين من شخص تجاسر وغيّر الاسم إلى بويرتو دي سانتا ماريّا، وأن من المحتمل أن يفضي ذلك إلى اندلاع اضطرابات خطيرة. أمر الملك بتوقيع عقوبات شديدة على الذين تجرأوا على تغيير الاسم العربي ولكن بلا طائل، لم يكن ممكناً إقناع المسيحيين بتسمية الميناء بغير اسم بويرتو دي سانتا ماريّا. في نهاية الأمر يقول ألفونسو في الأنشودة المتعلقة بالحدث، إنّ ملكة السّماوات أقنعت القاضي المسلم بالمجيء ثانية إلى ملك قشتالة ليسلّمه طواعية ليس الميناء بالذّات وحسب بل كل ذلك السّاحل المطلّ على المحيط من أجل إحلال السّلام (Cantiga, cxcvii.). هناك مؤشرات منطقية تفيد بأنّ المسيحيين كانت لهم كنيسة صغيرة هنا من أيام القوط، حيث لا تزال أجزاء من أعمدة رومانية بُنيت عليها الكنيسة قائمة وفوقها بناء عربي في محراب كنسي مهدّم تحت القلعة المبنية حولها في أوائل القرن الرّابع عشر (انظر الصّفحة 137 بطبعة الأصل). كما توجد صورة قديمة للعذراء مريم في كنيسة الأبرشية وجدت خلال حرب الاسترداد فيما يعرف اليوم بالقلعة. وتزخر الأناشيد بقصص العجائب التي صنعتها «عذراء بويرتو دي سانتا ماريّا». ومن المحتمل أنّ الاسم المسيحي للقناطر لم يُنس أبداً وأن رغبة أحفاد المسيحيين القوط في التّخلّص من نير الموحّدين في شريش لمصلحة ألفونسو كانت السّبب في الخنوع «العجائبي» للقاضي المسلم. يبدو هذا أكثر احتمالاً لأنه واستناداً إلى الأنشودة المتعلّقة بالحدث لم يكن يوجد في ذلك الوقت مسيحيون قشتاليون هناك، ما عدا الذين جاؤوا مع ألفونسو على متن سفنه.

[عبارة a Moslem Alguazil تعني «قاضٍ مسلم» لأن Guazil (غازيل) التي أضيفت إليها ال التّعريف مشتقة من العربية وتعني بالبرتغالّية الوزير أو القاضي، واستخدمت في الإسبانية كذلك Alguacil الغائيل بمعنى القاضي أو الحاكم في الماضي. (م)].

كتب وصيته وترك مالاً وفيراً لكاتدرائية إشبيلية، وحُفظت الوثيقة في أرشيف الكاتدرائية لسنوات عديدة إلى أن طلب الملك فيليپ الثّاني من الكاتدرائية ان تطلعه على الوصية بحجّة أنه نسي محتوياتها وأخذها معه إلى مدريد من حيث لم تعد أبداً. ولم يستطع ثونيغا إخفاء سخطه لدى وصفه لهذه السّرقة رغم إجلاله الشّديد للملك.

عندما شعر فرناندو بدنوّ أجله، رغب في تلقّي المسحة الأخيرة من الكنيسة. وعندما اقترب منه مطران شقوبية مع قربان المناولة يرافقه كافة أعضاء البلاط رمى الملك نفسه من سريره أمام جميع الحاضرين وطلب من مساعديه ان يضعوا حبل مشنقة حول عنقه رمزاً لمجرم شعر بانه ماثل أمام ربّه واستعد لقبول سرّ المسحة الأخيرة. ابتداءً من تلك اللحظة تخلّى الملك عن كل شارات ورموز جلالته. ثم طلب حضور زوجته وأولاده لتوديعهم. أعطاهم مستندات تزيد إرثهم، وأوصى ابنه الأكبر برعاية أشقائه الصّغار وألقى عليه درساً حكيماً لو اتبعه لنجح بالفعل في أن يكون حكيماً حقاً[1].

«والآن وقد شعر باقتراب اللحظة الأخيرة طلب الشّمعة الموقدة، رمز الإيمان، ثم طلب بتواضع من أولئك الحاضرين أن يسامحوه نيابة عن رعاياه، عن الأخطاء التي ارتكبها خلال فترة حكمه لهم. فأجهش الحاضرون بالبكاء». غاب الملك عن الوعي كما لو كانت النّهاية ولكنه عاد وتكلّم من جديد طالباً من الحاضرين إنشاد التّرتيلة تي دِيُوم وعندما كانوا ينشدونها أسلم روحَه الرّاضية إلى الله»[2] [3].

توفي الملك في 30 مايو في سن الرّابعة والخمسين، في السّنة الخامسة والثّلاثين من حكمه، ويقول ثونيغا إنّ النّاس طوبوه على الفور، على طريقتهم، بالهتاف علامة الموافقة وأطلقوا عليه لقب القدّيس وخشعوا له[4].

---

(1) هذا تلميح إلى اللقب الذي أطلق على ألفونسو «إل سابيو» *El Sabio* أي الحكيم أو االمتعلّم.

(2) Zúñiga, i. 85 – 8;

(3) ترتيلة تي ديوم لاوداموس Te Deum Laudamus «نسبحك أيها الإله الأعظم». (م)

(4) في سرد أحداث المشهد الأخير الذي ورد في كتاب السّجلات الذي وضعه ابنه، ذُكر اسم فرناندو للمرة الأولى بالقديس سان فرناندو، بعد أن كان الكتاب يشير إليه دائماً بلقب «دون فرناندو» (أي السّيد).

توفي سـان فرناندو في قصر إشـبيلية، ولكـن ثونيغا يقول إنّ «مـن غير المعروف.. الغرفـة التـي توفي فيها والتي كانت سـتكرّس بعد وفاته ككنيسـة أو أنهـا كانت إحدى الغـرف التـي دمّرها بِدرو الطّاغيـة [بطرس الطّاغية] عند بناء قصـره الجديد». نأمل أن نبيّن بأنّ الافتراض الأخير كان واهياً لا أساس له من الصّحة نظراً لأنّ قصر المُعتمِد بن عَبّـاد لا يزال قائماً كما تركه، وتشـير الرّوايات المقبولـة تقليدياً إلى موقع الغرفة حيث توفي فرناندو[1].

كان دم النّورمانديـين يجـري فـي عـروق سـان فرناندو، وكانـت والدتـه بيرنغاريا Berengaria ابنة ألفونسـو التّاسـع ملك قشـتالة وإليانور ابنة الملك هنري الثّاني ملك إنكلترا. تزوجت الأميرة بيرنغاريا ألفونسـو التّاسـع ملك ليـون وبذلك توحّدت هاتان الدّولتان تحت مُلك ابنها فرناندو الثّالث.

لـم يتـم اكتشـاف مـكان ولادته حتـى نهايـة القـرن الثّامن عشـر؛ فمع أنـه كان من المعـروف أنه لم يولد في عاصمة مملكة والده ليون، لم يذكر أيّ واحد من المؤرّخين المبكرين مكان ولادته، ولكن محرّر النّسخة الثّانية لكتاب ثونيغا «*Anales*» المنشورة عام 1795 يسرد القصة التّالية حول هذا الموضوع:

فـي عـام 1755 صـادف أن مـرّ دون دييغـو أليخانـدرو دي غالڤيـث Don Diego Alejandro de Galvez الذي كان يسـافر عبر إسـپانيا وفرنسا وألمانيا والبلاد الواطئة بدير للرّهبان البيض المتقشّفين Cistercian قرب سمورة يعرف باسم دير ڤال پاراييسو Val – Paraiso (ديـر وادي الجنّـة)، فـي عُمـق الغابة. وبعد القـدّاس دعي دون دييغو لتنـاول طعام الفطور مع رئيس الدّير وأثناء تنـاول الفطور ذكر رئيس الدّير، عندما علم بأنّ ضيفه إشبيلي ينتمي إلى كاتدرائية تلك المدينة، أنه مع أنّ إشبيلية لها المجد في أن تحتضن رُفات سـان فرناندو فإنّ لديره مجـداً مماثلاً لأنه بُني في المكان الذي ولد فيه

(1) يوجد في قاعة الفن في إشبيلية لوحدة رسمها السّنيور ماتّوني Señor Mattoni عن وفاة سان فرناندو استناداً إلى دراسة معمقة للإضاءة ولمباني تلك الحقبة. ويعطي الرّسم فكرة ملفتة عن المشهد المؤثر الذي نقله ثونيغا وكتاب السّجلات.

سان فرناندو. وانطلق ليؤكّد بأن الدّير بناه في الأصل «الإمبراطور» ألفونسو (السّادس) قريباً من مكان يسمى بيلياس دي آرّيبا Peleas de Arriba وأن سان فرناندو، رغبة منه في إفادة الدّير وترك نصب تذكاري في مكان ولادته، بنى الدّير حيث هو في الوقت الحاضر في المكان الذي ولد فيه وأوقف له عقارات مختلفة بالإضافة إلى الملكية التي ورثها من مؤسّس الدّير.

أضاف رئيس الدّير أنّ كافة المستندات المتعلّقة بهذين الدّيرين توجد في أرشيف الدّير، وأعرب السّنيور غالقيث عن عميق أسفه من عدم توفر وقت كاف له للاطلاع عليها. وفي السّنة التّالية كتب تقريراً شاملاً عن اكتشافه، ونزولاً عند طلب أمين المكتبة الملكية لفرناندو السّادس الذي ألحّ عليه في ذلك، اضطرّ لإرساله إلى مدريد. لم يُنشر التّقرير، وفي عام 1795 قال إسپينوثا إنه من المستحيل العثور على هذه المخطوطة[1].

ويضيف بأنّ الرّوايات المقبولة تقليدياً لطالما أكدت أنّ سان فرناردو ولد في غابة، ولكن نظراً لعدم التّحقّق مطلقاً من صحّة ذلك خلال القرون الخمسة التي مرّت على وفاة سان فرناندو، لم يكن السّنيور غالقيث أبداً يتوقع أن يتيح له توقّفه العرضي خلال رحلته الأوروبية تحقيق مثل هذا الاكتشاف.

إنّ الطّريقة التي تسلّمت مدريد بموجبها مستندات تاريخية ذات أهمية مثل تقرير غالقيث هذا ووصية سان فرناندو ومن ثم إضاعتها، لهي نموذج على الأساليب التي اتبعها المسؤولون الإسپان في اعتماد المركزية وجلب كل شيء إلى العاصمة ومن ثم عدم الاكتراث والإهمال اللذين ينتج عنهما خسارة أو تدمير ما تسلّمته من المستندات.

والمستغرب كذلك عدم العثور على أيّ سرد مفصّل لجنازة سان فرناندو. أمّا ثونيغا، الذي فحص كافة الحوليّات الموجودة بشكل شامل للغاية، فيخبرنا فقط بأنه جرى دفن جثمان الملك في الأول من يونيو في الكنيسة الملكية الصّغيرة التّابعة لكاتدرائية إشبيلية، وأنّ نعشه وضع عند أقدام صورة السّيدة العائدة للملوك تنفيذاً

(1) Zúñiga, i. 91 note.

لرغبته. ونُقشت على الضّريح الضّخم عبارات باللغات العبرية والعربية والإسبانية واللاتينية[1].

ويقول ثونيغا إنّ جثمان سان فرناندو حُفظ بصورة عجائبية من التّعفُّن. ولا شكّ أنه جرى تحنيطه، نظراً لأنه لا يزال إلى اليوم يحتفظ بمعالم بشرية.

صُنع الرّداء الذي لُفّ فيه جثمان الملك بايدي صنّاع مسلمين. وكان عبارة عن معطف من الحرير المنسوج على شكل مربّعات حمر وبيض على شكل رقعة شطرنج من الأسود والقلاع[2]. وقسم من هذا القماش محفوظ في متحف الآثار في مدريد إلى حيث أُرسل بأمر من الملك كارلوس الثّاني عندما فتح التّابوت خلال إعادة بناء الكنيسة الملكية الصّغيرة. أُلبست الجثة رداء جديداً في القرن السّابع عشر ولا يزال هذا الرّداء عليها، ووضعت في تابوت فضّي حيث ترقد حتى يومنا الحاضر. اختفى خاتم سُحب من يد المتوفى كما اختفت وأتلفت في المتاحف الملكية في العاصمة ذخائر أخرى أرسلت مع أجزاء الرّداء مثلها مثل العديد من الكنوز الفنّية الأخرى. لكن قبل بضع سنوات أنقذت الذّخيرة الثّمينة للنّسيج المصنوع في القرن الثّالث عشر من النّسيان عندما وجدها السّنيور خِستوسو Señor Gestoso، وهو كاتب معروف متخصّص بالفن الإشبيلي، في رزمة مرمية كنفاية في زاوية مظلمة. بدّدت الكتابة التي وجدت على غلاف الرّزمة كل شك بأن هذه القطعة هي كل ما تبقى من المعطف الذي كان سان فرناندو يشتمل به عندما دُفن.

لم يدفن سان فرناندو فحسب في عباءة حريرية من صنع إسلامي، بل كان في حياته يرتدي بين الحين والآخر لباساً مسلماً. وجد السّنيور خِستوسو خلال جمعه المواد لكتابة رسالته حول فنون صناعة النّسيج المسيحية في إشبيلية الرّاية القديمة لأخوية عُرفت باسم أخوية الخياطين *Sastres* تزعم بأنّ سان فرناندو هو الذي أسّسها، وأنها

---

(1) Zúñiga, i. 140.

(2) أعطى الملك ألفونسو العاشر مراراً أوصافاً للعباءات المصنوعة وفق هذا النّمط في كتاب الأناشيد كما في كتاب «تاريخ لعبة الشّطرنج» *History of Chess*.

تملـك راية قدّمها لها الملك نفسـه. وجد السّـنيور خِستوسـو البقايـا الممزّقة من راية هـذه الأخوية في القرن السّـادس عشـر في «درج الخرق» في غرفـة ملابس الكهنة في كنيسـة سان ألدِفونسو، بين الملابس القديمة التي تم التّخلّص منها من جيل إلى جيل. ووجد تحت رسـم مطرّز للملك كارلوس الخامس وسـط الرّايـة صورة مطرزة أخرى لسـان فرنانـدو. فحصنا هذه الرّايـة بدقة كبيرة عبر الغطاء الزّجاجـي الذي يحميها ولم يعد لدينا أيّ شـك بأن الصّورة التي غطتها في القرن السّـادس عشر الصّورة التي تمثل الملـك كارلوس الخامس هي الصّورة الأصلية للملك سـان فرناندو. يضع الملك في هذا الرّسـم على رأسه عمامة إسلاميّة ويرتدي عباءة مدلّاة، ولكن قسمات الوجه بالية تماماً باستثناء لحيته المستدقة[1].

كانت الأخوية تُدعى في الأصل سـان ماتيو دي لوس مينيسـترالِس (الحرفيين) دي سـيڤيّا، وتقـول الرّوايـات المتناقلة إنّ سـان فرناندو منح هذه الأخوية شـرف عضويته وقدّم لها صورته. وإخلاصاً لذكرى علاقة الملك بها، احتفظت الأخوية طوال وجودها بشرف حراسة جثمان الملك لدى عرضه أمام النّاس. كان حقها الثّابت واضحاً لدرجة أنه عندما حاولت أخويات أخرى أكثر ثراءً ونفوذاً إزاحة الخياطين والاستحواذ لنفسها على شـرف حراسـة النّعش، رفعت أخوية الخياطين قضيتها أمام السّـلطات الكنسـية وربحتها بموجب الوثائق التي تملكها والتي تُثبت أصل ادّعائها[2].

يُفترض إذن أنّ الأخوية حرست النّعش منذ البداية، وإذا كان الأمر كذلك فلا بدّ أنّ أعضاءها وقفوا جنباً إلى جنب مع مسلمي غرناطة الذين جاؤوا للإعراب عن إجلالهم للملك المتوفى لإسبانيا المسيحية.

أعلـن ابن الأحمر حال تلقيه نبأ وفاة فرناندو الحداد العام في أنحاء مملكته، وبعث

---

(1) Gestoso, *Noticia historico – descriptiva de la bandera de la hermandad de los sastres*, Seville, 1891.

خِستوسو، وصف تاريخي لراية أخوية الخياطين، إشبيلية، 1891.

(2) كتاب خِستوسو السّابق الذّكر، وZúñiga, i, 145.

برسل للتّعبير عن حزنه إلى الملك ألفونسو مع رسائل يقترح فيها تجديد عهود الصّلح والحلف المعقودة مع الملك الرّاحل والده وفق الشّروط نفسها. «فوافق الملك ألفونسو على الاقتراح وشكر ابن الأحمر على مجاملته»[1].

قام ابن الأحمر بأكثر من التّعبير عن إعجابه ممّا توحي به هذه الفقرة الصّغيرة، لأننا نجد أنه بعد انقضاء ثماني سنوات كان ابن الأحمر لا يزال يرسل ممثلين عنه لتكريم صديقه الرّاحل في ذكرى وفاته.

في 30 مايو 1260، كان الملك ألفونسو في إشبيلية لحضور حفل تأبين في ذكرى وفاة والده سان فرناندو، ونظراً لإعلان قداسته، كان الاحتفال يقوم على تمجيد ذكراه أكثر منه احتفالاً تأبينياً بالصّلاة لراحة نفسه... استمرّت الاحتفالات بقداسته طوال النّهار وامتدّت إلى المساء حيث لم يفتح أيّ متجر أبوابه وتوقّف الصّناع والحرفيون عن العمل. أقيمت في الكاتدرائية منصّة رائعة وُضع عليها التّابوت. وحضرت وفود من مدن *comarca* المقاطعة حاملة راياتها بحيث بدا حضور القدّاس زيارة تبرُّك أكثر منه جنازة. حتى أنّ بعض الوفود جلبت معها شموعاً ضخمة ظلت مشتعلة طوال اليوم. وأرسل ابن الأحمر، ملك غرناطة، الذي ربطته صداقة حميمة بالملك القدّيس عدداً من الأشراف المسلمين ومئة من العسكر الرّاجلين حاملين عدداً كبيراً من الشّموع البيضاء وضعوها حول النّار المشتعلة تكريماً لذكرى الملك الرّاحل.

يقول ثونيغا: «شهدت تلك الأيام أعظم الحشود وأجمل احتفالات الفرح التي عرفتها إشبيلية. احتفل فرسان إشبيلية بعرض مواكب عسكرية، والشّعب بالرّقصات والجميع يهتفون فرحين قديس! قديس! (*Santo!*) هو الذي أتى بفضل التّقوى والعبادة بالمعجزات التي تلاشت تفاصيلها بمرور الوقت، ولكن المؤكد أن معجزات حصلت بالفعل»[2].

عندما نتذكر أنّ معظم سكان إشبيلية كانوا لا يزالون من المسلمين في ذلك

(1) Conde, iii, 39; *Primera Crónica*, 774.

(2) Zúñiga, i, 233.

الوقت[1] في حين لم يكن في المدن المجاورة أيٌّ من سكان قشتالة على الإطلاق فيما عدا الجيوش التي كانت في خدمة الثّري النّبيل (ريكو أومِه) الحاكم عليها، نجد أنّ هذا الوصف للاحتفالات العامّة التي جرت في ذكرى وفاة الملك المسيحي الذي غزا البلاد يقدّم صورة بليغة للأوضاع السّياسية السّائدة في ذلك الوقت. فبدلاً من اعتبار الملك الذي طرد الحكّام الموحّدين عدواً، أجلّه مسلمو إشبيلية وخشعوا لذكراه كقدّيس.

لو لم يصلنا سوى ما كتبه المؤرّخون المسيحيون حول مشاعر حلفائه وأتباعه المسلمين، لكان بإمكاننا أن نعزو بعضاً من الحب الذي شاع بين النّاس لسان فرناندو إلى المبالغة الطّبيعية للكتاب الورعين. ولكن في كل مرة ورد ذكره لدى الكتاب العرب فيما أشار إليه كونده يؤكد الوقائع كما أوردها الكتّاب المسيحيون. ويستحيل النّظر بعين من الشّك إلى واقع أنّ السّكان الذين انتصر عليهم سان فرناندو هم الذين طوّبوه قديساً بفضل المعاملة المنصفة والكريمة التي عامل بها أتباع دين مختلف عن دينه استسلموا دون إراقة دماء من خلال وساطة ابن الأحمر. كان هؤلاء، مع بعض الاستثناءات، كامل سكان ما يُعرف الآن بمقاطعة إشبيلية وجزءاً من قادس، وهم أحفاد اليمانيين والقوط المسيحيين الذين اعترفوا طوال أجيال عديدة بسلطة ذرّية غيطشة.

حتى تاريخ وفاة سان فرناندو، كانت كل المناطق التي حكمتها تباعاً الأميرة سارة وذريتها من سلالة بني حجّاج وبني قومهم من بني عَبّاد ملوك إشبيلية، قد رضيت بحكم أول ملك مسيحي يحكم إشبيلية منذ وفاة غيطشة. كانت المدن الوحيدة المهمّة التي لا تزال غير خاضعة له هي شريش ولبلة وتيخادا التي كان لا يزال الموحّدون يسيطرون عليها. ترك سان فرناندو أرض إشبيلية في سلام وازدهار؛ فلا عجب إذا مجّد هؤلاء الفلّاحون والعمال اسم الملك المسيحي الذي حرّرهم من ظلم طغاتهم

---

(1) تذكر وثيقة منحة مالية قُدّمت إلى الكاتدرائية عام 1263 العبارات التّالية: لأننا وجدنا أن المدينة النّبيلة إشبيلية أصبحت خالية تقريباً من السّكان وباتت مبانيها متهالكة وهُدم العديد من منازلها بسبب أخطاء هؤلاء (المسيحيين) الذين أعطيت لهم وبسبب الرّجال الذين تركوا هذه المنازل خاوية ودونما عناية». (Zúñiga, i, 260.)

الموحّدين، بعد أن أمضوا سنوات عديدة خاضعين لمسلمي أفريقيا، أعداؤهم في الدّين والانتماء القبلي.

انقضت ستة قرون ونيّف منذ أن لحق سان فرناندو بأجداده، ولكن في كل سنة يُفتح النّعش الفضّي الذي يحوي رُفاته وتزاح جانباً السّتائر المطرزة بخيوط الذّهب ويُعرض وجه قديسهم على شعبه كما عرض عليهم في ذكرى وفاته في كل سنة منذ أن مات.

ومع أنّ المملكة التي أقامها ابن الأحمر دُمّرت وتجرّع رعاياه الاضطهاد والنّفي من البلاد قبل قرون عديدة ولم يعد هناك حرّاس شرف مسلمون على النّعش، فالغريب أنّ غرناطة ما زالت ممثلة في الاحتفال من خلال فرقة المشاة التي تحمل اسمها وتحظى بشرف الحراسة في الكنيسة الملكية الصّغيرة عندما يُفتح النّعش ليمرّ أمامه النّاس وينظروا إلى رُفات سان فرناندو. ومخافة أن يطوي النّسيان علاقتهم بسقوط الإسلام في إسپانيا، يجري الاحتفال بذكرى احتلال غرناطة من خلال القفّازات التي يرتديها العسكر، وهي خضراء بلون راية الرّسول.

ولكن احتفالات مهرجان سان فرناندو المستمرّة منذ ثلاثين جيلاً لا تتمحور حول الانتصار على إشبيلية ولا هزيمة «الكفّار»؛ بل هو السّلام الذي منح للفقراء والمحتاجين والعدالة غير المنحازة التي جعلت السّلام ممكناً، الذي يعاد استذكاره في شعائر الصّلاة في مزار القديس المحارب «الأكثر إخلاصاً والأجود كرماً، هو الذي ما كان يخشى غير الله وإليه كرّس ابتهالاته»، هو الذي أدخل النّاس في ملكوت الله لا بالقوة وإنما بالقدوة الصّالحة.



الفصل الحادي والعشرون

الإسلام تحت حكم المسيحيين

إنّ أكثر ما يميّز السّياسة التي اتّبعها فرناندو بعد استسلام إشبيلية كانت إصراره على عدم ممارسة أيّ تمييز بين أتباع الدّيانتين. بالإضافة إلى ابن الأحمر ملك غرناطة الذي شكّلت قواته جزءاً من جيش فرناندو، كان ملوك مُرسية وبيّاسة وبلنسية تابعين أو حلفاء له، ويبدو أنهم شاركوا في حصار إشبيلية[1] وورد اسم ابن الأحمر قبل اسم أيّ من الفرسان المسيحيين في سجل المكرّمين لقاء خدماته؛ ومنذ تلك اللحظة حتى وفاة سان فرناندو بعد أربع سنوات يبدو أنّ الملك سعى بكل جهد للحكم بالعدل بين أتباعه الجدد، ليس كمكافأة للخدمات التي قدّموها في الميدان فحسب بل في كافة التّفاصيل المشتركة للحياة اليومية.

منح سان فرناندو الملك ابن الأحمر رتبة فارس يوم دخوله إلى إشبيلية، ويقول

---

(1) تنصّر ملك بلنسية سيد أبو زيد (يدعوه ثونيغا: Seit Abuceit) وهو من بني حفص (see Gayangos in Makkari, ii. 528) فيما بعد واتخذ اسم ڤيسِنتِه ڤلبيس Vicente Velbis وعُرف في التّاريخ الإسباني على صلة بالظّهور العجائبي للصّليب الذي يُكرّم في كاراباكا. إنه صليب مزدوج بأربعة أذرع تسنده ملائكة مجنحة، ويشتهر حتى يومنا الحاضر بتحقيق تأثير عجائبي على الأمراض التي تصيب الماشية. تنصّر ملك بيّاسة بدوره واتخذ اسم فرناندو عبد المون Fernando Abdelmon ودفن جثمانه في كاتدرائية إشبيلية (Zúñiga, i. 50). يقول مؤلف كتاب «مذكرات حياة فرناندو الثّالث» *Moemorias para la vida de Fernando III* الذي يشير إلى مرسوم بابوي صدر تأكيداً لذلك أنّ كلّاً من زيد بن زيد Zeyt Abenzeit وولده تلقّيا المعمودية وأعلنا انتماءهما إلى سلك فرسان سانتياغو الذين منحهم الابن كافّة أراضي مملكة سِلا التّابعة له في أفريقيا التي بموجب حقه في الخلافة (صفحة 562).

ثونيغا في هذا السّياق إنّ الملك منحه شعاراً «وشاحاً بلون النّبالة الأحمر وعلى أطرافه رؤوس تنانين أو رؤوس أفاعٍ، مكافأة له على ولائه وخدماته». ينبثق الوشاح من أفواه تنانين أو أفاعٍ، وتجدر الملاحظة هنا أنه في ترجمة إسپانية لماريانا (ii. 625) إشارة إلى رسم على الخشب يمثّل سيفاً ضمن مستودع الأسلحة الملكي في مدريد يقال إنه كان مُلكاً لآخر ملوك بني نصر في غرناطة. ويتكوّن مقبض السّيف من رأس تنّين بلسانين متدلّيين إلى الخارج[1].

يؤكّد كوندِه الوصف الذي أعطاه ثونيغا لشعار النّبالة الذي منحه الملك فرناندو إلى ابن الأحمر، لكن دون أن يذكر أن فرناندو منحه رتبة فارس كما هو متوقع فيما نقله عن كاتب عربي. يقول الكاتب:

«اتّخذ (ابن الأحمر) شعار النّبالة المكوّن من وشاح فضي مائل بلون أزرق كُتب عليه بأحرف ذهبية «لا غالب إلا الله» نظراً لأنّ رعيّة ابن الأحمر كانوا يحيّونه بلقب «الغالب»، فكان يرد عليهم بقوله: «لا غالب إلّا الله». وكان طرفا الوشاح يخرجان من أفواه تنانين. استعمل خلفاء ابن الأحمر هذا الشّعار دائماً رغم أنهم غيّروا ألوان الدّرع الذي كان في العادة أحمر أو أزرق أو أخضر، كما غيروا ألوان الوشاح، ولكن كافة التّغييرات حملت شعار ابن الأحمر»[2].

لا شك في أنّ غالبية السّكان كانوا من المسلمين، أو على الأقل الطّبقة العاملة من بينهم، باستثناء المحاربين، وكبار أثرياء النّبلاء، والنّبلاء، والكنهة وأعضاء الأخويات والرّهبانيات الدّينية الذين وُهبوا المنازل والأراضي التي بقيت خاوية بعد أن هجر أهلها غرناطة وشريش وغيرها من المدن، أو تلك التي تركها الموحّدون الذين رحلوا إلى أفريقيا. صحيح أنّ كتاب الحوليّات يتحدّث عن أعداد أتباع المعسكرات، من التّجار وغيرهم ممّن كانوا موجودين مع الجيش المحاصِر (راجع الصّفحة 328 طبعة الأصل)؛ لكن من الواضح أنّه لا يمكن لهؤلاء الذين كانوا يقومون على خدمة الجيش

(1) Zúñiga, i.49 – 50; cf. Williams, *Arts and Crafts*, i. 230.
(2) Conde, iii. 38.

الذي لم يكن جيشاً جرّاراً بأيّ حال، أن يسهموا في إعمار وملء مدينة كبيرة، عدا عن الضّواحي والسّهول المزروعة بكثافة والمناطق الرّيفية المحيطة بها.

فكّر الملك في أوائل الخمسينيات من القرن الثّالث عشر بالذّهاب إلى قشتالة، ولكنّ ابنه وبعض أفراد حاشيته بيّنوا له مخاطر مغادرة المدينة. ويبدو أنّ سان فرناندو لم يكن يرغب في التّخلّي عن خطته ولكنه اقتنع في نهاية الأمر، حسب ما يؤكد ثونيغا، بتأثير من مهرّج الملك. كان هذا المهرّج، الذي عُرف باسم پاخا Paja (قشّة) كتوماً ولكنه كان مرحاً بحيث كان الملك يُسَرّ ويستأنسه بحديثه. وبينما كان سان فرناندو لا يزال متردّداً حول السّير إلى قشتاله، دعاه المهرّج پاخا إلى حفلة سمر على قمّة البرج (الخيرالدا). قَبِل سان فرناندو الدّعوة وعندما وصلا إلى أعلى البرج أخبره المهرّج أنّ الحفلة التي أراد أن يقدّمها له كانت المنظر الرّائع للمدينة التي احتلّها الملك، والأسوار المهيبة المزيّنة برايات الأثرياء النّبلاء المكلفين حراستها. ولكنه بيّن أيضاً للملك الجزء الكبير من الأحياء التي مُنحت إلى المسيحيين التي كانت خالية من السّكان، وأشار إلى مدى اكتظاظ الأحياء التي يقطنها المسلمون. أكّد المهرج انه في الموقعين كليهما تظلّ المخاطر التي لا يمكن تجنّبها ماثلة في حال قرّر الملك مغادرة المدينة، كما يظل أيضاً قائماً حتى خطر خسارة المدينة مجدّداً. استمع فرناندو إلى أقوال مهرّجه ووافق. وأنهى ثونيغا روايته بالقول: «هذا ما ينبغي أن يكون عليه مهرّجو الأمراء في كل زمن»[1].

تكمن أهمية القصة في أنها أشارت إلى العدد الضّئيل من السّكان المسيحيين بعد انقضاء سنة على استسلام إشبيلية، كما أنها أظهرت كم كانت حصيفة سياسة فرناندو في عدم التّمييز ضدّ أتباعه من المسلمين أو وضع عراقيل في وجههم.

في عام 1250، منح فرناندو إلى مدينة إشبيلية الامتيازات *Fueros* المعطاة لطُليطلة، ولكن في حين أنّ الامتيازات مُنحت في طُليطلة إلى «المستعربين والقشتاليين والرّجال الأحرار *Francos*، مُنحت الامتيازات في إشبيلية إلى «كافة السّكان» *Todos los*

(1) Zúñiga, i. 61.

vecinos. وكما يقول ثونيغا. «مُنحت المكرمة إلى كافة سكان إشبيلية من الأشراف والمواطنين والتّجار والبحّارة والعمّال بصورة مشتركة، كل الحقوق والإعفاءات والاستثناءات والسّلطات التي تتمتع بها طُليطلة، دون أيّ تحفّظ من أيّ نوع وبإضافة امتيازات أخرى». شجّعت المكرمة تربية الخيل وأعطت امتيازات مهمّة إلى «من تربطهم علاقة بالبحر» الذين أعفوا من الخدمة العسكرية مقابل الانخراط في الخدمة البحرية، والذين خُصّصت لهم محاكم خاصة وصدرت من أجلهم قوانين خاصة[1].

لم يحسن سان فرناندو وابنه معاملة المسلمين فحسب، بل عاملا اليهود بالمثل. فاستمرّ هؤلاء في العيش في الحي اليهودي الكبير الذي سكنوه في السّابق وأعطيت

(1) (Zúñiga, i. 62 – 7) توجد مجموعة كاملة من القوانين التي صدرت منذ عهد الملك هنري الثّالث حتى بداية القرن التّاسع عش،ر والتي هدفت إلى تشجيع وتنظيم مهنة استيلاد وتأصيل الخيل (*No-vicimo Recopilacion*, Bk. Tit. 29). تملك الدّولة في اليوم الحاضر عدّة مزارع لخيول الاستيلاد وتحتفظ بمجموعة من الخبراء والمساعدين لرعاية هذه الخيول. وتم تطوير نظام مزرعة استيلاد الخيول في إسبانيا المسلمة في وقت مبكر من القرن التّاسع. وخلال حكم الحَكَم الأول (822 – 852) كانت توجد مزرعة كبيرة للخيول ومدرسة لتدريب الفرسان على ضفاف نهر الوادي الكبير في قرطبة يملكها الأمير. «وكان له ألفا فرس مرتبطة على شاطىء النّهر بإزاء القصر تجمعها داران على رأس كل دار عشرة عرفاء تحت يد كل عريف مئة فرس. فالعرفاء يشرفون عليها وتعلق بين أيديهم وينظرون في تعويض ما تعذّر منها لتكون معدّة قائمة لما عسى أن يفجأ من أمر يفزع إليه بها. فإذا كانت كانوا كنفَس واحدة». لكن كان يسمح لمدرّب واحد فقط في الحضور أمام الأمير عند دعوته له. وفي إحدى المرات أتاه الخبر بحصول ثورة في جيان «فدعا بأحد أولئك العُرفاء، فلما مثل بين يديه أسر إليه بالخروج إلى جيان إلى ابن لبيد من وقته في عرافته، وأمره بألّا يعرِّف أحداً وجه طريقه (..) فلما مضت ساعة دعا بثانٍ من عرفائه، فسرَّ إليه بمثله، ودعا عشرة فخرجوا متتابعين لا يعلم أحد منهم بقصد صاحبه حتى تساقطوا على ابن لبيد في اليوم الثّاني.. » (الاقتباس العربي من أخبار مجموعة، 117 – 118) (*Akhbar Majmua*, 116 – 7, and note). كما لم يكن أمر استيلاد وتربية الخيول محصوراً بالسّلطان وحده، فقد ذكر ابن حيّان في تأريخه للحرب الأهلية التي استمرّت طوال فترة حكم الأمير عبد الله أنه في عام 889 قام قائد يماني كان قد بنى لنفسه قلعة قوية في مقاطعة إشبيلية غير بعيدة عن لبريخا بغزو جزيرة مجاورة (تقع لبريخا قريباً من نهر الوادي الكبير) التي كان المنذر، عم السّلطان يحتفظ فيها بمزرعة لاستيلاد الخيول، وبعد ان قُتل عريف المزرعة نقل كافة الجياد والافراس التي عثر عليها إلى قلعة قوية اخرى تبعد عشرة أميال عن إشبيلية (Makkari, ii. 449).

لهـم ثلاثة مسـاجد لتحويلها إلى معابـد لهم (كُنُس). واسـتمرّوا في دفـع الجزية التي كانوا يقدّمونها إلى الملوك المسلمين، وكانوا يلقون معاملة جيدة من قبل أمناء الخزينة والمحاسبين اليهود، خدّام الملك الذين رافقوه من قشتالة، «واستقرّوا في هذه المدينة لكونهـا الميناء العام للكـون والسّـوق الأمثل لتجارتهم». سـمح مرسـوم ملكي آخر لسكان إشبيلية بشراء عقارات من المسلمين ولكنه منع القيام بأيّة محاولات لإجبارهم على البيع حيث بدأت تظهر دلائل تشير إلى مثل هذه الممارسات[1].

تتكـرّر الإشـارة فـي مختلـف مسـتندات المنـح والامتيـازات إلـى ضريبة تسـمى «ألموشـاريفاثغو»[2] *Almojarifazgo* التي كانت ضريبة استيراد وتصدير تفرض على السّـلع، وكان المسـلمون فـي الأندلـس فرضوها على السّـكان وأبقاها سـان فرناندو سارية المفعول كما وجدها[3]. خصّص فرناندو للكاتدرائية عُشر إجمالي تلك الضّريبة التـي تُجمع من إشـبيلية وحوّلها ألفونسـو فيما بعد إلى دفعة سـنوية بقيمة 5300 دينار مرابطـي[4]. تطوّرت ضريبة الموشـاريڤاثغو فيما بعد إلى رسـوم جمركية. وكُتب على أول دار للجمارك بنيت في إشـبيلية عام 1587 نقش يقول: بنت إشـبيلية دار الجمارك هذه لخدمة جلالته بعد أن تولّت جمع ضرائب الموشاريڤاثغوس»[5].

فـي مقدّمـة كتابـه «ريپارتيميينتـو» *Repartimiento* (سـجلّ المِنَـح والهبـات من المنـازل والأراضي التـي منحها فرناندو وابنه بعد احتلال إشـبيلية) يعلّـق أرغوتِه دي مولينـا Argote de Molina علـى قيمـة السّـجل لكونـه يحتـوي «بيانـات عـن جميع الأمـراء أبناء الملك، والأسـياد العظـام، الكونتـات، الأثرياء النّبلاء، والسّـادة، ونبلاء *hijosdalgo* كافة ممالك قشـتالة وليون والفرسـان *caballeros* الفرنسـيين، وفرسان أراغـون، وناڤـارو، والبرتغال، وإيطاليا والفرسـان المسـلمين الذين كانـوا موجودين

(1) Zúñiga, i. 194 – 6, 208.

(2) الكلمة عربية الأصل نسبة إلى المُشرف *Almojarife* على جباية الضّريبة. (م)

(3) *Dict. Of the Academy*, s. /v.

(4) Zúñiga, i.349 – 50.

(5) Zúñiga, iv. 120.

وقت احتلال إشبيلية، وأسماء المستوطنين والمنح المقدّمة إليهم» وإلى آخره. يخبرنا ثونيغا أنّ هؤلاء الفرسان المسلمين الذين مُنحوا أملاكاً في إشبيلية كان قسم منهم أولئك الذين ظلّوا في المدينة، والقسم الآخر الذين كانوا يعيشون مع ملك غرناطة وسكنوا في الحيّ المعروف باسم أدواريخو Aduarejo وموريريا Moreria حيث بقوا فيه حتى تمّ طردهم» (في القرن السّابع عشر)[1].

مُنح ابن ملك بيّاسة (انظر أعلاه) منزلاً في أبرشية سانتياغو. وبعد سقوط لبلة عام 1257 حصل حاكم تلك الدّولة الصّغيرة (انظر الصّفحة 310 طبعة الأصل) على مزرعة أو ضيعة في الرّيف *alqueria* سمّيت الغربي Algarbejo تيمّناً بممتلكاته السّابقة في الغرب، وبستان *huerta* ابن الحفار Ben Alhoar[2] الواقع قرب إشبيلية الذي أُطلق عليه اسم بستان الملك سوية مع حقوق محدّدة في ضريبة الزّيت من الشَّرَف وفي الجزية التي يدفعها اليهود[3]. وأصبحت هذه الأرض التي تقع مباشرة خارج خط أسوار المدينة القديمة جزءاً من أراضي قصر إشبيلية، ولا زالت تعرف باسم بستان الملك (أويرتا ديل رَي *huerta del rey*).

حصل ملك غرناطة على ما يبدو على أحد أجمل منازل إشبيلية، لأننا نقرأ بأنه في حوالي عام 1251 أُرسل سفير من المغرب لتهنئة فرناندو بانتصاراته، وبُغية تكريم السّفير أقامه ضيفاً على ملك غرناطة الذي كان في إشبيلية في ذلك الوقت[4]. لا يذكر كوندِه هذا

---

(1) Zúñiga, i. 195.

لا توجد كلمة «أدواريخو» في قاموس الأكاديمية *Dictionary of the Academy*، ولكن كلمة "Aduar" المشتقة من الكلمة العربية «الدّوّار» التي تعني مخيماً او رقعة يخيّم فيها البدو. فهل كان الأفارقة أو الموحّدون يطلقون تسمية البدو على اليمانيين؟ التّمييز في الاسم يثير الفضول. قلت: هذا تعميم غير مبرّر من ويشو، فالدّوار لا يختصّ بديرة أو مضارب البدو وحدهم، بل يمكن أنّ يعني منطقة مأهولة في ربض يتبع لمدينة. (أحمد)

(2) ورد في هذه الصّفحة أن الاسم هو Ben Alhoar ثم يعود المؤلفان إليه لاحقاً ويرد باسم Ben Alhofar، والاسم الثّاني هو الأصح والأقرب إليه ابن الحفار وهو من الأسماء الواردة لدى المقّري بوصفه خطيباً من أصل يمني (ج 2، 694). (م)

(3) Zúñiga, i. 182, 222; Conde, iii. 42.

(4) Zúñiga, i. 85.

السّـفير ولا استضافة السّفير من قِبل ابن الأحمر ولكن المقّري[1] يقول إنّ ابن الأحمر كان طوال حياته تربطه علاقات صداقة وعلى اتصال دائم مع بني مَرين الذين بعثوا الرّسول للتّهنئة. تفترض قصة ثونيڠا المرتبكة أنّ السّفير كان من الموحّدين، ولكن هل يُعقل أن يهنئ الموحّدون فرناندو على انتصاراته بعد أن طردهم من آخر أملاكهم الإسپانية؟

في ملخّص سجل "*Repartimiento*" المنشور في كتاب ثونيڠا[2] وردت بعض الأسماء التي يبدو أنها من أصل عربي مثل Alarcon: الأركن، Tafur، Aznar، Torcat، "Venavet": ابن عَبّاد؟ والذي يفترض ثونيڠا أنه كان واحداً من «أشهر الرّجال العشرة» الذين جرى تعيينهم كقضاة وتكليفهم مهاماً محدّدة. ولا شك أنّ البحث المعمّق في كامل السّجل قد يكشف عن المزيد من هذه الأسماء. ثونيڠا يذكر فقط أصحاب الشّأن والمكانة الرّفيعة. ويذكر سجل «*Repartimiento*» أسماء أشخاص أدنى منزلة يحملون أسماء عربية مُنحوا قطعاً أصغر مساحة من الأراضي[3].

توجد ملاحظة مثيرة للاهتمام لدى ثونيڠا حول استعمال كلمة «تابع» في ذلك الوقت. والأثرياء النّبلاء الذين كانوا يدفعون الأجر إلى رجال الحرس النّبلاء *Infanzones* أطلقوا على هؤلاء اسم «تابعين» واعتبروا أنهم تابعون لقوّاتهم الخاصّة أو فريق حراستهم «المساندة» *mesnada* وأطلق أيضاً على أفراد مساندة الملك لقب تابعي الملك[4]. كان رجال الحرس النّبلاء طبقة من النّبلاء *Hijosdalgo* الذين يتمتعون بسلطات محدودة في مناطقهم. يفسّر ذلك واقع أنه على الأقل في حالة واحدة (في عام 1255) شهد ڤيكونتا بيارن وليموج على منحة وهبها ألفونسو بوصفهما «تابعي الملك»[5].

---

(1) Zúñiga, ii. 344.

(2) Zúñiga, 162 – 88.

(3) Rspinoza, Pt. II. Fo. 14 r.

(4) i. 180.

(5) *Memoirias para la vida de Fernando III., P. 397.*

يعطـي ثونيغـا تفاصيل وثيقـة منحة أخرى شـهد عليها هـذان النّبيـلان ولكن ليس بصفتهما تابعين[1]. ونظراً لأنه تم توقيع هذه الوثيقة قبل أن يصبح ألفونسو إمبراطوراً، لم يوقّعا بالتّأكيد عليها كتابعين للإمبراطورية (في حال كانت منحة النّبالة إمبراطورية) كمـا لـم يكن هـذان الفيكونتـان الاثنـان خاضعين أو تابعيـن وفق المفهـوم الاعتيادي للكلمـة. فالافتراض إذن هو أنهما شـكّلا جزءاً من حرس الشّـرف التّابع للإمبراطور. وملوك غرناطة ولبلة وبيّاسـة المسـلمون الثّلاثة الذين غالباً ما نجد توقيعاتهم كشـهود علـى الوثائق الموقعة من قبل الملك ألفونسـو، كانوا بلا شـك تابعين له وفق المفهوم الاعتيادي للكلمة مع أن من المحتمل انهم كانوا جزءاً من حرس الشّرف أيضاً.

كان الإمـداد الوفير للميـاه، للرّي كما للاسـتعمال المنزلي، مسـألة تحتلّ الأولوية بالنّسـبة للمسـلمين كمـا نعلم. ولقد قدّر فرناندو الثّالث وألفونسـو العاشـر وسـانچو الرّابـع ملـوك قشـتالة الثّلاثة الأوائـل الذين حكموا إشـبيلية فضيلة النّظافـة بطريقة لم يفعلها بعض خلفائهم، واتخذوا جميعاً إجراءات للمحافظة على إمداد المياه.

تلقّـى مجلـس مقاطعة إشـبيلية منحة دائمـة في ملكيـة المطاحن المقامـة على نهر الرّحـى مع كافة مبانيهـا، وحقوقها ومرافقها مقابل تزويد الميـاه من القناة الاصطناعية المعروفة باسـم كانيـوس *Caños* إلى «قصور الملك في قصر إشـبيلية»، وبسـتان ابن الحفـار Huerta de Ben Alhofar وإلـى بركتـي ميـاه في إشـبيلية». كان على مجلس مقاطعة إشـبيلية ان يحافظ ويصون أقنية المياه وقسـاطل المدينة وكاتدرائية سانتا ماريّا وكذلك قساطل المياه المؤدّية إلى قصر إشبيلية. وبالإضافة إلى ملكية المطاحن، التي كانـت ذات قيمة عظيمة، اسـتلم المجلس ألف دينار مرابطي سـنوياً مقابل القيام بهذه المهمات[2].

كان يتـم جـرّ المياه إلى إشـبيلية مـن قلعة جابر عبر قنـاة اصطناعيـة رومانية لتزويد معظم المنازل الكبيرة القديمة في إشـبيلية إمّا عبر منحة أصيلة من التّاج أو عبر شـرائها

(1) Zúñiga, i. 202.
(2) Zúñiga, i. 358 – 9.

لاحقاً، وهي باتت تُشكِّل اليوم جزءاً من الملكية المطلقة للعقار. وهكذا جعلت حقوق المياه هذه، القديمة وشديدة التّعقيد، من الصّعب بمكان على المجلس الإشراف على إمـدادات المياه كاملة من قناة «كانيوس» لاستعمالها فـي المدينة كما كان يتم اقتراحه تكراراً بهدف جعل إمداد المياه إلى إشبيلية كافياً لسدّ الاحتياجات الرّاهنة.

لـم ينفّذ المجلس، بقدر ما تتيح المعلومات المتوفرة المجال للحكم، في أيّ وقت مـن الأوقـات المهمّات المطلوبة منـه بموجب الاتفاق القاضي بإبقاء شـبكة الأنابيب فـي حالة صالحـة للاسـتعمال. والأنابيب الرّصاصيـة والفخارية التي تنقـل الماء عبر المدينـة تضـرّرت إلـى درجة كبيرة بسـبب تراكم التّرسّـبات على مدى قـرون، فضاق قطرهـا إلى نصف او حتـى ربع حجمه الأصلي. كما كانت توجد نقاط تسـرّب عديدة علـى طـول قناة جرّ الماء بالإضافة إلى ثقب كبير فيها بالقرب من إشـبيلية تتسـرّب منه يوميـاً آلاف الغالونات التي تذهب هدراً منذ مـدّة لا يمكن لأيّ كان تحديدها. ونتيجة لهـذا الإهمال الدّائم تعاني إشـبيلية من نقص المياه في الوقـت الرّاهن على الرّغم من الإمـداد اللاحـق الذي أمّنته شـركة المياه الإنكليزيـة. وللمقارنة كانت قنـاة جرّ المياه خلال العهود الإسـلاميّة كافية لتلبية ليس الاحتياجات المنزلية لمدينة مكتظة بالسّكان فحسـب، بل وأيضـاً احتياجات حمّامات عديدة موزعة في المدينة لا شـك أنها كانت كبيرة في الحجم والأهمّية نظراً لكونها موضوع منح خاصة كما ورد في سـجل المنح «*Repartimiento*».

كان يملـك ثلاثة مـن هذه الحمّامات، سـويّة مع عدد كبير من الأمـلاك الأخرى، رجل واحد يسـمى «دُون سُليما» Don Zulema. ورد اسم هذا الشّخص تكراراً في سجل المِنح ولكنّـه لـم يُذكـر لا في كتـب ثونيغا ولا فـي كتاب الحوليّات. وشـغل هـذا الرّجل منصب مفـوض الملـك. وثمّة رسـالة من فرناندو إلى دون سُـليما يتوجّه إليه فيهـا بقوله «مفوّضي الخاص دُون سُليما»[1]، ويبلغه أنه منح كنيسة طُليطلة ألف دينار مرابطي من الجزية السّنوية التي يدفعها ملك غرناطة ويأمر دُون سُـليما، الذي عليه أن يجمع الإيجارات، أن يدفع هذا

(1) بالإسپانيّة: "*vos Don Zulema, mio mandadero*". (أحمد)

المبلـغ إلـى سـلطات طُليطلة أو إلى ممثليهـم[1]. كان دون سُـليما يهودياً كمـا أخبرنا دُون أنطونيـو باتّيسـتيروس Don Antonio Ballesteros الـذي يجـري بحثـاً خاصاً حول تلك الفترة، كما كان رجل الأعمال الرّئيسي في بلاط سان فرناندو.

مُنحت الحمّامات الملكية إلى خوانا دي پونتيو، أرملة سان فرناندو. لا يذكر ثونيغا عدد هذه الحمّامات ولكنه يشـير إلى أنّ حمّامين منها كانا لا يزالان يحتفظان بشكلهما الأصلي ويُسـتعملان بصورة اعتيادية عندما ألّف كتابه. كان أحد الحمّامين في أبرشـية سـان خوان دي لا پالمـا (المبنـى الذي أضافتـه الملكة اعتماد في عام 1086، انظـر الصّفحة 217 طبعة الأصل) وكان مبنياً كما تقول التّقاليد في الشّارع الذي لا يزال يسمّى شارع القصور. ويوجد الحمّام الآخر في أبرشـية سـان ألدِفونسـو. وجرى تحويـل الحمّام الثّالث فـي زمن ثونيغا إلى دير لراهبات رهبنة تدعى باسـم يسـوع. كان هذا الحمّام في الحيّ المعروف باسم سان ڤيسنتِه وإلى فترة قريبة كان الشّارع الذي بُني فيه لا يزال يحمل اسم «شارع حمّامات الملكة المسلمة»[2] *calle de los baños de la reina mora*. وبالفعل حتى يومنا الحاضر، ومع أنه أعيد تسـميته رسـمياً باسم شـارع المركيز دي تابلانتيس، لا يزال يسـمّيه عامة الشّعب، أغنياء كانوا ام فقراء، شـارع الحمّامات *calle de los Baños*. كانت هناك حمّامات ملكية أخرى ولكن هذه الحمّامات الثّلاثة هي الوحيدة التي وردت تفاصيل عنها[3].

منح ألفونسـو حمّاماً في سـان سـلڤادور إلى أبرشـية إشـبيلية، وذُكر أنه منح حمّاماً آخـر إلى كاتدارئية مقاطعة ريانثويلا Rianzuela الرّيفيـة مع مرافق متنوعة والطّاحونة «والتي كانت جميعها في السّابق ملكاً للأمير دون فادريكِه Don Fadrique» أحد أبناء الملك ألفونسو الحادي عشر[4].

---

(1) *Memorias, etc., 537 – 8.*

(2) بالإسپانيّة: كاتّيِه دي لوس بانيوس دي لا رينا مورا. (أحمد)

(3) Zúñiga, i. 162.

(4) *Ib.* i. 352 – 3.

كان المبنى الذي يعرف الآن باسم دير سانتا كلارا قصر هذا الأمير ولا يزال يوجد برج يحمل اسمه في حديقة الدّير.

يذكر ألونسو مورغادو الذي ألّف كتاباً في أواخر القرن السّادس عشر بعض هذه الحمّامات ويقول: «توجد في الغرف الواسعة حيث يستحمّ النّاس أنابيب تجري فيها مياه ساخنة وباردة يستعملها المستحمّون مع مرهم يُعطى لهم للانتعاش وتنظيف أبدانهم، وليس من المستغرب في إشبيلية أن تذهب سيدات إلى الحمّام بصورة علنيّة، لانّ هذه العادة سائدة هناك منذ الأزل»[1].

يقيم مجلس المدينة في كل صيف على ضفتي النّهر حمّامات عامّة لاستعمال الفقراء، ويحدّد أوقات استعمالها من قبل الرّجال والنّساء على التّوالي، كما كان يُتّبع في الحمّامات العامة التي وصفها مورغادو في القرن السّادس عشر. تقول الرّوايات المتناقلة تقليدياً إنّ تاريخ إنشاء هذه الحمّامات يعود إلى زمن غابر، وبالتّأكيد لم تُبنَ حمّامات منذ محاكم التّفتيش ولا نشعر بأي تردّد في التّأكيد بأنها إرث من عهد الحكم الإسلامي.

نأمل في المستقبل أن نشير إلى النّظافة البدنية التي تميّز بها سكان الأندلس، وما يثير الدّهشة فعلاً استمرار الحرص على النّظافة الشّخصية طوال قرون طويلة رغم معارضة الكنيسة والاضطهاد الذي مارسته محاكم التّفتيش ضد المسلمين[2].

لم ينظّم سان فرناندو توزيع مياه الشّرب وحقوق الحمّامات بدرجة دقيقة فحسب، بل إنه تبنى الأنظمة الإسلاميّة فيما يخصّ تنظيف أو جرف قاع نهر الوادي الكبير وغيره من جداول المياه، وشدّد على ذلك في حال قرّر المسيحيون استخدام هذه الأنهر للتّجارة. فرضت ضريبة على المراكب «التي تقوم من إشبيلية برحلات بحرية من وإلى قُرطُبة» كما ورد ذكر الرّسوم الملكية المفروضة على «التّحميل» المتوجّبة على المراكب المبحرة عبر نهر وادي لكّه إلى شريش. ومنذ قرون عديدة لبثت هذه الممرات المائية القيّمة مغلقة أمام الجميع باستثناء زوارق التّجذيف، وذلك بسبب

(1) ذكر في كتاب پالومو *Riadas* ،Palomo، ص 144.

(2) في إحدى المرات تعرّض بستاني للتّعذيب لأنه غسل جسمه في البستان الذي يعمل فيه؛ وفي عام 1566 حُرّم استعمال الحمامات تحت طائلة عقوبات شديدة (Lea, *Moriscos*, pp. 129, 229).

تراكـم الطّمي في مجاريها نتيجة الإهمال. وفي عهد الحكم الإسـلامي كان يتم تأجير الطّواحيـن العاملـة بالميـاه المقامـة في أعلـى مجرى النّهر فوق إشـبيلية بشـرط إكراء الجداول المائية التي تزوّد المطاحن بالمياه؛ ومنح الملوك المسـيحيون الأوائل عقود أيجار تخضع لهذا الشّرط عينه[1].

يبـدو أنّ سـان فرناندو هـدف من خلال كافـة القوانين التي أصدرها إلى أن يقسـط بالعـدل بيـن كافة رعاياه بصورة متسـاوية من دون التّمييز لجهة الدّين، لأنّ المسـلمين كانـوا مُعفيـن مـن دفع ضرائـب معيّنـة، ونصّت هـذه القوانيـن على وجـوب أن يدفع المسلمون فقط ما كانوا يدفعونه إلى «أمير المؤمنين» قبل الاستسلام.

وكان الملك ألفونسو العاشر، عند تجديد امتيازات عقد يعيد الشّروط التي وضعها والـده «النّبيـل الأكرم، صاحب الحضرة السّـامية، والمقام الأشـرف، الذي أغدق الله عليـه بالنّعـم، الملك دون فرنانـدو» ويفرض على كل المعنيين بالأمـر المحافظة على القانون:

«ولا يدعـوا أيّـاً كان أن يتجاسـر على أن يمسّ امتيازاتي هذه أو ينتهك شـروطها أو يقلّل من شأنها بأيّة طريقة كانت. فمن يأتي أو يرغب في أن يأتي بمثل هذا الفعل سوف يحلّ عليه غضب الله جلّ جلاله وسوف ينزل مع يهوذا الخائن إلى الدَّرَك الأسفل من الجحيـم، وإلى ذلك سـوف يحلّ عليه غضبي، ويدفع لي غرامـة ألف ليرة ذهباً ويدفع لهم [للمتضرّرين] ضعفي قيمة الأضرار التي لحقت بهم، ونظراً لأني صاحب الامتياز فـي منحتي هذه، ولأنّ حقوقي هذه ينبغي أن تبقى أكثر حزماً وإلزاماً وقائمة إلى الأبد، بناءً عليه آمر بأن يُختم مستند المنحة بختمي الذّهبي»[2].

---

(1) Zúñiga, i. 200.

(2)Zúñiga, i. 201.

من الجدير بالملاحظة أنّ الأختام على مستند منحة قدّمها سان فرناندو كانت مثبتة بأشرطة باللونين الأحمر والأصفر، الأمر الذي يؤكّد أن ملوك قشتالة تبنّوا هذين اللونين طوال أكثر من قرنين قبل اكتشاف أمريكا، ونتيجة للمعارك التي دارت في تلك القارّة بات يطلق على العلم الإسپاني اسم «نهر من الدّماء بين جدولين من الذّهب».

ثم يوقّع الملك المستند ويطلب من ثلاثة أمراء من ذوي النّسب الملكي، وثلاثة رؤساء كهنة وثلاثة ملوك مسلمين، واثنين من الڤيكونتات الفرنسيين وعشرين أسقفاً منتخبين، والسّادة العظام لرتبتين عسكريتين وخمسة وثلاثين فارساً وثريّاً نبيلاً من أرفع الشّخصيات في الدّولة أن يوقّعوا كشهود على المستند.

وهكذا، كان واضحاً أنّ منزلة المسلمين المنهزمين من أرض إشبيلية كانت محفوظة مثلهم مثل مواطنيهم المسيحيين، طالما كان سان فرناندو والملك الحكيم ألفونسو يقسطان بالعدل بينهم. فلو واظب خلفاؤهما على التّعامل بهذا القدر من السّخاء والحنكة السّياسية في تدبير شؤون الدّولة مع هؤلاء القادمين على البلاد من أقوام غريبة، لكان من المحتمل أن تحتفظ إسپانيا طوال هذه القرون بمكانتها التي شغلتها حينها بوصفها أعظم دولة متنوّرة والأكثر ازدهاراً في أوروپا.



الفصل الثّاني والعشرون

مصر والكنيسة في إشبيلية

تابعنا في الفصل السّابع تأثير الأقباط على الفنون والحرف في إشبيلية، وسنتناول في هذا الفصل بعض الأمور المتعلّقة بعقيدة خاصة بالكنيسة الكاثوليكية التي تطبع وتتّصل بصورة وثيقة بالحياة اليومية لسكان إشبيلية، والتي، ونأمل أن نكون على صواب، تحمل معالم معيّنة يمكن إرجاع أصولها بصورة مباشرة بنحو أو آخر، إلى التّأثير القبطي. إنها عقيدة الحَبَل بلا دَنَس للعذراء مريم مع رمزها الملفت الطّاغي في الفن المحلّي المتعلّق بصناعة «شارات النّبالة» للعذراء مريم.

يقول السّيد تشامبرلين في كتابه «أسس القرن التّاسع عشر» ما يلي:

«إنها فكرة قديمة تلك التي تقول بأنّ الله عندما تجسّد بشراً وُلد من عذراء، ولكن عبادة «والدة الإله»[1] نُقلت من مصر. ... لا يوجد في تاريخ العقائد الأسطورية إثبات أوضح من الصّلة العضوية المباشرة بين عبادة المسيحيين لـ«والدة الإله» وعبادة إيزيس. ففي الأزمان السّابقة تقيّد الدّين السّائد في زمن الفوضى الذي استوطن في مصر بدرجة متزايدة بعبادة «ابن الله» – حورس وأمه إيزيس. كتب عالم المصريات الشّهير فلِنْدرز پِتري Flinders Petrie في هذا الموضوع يقول: «ترك هذا التّقليد الدّيني تأثيراً عميقاً على تطور الدّين المسيحي. حتى أنه يمكننا أن نقول بأنه لو لم توجد مصر لكان من غير الممكن ظهور مادونّا (السيدة العذراء). ملكت إيزيس سلطة

(1) نترجم هذه العبارة كمصطلح لغوي في أنطولوجيا الأديان، دون أن نقرّ ما جاء فيها، ونعتبرها لا تمسّ اسم الجلالة سبحانه وتعالى ولا تتعلّق به. (أحمد)

عظيمة على الرّومان إبّان حكم الأباطرة الأوائل. كانت عبادة إيزيس سائدة ومنتشرة، وعندما وَجدت لها مكاناً في الحركة العظيمة الأخرى للجليليّين، حيث كان يمكن لروح العصر والقناعة الأخلاقية أن يسيرا جنباً إلى جنب، عندها بات انتصارها أكيداً وأصبحت بوصفها «والدة الإله» الشّخصية المسيطرة في إيطاليا منذ ذلك الحين»[1].

أنكر الأقباط العقيدة الأرثوذكسية في تجسّد المسيح، وكلّفهم هذا الإنكار عقوداً من الاضطهاد من جانب الكنيسة البيزنطية، لأنه بالنّظر إلى الطّبيعة الرّوحانية للمصريين، كان إسباغ صفات بشرية ضعيفة على الإله يمثل احتقاراً للألوهية. كان «ابن الله»[2] بالنّسبة إليهم هو حورس ورمزه الشّمس الشّارقة وابن الإله أوزيريس كلّي القدرة، شمس منتصف النّهار ومصدر كل حياة؛ وإيزيس الأم الأزليّة التي سكب فيها خيم، الرّوح القدس، سائل أوزيريس الإلهي لكي تخلق حياة جديدة. تمحورت كامل الرّمزية المصرية، مهما اختلفت الأسماء المعبّرة عنها، حول هذه الشّخصيات الأربع التي كان كل واحد منها مستقلاً بالكامل في عمله ولكنه يشكّل جزءاً لا يتجزأ من الثّلاث الآخرى. وهكذا كان من السّهل أن يقبل المصريون العقيدة المسيحية المتمحورة حول فكرة «الثّالوث» و«والدة الإله» لأنّ الأمر لم يتعدَّ بالنّسبة لهم أكثر من إطلاق أسماء جديدة على آلهتهم. ثم برز الانقسام حول طبيعة المسيح، وكما يقول غيبون: لقد حوّل الاضطهاد طائفة إلى أُمّة.

لم يصوّر الأقباط مطلقاً المسيح الميت؛ وكما يقول الدّكتور بَتلر كان الحديث عن صورة الصّلب لدى الأقباط مثل الحديث عن شيء لم يُعثر عليه أبداً. في الوقت نفسه، لا يمكن إثبات أنّ الأقباط التزموا بدقّة بعقيدة تحريم «الصّور المنقوشة» نظراً لوجود صور طيور وحيوانات وأشخاص منقوشة على العديد من شواهد القبور القبطية وعلى ألواح خشب الأرز في الكنيسة المعلّقة في القاهرة (محفوظة الآن في المتحف البريطاني)، وتصاميم لا حصر لها تمثل رجالاً ونساءً وحيوانات على أقمشة محاكة ومطرّزة عُثر عليها في مقابر الأقباط.

(1) بالفعل، ففي الثقافة الإيطاليّة يكثر استعمال عبارة: Madre di Dio بشكل لافت. (أحمد)
(2) ينطبق على هذه العبارة ما قلناه في الحاشية قبل السّابقة. (أحمد)

تجدر ملاحظة خاصّيّة واحدة تثير الدّهشة وجدت في كافة أعمال الفن المرتبط بعقيدة الطّبيعة الواحدة للمسيح. ومهما كانت هذه الخاصّية بدائية في مراحل وجودها المبكر، فقد مثّلت بدرجة لا تتغيّر فكرة السّعادة والرّضا وليس فكرة العذاب والحزن على الإطلاق. لقد تعمّد القبطي أن يغضّ البصر عن كل ما يوحي بالعذاب في العقيدة المسيحية وركّز تفكيره على ما هو جميل وإلهي.

نادرة للغاية هي الصّور والرّسوم التي تُظهر المسيح بشراً من بين العديد من الصّور واللوحات التي تفيد الرّوايات المتناقلة وكذلك الأسلوب الفني أننا يمكن أن نعزوها إلى المسيحيين الذين حافظوا على دينهم في إشبيلية قبل أن يستعيدها الملك المسيحي. يتعيّن علينا الذّهاب إلى شمال إسپانيا للعثور على صلبانٍ ورسوم زيتية أو منحوتات من القرون الوسطى تمثّل المسيح الميت. وما تبقى من الأعمال الفنية المبكرة في إشبيلية (وهي على ندرتها، أكبر عدداً مما يعتقد عموماً) يمثل الأم والطّفل وحيدين؛ فهناك حرص شديد على تجنّب أي تلميح إلى العذاب أو الحزن، وتغيب تماماً مثل هذه التّلميحات من التّماثيل التي عُثر عليها في الكنائس والأديرة القبطية التي يرجع تاريخ إنشائها إلى القرن الثّالث امتداداً حتى نهاية القرن الثّالث عشر.

أوردنا في السّابق قصّة الرّؤية الأسطورية العجائبية لسان فرناندو للّوحة الجدارية التي عرفت باسم «عذراء دي لا أنتيغوا» أي القديمة. وتوجد كذلك صور أخرى قديمة العهد في إشبيلية نأمل مناقشتها والتّحدّث عنها بشكل شامل في كتاب لاحق. أمّا بالنّسبة للكتاب الحالي فلا يسعنا القول سوى إنه على الرّغم من تكرار إعادة طلاء لوحة عذراء أنتيغوا بحيث فقدت الكثير من سماتها الأصلية، تحمل صورة أخرى للعذراء تعرف باسم عذراء دل كورال لا شك أنها رُسمت قبل مدّة لا تقلّ عن مئة عام من رسم صورة عذراء أنتيغوا، بصمة مصرية من دون شك. فالعينان مصريتان وغطاء الرّأس مصري والفم هو الفم الذي يمكن للمرء أن يلاحظه لدى النّساء القبطيات في يومنا الحاضر – فم لا يمكن لأيّ شخص حاول أن يرسم خطوط الشّفاه المكتنزة أن يخطىء فيظنّ أنه فم يوناني أو لاتيني. طول الصّورة التي هي أكبر بكثير من الواقع

ووضعيـة الطّفـل الملتصق بقوة بصـدر والدته قـد يذكّران بخصائص الفـن البيزنطي، ولكن الأقمشـة كغطاء الرّأس لا تشـبه بأيّ شـيء الأقمشـة اليونانية. تطغى روح مصر القديمة على لوحة عذراء دل كورال كما تشعّ الأمومة الأبدية لإيزيس من تلك العينين البيضاويتين المصريتين.

إنّ العثـور علـى لوحة عذراء دل كورال (التي يسـتحيل الحصول على نسـخة منها) في كنيسـة قيل إنـه تم تحويلها إلى جامع قبل وقت غير طويل من اسـترداد إشـبيلية، يُعدّ حدثاً «عجائبيـاً». تتشـابه الرّوايات التّقليدية المتعلقة بكافة الصّـور المماثلة، وتحمل كل الصّور التي قيل إنه عُثر عليها خلال القرنين الثّالث عشر والرّابع عشر إشارت تدلّ إلى تاريخ أبكر من تاريخ إعادة فتح إشبيلية. وفي حال كان هناك أيّ شك حول هذه النّقطة، فإنه سرعان ما يـزول عنـد مقارنة الصّور القبطية - القُوطيّة للعذراء مع صورتين قدّمهما سـان فرناندو إلى كاتدرائية إشبيلية بين عامي 1248 و1254 ولا يمكن التّشكيك في أصالتهما.

يشـكّل رسـم العينين مزيّـة أخرى مهمّة يصعب أن تفشـل فـي إقناع المشـاهد بالأصل المصري لهذه المدرسـة الفنّية. وسـواء أكان الرّسـم على الخشـب أو الحجر أو بالزّيت أو التّطريـز، فقد رسـمت العينـان كاملتين من الجهة الأمامية أياً كان وضـع الرّأس. ولا يمكن فعلياً قبل القرن الثّالث عشـر رؤية عينين مرسـومتين بشـكل جانبي، ونلاحـظ بالتّأكيد هذا التّذكير بمصر القديمة على حجر ضريح قديم نُحت بشـكل نافر قليلاً ثم طُلي عثر عليه في إقليم سَرَقُسـطة التي كانت معقلاً للعرب اليمانيين والقوط لقرون عديدة. وتظهر استدارة غطاء الرّأس أن تاريخ نحت هذا الحجر لا يعود إلى ما قبل الفتح الإسلامي[1].

لو استمرّت الكنيسة القُوطيّة في إشبيلية تمارس شعائرها دون انقطاع في وقت أبكر، لكان من غير الممكن الشّـك في مصدر هذه اللوحات. والخلاف المرير الذي اسـتمرّ

(1) يملك دون فرانثيسكو آنايا Don Francisco Anaya ابن إشبيلية هذا التّمثال المنحوت ويمكن مشاهدته في منزله، 9 شارع ليبانتو Calle Lepanto. نعتقد ان النّقش الحجري لعذراء كارمن، الموجود أيضاً في أشبيلية، يحمل ملامح تدلّ على أنه منتج محسّن من المدرسة الفنية عينها يفصل بينهما ثلاثة قرون من التّطوّر.

خلال الثّلاثين أو الأربعين سنة الماضية بين «المدجّنين» و«التّقليديين» في إشبيلية حول هذه النّقطة نتج من جهل الفريقين كليهما للقصّة الحقيقية للفتح الإسلامي. كان لدى التّقليديين كامل الحق في تصنيف الصّور على أنها تعود إلى الكنيسة القُوطيّة في إشبيلية في حين كان المدجّنون على حق تماماً وبصورة متساوية في تأكيد أنه من غير الممكن على الإطلاق عزو مثل هذا العمل إلى الكنيسة القُوطيّة في القرن السّابع[1].

لا يوجد في أي مكان آخر في إسپانيا مثل هذا العدد من صور العذراء المرسومة أو المنحوتة من القرون الوسطى كما هي الحال في إشبيلية، بالمقارنة مع العدد الإجمالي لصور كافة القديسين الآخرين. لكن مهما اختلف الخبراء في الفن حول مرجعية هذه الرّسوم الزّيتية والتّماثيل، فإنّ واقع أنها سبب كل هذا الجدال يثبت إلى حدّ بعيد أنها لا تعود إلى تاريخ حرب الاسترداد أو ما بعده كما يؤكد المدجّنون. ولا يوجد بالطّبع أي وزن ولو حتى صغير لما يقوله التّقليديون بأنّ تاريخ صنع مثل هذا العدد الكبير والملحوظ من صور العذراء، التي يتضرّع إليها سكان إشبيلية بتقوى فوق العادة مرّ دون أن يسجّل في أرشيف المدينة وأرشيفات الكنائس لو أنها لم تكن موجودة

(1) شكّلت صورة قديمة أخرى موضوع نقاش أكثر حدّة ممّا حصل حول أيّة صورة أخرى. كانت صورة عذراء إنييستا *Hiniesta* (جينيستا أو الرّتم) التي سمّيت كذلك لأنّ فارساً يدعى برنار دي لاتو عثر عليها داخل غابة من نباتات الرّتم في كتالونيا عام 1380. لا نتردّد أبداً في التّأكيد بأن هذه الرّواية تستند إلى الواقع وأن الصّورة رسمها قوطي مسيحي عاش في أحدى القرى التي بقيت تقاليد الفن الرّوماني - القوطي حيّة فيها طوال فترة الاحتلال الإسلامي، كما بقيت هذه التّقاليد حيّة حتى يومنا الحاضر في صناعات محلّية معيّنة. والقماش المرسوم روماني الطّراز كما فردة الخفّ الوحيدة المرئية. إمالة الجسم قليلاً إلى الوراء لموازنة ثقل الطّفل على الذّراع اليسرى كلاسيكية بالكامل، وقد تكون نسخت عن تمثال روماني، في حين أن الحواف المستديرة للرّأس والوجه، وبساطة تعابير العذراء وطريقة ترتيب شعرها توحي بشكل غريب إلى واقعية وصرامة اشتهر بهما التّوتونيون [الألمان]. والصّورة مصنوعة من قطعة خشب وقطع منها الذّراع الأيمن (!) في تاريخ غير معروف لتسهيل كسوة الصّورة بالحرائر والقماش المقصّب وتعريتها كما كانت السّيدات الورعات في إشبيلية في السّابق ولا زلن حتى اليوم يقمن بتزيين صور القديسين الذين يبتهلن إليهم. يوجد الرّسم في كنيسة سان خوليان البازيليكية، ويمكن رؤيتها منزوعة الغطاء فقط بترخيص من كهنة الرّعية.

قبل تاريخ الاسترداد. وممّا يجدر ذكره هو أن تاريخ أقدم رسم زيتي إشبيلي معروف للمسيح المصلوب يعود إلى القرن الرّابع عشر، وهناك رسم وحيد يعود إلى ذلك التّاريخ وهو موجود في كتاب الصّلوات العائد لمجلس الكاتدرائية[1].

ظلّ سان فرناندو متعبّداً متحمّساً للعذراء طوال حياته وكما يخبرنا ابنه في إحدى الأناشيد (كانتيغاس) التي كتبها، وضع سان فرناندو صورة العذراء في المسجد وفوق بوّابة كل مدينة استولى عليها من المسلمين[2]. كانت كنيسة إشبيلية متفوّقة دائماً في عبادتها. وسمّيت المنطقة المحتلة حديثاً ولا تزال تعرف باسم «أرض الأم المباركة» (La tierra de Maria santisima) وأصبح «السّرّ العذب للحَبَل بلاد نس» أو كما يسميه عامة النّاس «السّرّ»، موضوع عبادة متّقدة لدرجة أنّه دفع في سنوات لاحقة أناساً للقيام بأعمال غريبة تعبيراً عن نُكران الذّات. وهكذا في عام 1618، عرض زنجيان يدعيان دومينغو دي مولينا وپدرو دي مورينو على التّوالي وآخر مجهول الاسم في عام 1653 بيع نفسيهما في المزاد العلني بغية تسديد رسوم إقامة القداديس خلال احتفالات الحَبَل بلا دنس. وأيّاً يكن الحكم على هذا الدّافع فمن الصّعوبة بمكان تصوّر تضحية أكمل من التّضحية بالذّات على مذبح العقيدة[3].

كانت الاحتفالات بعيد الحَبَل بلا دنس دائماً الأكثر شعبية بين الاحتفالات الدّينية المتعدّدة التي تقيمها الكنيسة في إشبيلية. ولا توجد أيّة كنيسة في المدينة لا تحتوي على مذبح يمجّد «السّرّ». كانت إشبيلية أول مدينة تطلب من البابا أن يعلن عقيدة الحَبَل بلا دنس، واشتركت بحماس في الجدل المطوّل الذي قام بين الفرنسيسكان الذين يؤكدون الولادة العجائبية للعذراء نفسها وبين الدّومينيكان الذين ينكرون ذلك؛ وذلك بدرجة دفعت مؤرّخي كنيسة إشبيلية إلى الادّعاء بأنّ الإعلان النّهائي الذي أصدره البابا صدر بسبب إصرار هذه المدينة. وفي عام 1613 ألقى كاهن دومينيكي

---

(1) *Glorias Sevillamas*, (أمجاد اشبيلية) pp. 45 – 6.

(2) Zúñiga, i. 303.

(3) *Glorias Sevillamas*, 501 – 2, 531.

في إشــبيلية عظة يطعن فيها بالاعتقاد الشّـعبي ممّا اثار الغضب الشّديد لدى كل سكان المدينة الذين قاموا بمظاهرات ترأسـها كاهن فرنسيسـكاني يرفع الرّاية المعروفة باسم «بلا دنس»[1]. كانت المظاهرات تنطلق كل يوم وتضمّ آلاف الأشخاص، وكان هدفهم طلـب الغفـران من العـذراء على «الإهانات» التـي وُجّهت إليها من قبـل أولئك الذين يرفضون الإيمان بعقيدة «السّرّ».

لا زالت تضحيات التّعويض *desagravio* للعذراء عن الإهانات التي وُجّهت إليها تحصل من وقت لآخر. وقبل فترة غير بعيدة في مارس 1911، نُظّمت مسيرات عبر كافّة البـلاد لمتعبّدي العذراء هـي بمثابة عمليات احتجاج على عبـارات غير موقّرة تلفظها نائـب في البرلمان في هجومه على الرّهبانيات الدّينية. حُمِلت صورة العذراء بالحجم الكامـل التي وهبها سـان فرناندو إلى الكاتدرائية والمعروفة باسـم عـذراء الملوك في موكب سار من الكنيسة الملكية الصّغيرة إلى المذبح العالي، وسط صلوات حشد كبير من الرّجال والنّساء من كافة طبقات المجتمع.

في عام 1615 كتب رجل من إشـبيلية يدعى ميغيل دِل سيد أبياتاً لحّنها كاهن يدعى برناردو دِل تورو لقصيدة لازمتها كالتّالي:

«فليهتف العالم كله عالياً:

أيتها الملكة المختارة

لقد حُبل بك دون خطيئة أصلية».

“*Todo el mundo en general,*

‘A voces Reina escogida

Diga que sois concebida

Sin pecado original.’ ”

---

(1) «بلا دنس». العنوان الكامل هو «راية مريم العذراء كلّية الطّهارة المولودة بلا وصمة الخطيئة الأصلية». وترفع راية «بلا دنس» في إشبيلية خلال مسيرات الأسبوع المقدّس.
الأسبوع المقدّس هو أسبوع الفصح المقدّس أو أسبوع الآلام. (م)

لقيت التّرتيلة وعلى وجه الخصوص لازمتها شعبيّة هائلة فور صدورها في إشبيلية، ولم تتراجع هذه الشّعبية منذ ذلك التّاريخ وحتى يومنا الحاضر. لكن يبدو أنّ الأجواء التي سادت وقت انتشار القصيدة لم تعش طويلاً في ذاكرة النّاس، إذ جرى تكييف اللازمة مع عدد لا يحصى من التّراتيل المختلفة المقدّمة للعذراء خلال السّنوات الثّلاثمئة التي استمرّ أداء التّرتيلة بها. ويمكن أن نلاحظ أنّ المواهب الشّعرية للمؤلف المحترم ميغيل لم تكن متكافئة مع تقواه.

كانت قد جرت العادة في ذلك الوقت في إشبيلية أن يضع مناصرو الولادة العجائبية للعذراء الحرفين الأوّلين من اسمها[1] A.M على واجهات منازلهم وتم تبنّي هذين الحرفين كشعار للحزب الفرنسيسكاني في الجدل القائم، وأُدخل في كافة أنواع التّصاميم الفنية في القرنين السّادس عشر والسّابع عشر بدرجة أنه يؤرّخ بالفعل لتطوّرات معيّنة، وعلى وجه الخصوص فيما نسمّيه الآن «شغل الإبرة» (التّطريز) وصناعة الخزف.

وأصبح الحرّاس الليليون في إشبيلية الذين كانوا يعلنون حتى وقت قريب ساعات الليل يستشهدون بمريم العذراء التي حُبل بها بلا دنس بالصّياح:

"Ave Maria Purisima, la una ha dado y sereno"

«السّلام عليك يا مريم يا أطهر النّساء. لقد دقّت السّاعة الواحدة والليلة هادئة».
ومن هذا الصّياح استمدّ الحرّاس الليليون لقبهم الشّعبي «سيرينو» *Sereno*.

يتم تعليم كل طفل حالما يبدأ بالكلام بأن يذكر سرّ الحَبَل بلا دنس في صلواته ويقول «مبارك الحَبَل بلا دنس بمريم العذراء» *Bendita sea la immaculada Concepcion de la Virgen Maria*. وتحمل الغالبية العظمى من نساء إشبيلية أسماء تدل على إحدى صفات مريم العذراء، مثل مرسيدس (مريم الرّحمة)، ودولوريس (مريم الآلام)، وأمپارو (مريم المغيثة)، وروزاريو (مريم الورديّة، السُّبحة) وپيلار

---

(1) آفِه ماريّا Ave Maria وهي عبارة تمجيد السّيدة مريم ومعناها «السّلام عليك يا مريم» وهي الكلمات التي تبدأ بها الصّلوات المخصّصة للسّيدة مريم في الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية. (م)

(مريـم الوطيـدة) وهكذا. وربما كان الأكثـر إثارة للفضول من بيـن العديد من التّقاليد المحلّية النّابعة من عبارة «السّرّ» هو التّشفّع بطهارة مريم عند تبديل الملابس الدّاخلية. ويقوم بذلك الرّجال والنّسـاء حيث كان ارتـداء ملابس داخلية نظيفة يرمز إلى البياض الصّافي للرّوح المستغرقة في تأمّل ولادة مريم بلا خطيئة أصليّة.

يفـوق في إشـبيلية عدد المذابـح المقامة في الكنائـس تكريماً للعـذراء مريم ما هو موجود في أيّة مدينة أخرى في مثل حجمها. ويحمل ما بين ثلاثين وأربعين كاهناً صور العذراء خلال الأسبوع المقدّس ويطوفون بها في مواكب حاشدة، بينما يبقى عدد كبير من صور العذراء ثابتاً داخل الكنائس الصّغيرة المكرّسة لعبادتها في كنائس الأبرشيات وكنائس الأديرة.

ونلفـت الانتباه الآن إلى الخاصّية المميّزة في التّاريخ الفني لهذه العقيدة الإشـبيلية التي تبدو وثيقة الصّلة بمصر.

منـذ البدايـات الأولى للمسـيحية، نجد هنا التّصميم المعروف باسـم «شـعار نبالة العذراء» الذي يظهر على شكل جرّة أو إناء تبرز منه نبتة تحمل زهرة موضوعة بصورة متناسقة على الجانبين كليهما. في مناطق أخرى، في الفن الإيطالي على سبيل المثال، يمسـك المـلاك جبرائيـل بالزّنبقة أو توضع هـذه الزّنبقة في إناء بجانـب مريم. لقد تم التّعامل مع ذلك باعتباره وببساطة تعبيراً شاعرياً عن طهارة العذراء التي بشّرها الملاك بولادة المخلّص [يسوع].

ولكن في إشبيلية تعبّر هذه الرّمزية عن طهارة الحمل بالعذراء نفسها، وتأكيداً لذلك يوجد في كنيسـة دير سـانتا كلارا نقش قليل البروز يشـكّل جزءاً من اللوحة التي تزيّن المذبح العالي وفيها رسـم القديسـة حنّة (آنّا) والقديس يواكيـم[1] وقد انبثق من صدر كل منهما سـاق نبتة يتحد طرفاهما على شـكل زهرة تشبه زنبقة الماء وبداخلها تجلس العـذراء مريم. ولقد جدنا تصميماً مشـابهاً في أكثر من كنيسـة فـي المناطق الرّيفية من ولاية إشبيلية.

(1) القديسة حنّة هي أم مريم العذراء والقديس يواكيم أبوها. (م)

نعثر باستمرار منذ فترة حكم فرناندو وإيزابيل[1] وما بعدها على التّصميم المعروف باسـم جرّة العذراء Jarra، لكن تاريخ هذا التّصميم يعود إلى وقت أبكر، ويؤكد ذلك واقع أنه بحلول نهاية القرن الخامس عشـر باتت الأزهار تشكّل رمزاً عرفياً لدرجة أنها لـم تعد تشـبه أيّ نوع نباتي معـروف. كما أنّ هناك إثباتاً تاريخياً يؤكـد بأنّ تاريخ الرّمز يعود إلى فترة أقدم بكثير من فترة حكم فرناندو وإيزابيل. تذكر كتب التّاريخ أنه في عام 1403 انشـأ فرناندو ملـك أنتقيرة الذي أصبح فيما بعد ملك آراغون رتبة من الفرسـان تكريماً لعذراء دي لا أنتيغوا من مدينة إشبيلية عُرف فيما بعد باسم أخوية جرّة السّوسن أو االزّنبـق La Orden de la Jarra de Azucenas or de los Lirios وتبنّـى رهبـان إشبيلية شعار الأخوية تكريماً لصورة عذراء أنتيغوا[2].

تُشاهد جرّة الزّنابق في أمكنة عديدة من كاتدرائية إشبيلية؛ في رسوم نافرة كبيرة في الأرضية الرّخامية لجناح الكنيسـة مباشرة أسـفل المذبح العالي، وفي صورة مصنوعة مـن الحديد المطاوع فوق بوابة كنيسـة «العـذارى» (دي لاس دونثيّـاس doncellas) التي بُنيت في أوائل القرن السّـادس عشـر ومنحت الأموال لتخصيص بائنات (مهور) إلى الفتيات الفقيرات. يوجد فوق هذه البوابة صورة مصنوعة من الحديد تمثّل البشارة مـع جـرّة الزّنابـق بين المـلاك والعـذراء. كما تظهـر الجرّة بشـكل أو بآخـر على كافة المشـغولات المخرّمة الجميلة التي تزيّن الأثواب الكهنوتية العائدة إلى القرن السّـابع عشر، والتي كانت تستعمل في الكاتدرائية خلال الاحتفالات الدّينية الكبيرة.

لمـاذا تُعاد هذه الرّمزية في إشـبيلية إلـى الحَبَل بلا دنس، بينما فـي أمكنة أخرى تمّ إدخال الزّنابق فقط كتكملة رائعة في الرّسوم التي تمثل البشارة؟

فـي مصر تسـيطر زنبقة النّيل التي يسـمّيها الشّـعراء إن لـم يكن علمـاء النّبات زهرة

---

(1) حقّق زواج أبناء العمومة، فرناندو ملك آراغون وإيزابيل ملكة قشتالة في عام 1469 وحدة واستقرار مملكتيهما. ولقد حازا على لقب «الملكين الكاثوليكيّين» بعد سيطرتهما على غرناطة في العام 1492 عندما استأنفا حرب الاسترداد التي بدأها سان فرناندو قبل أكثر من مئتي عام وأعاد خلالها إشبيلية إلى الحكم المسيحي في عام 1248. (م)

(2) سجلات آراغون، أشير اليه في كتاب سورانو «تقاليد اشبيلية» Tradiciones Sevillanas.

اللّوتُس، على كل أنواع الزّخارف. يقول البروفسور فِلنْدرز بِتري Flinders Petrie إنها «كانت منتشرة بشكل واسع بحيث اعتبرها البعض مصدر كافة الزّخارف»[1]. كانت زهرة اللّوتُس (النّيلوفر) في مصر القديمة أحد رموز خيم، عنصر الحياة، الذي أخصب أوزيريس العالم بواسطته. لذلك كانت توضع زهرة اللّوتُس فوق المذابح المصرية حيث ترتفع بتلاتها المستدقة كما ترتفع ألسنة اللهب نحو المعبود؛ وهكذا، تم تبنّيها باعتبارها «مصباح المذبح» رمزاً للنّار الأبدية التي يعيد أوزيريس تجديد العالم بواسطتها[2].

الأرجح أن تبنّي اللّوتُس أو زنبقة الماء كشعار لروح الخصب كان وراء الاعتقاد الذي ساد قديماً في الأندلس، والقائل بأن المرأة التي تأكل جذور الزّنبق تحمل بصورة عجائبية. لذلك تقول التّقاليد إنه تم تبنّي الزّنبق كرمز لمريم، الأم العذراء المولودة هي نفسها دون فعل بشري[3]. ولكن كيف أمكن ظهور هذا التّقليد المصري الأساسي حول الزّنبق وخيم إن لم يكن الأقباط هم الذين جلبوا إلى هنا معتقداتهم المصرية القديمة تحت غشاء رقيق من الأسماء المسيحية؟

ليس هذا المكان المناسب لشرح كيف تحوّلت اللّوتُس، مصباح المذبح لدى المصريين، بصورة تدريجية في النّسيج العرفي، إلى جرّة الزّنابق التي برزت في القرن الخامس عشر، ومن ثم إلى أشكال أزهار لا تشبه أيّة زهرة في الوجود: نأمل أن نوفّر في المستقبل تصاميم تبين هذا التّحوّل من اللّوتُس، التي تزيّن تاج [الملكة الفرعونية] نفرت إلى الرّسوم الموجودة على المشغولات الحرفية الأندلسية في اليوم الحاضر. ولكن بإمكاننا أن نذكر كمثال على الاستمرارية المذهلة لهذا التّقليد أننا سمعنا قبل فترة وجيزة عن شكل من الزّهور يعود إلى القرن الثّامن عشر أطلق عليه نبيل إشبيلي

---

(1) *Egyptian Decorative Art*, p. 61.

(2) Gayet, *L'Árt Copte*, pp. 73, 104 – 5.

(3) قد يفترض المرء أنّ هذه الرّمزية يمكن اعتبارها إشارة إلى الولادة العجائبية للمسيح؛ لكن عيد السّيدة العذراء، ورغم كونه عيداً تحتفل به الكنيسة فإنه لا يحظى بالاهتمام العام والعبادة التي يحظى بها الاحتفال بعيد الحَبَل بلا دنس.

اسـم لوتُس. أخبرنا هذا النّبيل عندما استفسـرنا منه الأمر أنه ليسـت لديه أيّة فكرة على الإطـلاق حول السّـبب الـذي دفعه لإطلاق ذلك الاسـم. كانت الزّهـرة مختلفة تماماً عـن أيّـة زهـرة حقيقية، ولكنّهـا بالتّأكيد شـكل معدّل من الزّهرة التي سـمّاها فيشـباخ Fischbach لوتُس في نماذجه الشّرقية.

وقـد نكون مخطئين لـو اعتقدنا أنّ شـعار النّبالة للعذراء كرمـز لولادتها بلا وصمة الخطيئـة غريـب عن هـذا الجزء من إسـبانيا، لأننا لـم نتمكن من الاطلاع في إشـبيلية على أعمال حول صنع الأيقونات والرّموز المسيحية. ولكننا نفترض بأمان أنّ الأصل المصـري لتصميـم الجرّة فـي أعمال التّطريز والنّسـيج غيـر معترف به بصـورة عامة، حيـث لا يأتي أيّ من المراجع المقبولة التي تمكّنا من الرجوع إليها على ذكره باعتباره مـن أصل مصري؛ في حيـن طُرح أصله للنّقـاش، وهناك إقرار باعتبـاره غير معروف. والتّشـابه القـوي بين تصميم مشـغولات الإبـرة المخرمة لمدينـة آنتڤيرپـن البلجيكية [أنڤير بالفرنسـيّة] التي اشـتهرت باسـم «پوتن كانت» Potten Kant منذ القرن السّابع عشـر، بفرعي هذا التّصميم المتباعدين، وبين جرّة العذراء في القرنين الخامس عشـر والسّـادس عشـر التـي تتكرّر في إشـبيلية، يبدو دليـلاً واضحاً يؤكّـد أنّ الفكرة الأولى دخلـت إلـى البلاد الواطئة (هولندا) عندما كانت تحت سـيطرة إسـپانيا. تذكر الآنسـة شارپ[1] أنّ بعض المراجع اعتبرت أنّ تصميم «پوتن كانت» هو «امتداد لتصميم أبكر يشـمل صورة العذراء والبشـارة». ولكنهـا تضيف بأنه «لا يعرف ما إذا كان قد شـوهد على الإطلاق أيّ تركيب أكبر حجماً». إنه بالتّأكيد كما تقترحه الآنسـة شـارب تصميم تقليـدي يتعلـق بالعذراء ولكنه يحتلّ في إشـبيلية موقعاً أكثر أهميـة بكثير كرمز لولادة مريم العجائبية نفسها من كونه تصميماً ثانوياً في صور البشارة.

لا تنتشـر زنبقة النّيل على نطاق واسـع في هذا الجزء من الأندلس. تنمو زنبقة الماء الصّفـراء الصّغيـرة كنبات برّي ولكن بصورة محدودة فـي نهر وادي الرّحى الذي يبعد مسـافة ميلين أو ثلاثة عن إشـبيلية، ولكننا نعتقد أنّ زنبقة الماء البيضاء هذه ليسـت من

---

(1) *Point and Pillow Lace*, p. 158.

نباتـات المنطقـة الأصليـة، كما أنها لا تـزرع في أي من بسـاتينها. لذلـك لا يمكننا ان نعـزو الاسـتعمال التّقليـدي للزّهرة فـي التّصاميم إلى أيّـة تأثيرات محلّيـة، كما يجب عـدم الافتراض بأنّ معناها الأصلي واضح في أذهان أولئك الذين ينسـخون الخطوط الخارجية الجميلة لشـمعة المذبح المصريّة. إنها بالنّسـبة لهم مجرد «الزهرة» (لا فلور *la flor*). أمّـا لـمَ هي كذلك، فهم لا يسـألون. إنهم يسـتخدمون «الزّهـرة» – التي هي اليوم مجرّد زهرة بحكم العادة ليس إلا – في أعمالهم لأنّ آباءهم وأمهاتهم فعلوا ذلك من قبلهم. ويتمسّـك فلاحو الأندلس بقوة بالتّقاليد التي يكنّون احتراماً كبيراً لها. وهم مثل المصريين في شدّة تكريمهم للموتى.

قـد يظـنّ قرّاؤنـا، الذيـن يملك عـدد قليل منهـم أيّة معرفـة وثيقـة بالتّصميـم التّقليدي الإشـبيلي، بأنّنا ميّالان إلى التّركيز على فكرة اللّوتُس أو زنبقة النّيل؛ ولكن الذين شـاهدوا مجموعتنا من نماذج تصاميم اللّوتُس؛ «شجرة اللّوتُس»، ولوتس «شمعة المذبح» التي تعدّ بالمئات من مختلف الأشكال، سيندهشون كما دُهشنا أمام استمرار التّقليد المذهل. فالأمر لا يتعلّـق بتصميم واحـد بين أنماط عديدة مـن تصاميم الأزهار، التّقليديـة وغير التّقليدية؛ فمن غير المبالغ به القول إنّ «الزهرة» تشـكّل 95٪ من كافّة أنماط الزّهور المسـتخدمة في إقليـم إشـبيلية وولبـة وقادس وفي إقليـم الغرب، بغـضّ النّظر عن المادة التي اسـتُخدمت للتّعبير عن هذا التّصميم في الأعمال الحديثة والقديمة على حدّ سواء. كانت دائماً اللّوتُس المصرية في أنقى أشكالها وليس اليونانية على الإطلاق، والحقيقة الأغرب في هذا النّسخ المتواصل لهذا الرّمز القديم للحياة هي أننا نجده في أعمال – كمثل قطع الأثاث – صُنعت قبل خمسـين أو مئة سنة، مرسوماً بطريقة ممتازة في خطوطه الخارجية ولكنّه مقلوبٌ رأساً علـى عقب، الأمر الـذي يثبت أنه لم تكن لدى الفنان أيّة فكرة حول ما يمثّله الشّـكل الذي صنعه بكل طيب خاطر. نشك فيما لو أنّ تقليداً يستمرّ في الوجود في أيّ بلد آخر على هذا النّحـو، باسـتثناء مصر، حيـث كما بدأنا حديثنا بالقول، تشـكل زهرة اللّوتُـس على ما يبدو أساس كل الفنون الزّخرفية تقريباً.

❋ ❋ ❋

الفصل الثّالث والعشرون

صناعات الأندلس تحت الحكم الإسلامي

نختم هذا الكتاب بتقديم قائمة بالمدن الكبيرة والصّغيرة التي استقرّ فيها اليمانيون والمصريون في القرن الثّامن وما بعده، أو التي بقي فيها سكانها المسيحيون بموجب معاهدة أو حلف عقدوه مع المسلمين؛ وقد أشار الكتّاب المسلمون إليها لما اشتهرت به من الحرف والصّناعات[1].

لم ترد في حالات عدّة أسماء القبائل أو العائلات، ولم يتم في كثير من الحالات الإشارة إلى صناعات بعينها مورست في أماكن ثانوية قطنها يمانيون أو مولّدون؛ لكن الأبحاث اللاحقة سوف تعزّز بالتّأكيد الأدلّة على أنّ اليمانيين والمصريين والمسيحيين القوط الذين عاشوا في ظل الحكم الإسلامي كانوا من الصّنّاع والحرفيين والميكانيكيين الذين لم ينتجوا الكماليات التي استخدمت في بلاط قُرطُبة فحسب، وإنما كذلك السّلع التي شكّلت أساساً لحركة التّصدير المزدهرة إلى الشّرق، وكانت مصدر ثراء كبير لإمارة قُرطُبة في عهد الخليفة عبد الرّحمن الثّالث.

قلعة جابر Alcala de Guadaira (قلعة يَحصُب)[2]: قبيلة يَحصُب. من أملاك

---

(1) لا تشمل الصّناعات السّائدة في اليوم الحاضر ما لم يكن لها بعض العلاقة الظّاهرة مع الفن العربي التّقليدي.

(2) بعد قلعة جابر يورد المؤلفان داخل مزدوجين قلعة يَحصُب، لكن المقّري يورد أن قلعة بني سعيد عرفت كذلك باسم قلعة يَحصُب في كتب التّاريخ، نظراً لأن عدداً كبيراً منهم عاشوا فيها: «والأصبحيون من أعيان قرطبة، ومنهم من ينتسب إلى يَحصُب، قال ابن حزم: إنّه أخو ذي أصبح وهم كثير بقلعة بني سعيد، وقد تعرف من أجلهم في التّواريخ الأندلسية بقلعة يَحصُب»،

الأميرة سارة. الصّناعات: الخبز الذي كان يستهلكه أهل إشبيلية منذ العهود الرّومانية. زراعة الأزهار والأشجار المثمرة (البستنة).

الكالا لا ريال: (قلعة بني سعيد. هي Alcala de Aben Zaide كما ورد في الحوليّات العائدة للقرن الثّالث عشر). بنو سعيد هم أحفاد الأميرة سارة.

الجزيرة: حمداني. معافري. قلعة طرش، جزء من أملاك المنصور كانت هنا. وكان لا يزال في القرن السّابع عشر برج قائم يبدو أنه كان تابعاً لقلعة طرش التي كانت ملكاً للمنصور.

القنت Alicante: ولاية تدمير، احتفظ بها المسيحيون بموجب معاهدة موقعة مع عبد العزيز، ابن موسى بن نُصير عام 714. كانت دائماً مسيحية ويمانية. الصّناعات: الحُصر (حصائر القصب) التي لا تزال تصنع في مختلف المناطق التي كان يقطنها عدد كبير من المسيحيين تحت الحكم الإسلامي. واحتفظت هذه الصّناعة بالاسم اللاتيني Esteras الذي استعمله القوط. زراعة الفاكهة، وعلى وجه الخصوص زراعة الكرمة لإعداد الزّبيب.

المَريّة: قبائل جُذام والأنصار من بين قبائل أخرى. كانت دائما يمانية مع أنّ قائداً بربرياً استولى على الحكم فيها في القرن الحادي عشر واستمرّ يحكمها لسنوات عديدة. الصّناعات: بناء السّفن (اشتهر هنا حوض لبناء السّفن منذ القرن العاشر إن لم يكن قبل ذلك)، الدّيباج، حرير الدّمقس، الطّرز، أواني الزّجاج، الحديد، النّحاس، الثّمار المغلّفة بالسّكّر، زراعة الأزهار والأشجار المثمرة. يقول الشّقندي الذي كتب قبل عام 1231 إنّ تجّاراً مسيحيين أقاموا مصانع هنا تحت حكم الأمراء اليمانيين الذين كانوا يتاجرون على نطاق واسع مع إيطاليا. (انظر الصّفحة 270، المعاملات التّجارية بين ابن مَردنيش وبيزا وجنوة). يشير السّنيور غوديول في كتابه «الآثار المقدّسة»

(المقّري، الجزء 1، ص 297). ولعلّ هناك خطأ مطبعياً وكان ينبغي أن يرد اسم قلعة يَحصُب بعد قلعة بني سعيد في الفقرة التّالية. (م)

قلت: كذلك كانت قلعة يَحصُب تُذكر في بعض الحوليّات الأندلسيّة باسم: Calayaseb، انظر كوندة إصدار هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة، ج 3 فصل 21. (أحمد)

Arquelogia Sagrada) الصّفحـة 409، الهامـش) إلى أنسـجة حريريـة عربية الطّراز تماماً عرفت بأسـماء: نسيج ذهبي إسپاني، حرير إسپاني، وحرير موشح إسپاني[1] كما وجدهـا في سـجلات الجرد الكاتالونية القديمة. هذه الأقمشـة أنتجـت على الأرجح في المشـاغل المسيحية الإسـپانية التي أقيمت في المَريّة وغيرها من المدن التي كانت تحت حكم ابن مَردنيش في القرن الثّاني عشر.

بطليـوس: قبائـل مـن حضرمـوت، تُجيب. بني مسـلمة، مـن أحفاد الأميرة سـارة تفرعـت منهم سـلالة أمـراء بني الأفطس في القـرن الحادي عشـر. الصّناعات: زراعة الأشجار المثمرة، المشغولات الخشبية والخزفية الرّائعة.

بيّاسـة: مسـيحية، جزء من أملاك الأمير أرطباس (أرطباش). العديـد من اليمانيين الذين لم تذكر أسماء قبائلهم. الصّناعة: الزّعفران.

جزر الباليار: قبيلة جُذام. الصّناعات: زراعة الأزهار والأشجار المثمرة، الصّناعات الخزفية الرّائعة.

باجـة: هـي الآن جزء من البرتغال، ولكنها كانت في السّـابق مشـتملة ضمن حدود لأندلس التي امتدّت شـمالاً حتى قلنبرية. اسـتوطنها المصريون واليمانيون ومن بينهم قبيلة يَحصُب. الصّناعات: دباغة الجلود، صناعة المشـغولات القطنية، مناجم الفضّة. لا زالت تنتج في مختلف أنحاء هذه المقاطعة مشغولات الدّنتيلا أو الوسائد المخرّمة والمشغولات المطرّزة ذات التّصاميم القبطية العربية الواضحة.

قلعـة ربـاح (إقليم): قبيلة جُـذام. مدينة ألماغـرو Almagro في هـذه الولاية هي مركز صناعة الوسائد المخرّمة المتوارثة على مدى العصور القديمة دون معرفة منشئها. النّماذج المبكرة المعروفة تقلّد تقنية تخريم الوسائد التي عُثر عليها في قبور أنطينوپوليس القديمة[2].

---

(1) *drap d'aur de Spanya, ceda de Spanya, and ceda girasol de Spanya.*

(2) أنطينوپوليس Antinoë شيدها الأمبراطور اليوناني هادريان في النّصف الأول من القرن الثّاني بعد الميلاد، على ضفة النّيل الشّرقية قرب مدينة ملوي جنوب القاهرة فيما يعرف اليوم باسم الشّيخ عبادة. (م)

شنترة: قبيلة لَخْم. الصّناعات: البستنة. سجل إنتاج بطيخ بحجم هائل هنا خلال القرن الحادي عشر. يعود أصل اسمها إلى العربية «البطيخ السّندي» أو «سنديالي» ومنه اشتقّت كلمة *sandia* الإسپانية[1].

قونكة: لم يعرف بعد تاريخها المبكر. الصّناعات: السّجاد الصّوفي. كانت المدينة في القرن الحادي عشر تابعة لسلالة اللّخميين الحاكمة في إشبيلية ومُنحت كجزء من بائنة الأميرة زايدة عند زواجها من ألفونسو السّادس. بنيت فيها لاحقاً مدرسة متقدّمة لتعليم النّقش في العاج. وتنتمي تصاميم أقدم النّماذج الموجودة فيها إلى النّمط القوطي العربي. يوجد أحد هذه النّماذج في متحف ساوث كنزنغتون ويوجد نموذج آخر في كاتدرائية پامپلونة. طالبت الكونتيسة ماري دى آلُنسون [فرنسا] في عام 1373 بملكية قونكة باعتبارها سليلة فرناندو دي لا ثِردِه ابن ألفونسو العاشر ملك قشتالة. أسّست صناعة للدّنتيلا في أوريّاك Aurillac [في فرنسا] في القرن الرّابع عشر. وليس بوسعنا القول ما إذا كانت أوريّاك جزءاً من أملاك الكونت دى آلُنسون (شقيق الملك فيليپ السّادس، ملك فرنسا) في تلك الفترة ولكن يجب أن نذكر ان اسم قونكة ارتبط بقطبة أوريّاك الأنيقة وقطبة إسپانيا باهظة الكلفة في القرن السّابع عشر قبل وقت قصير من إنشاء كولبير لمصنعه الذي اشتهر بقطبة آلُنسون. يقال إن أوريّاك أرسلت مدرّسين في المشغولات المخرّمة إلى قونكة، ولكن نظراً لأنّ قونكة كانت في ذلك الوقت مدينة محتضّرة وكان مركزها يتراجع باستمرار منذ ذلك الوقت حتى لم تعد اليوم أكثر من مجرد قرية، يبدو لنا بناءً على ذلك أنّ الأرجح، نظراً لارتباطها بكونتيسة آلُنسون أنّ قونكة هي التي أرسلت مدرّسين لتعليم شغل التّخريم ولم يُرسل هؤلاء إليها. (سوف نتناول هذا الموضوع في بحثنا حول قطبة إسپانيا، المجلد الثّاني).

دانية: يمانية ومسيحية (أراضي تدمير). الصّناعات: الخزف المصقول أو المزجّج. قد تعود صناعة التّزجيج القزحي الألوان للخزف في إشبيلية إلى تاريخ زواج المُعتمِد بن عَبّاد من ابنة مجاهد العامري، أمير دانية وجزر الباليار في حوالي العام 1048 مع أن

---

(1) كلمة sandia الإسپانية تعني البطيخ. (م)

هذه الصّناعة وجدت هنا على مرّ التّاريخ الممعن في القدم.

إلبيرة: يهود ويمانيون. الصّناعات: البستنة.

غرناطة: معظم سكانها من المسيحيين. قبائل من حضرموت، الأزد، مَذحِج. الصّناعات: زراعة الأزهار والأشجار المثمرة، والحرير، وكثير غيرها.

ابن السّليم: (محافظة صيدونيا (شذونة) واليوم إقليم قادس). يمانية. صناعتها: الملابس الصّوفية التي لا تزال تُحاك باليد هنا.

يابسة: جزر الباليار. يمانية. صناعة الملح.

جيان: إحدى المدن الرّئيسية ضمن أملاك الأمير أرطباس. مسيحية، مصرية ويمانية. بلغت تربية دود القزّ أو دود الحرير فيها شهرة متناهية، بحيث أطلق عليها المسلمون اسم «جيان الحرير»[1].

شاطبة: إقليم تدمير. مسيحية ويمانية. الصّناعات: صناعة نسيج الكتّان وورق الكتّان.

لشبونة وشنترين: يمانية ولكن لم تُذكر القبيلة التي عاشت فيها. لكن يُستنتج من مختلف الدّلائل أن قبيلة لَخْم حكمتها. الصّناعات: الذّهب والعسل.

لورقة (ولاية تدمير): مسيحية ويمانية. الصّناعة: مناجم اللّازورد. كان الحجر الكريم يُقطع ويُصقل حال استخراجه لتصديره إلى الشّرق.

مالقة: قبيلة الأزد. الصّناعات: مناجم (لم يُذكر المعدن المستخرج منها)، الحرير، الدّيباج، الطّرز، الخزف المذهب، الزّعفران، الزّبيب والتّين الذي تميّز بنوعيته وذاعت شهرته في الشّرق بأكمله.

مدينة صيدونيا (شذونة): مسيحية ويمانية عبر التّاريخ. الصّناعات: الخزف المصنوع من صلصال أسود خاص لا يزال يوجد في حفر الصّلصال في المدينة، ولا

(1) المقّري، ج 2، 228.، ج 3، 217. (م)

يـزال يسـتخرج ويصنّـع يدوياً هنـا. ولا تزال حُصـر القصب تصنع هنا مـن قبل الغجر (مصريـون) الذين يقطنون المنطقة، بتصاميم عربية ماثلة فيها بقوة أكثر من أيّة تصاميم أخرى شاهدناها. الزّراعة.

مُرسـية. (ولاية تدمير): مسـيحية ويمانية. الصّناعات: الأقمشة الحريرية، السّجاد، حُصـر القصب، و«صناعات أخرى عديدة لا نسـتطيع حصرها» (الشّـقندي. كتب في أوائل القرن الثّالث عشر). البستنة وعلى وجه الخصوص أشجار الفاكهة.

شـلطيش (اليوم إقليـم ولبة): حكّام مولّدون من القرن التّاسـع حتـى القرن الثّالث عشر. البكريون[1]. لا تزال الرّوح القبطية والعربية ماثلة في التّصاميم التّقليدية في كافة أنحاء هذه الولاية، كما هي السّـحنة التّوتونية بين النّاس. الصّناعات: السّـمك المملح للبيع في سوق إشبيلية التي كانت تستهلك منه كميات كبيرة. الخزف بأشكال رومانية.

سـانتا ماريّـا دي أوكسـونوبا (شـنتمرية دي أكشـونبة): (بيـن ولبة وفـارو. اختفت هـذه المدينـة ولكن يوجد فـي الموقع اليوم رأس سـانتا ماريّا). اسـتوطنها المصريون واليمانيون في القرن الثّامن (انظر شلطيش).

إشبيلية: قبائل حضرموت، هوازن، خولان، مراد، لَخْم. بقي المسيحيون في إشبيلية والمناطـق المحيطة بها مـن دون أن يتعرّضوا لمضايقات بعد الفتح الإسـلامي. كانت حاضرة بلاط الأميرة سارة حفيدة ڤيتيتسا (غيطشة) بعد وفاة والدها الأمير ألمُند.

---

(1) يقول المقّري إنّ البكريين الذين نزلوا في شلطيش ولبلة وشنتمرية دي أكشونبة، والذين ورد ذكرهم كثيراً في الحروب التي جرت في القرنين التّاسع والحادي عشر إلى جانب اليمانيين والمولّدين ينتسبون إلى قبيلة مُضَرية، ولكن السّنيور يونس يؤكّد أنهم كانوا من المولّدين، ويبدو أنهم كانوا من السّلالة الحاكمة ينتسبون إلى الأميرة سارة وتربطهم صلة قرابة بأبي بكر أحد أجداد ابن القُوطيّة.

العائلات المتحدّرة من الأميرة القُوطيّة

سارة – عيسى بن مزاحم (الزّوج الأول)

بنو إسحاق – بنو إبراهيم

مارية والدة عبد الرّحمن الثّالث

احمد بن إسحاق – أُميّة بن إسحاق

أبو بكر بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم (ابن القُوطيّة)

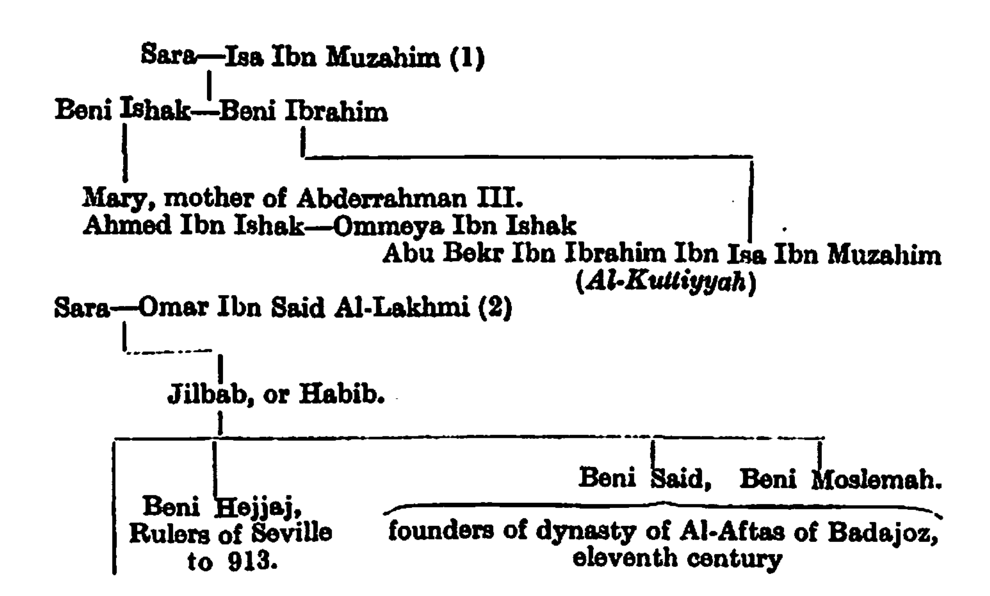
سارة – عُمير بن سعيد اللّخمي (الزّوج الثّاني)

جلباب أو حبيب

بنو حجّاج، حكّام إشبيلية حتى عام 913

بنو سعيد، بنو مسلمة

مؤسّسو سلالة بني الأفطس التي حكمت بطليوس في القرن الحادي عشر.



بنو جُرج Beni Jurz, or Jorj (George). مسيحيون ملكوا عدّة قلاع حصينة في الحرب الأهلية في القرن التّاسع (مار جرجس واحد من القدّيسين الأقباط الأكثر شهرة بين النّاس)، ومن المحتمل أنه جرت تسمية قلعة سان خورخِه في طريانة نسبة إليهم، وكانت تحمل هذا الاسم قبل حرب الاسترداد.

يبدو أنّ أحفاد الأميرة سارة الذين اعتنقوا الإسلام اتخذوا كذلك أسماء عربية. أمّا الذين احتفظوا بدين جدّتهم فيمكن تتبّعهم من خلال أسمائهم المسيحية. كان بنو حجّاج ذوي شأن في إشبيلية حتى الرّبع الأخير من القرن الحادي عشر، ولا يظهر اسم هذه السّلالة خلال احتلال المرابطين ولكن ربما تكشف أبحاث لاحقة أدلة تؤكّد أنهم بقوا فيها.

يظهر الاستمرار في استعمال اسم قلعة بني سعيد حتى عام 1263 أنّ هذه السّلالة المتفرعة من الأسرة المالكة القُوطيّة - اليمانية كانت لا تزال موجودة في الإقليم حيث كانوا يملكون أراضي وعقارات قبل قرنين منذ ذلك التّاريخ على الأقل. كما أن ذكر «Venabet» (ابن عَبّاد) في كتاب «ريبارتيمينتو» *Repartimiento* الذي يتضمّن سجلاً للمنح الملكية للقرن الثّالث عشر يبيّن أنّ أحفاد بني عَبّاد كانوا يحظون بمعاملة ذوي الشّأن في إشبيلية في ذلك الوقت.

وصناعات إشبيلية التي ذكرها مختلف الكتّاب العرب: بناء السّفن والهندسة المعمارية (إشبيلية هي المدينة الوحيدة التي يتغنّى الكتّاب العرب على اختلاف عصورهم بروعتها وجمال أبنيتها بوجه عام، وكان الموحّدون وغيرهم من السّلالات المسلمة التي حكمت المغرب، يستقدمون المهندسين من إشبيلية)، الأقمشة الحريرية، الآلات الموسيقية، وزراعة مختلف الأزهار والأشجار المثمرة. اشتهرت بصياغة الجواهر المرصّعة بالأحجار الكريمة والتي يوجد نموذج منها في المتحف الوطني في مدريد يشير إلى أنه صُنع للمُعتمِد بن عَبّاد من قبل (حفيده) ابن السَّراج. ولا تزال قطع الأثاث المطعّمة تصنع في إشبيلية وفق التّصاميم التّقليدية. ومن بين المنتجات التي يذكرها الكتّاب الشّرقيون الذين يزورون إشبيلية ويعتبرونها تستحق الثّناء بشكل خاص؛ الخمور والزّيوت والزّيتون والبرتقال والليمون، والليمون الأخضر، ونوع نادر من التّين يُسمى «القوطي»، والخضار على أنواعها ومن ضمنها الخيار والملفوف.

وكانوا يربّون ويجمعون القرمز[1] على نطاق واسـع، كما زرعوا شـجرة الطّقسوس التـي تصنـع من أغصانهـا الأقواس، «التـي كانت تنبت هنـا بوفرة تفـوق أيّ مكان في العالـم». ولطالمـا امتُدحـت فاكهتهـا المجفّفة ومطبخهـا. كانت مشـغولات القصب والخيـزران (ولا تزال) حرفة العديد من الغجر (المصريين) في طريانة التي كان قسـم كبير من سكانها منهم. أمّا صناعة الخزف فيها فموغلة في القدم.

طُليطلة: عاصمة ممتلكات الأمير رُملة (رومولو) الابن الأصغر لغيطشة (ڤيتيتسا). كان معظم سـكانها مسـيحيين طوال فترة الحكم الإسـلامي إلى أن استعادها ألفونسو السّـادس عام 1085 اسـتجابة للنّداءات العاجلـة التي وجّهها إليه المسـيحيون. عُرف هؤلاء بالمستعربين، وكانوا مثل المسيحيين القوط في أراضي إشبيلية التي كان يملكها شـقيق رومولو الأكبر. استقرّت قبيلة الأزد اليمانية في طُليطلة مع المسيحيين في حين استقرّ أبناء قبيلة كنانة المُضَرية التي كان يوجد لها فرع هنا وبصورة رئيسية في النّواحي الواقعـة خـارج حـدود المدينة. اشـتهرت طُليطلـة على مـرّ العصور بصناعـة الدّروع والمصنوعات المعدنية المُكفّتة، وهي حرفة فنيّة لا تزال حيّة إلى اليوم[2].

أبذة: يمانيون، لم يذكر اسم القبيلة. الصّناعات: زراعة الكرمة.

بلنسـية: لا يـرد ذكر خـاص للقبائل التي اسـتوطنت هنا، ولكنها كنـت قبائل يمانية

---

(1) أورد المؤلفان أن حشرة Cochineal كانت تربى في إشبيلية قبل سقوطها في منتصف القرن الثّالث عشر، وذلك قبل أكثر من قرنين من اكتشاف أمريكا في نهاية القرن الخامس عشر حين اكتشف المستوطنون الإسبان هذه الحشرة التي موطنها الأصلي أمريكا الجنوبية والمكسيك وكان يستخدمها الأزتك والمايا لصنع اللون القرمزي بعد جمعها من على نبات الصّبار الذي تعتاش عليه. استثمرها الإسبان وباتوا يصدرون الصّباغ إلى أنحاء العالم. أما في الأندلس فاستخدم القرمز لصنع اللون الأحمر القاني حيث يورد المقّري نقلاً عن ابن البيطار ان القرمز «نوع من المَن الذي يجمع عن الشّجر». ويقول المقّري إنه اشتهر في إشبيلية ولبلة وشذونة وبلنسية. (الجزء 1، ص 141، 208) (م)

(2) وتعرف باسم: داماسكينادوس Damasquinados نسبةً إلى مدينة دمشق، وهي تتم بتخشين سطح المعدن عن طريق تحزيزه بمبارد دقيقة، ثم تطريق خيوط ذهبيّة أو فضّيّة عليه تثبت في أثلام المبرد وتُشكّل بها رسوم زخرفيّة بديعة، وتعرف هذه الصّنعة بفن التّكفيت. (أحمد)

بصورة رئيسية وكان لبلنسية حكّام يمانيون على الدّوام ما لم يستولِ المعسكر المعارض مؤقتاً على الحكم. اشتهرت المدينة على مرّ العصور بفنون البستنة وبالأخص زراعة الأزهار. أطلق الكتّاب العرب على المدينة اسم «مُطيب الأندلس»[1] و«حزمة العشب العطرة». وكان يزرع فيها الزّعفران ونوع متميّز من الكُمّثرى (الإجاص). كتب الشّقندي في القرن الثّالث عشر أن بلنسية كانت جنّة المسرّات وأنّ الإزعاج الوحيد كان «رقص البراغيث فيها ... على غناء البعوض»[2]. لا تزال بلنسية مشهورة بالبستنة وأزهارها ذائعة الصّيت، ولا تزال الكمّثرى «حلوة المطعم ذكية الرّائحة» تزرع فيها وتصدر إلى كافة مناطق جنوب إسپانيا.

سَرَقُسطة: تقدّمت قبائل هَمْدان، وتُجيب والخزرج على هذه المدينة منذ الفتح الإسلامي. واشتهرت بصناعة الملح، والبستنة بصورة عامة، والفاكهة المحفوظة والحمّص المصري *garbanzos* الذي لا يزال الغذاء الرّئيسي للفلاحين عبر كافة مناطق الأندلس.

شكّل أبناء القبائل المُضَرية غالبية في عدد قليل من المدن، ولا يذكر الكتّاب العرب أنّ أيّاً منها اشتهرت بصناعة معيّنة. عاشت بالتّأكيد عائلات مُضَرية في بعض الأماكن المذكورة أعلاه، ولكنها كانت دائماً أقلّية فيها. ولم يشر الكتّاب العرب إلى صناعة الجلود والحليّ الفضّية المرصّعة بالألماس والصّياغة التّخريمية اليدوية الدّقيقة للفضّة والذّهب في قُرطُبة، على الرّغم من أنها أصبحت مشهورة تحت الحكم المسيحي.

ذكرت أماكن أخرى عديدة عمّرتها قبائل وعائلات ذات أصل يماني، ولكننا اكتفينا في هذه القائمة بذكر تلك التي لها علاقة بالفنون والحرف والصّناعات. ومع أن الطّرد النّهائي للمورسكيين في القرن السّابع عشر ولّد ركوداً واضمحلالاً لكافة أشكال

(1) «وأما بلنسية فإنها لكثرة بساتينها تعرف بمطيب الأندلس» (المقّري، 3، 221) (م)

(2) وذلك في هذين البيتين:

ضاقت بلنسية بي وذاد عنّي غموضي

رقص البراغيثُ فيها على غناءِ البعوضِ

(المقّري، 1، 180)، لكن المقّري لم ينسب هذه الأبيات لشاعر بعينه. (م)

الحرف والصّناعات التي اشـتهرت بها الأندلس في السّـابق، لم يندثر تماماً سوى عدد قليل من الفنون والحرف القبطية أو العربية فيها؛ فحتى الآن وفي حال وُجد طلب على مثل هذه المنتجات فإنه قلّما توجد صناعة لا يمكن إعادة إحيائها من خلال اسـتخدام الرّجـال والنّسـاء الذين أتقنوا في شـبابهم هـذه الحرف المحلّية لتدريـب غيرهم على أدائهـا. ولا تـزال تُصنع في غرناطة وإشـبيلية منتجـات يدوية الصّنع كأشـرطة الحرير وأقمشـة الكتان والسّـلال ذات التّصاميم العربية. وتعتمد مدينة غرائليما Grazalema - ابن السّـليم - في نصف مدخولها على صناعة الملابس الصّوفية المنسـوجة يدوياً والتي تشتهر بأنها لا يعتريها البلى.

تصنـع أنـواع الحلوى العربية والبقلاوة باتباع الوصفـات العربية التّقليدية في مدينة شـذونة وجبـل العيـون؛ وتنتج مشـغولات جلدية مدموغة في إشـبيلية حيـث لا تزال تشاهد مشغولات مطرزة بصورة رائعة بين الحين والآخر؛ ولا تزال حرفة حفر وتعشيق الخشب *artesonado* والبلاط القيشاني الملوّن المقطوع باليد *alicatado* التي اشتهر بها العرب تشـكل جزءاً من صنعة معلّمي النّجارة والبنّائين المهرة في مقاطعة إشبيليّة. وتصنـع الأوانـي الخزفية باليد في كل قرية يوجد فيها حفـرة صلصال؛ وتوجد الحُصر حيـث يوجـد مجتمع مـن الغجـر. ولا تزال تشـاهد في كل منـزل الوسـائد المخرمة، والدّنتيـلا المشـبّكة، والمطـرّزات التي جلبها الأقبـاط وأوصلوها إلـى ذروة الإتقان، الأمـر الذي حـض الملوك على إصدار المرسـوم تلو الآخر لتحريـم صنعها باعتبارها سـلعاً كمالية غير ضرورية اعتباراً من القرن الخامس عشر. ولا يمكن العثور على هذه المشـغولات في السّـوق، لأنّ كل امرأة تصنع الكثير من كل نوع منها بحيث لا يحتاج أو يرغب أحدٌ في شرائها.

وفـي واحـدة أو اثنتيـن من المـدن الكبـرى، أصبحـت المشـغولات «الإنكليزية» المخرّمـة المكونـة مـن جدائل مصنوعـة على الآلات منتشـرة لدى الطّبقة الموسـرة. ولكـن لا تزال النّسـاء عموماً، بنـات الطّبقات الميسـورة أو البسـيطات، يفضلن صنع المشـغولات التّقليدية المخرمـة والمطرزة التي تعتمد على قطبة «المية»، والتّشـبيك،

والتّطريـز المنمّـق بطريقة النّسـل، وشـغل الإبرة بتفانينـه المختلفة التي تحمل أسـماء «الشّـموس» والعجلات» و«الشّـبكات» *soles, ruedas y randas* والدّنتيلّا المطرّزة على الوسائد وفق تصاميم عربية ومصرية.

لسوء الحظ لم يعد الإسپان الأثرياء يشترون هذه المنتجات، ويفضّلون شراء السّلع الأجنبية المصنوعة بالآلات في مختلف فروع الاقتصاد المحلّي.

يسـتورَد البـلاط المطبـوع بكلفة كبيرة من فرنسـا رغـم الرّخص والجمـال المميز لبـلاط الزّلّيج اللمّاع *azulejos* أو الخزف القيشـاني المقطّع والمصنـوع باليد محلّياً؛ هنا تُهدم السّـقوف الرّائعة المصنوعة من الألواح الخشـبية المعشّقة الغائرة والمفعمة، لتوضـع مكانها نسـخ من الجصّ لزخارف شـبه كلاسـيكية إيطالية؛ ويتـم التّخلّي عن الجلـود الجميلـة المطـرزة والمدموغة والدّيبـاج المحلّي الغني بتفاصيلـه الدّقيقة من أجل الأطلس السّـاتان الجديد أو البلش القطيفة في تنجيد الأثاث في المنازل الفخمة والقصـور؛ وحلّـت قطـع الأثاث التـي تشـكل تقليداً لأثـاث «لويس الخامس عشـر» محل الخزائن والكراسـي والطّاولات الإسـپانية المتميّزة المصنوعة من خشـب الأرز والماهوغاني المطعّم بالخشب البرتقالي التي كانت في السّابق تحتلّ مركزاً مشرّفاً في منازل الملوك.

خـلال جيـل واحد أو جيليـن من الآن سـتصبح كل هـذه الفنون والحـرف مندثرة لعـدم توفّر سـوق لها، ولكن حتـى ذلك الحين يمكن أن ينتعش الطّلـب لو لقي تقديراً لدى الأثرياء. يقوم مدير وأمين عام كلية الفنون في إشـبيلية السّـيد پيتالوغو Pitalugo والسّـيد ماتّونـي Mattoni علـى التّوالي في الوقت الرّاهن بعمل شـهم لإحياء وتطوير صناعة بلاط الزّلّيج والقيشاني في المدينة؛ ولكن الإنتاج المدهش الذي يحقّقه طلاب الكلية لا يلقى سوى اهتمام محدود من أثرياء المدينة. تبنى سنوياً منازل فسيحة جديدة هنا بملايين البيسـيتات[1] ولكن – وعلى الرّغم مـن أن أهل الفكر الأميركيين يعتبرون

(1) استخدمت البيسيتا peseta كعملة في إسپانيا منذ عام 1869 وحتى 2002 عندما قيضت باليورو الذي استُبدل حينها مقابل حوالى 166 بيسيتاس. (م)

حرفيي إشـبيلية مؤهّلين جيداً للعمل كمدرّسـين في الكليات الفنّية الأميركية - يضطرّ أولئـك الذيـن يحافظون علـى التّقاليـد القبطية العربية إلـى قضاء عمرهـم في تركيب منتجات مصانع لندن وپاريس أو نيويورك بدلاً من أن يستمرّوا في إنتاج القطع اليدوية الجميلة التي بقيت حيّة بفضلهم طوال ألف عام.

* * *

ملحق

ملاحظات على الفصل الأول

يلاحظ تشامبرلين في كتابه *"Foundations of the Ninetheeth Century"* (أسس القرن التّاسع عشر) أنه «في إسپانيا كان القوط الغربيون هم الذين يشكّلون عنصر الحياة»[1]. وتتجلّى حيوية هذا العرق في أنهم حافظوا وعلى مدى قرابة سبعمئة عام على ديانتهم وتقاليدهم وحتى على أسماء عائلاتهم بين قوم غرباء يتبعون عقيدة هي في موقع عداء مع عقيدتهم. ومنذ عام 711 إلى 1390، عندما سُمح كما رأينا لأبناء وأحفاد «القوط الصّالحين» بالعودة إلى إشبيلية، احتفظوا بأسمائهم ليس فقط في أرضهم الأصلية وإنما كذلك في المغرب، عندما اضطرّتهم الحرب والاضطهاد إلى ترك الأندلس للاحتماء بالحكّام المسلمين الذين وبعد نحو ثلاثمئة عام من ذلك أشادوا وأثنوا عليهم لدى ملك قشتالة مستخدمين عبارات المجاملة الواردة في الصّفحة 33 (طبعة الأصل).

لقد أسيء فهم تاريخ الأندلس منذ لحظة وصول موسى بن نُصير وحتى سقوط دولة الموحّدين في إشبيلية في عام 1248 بصورة كبيرة، فلم يتم الاعتراف بالدّور الذي اضطلع به المجتمع القوطي. ويقال إنّه خلال احتلال القوط الذي استمرّ لثلاثة قرون لإسپانيا، قبل الفتح الإسلامي، «غرقوا في مستنقع الشّهوانية نفسه الذي كان سبباً في خراب الرّومان». . «وأباحوا الفساد على نطاق واسع» و«بزّوا إن لم يتفوقوا على الوثنيين في فنون المكر والخبث»[2].

---

(1) i. Ixvi.

(2) S. Lane Poole, *Moors in Spain*, pp. 7 – 8.

يبدو أنّ القوط تبنّوا إبّان وصولهم إلى إسـبانيا الثّقافة الرّومانية بشـكل تام كما فعل العـرب من بعدهـم. ويقول دوزي إنه «منذ زمـن القوط الغربيين، كانت إشـبيلية مهداً للعلـوم والحضـارة الرّومانية، ومعقلاً لأشـرف العائـلات وأكثرها ثـراءً؛ وبالكاد غيّر الفتح الإسـلامي شـيئاً في الظّروف الإجتماعية»[1]. لقد اعتمدوا العمارة الرّومانية في بناء المنازل وكأنها جزءٌ منهم وقد كانت سـائدة في إشبيلية منذ وقت طويل، وحرصوا على الإقليم وعلى إصلاح الطّرق الرّومانية وأقنية جرّ الماء والجسور والحصون. لقد عبّر المؤرّخون العرب عن إعجابهم بالمدن الحصينة التي شـاهدوها في جنوب غرب الأندلس، مثل قرمونة على سبيل المثال في إقليم إشبيلية، «التي على الرّغم من منعتها بفضل موقعها وأسوارها القديمة استسلمت إسوة بإشبيلية وغيرها من مدن الأندلس». قابل موسى وقواته أثناء سيرهم من ماردة إلى طُليطلة «جسوراً رائعة» لم يروا مثيلاً لها من قبل، «لأنها بدت وكأنها ليست من عمل الإنس وإنما من عمل الجن المُنزَلين».

ومن بين المدن المنيعة التي استسـلمت لموسـى بن نُصير لبلة التي لا تزال محاطة تماماً بأسـوارها الرّومانية، وأكشونبة ومارتلة وباجة التي لا تزال آثار أسوارها وبوّابتها الرّومانية ماثلة للعيان. ولا شك أن استسلام هذه الأماكن من دون قتال عائد إلى تحالف موسـى مـع الأمراء القوط حيث أن قوة هذه الحصون لم تـرد فقط في كتب المؤرّخين الذين سجّلوا أحداث الغزو، وإنما أكّدتها المقاومة التي أبداها بعضها في وقت لاحق. فعندما أصبحت لبلة فيما بعد مقر قيادة الموحّدين بعد سـقوط إشـبيلية في عام 1248، قاومت حصار جيش قشتالة بكل قوته عدة شهور بفضل قوة ومنعة أسوارها.

المدينـة الوحيـدة التي واجه فيها موسـى مقاومـة هي ماردة التي هـرب إليها أنصار لُذريـق (رودريـك) وكانت تعيش فيها أرملته. وقد تطابقـت النّتائج التي توصلت إليها الحفريات الحديثة مع الوصف الذي نقله كوندِه عن المدينة:

يعزو هذا الكاتب سقوط المرابطين للتّبب نفسه – أي الانحدار الأخلاقي النّاجم عن الغنى والأبّهة الدّخيلة، لكنه في هذه الحالة يعطيهم فقط عشرين سنة لكي يفقدوا عاداتهم العسكرية وحماستهم وشغفهم للقتال (pp. 183 – 4).

(1) *G. der M.*, i. 392.

«عندما رأى موسى تلك المدينة قال لقادة عسكره: «يبدو أنّ كل فنون وقوة البشر اجتمعت لتشييد هذه المدينة، إنه لسعيد الحظ من يفوز بها». وأرسل يدعو المدينة للإذعان وفق شروطه المعتادة؛ لكن سكانها الواثقين من أسوارهم العالية الشّامخة، ردّوا على خطابه باستخفاف». وعندما جُوّعت ماردة بعد طول حصار واستسلمت، ودخلها موسى، «وقف مشدوهاً أمام عظمتها وروعة مبانيها»[1]. يورد المقّري أقل بكثير ممّا يورده كوندِه عن حصار المدينة، لكنه يلاحظ أن «هذه المدينة فسيحة تمتدّ أراضيها لمساحات شاسعة، وفيها آثار قصور وكنائس جليلة القدر، ومبانٍ فائقة الوصف، وغيرها من المباني العامة»[2].

وتجري حالياً حفريات في مواقع «القصور والكنائس وغيرها من المباني العامة، وهي ليست فحسب بذلك البهاء الذي تغنّى به العرب، وإنما تثبت أن القوط وبعيداً عن أن يهدموا أو حتى يهملوا الإنجازات المعمارية التي حقّقها أسلافهم، بذلوا جهدهم للحفاظ عليها؛ فالمدرّج، ومعبد ڤيستا Vesta وغيرها من الآثار المكتشفة في الآونة الأخيرة، تبدو رائعة وفي حالة جيدة مثلها مثل أيّة مبانٍ معروفة تعود إلى الحقبة ذاتها[3].

لقد تكوّنت لدينا قناعة شخصية بأنّ المباني البسيطة مثل معبد شنت ياقُب في شذونة (مراجعة الصّفحات 136 - 137 طبعة الأصل) لا ينبغي النّظر إليها، كما يبدو أن الحال كانت عليه حتى الآن، بوصفها مثالاً يقدّم صورة عادلة للعمارة القُوطيّة الغربية. حيث لا يمكن في أي بلد من البلدان أن يُعثر على أرقى المنجزات الفنية لشعب من الشّعوب أو حقبة معيّنة في القرى النّائية أو المعابد الجبلية. فلماذ ينبغي إذن الافتراض بأنّ مثل هذه الآثار في المناطق القُوطيّة في إسپانيا تمثّل أرقى ما بلغه قوط إسپانيا في إبداعهم؟

---

(1) Conde, i. 41, 44.

(2) i. 284.

(3) يمكن مقارنة ما فعله ثيودوريك، القوطي الشّرقي «الذي أولى عنايته منذ البدء لاتخاذ تدابير صارمة لحماية وترميم الصّروح الرّومانية»، والتي كان المسيحيون المتعصّبون التّابعون لروما يبذلون كل جهد لهدمها. (Chamberlain, *Foundations*, i. 322.)

نحن نميل للاعتقاد بأنه مع مرور الوقت سيتبيّن أنّ قسماً كبيراً ممّا صُنّف باعتباره ينتمي إلى فترة متأخرة من العمارة الرّومانية في إسپانيا هو في الحقيقة قوطي غربي. فلو كان رومانياً حقاً لكان بعضه في حالة متقدّمة من التّحلّل. ولكن وبالنظر إلى كونه عملاً انتجته أمّة حديثة خرجت لتوّها من الوحشية، نجد أنّ هذا الفن يحمل خصائص مثيرة للاهتمام. ولسنا هنا في مجال الخوض في تفاصيل النّمط الذي في ذهننا، والذي لا يمكن أن نلقي الضّوء على أهمّيته إلا من خلال استعراض العديد من الصّور، ولكننا نأمل أن يتسنّى لنا الخوض في هذا الأمر باستفاضة في المستقبل.

نسب رِن[1] القوس المستدقّ المعروف باسم القوس القوطي إلى العرب، و«قد أدخل عليه المسيحيون تحسينات». ونعتقد أنه بات اليوم مقبولاً بصورة عامة أنّ القوس المستدقّ جاء من الشّرق، على الرّغم من أنّ مصطلح قوطي Gothic المستخدم للإشارة إلى الطّراز المعماري الذي يشكّل فيه هذا القوس خاصّية رئيسية، لم يحظَ يوماً بشرح يفي بالغرض. وعليه فإننا نخاطر بأن نفترض بأنّ الاسم نشأ من الطّراز المعماري الذي طوّره المسيحيون القوط في جنوب إسپانيا بتأثير من الأقباط. لم تندثر تقاليد العمارة القُوطيّة في جنوب غرب الأندلس في أيّ وقت من الأوقات، ولا تزال صفة «قوطي» *gótico* مستخدمة هنا بمعنى مختلف عمّا تعنيه في أماكن أخرى. فالفلاحون الأمّيّون في الجبال والذين لا يعرفون بالطّبع أيّ شيء عن المصطلحات والحقبات المختلفة للفن الأوربي، يستخدمون تلك الصّفة لوصف المباني والمنحوتات التي تعود إلى فترة سابقة بكثير عن أي شيء يمكن نعته بالـ «قوطي» بالمعنى الشّائع للكلمة.

إنّ التّلميح بأنّ مصطلح «قوطي» استخدم بطريقة ساخرة من قبل المهندسين المعماريين الإيطاليين المثقّفين لوصف العمارة القديمة المسنّنة قد يكون له في الحقيقة منشؤه، حتى وإن كان يعود لتاريخ سابق عمّا هو منسوب له. فالفرسان الغرباء الذين كانوا يرافقون جيش قشتالة في الحروب التي خاضها فرناندو الثّالث وابنه ألفونسو العاشر في القرن الثّالث عشر، ربما فاجأتهم فظاظة الكنائس المسيحية

(1) المهندس الإنكليزي الشّهير كريستوفر رِن Wren. (م)

البازيليكيـة التـي رأوهـا في إشـبيلية والتي بما أنهـا كانت كنائس للقـوط، فقد كان من الطّبيعي أن توصف لهم باعتبارها قوطية.

وعلى امتداد مئة سـنة على الأقل قبل حرب الاسـترداد، شـهدت العمارة المستدقّة في إشـبيلية والنّواحي المجاورة لها تراجعاً مقارنة مع معدّل انتشـارها المتوقع بصورة طبيعيـة، نظرا لعشـق الموحّدين للعقد الشّـبيه بحدوة الفرس وأعمـال الجصّ المفرّغ المخـرّم التي كانت منتشـرة حينها في البلدان الإسـلاميّة في الشّـرق. ويمكن دراسـة التّأثير المدمِّر لهذه المدرسـة المعمارية على الذّوق القبطي القوطي في قضاء إشـبيلية في كنيسـة سـانلوكار لا مايور والتي يشار إلى أنّ بناءها أُنجز في سنة 1214. هنا تمتزج العقـود التي ميّزت العمارة المغربية الأفريقية والزّخرفة المغربية الأفريقية مع الأعمال القُوطيّة الصّرفة لتكون النّتيجة مزيجاً محيّراً وصفه مسـلمو الأندلس والمدجّنون على أنـه «طـراز معماري غريب صنعـه الفنانون المغاربـة من أجل أسـيادهم النّصارى بعد حرب الاسـترداد». لم يكن هذا الطّراز المفضّل لدى إسـپان الأندلس بعد الاسـترداد، حيث أنّ كل كاتدرائية وكنيسة وحصن مسجّلة على أنها بُنيت أو أعيد بناؤها بين القرن الثّالـث عشـر والقرن الخامس عشـر تتفق مع الطّـراز المعماري «القوطـي» الذي كان سائداً حينها في أوروپا.

منذ منتصف القرن الثّالث عشـر وحتى بداية القرن السّـادس عشر، لا نجد شيئاً غير الأعمـال القُوطيّـة، وليس هنـاك أيّ مبنى ذو أهمية بُني على الطّـراز «المغربي» في إيّ مـكان في نواحي إشـبيلية. وقـد بُني حينها قصران شـهيران أو أعـادت عائلة ريبيراس Riberas بناءهمـا فـي إشـبيلية، وهـي واحـدة مـن كبـرى العائـلات التي عاشـت في تلك المدينة في القرنين السّـادس عشـر والسّـابع عشـر. وأحدهما هو كاسـا دي لاس دوينيـاس Casa de las Dueñas، المعروف اليوم باسـم قصر دوق ألفا Alva، والذي باعـه المالكـون الأصليون إلى عائلـة ريبيراس لكي يجمعوا المال لدفـع الفدية وإنقاذ كبيرهم، خوان دي ڤينيدا، الذي سقط في يد القراصنة المغاربة. وقامت عائلة ريبيراس بترميـم القصر وإعادة تزيينه. والثّاني هو ما يسـمى منـزل پيلاطس، ويملكه اليوم دوق

مدينـة سـالم، أحـد أحفـاد عائلة ريبيـراس. وتشـكّل الزّخـارف الموجودة فـي هذين المنزلين نسـخة من الطّراز الذي نشـره الموحّدون وكلاهما يعودان الى الحقبة نفسها، علـى الرّغم مـن أنّ منزل دوق ألفا يحتوي على آثار تعود إلى فترة أقدم وهي بلا شـك ما تبقى من فترة الحكم الإسلامي. ولكنهما قلّما يمكن أن يشكّلا مثالا للأذواق الفنّية لعائلـة واحدة. المبانـي الأخرى الرّائعة التـي تقدّمها الأدلّة السّـياحية بوصفها «تنتمي الـى الفن المدجّن» أو «الموديخار» تعود إلى فترة احتلال الموحّدين أو ما قبلها، على الرّغـم مـن أنه أضيفت فـي بعض الحالات زخـارف وكتابات تنتمي إلـى فترة لاحقة. ويرجّح أنّ القصر الرّائع العائد لدوقات مدينة صيدونيا (شـذونة) والذي تحوّل الجزء الباقي منه اليوم إلى متجر أقمشة بالجملة، أعيدت زخرفته في أواخر القرن الرّابع عشر أو بدايـة القرن الخامس عشـر، باتّباع الطّراز الإسـلامي المغربـي القديم، لكنه لا يزال يحتفـظ ببعـض قطع بلاط الفسيفسـاء *alicatado* في الطّابق السّـفلي. لقد كان واحداً مـن القصور الرّومانية القُوطيّة الغربية وتوجد فيه بركة للسّـمك ونافورة رومانية عليها كتابات لاتينية في الحديقة.

لـم تكن هناك على الإطلاق ميول راسـخة أو تعلُّقٌ بصـورة عامة بالفن «المغربي – الأفريقي» في إشبيلية، ويبدو أنه من الممكن جداً أنّ إعادة بناء الكاتدرائية، التي بدأت في عام 1401، تقرّرت لأنّ المجمع الكنسي رغب في تغيير الطّابع الإسلامي للمسجد الذي تم تحويله إلى كنيسة، أكثر منه كون المبنى في حالة سيئة. حيث أنه ما كان يمكن لمبنـى بُنـي قبل قرنين بقليل من ذلك الوقـت (1175 – 1181) أن يكون قد تحوّل إلى خـراب[1]. بمـا أنّ العمـارة القُوطيّة كانت هي الاتجاه السّـائد في تلك الحقبة، يسـهل أن نفهـم الشّـعور بالمهانـة الذي شـعر به رجال الكنيسـة الإشـبيلية إزاء أقواس حدوة الحصان والزّخارف المخرّمة الخاصّة بالمسـلمين، وكيف أن ذوقهم الفني وأفكارهم الدّينية المسـبقة دفعتهم إلى التّخلّص من كل ما يذكّر بالحكم السّـابق للدّيانة المعادية لهم.

(1) هذا ما كانت ستكون عليه الحال، لو كانت تلك الكاتدرائية القُوطيّة القديمة التي – كما تبيّن الأدلة التي بحوزتنا اليوم – قام الموحّدون بتوسيعها وزخرفتها.

الكنائس والرّسوم، الخ بالإضافة إلى تلك الواردة أسماؤها في النّص باعتبارها وجدت خلال الحكم الإسلامي

إشبيلية – *Compas de San Miguel* كان مسكن الأساقفة «في ظل الاستعباد» وكان يسكنه المسيحيون في فترة حرب الاسترداد. وتخليداً لذكرى المطارنة، أهداه سان فرناندو للكاتدرائية. ولا يزال اليوم يستخدم كسكن لرجال الدّين الأقل مرتبة وفيه مقرّ مدرسة التّرتيل التّابعة للكاتدرائية، ولا يزال يعرف باسم مدرسة سان ميغيل *Colegio de San Miguel*.

كان المسيحيون يستخدمون كنيسة سان نيكولاس الحالية للعبادة في ظل الحكم الإسلامي، وكانت تعرف باسم سانتا ماريّا سوتيرّانيا أو «كهف» سانتا ماريّا. وربما عرفت بهذا الاسم لما فيها من سراديب أو قباب (رومانية على الأرجح) ذكرها أباد غورديّو Abad Gordillo في القرن السّادس عشر.

كانت توجد في سانتا ماريّا حتى القرن السّادس عشر كتابة تحمل تاريخ 607 أو 670 ميلادي – تبعاً لمرجعين مختلفين. ولا تخصّص القائمة الطّويلة في قائمة المهرجانات الإسبانية اليوم أيّ يوم لسانتا ماريّا (التي كرّست كنيسة أخرى قديمة باسمها في قُرطُبة). وتنتمي هذه الكنيسة مثل سان نيكولاس والعديد غيرها في إشبيلية إلى الطّراز البازيليكي مع أعمدة وتيجان رومانية، وتوجد فيها إضافات من العمارة الإسلاميّة في الأسقف والمحاريب الجانبية. وزيّنت الواجهة الغربية برسومات تنتمي إلى القرن الحادي عشر مستوحاة من الفن المصري، بما فيها «خا» على شكل صورة أنثى تسند رفّاً تجلس عليه العذراء والطّفل يسوع في وضعية شائعة في منحوتات إيزيس وحورس.

كان سان لورنثو، قبل حرب الاسترداد، ديراً ومستشفى مكرّسة للقديسة بربارة (سانتا بربارة). ويوجد فيه الرّسم الجداري المعروف باسم عذراء روكامادور وينسبه المختصّون إلى فترة لا تتعدّى القرن الثّاني عشر[1].

---

(1) See Zúñiga, i. 57 – 8, and iii. 262 – 9, and Scrrano, *Glorias Sevilanas*, 158, 163, 167.

وفي أناشيد *Cántigas* ألفونسو العاشر وجدنا الإشارات التّالية إلى الكنائس الأولى، الخ.

كانت هناك كنيسة قديمة في مُرسية «في مكان مقدّس بالنّسبة للمسلمين» رفض ملكهم (الذي لم يذكر اسمه) هدمها خشية انتقام «مريم» Mariame.

مرفأ سانتا ماريّا، قبالة قادس، كان المسلمون يسمّونها القناطر، وعامرية القناطر Amaria Alcanatir وترمز القناطر إلى الجسر الرّوماني الذي لا تزال بقاياه ماثلة إلى اليوم في النّهر عند انحسار المدّ، لكنّ Amaria لا بدّ أنها تحريف عن الاسم القوطي. أمر ألفونسو العاشر في امتياز مسجّل في إشبيلية بتسمية المكان باسم «إل غران پويرتو دي سانتا ماريّا» (مرفأ سانتا ماريّا الكبير)، ونجد في الأناشيد مشاعر عدم ارتياح بين الجانبين لأنّ المسيحيين المقيمين فيها قبل استسلام المكان لألفونسو أصرّوا على تسميته سانتا ماريّا، في حين رغب الموحّدون من سكان شريش أن تسمّى القناطر Alcanate. وعندما استولى ألفونسو على المدينة عُثِرَ على صورة للعذراء في خندق مائي حول حصن القديس مرقس، فأمر الملك على الفور بالبدء ببناء كنيسة تحفظ فيها الصّورة التي نسبت إليها قوى عجائبية إلهية في الأناشيد[1]. (للحصول على وصف لهذه الكنيسة البدائية تحت هذا الحصن، انظر ص 137 طبعة الأصل). باتت اليوم كنيسة الرّعية. ربما كانت المسجد الرّئيسي أو الوحيد وتم تحويلها إلى مكان عبادة للمسيحيين، ولم يأمر ألفونسو العاشر ببنائها، لأنّ فيها مميّزات تختلف عن الكنائس العائدة للقرن الثّالث عشر في هذه المدينة أو غيرها. وتشبه الواجهة الغربية المبنية في القرن الخامس عشر كثيراً واجهة كاتدرائية إشبيلية ولكن بأبعاد أصغر ممّا يوحي بأنّ الاثنتين من عمل مهندس واحد. ولا توجد أوجُهُ شبه بين هذه الكنيسة وكنيسة القديسة آنّا في طريانة، والتي أدخل عليها ألفونسو تعديلات في سنة 1282. ولا يزال

(1) Idrisi, p. 47, *Cántigas*, *Passim*. Pelayo Quintero y Atauri, in an article on Mozarabic Churches in Diario de Cadiz, July 30, 1910.

پيلايو كينتيرو إي أتوري في مقال عن الكنائس المستعربة في يوميات قادس، 30 يوليو، 1910.

رسم العذراء الذي عُثر عليه في خندق الحصن محفوظاً هنا باسم «پاترونا»، أو شفيعة المدينة. وهي صورة صغيرة وقد غدت سوداء لقدمها.

وفي فارو Faro، في الإقليم المعروفة اليوم باسم آلغاربِه Algarve (الغرب)، (في أقصى جنوب البرتغال) كانت توجد صورة للعذراء على الشّاطىء «في زمن المسلمين الأفارقة» Moros. ولكن «المسلمين الأفارقة» (الموحّدون) رموها في البحر، ولم يصطد أحد سمكة واحدة بعدها إلى أن استعاد المسيحيون الصّورة، فصار بعدها الصّيد وفيراً؛ كما تقول الأناشيد.

ويبدو أنّ شنتمرية أكشونبة كانت هي نفسها شنتمرية الغرب، حيث كان الكتّاب المسلمون والمسيحيون يشيرون إليهما بصورة متكرّرة. ويقول الإدريسي إنّ هذه المدينة كانت تقع في مكان ما قريب من شلب، على شاطىء البحر. «ومدينة شنت مارية على معظم البحر الأعظم، والسّور منها يصعد ماء البحر فيه إذا كان المَدّ. وهي مدينة متوسّطة القدر حسنة الرتيب لها مسجد جامع ومنبر وجماعة، وبها المراكب واردة وصادرة ». (Idrisi, p. 16). يوجد الآن رأس سانتا ماريّا بالقرب من فارو. لقد اختفى الكثير من المعالم التي ذكرها الإدريسي ولكن يبدو أكيداً أنّ هذا هو المكان المذكور في الأناشيد، على الرّغم من أنه، ونظراً لصعوبة الوصول إليها، لم نتمكن من زيارتها بأنفسنا لنكوّن فكرة نهائية.

في قلعة النّهر على الوادي الكبير، بالقرب من إشبيلية، توجد كنيسة بازيليكية قديمة بها عقود مستدقّة مبنية في الأصل وليست مضافة إليها في فترة لاحقة مثل العديد من الكنائس الأولى في إشبيلية. ولا تزال تحتفظ بالكتابة التي تكرّسها منذ البدء للقديس غريغوريوس، ومن المعروف أنها وُجدت بشكلها الحالي منذ ما قبل حرب الاسترداد بوقت طويل.

نشعر بقليل من الشّك، انطلاقاً من تجربتنا الخاصة، أنه عندما تجرى دراسة معمقة لكل الأماكن التي تعتبر مسيحية سواء من قبل الكتاب العرب أو المسيحيين، وعند الضّرورة، تنبش بقايا كنائسها المهدمة، سيثبت ذلك أن المجتمعات المسيحية

المشـار إليها كانـت أكبر وأكثر أهمية ممّا يعتقد في الوقـت الحالي. ومن غير الواضح ما تعنيه على وجه الدّقة عبارة «مسجد الكاتدرائية» *mezquita catedral* في ترجمتها الإسپانية عن الإدريسي، ولكن مجرّد أن يكون قد وّجد في «شانت مارية الغرب» على مكانين مسيحيين للعبادة وعلى مسجد واحد للمسلمين، هو أمر ملفت، وخصوصاً أنه كُتب خلال فترة احتلال الموحّدين عندما كان المسيحيون، إن كان هذا قد حدث على الإطلاق، يخضعون لحظر فرضته الطّائفة الحاكمة.

قبـل اختتـام هـذه الملاحظة، التـي كان لا بدّ من إيرادهـا نظرا للأدلّـة الحديثة التي ظهـرت بعـد كتابة الجـزء الأول من كتابنا، علينـا أن نضيف بضع كلمات عن الشّـعائر الدّينية التي كانت متّبعة في الأندلس، والتي، على ما نعتقد، ليسـت شائعة في الكنائس الكاثوليكية في أيّ مكان آخر.

كان العديـد مـن كنائـس إشـبيلية وغيرهـا يسـتخدم جرسـاً خشـبيا - على شـكل خشخيشـة - يسـمى مطرقة *matraca* في أيام خميس العهد أو خمس الصّعود، عندما لا تقـرع الأجراس[1]. وهذا في الأصل تقليد شـرقي وعليـه لا يمكن أن يكون قد ظهر بعد حرب الاسـترداد التي قام بها النّصارى، وإنما لا بدّ أنه يشـكّل اسـتمرارية لطقس أقامه المسيحيون في ظلّ الحكم الإسلامي.

هناك احتفال خاص جداً يعرف باسم «نشر الرّاية» *Ostentacion de la bandera* يجري في كاتدرائية إشبيلية يوم خميس الصّعود. ويتم خلاله التّلويح بعلم كبير أخضر مـن التّفتـا[2] *tafetán* فـوق كاهنيـن منبطحيـن على وجههمـا فوق درجـات المذبح. من المسـتحيل الحصول على أيّ تفسـير من المراجع الرّسـمية لهـذا الطّقس الغريب الذي يقول العاملون في الكاتدرائية إنّ له علاقة «بآلام السّـيد المسـيح» *cosas de la*

(1) خميس العهد أو خميس الصّعود، وهو اليوم الخامس في أسبوع الآلام الذي يبدأ الأحد، يوم الشّعانين، ويسبق الفصح، وفيه يتناول المسيح العشاء الأخير مع تلامذته، وفي هذا اليوم يصعد إلى السّماء كما تقول التّقاليد المسيحية. (م)

(2) قماش قديم من الحرير منشؤه شرقي.

Pasion de nuestro Señor. ونحـن ننظـر إلى ذلك باعتبـاره بقايا طقس إذعان لراية الرّسول التي فرضها الموحّدون على المسيحيين كشرط للإبقاء على شعائرهم الدّينية في الجزء الأساسي من كاتدرائيتهم، بعد أن تمّ تحويل قسم منها، وليس كلها، لتصبح المسـجد الرّئيسـي لعاصمة الأندلس فـي الرّبع الأخير مـن القرن الثّاني عشـر. توجد فـي الوقـت الحالي أدلّة لا تقبل الدّحض، تم الكشـف عنها حديثا، بأنه سُـمح للرّسـم الجـداري لعـذراء دي لا أنتيغـوا (العذراء القديمـة، أو من الزّمن السّـالف) بالبقاء في كنيستها الصّغيرة في الجدار الجنوبي للمسجد الجديد حيث كان المسلمون يتعاملون معها بقدسـية مؤسّسة على الخرافات المحاكة حولها حتى العام 1248 عندما قام سان فرناندو بزيارة سرية للمزار وصلّى فيه خلال حصار إشبيلية. يشاع أنّ الكاتدرائية أعيد بناؤها من الأساس في القرن الخامس عشر، لكن مقارنة التّصميم السّفلي لحائط الجهة الجنوبيـة مع المراجع المكتوبـة والمتناقلة تقليدياً، يؤكد أنّ البنّائين تركوا قسـماً على الأقل من هذا الحائط على ما هو انطلاقاً من دوافع الإجلال نفسـها للكنيسـة الصّغيرة وصورة عذراء دي لا أنتيغوا التي دفعت الموحّدين إلى عدم المساس بالمزار.

إنّ شعائر «نشر الرّاية» الغريبة مستمرّة كذلك في قلعة جابر Alcala de Guadaira، ولكنها هنا تجري في الشّـارع خلال مسـيرة خميس الصّعود تجسـيداً للمحطّات التي سـار عليها المسـيح حاملاً الصّليب، وتتكرّر ثلاث مرات على الطّريق وصولاً إلى تلّة شـديدة الانحـدار على بعد نصف ميل، تعرف باسـم كالفـاري (الجُلجُلة) يزورها كل السّـكان في الليلة السّـابقة على صلب المسـيح. وهناك شـعائر أخـرى يجري خلالها تحريـك الهواء حـول الكاهن الذي يقيم القـداس وعناصر المناولة لـدى رفع القربان خـلال أشـهر الصّيف، ويعتقد أنها خاصة بإشـبيلية ولا شـك في أنها تعـود إلى ما قبل الاسـترداد. قد يكون المسيحيون الأقباط أدخلوها إلى الشّـعائر القُوطيّة عندما جاؤوا إلى هنا من مصر مع العرب، أو قد يكون لها منشـأ آخر قبل ذلك. وعلى أي حال، من الواضح أنها انتقلت إلى هنا خلال فترة الحكم الإسلامي.

ملاحظة على الفصل الثّاني

تحمـل الرّوايـات المختلفة عن تحرّكات طـارق بن زياد بعد سـقوط طُليطلة تناقضات لا سـبيل إلى التّوفيـق بينها. لقد درس غايانغوس بعناية فائقـة كل الأدلة المتوفرة في الفترة التـي كتـب فيها، وذلك بهـدف، إن أمكن، تحديد المدينة التي اسـمها ماية Maya أو مدينة المائدة[1] Medinat – al – Meydah حيث يُروى أنّ طارق بن زياد عثر على مائدة سليمان الشّهيرة. يقول بعض الكتّاب الإسبان، وفقا لغايانغوس، إنه عندما سمع سِندريد Sindered أسـقف طُليطلة باقتراب العرب، هرب إلى جليقية مصطحباً معه حليّ الكنيسة وجواهرها، وإن العديد من سكانها فعلوا مثله. ويقول إيسيدوروس پاڤنسيس إنّ سِندريد ذهب إلى روما "Romanae patriae sese adventat" إن كان هـذا يعنـي «الوطـن الرّوماني» Romana Patria ولكنه لا يقول شيئاً عن الحليّ والمجوهرات. ولكن يبدو أنّ الوضع في ماية حُسم عندما اكتشفت مصادفة في عام 1858 مجموعة الجواهر الشّهيرة بين خرائب كنيسة قوطية غربيـة مكرّسـة للقديسـة مريم بالقرب مـن مدينة قدمـر Guadamur في مقاطعـة طُليطلة. والمجموعة محفوظة في متحفي مدريد وكلوني.

في عمل يتعلق بفتح إسپانيا في حوزة غايانغوس – مؤلفه مشكوك في هويته ولكنه معاصـر علـى الأرجح – رواية عن حملة موسـى بن نُصير علـى طُليطلة. فقد وجد في تلك المدينة «قصراً يسـمى بيت الملوك، وقد سـمّي كذلك نظراً للعثور فيه على أربعة وعشرين تاجاً من الذّهب لكل ملك من الملوك الذين حكموا الأندلس. كان على كل تاج كتابة تفيد باسم الملك الذي كان له وعدد الأولاد الذين خلّفهم من بعده، وتاريخ ولادتـه واعتلائه العرش ووفاتـه؛ فقد كانت بين حكّام الأندلس القوط سُـنّة أن يُحفظ التّـاج الذي لبسـه كل واحد منهم خـلال حياته، في ذاك القصر بعـد مماته. وبالإضافة إلى هذه النّفائس، عثر موسى في القصر نفسه على مائدة سميت باسم سليمان بن داود (عليهما السّلام!) وطاولة أخرى من المرمر»[2].

---

(1) المقّري، ج 1، ص 264. (م)

(2) Makkari, i. App. Ixxii.

قبل سنة 1885، كان يبدو وصف حليّ مثل هذه الحليّ التي ملكها ملوك القوط في إسبانيا رومانسية مبالغاً بها، لكن كنز قدمر يبين أنّ ما وصفه الكاتب العربي كان بالكاد يتجاوز الحقائق المجرّدة.

اكتشفت الكنز امرأة فقيرة جاهلة ذات يوم عندما انخفض مستوى مياه نهر وادي الرّصاص بعد فيضانها إثر عاصفة هوجاء، لتكشف في ضوء النّهار ما كان مدفوناً بالقرب من مجرى النّهر لأكثر من 11 قرنا. ونظراً لأنهما لم يكونا مدركين لقيمته التّاريخية، لم تفكر هي وزجها سوى في بيع الكنز الذي عثرا عليه بأسرع ما يمكن إلى أصحاب محلات الصّاغة في طُليطلة، قبل أن تطالب السّلطات به باعتباره من أملاك الدّولة. وهكذا تم كسر وتذويب العديد من القطع المختلفة التي لا تُقدّر قيمتها الأثرية بثمن قبل أن يكون في وسع أيّ أحد ممّن في وسعه تقدير قيمتها أن يعرف بشأن العثور عليها. هذا ما حصل حقاً، عدا عن أنّ معلماً حالفه الحظ في مدرسة قدمر الابتدائية كان لديه من التّعليم ما يكفي ليتعرّف على عمرها السّحيق عندما صادف أن رأى قطعة من الحليّ في يد من عثر عليها. لقد خسر العالم الكثير من خلال فقدان ما هو حتى بمقياس هذه الأيام على الأرجح أكمل مجموعة من الحليّ المسيحية العائدة للقرن السّابع المعروفة حتى الآن.

لن نمضي في سرد تفاصيل كل ما عُثر عليه، ولكن الملاحظة التي تركها المؤرّخ العربي المقتبسة آنفاً تكتسب أهمية خاصة عندما نعرف أنّ من بين القطع التي عُثر عليها على ضفاف نهر وادي الرّصاص التّيجان التي كتب عليها بحجارة كريمة أسماء ريسيسڤينت، سڤينتيلا، سونّيك، ورئيس الدّير ثيودوسيوس، بالإضافة إلى صليب نذر يحمل اسم لوسيتيوس. لقد كانت ضمن اللقية نفائس كنسيّة فقدت أسماء من وهبها للكنيسة.

ويحمل التّاج المُهدى من ثيودوسيوس الكتابة التّالية التي لم يتمّ تشكيلها بجواهر متدلّية كما هي الحال مع تاج سڤينتيلا، وإنما حُفرت في الذّهب نفسه:

Offeret Munusculum Sco Stephano Theodosius Abba

ومعناها أنه هدية إلى القديس ستيفانو من رئيس الدّير ثيودوسيوس.

أمّا تيجان الملوك فقد كانت تحمل اسم الملك وكلمة «إهداء» إلى جانب كلمة «الملك»: Rex Offeret.

وعليه يبدو أنه كان لدى المؤرّخ العربي سبب جيد لكي يورد قصة تيجان الملوك القوط المهداة للكنيسة وعليها أسماؤهم، ونتساءل إن لم يكن المؤرّخون العرب الذين كانوا على الأرجح لا يعرفون سوى القليل أو لا شيء من اللغة اللاتينية قد ظنوا أنّ الكتابات الطّويلة مثل تلك المتعلّقة برئيس الدّير ثيودوسيوس ما هي إلا سجل مقتضب لتاريخ أسرتهم. لم تكن التّيجان، على أيّ حال، هي تلك التي كان الملوك يرتدونها وأعطيت للكنيسة بعد وفاتهم، وإنما وهبوها للكنيسة كنذر في حياتهم. كان كل ملك قوطي ورع يضيف اثنين من هذه التّيجان إلى الكنز الجماعي للبلاد: التّاج الذي كان يلبسه هو نفسه وذاك الذي وهبه للكنيسة؛ وهي حقيقة تقدّم تفسيراً بسيطاً للعدد الكبير لمثل هذه الحليّ التي يقال إن المسلمين عثروا عليها عندما غزوا إسبانيا[1].

يشير خوليان، رئيس أساقفة طُليطلة في سنة 684، في تاريخه عن تمرّد پاولوس على وامبا Wamba، على ما يبدو إلى بعض من هذه الكنوز ومن بينها تاج ريكّاريد، في مقطع اقتبسه عنه السّنيور سنتيناك Seiior Sentenach ولكنه مليء بالأخطاء المطبعية بحيث أنه بالكاد يمكن فهمه ونحن ننقله هنا من النّص الوارد في «إسپانيا المقدّسة» (*España sagrada*, vi. 554)؛ بعد أن يلحظ أن پاولوس أضاف إلى استبداده انتهاك حرمة المقدّسات من خلال سرقة كنوز الكنيسة، يقول خوليان:

“Unde factum est, ut vasa argenti quamplurima de thesauris Dominicis rapta, et coronam illam auream, quam divae memoriae Reccaredus Princeps ad corpus beatissimi Felicis obtulerat, quam idem Paulus insano capiti suo imponere ausus est, tota haec in unum collecta studiosius ordinaret (sc. Wamba) secernere, et devotissime prout cuique competebat Ecclesiae intenderet reformare.”

---

(1) للحصول على وصف شامل لكنوز قدمر، يمكن مراجعة:

Bosquerjo historic sobre la orfebreria española by N. Sentenach, in the *Revista de Archivos* for 1908, p. 225, and Williams, *Arts and Crafts*, i. 15 ff.

ملاحظة على الفصل الخامس

استخدم كوندِه على الأرجح مراجع تتعلّق بحكم عبد الله لم يكن المقّري أو دوزي أو غايانغوس على اطلاع عليها. فمجمل الفصول التي استخلصنا منها الرّواية السّابقة كتبت باسلوب لا يحتمل أيّ شك بشأن كونها ترجمة حرفية. فغايانغوس وفي حين يوجّه انتقادات استثنائية في حدّتها لعمل كوندِه، ويواصل باستمرار لفت الانتباه إلى أخطائه في التّهجئة والتّرجمة، لا يشير بتاتاً إلى المقاطع التي نقلنا منها أجزاء كبيرة. لا يمكننا أن نفترض أنّ معلقاً على هذه الدّرجة من الدّقة والتّأني أحجم عن التّعليق على استخدام كوندِه لعمل كان هو نفسه على اطلاع عليه ويتعلّق بمرحلة شديدة التّعقيد بحيث أن فهمها «ميؤوس منه». فإمّا أن يقتبس عن المؤلف أو يحرص على أن يشرح أن المؤلف لا يستحق النّقل عنه. يذكر كوندِه في فصول أخرى ابن حيّان وفيها نجد التّناقضات عينها كما في عمل ابن حيّان نفسه. ولكننا لم نعثر على قصّة الأمير محمّد وابنه، وتعلّق الأمير عبد الله بعبد الرّحمن في صغره في أي مكان آخر سوى لدى كوندِه، وبما أنّ أحداً لم يذهب إلى حدّ اقتراح أن كوندِه اختلق قصته، فإننا نميل إلى الاستنتاج بأنه اطّلع على مخطوطة تاريخية لمؤلف شيعي تتضمّن كل هذه التّفاصيل عن فترة أحاطها مؤرّخو بلاط قُرطُبة بستار من التّعتيم[1]. وإذا أخذنا في الاعتبار أنه حتى في الوقت الحالي لا يزال العديد من المخطوطات العربية غير المحقّقة في مدريد وفي قصر الإسكوريال، فلا يمكن استبعاد هذا الأمر.

وكمثال على أسلوب ابن حيّان في الكتابة عن المولّدين يمكن إيراد ما رواه عن بني خلدون:

في سنة 889، «كانت قوة طائفة المولّدين قد قويت، ونصح عبد الله بعض وزرائه بإطلاق سراح القادة العرب [بمن فيهم ابن حجّاج] الذين كانوا سجناء في قُرطُبة،

(1) كنت ذكرت في مقدّمتي على ترجمة الجزء الثالث من تاريخ كوندِه النّفيس والمثير للجدل، كم كان اطّلع الرّجل على نفائس من المخطوطات العربيّة التي كانت في مكتبة دير الإسكوريال وأبادها الحدثان. وعلى الرّغم من أنّه كان ينقل دون الإشارة إلى مصادره، ويرد في عمله الكثير من التّصحيف للأسماء، فهو يبقى مصدراً فريداً على اعتباره ناقلاً من أصول ثمينة فُقدت إلى الأبد، ولا بديل عنها سوى كتابه هو على علّاته. (أحمد)

وبتعيينهم من جهته. وبناءً على ذلك أُرسلوا إلى إشبيلية وأُفرج عنهم بعد أن أقسم كل منهم علانية بأنهم لن يثوروا ثانية على وليّ عهدهم، وسيوظفون كل إمكانياتهم للتّقليل من عزوة طائفة المولّدين. لم يمضِ وقت طويل على عودة كل منهم إلى ناحيته حتى أعلنوا مجدّداً العصيان ورفضوا دفع الخراج. ولكن بعد أن نجح الأمير عبد الله من خلال وزيره عبد الله بن محمّد بن أبي عبده [بن الغمري] في التّفريق بينهم، انصرف الثّائرون إلى التّقاتل فيما بينهم إلى أن أسر ابن حجّاج كلاً من خالد وكريب [بن خلدون] وقتلهما، وبهذه الطّريقة استعاد السّلطان سيطرته على إشبيلية»[1].

لو أنّ المولّدين كانوا يزدادون قوّة، فلماذا سمح عبد الله لكبير قادتهم بالعودة إلى قومه بدلاً من احتجازه رهينة ليكون عِبرةً للآخرين؟ نرى من وجهة نظرنا أنّ كلمة «أسر» هي عبارة ملطفة استخدمها ابن حيّان ليصف زيارة ابن حجّاج لقُرطُبة التي قصدها من إشبيلية ليتعامل مع الأمير معاملة الملك للملك. وفي موضع آخر يقول ابن حيّان إن عُمَر بن حفصون كان هو الآخر مُرتهناً لدى الأمير عبد الله رغماً عنه، في حين أن رواية أخرى تظهر أنه كان حرّاً تماماً في تنقلاته. يمكننا أن نتخيّل كيف أن تابع ومسجل تاريخ الأمويين لم يكن ليقرّ بأن مثل هذه اللقاءات كان يمكن أن تحصل مع زعماء منافسين هم من وجهة نظره جديرون بالازدراء، وكيف أنه كان يفكّر أن من واجبه إزاء طائفته أن يحرّف الوقائع لتضليل الأجيال المقبلة.

والفقرة اللاحقة أقلّ إقناعاً مما ورد آنفاً:

«كتب إبراهيم»، يتابع ابن حيّان، «خطاباً إلى الأمير عبد الله يعلمه بانتصاره ويطلب منه تعيينه حاكماً على إشبيلية. استجاب السّلطان لطلبه شرط أن يقدّم لقُرطُبة كل سنة سبعة آلاف دينار بعد تحمّل كافة نفقات الحكم في مقاطعته. وافق إبراهيم وتقرّر تعيين قاسم بن وليد الكلبي معاوناً له، ولكن بعد فترة من الوقت استدعيَ قاسم بطلب من إبراهيم، واستقلّ ذاك القائد واستفرد بحكم إشبيلية ونواحيها».

إنّ سلوك إبراهيم الذي يرسل «خطاباً يعلن فيه انتصاره» إلى السّلطان الذي كان

(1) Hayyan in Makkari, ii. 450

يقاتله والذي أمر بقتل أتباعه لكي تستتب الأمور - طالما قيل لنا إنه قتل قبلها الشّقيقين كُريب وخالد بن خلدون «لأنهما عارضا الثّورة ودعيا إلى طاعة الملك عبد الله»[1]، - لا يُعقل أن يتفق مع سلوك سجين أطلق سراحه بشرط ألا يثور مجدّداً على سلطة الرّجل نفسه الذي يوجّه إليه خطابه. كما أنّ طلب ابن حجّاج تعيينه حاكماً مستقلاً على إشبيلية لا يعقل أن يصدر عن قائد مهزوم يتوجّه بطلبه إلى سلطان مُهان. لا يوضح كوندِه، كعادته، مرجعه فيما ينقله عن تلك الحقبة، ولكنه ينهيه بإشارة مبهمة إلى خطأ ارتكب في قُرطُبة من خلال الاستخدام المجحف لرسائل كتبها إبراهيم بن حجّاج إلى ابن خلدون وفيها ذكر للشّاعر القلفاط («وهو رجل مَكرُه كمثل دهائه»، راجع الصّفحة 74)، والأرجح أنّ المقطع مأخوذ من المؤلف الذي نقل عنه دوزي فيما يتعلّق بخيانة إبراهيم عبر الخطابات التي أرسلها الى ابن خلدون.

ملاحظة على الفصل العاشر

بشأن التّدمير المزعوم لمكتبة قُرطُبة

إنّ المرجع الرّئيسي لقصة هدم المنصور لمكتبة قُرطُبة الكبرى هو الكاتب ابن سعيد الطّليطلي الذي توفي في طُليطلة في سنة 1069 عن أربعين عاماً، وعليه فقد كتب عن الحادثة بعد نحو ثمانين او تسعين سنة من تاريخ وقوعها المزعوم. وجاء في كتابه ما يلي:

بعد الحديث عن بناء المكتبة وتطور العلم في عهد الحكم والذي استمرّ حتى ممات ذاك الخليفة في سنة 976، يقول الكاتب:

«ومع ذلك، عندما اغتصب الوزير محمّد بن أبي عامر المملكة، كما هو معروف، وأمسك بزمام الخلافة، أخذ منحى مختلفاً، وبهدف استرضاء الفقهاء وغيرهم من أهل الزّهد الذين كانوا يعارضون نشر العلوم الفلسفية، أمر بالبحث في مكتبة الحكم، وبناء على أوامره أُخذت منها كل كتب الفلسفة والفلك وغيرها من المواضيع التي كتب

(1) Conde, i. 337.

عنها الأقدمون، ما عدا كتب الطّب والهندسة والرّياضيات، وكان مصيرها إمّا الحرق في ميادين المدينة أو إلقائها في آبار القصر وخزّاناته.. لقد عزا مؤرّخو ذلك العصر ما فعله المنصور إلى رغبته في تدعيم مكانته في قلوب العامة، وبالتّالي مواجهة معارضة أقلّ لأفكاره الطّموحة، وأن يترك وصمة على ذكرى الخليفة الحكم الذي كان يسعى إلى الاستيلاء على عرشه.. وعليه كان على كل من درس أو علم العلوم الفلسفية قبل ذلك في العلن، أن يخفي علومه حتى على أقرب أصدقائه خشية أن يشوا به.. لقد استمرّ الوضع على هذه الحال إلى حين اندثار سلالة بني أُميّة عندما سقطت إمارات وممتلكات تلك السّلالة القوية وسقطت في أيدي القادة الذين ثاروا عليهم».

لم يورد المقّري أيّ شيء من هذا، على الرّغم من أنه أفرد مساحة كبيرة لنقل الأحداث التي شهدها حكم المنصور ورواها بالتّفصيل، وهو لا يتردّد بالطّبع في التّقليل من شأن الحاكم اليماني، ولا يمكن أن يتستّر على ما من شأنه أن يلطّخ سمعته. يقول المقّري نقلاً عن ابن خلدون، وهو كذلك من السُّنّة، بعد أن يؤكد أنّ خزائن الكتب التي اجتمعت في الأندلس لم يكن لها مثيل: «ولم تزل هذه الكتب بقصر قُرطُبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالي المنصور بن أبي عامر، ونُهب ما بقي منها عند دخول البربر قُرطُبة واقتحامهم إياها عنوة». ويضيف المقّري أن «تليد صاحب خزانة الكتب قال للحافظ أبي محمّد بن حَزم» إنّ «عدّة الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة»[1].

ولد ابن حَزم، وهو من أصل إسباني، في قُرطُبة في سنة 994، وعليه فقد كان فتى عندما أخبره تليد عن الفهارس. لكنه أصبح بعدها خادماً مخلصاً للأمويين ولا يمكن أن نتصوّر ألّا يعبّر عن الغضب والسّخط الذي كان سيتركه ذلك على ذاكرة ونفسية واحد من السّلالة شديد التّعلّق بالعلم، لو أنّ المكتبة كانت قد دُمّرت كما يقول ابن سعيد.

ولا يدحض صمت ابن خلدون وابن حَزم فقط مزاعم ابن سعيد، بل إن المقّري

(1) المقّري، ج 1، ص 386، 394. (م)

يخصّص صفحات عدّة ليصف ازدهار الأدب والعلوم في قُرطُبة في عهد المنصور. ويقول المقّري إنه «حتى الصّقالبة الخصيان الخُدّام بالقصر أخذوا بأوفر نصيب من الأدب» في عهده، وبعد أن يذكر بعض الأسماء يضيف: «وسنمسك عن ذكر الشّعراء والفقهاء والخطباء والبلغاء الذين ظهروا في أيامه، لأنّ عددهم كان أكثر من رمال البحر. لقد وفد إلى الأندلس في عهده عدد كبير من الرّجال الذين تميّزوا بمواهبهم أو اشتهروا ببراعتهم في مجال من مجالات العلم أو الأدب، وشجّعهم انفتاح المنصور على الإقامة في قُرطُبة».

يورد دوزي قصة تخريب المنصور المتعمّد للمكتبة كما أوردها ابن سعيد في الأساس، ونقلاً عنه؛ كما يقتبس عن المقّري وابن عِذاري. لا يمكننا التّحقّق من الإشارة إلى المقّري كمصدر لأنه ينقل عن نسخته المحرّرة للنّص العربي، والفقرة لا مكان لها في ترجمة غايانغوس. كتب ابن عِذاري في منتصف القرن الثّالث عشر، ووفقا للنّقد الذي يوجّهه دوزي نفسه له، كما نقله عنه پونس، فأعماله ينقصها دائماً تقريباً الحكم الصّائب والحدس التّاريخي.

وبغضّ النّظر عن الأدلّة التي بحوزتنا، سواء الإيجابية أو السّلبية، بشأن زيف اتّهام ابن سعيد للمنصور، فإنه لا يعقل أنّ رجلاً بمثل سعة صدره ورحابة أفقه وآرائه، وحرصه على رعاية أهل الأدب، أن يرتكب فعلاً يتعارض تماماً مع كل ما نعرفه عن شخصيته، «لاسترضاء الفقهاء وغيرهم من أهل الزّهد». ويدلّ عزوفه عن شرب الخمر قبل فقط سنتين من وفاته (راجع الصّفحة 179 طبعة الأصل) على أنه لم يكن يأبه لاسترضاء الفقهاء السُّنّة، لأنهم لم يكفّوا عن قدح ومهاجمة مثل هذا السّلوك أكثر من أي شيء آخر. أمّا رواية ابن سعيد فيفترض، على ما نظن، أن يطويها عالم النّسيان المليء بالخرافات التي ليس لها أساس[1].

---

(1) See Makkari, i. App. c., ii. 169, 199 ff. ; Pons, 130, 139, 414 – 5; Dozy, *G. der M.*, ii. 109 – 10.

ملاحظة على الفصل الرّابع عشر

فيمـا يلي قائمة بالتّرتيب الأبجـدي للمدن والحصون التـي كان يحكمها اليمانيون والمولّدون أو النّصارى المسيحيون خلال الحرب الأهلية في القرن التّاسع، مع أسماء المحافظات كما أوردها الإدريسي في القرن الثّاني عشر وأسمائها الحالية.

الأماكن التي لم تعد موجودة بجانبها نجمة.

وردت لدى الإدريسي، ولكن هناك حاليا في إسپانيا مدينة تسمى ألش وتكتب Elche(م)	*Al Ashad.	*ألش
	*Alava.	*ألبة
	Albalate, Province of Valencia.	البلاط، إقليم بلنسية
	*Al Barr.	*البرّ
	Alborgelat or Alpujerras, Province Algeciras, Province of Lago, now Cadiz.	البرخلات أو البشرات، إقليم الجزيرة، إقليم البحيرة، حالياً قادس.
وردت لدى المقّري باسم الحامة، حصن الحامة (م)	Alhama la Seca, Province of Almeria	الحمة لا سيكا، إقليم المَريّة
	*Al ghalyah.	*القليعة
	*Alhadrah	*الحدره

حصن الحنش، إقليم ماردة	Alanje, Province of Merida	ورد اسم حصن الحنش القريب من ماردة في المراجع الإنكليزية مع تغير طفيف في كتابته: Alange (م)
٭الفشاط	*Al foseca	الإدريسي
٭فنتنالة	*Al fanatayene	وردت فنتنالة لدى الإدريسي بوصفها ربضاً قرب مالقة، كما أورد حصن فنيانة، ويصعب تحديد أيهما أصحّ حيث لا يشير النّص الإنكليزي إلى الموقع. لكن حصن فنيانة أقرب لفظا إلى Finnilejat التي وردت لاحقا (م).
لقنت، أليقنت، إقليم تدمير، تسمى اليوم مُرسية.	Alicante, Province of Tudmir, now Murica	
٭الخابية؟	*Al havia	
٭القط؟	*Al kutt	
٭القناة	*Al Kanatt	

القلعة قلعة يَحصُب قلعة ابن سعيد، قلعة بني سعيد	Alcala, Kalat Yahssob Alcala de Ibn Said	أورد الكتاب أنّ هذه القلعة تسمى Alcalá la Real في إقليم جيان. يبدو قلعة ابن سعيد أو قلعة بني سعيد عرفت على وجه التّأكيد في القرن الثّالث عشر أيضاً باسم «de la Real». وردت لدى المقّري باسم قلعة بني سعيد وأشار إلى انها كانت تعرف كذلك باسم قلعة يَحصُب لأن قوم يَحصُب كانوا كثيرين فيها (م)
*أليسانة	*Al Isannah	(الإدريسي)
*الحجة	*Al Ijjah	
*أشر (حصن)	*Asher	(الإدريسي)
بطليوس، إقليم كاستيو، اسمها الآن إقليم إستريمادورا	Badajoz, Province of Castillo, now Estremadura	
بيّاسة، إقليم فارميرا، أو پاراميرا، اسمها الآن جيان	Baeza, Povince of Farmera or Paramera, now Jaen	
*بلش	*Balagi	(وردت لدى الإدريسي، قريبة من البحر)
باجة، إقليم الغرب، اليوم الغاربِه، البرتغال	Beja, Province of Al Gharb, now Algarve, Portugal.	

(وردت لدى الإدريسي، الى الشّمال من قُرطُبة)	*Begrah	*دار البقر
	*Bejannah	بجانة
	*Birtannieh	*برطانية
	*Beni Tarik	*بني طارق
	Bishter. (See p. 105 ff.)	بشتر (راجع الصّفحة 105)
	Borja, Province of Zaragoza.	برجة، إقليم سَرَقُسطة
	Cabra, Province of Campania, now Seville.	قبرة، إقليم الكنبانية التي هي اليوم إشبيلية.
	Calatrava, Province of Las Cuevas, now La Mancha.	قلعة رباح، إقليم الكهوف - لاس كويڤاس، الآن لا مانشا.
الاسم الأقرب إلى اللفظ لدى المقّري هو قلعة حَزم، التي قال إنها كانت ضمن أملاك الأمير أرطباش. يورد المقّري كذلك حصن اللّوز لكن موقعه غير واضح. (م)	Callosa, Province of Tudmir, now Murcia.	كالوسا؟، إقليم تدمير، الآن مُرسية.
	Cazlona (Kashtulah, the Roman Castulo), Province of Jaen.	قشتيلة، (حصن قسطلة، كاستولو الرّومانية)، إقليم جيان.

إستجة، إقليم الكنبانية، الآن إشبيلية.	Ecija, Province of Campania, now Seville.	
إلبيرة، إقليم إلبيرة، الآن غرناطة.	Elvira, Province of Elvira, now Granada.	
أستبة، إقليم إشبيلبية.	Estepa, province of Seville.	
*فنيانة	*Finnilejat.	فنيانة حصن في منطقة بجانة كما ورد لدى الإدريسي وهو الأقرب لفظا. (م)
جبل العيون، إقليم الشَّرَف، الآن إقليم ولبة.	Gibraleon, Province of Ajarafe, now Province of Huelva.	

كانت مدينة رومانية في هذا المكان من حيث كان يصدّر زيت الزّيتون من سهل قرمونة Vega de Carmona إلى إيطاليا. عُثر خلال الحفريات على أختام صانعي الفخار من وادي شوش في مونتي تستاسيو Monte Testaceo بالقرب من روما، وأهم ما فيها الجرار التي اشتهرت الجزيرة الإيبرية بتصنيعها. George Bonson *Los Pueblos antiguos del Guadalquivir, Revista de Archivos Bibliotecas, y Museos,* Madrid 1902. وفي النّصف الثّاني من القرن الثّامن كان وادي شوش ضمن ممتلكات الأمير أرطباش Artebas الابن الثّاني للملك غيطشة Witiza. (راجع ص 54 طبعة الأصل).	Guadajoz, Province of Seville.	وادي شوش، إقليم إشبيلية.

٭النساء؟؟؟	*Hansah.	الأقرب إلى الاسم لفظا هو نهر وادي النّساء في جزيرة طريف على البحر المتوسط الذي أطلق عليه الإدريسي اسم البحر الشّامي (م).
٭حصن أمارينا؟؟ إقليم البحيرة، وهي اليوم قادس.	*Hisn Amarina, Province Lago, now Cadiz.	على نهر وادي لكّه Guadalekke الذي سمي خطأ وادي لته Guadalete في روايات غزوات طارق بن زياد. معروف اليوم باسم نهر برباط R. Barbate.
٭حصن بلاي	*Hisn Belay	
٭حصن جريشة	*Hisn Jerishah.	
٭حصن الرّكبة؟؟	*Hisn Harkabah.	لم يرد لدى الادريسي ولا المقّري ما يوازي اللفظ، ولكن هناك في حضرموت حصن بهذا الاسم وقد تتشابه الأسماء (م).
ويذة، إقليم الشّارات، هو اليوم طليطلة.	Huete, Province de las Sierras, now Toledo.	
شريش، إقليم البحيرة، الآن قادس.	Jerez, Province Lago, now Cadiz.	
جودر، إقليم جيان.	Jodar, Province of Jaen.	

بالش	Jubiles.	الإدريسي، حصن بالشّ في إقليم بجانة. (م)
*كربر؟؟	*Karbar.	
*قلشانة، قلسانة.	*Kalsannah.	
*كورة، إقليم البحيرة، الآن قادس.	*Kora, Province of Lago, now Cadiz. The Sultan Abdullah's stud, which was kept there, was looted by Muwallads from Lebrija.	كان حصان السّلطان عبد الله الأصيلِ فيها وسرقه مولّدون من أهل لبريخا.
*لقمش	*Lakmesh.	
لبريخا، إقليم إشبيلية.	Lebrija, Province of Seville.	
لارِدة، إقليم الزّيتون، وهو اليوم لارِدة.	Lerida, Province de las Olivarcs, now Lerida	
لورقة، إقليم تُدمير، الآن مُرسية.	Lorca, Province of Tudmir, now Murcia.	
لوشة، إقليم إلبيرة، الآن غرناطة.	Loja, Province of Elvira, now Granada.	

مالقة، إقليم رية، الآن مالقة.	Malaga, Province of Raya, now Malaga.	
*متلناتا.	*Matalanata.	
مدينة ابن السّليم (مدينة سالم)، إقليم أرنيط، الآن سُريه (قشتالة).	Medina Beni Selim (Medina Celi), Province of Arnedo, now Soria (Castile).	
شذونة، مدينة صيدونيا، إقليم البحيرة، الآن قادس.	Medina Sidonia, Province of Lago, now Cadiz.	
ماردة، إقليم قشتالة، الآن وادي شوش.	Merida, Province of Castillo, now Badajoz.	
مارتلة، إقليم الغرب، الآن ألنتيجو، البرتغال[1].	Mertola, Province of Al gharb, now Alemtejo, Portugal.	
*جبل الثّلج	*Monte Alesa	ورد لدى الإدريسي جبل الثّلج جنوب غرناطة. (م)
*جبل مونتيفيكيو، على نهر وادي الرّحى، إقليم إشبيلية.	*Montefique, on the Guadaira, Province of Seville.	ورد لدى المقّري (ج 4، ص 518) جبل متفريد. (م)

(1) كانت تُكتب بالپرتغالية قديماً: Além – Tejo ومعناها: ما وراء نهر التّاجة (تيجو)، ولكنها باتت تكتب اليوم: Alentejo وتلفظ: آليتيجو، والواو بلفظ ou وليس o. وللّغة الپرتغالية مذاهب صعبة في اللفظ ولكنها لغة بديعة وجزلة. (أحمد)

منتلون	Monteleon.	منت ليون (المقّري). (م)
منت ميور	Monte Mayor.	
مورة أو مراد، إقليم الكنبانية، الآن مرتلة، إقليم قُرطُبة.	Mora, or Morad, Province of Campania, now Moratalla, Province of Cordova.	
*مورانا	*Morana.	
مُرسية، إقليم تدمير، الآن إقليم مُرسية.	Murcia, Province of Tudmir, now Province of Murcia.	
*مريانة	*Murlianah.	ورد لدى الإدريسي حصن مرشانة في إقليم بجانة.
لبلة، إقليم الشَّرَف، الآن ولبة.	Niebla, Province of Ajarafe, now Huelva.	
*لاهم	*Nixam.	الأقرب إلى الاسم لفظاً ورد لدى الإدريسي في المَريّة (م).
*نكور	*Nokur.	
أكشونبة، إقليم الغرب، اليوم ولبة	Ocsonoba, Province of Al gharb, now Huelva.	أكشونبة وردت لدى المقّري (م)
أشونة، إقليم أشونة، اليوم إشبيلية	Osuna, Province of Osuna, now Seville.	

برشانة، إقليم بجانة، اليوم المَريّة.	Purchena, Province of Pechina, now Almeria.	
ريّة، إقليم رية، وهو اليوم مالقة.	Raya, Province of, now Malaga.	
روطة. تقول بعض المراجع أنها روطة اليهود في إقليم سَرَقُسطة. وهناك مكان يدعى الرّوضة في إقليم إشبيلية.	Roda. Said by some authorities to be Rotalyehud in the district of Zaragoza. There is a place named La Roda in the Province of Seville.	
شنت مرية الغرب. هذا الموقع الذي تكرّر ذكره لدى المؤرّخين كان على ما يبدو في رأس سانتا ماريّا بالقرب من فارو، في إقليم الغرب البرتغالي.	Santa Maria de Al gharb. This place, frequently referred to by historians, appears to have been situated at the Cape of Santa Maria, near Faro, in the Portuguese province of Algarve.	
شنت اشتبين، إقليم جيان.	San Esteban, Province of Jaen.	
*أليشانة	*Sahnah.	
*شنتمرية	*Santiberia.	

شلب، إقليم، وهو اليوم الغارب (الغرب). عندما كتب الإدريسي كان لا يزال يمانيون يعيشون في شلب والمدن المجاورة.	Silves, Province of Al gharb, now Algarve. When Idrisi wrote Silves and the neighbouring towns were still populated by Yemenites.	
*شمنت	*Sonmonton.	لم ترد لدى الإدريسي وإنما في مراجع أخرى (م).
*طليرة	*Talheyrah.	لم ترد لدى الإدريسي وانما في مراجع أخرى، كترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض (م)
طُليطلة	Toledo.	
طرش، إقليم رية، اليوم مالقة.	Torrox, Province of Raya, now Malaga.	
تدمير، إقليم تدمير، (ثيودومير)، اليوم مُرسية	Tudmir, Province of (Theodomir), now Murcia.	
إقليش، إقليم الشّارات، اليوم قونكة.	Ucles, Province de las Sierras, now Cuenca.	
*أم جعفر	*Umm Ja'afer.	(الإدريسي)

*ذيرد، إقليم البحيرة، اليوم قادس (كانت ذيرد قريبة من مدينة صيدونيا)	*Ward, Province of Lago, now Cadiz. (Ward was near Medina Sidonia).	ذيرد هي الأقرب لفظاً الواردة في «نزهة المشتاق» لدى الإدريسي.
*تشمس	*Yemes	تشمس هي الأقرب لفظا لدى الإدريسي (م).
سَرَقُسطة، إقليم أرنيط، اليوم سَرَقُسطة.	Zaragoza, Province of Arnedo, now Zaragoza.	

المـدن والأقاليـم التـي وردت بوصفهـا يحتلّها اليمانيـون أو مواليـة للخليفة المخلوع هشـام الثّاني حتى وفاته في سـنة 1059، أو متحالفة مع بني عَبّاد في النّصف الثّاني من القرن الحادي عشر. وكانت هذه الشّروط الثّلاثة تنطبق على بعض المدن في العديد من الحالات.

في هذه الفترة، كان العديد من الأقاليم الواردة فيما يلي تحت حكم أمراء مستقلّين يدينون بالولاء لإشبيلية، لفترات تطول أو تقصر، ولكننا استخدمنا عبارة إقليم لتسهيل الأمر، متّبعين بذلك خطى الإدريسي.

الجزيرة.	Algeciras.	
المَريّة، إقليم.	Almeria, Province of.	
الغرب، إقليم.	Al gharb, Province of.	
أركش، حصن	Alarcos	أركش وردت لدى الإدريسي، ولكن في مصادر أخرى الأرك (م).
البليار، جزر.	Belearic Isles.	
بطليوس، إقليم.	Badajoz, Province of.	

*حصن بيندر	*Bardania.	
*عبلة	*Bala.	
*بلاط الحر	*Balaguer.	الأقرب إلى الاسم لفظا لدى المقّري، وبلاط الحر قرب قُرطبة. (م)
بيّاسة، إقليم.	Baeza, Province of.	
قلعة رباح.	Calatrava.	
قرطاجنة.	Cartagena.	
كشطالي.	Castillon.	
قونكة.	Cuenca.	
دانية، إقليم.	Denia, Province of.	
كتندة.	Gandia.	وردت لدى الإدريسي فيما يسمى إقليم مرمرية. أوردت بعض المراجع اسمها غاندية. (م)
ولبة.	Huelva.	
وشقة.	Huesca.	
*يابورة	*Jabora.	
جيان، إقليم.	Jaen, Province of.	
شاطبة.	Jativa.	
لرية	Leiria.	لرية في بلنسية، وردت لدى المقّري (م).
*الفنت	*Lenant.	الأقرب إلى اللفظ لدى الإدريسي (م).
لاردة، إقليم.	Lerida, Province of.	
لشدانية، إقليم	Lusitania, Province of.	لم أتبين الاسم ضمن تعداد الأقاليم لدى الإدريسي، لكنه ورد في مراجع عدة (م).

مرتة.	Martos.	
شذونة، مدينة صيدونيا.	Medina Sidonia.	
ماردة.	Merida.	
*مرباطر.	*Murbiter.	
مُرسية، إقليم.	Murcia, Province of.	
لبلة، إقليم.	Niebla, Province of.	
أكشونبة، إقليم.	*Osconoba, Province of.	مراجعة الملاحظة السّابقة (م).
روطة اليهود.	Rotalyehud.	
رندة.	Ronda.	
شلطيش، إقليم.	Saltis, Province of.	
شنت مارية الغرب، إقليم	Santa Maria de Al gharb, Province of.	
شلب، إقليم.	Silves, Province of.	
طرطوشة.	Tortosa.	
بلنسية، إقليم.	Valencia, Province of.	
الولجة.	Xelba.	إقليم قريب من إقليم القواطم كما ورد لدى الإدريسي (م).
سَرَقُسطة، إقليم.	Zaragoza, Province of.	

مـن بيـن أهم المناطق والنّواحي التـي ثارت على الموحّدين في القرن الثّاني عشـر بقيادة ملوك أسرة بني مَردنيش النّصرانية – اليمانية[1]: البسيط وبَياسة ودانية وإفراغة[2] وغرناطة وجيان ومُرسية وبلنسية.

ومـن بين أهـم المدن والأقاليـم التي ثارت علـى الموحّدين تحت حكـم بني هود النّصرانييـن – اليمانيين، كل إقليم الغـرب، والمَريّة وبطليوس وقاصرش «وغيرها من مدن تلك النّاحية» (Makkari, ii. 329) ودانية وغرناطة وجيان وشاطبة ومالقة وماردة ومُرسية وإشبيلية وسَرَقُسطة. وانتقلت الأراضي التي كان يسيطر عليها بنو مَردنيش إلى بني هود مع أفول نفوذ بني مَردنيش بسبب تحالفهم مع الموحّدين.

ومـن بيـن أولى المواقع التي خضعت أو طلبت مسـاعدة ابن الأحمر عندما أسّـس سـلالة بني نَصْر في غرناطة: أرجونة والمَريّة وغرناطة وجيان وشـريش ولورقة ومالقة ورُندة وإشبيلية. وفي أواخر أيامه، تحالف آخر أمراء بني هود مع ابن الأحمر.

وهكـذا عبـر مختلف المراحـل التّاريخيـة للحكم الإسـلامي في إسـپانيا، نجد أنّ الأقاليـم والنّواحي والمدن التـي كان يحكمها أحفاد النّصارى القـوط المتحالفين مع العرب اليمانيين في القرن الثّامن، لم تتوانَ عن التّحالف مع القادة اليمانيين أو النّصارى – اليمانيين الذين ثاروا، قرناً بعد قرن، وتمرّدوا على حكـم الأقوام اتي اختلفت عنهم فـي الدّيـن والانتماء القومي؛ إلى أن نجح فرناندو الثّالث فـي نهاية المطاف، في الرّبع الثّاني من القرن الثّالث عشـر، وبمسـاعدة من حليفه اليماني ابن الأحمر ملك غرناطة، فـي ضم كل النّواحي النّصرانيـة – اليمانية الواقعة خارج تخوم مملكة غرناطة الحديثة التّأسيس، إلى مملكته، بالطّرق السّلمية أو غير السّلمية.

---

(1) لا تشير عبارة النّصرانيين اليمانيين Christian – Yemenite إلى ديانة الأسر المشار إليها، وإنما إلى كونهم من أصول قوطية – يمانية.

(2) وردت في الإنكليزية Fragar لكن الأرجح أنّ المقصود Fraga وهي إفراغة. (م)

ملاحظة على الفصل التّاسع عشر

يأتي سيمونِه على ذكر عدد من من الكنائس المستعربة مثل سانتا مارينا وسان پدرو، وسان أندريس، وشنت ياقُب، وسان لورنثو، ولا ماغدالينا (المجدليّة)، والتي يقول إنها كانت في قُرطُبة؛ لكننا نعتقد، وللأسباب التّالية، أنها لم تكن في قُرطُبة وإنما في إشبيلية. صحيح أنّ هناك كنائس مكرسة لسانتا مارينا وسان پدرو وسان لورنثو في قُرطُبة، ولكن لا توجد أيّة كنيسة باسم القديسين الثّلاثة الباقين. وتوجد في إشبيلية كنائس مكرسة لكل القدّيسين السّتة الذين أوردهم سيمونِه، وتحمل خمس منها سمات أثرية تعكس تأثير المستعربين، في حين أنّ الكنائس السّت لديها تقاليد او سجلات تظهر أنها كانت أماكن للعبادة المسيحية خلال، إن لم يكن قبل، حكم الموحّدين. وسيكون من المبالغ به أن نفترض أنه كان في كل من قُرطُبة وإشبيلية ست كنائس على الطّراز المستعربي مكرّسة للقدّيسين السّتة أنفسهم، في حين يتعيّن علينا أن نمضي قُدُماً ونفترض كذلك أنّ ثلاثاً منها اختفت تماماً ولم يبق لها أيّ أثر في قُرطُبة منذ حرب الاسترداد، في حين لا تزال الكنائس السّت قائمة في إشبيلية.

يذكر سيمونِه كذلك سجلاً لكنيسة «بازيليكا دي سانتا ماريّا» في قُرطُبة حيث كان لا يزال يُسمح للمسيحيين بممارسة شعائرهم بحرية في سنة 1147 وهي السّنة التي أقيم فيها قدّاس جنائزي من أجل «شهيد» پرتغالي. ولكن هنا أيضاً نعتقد أن المدينة المقصودة هي إشبيلية وليست قُرطُبة لأنّ كاتدارئية إشبيلية هي التي يقال إنها «أعيدت» إلى عهدها الأول ككنيسة مكرّسة للعذراء عندما تم استرداد المدينة (راجع الصّفحة 133)، في حين أن كاتدرائية قُرطُبة الأساسية التي يظهر أنها كانت مكرّسة للقديس ڤِنْثِنتِه، اشتراها عبد الرّحمن الأول من الطّائفة المسيحية في سنة 785 (Makkari, i. 218).

لقد ضاعت سجلات كاتدرائية إشبيلية في النّصف الأول من القرن الثّالث عشر عندما أخرج الموحّدون آخر أسقف مُنتخب من إشبيلية؛ ولا توجد أيّة سجلات منذ ذلك الحين وحتى سنة 1248. ولكن من المعروف أنّ المسحيين في إشبيلية كانوا على الدّوام أكثر عدداً من مسيحيي قُرطُبة. (Simonet, pp. 778 – 91)

دير سيدة النّور (دي لا لوث) في المُغر، إقليم ولبة

عندمـا كان هذا الكتاب تحت الطّبع، اكتشـفنا مبنى يعزّز النّتيجة التي توصّلنا إليها، وهـي أنّ الفـن المسـيحي الذي كان حتـى الآن غير معتـرف به وُجد في شـمال غرب الأندلـس في ظلّ الحكم الإسـلامي. والمبنى هو الدّير المحصّن المعروف باسـم دير النّور (كونڤنتو دي لا لوث) في المُغر[1]، في قلب شلطيش التي كانت موطناً للمولّدين، وكانت تحكمها سلالة بني أبي بكر، أحفاد الأميرة سارة وعُمير بن سعيد اللّخمي، إلى حين وصول الموحّدين. وتظهر القلعة العربية التي لا تزال أسـوارها ماثلة بالقرب من الدّير، الأهمّية التي أوليت للدّفاع عن المُغر عندما حكمها المولّدون والمستعربون.

ظـل الدّيـر حتـى سـنة 1911 تابعـا لأخويـة راهبـات «كلارِس Clares الفقيـرة» (Clarices) وطالمـا بقيـت واحـدة منهنّ حيـة، ظل المـكان بأكمله مغلقـاً تماماً أمام العامـة. ولكن قبل نحو اثني عشـر شـهراً توفيت آخـر عضوة في الجمعيـة وبات يدير المبنى الضّخم اليوم بأكمله فرع من طائفة «راهبات الحَبَل بلا دنس» يعنى بنشر التّعليم ولا يضع أيّة عراقيل أمام دخول الطّلاب لدراسـة المكان. وعليه كنا نحن أول أجانب نحصل على إذن للدّخول بغرض الدّراسة وكانت السّاعات التي أمضيناها بين جدرانه كافيـة لتثبت أننـا عثرنا على واحد مـن أروع الأمثلة التي تدلّ على وجـود رباط *ribat* مسـتعربي (راجع الصّفحة 227 طبعة الأصل، الحاشـية) لم يحظ حتى الآن بالاهتمام الذي يستحقه من الفنّانين والمؤرّخين على حدّ سواء.

لقـد دفعتنـا القلعة – الدّير في الحقيقة، إلى أن نطرح السّـؤال المهمّ وهو ما إذا كان الرّبـاط في الأصـل بناءً مسـيحياً وليس مسـلماً. فالرّابطة، التي اشـتهرت في حوليات كولومبـوس، كان يفترض أنها حصلت على اسـمها من ربـاط موحّدي بقي منه عقدان (على شـكل حدوة فرس). ولكن خلال أعمال التّرميم، المسـتمرّة منذ سـنوات عدّة، اكْتشِـفت حديثاً جداريّة مسـيحية تحت الأعمال الموريسـكية، ليُظهر ذلـك أنّ الرّباط كان مسـيحياً قبـل أن يتملّكـه الموحّـدون. ويوجـد عقـد أو اثنـان علـى شـكل حدوة

(1) راجع الصّور المقابلة للصّفحات 132، 237، 381، 398 من طبعة الأصل.

الحصان على الطّراز الموحّدي في دير النّور كذلك، ولكن فقط فيما يسمّيه المحلّيون «القسم الحديث». لقد كان هذا القسم مستوصف راهبات «كلارِس الفقيرة» (وأصبح اليوم فصولاً للدّراسة) وفيه أعمدة جميلة من الرّخام ذات تيجان عربية مع خاصّية امتداد البناء بالطّوب والملاط المميّزة والتي تلاحَظ باستمرار في العمارة الإسلاميّة هنا. وللباحة المركزية الفسيحة التي تبلغ حوالي 150 قدماً مربعة، من جهة ثانية رواق مؤلف من عقود مستدقّة قديمة تتفرّع عن جدران تبلغ سماكتها ستة أقدام، وهي تختلف تماماً عن أيّة أبنية إسلاميّة معروفة في إسبانيا. وتوجد في مقصف الطّعام عقود طويلة ومدبّبة منتظمة في أزواج، وسقف مقبّب خالٍ من أيّة زخارف، يتصل بالعقود الزّوجية لكن دون أن يتفرّع منها. ولا ينير هذه القاعة العالية سوى نافذة مستديرة في كل جهة لا يتجاوز قطرها ثماني عشرة بوصة، وهي مرتفعة قريباً من السّقف؛ وتوجد نافذة مربّعة صغيرة في الجهة الغربية أضيفت حديثاً كما هو ظاهر. وبنيت مقاعد بمحاذاة الجدران، ومن عمود لولبي ينبثق منبر عتيق بارز من الطّوب (مطلي بطبقة سميكة من الجير الأبيض) نُحتت فيه رؤوس ملائكة مجنّحة، باستخدام تقنيات الفن العربي.

وسرعان ما يلفت انتباه الزّائر ضخامة ومتانة عمارة الباحة والمطعم، إذ يبدوان للنّاظر وكأنهما هنا منذ الأزل. ولكن الأمر ليس كذلك بالنّسبة للرّواق فوق الباحة والذي يبدو أنّ عائلة پورتوكارّيروس Portocarreros أضافته في القرن الرّابع عشر أو الخامس عشر؛ وهؤلاء هم أجداد رفيق كولومبوس مارتين ألونسو پِنثون Martin Alonso Pinzon من ناحية أمه[1].

توجد تسعة تماثيل من الألباستر منحوتة نحتاً رائعاً لأفراد من عائلة پورتوكارّيروس في الطّرف الشّرقي من كنيسة الدّير، وقد ورثت عائلة پِنثون التي لا تزال أبرز عائلات المُغر عنهم الحق في دفن أبنائها عند أسفل مذبح الكنيسة. قامت عائلة پورتوكارّيروس

(1) بفضل منحة خاصة وهبها الإمبراطور كارلوس الخامس إلى ابن مارتن، تحمل دروع هذه العائلة ثلاثة مراكب شراعية مع الشّعار نفسه الذي تحمله دروع أحفاد كولومبوس، ولكن مع تغيير في الاسم: من أجل قشتالة وليون، اكتشف عالماً جديداً پِنثون.
A Castilla y á Leon, nuevo mundo dió Pinzon.

بإعلاء سقف الدّير حيث يبدو بوضوح الخط الفاصل عند حدود ما تمّت إضافته باستخدام الطّوب والملاط الحديث فوق الجدران القديمة، وببناء غرف نوم وسكن للرّاهبات المئة العضوات في الرّهبنة، وأدخلت تعديلات كثيرة على الكنيسة من الدّاخل. إنه لمن اللّافت أن نرى عقوداً قوطية وتيجاناً من تلك الفترة تحملها أعمدة مصنوعة من الملاط تعود إلى القرن العاشر أو الحادي عشر، في حين تبرز أجزاء مختلفة من البناء الأصلي من الجدران هنا وهناك بصورة غير منتظمة.

مع ذلك، فقد بقي قسم من الكنيسة في الدّاخل وفي حدود معيّنة على ما هو منذ القرن الحادي عشر. إنه الجزء الخاص بالكورس – جوقة التّرتيل – والذي يظهر من تصميمه الدّاخلي أنه تم تحويله إلى كنيسة للرّاهبات في حوالي نهاية القرن الثّالث عشر من خلال إضافة أبواب عريضة تزينها رسومات تمثل عذراء غوادالوپه Guadalupe والبشارة والمهد [ميلاد السّيد المسيح]. وتعود الملابس إلى تلك الفترة كما هو واضح في «الأناشيد» *Cántigas* وفي كتاب ألفونسو العاشر عن الشّطرنج "Book of Chess" كما أنّ كل الوجوه ذوات سحنة توتونية جرمانية، كما هي في الحقيقة تقريباً كل الرّسومات في هذا الدّير، دون استثناء تمثال للسّيدة العذراء من الخزف أعيد ترميمه في سنة 1621.

وتكتسي مقاعد غرفة الجوقة الأهمية القصوى هنا، حيث تنتهي مساند اليدين برؤوس أسود عتيقة يظهر أحدها على غلاف هذا الكتاب. وتستند هذه الرّؤوس إلى أعمدة ذوات تيجان عربية، وفوقها كتابات بالخط الكوفي الذي ظل شائعاً حتى نهاية القرن الحادي عشر في هذه المنطقة. والكتابات ذوات طابع زخرفي أكثر ممّا هي الحال على سبيل المثال الكتابة العائدة إلى سنة 1085 والتي تشير إلى زوجة وابن المُعتمِد بن عَبّاد (راجع الصّفحة 217 طبعة الأصل) وتتضمّن ملامح من الخط القرمطي Karamatic المتصل سهل الانسياب الذي يظهر إلى جانب الخط الكوفي في قصر إشبيلية. لقد حالت الإضاءة الضّعيفة للأسف دون التقاط الصّور، كما أنّ الكتابات المحفورة على مساند المقاعد تحت رؤوس الأسود كانت قد تآكلت ومُحيت تقريباً

بحيث يصعب نسخها على الورق بطريقة الحكّ. كل ما أمكن الحصول عليه هو رسم للشّكل الخارجي. ولم نعثر على أي كتابات كاملة على أيّ من الجوانب الثّلاثة، حيث كانت الكتابات على الجانب الدّاخلي مثلّمة إلى حدّ كبير بسبب طول الاستخدام على مدى قرون عديدة. لكن مجرّد وجود كتابة عربية على مقاعد الجوقة في مبنى لم يكن على مدى الدّهر سوى كنيسة مسيحية يشهد على ما قاله ألفاروس Alvarus (راجع الصّفحة 26 طبعة الأصل) بأنّ المستعربين نسوا لغتهم لكنهم ظلّوا أوفياء لدينهم.

يحتاج وصف كل النّقاط المهمّة في دير النّور (كونفنتو دي لا لوث) فصلاً طويلاً وليس مجرّد ملحق مقتضب بحكم الضّرورة، وعلينا أن نختصر. ويوجد في المساحة الواقعة أمام غرفة التّرتيل والتي تقود إلى داخل الكنيسة من الباحة المركزية الفسيحة قبّة وقُبيبة بنيتا على الطّراز العربي ولهما سقف خشبي زخرفته بديعة يتعارض بطريقة مثيرة للفضول مع البلاط العائد للقرن السّادس عشر. وفوق بوابة ثقيلة تستخدم لفصل مصلّى الرّاهبات فتحة مستديرة تضيء صحن الكنيسة تزيّنها تقاطعات خشبية *artesonado* ذوات تصميم هندسي بسيط. وتوجد في الحنية نوافذ طويلة ضيّقة تنتهي بعقود مدبّبة، لكنها مسدودة، وتفصل بين النّافذة والأخرى دعامات جدارية ضخمة متصلة بسور أو متراس خارجي بواسطة عقود أو قناطر تسمح بالمرور بينها، أي بين حائط الكنيسة والجدار الخارجي.

لقد رأينا الكثير من الكنائس المحصّنة في جنوب غرب الأندلس إبّان الحكم الإسلامي، ولكنّ أيّاً منها لا تضاهي هذه الكنيسة في متانتها، إذ ليس المبنى وحده هو المحصّن وإنما لا يزال هناك سور ارتفاعه عشرون قدماً كاملة يحيط به من ثلاث جهات، أمّا الجهة الرّابعة فأزيلت ليُتاح الحصول على ساحة عامة. فقط من هذه الفجوة في التّحصينات يمكننا أن نرى خطوط الهيكل الخارجي للكنيسة التي كانت في الأصل متوارية تماماً عن الأنظار داخل الأسوار. وإلى الجهة الشّمالية من المذبح العالي، تبلغ سماكة الجدار أكثر من ستة أقدام، وتوصل فتحة شبيهة بنفق ضيق عبره إلى ما يبدو أنه كان في الماضي غرفة للحرس على الرّغم من أنّ السّلالم التي كانت

تقود إلى المتراس الخارجي لم تعد موجودة، فقد تم على الأرجح سدّها في زمن ليس ببعيد.

وفي الجهة الشّمالية من الحنية تتصل المتاريس الخارجية بالرّواق العلوي للباحة المركزية بممرّ ضيق عبر سماكة الجدار. ومن على المتراس هنا يمكن رؤية بساتين الدّير التي تمتدّ على مسافة بضعة فدادين، وفيها عدد من الآبار، محاطة بالأسوار العالية التي تحميها من أيّ هجوم. ويروى نقلاً عن الأقدمين أنه كان يزرع في هذه البساتين كل ما هو ضروري لتموين الدّير بما فيه القمح لصنع الخبز. ولم تكن في الأصل في البناء بأكمله نوافذ مفتوحة من أيّ شكل كان عدا عن فتحات الإضاءة الدّائرية الصّغيرة في الحائط الجنوبي لغرفة الطّعام؛ وطالما ظلّ المدخل الوحيد للدّير تحت الحراسة، فقد كان الدّير عملياً حصيناً.

في سنة 1257، أو حواليها، هزم ألفونسو العاشر أمير لبلة، وتبعاً لبعض الرّوايات أصبح عندها يحكم الإقليم المعروف باسم مملكة شلطيش التي تضمّ المُغر، وبلش (بالوس دي لا فرونتيرا)، وجبل العيون، وغيرها من المدن والقرى في تلك المنطقة. وتشير أقدم السّجلات التي بحوزتنا إلى أن مدينة المغر كانت تحت حكم عائلة تينوريو Tenorio وربما هم الذين منحوا دير دي لا لوث المستعربي إلى طائفة راهبات سانتا كلارا. وفي حوالي 1335 انتقلت هذه السّيادة عبر الزّواج إلى عائلة پورتوكارّيروس التي لديها روابط بكل من عائلتي تينوريو وپِنثون. ويتميّز أفراد عائلة پِنثون بسحنتهم التّوتونية، فكل أفراد الجيل الحالي منهم والمتفرعين عنهم لديهم عيون رمادية اللون والعديد منهم شعر بنّي.

يقول آل تينوريو وكذلك پورتوكارّيروس إنّهم من أصل قوطي، ويزعم آرغوتِه دي مولينا Argote de Molina وپيفّيرير Pifferer أنهما تعقّبا العائلتين إلى خوان ألفونسو دي بيناڤيدِس Juan Alfonso de Benavides الذي يصفه الكاتبان بأنه أحد أحفاد أحد ملوك ليون الأوائل. وإن كانا يختلفان فيما إذا كان هذا الملك ألفونسو السّابع أو التّاسع؛ فإنّهما يتفقان على أنّ مؤسس هاتين العائلتين كان نبيلاً من أصل عريق *hijo*

d'algo notorio de sangre. ونعتقـد أن هـذا النّبيل كان بالطّبع من أصل قوطي نبيل ولكنه لم يكن متفرّعاً من رودريك (لُذريق) أو من پيلايو الأسطوري، وإنما من ڤيتيتسا (غيطشة).

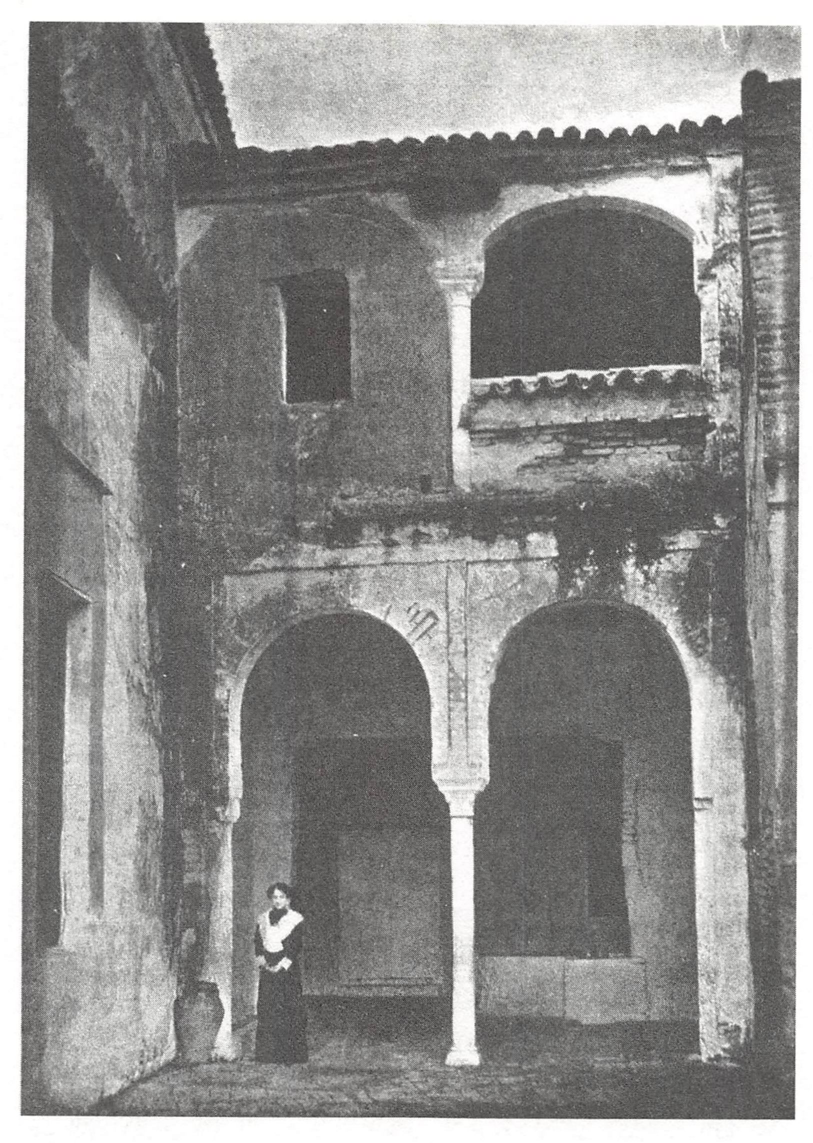
إنّ منـت ميـور (مونتِـه مايـور) Montemayor التي هـي اليوم مجرد قريـة صغيرة يقصدهـا النّاس لزيـارة صومعتها على بعد نحو ميل من المغـر، وردت بوصفها معقلاً للمولّديـن أثنـاء الحرب الأهلية في القرن التّاسـع[1]، وعذراء منت ميور هي القدّيسـة شفيعة المغر.

في سـنة 1349، وهب أسـقف شـلطيش ألڤـارو پيلايث Alvaro Pelaez (أبرشـية مسـتعربة اختفت منذ زمـن طويل) عطيّة إلى دير المغر[2] وربما اسـتخدمت هذه الهبة لتغيير الكنيسـة كما ورد أعلاه. ولكن لا توجد سـجلات رسـمية متوفّرة عن الدّير لأنّ صديقنا رئيس شمامسـة إشـبيلية، وبعد أن سـأل أمين السّـجلات في قصر الأسـقف، أخبرنـا أنه لا يُعرف شـيء هناك عن تأسـيس أو تاريخ القصر، وأنـه لا يمكن الحصول علـى أيّـة معلومات عن الموضوع. ونظراً للسّـجلات الموضوعة بعناية لكل مؤسّسـة دينية تأسست بعد الاسترداد في عام 1248، فإنّ غياب أيّة وثيقة تتعلّق بدير النّور تؤكّد أصله المسـتعربي Mozarabie، هذا عدا عن التّاريخ المنقوش على خشـبه والمحفور على حجارته.

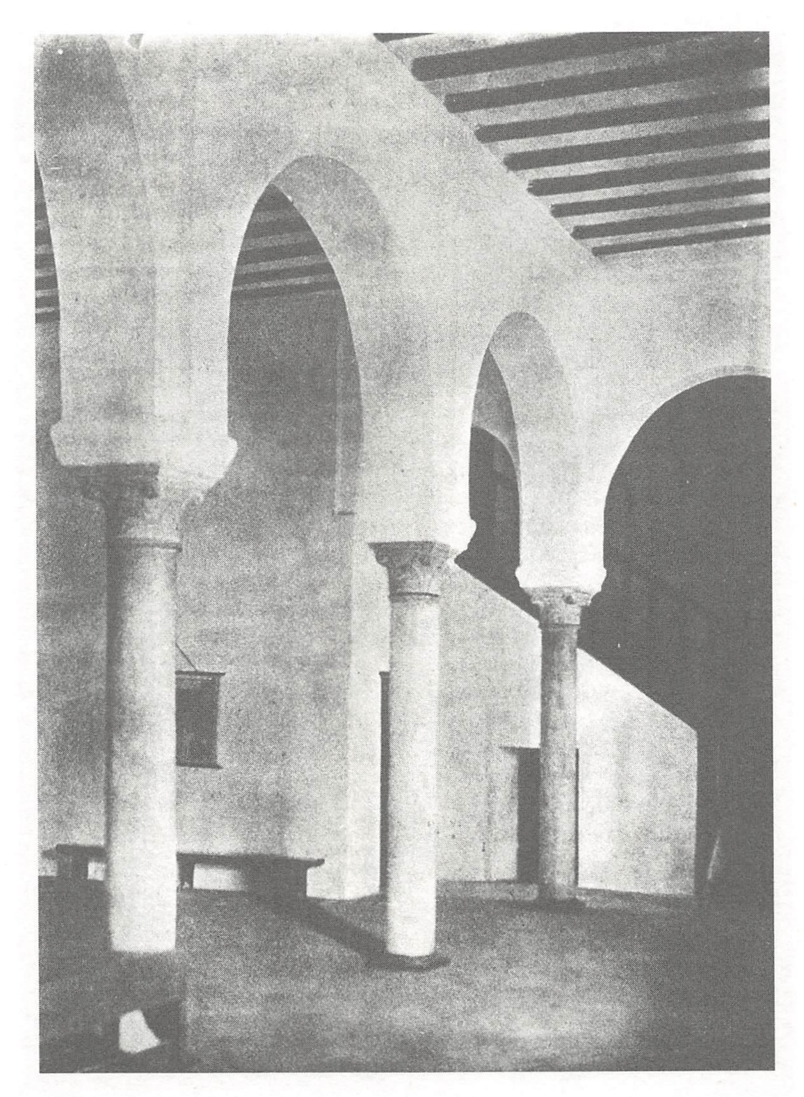


(1) Makkari, ii. 448.

(2) Zúñiga, ii. 120.



دير النّور (رقم 3). عقود عربية في «القسم الحديث».



دير النّور (الرقم 4). المستوصف العربي لأخوية راهبات «كلارِس الفقيرة».

مشجّرات أنساب

GENEALOGICAL TABLES

OF THE

DESCENDANTS OF WITIZA,

THE LAST LEGITIMATE KING OF THE GOTHS OF SPAIN.

TABLE I.

DESCENDANTS OF PRINCE ARTEBAS.

DESCENDANTS OF PRINCE ROMULO.

N.B.—Genealogies which are doubtful or based on presumptive evidence only, are marked by a note of interrogation.

WITIZA I. c. 701–11.

ALMAND (Seville). (See Tables II., III., IV., and V.)	ARTEBAS (Jaen). The first Count of the Christians. Treated by the Moslems as a ruling Prince. Held property from Guadajoz to Jaen and Almodovar. (See p. 57.)	ROMULO (Toledo).
	? |	? |
	? *Abu Said al Kumis*. (Makkari, ii. 415.)	*Jaafar Ibn Alfor, or Alfaro.* Judge of the Christians at Cordova. (Makkari, ii. 415.)
	? |	? |
		Family of Alfaro, who had the oldest chapel in the Visigothic church of St. Vicente in

Seville. (Zuñiga, iii. 264.) A sepulchral stone in Seville Cathedral is inscribed,
"Los de Alfaro
Son hijos de Algo."
A Plaza de Alfaro until recently was attached to the walls of the Alcazar, where the Sta. Cruz gate has been opened.

Count Alphons.
(Dozy, *G. der M.*, i. 366.)
|
Jaafar al Islami.
|
Omar Hafs.
|
Omar Ibn Hafsun Ibn Jaafar Ibn Arius.
"King" of Kashtelah and of Toledo, 913.
Possessed Archidona and Jaen. (Dozy, i. 366; Makkari, ii. 439; Conde, i. 295, 309, 332.)

- *Aurea.* A nun.
- *Suleyman.* Submitted to Abd. III. Killed in a skirmish, 927. (Dozy, *G. der M.*, i. 463.)
- *Jaafer.* Held Toledo, *c.* 930. (Makkari, ii. 135, 462.) Escaped when Abd. III. took city, and joined Christians of Galicia. (Conde, i. 377 ff.)
- *Abderrahman.* Submitted to Abd. III., 913. Settled in Cordova, and became a writer.
- *Hafs.* Killed, *c.* 927. (Dozy, i. 464.)

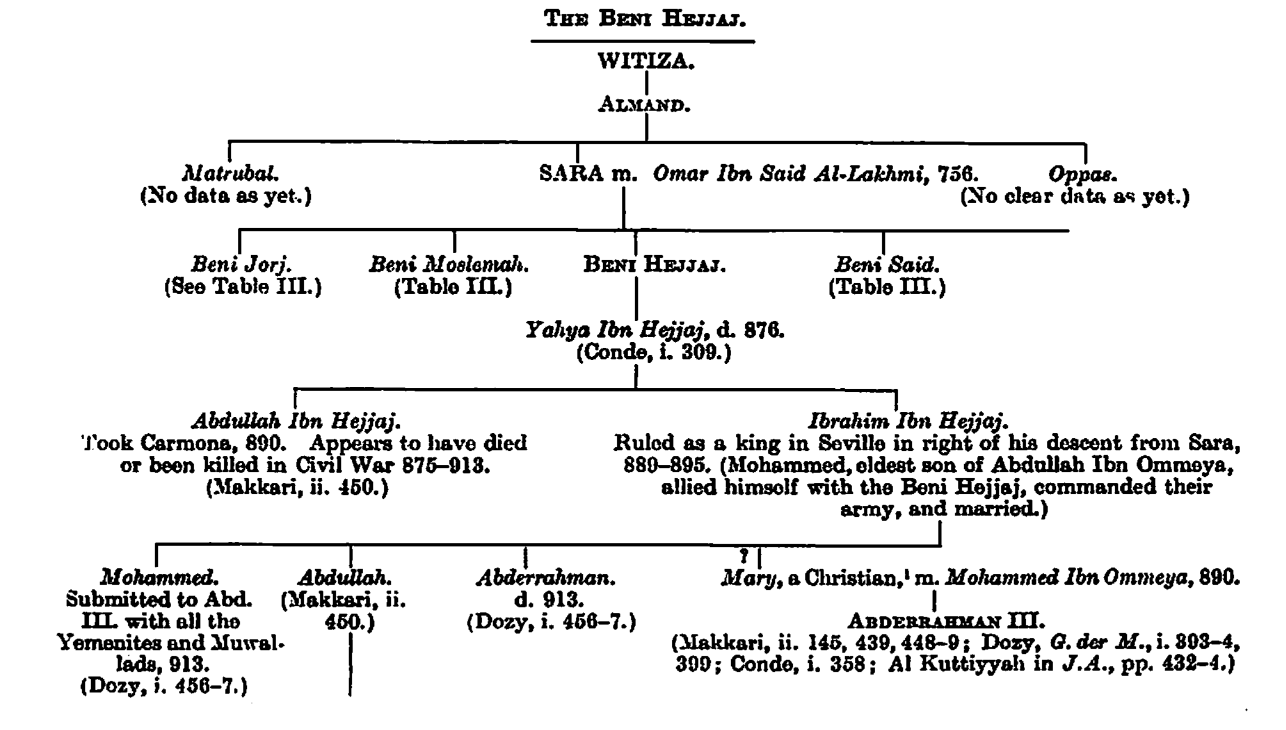
(from Jaafer:) ? |

Gonzalbo Ibn Yoannez (Joannes).
Ibn Sebrianes Ibn Hafzón.
Witnessed sale of a vineyard at Salancas, near Toledo, 1212.
(Pons, *Escrituras Mozarabes Toledanas*, p. 223.) Ayala says that all the Christians in Toledo, *hijos d'algo* and men of every other condition, were exempt from tribute throughout the Moslem occupation. (*Cronica del Rey Don Pedro*, i. pp. 62–3.) Ayala says this was a condition of the capitulation of the city to the Moslems, but probably it refers to the treaty made with Al-Walid in 711, by which Prince Romulo and his descendants were given Toledo for ever.

TABLE II.

DESCENDANTS OF PRINCE ALMAND THROUGH HIS DAUGHTER SARA AND OMAR IBN SAID AL LAKHMI.

THE BENI HEJJAJ.



?

? — ?

Isa Al-Esád Abu-l-Hejjaj.
Alime of Motamid, 1086.
(Conde, ii. 70.)

Romaik Ibn Hejjaj

Said Cubra Romaikkiyyah m. MOTAMID IBN ABBAD AL LAKHMI. King of Seville, 1064–91.

A member of Romaik's family, exact relationship uncertain. Highly educated. Was exiled with Motamid, and died in prison at Agmat, Morocco, c. 1095. (Al Marrakushi, 131; Conde, ii. 169.)

Obeidallah Ibn Hassan Ar-Rashid.
Cadi of Seville (Conde, ii. 64). An inscription formerly on the Church of St. Juan de la Palma in Seville states that the mother of Ar-Rashid built the tower for him. Ar-Rashid kept open house for rich and poor every Thursday, probably at a magnificent mansion, still inhabited, opposite the church where a rag-market is still held every Thursday, and called "The Fair of the Thursdays," after the Arabic custom.

Seraj-ad-Daulah.
Wali of Cordova. Killed at Medina Az-zahra during siege by Berbers and Mudarites under the Beni-Dhinnun of Toledo, c. 1084.

Several other sons and daughters.

Mohammed Ibn Hassan Fakr-ad-daulah Ibn As-Seraj.
Earned his living as a goldsmith in Africa during the imprisonment of his grandfather, Motamid.[2]

And six other children.

The Beni Seraj.
The "Abencerrajes" of the Christian writers. This family settled at Granada, and were loyal to the legitimate kings, the Beni Nasr, who were Yemenites like themselves. The endeavours of the so-called "Zegris" (the Beni Zeyr, descendants of the Berber family who ruled Granada in the eleventh century) to overthrow the Nasrites, and their intrigues and quarrels with the Beni Seraj, caused the final downfall of the kingdom in 1492. (Abbad., i. 109, 372; Al Marrakushi, 119; Conde, ii. 65; Fernandez y Gonzalez, *Museo Esp. de Antiguedades*, i. 67.)

[1] That Mary was of the Sevillian royal family appears probable; but as yet we have only presumptive evidence, set forth in Chapter IV., that this was so.

[2] Maker of the jewelled casket on which his name and that of his grandfather appear, now in the National Museum of Madrid (see p. 139).

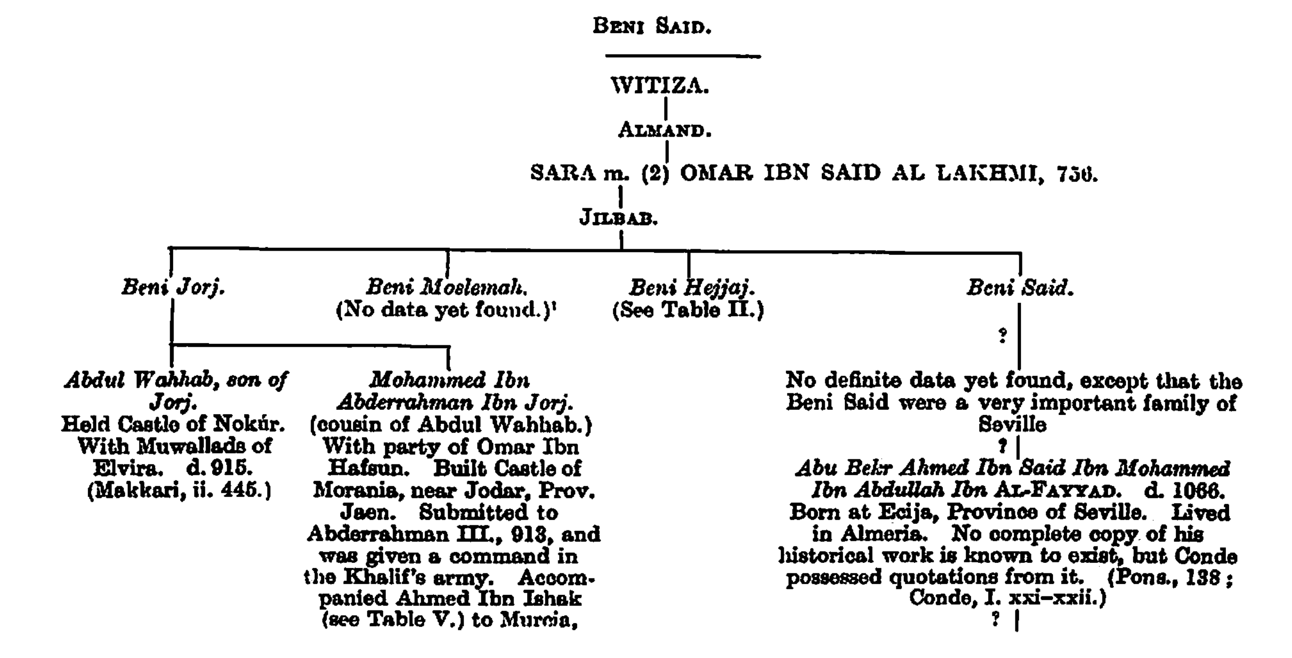
TABLE III.

DESCENDANTS OF SARA AND OMAR IBN SAID AL-LAKHMI.

BENI JORJ.

BENI MOSLEMAH.

BENI SAID.



and was killed at siege of Alicante. (Makkari, ii. 445.) The Castle of St. George at Triana, which bore that name under Islam, may have been built by this family.

[1] The Emirs of Badajoz in the eleventh century were known as of the family of *Al Aftas*; but their full names suggest that they were related to the Beni Moslemah, who sprang from the marriage of Sara with Omar Ibn Said Al Lakhmi. Gayangos gives them as follows (in Makkari, i. p. 369), but without mentioning their tribal name:—

Abdullah Ibn Moslemah.
Ruler of Badajoz and part of the Algarbe.
|
Abu Bekr Mohammed Ibn Abdillah Ibn Moslemah.
Succeeded his father, 1060–1.
|
Abu Mohammed Omar Ibn Mohammed Ibn Moslemah.
d. 1094.

(Cf. Tables, Makkari, II. lxxxvii. Dozy, *G. der M.*, ii. 422.)

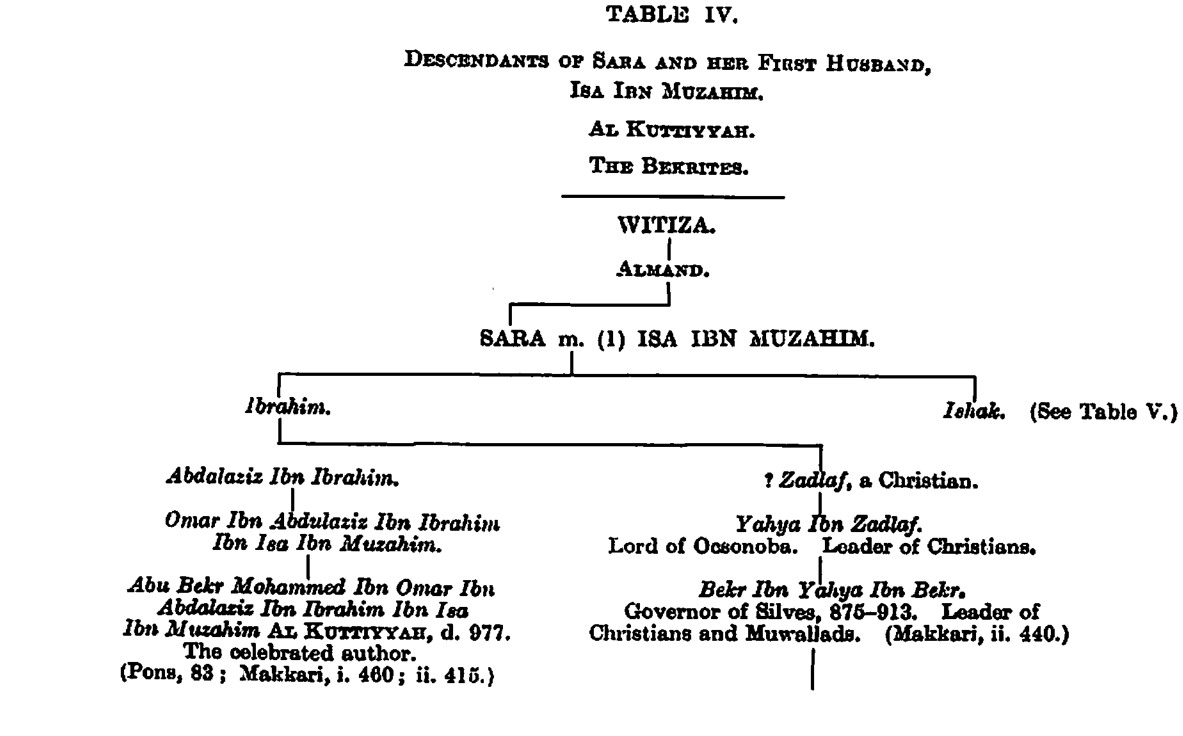
The Beni Said in the thirteenth century were an important family established since 1100 at Alcalá la Real (called Alcalá de Aben Zaide in the Cron. of Alfonso X.), and appear to have been closely connected with the Beni Said (Bekrites), who governed Silves in the eleventh century. Their genealogy, however, is not given in full in any chronology as yet translated.
? |
There is an important tribe in the Spanish zone in Morocco, called the *Beni Said.* They are fair-skinned with brown or chestnut hair, and pride themselves on being descended from the Goths of Spain. It appears probable that they were among the Yemenites driven out of Andalucia in 1009 or in the twelfth century. (Letter from Colonel Rabadán, Sanidad Militar, for several years editor of the *Boletin Hispano-Marroqui* of Ceuta.)
The chief of this tribe, which numbers about 25,000 members, was in 1893 *Si Mahommed Ar Raisuli*, a relative of the Sultan Muley Hafid, and of the Shereef of Wazan, whose mother is an Englishwoman. He had about 1000 soldiers of the Beni Said around his residence on the Wady Siffelán. (Gonzalo de Reparaz, *Politica de España en Africa*, pp. 123, 130.)
Some of the Beni Said near the frontier of Algeria have shown hostility to the Spanish troops at Melilla; but Ar Raisuli and the majority of his people have long been friendly to Spain.

TABLE IV.

Descendants of Sara and her First Husband, Isa Ibn Muzahim.

Al Kuttiyyah.

The Bekrites.



Abu Said Mohammed Ibn Ayub al Bekri.
Lord of Huelva, Ocsonoba, and Sta. Maria de Algarbe;
Kadi of Niebla, Governor of Saltis before 1009.
(*Dict. Islam*, 607.)

Abu Said Abdalaziz al Bekri.
Lord of Saltis and Huelva. Sold his heritage at
Saltis to Motadid. (Conde, ii. 32.)

Abu-l-Mosab Abdallah Ibn Abdalaziz, d. 1064. A captain in
Motamid's cavalry. Was by him made Governor of Niebla. (Conde, ii. 34;
Pons, 160; Dozy, *G. der M. Chron. Tables.*)

Abu Bekr Mohammed Ibn Isa Ibn Mohammed al Lakhmi Ibn al Lebbanah, d. 1113.
Brother of the geographer. Court poet and devoted adherent of Motamid Ibn Abbad. Resided in Almeria, but accompanied Motamid into exile in Africa, 1091. Died in Mallorca. (Pons, 172; Al Marrakushi, 126.)

Abdallah Ibn Abdalaziz Ibn Mohammed al Bekri, d. 1094.
The celebrated geographer. Lived in Almeria. Attended Motamid as Ambassador of the Amir of Almeria on his African Expedition, 1085–6. (Pons, 160; *Dict. Islam*, 607.)

Note to Table IV.—It may be worth remarking that two of the first chiefs of the Almoravides figuring in history —who, according to some authorities, claimed descent from the Arabs of Yemen—were called Abu Bekr Ibn Omar and Yahya Ibn Omar. The *Dict. of Islam* (p. 318) gives the Sanhaja, founders of the Almoravide kingdom, as a Sahara tribe from the Sudan, and the chief who first sought education for his tribe was called Yahya Ibn Ibrahim. In the uncertainty that still prevails as to the antecedents of these rulers, it is interesting to note that the first four names we meet with among them are among those of Al Kuttiyyah, also of Yemenite extraction.

TABLE V.

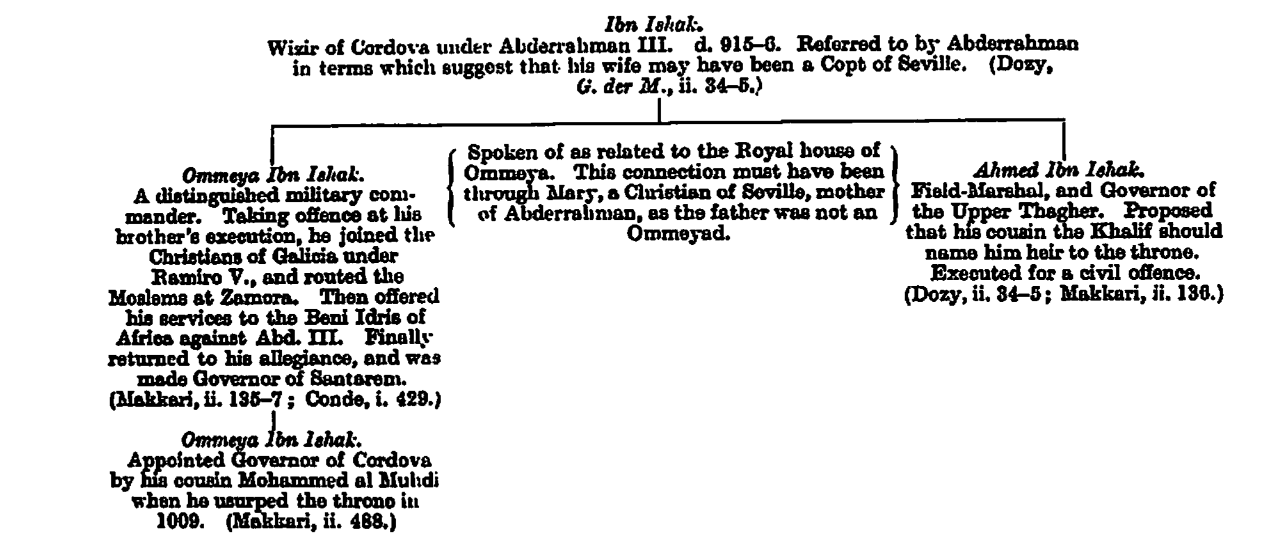
Descendants of Sara and her First Husband, Isa Ibn Muzahim.

The Beni Ishak.

WITIZA.
|
ALMAND.
|
SARA = m. (1) ISA IBN MUZAHIM, d. before 756. (Tribe not stated, but apparently a Lakhmite. See Table IV., *Al Lebbanah.*)

Children:

- *Ibrahim.* (See Table IV.)
- ISHAK.
  - *Deysam Ibn Ishak*
    Ruled Lorca and Murcia and rebelled against Abdullah Ibn Ommeya in the Civil War, end of ninth century. Praised by the poet Obaydis. (Makkari, ii. 439.)


Ibn Ishak.
Wizir of Cordova under Abderrahman III. d. 915–6. Referred to by Abderrahman in terms which suggest that his wife may have been a Copt of Seville. (Dozy, *G. der M.*, ii. 34–5.)
Spoken of as related to the Royal house of Ommeya. This connection must have been through Mary, a Christian of Seville, mother of Abderrahman, as the father was not an Ommeyad.
Ommeya Ibn Ishak.
A distinguished military commander. Taking offence at his brother's execution, he joined the Christians of Galicia under Ramiro V., and routed the Moslems at Zamora. Then offered his services to the Beni Idris of Africa against Abd. III. Finally returned to his allegiance, and was made Governor of Santarem. (Makkari, ii. 135–7; Conde, i. 429.)
Ommeya Ibn Ishak.
Appointed Governor of Cordova by his cousin Mohammed al Muhdi when he usurped the throne in 1009. (Makkari, ii. 488.)
Ahmed Ibn Ishak.
Field-Marshal, and Governor of the Upper Thagher. Proposed that his cousin the Khalif should name him heir to the throne. Executed for a civil offence. (Dozy, ii. 34–5; Makkari, ii. 136.)

ثبت مراجع المؤلّفين

BIBLIOGRAPHY

The following are the principal works and editions referred to in the text:—

Akhbar Majmua, Tr. EMILIO LAFUENTE (*Real Academia de la Historia*), Madrid, 1867.

ATHIR, IBN AL, *Annales du Maghreb et de l'Espagne*, Tr. E. FAGNAN, Algiers, 1901.

BUTLER, A. J., *The Arab Conquest of Egypt*, Clar. Press, 1902.

CASIRI, *Bibliotheca Arabico-hispana*, 2 vols.

CHAMBERLAIN, H. S., *The Foundations of the Nineteenth Century*, 2 vols., John Lane, 1911.

CODERA, F., *Estudios criticos de historia árabe-española*, Zaragoza, 1903.

CODERA, F., *Decadencia y desaparicion de los Almoravides en España*, Zaragoza, 1899.

CONDE, J. A., *Historia de la dominacion de los Arabes en España*, 3 vols., Madrid, 1820.

Crónica general, primera, Estoria de España que mandó componer Alfonso el Sabio, ed. R. MENENDEZ PIDAL, Madrid, 1906.

Crónica general de España, vols. VII. and VIII. by MORALES, Madrid, 1791.

Crónica general de España, vol. XIII. by SANDOVAL, Madrid, 1792.

Crónica del Rey Don Pedro, by P. LOPEZ DE AYALA, Madrid, 1799.

DOZY, R., *Geschichte der Mauren in Spanien*, 2 vols., Leipzig, 1874.

DOZY, R., *Recherches sur l'histoire et la litterature d'Espagne pendant le moyen âge*, 2 vols., Leyden, 1860.

DOZY, R., *Dictionnaire détallé des Noms des Vêtements chez les Arabes*, Amsterdam, 1845.

DOZY, R., *Historia Abbaditarum*, 3 vols., Leyden, 1846–63.

Encyclopedia of Islam, ed. HOUTSMA & SELIGSOHN, Leyden and London (in course of publication).

España Sagrada, ed. FLOREZ, 34 vols., Madrid, 1754–84.

ESPINOZA, *Historia antigüedades y grandezas de Sevilla*, Seville, 1627.

FISCHBACH, F., *The most important Textile Ornaments up to the XIXth Century*, Maintz, 1910.

GAYET, AL, *L'Art Copte*, Paris, 1902.

GAYET, AL, *L'Art Arabe*, Paris, n.d.

GAYET, AL, *Le costume en Egypte du 3me au 18me siècle*, Paris, 1900.

GIBBON, *Decline and Fall*, 8 vols., London, 1888.

GUDIOL, J., *Nocions de Arqúeologia sagrada Catalana*, Vich, 1902.

IDRISI, *Descripcion de España*, tr. A. BLASQUEZ, Madrid, 1901.

KUTTIYYAH, AL, *Histoire de la conquête d'Espagne par les Musulmans*, tr. M. A. CHERBONNEAU, *Journal Asiatique*, Nov.–Dec., 1856.

LANE-POOLE, S., *The Moors in Spain* (*Story of Nations*), Unwin, 7th ed., 1897.

LEA, H. C., *The Moriscos of Spain*, Philadelphia, 1901.

LEA, H. C., *History of Sacerdotal Celibacy*, 3rd ed., 2 vols., New York, 1907.

LENORMANT, *Manuel d'Histoire ancienne de l'Orient*, Paris, 1869.

MAKKARI, AL, *History of the Mohammedan Dynasties in Spain*, tr. and ed. P. DE GAYANGOS, 2 vols., Oriental Translation Fund, 1840.

MAKRIZI, *Histoire d'Egypte*, tr. E. BLOCHET, Paris, 1908.

MARIANA, *Historia general de España*, ed. E. CHAO, 5 vols., Madrid, 1848.

MARRAKUSHI, AL, *Histoire des Almohades*, tr. E. FAGNAN, Algiers, 1893.

MORGADO, J. A., *Prelados Sevillanos*, Seville, 1899.

PALOMO, F., *Historia de las Riadas del Guadalquivir*, Seville, 1878.

PETRIE, W. M. FLINDERS, *Egyptian Decorative Art*, Methuen, 1895.

PINEDA, *Memorial para la canonizacion del Rey Fernando III.*, Seville, 1627.

PONS, F., *Historiadores y Geógrafos arábigo-españoles*, Madrid, 1898.

PONS, F., *Escrituras Mozárabes Toledanas*, Madrid, 1897.

REMIRO, M. G., *Historia de Murcia musulmana*, Zaragoza, 1905.

RIOS, AMADOR DE LOS, *Inscripciones árabes de Sevilla*, Madrid, 1875.

RODRIGUEZ, M., *Memorias para la vida de Fernando III.*, Madrid, 1800.

SCHOTT, *Hispania illustrata*, 5 vols., Frankfort, 1603.

SERRANO, M., *Glorias Sevillanas*, Seville, 1893.

SERRANO, M., *Tradiciones Sevillanas*, Seville, 1895.

SHARP, MARY, *Point and Pillow Lace*, 2nd ed., Murray, 1905.

SIMONET, L. J., *Historia de los Mozárabes*, Madrid, 1903.

STRABO, *Geography*, Bohn's trans., 3 vols., 1854.

WATTS, H. E., *Spain (Story of Nations)*, 3rd ed., Unwin, n.d.

WILLIAMS, LEONARD, *The Arts and Crafts of Older Spain*, 3 vols., Foulis, London and Edinburgh, 1907.

ZUÑIGA, *Anales de Sevilla*, 5 vols., Madrid, 1795.

مراجع التّحقيق

«أخبار مجموعة في فتح الأندلس»، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، الطّبعة الثّانية، 1989.

الإدريسي: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، مطبعة بريل، لايدن 1863.

ابن بسّام الشّنتريني، أبو الحسن علي: «الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثّقافة، بيروت 1979.

التّميمي المرّاكشي، محيي الدّين أبو محمّد عبد الواحد بن علي: «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، مطبعة بريل، لايدن 1881.

الحميدي، الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبي نصر: «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس»، الدار المصرية للتأليف والنّشر، القاهرة 1966.

ابن خلدون: «كتاب العِبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيّام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر». ضبط النّص خليل شحادة، دار الفكر، بيروت 2000.

الذّهبي، الحافظ شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان: «تاريخ الإسلام»، تحقيق: د. عمر عبد السّلام تدمُري، دار الكتاب العربي، بيروت 1990.

الذّهبي، الحافظ شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان: «سير أعلام النّبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - بشار عوّاد معروف، حسين الأسد، مؤسّسة الرّسالة، بيروت 1982.

العماد الأصبهاني: «خريدة القصر وجريدة العصر»، تحقيق: شكري فيصل، أحمد أمين، إحسان عبّاس، شوقي ضيف، محمد المرزوقي، محمّد العروسي المطوي، محمد بهجة الأثري، جميل سعيد، عدنان محمّد آل طعمة. مجمع اللغة العربية بدمشق 1955 – 1968، دار الكتب المصرية 1951، الدار التونسية للنشر 1986.

ابن القُوطيّة: «تاريخ افتتاح الأندلس»، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، 1989.

المقّري: «نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب»، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، 1988. ثمانية أجزاء والفهارس.



محتويات الكتاب



إسپانيا العربيّة
(الأندلس)

يرى المؤلفان أنّ تاريخ الأندلس، أو إسبانيا تحت الحكم الإسلامي، هو تاريخ لم يُكتب بعد. فالمواد المتوفرة بكميات كبيرة لا يزال معظمها في مخطوطات. وبالمقارنة، لم يُترجم سوى عدد قليل فحسب من النّصوص العربية القليلة التي تم نشرها بأيّ من اللغات الأوروبية. وإلى أن يتم إخراج كل هذه الوثائق القيمة المتعلقة بإسبانيا والمخبأة حاليا في مكتبة الإسكوريال Escorial وفي مكتبات أوروبية أخرى وكذلك في مصر والمغرب، إلى أن يتم إخراجها إلى النّور ونشرها، فلا بدّ أن يتم التّعامل مع كل ما يقال عن تلك الفترة الأكثر أهمية من التّاريخ بوصفه مؤقتا وقائماً إلى حدّ كبير على الحدس والتّخمين. وهما يضيفان في المقدّمة:

لم نكد نصل إلى إسبانيا حتى لاحظنا أنّ الفنّ الإسلامي العائد للفترات الأولى في إشبيلية، كان مختلفاً بصورة ملفتة عن الفنّ الإسلامي الأول في قرطبة. لم نجد أحداً قادراً على أن يشرح لنا سبب ذلك. ولقد تطلّب الأمر ثماني سنوات من الدّراسة لنتوصّل إلى الاستنتاجات المطروحة في هذا الكتاب. ورغم الإعاقة التي واجهناها بسبب جهلنا باللغة العربية، فقد تمكنا مع ذلك، كما نعتقد، من تسليط الضّوء على فترة غير مكتشفة من تاريخ إسبانيا. ونأمل أن يتم قبول دراساتنا بوصفها نقطة علام تشير إلى طريق مليء بالمحطّات المبهرة للمهتمّين بدراسة الفترة الأولى من التّاريخ الإسلامي، والفترة الأولى من فنّ القرون الوسطى في إسبانيا.

السعر 65 درهماً





